لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد

نورمان ل. جايسلر

فرانك تورِك

"واضح، متكامل، شديد الإقناع والجاذبية. هذا المرجع الرائع يساعد كلاً من المسيحيين ومَن لا يزالون في رحلة البحث في فهم الأساس العقلاني للمسيحية. لو كان متاحًا عندما كنت ملحدًا، لوَفـَّر الكثير من الوقت في مسيرتي الروحية نحو الله".

لي ستروبل *Lee Strobel*

مؤلف كتاب "القضية المسيح" *The Case for Christ* وكتاب "القضية الإيمان" *The Case for Faith*

"هذا الكتاب الشيق السلس يَسوق الحجج والأدلة المؤيِّدة للمسيحية ببراعة فائقة بدءًا بمسألة الحق وانتهاءً بوحي الكتاب المقدس. والخلاصة: المسيحي يقف على تلال من الأدلة الراسخة، بينما المتشكك لا يتشبث إلا بإيمانه الأعمى المتصلب. فإن ظللتَ متشككًا بعد قراءة كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد"، فإني أشك أنك تعيش حالة من الإنكار".

چوش ماكدول *Josh McDowell*

متحدث ومؤلف كتاب "برهان جديد يتطلب قرارًا" *Evidence That Demands a Verdict*

"جَمَعَ "جايسلر" و"تورِك" مجموعة ضخمة من الأسئلة الشائكة، وكدأبهما دائمًا، أجابا عنها بمهارة وبصيرة ثاقبة. إن هذا العمل يمثل إضافة قيِّمة للكتابات المعاصرة في الدفاعيات المسيحية".

رافي ك. زكراياس *Ravi K. Zacharias*

رئيس هيئة "**خدمات رافي زكراياس الدولية**" *Ravi Zacharias International Ministries*

"حقـًا إن الإلحاد يتطلب كميات من الإيمان الأعمى، في حين أن طريق المنطق والعقل يقود مباشرةً إلى إنجيل يسوع المسيح. وهو ما يُبَيِّن أسبابَه كلٌّ من "نورمان جايسلر" و"فرانك تورِك" على نحو شديد الإقناع".

فيليپ إي. چونسون *Phillip E. Johnson*

مؤلف كتاب "محاكمة داروين" *Darwin on Trial*، **وكتاب "العقل في الميزان"** *Reason in the Balance*، **وكتاب "وتد الحق"** *The Wedge of Truth*

"كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" سيحثك ويشجِّعك على مجاوبة كل من يسألك عن سبب الرجاء الذي فيك، ويُمَكِّنك أن تفعل ذلك بوداعة وخوف".

هانك هانجراف *Hank Hanegraaff*

رئيس معهد البحث المسيحي *The Christian Research Institute*، **ومقدِّم البرنامج الإذاعي "الكتاب المقدس يجيب أسئلة الإنسان"** *Bible Answer Man*

"لا يمكن للأدلة، مهما كثرت، أن تُحَوِّل الشخص من عدم الإيمان إلى الإيمان. فهذا العمل لا يفعله إلا الله وحده. إلا أن ما فعله "نورم جايسلر" و"فرانك تورِك" في هذا الكتاب يجب أن يزعج أي شخص يزعم أنه ملحد... ولعل ما فعلاه يكفي لإقناعه أن يبدأ رحلة بحث عن الإله الموجود طوال الوقت".

كال توماس *Cal Thomas*

كاتب عمود حر ومقدِّم برنامج "بعد ساعات العمل" *After Hours* على "قناة فوكس نيوز" *Fox News Channel*

"إن الأفكار الزائفة التي تستهدف تقويض أساس الإيمان المسيحي وهدمَه دائمًا ما تلقي قذائفها على طلاب المدارس الثانوية وطلاب الجامعة. وهذا الكتاب يقدم ترياقًا واقيًا فعالاً ضد هذه الأفكار الخاطئة. في هذا الكتاب يستعرض "جايسلر" و"تورِك" معلومات ضرورية لا غنى عنها تحمي من الانجراف في تيارات الأيديولوجيات العلمانية التي تُصَوِّر العلم، والفلسفة، والدراسات الكتابية على أنها أعداء للإيمان المسيحي".

وليم أ. دمبسكي *William A. Dembski*

مؤلف كتاب "ثورة التصميم" *The Design Revolution*

"يُعَدّ كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" من روائع "نورمان جايسلر". إنه دفاع منطقي، عقلاني، فكري عن الإيمان المسيحي بالاشتراك مع "فرانك تورِك". وهو كتاب "لا غنى عنه" لكل فيلسوف محترف أو هاوٍ".

جون أنكربرج *John Ankerberg*

كاتب ومقدِّم "برنامج جون أنكربرج" *The John Ankerberg Show*

"أي شخص يمكنه أن يفهم الشرح الواضح وضوح الشمس المقدَّم في هذا الكتاب عن الأخلاق باعتبارها إشارة لله في حد ذاتها. فالملحدون قد يعتقدون في القانون الأخلاقي، إلا أنه يستحيل أن يبرروا اعتقادهم بدون الله".

ج. بودچيشفسكي *J. Budziszewski*

ملحد سابق، أستاذ دراسات الحكم والفلسفة، جامعة تكساس في أوستن، مؤلف "ما لا نستطيع أن نجهله" *What We Can't Not Know*

لا أملك

الإيمان

الكافي

للإلحاد

نورمان ل. جايسلر

فرانك تورِك

الطبعة العربية الأولى

٢٠١٧

لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد

I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist

تأليف : نورمان ل. جيسلر فرانك تورك

ترجمة : ماريان كتكوت

تحرير : عصام خليل

الغلاف : سامر ناشان

الناشر : دار الإخوة للنشر

يُطلب من : مكتبة الإخوة ٣ش أنجه هانم - شبرا - مصر ت: ٢٥٧٩١٢٤٨

بريد الكتروني: *BrethrenPub@gmail.com*

www.brethrenbookshop.com/

وفروعها: مصرالجديدة : ٦٥ش نخلة المطيعي – تريومف ت: ٢٢٩٠٤٠٠٣

الإسكندرية : ٦ش الفسطاط - كليوباترا ت: ٥٤٦٥٣٦٦

المنيا : ٦ش الجيش ت: ٣٦٤٤٠٦

أسيوط : ٢١ش عبد الخالق ثروت ت: [illegible]

ومن المكتبات المسيحية الكبرى

طبع بمطبعة الإخوة بجزيرة بدران

Printed in Egypt

معلومات الفهرسة أثناء النشر

جايسلر، نورمان ل.

لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد/ نورمان ل. جايسلر، فرانك تورك

.- ط١.- القاهرة: دار الإخوة للنشر، ٢٠١٧

٤٨٠ ص؛ ٢٤ سم.

تدمك: ٨- ٣٠٠ - ٣٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١- الإيمان (المسيحية)

٢. الكتاب المقدس ٢٧٣,٤٢

أ. تورك، فرانك (مؤلف مشارك)

ب. العنوان

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٤٧٣ التاريخ: ٢٠١٧/١/١٠

ISBN 978-977-321-300-8

This book was first published in the United States by Crossway Books, a division of Good News Publishers 1300 Crescent Street Wheaton, Illinois 60187 with the title **I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist**, *copyright © 2004 Norman L. Geisler and Frank Turek. Translated by permission.*

مقدمة الطبعة العربية

ما يعتقده الإنسان عن الله يشكِّل كل حياته ويحدِّد نظرته لكل ما في العالم. فمنه يدرك من أين أتى وإلى أين يمضي، ومنه يكتسب معنى الحياة وهدفها وأسلوبها والمبادئ التي تحكمها. لذا لزم لكل عاقل أن يجيب على أسئلة من قبيل: هل الله موجود؟ كيف أعرفه وأصل إليه؟ ما الذي يرضيه؟ كيف يتعامل مع الإنسان؟ ...

ولزمن طويل، في ثقافتنا الشرق أوسطية، لم تكن الأغلبية تحتاج لأن تسأل السؤال الأول وما يشبهه. فقد كان وجود الله من المسلّمات التي يبدأ التفكير بعدها في باقي الأسئلة. بل إن البعض كانت مسلَّماتهم تكفيهم عن البحث في موضوع "الله" بجملته. لكن الأحوال تبدَّلت لعوامل كثيرة في السنوات الأخيرة. وظهرت الحاجة المُلِحة للبحث في هذا الموضوع بأكثر تدقيق وإخلاص وأمانة، وبدءًا من السؤال الأول.

وكتابنا هذا **"لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد"** هو أحد الكتب الجادة المتميزة الشاملة السلسة في هذا المضمار. إنه كتاب "مستعد للمجاوبة" بلغة بطرس الأولى ٣: ١٥؛ وسيساعد القارئ أن يكون هو أيضا كذلك.

فكاتبا الكتاب، وهما من المختصين ولهما العديد من الكتب في هذا المجال، ينتهجان أسلوبًا علميًا منطقيًا في معالجة الأمر. بداية من إثبات أن هناك "حق" ينبغي البحث عنه، وما عكسه هو الضلال. ثم يصحبانا بسلاسة ووضوح ليستعرضا، الحجة تلو الأخرى، لإثبات "الحق" الخاص بوجود الله خالق الكون وحافظه. ويستعرض الكتاب النظريات البديلة لوجود خالق ويفنِّدها ببراعة، وبلغة يفهمها المختص وفي الوقت نفسه لا تستعصي على غير المختص. إنه يتحدى الذين نادوا بأزلية الكون، ثم يتحدّى التطوريين، بالعلم الموثَّق

وبالمنطق السليم. ويثبت أن الإيمان بالله، في صفِّه ما يكفي من أدلة لا تترك مكانًا للشك فيه، بينما الثغرات التي على الإلحاديين والتطوريين أن يواجهونها يعوزها الكثير من الإيمان الأعمى الذي لا يستند على دليل لقبولها. إنه يتركهم وقد علموا أنهم يحتاجون إيمانًا أكثر ليصدقوا ما يعتقدون فيه.

ثم يغوص الكاتبان صوب نظرة المسيحية عن الله، وقلب إيمانها. ليصل إلى من هو المسيح، كلمة الله المتجسد، وحُجّية الكتاب المقدس، كلمة الله المكتوبة. ويخلص إلى لزوم قبول الكلمة المتجسد مُخَلِّصًا، والخضوع للكلمة المكتوبة، الكلمة الحية.

وفي نهاية الكتاب مجموعة ملاحق موضوعية هامة. وللمهتمين بالاستزادة والراغبين في بحث أكثر تعمقًا، يوجد توثيق للمراجع التي استند إليها الكاتبان، وفهرس للموضوعات والأعلام الواردة بالكتاب، وأخيرًا فهرس بالشواهد الكتابية.

وقد أضفنا في الطبعة العربية العديد من الحواشي أسفل الصفحات لتوضيح بعض المعاني لاصطلاحات متخصصة أو غير شائعة في ثقافتنا لنضمن وصول المعنى كاملاً لكل من يقرأ هذا الكتاب.

ونحن نشكر الرب كثيرًا على توفيقه لنا لنقدِّم هذا الكتاب المتميِّز للقارئ باللغة العربية. كما نشكر كل من شارك بشكل أو آخر لإخراجه بالصورة التي بين يديك.

نتركك الآن مع هذا الكتاب الذي نثق أنه **سيضيف إليك الكثير، وسيغيرِّ من نظرتك لأمور هامة.**

الناشر

المحتويات

تقديم

بصفتي شخصًا أتى للمسيح بعد سنوات من الشك، فإني عاشق بوجه خاص للدفاعيات المسيحية، ومولع بها. والأدلة وفيرة على صدق الكتاب المقدس، وعلى سلطة الكتاب المقدس باعتباره كلمة الله الموحى بها، وعلى أن الكتاب المقدس يصوِّر ما يتناوله من أحداث تاريخية تصويرًا دقيقًا، بما في ذلك حياة يسوع المسيح على الأرض. ومن المؤكَّد أننا نملك البرهان القوي والمقنع على صحة المسيحية، وأن الله الثالوث الذي يعلن نفسه في صفحات الوحي هو إله الكون الواحد الوحيد، وأن المسيح مات عن خطايانا لكي يمنحنا الحياة.

والبرهان، بالطبع، ليس بديلاً للإيمان اللازم لخلاصنا ولشركتنا مع الله. وفي الوقت نفسه دراسة الدفاعيات لا تُقلل من قدر إيماننا، بل تُزيده قوةً، وتزوده بالمعرفة، وتدعمه، وتعيد له حيويته. ولو لم تكن كذلك، لَما قال الكتاب المقدس «مستعدين دائمًا لمجاوبة* كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم» (١بط٣: ١٥).

"**لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد**" هو أفضل كتاب رأيته لإعداد المؤمنين لتقديم أسباب منطقية لإيمانهم، وللمتشككين المنفتحين على الحق. وهو يُعَدّ أداة كرازية لا غنى عنها، ولا سيما في التعامل مع غير المؤمنين الذين يواجهون حواجز "فكرية" تعيقهم عن الإيمان. وكما نعلم، عادةً ما تمثِّل العوائق الفكرية مجرد ذريعة لغير المؤمنين، ولكنك عندما تُنْزَع مادة هذه الذريعة يجدون أنفسهم عرايا في مواجهة عوائقهم، أو شياطينهم، الحقيقية.

ولكني أؤمن بوجود سبب آخر مهم وراء الوصية الكتابية بأن نكون "مستعدين" للمجاوبة. فهي ليست لمساعدتنا في توصيل الإنجيل بفاعلية فحسب. ولكن الاستعداد

---

* الكلمة في اليونانية هي *apologia* وتعني وفقًا لقاموس *Thayer's Greek-English Lexicon of the New Testament*: دفاع شفهي، أو حجة منطقية. (المترجمة)

يزودنا أيضًا بالأدوات اللازمة لمقاومة الشكوك المُلِحَّة التي نواجهها في لحظات الضعف. فهو يقوّي إيماننا لأنه يحشد الأدلة على صحة المسيحية.

ومَنْ يَشكّ أننا بحاجة لمزيد من التسلح بالأدلة، سواء لمساعدتنا على الكرازة بشكل أفضل، أم لتقوية إيماننا؟ ألا يكفي الصراع مع تجارب الجسد حتى نواجه أيضًا مؤثرات سلبية خارجية بصفة يومية؟ وفي العصر الحديث تزداد هذه المؤثرات خبثًا وخطورةً، كما حذرنا الكتاب المقدس.

ففي الماضي كان على غير المؤمنين أن يقرروا ما إذا كانت المسيحية هي الديانة الوحيدة الصحيحة، أو ما إذا كانت هناك أي ديانة صحيحة من الأصل، أو ما إذا كان الله موجودًا. ولكنهم بوجه عام لم يضطروا أن يواجهوا مسألة ما إذا كان هناك شيء اسمه الحق أم لا.

ولكن ثقافة ما بعد الحداثة *postmodern* الحالية استهزأت بفكرة الحق أيمّا استهزاء. فهي تُعَلِّم بأن الحق والأخلاق أمور نسبية، حتى إنه ليس هناك ما يُطلق عليه الحق المطلق. ومن وجهة نظر النخبة المثقَّفة التي تسيطر على جامعاتنا وعلى التيار الإعلامي السائد، تُعتبر هذه الأفكار مستنيرة وتقدمية، رغم أننا جميعًا نفهم حدسيًا أن الحق المطلق موجود، بل إننا جميعًا ندير حياتنا طبقًا لذلك الإدراك.

وإن التقيت بأحد هؤلاء العباقرة الذين يملؤهم اليقين بأن الحق منتَج اجتماعي يحدِّده أصحاب السلطة حتى يظلوا في السلطة، اسأله إن كان يود اختبار نظريته بالقفز من أعلى مبنى في المنطقة. ويمكنك أيضًا أن تختبره في قانون عدم التناقض *Law of Noncontradiction*. اسأله إن كان يعتقد أن شيئين متناقضين يمكن أن يكونا صحيحين في آن. وإن كان له من الخداع الفكري ما يمكّنه أن يقول "نعم"، اسأله عن مدى يقينه بعدم وجود الحق المطلق: هل يقينه مطلق؟

نعم، الحقُّ من ضحايا ثقافتنا الرائجة. وعندما يمضي الحق، تتزعزع سلطة الإنجيل لأن الإنجيل يخبرنا بكل شيء عن "الحق". واليوم يمكننا أن نرى أدلة على ذلك في كل مكان. فالأفكار الحديثة من "قبول الاختلاف *tolerance*" و"التعددية *pluralism*" تمثِّل نتيجة مباشرة لهجوم الثقافة على الحق.

والعلمانيون الليبراليون يصرون على أن قبول الاختلاف هو الفضيلة العليا. إلا أنهم لا يخبرونك بما يقصدون بمفهوم "قبول الاختلاف". ففي نظرهم، قبول الاختلاف لا يقتصر فقط

على معاملة مَن يعتنقون أفكارًا مختلفة باحترام ورقي. ولكنه يعني تأكيد أفكارهم بوصفها أفكارًا منطقية مقبولة، وهو ما لا يمكن للمسيحي فعله إلا إذا رفض معتقداته. فإن قَبِلتَ مثلاً مَنْعَ الكتاب المقدس لسلوك المثلية الجنسية باعتباره خطية، لا يمكنك أن تؤكد في الوقت نفسه أن ذلك السلوك ليس خطية.

ولكن العلماني في عصر ما بعد الحداثة ليس مضطرًا لمواجهة هذه الأسئلة؛ لأنه يرفض فكرة الحق المطلق وقانون عدم التناقض. ولكن كل ما يستطيع أن يفعله أن يستمر في طريقه منتشيًا وهو يضفي مسحة أخلاقية أمام الجميع على مفهوم قبول الاختلاف، دون أن يضطر إطلاقًا أن يشرح التناقضات الأصيلة الكامنة في آرائه.

إلا أن الغش الذي يمارسه باعة قبول الاختلاف ينكشف عندما ترى أنهم لا يعيشون ما يعظون به، على الأقل مع أولئك المسيحيين المزعجين المعاندين. فهم يرفضون مطلقًا أن "يقبلوا" الفرضية المسيحية القائلة بأن يسوع المسيح هو الطريق، والحق، والحياة. وذلك لأن اعترافهم بها يفند حتمًا مفهومهم عن قبول الاختلاف الذي يقضي بأن كل الأفكار على نفس المستوى من الامتياز. ولكنهم عندما يتعاملون مع المسيحيين يختلقون استثناء لإصرارهم على قبول الاختلاف على نحو شامل، بقدرتهم اللامتناهية على الخروج من المواقف الصعبة.

فهم يرون أن مزاعم المسيحية بأن الحق ينحصر فيها تتجاوز حدود المقبول، فهي مزاعم في غاية السوء حتى إنها تُجَرِّد المسيحيين من حقهم في نيل قبول الآخرين لهم. فمثلاً أحد المسؤولين العلمانيين في إحدى الجامعات اتخذ إجراءً تأديبيًا ضد أستاذة محافِظة لأنها عرَّضت طلابها لنصوصٍ ذات وجهة نظر مسيحية، وكان منها مقال عن الكيفية التي يجب أن يتعامل بها المدرسون مع المثلية الجنسية. وقال المسؤول: "لا يمكننا أن نقبل أو نحتمل ما لا يمكن احتماله". ويمكننا الآن أن نرى كيف يسهل على هذه النوعيات أن تَنْسَلّ من المواقف التي تجد نفسها فيها بلا دفاعات. فكل ما يفعلونه أنهم يحركون عارضتي المرمى. والغريب أنهم يقولون إن الحق أمر يحدِّده أصحاب السلطة!

ولكن اعتقاد المسيحي بأن ديانته هي الديانة الوحيدة الحَقَّة لا تمنعه من قبول الآخر أو احترام حقه في أن يؤمن ويعبد كيفما يشاء. إلا أن ثقافتنا الحديثة تخلط خلطًا خطيرًا بين هذه المفاهيم المتمايزة، وتستغل ثقة المسيحيين في منظومتهم العقائدية لتُصَوِّرهم على أنهم

لا يقبلون الآخرين ذوي المنظومات العقائدية المختلفة. ويا له من خلط معيب عارٍ من الصحة. وإحقاقًا للحق، ليست المسيحية هي الديانة الوحيدة التي تزعم أنها تعرف الحق حصريًا. بل إن كل الديانات الرئيسية تحوي نفس المزاعم. فالكثير من الأفكار المحورية في الديانات الرئيسية لا يمكن أن تتعايش مع غيرها من الأفكار، وهو ما يُظهر كذب مبدأ التعددية الذي يحظى بشعبية واسعة زاعمًا أن جوهر كل الأديان واحد.

وغالبًا ما نسمع أو نقرأ أن جميع البشر أينما كانوا يعبدون الإله نفسه بلغات وثقافات مختلفة. وواضح أن هذه الفكرة، مع كامل احترامي لها، فكرة عبثية. فالإسلام مثلاً يُعَلِّم أن المسيح مجرد نبي، وأنه ليس الله. وكما أشار سي. إس. لويس *C. S. Lewis* إنه لو لم يكن المسيح هو الله، فلا يمكن أن يكون نبيًا فريدًا أو معلمًا أخلاقيًا عظيمًا، لأنه ادَّعى أنه الله. فإن لم يكن فعلاً كذلك، إذَن إما أنه كاذب أو مجنون، ولا يمكن أن يكون معلمًا أخلاقيًا عظيمًا أو نبيًا.

ومن الأمثلة الأخرى الواضحة التي يستحيل مطلقًا أن تتوافق مع المسيحية هي مزاعم الديانات الشرقية بأن الله في كل شيء، وأنه ليس هناك أي فاصل بين الخالق والخليقة. والأمثلة لا تنتهي، ولكن الفكرة التي أودّ إيضاحها إنه رغم اشتراك الديانات المختلفة في بعض القيم، فالكثير من معتقداتها الجوهرية يستحيل التوفيق بينها. إلا أنه يبدو أن التظاهر بأن كل الديانات واحدة في جوهرها يدغدغ مشاعر الناس، ولكنه مفهوم خاطئ خطأً بيّنًا.

إلا أن الكياسة الاجتماعية* *political correctness* في ثقافتنا هي التي غالبًا ما تنتصر. بل إن حتى الكثير من كنائسنا تلوثت بهذه الأفكار المنحرفة المتعلقة بقبول الاختلاف والتعددية. وبذلك تهاونت في لاهوتها، وحطَّت من قَدرِ سلطة الكتاب المقدس لصالح أفكار المجتمع "التطورية" بخصوص الأخلاق. وبذلك أصبحت نسخة واحدة من المسيحية تقبل الاختلاف وتحب الجميع وهي تلك التي تعظ بأن كل الأديان واحد. أما المسيحية التقليدية المؤسَّسة على الكتاب المقدس فهي إقصائية، لا تقبل الاختلاف، ولا تحب، ولا تكترث بالآخرين.

ولكن أين هو الحب إن كنا نتواطأ على تدمير الحق نفسه، وبتر الإنجيل؟ وأين الاكتراث بالآخرين إن كنا نبعدهم عن طريق الحياة؟ وبصفتك مسيحيًا، كيف يمكنك أن تفسّر القرار الذي اتخذه المسيح طوعًا بإخضاع نفسه لصور الاتضاع والمهانة في هيئته البشرية، وما

* وفقًا لقاموس أكسفورد هي الإفراط في تجنب التعبيرات والأفعال التي تُرى على أنها تُقصي، أو تهمش، أو تهين الآخر، وبصفة خاصة الأقليات أو الفئات المحرومة أو المهمشة اجتماعيًا. (المترجمة)

عاناه من انفصال عن الله، وقبولَه جسديًا لغضبِ الله الحقيقي كاملاً على كل خطايا الجنس البشري في الماضي والحاضر والمستقبل، واختبارَه لعذاب الصليب وموتِه الذي لا يوصف؛ إن كانت كل الطرق الأخرى التي تسعى نحو الله تماثل بعضها بعضًا؟ يا لها من إهانة لا تُقاس لعمل المسيح الكامل على الصليب! ويا له من عصيان مُتعَمَّد لوصية المسيح بنشر الإنجيل في أطراف الأرض! لأنه إن كانت كل الديانات متماثلة، نجعل المسيح كاذبًا ونجعل مأموريته العظمى هزلاً فارغًا لأننا أزلنا كل حافز للكرازة.

وهو ما لا يعني أن ينتهج المسيحي نهجًا مهينًا تحقيريًا في الكرازة. بل من المؤكد أنه يجب علينا أن نحترم مبدأ أن جميع البشر سواسية في نظرِ الله ومن حقّهم التمتع بنفس القدر من الحماية القانونية، والمعاملة التي تتسم بالعدل واللطف والاحترام. ولكن ليس هناك أمر أخلاقي يلزمنا بتبني الفكرة القائلة بأن كل المنظومات العقائدية متساوية في الصحة. بل هناك أمر أخلاقي بألا نتبنى هذه الفكرة.

والنص الكتابي الذي استشهدنا به أعلاه على ضرورة الاستعداد لتقديم أسباب منطقية لإيماننا يتبعه مباشرة تحذير بأننا يجب أن نفعل ذلك «بِوَدَاعَةٍ وَخَوْفٍ*، وَلَكُمْ ضَمِيرٌ صَالِحٌ، لِكَيْ يَكُونَ الَّذِينَ يَشْتِمُونَ سِيرَتَكُمُ الصَّالِحَةَ فِي الْمَسِيحِ يُخْزَوْنَ فِي مَا يَفْتَرُونَ عَلَيْكُمْ كَفَاعِلِي شَرٍّ» (١بط٣: ١٥، ١٦).

ويجب أن ننتبه كذلك للجملة التالية: «لأَنَّ تَأَلُّمَكُمْ إِنْ شَاءَتْ مَشِيئَةُ اللهِ وَأَنْتُمْ صَانِعُونَ خَيْرًا، أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَنْتُمْ صَانِعُونَ شَرًّا. فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ الْخَطَايَا، الْبَارُّ مِنْ أَجْلِ الأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى اللهِ» (ع ١٧، ١٨). لذا، علينا أن نكرز بالحق، حتى وإن كان يُنَفِّر الناس منا، حتى وإن كان يتسبب في اتهامنا برفض الاختلاف أو عدم الاكتراث بالآخرين، حتى وإن كان يَجُرّ علينا المعاناة والاضطهاد. نعم، يجب علينا أن نكرز بوداعة وخوف، ولكن أهم شيء أن نكرز. فلا يجب أن نسمح لشرطة "قبول الاختلاف" بتكميم أفواهنا.

كثيرًا ما أتعامل مع أشخاص إما لا يؤمنون بالمسيحية أو يؤمنون بها ولكنهم يواجهون صعوبة بالغة في قبول أجزاء من الكتاب المقدس أو عناصر في التعليم المسيحي. ولكني لست خبيرًا في اللاهوت. فماذا أقول لهؤلاء الأشخاص إذَن؟ بصرف النظر عن مطالبتهم بتلك

* تأتي في بعض الترجمات الإنجليزية (مثل *AMP*، *ESV*، *NIV*) *gentleness and respect* أي "لطف واحترام". (المترجمة)

المهمة المخيفة من قراءة الكتاب المقدس من أوله لآخره، كيف أساعدهم على اكتشاف الحقائق التي اكتشفتها في مرحلة متأخرة؟

هناك العديد من الكتب الرائعة التي يمكن أن تفيدهم في هذا المجال، ولكن لكل منها عيوبه. فهي إما أكاديمية صرف، أو ناقصة، أو شديدة الصعوبة. ولجمع كل المادة اللازمة، عادة ما أقترح أكثر من كتاب، مما يقلِّل كثيرًا من احتمال قراءة أي منها.

ومن وقت ليس ببعيد، سألني صديق عن كتب في الدفاعيات يشارك بها شقيقه غير المؤمن. وقد عرفت أنه قد لا تكون عندنا إلا فرصة واحدة في المستقبل القريب لإقناعه بالقراءة، لذا كان عليَّ أن أقترح الكتاب الأمثل. والحقيقة أني أرجأت القرار لأني لم أتمكن من الاختيار بين ثلاثة أو أربعة من كتبي المفضلة، لأني أرى أنه ليس فيها واحد كافيًا في ذاته.

وإذ كنت على وشك أن أستسلم وأقترح عدة كتب بدلاً من كتاب واحد، تلقيت رسالة من "فرانك تورِك" *Frank Turek* يطلب فيها أن أكتب تعليقًا نقديًا على كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد". وبعد أن قرأت بضعة الفصول الأولى، رأيت أن إرسال الكتاب لي كان من أعمال العناية الإلهية.

وأخيرًا عثرت على كتاب واحد يغطي الموضوع بالكامل بمنتهى السلاسة. وبعد أن قرأته أخبرت "فرانك" بأن هذا هو الكتاب الذي طالما انتظرته كأداة إنجيلية كتابية تشرح الأفكار وتكشف الحق على نحو يتجاوز قدراتي وخبراتي بامتياز. وفور طباعة هذا الكتاب سيتوافر لديَّ مرجع واحد يمكنني اقتراحه على الملحدين، أو المتشككين، أو المسيحيين الذين يحتاجون أدلة تقوي إيمانهم. بل إني أعرف بالفعل عشرة أشخاص سأعطيهم هذا الكتاب. إنه حقًا عطية مفيدة من الله تستحق أن نشكره عليها.

أما "فرانك تورِك" الذي عرَفْتُه رجلاً متميزًا، وأكاديميًا مسيحيًا، فقد اشترك في تأليف هذا الكتاب مع أحد عمالقة الدفاعيات المسيحية، الدكتور "نورمان جايسلر" *Norman Geisler*. وإني أمتلك عددًا من أعمال الدكتور "جايسلر" الأخرى، ومنها كتاب "الدفاعيات المسيحية" *Christian Apologetics*، وكتاب "عندما يسأل النقاد" *When Critics Ask*، وكتاب "عندما يسأل المتشككون" *When Skeptics Ask*. وقد بدأتْ معرفتي بالدكتور "جايسلر" عن طريق صديقي وجاري سابقًا الدكتور "ستيف جونسون" *Steve Johnson*، خريج "كلية لاهوت دالاس" *Dallas Theological Seminary*، وأحد مرشديَّ الروحيين. فقد أعارني "ستيف" (لا أذكر إن

كنت قد أرجعته له!) شريط فيديو يشرح فيه الدكتور "جايسلر" حقائق المسيحية بأسلوب شيق وجذاب للغاية. وعندئذٍ فكَّرت أن أشتري عددًا من كتبه المذهلة في الدفاعيات وأقرأها.

وإني أنصح بكل كتب الدكتور "جايسلر" وبأي كتاب له. ولكن كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" هو العمل الذي جمع فيه الدكتور كافة جوانب الموضوع لمن لا يرغب أن يخوض في عدد من الكتب. ولا بد أن أقول إن العنوان جذبني بشكل خاص، لأني شخصيًا أؤمن منذ فترة طويلة أن الإلحاد يتطلب قدرًا أكبر من الإيمان. فلا شك أن مقدار الإيمان الذي تحتاجه لكي تؤمن أن البشر تطوروا من التفاعل العشوائي بين الجزيئات (التي أتت للوجود على نحو ما من تلقاء نفسها) يفوق ما تحتاجه من إيمان لتعتقد في وجود خالق.

وقد أعجِبْتُ بهذا الكتاب أيضًا لأنه قبل أن يتناول قضية حق المسيحية، يتناول قضية الحق نفسه، ويُثْبِت وجود حق مطلق بوجه عام. فهو يهدم حماقات النسبية الأخلاقية وما بعد الحداثة، ثم يتقدم بشكل نظامي نحو حقائق المسيحية التي لا يمكن إنكارها. إنه كتاب كان لا بد أن يُكتَب، والأهم أنه لا بد أن يُنشَر. لذلك سأتوقف الآن عن الإعجاب لكي أطلق الكتاب إلى المطبعة. فكم من نفوس جائعة تتلهف على الحقائق المُفَصَّلة بمنتهى البراعة في هذا العمل.

" ديـڤيد ليمبوه" *David Limbaugh*

تمهيد

ما مقدار الإيمان الذي تحتاجه لتصدِّق هذا الكتاب؟

يرى المتشككون دينيًا أنه لا يمكن الثقة في أن كتابًا مثل هذا يقدم معلومات موضوعية؛ لأن هذه النوعية من الكتب يؤلِّفها أشخاص متدينون لهم دوافعهم. وفي الواقع، هذه هي نظرة المتشككين للكتاب المقدس، فهم يرونه كتابًا متحيزًا مكتوب بأيدي أناس متحيزين. وقد يكون تقييمهم هذا صحيحًا بخصوص بعض الكتب التي تتناول الدين، ولكنه لا ينطبق على كل الكتب. لأنه لو صَحَّ، لا يمكنك الوثوق في أي شيء تقرؤه عن الدين، بما في ذلك ما يكتبه الملحدون أو المتشككون لأن لكل كاتب وجهة نظره في الدين.

فماذا يعني هذا لك أيها القارئ؟ هل يجب ألا تُصَدِّق ما يكتبه الملحد عن المسيحية لمجرد أنه ملحد؟ ليس بالضرورة، لأنه ربما يقول الحقيقة. وهل يجب ألا تُصَدِّق ما يكتبه المسيحي عن الإلحاد لمجرد أنه مسيحي؟ ليس بالضرورة، لأنه ربما يقول الحقيقة أيضًا.

ولكن ماذا عن دوافع المؤلِّف؟ هل الدوافع تُفسد الموضوعية إفسادًا تامًا؟ إن كان كذلك، فكل الكتب تفتقر للموضوعية، بما في ذلك كتب الملحدين والمتشككين. لماذا؟ لأن **كل** الكتب تُكتَب لغرض، كل المؤلِّفين لديهم دافع، وكل (أو على الأقل معظم) المؤلِّفين يؤمنون بما يكتبون! إلا أن هذا لا يعني أن ما يكتبونه خطأ أو مجرد من الموضوعية. فرغم أن المؤلِّفين ليسوا حياديين بشأن موضوعاتهم (بل مدفوعين باهتماماتهم الشخصية)، فهم قادرون على تقديم موضوعاتهم بموضوعية.

فمثلاً، مؤكد أن الذين نجوا من الهولوكوست وكتبوا خبراتهم لم يكونوا متفرجين محايدين. ولكنهم كانوا يؤمنون من كل قلوبهم أن النازيين مخطئون، وكان دافعهم وراء تسجيل خبراتهم هو أن يطبعوا الهولوكوست في ذاكرة العالم، على أمل ألا يفكر العالم أبدًا في تكراره. فهل تَسَبَّب ولعُهم بالموضوع أو دافعهم في ليِّ الحقائق؟ ليس بالضرورة. بل الواقع أن ولعَهم ربما أنتج أثرًا عكسيًا. فبينما يدفع الولع بعض الناس للمبالغة، قد يدفع الآخرين لمزيد من الحرص والدقة بحيث لا يَضُرّون بمصداقية الرسالة التي يرجون توصيلها.

وكما سترى، نحن نعتقد أن كَتَبَة الكتاب المقدس سلكوا هذا الدرب من الحرص والدقة. وهو أيضًا الدرب الذي نحاول أن نسلكه في هذا الكتاب. (وبعد أن تنتهي من القراءة، نتمنى أن تخبرنا إن كنت ترى أننا انتهجنا ذلك الدرب بالفعل).

والآن إن كنت من المتشككين، نرجو أن تضع في اعتبارك أنه يجب أن تُصَدِّق ما نقول أو لا تُصَدِّقه بناءً على ما نقدم من أدلة، لا بناءً على ما نؤمن به من معتقدات دينية. كلانا مسيحي، ولكننا لم نكن مسيحيِّين طيلة حياتنا. إلا أننا آمنا بسبب الأدلة. لذلك، **كوننا** مسيحيِّين ليس هو القضية، بل المهم **لماذا** نحن مسيحيِّين. وهذا هو ما يركز عليه هذا الكتاب.

"نورمان جايسلر" *Norman Geisler*
و"فرانك تورِك" *Frank Ture*

يناير/كانون الثاني ٢٠٠٤

كلمة شكر

كان لبعض الأشخاص الرائعين من الإيمان ما مكّنهم مِنْ إدراك القيمة الحقيقية لهذا الكتاب والمثابرة حتى انتهينا من كتابته. وعلى رأس هذه القائمة زوجتانا، "باربرا جايسلر" *Barbara Geisler*، و"ستفاني تورك" *Stephanie Turek*. فلولا محبتهما ودعمهما لـمَا خرج هذا الكتاب للنور.

وقد رَاجَعَ عدد من الأكاديميين والأصدقاء أجزاء من النص وقدموا الكثير من الاقتراحات المفيدة. ومنهم "وين فرير" *Wayne Frair* الذي ضَحَّى بعدة ساعات لإبداء الرأي في الفصلين اللذين يتناولان التطور. وقد فعل الشيء نفسه "فرِد هيرِن" *Fred Heeren* في الفصل الذي يتناول الانفجار الكبير. أما "ج. بودچيشفسكي" *J. Budziszewski* فقد قـدَّم أفكارًا قيِّمة بخصوص فصل القانون الأخلاقي (وليس من يفهم ذلك الموضوع أفضل منه). وساهم "باري لِـڤنْثال" *Barry Leventhal* بذكرياته الشخصية وخبرته في الفصل الذي يتناول خبرة تحوله للإيمان والنبوات المسيانية. وقد ساهم أيضًا باقتراحات مهمة "بيل دمبسكي" *Bill Dembski*، "مارك پوستاڤر" *Mark Pustaver*، "ستفاني تورك"، "راندي" *Randy* و"لوسي هوف" *Luci Hough*. والمسؤولية الكاملة والنهائية لمحتويات هذا الكتاب تقع بالطبع على عاتقنا.

ونود أن نشكر "وِس يودِر" *Wes Yoder* من "مكتب المتحدث السفير" *Ambassador Speaker Bureau* على تشجيعه وتعريفنا على "مارڤن پـادچت" *Marvin Padgett* من دار نشر "كروسواي" *Crossway Books* الذي كان عنده الإيمان الكافي لقبول هذا المشروع والإبقاء على عنوانه الغريب. ونشكر كذلك "بيل دكارد" *Bill Deckard* من "كروسواي" على مهارته في تحرير الكتاب.

وأخيرًا نتوجه بالشكر إلى "ديـڤيد ليمبوه" *David Limbaugh* الذي لم يكتب التقديم فحسب، ولكنه فعل ذلك بحماسة كبيرة وفكر ثاقب. وإن غيرته للمسيح ورغبته في الدفاع عن الإيمان مصدرُ إلهام لنا. ونأمل أن يساهم هذا الكتاب ولو بقدر ضئيل في إنتاج مزيد من المسيحيين الذين يتمتعون بهذه الحماسة والغيرة.

المقدمة

العثور على الصورة الكاملة للغز الحياة

"مَن يزعم أنه يشك في مجموعة معينة من المعتقدات هو في الواقع مؤمن حقيقي بمجموعة أخرى من المعتقدات".

فيليب إي. جونسون *Phillip E. Johnson*

حَذَّرَ أستاذ الأديان طلابه المترقّبين تحذيرًا صريحًا منذ أول يوم في الفصل الدراسي: "مِنْ فضلكم، اتركوا معتقداتكم الدينية في البيت. فعندما نتناول العهد القديم، قد أُبدي بعض الملاحظات المخالفة تمامًا لما تعلمتموه في مدرسة الأحد. ولست أقصد من ذلك إهانة أحد، ولكني أقصد أن أجري تحليلاً موضوعيًا للنص قدر المستطاع".

أعجبني الكلام. فعلى أي حال، أنا (فرانك) سجَّلتُ في تلك المادة لأني كنت في رحلة بحث روحي. ولم أُرِد أن أسمع كلامًا دينيًا. كل ما أردته أن أعرف إن كان الله موجودًا أم لا. وهل من مكان للحصول على فِكْر موضوعي عن الله والكتاب المقدس أفضل من معهد علماني مثل "جامعة روتشستر" University of Rochester؟ هكذا كنت أفكر.

ومن البداية اتخذ الأستاذ نظرة تشككية جدًا للعهد القديم. وعلى الفور أكَّد نظرية أن موسى ليس هو كاتب أول خمسة أسفار في الكتاب المقدس، وأن الكثير من نصوص الكتاب التي يُفترض أنها نبوية كُتِبَت بعد وقوع الأحداث. وقد رجَّح أيضًا أن اليهود كانوا في الأصل يؤمنون بالكثير من الآلهة (الإيمان بتعدد الآلهة)، ولكنَّ إلهًا واحدًا فاز بالمنافسة؛ لأن آخِر محرري

العهد القديم كانوا "موَّحدين متعصبين دينيًا".

معظم الطلاب لم يجدوا غضاضة في تحليله، عدا شابًا واحدًا كان يجلس أمامي بعدة صفوف. وبمرور الفصل الدراسي، اتضح أن ذلك الطالب يزداد غضبًا تجاه نظريات الأستاذ التشكيكية. وذات يوم، عندما بدأ الأستاذ ينقد نصوصًا من إشعياء، لم يستطع الطالب أن يتمالك نفسه.

وانفجر قائلاً: ليس صحيحًا. هذه كلمةُ الله.

فهمستُ بصوت خفيض للطالب الجالس بجواري: ذلك الشاب متدين أكثر من اللازم.

فذكَّر الأستاذ الجميع: اسمعوا. لقد أخبرتكم جميعًا من البداية أنكم يجب أن تتركوا معتقداتكم الدينية في البيت. وإلا لن نكون موضوعيين.

فوقف الطالب ورَدَّ: ولكنك لست موضوعيًا. إنك مفرط التشكك.

بدأ بعض الطلاب يقاطعونه ويصيحون فيه.

"دع الأستاذ يُدَرِّس".

"اجلس".

"لسنا في مدرسة الأحد".

وحاول الأستاذ تهدئة الموقف، ولكن الطالب انطلق غاضبًا من قاعة المحاضرات ولم يعُد أبدًا.

ورغم أني شعرت بشيء من التعاطف مع الطالب، وأدركت أن الأستاذ متحيزٌ شخصيًا ضد الدين، أردت أن أسمع منه المزيد عن العهد القديم، وخاصةً عنِ الله. وعند نهاية الفصل الدراسي، كنت مقتنعًا نوعًا ما أن الأستاذ على صواب، فالعهد القديم لا يجب أن يؤخذ كما يبدو في ظاهره. إلا أنني لم أحصل بعد على إجابة لسؤالي الأساسي: هلِ الله موجود؟ فحتى نهاية المحاضرة الأخيرة لم أكن قد حصلت على إجابة شافية، وهذه المسألة الصعبة لم تُحسَم. فتوجهتُ إلى الأستاذ الذي تَحَلَّق الطلاب حوله يسألونه أسئلتهم الأخيرة.

وانتظرت حتى انصرف الجميع تقريبًا، وقلت: أستاذ. شكرًا على المادة. أظن أني تعلمت منظورًا جديدًا. ولكن لا يزال عندي سؤال جوهري.

فأجاب: بكل سرور. تفضل.

- دخلتُ هذه المادة لأكتشف ما إذا كان الله موجودًا حقًا أم لا. فهل...؟

ودون أن يتردد لحظة واحدة انطلق قائلاً: لا أعرف.

- لا تعرف؟!

- بلى. ليس لدي أدنى فكرة.

صُدِمتُ. وتمنيت لو أمكنني أن أوبخه قائلاً: "لحظة من فضلك. أنت تُعَلِّم بأن العهد القديم خاطئ، وأنت لا تَعْلَم إن كان الله موجودًا أم لا؟ العهد القديم يمكن أن يكون صحيحًا إن كان الله موجودًا بالفعل". ولكن بما أننا لم نكن قد أخذنا التقديرات النهائية للمادة، تراجعتُ، واكتفيت بمغادرة القاعة محبَطًا من الفصل الدراسي بأكمله. كنتُ سأحترم الإجابة بكلمة "نعم" أو "لا" مصحوبة ببعض الأسباب، ولكني لم أقبل "لا أعرف". كان يمكنني أن أحصل على تلك الإجابة من شخص في الشارع قليل المعرفة. ولكني كنت أتوقع أكثر من ذلك بكثير من أستاذ دين جامعي.

إلا أني عرفت فيما بعد أن توقعاتي كانت أعلى كثيرًا من حدود الجامعة الحديثة. إن مصطلح "جامعة" "*university*" هو في الواقع مُركَّب من كلمة "*unity*" (وَحدة)، وكلمة "*diversity*" (تنوع). فعندما يذهب المرء إلى الجامعة، يُفترَض أن يجد من يرشده في مسعاه للعثور على الوحدة في التنوع، أي كيف أن كافة مجالات المعرفة المتنوعة (الفنون، والفلسفة، والعلوم الطبيعية، والرياضيات... إلخ) تتوافق معًا لتُكَوِّن صورة موحَّدة للحياة. مؤكد أنها مهمة شاقة، ولكن الجامعة الحديثة لم تهجرها فحسب بل فعلت عكسها. فبدلاً من أن يكون عندنا *universities*[*] أصبح عندنا *pluraversities*[†]، مؤسسات تعتبر كل وجهة نظر، مهما كانت تفاهتها، تتمتع بنفس القدر من القبول والمعقولية مثل غيرها من الأفكار، ما عدا الفكرة القائلة بأنه لا يمكن أن توجد إلا ديانة واحدة صحيحة أو منظور *worldview* واحد صحيح للحياة. فهذه هي وجهة النظر الوحيدة التي تعتبرها معظم الجامعات فكرة متعنتة لا تقبل الاختلاف.

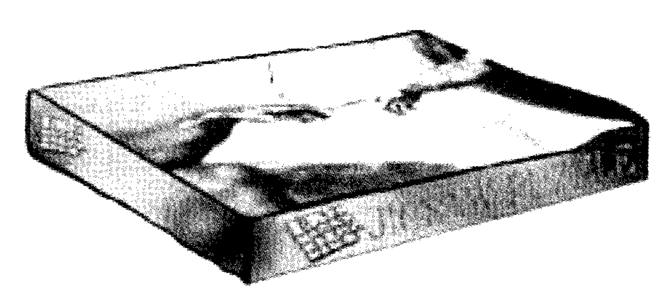
ورغم الإنكار الذي ينساب من جامعاتنا، فإننا نؤمن **بوجود** طريقة لاكتشاف الوَحدة في التنوع. وإن تَمَكَّن المرء من اكتشاف هذه الوَحدة، سيكون كمن يرى الصورة الكاملة المبينة على سطح علبة لغز الصور المُقَطَّعة *puzzle*. فكما أنه من الصعب تجميع القطع المكَوِّنة للُّغز دون الرجوع للصورة الموضحة على سطح العلبة، هكذا يصعب إيجاد معنى في قطع

---

[*] *Uni-* بادئة تدخل على بعض الكلمات الإنجليزية وتعني واحد، أو مكون من واحد. (المترجمة)

[†] *Plural* تعني جمع، أو مكون من أكثر من واحد. (المترجمة)

الحياة الكثيرة المتنوعة دون صورة كاملة توحد هذه القطع. والسؤال: هل هناك مَنْ يملك سطح علبة هذا اللغز الذي نسميه الحياة؟ تزعم الكثير من ديانات العالم أنها تملك سطح العلبة. فهل أي منها على صواب؟



الشكل ١-١

الدين وسطح العلبة

أديان العالم تمثِّل غالبًا محاولات لتقديم سطح العلبة الذي يسمح لك أن ترى كيف أن القطع الكثيرة التي يتألف منها لغز الحياة تشكِّل صورة كاملة متناسقة. وعادةً ما تبدأ هذه الصورة بزعمٍ ما عنِ الله، وهي بداية منطقية. فما يؤمن به المرء عنِ الله يؤثِّر في سائر معتقداته الأُخرى كافة. وعندما سُئل "مورتيمر آدلر" *Mortimer Adler* عن السر وراء أن الجزء الذي يتحدث عنِ "الله" هو أكبر جزء في سلسلة "كتب الغرب العظيمة" *Great Books of the Western World* (التي حرَّرها)، جاء جوابه عميقـًا ثاقبًا؛ إذ أشار إلى أن النتائج المترتبة على موضوع الله تتجاوز ما يترتب على أي موضوع آخر. ومؤكِّد أن أهم خمسة أسئلة في الحياة تترتب على هذا الموضوع هي:

١. **الأصل**: من أين أتينا؟

٢. **الهوية**: مَن نحن؟

٣. **المعنى**: ما غرض وجودنا؟

٤. **الأخلاق**: كيف يجب أن نعيش؟

٥. **المصير**: إلى أين نحن ذاهبون؟

وإجابة كلٍّ من هذه الأسئلة تتوقف على وجود الله. فإن كان الله موجودًا، يكون لحياتك معنى وغرض نهائي. وإن كان لحياتك غرض حقيقي، عندئذٍ يكون هناك بالفعل أسلوب صحيح وأسلوب خاطئ للحياة. واختياراتك اليوم لا تؤثِّر عليك هنا فحسب، ولكنها تؤثر عليك في الأبدية. وعلى العكس، إن لم يكنِ الله موجودًا، فحياتك بلا معنى. وما دامت الحياة ليس لها غرض نهائي بعيد، فما من أسلوب صحيح وأسلوب خاطئ للعيش. ولا يهم كيف تعيش أو بما تؤمن، فمصيرك إلى التراب.

فإن كان أي دين في العالم يمتلك الإجابة الصحيحة عن سؤالِ الله، فما هو؟ هل من ديانة تمدّنا بسطح العلبة الصحيح للحياة؟ الحكمة الشائعة تقول لا، لعدة أسباب.

أولاً، يقول الكثيرون إنه ليس منطقيًا أن تـُصَدِّق أن دينـًا واحدًا يمكن أن يكون وحده الدين الصحيح. فلو كان دين بعينه صحيحًا، إذَن مليارات المتدينين في سائر الأديان الأخرى جميعًا مخطئون اليوم، وكانوا مخطئين على مدى قرون. (وهي مشكلة كبيرة إن كانت المسيحية صحيحة؛ لأن المسيحية فيما يبدو تـُعَلـِّم بأن غير المسيحيين مصيرهم الجحيم!) هذا بالإضافة إلى الخوف المنطقي من أنَّ مَن يعتقدون أنهم يمتلكون الحق لن يقبلوا آراء مَن لا يقبلونه.

والأمريكيون المتساهلون أكثر ميلاً للاعتقاد بأنه ليس هناك ديانة واحدة هي "الحق"، بأل التعريف. وهو موقف يُعَبِّر عنه غالبًا مَثـَلٌ مفضل لدى الكثير من أساتذة الجامعات: مَثـَل الستة رجال العمي والفيل. كل رجل من الستة يتحسس جزءًا مختلفـًا من الفيل ومِنْ ثـَمَّ يتوصل إلى استنتاج مختلف بشأن الشيء الموجود أمامه. فأحدهم يمسك بالناب ويقول: "إنه رمح!" ويتحسس آخر الخرطوم ويقول: "هذا ثعبان!" أما مَن يحتضن الساق يزعم قائلاً: "هذه شجرة!" والأعمى الذي يمسك الذيل يقول: "معي حبل!" أما مَن يتحسس الأذن يظن "أنها مروحة!" ومَن ينحني على جانب الفيل يقول واثقـًا: "إنه حائط!" ويقال إن هؤلاء الرجال العميان يمثلون ديانات العالم لأن كلاً منهم يتوصل إلى استنتاج مختلف عما يتحسسه. ويقال لنا إنه ما من دين واحد يمتلك "الحق" بأل التعريف، مثل كل رجل من الستة العمي. فما من ديانة واحدة تمتلك سطح العلبة الكامل. ولكن الأديان تمثل ببساطة طرقـًا مختلفة تؤدي إلى قمة الجبل نفسها. وهو طبعًا موقف جذّاب جدًا للعقل الأمريكي الذي يقبل الاختلاف قبولاً تامًا.

ففي أمريكا يُعتبر الحق الديني تعبيرًا متناقضًا. ولكنهم يقولون لنا إنه لا حق في الدين.

فهي مسألة أذواق وآراء. أنت تحب الشوكولاتة. أنا أحب الـڤـانيليا. أنت تحب المسيحية، أنا أحب الهندوسية. إن كانت البوذية تناسبك، فهي صحيحة بالنسبة لك. ثم إنه ينبغي ألا تحكم علي بمعتقداتي!

أما ثاني المشكلات الكبرى في قضية الحق الديني هي أن بعض قِطَع الحياة يبدو أنها تستعصي على التفسير، يبدو أنها لا تتوافق مع أي سطح علبة ديني. ومنها وجود الشر وصمتُ الله حياله. وهي ما تمثل اعتراضات قوية لأي شخص يزعم بوجود إله كلي القدرة (يؤمن بوجود الله). فالكثير من المتشككين والملحدين يُحاجون بأنه إن كان هناك إله حقيقي قدير، لتَدَخَّل لإزالة كل هذا الارتباك. فإن كان الله موجودًا بالفعل، لماذا يحتجب؟ لماذا لا يُظهر نفسه ويبين خطأ الديانات الزائفة وينهي كل هذا الجدل؟ لماذا لا يتَدَخَّل ويوقف كل الشر المنتشر في العالم، بما فيه كل الحروب الدينية التي تلطّخ اسمه؟ ولماذا يسمح بالضرر للأشخاص الصالحين؟ كلها أسئلة صعبة على أي شخص يزعم بأن دينه الذي يؤمن بوجودِ الله دين صحيح.

وأخيرًا، يشير الكثير من المفكرين المحدثين إلى أن أي سطح علبة يقوم على الدين يفتقد للمشروعية. لماذا؟ يقولون لأن العلم وحده هو ما يقدّم الحق. فهم يقولون إن التطور لم يلغِ الحاجة لله فحسب، بل ما يمكن اختباره في المعمل هو فقط الذي يمكن اعتباره حقيقيًا. أي أن العلم وحده هو الذي يتعامل مع الأمور الحقيقية، في حين أن الدين يظل محصورًا في نطاق الإيمان. فلا معنى لمحاولة حشد الأدلة أو الحقائق لتأييد الدين لأن ذلك يشبه مَن يجمع حقائق لإثبات أن آيس كريم الشوكولاتة أحلى مذاقًا من آيس كريم الـڤـانيليا. لا يمكنك إثبات الاستحسانات. ولذلك، بما أنهم يصرّون على أن الدين ليس مسألةَ حقيقةٍ موضوعيةٍ على الإطلاق ولكنه مجرد ذوق ذاتي*، إذَن أي سطح علبة مستمَد من الدين لا يمكنه تقديم الصورة الموضوعية للحياة التي نبحث عنها.

فإلى أين يأخذنا كل هذا؟ هل البحث عن الله وعن سطح علبة الحياة مهمة ميئوس منها؟ هل يجب أن نفترض أنه ما من معنى موضوعي للحياة، وأن كلاً منا يخترع سطح علبته الذاتي؟ هل يجب أن نقنع بإجابة الأستاذ: "لا أعرف"؟

* الموضوعية هي وجود الشيء مستقلاً عن الأفكار والآراء الشخصية وغير متأثر بها، وتشير في الفلسفة إلى الاعتقاد بأن الموجودات توجد مستقلة عن معرفة البشر بها أو إدراكهم لها. أما الذاتية فهي موقف فلسفي يرى أن المعرفة تتوقف على وجود الذات المدرِكة وأنه ليس هناك حقيقة موضوعية أو خارجية. (المترجمة)

إننا لا نعتقد ذلك. بل نعتقد بوجود إجابة حقيقية. وبالرغم مما رصدنا من اعتراضات قوية (سنناقشها في الفصول القادمة)، نؤمن أن الإجابة منطقية للغاية. بل إننا نعتقد حقيقةً أن هذه الإجابة أكثر منطقية وتتطلب إيمانـًا أقل من أي إجابة أخرى من الإجابات المطروحة، بما فيها إجابة الملحد. فهيا بنا نبين لك ما نعني بذلك.

أي نوع من الآلهة؟

قبل أن نتقدم في مناقشتنا، لا بد أولاً أن نفهم المصطلحات. تندرج معظم ديانات العالم الرئيسية تحت واحد من ثلاثة منظورات دينية للحياة *religious worldviews*: الإيمان بالله الخالق الحافظ* *theism*، وَحدة الوجود *pantheism*، الإلحاد *atheism*.

المؤمن بوجود الله الخالق الحافظ *theist* هو مَن يؤمن بإله شخصي *personal God* خلق الكون ولكنه ليس جزءًا من هذا الكون. وهو ما يمكن تمثيله بالرسام واللوحة. فالله مثل الرسام، وخليقته مثل اللوحة. الله صنع اللوحة، وصفاته تنعكس فيها، ولكن الله ليس اللوحة. والديانات الرئيسية التي تؤمن بالله الخالق الحافظ هي المسيحية، واليهودية، والإسلام.

على العكس من ذلك، **المؤمن بوحدة الوجود** *pantheist* هو مَن يؤمن بإله غير شخصي *impersonal God*، وهذا الإله **هو** حرفيًا الكون نفسه. وهكذا فالمؤمن بوحدة الوجود لا يؤمن بأن الله **صنع** اللوحة، بل بأن الله **هو** اللوحة. وفي الواقع المؤمنون بوحدة الوجود يعتقدون أن الله هو كل الموجودات: الله هو العشب، الله هو السماء، الله هو الشجرة، الله هو هذا الكتاب، الله هو أنت، الله هو أنا... إلخ. والديانات الرئيسية التي تؤمن بوحدة الوجود هي مجموعة الديانات الشرقية مثل الهندوسية، وبعض أشكال البوذية، والكثير من أشكال "العصر الجديد" "*New Age*".

أما **الملحد** *atheist* هو بالطبع مَن لا يؤمن بأي نوع من الآلهة. وتمشيًا مع المشابهة، فالملحد يؤمن أن ما يبدو وكأنه لوحة كان موجودًا باستمرار ولم يرسمه أحد. ويندرج ضمن هذه الفئة "الإنسانيون الدينيون" *Religious humanists*.

وإليك طريقة سهلة لتَذَكُّر هذه المنظورات الدينية الثلاثة: الإيمان بالله الخالق الحافظ: الله **صنع** كل شيء. وحدة الوجود: الله **هو** كل شيء. الإلحاد: **لا** إله على الإطلاق.

---

* المقصود الإيمان بوجود إله خلق الكون ويحفظه باستمرار، وغالبًا سيشار إلى المصطلح في الفصول التالية بتعبير "الإيمان بالله الخالق" للتخفيف. (المترجمة)

والشكل ١-٢ يُصَوِّر الإيمان بالله الخالق الحافظ على هيئة يد **تحمل** العالم، ووحدة الوجود على هيئة يد **في** العالم، والإلحاد على هيئة العالم **فقط دون سواه**.

المنظورات الدينية الرئيسية الثلاثة



الشكل ١-٢

وسنستخدم كثيرًا مصطلحًا آخر وهو **لاأدري** *agnostic*. وهو شخص لا يحسم موقفه بخصوص قضية الله.

وبعد أن عرَّفنا مصطلحاتنا، لنَعُدْ إلى قضية الإيمان والدين.

الإيمان والدين

الزعم القائل بأن الدين مجرد مسألة إيمان، على ما يبدو فيه من إقناع ظاهري، ليس إلا أسطورة حديثة، فهو زعم خاطئ. فرغم أن الدين يتطلب الإيمان بكل تأكيد، فالدين **لا يقتصر** على الإيمان. **فالحقائق** أيضًا تلعب دورًا جوهريًا في كل الأديان لأن كل المنظورات الدينية، بما فيها الإلحاد، تتضمن مزاعم تتعلق بالحق، والكثير من تلك المزاعم المتعلقة بالحق يمكن تقييمها بالفحص العلمي والتاريخي.

فمثلاً المؤمنون بالله الخالق الحافظ (مثل المسيحيين، والمسلمين، واليهود) يقولون إن الكون له بداية، في حين أن الكثير من الملحدين والمؤمنين بوحدة الوجود (مثل أتباع حركة العصر الجديد، والهندوس) يقولون إن الكون لا بداية له (الكون أزلي). وكل زعم منهما يلغي الآخر.

فلا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا. فإما أن الكون له بداية أم لا. وعندما نبحث في طبيعة الكون وتاريخه، يمكننا أن نستنتج منطقيًا أن إحدى النظرتين صحيحة والأخرى خاطئة.

وتُعتبر قيامة المسيح المزعومة مثالاً آخر على ذلك. فالمسيحيون يزعمون أن يسوع قام من الأموات، بينما يقول المسلمون إن يسوع لم يمُت أصلاً. وبالمثل، يجب أن يكون أحد هذين الموقفين صحيحًا والآخر خاطئًا. فكيف نحِّدد الموقف الصحيح؟ بتقييم كل من هذين الزعمين المتضادين بشأن الحق بناءً على الدليل التاريخي.

لاحظ أن الأديان المختلفة ليست الوحيدة التي تحاول أن تجيب عن هذه الأسئلة، ولكن العلماء أيضًا لهم رأي في هذه المسائل. أي أن العلم والدين غالبًا ما يتناولون الأسئلة نفسها: من أين أتى الكون؟ من أين أتت الحياة؟ هل المعجزات ممكنة؟ وهكذا. أي أن العلم والدين لا يقصي أحدهما الآخر كما يرجح البعض.

ولكن من المؤكد أنه لا يمكن إخضاع كل المزاعم الدينية للفحص العلمي أو التاريخي. فبعضها يمثل عقائد لا يمكن التحقق منها. إلا أن الكثير منها يمكن إخضاعه للاختبار. فبعض المعتقدات منطقي، أي يمكن إثباته بيقين كبير، ولكن يتضح أن البعض الآخر غير منطقي.

معضلات المسيحية

هل المسيحية منطقية؟ نحن نؤمن أنها كذلك. إلا أنه ما لم يفحص المرء الأدلة فحصًا دقيقًا وبذهن منفتح، قد يبدو الاعتقاد في المسيحية إشكاليًا. فأولاً، هناك الكثير من الاعتراضات **الفكرية** المفهومة، مثل ما ذكرناه آنفًا (مشكلة الشر، واعتراضات الكثير من العلماء).

وثانيًا، هناك عوائق **نفسية** أحيانًا ما تَحْوُل دون قبول المسيحية. فاعتقاد المسيحية أنها تنفرد بالحق *Christian exclusivism*، والاعتقاد في جهنم، ورياء المسيحيين؛ تمثِل حواجز نفسية أمام الجميع تقريبًا. (الواقع أن الرياء في الكنيسة غالبًا ما يمثل أكثر العوامل المُنَفِّرة للناس. فقد قال أحدهم إن أكبر معضلة في المسيحية هي المسيحيون!).

وأخيرًا، هناك أسباب **إرادية** لرفض المسيحية، ألا وهي الأخلاق المسيحية التي تبدو وكأنها تـُحِدّ من خياراتنا في الحياة. فبما أن معظمنا لا يحب أن يحاسَب، إذَن إخضاع حريتنا لإله غير منظور ليس من الأشياء التي نميل إليها بطبيعتنا.

ولكن بالرغم من هذه العوائق الفكرية، والنفسية، والإرادية، نؤكد أن الإيمان بالمسيحية

ليس هو الصعب، بل الصعوبة تكمن في الإيمان بالإلحاد أو بأي دين آخر. **بمعنى أنه ما إن يمتحن المرء الأدلة، حتى يكتشف أن ما يحتاجه من إيمان ليعتقد في غير المسيحية يفوق الإيمان المطلوب للمسيحية.** وهو ما قد يبدو زعمًا مخالفًا للفهم الطبيعي المعتاد، ولكنه متجذّر في حقيقة مفادها أن كل منظور ديني *religious worldview* يتطلب الإيمان، حتى المنظور الذي يقول بعدم وجود إله.

لماذا؟ لأننا بصفتنا بشرًا محدودين، لا نمتلك نوعية المعرفة التي تزودنا بالبرهان المطلق على وجود الله أو عدم وجوده. فخارج إطار معرفتنا بوجودنا (أنا أعرف أني موجود لأني لا بد أن أكون موجودًا حتى أتمكن من التفكير في هذه المسألة)، نحن نتعامل مع احتمالات. وأيًا كان استنتاجنا عن وجود الله، يُحتمل دائمًا أن يكون الاستنتاج المضاد صحيحًا.

وفي الحقيقة، من المحتمل أن تكون استنتاجاتنا في هذا الكتاب خاطئة. ولكننا لا نعتقد أنها خاطئة لِما لها من أدلة قوية تؤيدها. بل إننا نعتقد أن استنتاجاتنا صحيحة بما يتجاوز أي شك منطقي. (وهذا النوع من اليقين، الذي ربما يتجاوز ٩٥% هو أفضل ما يمكن لكائنات بشرية ناقصة محدودة أن تبلغه في معظم القضايا، وهو أكثر من كافٍ حتى في أهم قرارات الحياة.) إلا أنه لا بد من توافر قدر من الإيمان للتغلب على احتمالية أننا على خطإٍ.

إيمان الملحد

رغم أن قدرًا من الإيمان ضروري لتصديق استنتاجاتنا، فالأمر المنسي غالبًا أن الإيمان ضروري أيضًا لتصديق أي منظور للحياة، بما في ذلك الإلحاد ووحدة الوجود. وهو ما تذكرناه قريبًا عندما التقينا بملحد يدعى "باري" *Barry* في إحدى حلقاتنا النقاشية. لم يستطع "باري" أن يصدِّق أن صديقًا مشتركًا بيننا يدعى "ستيف" *Steve* أصبح مسيحيًا.

وقد قال: "لا يمكنني أن أفهم "ستيف". فهو يزعم أنه مفكِّر، لكنه لا يستطيع أن يرد على كل الاعتراضات التي أطرحها عليه بخصوص المسيحية. وهو يقول إنه لا يعرف كل الإجابات لأنه مستجَد وما زال يتعلم".

فقلتُ (فرانك): "باري"، إن معرفة **كل شيء** عن موضوع ما تكاد تكون مستحيلة، وهي بالتأكيد مستحيلة إن كان الموضوع هو الله غير المحدود. لذا، لا بد أن تصل إلى نقطة حيث تدرك أنك امتلكت من المعلومات ما يكفي للوصول إلى استنتاج، حتى لو ظلت لديك أسئلة دون إجابات".

وافقني "باري"، ولكنه لم يدرك أنه كان يفعل تمامًا ما كان ينتقد "ستيـف" عليه. فقد قرَّر "باري" أن منظوره الإلحادي صحيح رغم أنه لم يمتلك معلومات كاملة لدعمه. هل هو متيقن من عدم وجودِ الله؟ هل بَحَثَ كل الحجج والأدلة المؤيِّدة لوجودِ الله؟ هل يمتلك معلومات شاملة عن قضية الله؟ هل يمكنه الرد على كل اعتراض على الإلحاد؟ بالطبع لا. بل إنه من المستحيل أن يفعل ذلك. وبما أن "باري"، مثله مثل "ستيـف"، يتعامل في مجال الاحتمالات لا اليقين المطلق، لا بد أن يمتلكَ قدرًا معينـًا من الإيمان ليصدق أن الله **غير** موجود.

ورغم أن "كارل ساجان" *Carl Sagan* كان يزعم أنه لاأدري، فقد نطق بالتصريح النموذجي عن **الإيمان بالمادية الإلحادية** عندما زعم أنه "لا ولم ولن يوجد شيء سوى الكون"[٦]. كيف **عَلِمَ** ذلك عِلـْمَ اليقين؟ لم يعلم. وكيف أمكنه أن يعلم ذلك؟ لقد كان كائنـًا بشريًا محدودًا ذا معرفة محدودة. لقد كان "ساجان" يتحرك في محيط الاحتمالات تمامًا مثل المسيحيين عندما يقولون إن الله موجود. ولكن السؤال هو: أيهما يمتلك مزيدًا من الأدلة على استنتاجاته؟ أي الاستنتاجين أكثر منطقية؟ سنرى عندما نتناول الأدلة أن الملحد عليه أن يجمع قدرًا من الإيمان يفوقُ كثيرًا ما يحتاجه المسيحي.

وقد تقول في نفسك: "الملحد عليه أن يجمع قدرًا من الإيمان يفوقُ كثيرًا ما يحتاجه المسيحي! تـُرى ماذا يقصد جايسلر وتورِك بذلك؟" نقصد أنه كلما تناقص ما لديك من أدلة تدعم موقفك، تَزَايدَ ما تحتاج إليه من إيمان لتصديق هذا الموقف (والعكس صحيح). فالإيمان يسد ثغرة معرفية. وفي النهاية يتضح أن الملحد لديه ثغرات معرفية أكبر لأن الأدلة الداعمة لمعتقداته أقل كثيرًا من أدلة المسيحي على معتقداته. أي أن الأدلة التجريبية والشرعية والفلسفية تؤيد بقوة الاستنتاجات المتوافقة مع المسيحية والمخالفة للإلحاد. وإليك بضعة أمثلة على تلك الأدلة التي سيأتي تفصيلها في الفصول القادمة:

١- الدليل العلمي يؤكِّد بما لا يدع مجالاً للشك أن الكون أتى إلى الوجود من لا شيء. فإما أن شخصًا خلق شيئـًا من العدم (الموقف المسيحي)، أو أنه ما من أحد خلق شيئـًا من العدم (الموقف الإلحادي). فأي الموقفين أكثر منطقية؟ الموقف المسيحي. وأي الموقفين يتطلب مزيدًا من الإيمان؟ الموقف الإلحادي.

٢- أبسط شكل من أشكال الحياة يحتوي على معلومات تعادل ١٠٠٠ موسوعة. والمسيحيون يؤمنون أنه لا يمكن إلا لكائن ذكي أن يخلقَ كائنـًا حيًا يحوي ما يعادل ١٠٠٠

موسوعة. أما الملحدون يؤمنون أن قوى طبيعية غير ذكية يمكنها أن تفعل ذلك. ولكن المسيحيون لديهم من الأدلة ما يدعم استنتاجهم. وبما أن الملحدين لا يملكون مثل هذه الأدلة، إذَن معتقدهم يتطلب قدرًا من الإيمان أكبر بكثير.

٣- تنبَّأتْ بعض الكتابات القديمة عن قدوم رجل هو الله بالفعل قبل إتيانه بمئات السنين. وقد تنبَّأتْ هذه الكتابات بأن هذا الإنسان-الإله سيولد في مدينة بعينها ومن نَسَب معين، ويتألم بشكل معين، ويموت في وقت معين، ويقوم من الأموات ليُكَفِّر عن خطايا العالم. وفور انقضاء الوقت الذي أشارت إليه النبوات أعلن العديد من شهود العيان ثم سجلوا أن تلك الأحداث التي تم التنبوء عنها وقعت بالفعل. وشهود العيان أولئك احتملوا الاضطهاد والموت، رغم أنه كان في قدرتهم أن ينقذوا أنفسهم بإنكار الأحداث. وقد تحول الآلاف من سكان أورشليم إلى الإيمان بهذا الشخص بعد أن رأوا هذه الأحداث أو سمعوا عنها، وسرعان ما اكتسحت هذه العقيدة أرجاء العالم القديم. والمؤرخون والكُتَّاب القدماء يشيرون إلى هذه الأحداث أو يؤكِّدونها، والدلائل من علم الآثار تؤيدها. وحيث إن المسيحيين رأوا في الخليقة أدلة على وجودِ الله (النقطة رقم ١ أعلاه)، فقد آمنوا بأن هذه المجموعات العديدة من الأدلة تبين بما لا يدع مجالاً لأي شك منطقي أن الله كانت له يد في هذه الأحداث. ولكن الملحدون يحتاجون لقدر من الإيمان أكبر بكثير لرفض النبوات، وشهادة شهود العيان، واستعداد شهود العيان أن يتألموا ويموتوا، ونشأة الكنيسة المسيحية، وشهادة سائر الكُتَّاب التي تدعم الأحداث، ونتائج الأبحاث الأثرية، وغير ذلك من الأدلة التي سنفحصها لاحقًا.

والآن يُحتمل أن هذه النقاط الثلاث أثارت في ذهنك بعض الأسئلة والاعتراضات. من المفترض أن يحدثَ ذلك؛ لأننا تركنا الكثير من التفاصيل التي سنشرحها على صفحات هذا الكتاب. ولكن ما يهمنا الآن أن تفهم ما نقصده بقولنا إن كل منظور للحياة، بما في ذلك المنظور الإلحادي، يتطلب قدرًا من الإيمان.

وحتى المتشككين لديهم إيمان. فهم يؤمنون بأن الشك صحيح. وبالمثل اللاأدريون يؤمنون أن اللاأدرية صحيحة. فالمعتقدات لا مكان فيها للمواقف الحيادية. وهو ما عبَّر عنه "فيليب چونسون" *Phillip Johnson* ببراعة فائقة عندما قال: "مَن يزعم أنه يشك في مجموعة معينة من المعتقدات هو في الواقع مؤمن حقيقي بمجموعة أخرى من المعتقدات"[٢]. أي أن الملحد الذي يتشكك في المسيحية بطبيعة الحال هو في الواقع يؤمن إيمانـًا حقيقيًا بالإلحاد. وكما سنرى،

إن كان الملحد أمينـًا أمام ما يُعرض له من أدلة، فهو يحتاج لمقدار من الإيمان للاحتفاظ بمعتقداته الإلحادية يفوق بمراحل ما يحتاج إليه المسيحي من إيمان للاحتفاظ بمعتقداته.

اكتشاف سطح العلبة

نزعم وجود أدلة قوية تؤيد المسيحية. فكيف سنتقدم في هذه الأدلة؟ منذ حوالي سنة ١٩٩٦ ذهبنا سويًا إلى مناطق عديدة لإدارة حلقة نقاشية بعنوان "الاثنتا عشرة نقطة التي تـُثـْبت صحة المسيحية" "*The Twelve Points That Show Christianity Is True*". وفي هذه الحلقة ننطلق من مسألة "الحق" ثم نتقدَّم منطقيًا في المناقشة حتى نصل إلى الاستنتاج بأن الكتاب المقدس هو كلمةُ الله. وهذا الكتاب يتبع بوجه عام ذلك المنهج المنطقي ذا النقاط الاثنتي عشرة:

١- الحَقّ المتعلق بالواقع، أو حقيقة الواقع، أمر قابل للمعرفة.

٢- عكس الحق هو الخطإ.

٣- وجودُ إلهٍ خالقٍ حافظٍ حقٌ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بداية الكون (الحجة الكونية *Cosmological Argument*)

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument* / المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*).

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) الشهادة الأولى

ب) شهادة شهود العيان

ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)

د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين

٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأكَّدَ معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلـِّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌ.

١١- يسوع عَلـَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).

وقبل أن نبدأ في تقديم هذا المنهج الفكري، يرجى ملاحظة خمس نقاط:

أولاً: نحن لا نقول إن النقاط سالفة الذكر صحيحة في ذاتها. ولكن معظم هذه النقاط فرضيّات يجب تعليلها بالأدلة. فمثلاً النقطة الثالثة تزعم أن "وجودَ إله خالق حافظ حقٌ". وذلك الزعم ليس حقـًا لمجرد أننا نقول إنه حق. ولكن ينبغي دعمه بأدلة مقنعة، وبأسباب منطقية وجيهة. وسوف نقدِّم تلك الأسباب المنطقية عندما نصل إلى تلك النقطة في الكتاب.

ثانيًا: لاحظ أننا ننطلق من نقطة شك كامل. أي أننا نبدأ مع شخص يقول إنه حتى لا يؤمن بالحق. وينبغي أن نبدأ من هذه النقطة لأنه إن كانت النظرة السائدة في كثير من الثقافة صحيحة، ألا وهي أنه لا يوجد حق، إذَن لا يمكن أن يكون **حقـًا** القول بوجود إله خالق حافظ، أو كلمة **حقيقية** من ذلك الإله. ولكن إن كان الحق موجودًا، وهذا الحق يمكن معرفته، إذَن يمكننا أن نتقدَّم نحو فحص الحق المتعلّق بوجودِ الله، وما يلي ذلك من نقاط (مثل إمكانية المعجزات، والمصداقية التاريخية للعهد الجديد، وهلمّ جرّا).

ثالثـًا: إن كان هذا المنهج الفكري سليمًا (وهو افتراض كبير سيحاول هذا الكتاب إثباته)، فهو يُثْبِت حتمًا خطأ ما تقوله الديانات الأخرى فيما تختلف فيه مع ما يقوله الكتاب المقدس. (وهو ما يبدو غرورًا وكبرياء غير عادي، ولكننا سنتناول ذلك لاحقـًا). ولكنه لا يعني أن كل الديانات الأخرى خاطئة تمامًا أو أنها خالية من أي حق. فكل الديانات تقريبًا تحوي شيئـًا

من الحق. ولكن كل ما نقوله إنه **إن كان الكتاب المقدس صحيحًا**، إذَن أي زعم بعينه يتناقض مع الكتاب المقدس لا بد أن يكون خاطئـًا. فمثلاً، إن كان الكتاب المقدس صحيحًا، وهو يقول بوجود إله يتجاوز الكون وقد خلق الكون ويحفظه (الإيمان بالله الخالق الحافظ)، عندئذٍ فإن أي زعم ينكر الإيمان بالله الخالق الحافظ (مثل الإلحاد) لا بد أن يكون خاطئـًا. وبالمثل، إن كان الكتاب المقدس صحيحًا، وهو يزعم أن يسوع قام من الأموات، إذَن إنكار تلك الحقيقة (في أي دين) لا بد أن يكون خاطئـًا. (بالمناسبة، العكس أيضًا صحيح. فإن تَبَيَّن بالدليل أن الزعم الآخر صحيح، إذَن الكتاب المقدس مخطئ في ذلك).

رابعًا: إننا نقدم أدلة على المسيحية لأننا يجب أن نعيش حياتنا بناءً على الحق. وقد قال سقراط ذات مرة إن الحياة التي لا تـُفحَص لا تستحق أن تعاش.[٣] ونحن نرى أن الإيمان الذي لا يُفحَص لا يستحق أن يُصدَّق. وخلافـًا للرأي الشائع، ليس مطلوبًا من المسيحيين أن "يؤمنوا فحسب". ولكنَّ المسيحيين **مأمورون** أن يعرفوا ما يؤمنون به ولماذا يؤمنون به. وهم مأمورون أن يقدِّموا إجابات لمن يسألهم (١بط٣: ١٥)، وأن يهدموا الحجج المضادة للإيمان المسيحي (٢كو١٠: ٤-٥). وبما أن الله منطقي (إش١: ١٨) ويريدنا أن نستخدم عقولنا، فهو لا يكافئ المسيحيين على غبائهم. بل إن استخدام العقل يمثِّل جزءًا من الوصية العظمى التي تقول: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل **فكرك**»* (مت٢٢: ٣٧) كما عَلَّم يسوع.

وأخيرًا، غالبًا ما نـُسأل: "إن كان للمسيحية الكثير من الأدلة المؤيدة، فلماذا لا يصدقها عدد أكبر من الأشخاص؟" وإجابتنا: رغم أننا نعتقد أن الأدلة التي سنقدّمها بعد قليل تبين أن الكتاب المقدس صحيح بما يتجاوز أي شك منطقي، فالأدلة مهما كثرت لا يمكنها أن تجبر أي شخص على تصديقها. وذلك لأن التصديق يتطلب لا موافقة العقل فحسب، بل موافقة الإرادة أيضًا. ورغم أن الكثير من غير المسيحيين لديهم أسئلة فكرية صادقة، فقد اكتشفنا أن أعدادًا أكثر من هؤلاء تقاوم المسيحية إراديًا. أي أن المشكلة لا تكمن في قلة الأدلة، بل في أنهم لا **يريدون** أن يصدقوا. ويمثل الملحد العظيم "فردريك نيتشه" *Friedrich Nietzsche* نموذجًا على هذا النوع من الأشخاص. فقد كتب: "إن أثبت لنا أحدهم وجود إله المسيحيين هذا، يجب أن نصير أقل قدرة على الإيمان به"[٤] وقال أيضًا: "إننا نرفض المسيحية بناءً على

* الكلمات المبرزة بالخط الأسود العريض في كل الآيات الكتابية المذكورة في هذا الكتاب من إضافة الكاتبين.

استحساناتنا، لا بناءً على الحجج المنطقية". وهكذا يتضح أن عدم إيمان "نيتشه" كان مبنيًا على إرادته لا على فكره فقط.

وعند هذه النقطة قد يعكس المتشكك الحجة ويزعم أن المسيحي هو مَن **يريد** أن يؤمن. صحيح، الكثير من المسيحيين لا يؤمنون إلا لأنهم يريدون أن يؤمنوا، ولا يمكنهم تعليل إيمانهم بالأدلة. ولكنهم يؤمنون ببساطة أن الكتاب المقدس صحيح. إلا أن إرادتهم أن يكون الشيء صحيحًا لا تجعله صحيحًا. ولكننا نقول إن الكثير من غير المسيحيين يفعلون الشيء نفسه: يقفزون "قفزة إيمان عمياء" تتمثل في أن معتقداتهم غير المسيحية صحيحة لمجرد أنهم **يريدونها** صحيحة. وفي الفصول القادمة سنلقي نظرة فاحصة على الأدلة لنرى أي الفريقين عليه أن يقفز قفزة أكبر.

وعندئذٍ قد يتساءل المتشكك: "ولكن لماذا **يريد** أي شخص أن تكون المسيحية خاطئة؟ ما الذي يجعل أي شخص لا يريد هبة الغفران المجانية؟" سؤال وجيه، ولكننا نعتقد أن الإجابة تكمن في العوامل الإرادية التي لمسناها فيما سبق. أي أن الكثيرين يعتقدون أن قبول حق المسيحية يتطلب منهم تغيير تفكيرهم، أو أصدقائهم، أو أولوياتهم، أو أسلوب حياتهم، أو أخلاقهم، وهم لا يريدون أن يتنازلوا عن السيطرة على حياتهم بإجراء تلك التغييرات. فهم يرون أن الحياة أسهل وأكثر إمتاعًا دون هذه التغييرات. وربما يدركون أنه في حين أن المسيحية تتمحور حول الغفران، فهي تتمحور أيضًا حول إنكار النفس وحمل الصليب. فالواقع أن المسيحية مجانية، ولكنها قد تكلفك حياتك.

هناك فرق بين **إثبات** فرضية **وقبول** فرضية. فقد يمكننا أن نُثْبِت صحة المسيحية بما لا يرقى إليه أي شك منطقي، ولكن **أنت** فقط مَنْ تستطيع أن تختار قبولها. نرجو منك أن تفكر في هذا السؤال لتعرف إن كنت منفتحًا على قبولها: إن تَمَكَّن أحدهم من تقديم إجابات منطقية على أهم ما لديك من أسئلة واعتراضات بشأن المسيحية، منطقية إلى الحد الذي تبدو معه المسيحية صحيحة بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي، هل ستصبح مسيحيًا؟ فَكِّر في ذلك دقيقة. إن كانت إجابتك **الصادقة** هي لا، إذَن مقاومتك للمسيحية نفسية أو إرادية، ولا تقتصر على المقاومة الفكرية. وما مِنْ أدلة مهما بلغت كثرتها يمكنها أن تقنعك، لأن الأدلة ليست هي العائق، ولكنك **أنت** العائق. وفي النهاية، أنت وحدك مَنْ يعرف إن كنت بالفعل منفتحًا على الأدلة المؤيِّدة للمسيحية.

ومن مظاهر جمال خليقةِ الله هو أنه: إن لم تُرِدْ أن تقبل المسيحية، لك الحرية أن ترفضها. وحرية الاختيار هذه، بل حتى حرية رفض الحق، هي التي تجعلنا مخلوقات أخلاقية وتمكّن كلاً منا أن يختار مصيره النهائي. وهو ما يلمس غرض وجودنا في الصميم، ويفسّر سبب عدم وضوحِ الله في كشفه عن ذاته لنا بالقدر الذي يتمناه البعض منا. لأنه إن كان الكتاب المقدس صحيحًا، إذَن فالله أتاح لكل منا فرصة لاتخاذ قرار أبَديّ إما بقبوله أو برفضه. ولكي يضمن أن اختيارنا حرٌّ بحق، يضعنا في بيئة زاخرة بأدلة وجوده، ولكن دون حضوره **المباشر**، وهو حضور شديد القوة حتى إنه يمكن أن يطغى على حريتنا، ومِنْ ثم يلغي قدرتنا على رفضه. أي أن **الله قَدَّم أدلة في هذه الحياة كافية لإقناع أي شخص يريد أن يصدق، إلا أنه ترك أيضًا شيئًا من الغموض حتى لا يجبر مَنْ لا يريد.** وهكذا يتيحُ الله الفرصة لنا أن نحبه أو أن نرفضه دون أن ينتهك حريتنا. والحقيقة أن غرض هذه الحياة هو أن نتخذ هذا القرار الحر دون قسر. لأن الحب بطبيعته لا بد أن يُعطَى مجانًا. ولا يمكن الحصول عليه عنوةً. ولذلك كتب "سي. إس. لويس" *C. S. Lewis*: "إن طبيعة مخططِ [الله] تمنعه من استخدام سلاحين، ألا وهما: ما يستعصي على المقاومة وما يستعصي على الشك. فمجرد إبطال الإرادة البشرية (الذي لا بد أن يحدث إن شعر الإنسان بأقل وأخف درجة من درجات حضور الله) عديم الفائدة لله. فهو لا يستطيع أن يجبر ويغتصب. ولكنه يستطيع فقط أن يبهر ويجذب".[٦]

ونتمنى أن ما سنقدمه من أدلة في هذا الكتاب يجذبك، ولو بقدر قليل، إلى الله. ولكن ضع في حسبانك أنها ليست أدلتنا، ولكنها **أدلته**. وكل ما نفعله أننا نجمعها معًا في نسق منطقي. ونحن نقصد من استخدام قصص وتشبيهات واقعية على قدر المستطاع أن نقدِّم كتابًا سلسًا ومنطقيًا سهلاً مفهومًا.

الملخص والخُلاصة

كما رأينا، يمكن فحص الكثير من المزاعم الدينية بشأن الحق وتحديد معقوليتها. وبما أن كل الاستنتاجات المختصة بهذه المزاعم تقوم على الاحتمالات أكثر مما تقوم على اليقين المطلق، إذَن جميعها، بما فيها المزاعم الإلحادية، تتطلب قدرًا من الإيمان. وبدراستنا للأدلة في الفصول التالية، سنرى أن استنتاجات من قبيل: "الله موجود" أو "الكتاب المقدس

صحيح" استنتاجات مؤكَّدة بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي. **إذَن تصديق ما هو بخلاف المسيحية يتطلب إيمانـًا يفوق بكثير ما يتطلبه تصديق المسيحية.**

إلا أننا نُقرّ أيضًا أن الأدلة وحدها لا تستطيع أن تقنع شخصًا بأن يصبح مسيحيًا. ولكن بعض الملحدين وغير المسيحيين قد يرفضون المسيحية لا لقلة الأدلة، ولكن لأنهم لا يريدون أن يقبلوها. فالبعض يفضِّلون أن يحجزوا الحق عن أن يعيشوا به. **والحقيقة أننا نحن البشر لدينا ميل قاتل نحو محاولة تكييف الحق على رغباتنا بدلاً من تكييف رغباتنا على الحق.**

ولكن مهلاً، أليس من بديل ثالث؟ ما المانع أن نظل لاأدريين مثل أستاذ العهد القديم المذكور في بداية هذا الفصل؟ قال إنه لا يعلم إن كان الله موجودًا. قد يعتقد البعض إنه شخص منفتح العقل. ربما. ولكن الفرق شاسع بين **انفتاح العقل وفراغ العقل**. ففي ضوء الأدلة نعتقد أن اللاأدرية قرار بأن تكون فارغ العقل. فمهما كان، أليس الغرض من انفتاح العقل أن نتمكن من التعرّف على الحق عندما نصادفه؟ نعم. إذَن ماذا يجب أن نفعل عندما نجد من الأدلة ما يكفي لإرشادنا إلى الحق؟ فمثلاً، ماذا يجب أن نفعل عندما نرى أدلة لا يرقى إليها الشك المنطقي على أن چورچ واشنطن كان أول رؤساء الولايات المتحدة؟ هل يجب أن نظل "منفتحي العقل" بخصوص أول رئيس للولايات المتحدة؟ لا، لأننا في هذه الحالة نكون **فارغي** العقل. فبعض الأسئلة أُغلِقَت وحُسِمَت. وسنرى أن الأدلة المتعلقة بالمسيحية كافية للتوصل إلى استنتاج مؤكَّد منطقيًا.

وكما أشار "مورتيمر آدلر"، إن استنتاجنا بشأنِ الله يؤثِّر على كل جوانب حياتنا. فهو مفتاح العثور على الوحدة والتنوّع ومعنى الحياة النهائي. إنه حقـًا أهم سؤال ينبغي على كل إنسان أن يجيب عنه. ولحسن الحظ، إن كان منطقنا صحيحًا، سنكتشف سطح علبة لغز الحياة في نهاية رحلتنا. فلنخطُ أول خطوة في تلك الرحلة. وهي تبدأ بمسألة الحق.

الفصلان ١، ٢ يتناولان:

١- الحَقّ المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.

٢- عكس الحق هو الخطأ.

٣- وجودُ إله خالق حافظ حقٌّ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بداية الكونً (الحجةً الكونية *Cosmological Argument*)

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument*/ المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*)

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) الشهادة المبكرة

ب) شهادة شهود العيان

ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)

د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين

٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأكَّد معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

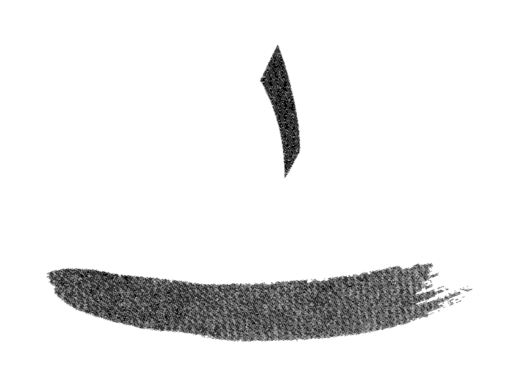
ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلِّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌّ.

١١- يسوع عَلَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).



هل نستطيع التعامل مع الحق؟

''يتعثر الناس في الحق من آن لآخر، ولكن معظمهم ينهضون ويركضون بعيدًا عنه وكأن شيئًا لم يكن''.

"وينستون تشرتشيل" *Winston Churchill*

في فيلم ''القليل من الرجال الصالحين'' *A Few Good Men* يلعب ''توم كروز'' *Tom Cruise* دور محامٍ في البحرية الأمريكية يستجوب عقيد مشاة، يقوم بدوره ''چاك نيكولسون'' *Jack Nicholson*، بخصوص مقتل أحد رجال ''نيكولسون''. ويتحول مشهد قاعة المحكمة الدرامي إلى مباراة للصياح عندما يَتَهِّم ''كروز'' ''نيكولسون'' بالتورط في جريمة القتل:

كروز: سيادة العقيد، هل أعلنت حالة الطوارئ؟

القاضي: لستَ مضطرًا لإجابة ذلك السؤال!

نيكولسون: سأجيب عن السؤال... أتريد إجابات؟

كروز: أظنها من حقي.

نيكولسون: تريد إجابات!

كروز: أريد الحق!

نيكولوسن: لن تستطيع التعامل مع الحق!

ربما كان "نيكولسون" يصيح في أمريكا بأسرها وليس في "كروز"؛ لأنه يبدو أن الكثيرين في بلدنا لا يستطيعون التعامل مع الحق. فنحن من ناحية نريد الحق في كل مجالات حياتنا تقريبًا. فنحن مثلاً نطلب الحق من:

- أحبائنا (لا أحد يريد أكاذيب من شريكة حياته أو أبنائه).
- الأطباء (نريدهم أن يصفوا لنا الدواء الصحيح ويُجروا لنا العمليات الصحيحة).
- سماسرة البورصة (نريدهم أن يخبرونا بالحق عن الشركات التي ينصحون بها).
- المحاكم (نريدها ألا تحكم إلا على المذنبين حقيقةً).
- أصحاب الأعمال (نريدهم أن يخبرونا بالحق ويدفعوا أجورنا بالعدل).
- الخطوط الجوية (نريد طائرات آمنة بحق وطيارين جادين بحق).

ونتوقع كذلك أن نجد الحق عندما نطالع أحد المراجع، أو نقرأ مقالاً، أو نشاهد خبرًا. ونريد الحق أيضًا من المُعلِنين، والمدرسين، والساسة. ونحن نفترض أن اللافتات المرورية، وزجاجات الأدوية، والمعلومات المُبيَّنة على عبوات الطعام تكشف الحق. إننا في الواقع نطالب بالحق في كل نواحي الحياة تقريبًا التي تؤثر على أموالنا، أو علاقاتنا، أو أماننا، أو صحتنا.

ولكننا، من ناحية أخرى، رغم إصرارنا على الحق في تلك المجالات، لا نكترث بالحق في مجال الأخلاق والدِّين. بل إن الكثيرين يرفضون رفضًا قاطعًا فكرة أن أي دين يمكن أن يكون حقـًا.

ومؤكَّد أنك لاحظت ما في هذا الموقف من تناقض كبير. لماذا نطالب بالحق في كل شيء ما عدا الأخلاق والدِّين؟ لماذا عندما نتكلم عن الأخلاق أو الدين نقول: "هذا حق بالنسبة لك ولكن ليس بالنسبة لي"، رغم أن هذا الكلام الفارغ لا يخطر لنا ببال عندما نتحدث إلى سمسار في البورصة عن أموالنا أو إلى طبيب عن صحتنا؟

إنَّ رَفْضَنا للحق الديني والأخلاقي غالبًا ما يرجع لأسباب إرادية أكثر منها فكرية، وإن كان القليلين هم الذين يعترفون بهذا. فنحن لا **نريد** أن نحاسَب بمقتضى أي معايير أخلاقية أو عقيدة دينية. وهو ما يجعلنا نقبل كالعميان مزاعم الحق التي تُفَنِّد نفسها بإثبات عكس ما تريد أن تُثْبِته *self-defeating* التي يطلقها المفكِّرون ذوو الكياسة الاجتماعية عندما يخبروننا أنه لا يوجد حق، كل شيء نسبي، ليس هناك مطْلَقات، إنها مسألة رأي، لا تحكم، الدين يختص بالإيمان لا بالحقائق. وربما أصاب أغسطينوس حين قال إننا نحب الحق عندما ينيرنا، ولكننا نكرهه عندما يُبَكِّتنا. من المحتمل أننا لا نستطيع التعامل مع الحق.

وحتى نعالج هذا الانفصام الثقافي، علينا أن نجيب عن أربعة أسئلة بخصوص الحق:

١- ما هو الحق؟

٢- هل معرفة الحق ممكنة؟

٣- هل معرفة الحق المختص بالله ممكنة؟

٤- ماذا يعنينا؟ مَن يهتم بالحق؟

سنناقش هذه الأسئلة في هذا الفصل والفصل القادم.

ما هو الحق؟ حقيقة الحق

ما هو الحق؟ الحق بمنتهى البساطة هو ''قول الشيء كما هو''. فالوالي الروماني بيلاطس عندما سأل يسوع: ''ما هو الحق؟'' منذ قرابة ألفي عام، لم ينتظر ليسمع إجابة يسوع. ولكنه سرعان ما تَصَرَّف وكأنه يعرف على الأقل شيئًا من الحق. فقد قال عن يسوع: «أنا لست أجد فيه علة واحدة» (انظر يو١٨: ٣٨). وبإعلان بيلاطس براءة يسوع كان ''يقول الشيء كما هو''.

ويمكن تعريف الحق أيضًا بأنه ''ما يتوافق مع موضوعه'' أو ''ما يصف الواقع''. فقد كان حكم بيلاطس صحيحًا لأنه كان يتفق مع موضوعه، ووَصَفَ الواقع وصفًا دقيقًا. فيسوع كان بريئًا بالفعل.

وخلافًا لما يُدَرَّس في الكثير من المدارس الحكومية، الحق مطلق وليس نسبيًا. فإن كان شيءٌ ما صحيحًا، فهو يصح لكل الناس، وفي كل وقت، وفي كل مكان. كل مزاعم الحق مطلقة، وضيقة، وإقصائية. خذ مثلاً الزعم القائل بأن ''كل الأشياء حق''. إنه زعم مطلق، ضيق، إقصائي. فهو يقصي عكسه (أي أنه يزعم أن الجملة التي تقول إن ''**ليست** كل الأشياء حقًا'' جملة خاطئة). والواقع أن أي حق يقصي كل ما هو ضده، حتى الحق الديني.

وهو ما تبيَّن على نحو مضحك منذ عدة سنوات عندما كنتُ (أنا ''نورم'') أناظر المفكر الإنساني الديني* ''مايكل قسطنطين كولندا'' *Michael Constantine Kolenda*. وكان من

* مصطلح "الإنساني" *humanist* يُستخدم اليوم للإشارة إلى من يسعى ليعيش حياة صالحة دون اعتماد على معتقدات دينية أو خرافية (*humanism.org.uk/humanism/humanism-today/non-religious-beliefs*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ١٣ تموز/يوليو ٢٠١٦. (المترجمة)

الملحدين القلائل الذين ناظرتهم ممن قرؤوا كتابي "الدفاعيات المسيحية" *Christian Apologetics* قبل المناظرة.

وعندما حان دوره ليتكلم رفع كتابي قائلاً: "هؤلاء المسيحيون ضيقو الأفق للغاية. لقد قرأت كتاب الدكتور "جايسلر". أتعرفون ما يؤمن به؟ يؤمن أن المسيحية صحيحة وكل ما يتعارض معها خطأ! هؤلاء المسيحيون ضيقو الأفق للغاية!"

"كولندا" أيضًا ألَّف كتابًا قرأته قبل المناظرة. وكان عنوانه "دين بدونِ الله" *Religion Without God* (مثل قصة حب بدون محبوب!). وعندما حان دوري للكلام رفعت كتاب "كولندا" قائلاً: "هؤلاء الإنسانيون ضيقو الأفق للغاية. لقد قرأت كتاب الدكتور "كولندا". أتعرفون ما يؤمن به؟ يؤمن أن الإنسانية صحيحة وكل ما يتعارض معها خطأ! هؤلاء الإنسانيون ضيقو الأفق للغاية!"

فضحك الجمهور لأنهم فهموا القصد. إن مزاعم الحق الإنسانية ضيقة ضيق مزاعم الحق المسيحية، لأنه إن كانت الإنسانية صحيحة، فكل ما يتعارض مع الإنسانية خطأ. وبالمثل، إن كانت المسيحية صحيحة، فكل ما يتعارض مع المسيحية خطأ.

وهناك الكثير من الحقائق الأخرى عن الحق. وإليك بعضها:

- الحق يُكتشَف ولا يُخترَع. فهو يوجد بالاستقلال عن معرفة أي شخص به. (الجاذبية كانت موجودة قبل "نيوتن").
- الحق يشمل كل الثقافات. أي أنه إن كان شيءٌ ما حقـًا، فهو حق عند كل الناس، وفي كل الأماكن، وفي كل الأوقات (٢+٢=٤ عند الجميع، وفي كل مكان، وفي كل وقت).
- الحق لا يتغير رغم أن **معتقداتنا** عن الحق تتغير. (عندما بدأنا نعتقد أن الأرض كروية بعد أن كنا نعتقد أنها مسطّحة، **الحق** بخصوص الأرض لم يتغير. ما تغيرَّ هو **اعتقادنا** بخصوص الأرض).
- المعتقدات لا تستطيع أن تغير حقيقة، مهما كان صدق أصحابها في اعتناقهم لها. (فيمكن أن يعتقد شخصٌ ما بصدق أن الأرض مسطحة، ولكن هذا الاعتقاد لا يفعل شيئًا سوى أنه يجعل الشخص مخطئـًا بصدق).
- الحق لا يتأثر بحالة الشخص الذي يعلنه. (فإن كان الشخص مغرورًا، غروره لا يجعل

الحق الذي يعلنه خاطئًا. وإن كان الشخص متواضعًا، تواضعه لا يجعل الخطأ الذي يعلنه حقًا).

- كل الحق هو حق مطلق. وحتى الحق الذي يبدو نسبيًا هو في الحقيقة مطلق. (مثلاً جملة "أنا فرانك تورِك أشعر بالدفء يوم ٢٠ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٣" قد تبدو حقًا نسبيًا، ولكن شعور "فرانك تورِك" بالدفء في ذلك اليوم هو أمر حقيقي بصفة مطلقة بالنسبة لكل شخص في كل مكان).

وإيجازًا نقول إن وجود **معتقدات** متضادة أمر وارد، ولكن وجود **حقائق** متضادة مستحيل. يمكننا أن **نعتقد** أن كل شيء صحيح، ولكننا لا نستطيع أن **نجعل** كل شيء صحيحًا.

هذه الأفكار تبدو واضحة وضوحًا كافيًا. ولكن كيف نتعامل مع الفكر الحديث الذي يدعي أنه لا يوجد حق؟ يمكننا أن نستعين باثنتين من الشخصيات الكارتونية لمساعدتنا.

خطة رود رنَر

إن قال لك أحدهم: "عندي لك فكرة ستُحدِث قطعًا تغييرًا جذريًا في قدرتك على سرعة التعرف على العبارات الخاطئة والفلسفات الخاطئة التي تنتشر في ثقافتنا وتُمَكِّنك من تحديدها بوضوح"، هل ستهتم أن تعرف الفكرة؟ هذا ما سنفعله هنا. والحقيقة أننا إن أردنا أن نختار أقيَم قدرة فكرية تعلمناها أثناء سنوات دراستنا الطويلة في كلية اللاهوت والدراسات العليا، سنختار القدرة على تحديد ودحض الجمل المتناقضة التي تُفَنِّد نفسها *self-defeating statements*. ونورد هنا موقفًا من برنامج إذاعي حواري يوضح ما نعنيه بالعبارات التي تُفَنِّد نفسها.

كان "چري" *Jerry* مقدِّم البرنامج الليبرالي يستقبل مكالمات هاتفية في موضوع الأخلاق. وبعد أن سمع العديد من المتصلين يزعمون بجرأة أن موقفًا أخلاقيًا بعينه هو حق، انبرى أحد المتصلين قائلاً: "چري.. چري، ليس هناك شيء اسمه الحق".

فأسرعتُ (أنا "فرانك") أبحث عن الهاتف وبدأتُ أطلب الرقم وقد استشطتُ غضبًا. مشغول. مشغول. مشغول. أردت أن أتصل بالبرنامج وأقول: "چري، أوجه سؤالي للرجل الذي قال "ليس هناك شيء اسمه الحق": هل **ما تقوله حق؟**"

ولكني لم أتمكن أبدًا من إجراء المكالمة. وبالطبع اتفق "چري" مع المتصل، دون أن يدرك مطلقًا أن ادعاءه يستحيل أن يكون صحيحًا لأنه يفنِّد نفسه.

العبارة التي تفند نفسها هي عبارة تعجز عن التوافق مع المعيار الذي تحدده. ومؤكد أنك أدركت أن عبارة المتصل التي تقول "لا يوجد شيء اسمه الحق" تدعي أنها حق؛ ومن ثمَّ، تفنِّد نفسها. إنها تشبه من يقول: "لا أتحدث كلمة واحدة بالعربية". إن قال أحدهم ذلك، لا بد أنك ستجيب قائلاً: "لحظة من فضلك! بالتأكيد عبارتك خاطئة لأنك قلتها باللغة العربية!"

التصريحات المتناقضة التي تفند نفسها تُطلَق باستمرار في ثقافة ما بعد الحداثة التي نشهدها اليوم، وما إن تشحذ قدرتك على رصدها حتى تتمكن من الدفاع عن الحق بمنتهى الجرأة. فلا شك أنك سمعت أشخاصًا يقولون مثلا: "كل الحق نسبي"، "ليس هناك مطلَقات". ولكنك الآن ستتسلح بالسلاح اللازم لدحض هذه العبارات السخيفة بسهولة بأن تكشف عجزها عن بلوغ ما وضعَتْه من مقاييس. أي أنك عندما تقلب العبارة المتناقضة على نفسها يمكنك أن تكشف خواءها.

ونحن نطلق على عملية قلب العبارة المتناقضة على نفسها خطة "رود رَنَر" *Road Runner tactic* لأنها تُذَكِّرنا بالشخصيتين الكارتونيتين "رود رَنَر" و"وايل إي. كويوت" *Wile E. Coyote**. وربما تَذْكُر من أفلام الكارتون التي كانت تُعرض صباح السبت أن الكويوت كان شغله الشاغل وَهَمَّه الأوحد أن يطارد "رود رَنَر" السريع ويتناوله على العشاء. ولكن "رود رَنَر" شديد السرعة وحاد الذكاء. فحالما يحرز الكويوت نوعًا من الانتصار، يتوقف "رود رَنَر" فجأة على حافة الجُرف ويترك الكويوت الذي يركض وراءه معلقًا في الهواء على لا شيء. وما إن يدرك الكويوت أنه لا أرض تحته يقف عليها حتى يهوي إلى قاع الوادي ويسقط في كومة من الرمال.

وهذا هو بالضبط ما تستطيع خطة "رود رَنَر" أن تفعله مع النسبيين وما بعد الحداثيين في يومنا هذا. إنها تساعدهم أن يدركوا أن حججهم أضعف من أن تحملهم. ولذلك، يهوون إلى القاع ويسقطون في كومة من الرمال. وهو ما يجعلك تبدو في منتهى العبقرية! فلنأخذ خطة "رود رَنَر" إلى الجامعة ونشرح لك ما نقصده.

---

* *Road runner* تعني عَدَّاء المسافات الطويلة وهو في هذا الفيلم الكارتوني اسم لطائر سريع جدًا، أما "الكويوت" *Coyote* فهو حيوان من فصيلة الكلاب البرية أو الذئاب ويعيش في أمريكا الشمالية وأحيانًا ما يسرق الطعام أو يقتل الحيوانات المنزلية الصغيرة. (المترجمة)

العذاء رود رَنَر يذهب إلى الجامعة

إن أكثر من يحتاجون اليوم لخطة "رود رَنَر" هم طلاب الجامعات. لماذا؟ لأنك إن استمعت للكثير من أساتذة جامعاتنا، ستجدهم يقولون لك إنه لا يوجد حق. ولكن المدهش أن الآباء والأمهات في العالم أجمع ينفقون فعليًا آلاف الدولارات على التعليم الجامعي حتى يتعلم أبناؤهم وبناتهم **"الحق" القائل بعدم وجود حق**، ناهيك عن غير ذلك من التصريحات المتناقضة التي تفند نفسها مثل: "كل الحق نسبي" (هل **هذه الجملة** حق نسبي؟)، "ليس هناك مُطْلَقات" (هل أنت متأكد بصفة **مطلقة**؟)، "إنه حق بالنسبة لك ولكن ليس بالنسبة لي" (هل هذه العبارة حق بالنسبة لك فقط، أم أنها حق بالنسبة للجميع؟) "حق بالنسبة لك لكن ليس بالنسبة لي" هي الشعار الببغائي العصري، ولكن الواقع أن العالم لا يسير هكذا. جرِّب مثلاً أن تردد هذا الشعار لصَرَّاف البنك، أو ضابط الشرطة، أو مصلحة الضرائب وانظر إلى أين يؤدي بك!

وهذه الشعارات الحديثة خاطئة بالطبع لأنها تفنِّد نفسها بسبب تناقضها. ولكننا نريد أن نوجِّه بضعة أسئلة لمن لا يزالون يقبلونها قبولاً أعمى: إن لم يكن هناك أي حق، فلماذا تحاولون أن تتعلموا أصلاً؟ ما الذي يضطر أي طالب أن يستمع لأستاذه؟ فمهما كان، الأستاذ لا يملك الحق. ما معنى الذهاب إلى المدرسة أو الجامعة، وبالأحرى دفع مصروفاتها؟ وما معنى الابتعاد عن الممنوعات الأخلاقية التي يحدِّدها الأستاذ من الغش في الامتحانات والسرقة الفكرية في الأبحاث الدراسية؟

الأفكار لها عواقب. الأفكار الصالحة تأتي بعواقب صالحة، والأفكار السيئة تأتي بعواقب سيئة. والحقيقة أن الكثير من الطلاب يدركون تداعيات هذه الأفكار السيئة لما بعد الحداثة ويتصرفون بناءً عليها. فإن علَّمنا طلابنا أنه لا يوجد صواب ولا خطأ، لماذا نندهش عندما يطلق اثنان من الطلاب الرصاص على زملائهم، أو عندما تترك أمٌّ مراهِقةٌ رضيعَها في صندوق القمامة؟ لماذا يجب أن يفعلوا "الصواب" ونحن نُعَلِّمهم أنه ليس هناك "صواب"؟

لقد كشف "سي. إس. لويس" *C. S. Lewis* عبثيةَ انتظار الفضيلة من أناس تَعَلَّموا أنه لا توجد فضيلة: "بنوع من السذاجة المقيتة نستأصل العضو ونطالب بأداء وظيفته. نصنع رجالاً بلا قلب وننتظر منهم الفضيلة وحسن السلوك. نستهزئ بالشرف ونُصْدَم عندما نكتشف خونة فيما بيننا. إننا كمن يخصي خيله ويتوقع منها أن تتكاثر[1]

إن حقيقة الأمر أن: الأفكار الخاطئة عن الحق تؤدي إلى أفكار خاطئة عن الحياة. وفي الكثير من الأحيان هذه الأفكار الخاطئة تبرِّر ظاهريًا سلوكيات غير أخلاقية بالمرَّة. لأنك إن قتلت مفهوم الحق، عندئذٍ يمكنك أن تقتل مفهوم أي ديانة صحيحة أو أي أخلاق صحيحة. وقد حاول الكثيرون في ثقافتنا أن يفعلوا ذلك، والأربعون سنة الماضية من الانحدار الديني والأخلاقي تشهد على نجاحهم. فللأسف أن العواقب الوخيمة التي ترتبت على جهودهم ليست صحيحة بالنسبة لهم فقط، ولكنها صحيحة بالنسبة لنا جميعًا.

إذَن الحق موجود. ولا يمكن إنكاره. ومَن ينكرون الحق يزعمون هذا الزعم المتناقض عن الحق الذي يقول بعدم وجود حق. وهم يشبهون في ذلك "الدبويني" *Winnie the Pooh*، يجيبون قارع الباب قائلين: "لا أحد في البيت".

فلنرَ الآن كيف يمكن أن تساعدنا خطة "رود رَنَر" في الرد على الزعم المتشكك في الحق الذي يقول إنه "يستحيل أن نعرف الحق".

هل معرفة الحق ممكنة؟ قرَعات على الباب...

يؤمن المسيحيون بأن عليهم أن يطيعوا وصية يسوع حين قال: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (مت٢٨: ١٩). ولمساعدة المسيحيين في القيام بهذه "المأمورية العظمى"، ابتكر "دي چيمز كينيدي" *D. James Kennedy* أسلوبًا كرازيًا يعتمد على قرع أبواب البيوت، يطلق عليه "انفجار الكرازة" *Evangelism Explosion "(EE)"*. وإن كنت مسيحيًا، أسلوب "انفجار الكرازة" يتيح لك أن تحدِّد بسرعة موقع الشخص روحيًا. فبعد أن تقدِّم نفسك، تسأل من يفتح لك الباب أسئلة من قبيل:

١- هل لي أن أسألك سؤالاً روحيًا؟

٢- إن انتهت حياتك الليلة ووقفت أمام الله، وسألك الله: "لماذا أُدْخِلك إلى سمائي؟" بم ستجيب؟

معظم الناس لديهم من الفضول ما يجعلهم يردُّون بالإيجاب على السؤال الأول. (إن قالوا: "ماذا تقصد بالسؤال الروحي؟" تنتقل إلى السؤال الثاني). أما عن السؤال الثاني، فدليل "انفجار الكرازة" يتوقع أن غير المسيحي عادة ما يقدم إجابة "الأعمال الصالحة". فهو يقول شيئًا مثل: "الله سيقبلني لأني شخص صالح في الأساس. لم أقتل أحدًا. أذهب إلى الكنيسة. أعطي

الفقراء..." في هذه الحالة يخبرك دليل "انفجار الكرازة" أن تجيبه بالإنجيل (يعني حرفيًا "الخبر السار"): أن الجميع (بما فيهم أنت) قـصُروا عن بلوغ مستوى كمالِ الله، وما من أعمال صالحة يمكنها أن تمحو حقيقة أنك ساقط فعليًا في الخطية، لكن الخبر السار أنه يمُكِنك أن تخلص من العقاب بأن تثق في المسيح الذي تَحَمَّل العقاب نيابةً عنك.

ورغم ما حقَّقه هذا الأسلوب من نجاح ملحوظ، بعض غير المسيحيين لا يجيبون عن السؤالين كما هو متوقع. فمثلاً، قررتُ (أنا "نورم") ذات ليلة أن أستخدم أسلوب "انفجار الكرازة" في الشوارع مع أحد إخوتي من أعضاء الكنيسة. وإليك ما حدث:

قـرَعْنا الباب.

"مَن الطارق؟" (فتح رَجُلٌ الباب).

رفعت يدي محييًا وقلت: "مساء الخير. اسمي "نورم جايسلر"، وهذا صديقي "دون"... نحن من الكنيسة الواقعة في نهاية الشارع".

أجاب الرجل وهو يتفحصنا بعينيه: "أنا "دون" *Don*".

فبادرته فورًا بالسؤال الأول: ""دون" هل عندك مانع أن نسألك سؤالاً روحيًا؟"

أجاب "دون" بثقة وكأنه يتوق لتناوُل لَكْمة كتابية بدلاً من حلوى العشاء: "لا، تَفـضَّل".

فطرحت عليه السؤال الثاني: ""دون"، إذا انتهت حياتك الليلة ووقفت أمام الله، وسألك الله: "لماذا أُدْخِلك إلى سمائي؟" بم ستجيب؟"

فأجاب "دون" غاضبًا: "سأقول لله: "ولماذا لا تُدخلني إلى سمائك؟""

مفاجأة... لا يُفترض أن يقول ذلك! أقصد هذه الإجابة ليست في الكتيب!

بعد لحيظة من الارتباك رفعْتُ صلاة سريعة وأجبت: ""دون"، إن قرعنا بابك وأردنا الدخول إلى بيتك، فقلتَ لنا: "لماذا أُدْخِلكم إلى بيتي؟" فقلنا: "ولماذا لا تُدْخِلنا؟" ماذا تقول؟"

أشار "دون" بإصبعه نحو صدري وأجاب بحزم: "سأخبركما إلى أين تذهبان!"

فرددتُ فورًا: "هذا بالضبط ما سيقوله الله لك!"

صُعِقَ "دون" لحظة ولكنه بعدئذٍ ضيَّق عينيه وقال: "الحقيقة أنا لا أؤمن بالله. أنا ملحد".

"أنت ملحد؟"

"بالضبط".

فسألته: ''هل أنت متيقن يقينـًا مطلقـًا أن الله غير موجود؟''

فصمت ثم قال: ''لا لستُ متيقنـًا يقينـًا **مطلقـًا**. أظن أنه من المحتمل أن يكون هناك إله''.

فأخبرته: ''إذَن أنت لستَ ملحدًا حقيقيًا. أنت لاأدري، لأن الملحد يقول "أنا أدري أن الله غير موجود". واللاأدري يقول: "لستُ أدري إن كان الله موجودًا"''.

فاعترف قائلاً: ''آه... وهو كذلك. إذَن أظن أني لاأدري''.

يا له من تقدُّم! بسؤال واحد فقط انتقلنا من الإلحاد إلى اللاأدرية! ولكن بقي عليَّ أن أكتشف نوع اللاأدريين الذي ينتمي إليه ''دون''.

فسألته: ''"دون"، أي نوع من اللاأدريين أنت؟''

فسألني ضاحكـًا: ''ماذا تقصد؟'' (محتمل أنه كان يقول لنفسه ''منذ دقيقة واحدة كنتُ ملحدًا. لا أعلم أنا أي نوع من اللاأدريين الآن!'')

فشرحتُ قائلاً: ''"دون" اللاأدريون نوعان. الأول هو اللاأدري **العادي** الذي يقول إنه **لا** يعرف أي شيء على وجه اليقين، والثاني هو اللاأدري **العنيد** الذي يقول إنه **لا يستطيع** أن يعرف أي شيء على وجه اليقين''.

أجاب ''دون'' واثقـًا: ''أنا من النوع العنيد. لا تستطيع أن تعرف أي شيء على وجه اليقين''.

وهنا رأيت أن زعمه متناقض يفند نفسه، فأطلقت خطة ''رود رَنَر'' وسألته: ''"دون"، إن كنت تقول إنك لا تستطيع أن تعرف أي شيء على وجه اليقين، فكيف تعرف **ذلك** على وجه اليقين؟''

فقال متحيرًا: ''ماذا تقصد؟''

فشرحتُ له بأسلوب مختلف قائلاً: ''كيف **تعرف** على وجه اليقين أنك لا تستطيع أن **تعرف** أي شيء على وجه اليقين؟''

لاحظت بريق الفهم بدأ يطل من عينيه، لكني قرَّرت أن أضيف نقطة أخرى: ''ثم إنك يا "دون" لا تستطيع أن تتشكك في كل شيء لأن هذا يعني أنك لا بد أن تتشكك في الشك، ولكنك كلما شككت في الشك، ازداد يقينك''.

فبدأ يلين، وقال: ''أظن أني فعلاً **أستطيع** أن أعرف شيئـًا على وجه اليقين. مؤكد أني لاأدري **عادي**''.

وهنا بدأنا فعلاً نصل إلى نقطة محددة. فبالقليل من الأسئلة انتقل ''دون'' من الإلحاد مرورًا باللاأدرية **العنيدة** إلى اللاأدرية **العادية**.

فاستطردتُ قائلاً: "ما دمت تعترف الآن أنك تستطيع أن تعرف، لماذا لا تعرف إن كان الله موجودًا؟"

فهز كتفيه قائلاً: "أظن لأنه ما من أحد بيَّن لي أي أدلة".

وهنا سألته سؤالاً بمليون دولار: "هل ترغب في الاطلاع على بعض الأدلة؟"

فأجاب: "بالتأكيد".

وهذا هو أفضل نوع من الأشخاص يمكنك أن تتحدث إليه: شخص يريد أن ينظر نظرة صادقة للأدلة. فالإرادة ضرورية لأن الأدلة لا تستطيع أن تقنع مَن لا يريد.

وبما أن "دون" كانت له الإرادة، أعطيناه كتابًا بقلم "فرانك موريسون" *Frank Morison* بعنوان "مَن دحرج الحَجَر؟"[٢] *Who Moved the Stone* وقد كان "موريسون" شكوكيًا عزم أن يكتب كتابًا يفند فيه المسيحية، ولكنه بدلاً من أن يكتب الكتاب اقتنع بالأدلة أن المسيحية صحيحة بالفعل. (والحقيقة أن الفصل الأول من كتاب "مَن حَرَّكَ الحَجَر؟" عنوانه "الكتاب الذي أبى أن يُكتَب" "*The Book That Refused to Be Written*").

ثم زرنا "دون" بعد فترة قصيرة. ووصف الأدلة التي قدمها "موريسون" بأنها "مقنعة جدًا". وبعد عدة أسابيع في دراسة لإنجيل يوحنا، قَبِل "دون" يسوع المسيح ربًا ومخلصًا شخصيًا.

واليوم "دون" يخدم في إحدى الكنائس المعمدانية بالقرب من "سانت لويس" في ولاية ميزوري. وعلى مدى سنوات وهو يقود حافلة الكنيسة صباح الأحد ليأتي بأطفال الحي الذين لا يذهب آباؤهم وأمهاتهم إلى الكنيسة. وخدمته تُمَثِّل لي (أنا "نورم") قيمة خاصة لأن رَجُلَين مثل "دون" (مستر "كوستي" *Costie* ومستر "سويتلاند" *Sweetland*) أخذاني إلى الكنيسة بالحافلة أكثر من ٤٠٠ مرة، كل يوم أحد منذ سن التاسعة حتى السابعة عشر. وقبولي للمسيح في سن السابعة عشر يرجع الفضل الأكبر فيه لخدمة الحافلة هذه. أظن أن المثل القائل "كما تزرع تحصد" مثل صحيح، حتى إن كانت حافلة مدرسة الأحد.

هل يمكن أن تكون كل الديانات صحيحة؟

الدرس الذي نستخلصه من قصة "انفجار الكرازة" هو أن اللاأدرية التامة أو الشكوكية التامة تفنِّد نفسها. فاللاأدريون والمتشككون يزعمون زعمًا بخصوص الحق يقول إننا لا نستطيع أن نزعم أي شيء بخصوص الحق. وهم يقولون إننا لا نستطيع أن نعرف الحق،

ولكنهم بعدئذٍ يزعمون أن موقفهم هذا حق. ولكن من المستحيل أن يجمعوا بين الاثنين.

لذا فقد أثبتنا أن معرفة الحق ممكنة. بل إن الحق لا يمكن إنكاره. ولكن ألا يمكن أن تكون كل الديانات صحيحة؟ مما يؤسَف له أن اللغط المرتبط بهذا السؤال لا يقتصر على الدوائر العلمانية فحسب، بل حتى بعض قسوس الكنائس متحيرون في هذا السؤال.

وقد سمع البروفسور "رونالد ناش" *Ronald Nash* الأستاذ بكلية اللاهوت عن مثال جيد على ذلك. فقد أخبرنا عن أحد طلابه منذ بضع سنوات ذهب لقضاء عطلة الكريسماس في بيته في مدينة "بولينج جرين" *Bowling Green* بولاية كنتاكي. وأثناء العطلة قرّر هذا الطالب الذي يؤمن بالكتاب المقدس أن يغامر ويحضر خدمة الأحد في كنيسة لم يذهب إليها من قبل. ولكن ما إن نطق القس بأول جملة في عظته، حتى أدرك الطالب خطأه، فقد كان القس يناقض الكتاب المقدس.

وهكذا بدأ القس: "موضوع عظتي هذا الصباح أن كل المعتقدات الدينية صحيحة!" وأخذ الطالب يتلوى في مقعده، بينما استمرّ القس يؤكِّد لكل شخص في الحاضرين أن كل ما لديه من عقائد دينية "حق"!

وبعد انتهاء العظة أراد الطالب أن يَنْسَلّ خارجًا دون أن يلحظه أحد، ولكن القس، ضخم الجثة، وقف بردائه على الباب يحتضن كل شخص بقوة عند خروجه.

فحيّا القس الطالب وسأله بصوت جهوري: "من أين أنت يا ابني؟"

"أنا من "بولينج جرين"، سيدي. أتيت من كلية اللاهوت لقضاء العطلة مع أسرتي".

"كلية اللاهوت! ممتاز. إذَن ما هي معتقداتك الدينية يا بُنَيّ؟"

"سيدي، أُفَضِّل أن أحتفظ بها لنفسي".

"لماذا يا بُنَيّ؟"

"لأني لا أريد أن أؤذيك، سيدي".

"لا يا بُنَيّ. لن تؤذيني. وأيًا كانت معتقداتك فهي صحيحة. بمَ تؤمن إذَن؟"

فأذعن الطالب وقال: "حسنًا". ومال نحو القس وأحاط فمه بيده وهمس: "سيدي، أنا أؤمن أنك ذاهب إلى الجحيم!"

اشتعل وجه القس حمرة وهو يحاول أن يجد إجابة، ثم قال: "أنا، آه، أظن أني... أخطأت! **لا يمكن** أن تكون كل المعتقدات الدينية صحيحة لأنه مؤكد أن معتقداتك ليست صحيحة".

بالطبع، كما أدرك القس، يستحيل أن تكون كل المعتقدات الدينية صحيحة لأن الكثير من المعتقدات الدينية متناقضة، أي أنها تُعَلِّم مفاهيم عكس بعضها البعض. فمثلاً المسيحيون المحافظون يؤمنون أن مَن لم يقبل المسيح مخلِّصًا اختار جهنّم مصيرًا أبديًا له. والكثير من المسلمين أيضًا يؤمنون أن غير المسلمين ذاهبون إلى جهنم، إلا أننا غالبًا ما نتجاهل ذلك. والهندوس عمومًا يؤمنون أن الجميع، بصرف النظر عن معتقداتهم، محبوسون في دائرة لانهائية من تناسخ الأرواح حسب أعمالهم. وهذه المعتقدات المتناقضة لا يمكن أن تكون كلها صحيحة.

والحقيقة أن الأفكار المتناقضة في ديانات العالم تزيد عن الأفكار المتوافقة فيها. والفكرة القائلة بأن كل الديانات في جوهرها تُعَلِّم نفس التعاليم، لذا علينا أن نحب بعضنا بعضًا، تنم عن سوء فهم خطير لديانات العالم. فمعظم الديانات تتشابه في قانونها الأخلاقي نوعًا ما؛ لأن الله زرع الصواب والخطأ في ضمائرنا (سنناقشُ ذلك في الفصل السابع). إلا أنها تختلف في كل القضايا الرئيسية تقريبًا، بما فيها طبيعةُ الله، وطبيعة الإنسان، والخطية، والخلاص، والسماء، وجهنم، والخليقة!

فكِّر فيها: **طبيعةُ الله، طبيعة الإنسان، الخطية، الخلاص، السماء، جهنم، الخليقة.** تلك هي الموضوعات الكبيرة! وإليك بعضًا من تلك الاختلافات الكبيرة:

- اليهود والمسيحيون والمسلمون يؤمنون، بصور مختلفة، بالله الخالق الحافظ، بينما يؤمن معظم الهندوس وأتباع العصر الجديد أن كل الموجودات جزء من قوة غير شخصية *impersonal* متوحدة مع الوجود *pantheistic* يطلقون عليها "الله".
- كثير من الهندوس يعتقدون أن الشر وَهْمٌ مَحضْ، في حين أن المسيحيين والمسلمين واليهود يؤمنون أن الشر حقيقة.
- المسيحيون يؤمنون أن الإنسان يخلص بالنعمة في حين أن سائر الديانات جميعًا، إن كانت تؤمن بالخلاص أصلاً، تُعَلِّم بنوع من الخلاص على أساس الأعمال الصالحة (وتختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا في تعريف "الصلاح" وفيما يخلص منه الإنسان).

وهي مجرد أمثلة قليلة على الكثير من الاختلافات الجوهرية. اختلافات أكبر من استيعاب الفكرة القائلة بأن كل الديانات تتفقُ جوهريًا في تعاليمها.

الحق مقابل قبول الاختلاف

رغم أن معظم الديانات تحوي بعض المعتقدات الصحيحة، لا يمكن أن تكون كل المعتقدات الدينية صحيحة لأنها تقصي بعضها البعض، أي أنها تحوي تعاليم مضادة لبعضها البعض. وهو ما يعني أن بعض المعتقدات الدينية لا بد أن تكون خاطئة. ولكنك لا يجب أن تقول هذا الكلام في أمريكا اليوم. يجب أن "تقبل الاختلاف" بين كل المعتقدات الدينية. وفي ثقافتنا اليوم لم يعد "قبول الاختلاف" *tolerance* يعني أن تجبر نفسك على تَحَمُّل شيء تراه خاطئًا (طبيعي أنك لا تجبر نفسك على تَحَمُّل ما تتفق معه). **ولكن قبول الاختلاف الآن يعني أنك يجب أن تقبل كل معتقد باعتباره صحيحًا!** وهو ما يُعرَف في المجال الديني باسم التعدّدية الدينية، وتعني الاعتقاد بأن كل الديانات صحيحة. إلا أن هذا التعريف الجديد لقبول الاختلاف ينطوي على عدد من المشكلات.

أولاً، لا بد أن نسجِّل امتناننا لما ننعم به من حرية دينية في هذا البلد، وأننا لا نؤمن بفرض ديانة بقوة القانون (انظر كتابنا "تشريع الأخلاق" *(Legislating Morality)*.[٣] فنحن واعون تمامًا بمخاطر عدم قبول الاختلاف الديني، ونؤمن أنه علينا أن نقبل مَن يختلفون عنا في العقائد الدينية ونحترمهم. إلا أن هذا لا يعني أنه علينا أن نعتنق شخصيًا الفكرة المستحيلة القائلة بأن كل المعتقدات الدينية صحيحة. فبما أن المعتقدات الدينية المتضادة، يستحيل أن تكون كلها صحيحة، فلا معنى للتظاهر بأنها صحيحة. والحقيقة أن هذا التظاهر خطير على المستوى الفردي. فإن كانت المسيحية صحيحة، فعدم إيمانك بها يهدِّد مصيرك الأبدي. وكذلك، إن كان الإسلام صحيحًا، فعدم إيمانك به يهدّد مصيرك الأبدي.

ثانيًا، الزعم الذي يقول إنه "يجب ألا تتساءل في صحة المعتقدات الدينية لأي شخص" هو نفسه يمثِّل معتَقَدًا دينيًا يعتنقه التعدديون. ولكن هذا المعتقد في حد ذاته يتساوى في إقصائه للمعتقدات الأخرى وفي "رفضه للاختلاف" مع أي معتقد ديني يؤمن به المسيحي أو اليهودي. بمعنى أن التعدديين يرون أن كل المعتقدات غير التعددية خاطئة. لذا، فالتعدديون متصلبو الفكر ومنغلقو العقل، مثلهم مثل غيرهم ممن يطلقون مزاعم عن الحق في سوق الأفكار، ويريدون مِنْ كل مَنْ يختلف معهم أن يرى الأمور كما يرونها هم.

ثالثًا، منع التساؤل في صحة المعتقدات الدينية يُعَبِّر أيضًا عن موقف أخلاقي مطلق. ما المانع أن نتساءل في صحة المعتقدات الدينية؟ هل هذا الفعل ضد الأخلاق؟ وإن كان كذلك،

فمن الذي وضع هذا المعيار؟ هل يملك التعدديون أسبابًا وجيهة تؤيد **اعتقادهم** بأننا يجب ألا نتساءل في صحة المعتقدات الدينية، أم إنه مجرد رأي شخصي يريدون أن يفرضوه علينا جميعًا؟ فإن لم يتمكنوا من أن يقدِّموا لنا أسبابًا وجيهة لهذا المعيار الأخلاقي، لماذا نسمح لهم بفرضه علينا؟ ولماذا يحاول التعدديون فرض ذلك الموقف الأخلاقي علينا بأي حال؟ فهم بهذا لا "يقبلون الاختلاف".

رابعًا، الكتاب المقدس يأمر المسيحيين أن يتساءلوا في صحة المعتقدات الدينية (مثلاً تث١٣: ١-٥؛ ١يو٤: ١؛ غل١: ٨؛ ٢كو١١: ١٣، وغيرها). وبما أن التساؤل في صحة المعتقدات الدينية يدخل ضمن المعتقدات الدينية للمسيحيين، إذَن التعدّديون يجب أن يقبلوا هذا المعتقَد المسيحي أيضًا، وفقًا للمعيار الذي وضعوه بأنفسهم. ولكنهم لا يقبلونه طبعًا. فمن المضحك أن التعدديين، أنصار المفهوم الجديد لقبول الاختلاف، لا يقبلون الاختلاف على الإطلاق. فهم لا "يقبلون" إلا مَن يتفق معهم، وهو ما لا يُعَدّ قبولاً للاختلاف، أيًا كان تعريف قبول الاختلاف.

خامسًا، زَعْم التعدديين بأنه يجب ألا نتساءل في صحة المعتقدات الدينية مشتق من الحظر الثقافي الخاطئ على إصدار الأحكام. إنَّ حظر إصدار الأحكام هو حظر خاطئ لأنه يعجز عن التوافق مع المعيار الذي يضعه: عبارةُ "يجب ألا تحكم" هي نفسها حكم! (التعدديون يسيئون تفسير كلام يسوع عن إصدار الأحكام [مت٧: ١-٥]. فيسوع لم يمنع هذا النوع من إصدار الأحكام، ولكنه مَنَعَ فقط الحكم المرائي). بل الواقع أن الجميع، من تعدديين ومسيحيين وملحدين ولاأدريين، يصدرون أحكامًا. فالقضية ليست في إصدار الأحكام أو عدمه، ولكن في إصدار الأحكام **الصحيحة**.

وأخيرًا، هل التعدديون مستعدون لقبول المعتقدات الدينية التي تعتنقها بعض الجماعات الإرهابية باعتبارها صحيحة، وخاصةً عندما تقول تلك المعتقدات إن كل مَن لا يؤمنون بعقائدهم (ومنهم التعدديون) يجب قتلهم؟ هل هم مستعدون لقبول المعتقدات الدينية لمن يؤمنون بذبائح الأطفال أو غيرها من الأعمال الوحشية باعتبارها صحيحة؟ نتمنى لا.

صحيح أنه يجب علينا أن نحترم حقوق الآخرين في أن يؤمنوا بما يشاؤون، إلا أننا نكون أغبياء وغير محبين للآخرين إن قَبِلْنا ضمنًا كل عقيدة دينية باعتبارها صحيحة. لماذا

نكون غير محبين إن فعلنا ذلك؟ لأنه إن كانت المسيحية صحيحة، فإن أوحينا لأي شخص أن معتقداته الدينية المخالفة للمسيحية أيضًا صحيحة نكون غير محبين له. فتأكيد ما عنده من خطإٍ قد يبقيه في طريق الهلاك الأبدي. ولكن إن كانت المسيحية صحيحة، علينا أن نـُعَرِّفه الحق بلطف؛ لأن الحق فقط هو الذي يستطيع أن يحرِّره.

كنت أعمى والآن أبصر

بم تخبرنا التعددية المذهلة للمعتقدات الدينية عن الحق الديني؟ للوهلة الأولى قد يظهر أن تعدد المعتقدات المتناقضة يؤكد مَثـَل الفيل الذي ذكرناه في المقدمة، أي أن الحق الديني لا يمكن معرفته. ولكن الحقيقة أن العكس هو الصحيح.

وللتذكِرة، نرى في هذا المثل ستة رجال مكفوفين يتفحصون فيلاً. وكل رجل يتحسس جزءًا مختلفـًا من الفيل، ومن ثم يتوصل إلى استنتاج مختلف بخصوص الشيء الموجود أمامه. يمسك أحدهم بالناب ويقول: "هذا رمح!" ويمسك آخرُ الخرطومَ ويقول: "إنه ثعبان!" أما مَنْ يحتضن الساق يقول: "هذه شجرة!" والأعمى الذي يمسك الذيل يقول: "معي حبل!" ومن يتحسس الأذن يقول "إنها مروحة!" ومَن ينحني على جانب الفيل يقول واثقـًا: "إنه حائط!" ويقال إن هؤلاء الرجال العميان يمثلون ديانات العالم لأن كلاً منهم يتوصل إلى استنتاج مختلف عما يتحسسه. ويقال لنا إنه ما من دين واحد يمتلك "الحق"، بأل التعريف، مثل كل رجل من الستة العمي. فالحق الديني نسبي يختص بالفرد. إنه ذاتي، وليس موضوعيًا.*

وقد يبدو هذا الكلام مقنعًا حتى تسأل نفسك سؤالاً واحدًا: "ما منظور الشخص الذي يروي هذا المثل؟" حسنـًا، لنرَ الشخص الذي يروي هذا المثل... يبدو أن منظوره **موضوعي** للعملية كلها لأنه يدرك أن الرجال العميان مخطئون. بالضبط. والحقيقة أنه ما كان لـَيعرف أن الرجال العميان مخطئون إلا إذا كان عنده منظور موضوعي لما هو صائب!

فإن كان راوي المثل يمكنه أن يدرك الأمر من منظور موضوعي، لِمَ لا يستطيع الرجال العمي ذلك؟ بإمكانهم ذلك، فإن تمَكـَّن الرجال العمي من أن يروا فجأة، سيتمكنون هم أيضًا من إدراك خطئهم في البداية. سيدركون أن الكائن الموجود أمامهم فيل وليس حائطـًا، ولا مروحة، ولا حبلاً.

* للاطلاع على الفرق بين الموضوعية والذاتية يمكن الرجوع للحاشية السفلية ص ٢٦. (المترجمة)

ونحن أيضًا نستطيع أن نرى الحق الديني. ولكن للأسف الكثير منّا ممن ينكرون وجود حق في الدين ليسوا عميانـًا **فعليًا** ولكنهم عميان **عمدًا**. فقد لا نريد أن نعترف بوجود حق في الدين لأن ذلك الحق سيُبَكّتنا. ولكننا إن فتحنا أعيننا وتوقفنا عن الاختباء خلف هذا الكلام الفارغ الذي يفنِّد نفسه زاعمًا أن معرفة الحق غير ممكنة، سنتمكن من رؤية الحق. ولن نرى الحق في المجالات التي نريده فيها فقط، كالمال، والعلاقات، والصحة، والقانون... إلخ، بل الحق الديني أيضًا. ونقول مع الأعمى الذي شفاه يسوع: "كنت أعمى والآن أبصر".

وقد يقول المتشكك: "لحظة من فضلك! من المحتمل أن مَثَل الفيل ليس مُوَفّقـًا، إلا أن ذلك لا يُثْبِت أن معرفة الحق الديني ممكنة. لقد أثْبَتَّ أن معرفة الحق ممكنة، ولكن ليس بالضرورة الحق الديني. أوَ لم يدحض "ديـڤيد هيوم" *David Hume* وكذلك "إيمانيول كانط" *Immanuel Kant* فكرة الحق الديني؟"

بالقطع لا، وسنناقش السبب في الفصل التالي.

الملخص والخلاصة

١- رغم ما تنضحه ثقافتنا من نسبية، فالحق مطلق، وإقصائي، وقابل للمعرفة. وإنكار الحق المطلق وإمكانية معرفته هو افتراض يفنِّد نفسه بإثبات عكس ما يريد أن يُثْبِت.

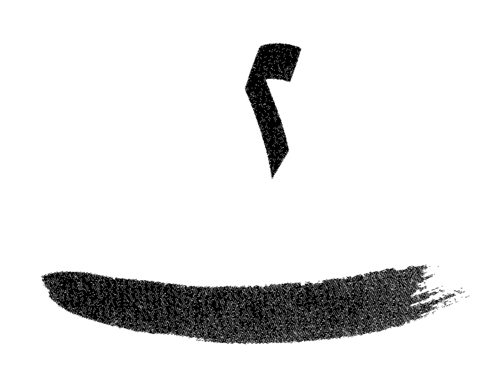
٢- خطة "رود رَنَر" تقلب الجملة على نفسها وتساعد في كشف الجُمَل المفنِّدة لنفسها (التي هي بالتالي خاطئة) التي أصبحت واسعة الانتشار اليوم. ومن هذه الجُمَل: "ليس هناك حق" (هل **تلك الجملة** حق؟)، "كل الحق نسبي" (هل **تلك الجملة** حق نسبي؟)، "لا يمكنك أن تعرف الحق" (فكيف عرفت **ذلك** إذَن؟). في الأساس أي جملة لا يمكن تأكيدها (لأنها تناقض نفسها) لا بد أن تكون خاطئة. فالنسبيون يهزمون أنفسهم بمنطقهم.

٣- الحق لا يعتمد على مشاعرنا ولا استحساناتنا. فالشيء يكون صحيحًا سواء أَعْجَبَنا أم لا.

٤- خلافـًا للرأي الشائع، ديانات العالم الرئيسية لا "تُعَلِّم جميعًا تعاليم واحدة". بل

إنها تختلف فيما بينها اختلافات جوهرية ولا تتفق إلا في أمور سطحية. فلا يمكن أن تكون كل الديانات صحيحة لأنها تُعَلِّم تعاليم متناقضة.

٥- بما أنه يستحيل منطقيًا أن تكون كل الديانات صحيحة، لا نستطيع أن نقبل التعريف الحديث لقبول الاختلاف الذي يطالبنا بقبول الفكرة المستحيلة القائلة بأن كل المعتقدات الدينية صحيحة. لذا، علينا أن نحترم معتقدات الآخرين، ولكن نخبرهم بالحق بمحبة. فمهما كان، إن كنتَ تحب الناس حقًا وتحترمهم، ستخبرهم بالحق المتعلق بمعلومات قد تَجُرّ عواقب أبدية.



ما الذي يجعلنا نُصَدِّق أي شيء على الإطلاق؟

في كل الحالات تقريبًا يُكَوِّن البشر معتقداتهم لا على أساس البرهان بل على أساس جاذبية المعتقد.

"بليز پاسكال" Blaise Pascal

يدير الكاتب والمتحدث "چيمز سَير" James Sire حلقة نقاشية تفاعلية في الكليات والجامعات في أنحاء البلاد تبعث استنارات جديدة في الأذهان. والحلقة النقاشية بعنوان "ما الذي يجعلنا نُصَدِّق أي شيء على الإطلاق" Why Should Anyone Believe Anything At All?

وعادة ما يجذب هذا العنوان المثير جمهورًا كبيرًا. ويبدأ "سَير" بطرح هذا السؤال على الحضور: "لماذا يُصَدِّق الناس ما يُصَدِّقون؟" ورغم تنوع الإجابات وتعدُّدها، يوضِّح "سَير" أن كل إجابة تدخل ضمن واحدة من هذه الفئات الأربع: اجتماعية، نفسية، دينية، فلسفية.[1]

الأسباب الاجتماعية	الأسباب النفسية	الأسباب الدينية	الأسباب الفلسفية
الوالدان	الارتياح	النص المقدس	الاتساق
الأصدقاء	سلام العقل	القس/الكاهن	الترابط
المجتمع	المعنى	المعلم الهندوسي	الاكتمال (أفضل
الثقافة	الهدف	الحاخام	تفسير لكل الأدلة)
	الأمل	الإمام	
	الهوية	الكنيسة	

جدول ٢-١

يبدأ "سَير" من اليمين ويسأل الطلاب عن كل سبب في كل فئة قائلاً: "هل هذا سبب وجيه لتصديق شيء ما؟" وإن كان الطلاب حادي الذكاء (مثل طلاب كلية اللاهوت الإنجيلية الجنوبية! *Southern Evangelical Seminary*)، قد يسير الحوار هكذا:

"سَير": أرى أن الكثيرين منكم ذكروا عوامل اجتماعية. فمثلاً الكثيرون يعتنقون معتقدات معينة لأن والديهم يعتنقونها. فهل ترون أن هذا العامل وحده يمثِّل سببًا وجيهًا كافيًا لتصديق شيء ما؟

الطلاب: لا. الوالدان قد يخطئان أحيانـًا.

"سَير": وماذا عن المؤثرات الثقافية؟ هل ترون أنه على الناس أن يُصَدِّقوا شيئًا لمجرد أنه مقبول ثقافيًا؟

الطلاب: لا. ليس بالضرورة. ثقافة النازيين قَبِلَت قَتْل كل اليهود. وقبولهم لا يجعل قتل اليهود صحيحًا.

"سَير": ممتاز. بعضكم ذَكَر عوامل نفسية مثل الارتياح. هل هذا سبب وجيه، يكفي لتصديق شيء؟

الطلاب: لا. لا نشعر "بارتياح" لذلك! الحقيقة أن الارتياح ليس معيارًا للحق. فقد يريحنا الاعتقاد في وجود إله يعتني بنا، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه موجود بالفعل. وكذلك المدمن قد يستريح مؤقتـًا لأحد أنواع المخدرات، إلا أن ذلك المخدر قد يودي بحياته.

"سَير": إذَن تقصدون أن الحق مهم لأننا إن أخطأنا قد تترتب على ذلك عواقب؟

الطلاب: نعم. إن أخطأ أحدهم بخصوص دواء ما، قد يفرط في تناوله ويموت. وكذلك إن أخطأ أحدهم في تقديره لسُمْك الجليد، قد يسقط فيه ويتجمد حتى يموت.

"سَير": إذَن من المنطقي ألا نُصَدِّق إلا الأشياء الصحيحة لاعتبارات عملية.

الطلاب: طبعًا. وعلى المدى البعيد الحق يحمي والخطأ يضر.

"سَير": إذَن الأسباب الاجتماعية والنفسية وحدها لا تمثل أساسًا كافيًا لتصديق شيءٍ ما. ماذا عن الأسباب الدينية؟ البعض ذكروا الكتاب المقدس، وآخرون ذكروا القرآن، والبعض الآخر استقوا معتقداتهم من الكهنة أو المعلمين الهندوس. هل يجب أن تصدِّق شيئـًا لمجرد أن مصدرًا دينيًا أو كتابًا مقدسًا يقول لك ذلك؟

الطلاب: لا. لأن السؤال الذي يطرح نفسه: "كتاب مَن أو مصدر مَن الذي يجب أن نُصَدِّقه؟" فمهما كان، الكتب تتناقض مع بعضها البعض.

"سَير": هل يمكن أن تعطوني مثالاً؟

الطلاب: الكتاب المقدس مثلاً يتناقض مع كتب أخرى. فلا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا. فالكتاب المقدس يقول إن يسوع مات على الصليب وقام بعد ثلاثة أيام (١كو١٥: ١-٨)، في حين أن بعض الأديان الأخرى تقول إن يسوع شخصية حقيقية ولكنه لم يمت على الصليب. لذا، إن كان أحدهما صحيحًا، لا بد أن يكون الآخر خاطئًا. وإن لم يكن هناك شخص حقيقي يدعى يسوع على الإطلاق، يكون كلاهما خاطئًا.

"سَير": فكيف نحكم إذَن بين الاثنين؟

الطلاب: نحتاج بعض البراهين من خارج هذين النصين، اللذين يُعتبران مقدَّسَين. حتى نكتشف أيهما صحيح، إن كان أحدهما بالفعل صحيحًا.

"سَير": من أي فئة نستمد هذه البراهين؟

الطلاب: لا يبقى لنا إلا الفئة الفلسفية.

"سَير": ولكن كيف يمكن لفلسفة أحد الأشخاص أن تكون برهانًا؟ ألا تُعتبر مجرد رأي شخصي؟

الطلاب: لا. لا نقصد الفلسفة بهذا المعنى لكلمة فلسفة، ولكن بمعناها الكلاسيكي حيث تعني الفلسفة العثور على الحق بالمنطق، والدليل، والعِلم.

"سَير": ممتاز! فلنسأل السؤال نفسه عن الفئة الفلسفية بناءً على ذلك التعريف. هل يستحق الشيء تصديقه إن كان منطقيًا، ومدعومًا بالأدلة، وإن كان يقدِّم أفضل تفسير لكل البيانات؟

الطلاب: هذا الكلام مقبول جدًا!

إنَّ كشف المبررات القاصرة للمعتقدات يمهِّد الطريق للباحث عن الحق ليعثر على مبررات وافية. وهذا ما يفعله المتخصِّص في الدفاعيات. فالمدافع هو شخص يبين ما إذا كان المنطق السليم والدليل يدعمان معتقدًا ما أو يتناقضان معه. وهو ما نحاول أن نفعله في هذا الكتاب، وما يفعله "سَير" في حلقته النقاشية.

ومنهج "سَير" السُّقراطي * يساعد الطلاب على إدراك ثلاثة أمور على الأقل. أولاً، أي تعليم، سواء أكان دينيًا أم غير ديني، لا يستحق الثقة إلا إذا كان يشير إلى الحق. ولكن اللامبالاة بالحق موقف خطير. والحقيقة أن تصديق الخطإ يمكن أن يَجُرّ عواقب مميتة زمنيًا، وأبديًا أيضًا إن كان أي من التعاليم الدينية صحيحًا.

ثانيًا، الكثير من المعتقدات التي يعتنقها الناس اليوم لا تدعمها الأدلة، ولكنها مدعومة فقط باستحساناتهم الذاتية. وكما قال "پاسكال": في كل الحالات تقريبًا يُكَوِّن البشر معتقداتهم لا على أساس البرهان بل على أساس جاذبية المعتقد. إلا أن الحق ليس مسألة ذوق ذاتي، ولكنه حقيقة موضوعية.

وأخيرًا، حتى يعثر الإنسان على الحق، عليه أن يكون مستعدًا للتخلي عن تلك الاستحسانات الذاتية في سبيل الوصول للحقائق الموضوعية. وأفضل السبل لاكتشاف الحقائق هي المنطق، والدليل، والعِلم.

ورغم أن المنطق، والدليل، والعِلم، تمثِّل أفضل طريق للتوصل إلى الحق، يظل هناك اعتراض عند البعض. وذلك الاعتراض يتعلق بالمنطق، فهم يقولون أي منطق يجب أن نتبعه، المنطق الشرقي أم الغربي؟ يروى "راڤي زكراياس" *Ravi Zacharias* حكاية مضحكة تكشف الإجابة.

المنطق الغربي مقابل المنطق الشرقي

"راڤي زكراياس" باعتباره مدافعًا وكاتبًا مسيحيًا هندي الأصل يجوب أنحاء البسيطة مقدمًا الأدلة على الإيمان المسيحي. وهو يتميز بفكر ثاقب وشخصية جذابة تجعله من المتحدثين المفضَّلين في الكليات والجامعات.

ومؤخَّرًا بعد أن قدَّم عرضًا في إحدى الجامعات الأمريكية عن تَفَرُّد المسيح، هاجمه أحد أساتذة الجامعة متهمًا إياه بأنه لا يفهم المنطق الشرقي. ففي فترة الأسئلة والإجابة انبرى الأستاذ قائلاً: "دكتور "زكراياس"، ما عرضتَه عن المسيح زاعمًا ومُثبتًا أنه الطريق الوحيد للخلاص خاطئ من وجهة نظر الهنود لأنك تستخدم منطق "إمّا... أو". في الشرق لا نستخدم

* هو المنهج الذي اتبعه سقراط في تعليمه ويعتمد على طرح الأسئلة للتوصل إلى الحق (*www.law.uchicago.edu/prospectives/lifeofthemind/socraticmethod*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٤ تموز/يوليو ٢٠١٦. (المترجمة)

منطق "إمّا... أو"، إنه منطق غربي. ولكننا في الشرق نستخدم منطقَ "كلٌّ من... و". إذَن الخلاص ليس **إما** بالمسيح **أو** لا طريق سواه، ولكنه **بكل من** المسيح **و**طرق أخرى".

وهو ما رآه "راقـي" مضحكـًا جدًا لأنه نشأ في الهند، وهذا أستاذ أمريكي مولود في الغرب يقول له إنه لا يفهم كيف تسير الأمور في الهند! وكان الأمر مثيرًا للغاية حتى إن "راقـي" قَبِل دعوة الأستاذ على الغداء ليناقش الموضوع مطولاً.

وقد انضم إليهما على الغداء أحد زملاء الأستاذ، وبينما كان يأكل هو و"راقـي" استخدم الأستاذ كل ما على المائدة من مناشف وقواعد أطباق لتوضيح فكرته بخصوص المنطق الغربي والمنطق الشرقي.

قال الأستاذ بإصرار: "هناك نوعان من المنطق".

واستمر "راقـي" يجيب قائلاً: "لا، لستَ تقصد ذلك".

وأصر الأستاذ قائلاً: "بل إن هذا ما أعنيه بكل تأكيد".

واستمر الحال هكذا لما يزيد عن نصف ساعة: الأستاذ يحاضر، ويكتب، ويرسم. ومن شدة انهماكه في توضيح أفكاره نسي أن يتناول وجبته التي بدأت تتجمد في الطبق.

وعند انتهاء "راقـي" من تناول طعامه قرر إطلاق خطة "رود رَنَر" لتفنيد الأستاذ المشوش، المُصِرّ على أفكاره، فقاطعه قائلاً: "بروفسور، أظن أنه بإمكاننا حل هذا الجدال بمنتهى السرعة بسؤال واحد فقط".

فرفع عينيه من على الرسم الذي كان منشغلاً به وتوقف لحظة ثم قال: "تَـفَـضَّـل".

فانحنى "راقـي" إلى الأمام ونظر في عيني الأستاذ وسأله: "هل تقصد أني عندما أكون في الهند لا بد أن أستخدم **إما** "منطقَ كلٌّ من... و" **أو** لا شيء سواه؟"

فنظر الأستاذ إلى "راقـي" مذهولاً، فأعاد "راقـي" السؤال مؤكِّدًا: "هل تقصد أني عندما أكون في الهند لا بد أن أستخدم **إما**"، وتوقف "راقـي" لإضفاء مزيد من التأثير ""منطقَ كلٌّ من... و" **أو**"، ثم صمت قليلاً وأردف "لا شيء سواه؟"

وأخبرَنا "راقـي" أنَّ ما خرج من فم الأستاذ فيما بعد كان يستحق الوقت الذي قضاه في الاستماع إلى لَغْوِه المتضارب. نظر الأستاذ خجلاً إلى زميله، ثم نظر إلى طعامه المتجمد وتمتم قائلاً: "يبدو أن "**إما.. أو**" منطق حاضر دائمًا. أليس كذلك؟" فأضاف

"راقـي": "نعم. حتى في الهند ننظر في الاتجاهين قبل أن نعبر الشارع لأنه **إما** أن أعبر أنا **أو** الحافلة، لا كلينا معًا".

حقيقةً يبدو أن منطق **إما أو** حاضر باستمرار. فالأستاذ استخدم منطق "إما أو" ليبرهن على منطقِ "كلٍّ من"، وهي المشكلة التي يواجهها كل من يحاول أن يجادل ضد أول قوانين المنطق، فينتهي به الأمر ببتر الساق التي يقف عليها.

تَخَيَّل أن الأستاذ قال: ""راقـي" حساباتك الرياضية خاطئة في الهند لأنك لا تستخدم الرياضيات الشرقية بل الغربية". أو هب أنه قال: ""راقـي" حساباتك الفيزيائية لا تنطبق على الهند لأنك لا تستخدم قوانين الجاذبية الشرقية بل الغربية"، لاكتشفنا فورًا حماقة منطق الأستاذ.

والحقيقة أنه رغم ما يؤمن به النسبيون، فالأمور تسير في الشرق كما في أي مكان آخر. في الهند وفي الولايات المتحدة كذلك، الحافلة إن صدمت إنسانًا تصيبه بأذى، وأيضًا ٢+٢=٤، والجاذبية الأرضية التي تحفظ الجميع على سطح الأرض واحدة. وكذلك، القتل خطأ في الهند كما هو خطأ في الولايات المتحدة. الحق هو الحق بصرف النظر عن بلدِك. والحق هو الحق بصرف النظر عن معتقداتك عنه. فكما أن جاذبية واحدة تحفظ الجميع ثابتين على الأرض سواء اعتقدوا فيها أم لا، فالمنطق نفسه ينطبق على الجميع سواء صَدَّقوه أم لم يصدقوه.

فما الفكرة إذَن؟ الفكرة أنه لا يوجد إلا نوع واحد من المنطق يساعدنا على اكتشاف الحق. إنه المنطق المتأصِّل في طبيعة الواقع الذي لا يمكننا الهروب منه. ومع ذلك، يحاول الناس أن يخبروك أن المنطق لا ينطبق على الواقع، أو أن المنطق لا ينطبق على الله، أو أن هناك أنواعًا مختلفة من المنطق*، وهكذا. ولكنهم في قولهم لهذه الأمور، يستخدمون المنطق عينَه الذي ينكرونه. وهو ما يشبه استخدام قوانين الحساب لإثبات أنه لا يمكننا أن نثق في الحساب.

ومن المهم أن نلاحظ أن ما نفعله ليس مجرد لعب بالألفاظ. فخطة "رود رَنَر" تستخدم قوانين المنطق الثابتة لتكشف أن الكثير مما تؤمن به ثقافتنا السائدة بخصوص الحق والدين والأخلاق خاطئ خطأً بيِّنًا. فما يفنِّد نفسه يستحيل أن يكون صحيحًا، ومع ذلك يؤمن به الكثير من الأمريكيين. إننا نناقض أنفسنا لضررنا.

* هناك طبعًا المنطق الاستقرائي، والمنطق الاستنباطي، والمنطق الرمزي، ولكن كلها متأصلة في نفس قوانين الفكر الأساسية.

أُحرَق أو لا أُحرَق، تلك هي المشكلة

ترجع فاعلية خطة ''رود رَنَر'' إلى أنها تستخدم قانون عدم التناقض. وقانون عدم التناقض هو أول مبدأ من مبادئ التفكير، وهو واضح في ذاته لا يحتاج إلى شرح. ويقول القانون إن أي زَعمين متناقضين لا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا في نفس الوقت وبنفس المعنى. فهو يقول باختصار إن عكس الصواب هو الخطأ. وكلنا نعرف هذا القانون بالفطرة ونستخدمه يوميًا.

هَب أنك رأيت زوجين ذات يوم في الشارع، وهما صديقان لك، فسألت الزوجة عما إذا كانت تنتظرًا مولودًا. إن قالت ''نعم''، وقال زوجها ''لا''، لن تقول لهما: ''شكرًا جزيلاً على الإفادة العظيمة!''. ولكنك ستفكر قائلاً: ''ربما لم تخبره، أو ربما فَهِما سؤالي خطأً (أو ربما شيء أسوأ!)''. ولكنك ستكون متأكدًا من شيء واحد: لا يمكن أن يكون كلاهما صحيحًا! وقانون عدم التناقض يجعل ذلك واضحًا وضوح الشمس أمام عينيك.

وعند استقصاء أي موضوع يتعلق بالحقيقة، بما في ذلك موضوعُ الله، يظل قانون عدم التناقض ساريًا. إما أن يكون المؤمنون بالله الخالق على صواب، أي أن الله موجود، أو أن يكون الملحدون على صواب، أي أن الله غير موجود. ولكن يستحيل أن يكون كلاهما صحيحًا. وكذلك، إما أن يسوع مات وقام من الأموات كما يزعم الكتاب المقدس، أو أنه لم يمت ولم يقم من الأموات كما تزعم عقائد أخرى. لا بد أن أحد الزعمين صحيح، والآخر خاطئ.

الحقيقة أن ابن سينا، أحد الفلاسفة في العصور الوسطى، اقترح طريقة ناجحة لتصحيح شخص ينكر قانون عدم التناقض. فقد قال إن أي شخص ينكر قانون عدم التناقض يجب أن يُضرَب ويُحرَق حتى يعترف أن ضربه يختلف عن عدم ضربه، وأن حرقه يختلف عن عدم حرقه! (اقتراح متطرف نوعًا ما، ولكن لا بد أنك التقطت الفكرة المقصودة).

بينما لا يجد أي شخص منطقي مشكلة في قانون عدم التناقض، نجد أن بعض الفلاسفة المؤثّرين أنكروه ضمنًا في تعاليمهم. وربما أكثرهم تأثيرًا ''ديـڤيد هيوم'' و''إيمانيول كانط''. ورغم أن الكثيرين لم يسمعوا عن ''هيوم'' ولا ''كانط''، فتعاليمهما أثّرت على العقل الحديث تأثيرًا كبيرًا. لذا، من الأهمية بمكان أن نلقي نظرة سريعة على كلٍّ منهما. فلنأخذ ''هيوم'' أولاً.

شكوكية ''هيوم'': هل يجب أن نتشكك فيها؟

ربما يُعَدّ ''ديـڤيد هيوم'' المسؤول الأول عن نزعة الشك السائدة اليوم. فبصفته فيلسوفًا

تجريبيًا، آمن أن كل الأفكار ذات المعنى لا بد أن تكون صحيحة بطبيعتها، أو أن تقوم على الخبرة الحسية. ومن ثم يرى "هيوم" أنه بما أن مفاهيم ما وراء الطبيعة لا يمكن أن تخضع للخبرة الحسية، إذَن مزاعم الميتافيزيقا (المتعلقة بمفاهيم ما وراء الطبيعة التي تقع خارج العالم الحسي الطبيعي، بما فيها الله) لا يجب تصديقها لأنها بلا معنى. والحقيقة أن "هيوم" أكَّد أن الفرضيات لا يمكن أن تكون ذات معنى إلا إذا تحقق فيها أحد الشرطين التاليين:

- أن يكون الزعم المتعلق بالحق منطقًا مجرَّدًا مثل المعادلات أو التعريفات الرياضية (مثلاً "٢+٢=٤" أو "كل المثلثات لها ثلاثة أضلاع").
- الزعم المتعلق بالحق يمكن التحقق منه تجريبيًا بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس.

ورغم زَعْم "هيوم" بأنه شكوكي، من المؤكَّد أنه لم يشُك في هذين الشرطين، بل كان مقتنعًا تمام الاقتناع بأنه يملك الحق. وهو يختم كتابه "بحث في الفهم الإنساني" *Inquiry Concerning Human Understanding* بهذه العبارة: "إنْ أمسكنا بأيدينا أي كتاب، عن اللاهوت أو ما وراء الطبيعة الذي يُدَرَّس في المدارس مثلاً، يجب أن نسأل: "هل يحوي أي منطق مجرد بخصوص الكمّ أو العدد؟" لا. "هل يحوي أي منطق تجريبي بخصوص الواقع والوجود؟" لا. إذَن، فلتستودعه للنيران، لأنه لا يحوي إلا السفسطة والوهم".[٢]

هل ترى ما ينطوي عليه شرطا "هيوم"؟ فإن كان على صواب، إذَن أي كتاب يتحدث عن الله بلا معنى. وبذلك يمكنك أن تستخدم كل الكتابات الدينية في إشعال النيران.

وبعد ما يقرب من مائتي عام، تَحَوَّل شرطا "هيوم" إلى "مبدأ التحقق التجريبي" *"principle of empirical verifiability"* على يد الفيلسوف "أ. ج. إير" *A. J. Ayer* في القرن العشرين. ويزعم مبدأ التحقق التجريبي أن الفرضية لا يمكن أن تكون ذات معنى إلا إذا كانت صحيحة بطبيعتها أو إذا أمكن التحقق منها تجريبيًا.

وفي منتصف ستينيات القرن العشرين أصبحت هذه النظرة هي الموضة السائدة في أقسام الفلسفة بالجامعات في أنحاء أمريكا، ومنها "جامعة دترويت" *University of Detroit* حيث درستُ (أنا "نورم"). والحقيقة أني درستُ مادة كاملة في الوضعية المنطقية *Logical Positivism*. وكان أستاذ تلك المادة، وهو يؤمن بالوضعية المنطقية، من نوعية غريبة. فرغم أنه كان يدَّعي أنه كاثوليكي، كان يرى أنه لا معنى للحديث عن وجود واقع وراء الطبيعة (أي الميتافيزيقا، الله). أي أنه كان ملحدًا صريحًا وكان يخبرنا أنه يريد أن يحوِّل كل طلاب الفصل

إلى نوعية إلحاده الذي له معنى. (وسألته ذات مرة: "كيف يمكن أن تكون كاثوليكيًا وملحدًا في الوقت نفسه؟" فأجابني متجاهلاً ألفي عام من التعليم الكاثوليكي الرسمي: "لستَ مضطرًا أن تؤمن بالله حتى تكون كاثوليكيًا، ليس عليك إلا أن تلتزم بالقواعد!").

في اليوم الأول من هذه المادة كلَّفَنا ذلك الأستاذ بعرض فصول معينة من كتاب "إير" "المنطق والحق واللغة" *Logic, Truth, and Language*. فاخترت فصلاً عنوانه "مبدأ التحقق التجريبي". تَذَكَّر أن هذا المبدأ هو أساس الوضعية المنطقية، ومن ثم أساس المادة كلها.

وفي بداية المحاضرة التالية، قال الأستاذ: "مستر "جايسلر"، سنبدأ بك. لا تَزِد عن عشرين دقيقة حتى يتوفر لنا وقت كافٍ للمناقشة".

وبما أني كنت أستخدم خطة "رود رَنَر" السريع سرعة البرق، لم أواجه أدنى صعوبة في الالتزام بالوقت المحدد. فوقفت وقلت ببساطة: "يقول مبدأ التحقق التجريبي إنه ليس هناك إلا نوعان من الفرضيات ذات المعنى: ١) فرضيات صحيحة بطبيعتها. ٢) فرضيات يمكن التحقق منها تجريبيًا. وبما أن مبدأ التحقق التجريبي نفسه ليس صحيحًا بطبيعته ولا يمكن التحقق منه تجريبيًا، إذَن لا يمكن أن يكون ذا معنى".

كان هذا هو عرضي، فقدمتُه وجلست.

خيَّمَت على الفصل حالة من الصمت الرهيب. وتمَكَّن معظم الطلاب من رؤية الكويوت معلقًا في الهواء. وأدركوا أن مبدأ التحقق التجريبي لا يمكن أن يكون له معنى بناءً على المعيار الذي وضعه المبدأ نفسه. لقد قفز المبدأ في الهواء وانتحر! وفي ثاني محاضرة انهار أساس المادة كلها! فعمَّ سيتحدث الأستاذ على مدى الأربعة عشر أسبوعًا القادمة؟

سأخبركم بما تَحدَّث عنه. بدلاً من الاعتراف بأن مادته وموقفه الفلسفي بالكامل متناقض ويفنِّد نفسه، ومن ثم فهو خاطئ، كتم ذلك الحق، وفي تردده وحيرته أخذ يُلَمِّح أني وراء كل الخلل الذي حدث بقية الفصل الدراسي. لقد كان ولاؤه لمبدإ التحقق التجريبي، رغم ما يشوبه من خطإٍ قاتل بيِّن، ولاءً إراديًا وليس عقليًا.

ولكن هناك الكثير من الموضوعات الأخرى في فلسفة "هيوم"، أهمها حججه المضادة للمعجزات التي سنتناولها عندما نصل إلى الفصل الثامن. ولكن النقطة التي نود توضيحها الآن هي: تجريبية "هيوم" الضيِّقة التي تبناها تابعُه الأمين "أ. ج. إير" تفنِّد نفسها. فالزعم

القائل بأن "الشيء لا يمكن أن يكون ذا معنى إلا إذا أمكن التحقُّق منه تجريبيًا أو إذا كان صحيحًا بطبيعته" ينفي نفسه لأن تلك الجملة لا يمكن التحقق منها تجريبيًا ولا هي صحيحة بطبيعتها. أي أن "هيوم" و"إير" يحاولان أن يُثبِتا أشياء أكثر من اللازم لأن أسلوبهما في اكتشاف الفرضيات ذات المعنى يستبعد أشياء أكثر من اللازم. لأنه أمر طبيعي أن المزاعم التي يمكن التحقق منها تجريبيًا أو الصحيحة بطبيعتها يكون لها معنى. إلا أن هذه المزاعم لا تشكل **كل** العبارات ذات المعنى كما يرجح "هيوم" و"إير". لذا، بدلاً من أن نستودع كل الكتب التي تتحدث عنِ الله "للنيران" كما يقترح "هيوم"، قد تـُفَضِّل أن تستخدم كتب "هيوم" في إشعال النيران.

لاأدرية "كانط": هل يجب أن نتخذ منها موقفًا لاأدريًا؟

كان تأثير "إيمانيول كانط" أكثر تدميرًا للمنظور المسيحي من تأثير "ديـڤيد هيوم". لأنه إن كانت فلسفة "كانط" صحيحة، يستحيل معرفة **أي شيء** عن العالم الحقيقي حتى الأشياء التي يمكن التحقق منها تجريبيًا! لماذا؟ لأنه وفقـًا لفلسفة "كانط"، بنية حواسك وعقلك تـُشَكـِّل كل البيانات الحسية، ومن ثم يستحيل أن تعرف الشيء **في ذاته** معرفة حقيقية. ولكنك تعرف الشيء **بالنسبة لك بعد** أن يُشَكـِّله عقلك وحواسك.

وحتى تفهم هذه الفكرة، انظر لمدة ثانية واحدة إلى شجرة من نافذتك. يقول "كانط" إن الشجرة التي تظن أنك تنظر إليها تبدو بالشكل الذي تبدو عليه لأن عقلك يُكَوِّن البيانات الحسية التي تتلقاها من الشجرة. فأنت لا تعرف الشجرة في ذاتها معرفة حقيقية. لأنك لا تعرف إلا الظواهر التي يصنِّفها عقلك عن الشجرة. باختصار، لا تستطيع أن تعرف الشجرة الحقيقية في حد ذاتها، فأنت لا تعرف سوى الشجرة كما تبدو لك.

عجب العجاب! لماذا لا يشكّ رجل الشارع العادي فيما يراه بأمّ عينيه، بينما يشك الفلاسفة الذين يُفترض فيهم الذكاء الخارق؟ كلما درسنا الفلسفة، ازداد اقتناعنا بذلك: إن أردت أن تجعل الواضح غامضًا، أعطِه لفيلسوف!

ومع ذلك ليس بوسعنا أن نتجنب دراسة الفلسفة لأنه كما قال "سي. إس. لويس": "لا بد من وجود فلسفة جيدة، إن لم يكن لأي سبب، فعلى الأقل للرد على الفلسفة الرديئة".[٣] إن فلسفة "كانط" فلسفة رديئة، ولكنها أقنعت الكثيرين بوجود هوة لا تـُعْبَرَ بينهم وبين العالم

الحقيقي، حتى إنه يستحيل أن تحصل على أي معرفة صادقة عن حقيقة العالم، ناهيك عن حقيقةِ الله. ويرى "كانط" أننا محبوسون في لاأدرية تامة بالعالم الحقيقي.

ولكن من حسن الحظ أنه يوجد رد بسيط على كل ذلك: خطة "رود رَنَر". إن "كانط" يرتكب نفس خطأ "هيوم"، بكَسْرِهِ لقانون عدم التناقض. إنه يناقض فرضيته بقوله إنه **ما من أحد يستطيع أن يعرف** العالم الحقيقي في حين أنه **يزعم** أنه يعرف شيئًا عنه، ألا وهو أنه من المستحيل أن نعرف العالم الحقيقي! ففي الواقع "كانط" يقول إن **الحق** عن العالم الحقيقي هو أنه **لا يوجد حق** عن العالم الحقيقي.

وبما أن هذه العبارات المفنِّدة لذاتها قادرة على تعجيز أعظم العقول، فلننظر إلى خطإ "كانط" من زاوية أخرى. إن "كانط" يرتكب أيضًا مغالطة منطقية يُطلق عليها مغالطة "ليس إلا". وهي مغالطة لأن عبارات "ليس إلا" تنطوي على معرفةِ ما هو "أكثر من". أي أن "كانط" يقول إنه يعرف أن البيانات التي تصل إلى عقله **ليست إلا** ظواهر. ولكنه حتى يعرف ذلك، لا بد أن يكون قادرًا على معرفة ما هو **أكثر من** مجرد الظواهر. بمعنى أنك حتى تتمكن من التمييز بين شيئين، يجب أن تتمكن من رؤية النقطة التي عندها ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر. فمثلاً، إن وضعت ورقة بيضاء على مكتب أسود، لا يمكنك أن تعرف أين تنتهي الورقة إلا إذا رأيت شيئًا من المكتب المحيط بها. فالتضاد بين الورقة والمكتب يتيح لك أن ترى حدود الورقة. وهكذا، حتى يتمكن "كانط" من التمييز بين الشيء الموجود في العالم الحقيقي والشيء الذي يدركه عقله، لا بد أن يتمكن من رؤية الاثنين. ولكن هذا بالضبط ما يقول إنه يستحيل أن نفعله! فهو يقول إنه لا يمكننا أن نعرف **إلا ظواهر** *phenomena* العقل، وليس المفاهيم الحقيقية للأشياء في ذاتها [نومينا *noumena*] (مصطلح "كانط" للإشارة إلى العالم الحقيقي).

إن لم تكن هناك وسيلة للتمييز بين الظواهر والمفاهيم الحقيقية [الفينومينا والنومينا]، إذَن لا يمكنك أن تعرف الفرق بينهما. وإن كان لا يمكنك أن تعرف الفرق بينهما، فالمنطقي أن تفترض أنهما شيء واحد، بمعنى أن الفكرة التي في عقلك تمثل الشيء الموجود في العالم الحقيقي تمثيلاً دقيقًا.

فما نقوله إنك **تعرف** الشيء في ذاته معرفة حقيقية. فأنت **تعرف** الشجرة التي تراها معرفة حقيقية لأنها تُطْبَع على عقلك من خلال حواسك. أي أن "كانط" كان مخطئًا: إن عقلك لا يُشَكِّل الشجرة، بل **الشجرة تُشَكِّل عقلك**. (تخيل الختم الشمعي. ليس الشمع هو ما

يطبع الختم، بل الختم هو الذي يطبع الشمع). فليست هناك فجوة بين عقلك والعالم الحقيقي. بل الواقع أن حواسك هي نوافذك على العالم. والحواس كالنوافذ هي التي ننظر **من خلالها** على العالم الخارجي، وليست هي ما **ننظر إليه**.

في أحد فصول الفلسفة التي كنتُ (أنا "نورم") أُدَرِّسها، أوضحت أخطاء فلسفة "كانط" على هذا النحو. قلت: "أولاً، إن كان "كانط" يزعم أنه لا يستطيع أن يعرف أي شيء عن العالم الحقيقي (الشيء في ذاته) فكيف يعرف إذَن أنه يوجد عالم حقيقي من الأصل؟ ثانيًا، موقفه يفند نفسه لأنه يزعم أنك **لا تستطيع أن تعرف** أي شيء عن العالم الحقيقي في حين أنه يؤكد أنه **يعرف** أن العالم الحقيقي يستحيل أن يُعْرَف!"*

فانبرى أحد الطلاب قائلاً: "لا. لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة يا دكتور "جايسلر". لا يمكنك بجملتين بسيطتين أن تدمر المبدأ الجوهري الذي دام أكثر من مائة سنة حتى الآن في الفكر الفلسفي!"

فأجبته مقتبسًا من مصدري المفضل، مجلة "ريدارز دايـچست" *The Reader's Digest*: ""هذا ما يحدث عندما تواجه إحدى النظريات الجميلة عصابة من الحقائق المتوحشة". ثم، مَنْ قال إن التفنيد يجب أن يكون معقَّدًا؟ فإنْ أخطأ أحدهم خطأً بسيطًا، لا يستلزم كشفُه إلا تصحيحًا بسيطًا". إن خطة "رود رَنَر" خالية من أي تعقيد. كل ما في الأمر أنه سريع وفعال.

"هيوم" و"كانط" مخطئان. فماذا إذَن؟

بما أن "هيوم" و"كانط" يكسران قانون عدم التناقض، إذَن محاولاتهما لتدمير كل الحق "الديني" محاولات فاشلة. إلا أن خطأ "هيوم" و"كانط" لا يعني بالضرورة أننا نملك أدلة إيجابية على وجودِ الله مثلاً. فخطة "رود رَنَر" لا يمكنها إلا أن تكشف خطأ فرضية معينة. ولكنها لا تقدم أدلة إيجابية على صحة أي زعم بعينه.

فهل صحيح أنه يوجد إله خَلَقَ العالم ويحفظه؟ هل هناك أي دليل قابل للمعرفة يمكن أن

* طبعًا "كانط" يرى أنه يمكننا أن نعرف أشياء عن هذا العالم الظاهري للحواس مثل الفرضيات العلمية. وقد آمن "كانط" أيضًا أنه رغم أننا لا نستطيع أن **نعرف** أي شيء عن العالم الحقيقي (مثل الله)، يمكننا أن **نفترض** وجود الله ونعيش **وكأنه** موجود، رغم أننا لا نستطيع أن نعرف أي شيء عن حقيقة طبيعته. وهو ما سمَّاه "كانط" العقل "العملي".

يقدِّم لنا يقينـًا منطقيًا بشكل أو بآخر؟ هل هناك دليل يمكننا معرفته يشير إلى وجود إله غير منظور؟ للإجابة على تلك الأسئلة، يجب أن نبحث في كيفية معرفة الحق نفسه.

كيف يُعرَف الحق؟

لنُلَخِّص ما توصلنا إليه حتى الآن: الحق موجود، وهو مطلق ولا يمكن إنكاره. والقول بأن "الحق لا يمكن معرفته" متناقض لأنه قول يزعم عن نفسه أنه حق **معروف ومطلق**. وفي الواقع أننا عندما نقول أي شيء في أي وقت، فنحن نعني ضمنـًا أننا نعرف على الأقل شيئـًا من الحق؛ لأن أي **موقف** نتخذه من **أي** موضوع يشتمل ضمنـًا على درجة ما من المعرفة. فإن قلت إن موقف شخص ما هو موقف خاطئ، ينبغي أن **تعرف** ما هو صواب لكي تقول ذلك (لا يمكنك أن تعرف الخطأ إلا إذا عرفت الصواب). وحتى إن قلت: "لا أعرف". فإنك تعترف أنك تعرف شيئـًا، ألا وهو أنك **تعرف** أنك لا تعرف شيئـًا آخر عن الموضوع المطروح. وليس أنك لا تعرف أي شيء **على الإطلاق**.

ولكن كيف يمكن للمرء أن يعرف الحق؟ أي: ما العملية التي بها نكتشف الحقائق المختصة بالعالم؟ إن عملية اكتشاف الحق تبدأ بقوانين المنطق الواضحة في ذاتها التي يُطلق عليها المبادئ الأولى. وتُعْرَف باسم المبادئ الأولى لأنه ليس هناك أي شيء أبعد منها. أي أننا لا نبرهن عليها بمبادئ أخرى، لأنها متأصلة في طبيعة الواقع، مما يجعلها واضحة في ذاتها. ومن ثم، فأنت لا تتعلم هذه المبادئ الأولى. وذلك، لأنك تعرفها تلقائيًا. وكل إنسان يعرف هذه المبادئ بديهيًا حتى وإن لم يفكر فيها صراحةً.

ومن هذه المبادئ قانونان هما: قانون عدم التناقض وقانون الثالث المرفوع *Law of the Excluded Middle*. وقد رأينا حقيقة قانون عدم التناقض وقيمته. أما قانون الثالث المرفوع يخبرنا أن الشيء إما أنه **هكذا** أو **ليس** هكذا. فمثلاً، إما أن الله موجود أو غير موجود. إما أن يسوع قام من الأموات أو لم يقم. ليس هناك بدائل ثالثة.

وهذه المبادئ الأولى هي الأدوات التي نستخدمها لنكتشف كل الحقائق الأخرى. والحقيقة أنه لولاها لما أمكنك أن تتعلم أي شيء. فأهمية المبادئ الأولى للتعلم كأهمية العينين للبصر. أي أنه كما يجب أن تكون عيناك ثابتة في جسمك حتى تبصر أي شيء، هكذا المبادئ الأولى لا بد أن تكون ثابتة في عقلك حتى تتعلم أي شيء. ومن هذه المبادئ الأولى يمكننا أن نتعلم

عن الواقع ونكتشف أخيرًا سطح علبة هذا اللغز الذي نسميه الحياة.

ورغم أننا نستخدم هذه المبادئ الأولى لتساعدنا على اكتشاف الحق، فهذه المبادئ وحدها لا تستطيع أن تخبرنا ما إذا كانت فرضية بعينها صحيحة. وحتى تفهم ما نقصد، خذ الحجة المنطقية التالية:

١- كل إنسان فانٍ.

٢- "سبنسر" إنسان.

٣- إذَن "سبنسر" فانٍ.

قوانين المنطق الواضحة في ذاتها تخبرنا أن النتيجة: "سبنسر" فانٍ نتيجة معقولة. أي أن النتيجة تتبع الفرضيات بالضرورة. **فإن كان** كل إنسان فانيًا، **وإن كان** "سبنسر" إنسانًا. فمن ثم، "سبنسر" فانٍ. إلا أن قوانين المنطق لا تخبرنا بما إذا كانت تلك الفرضيات، وبالتالي النتيجة، صحيحة. فربما كل إنسان **ليس** فانيًا. ربما "سبنسر" ليس إنسانًا. فالمنطق وحده لا يستطيع أن يخبرنا ما إذا كانت هذه الأشياء صحيحة أم خاطئة.

ويسهل إدراك هذه الفكرة عندما نتناول حجة مقبولة ولكنها ليست صحيحة. خذ الحجة التالية:

١- كل الناس هم زواحف من ذوات الأربع.

٢- زخاري إنسان.

٣- إذَن زخاري من الزواحف ذوات الأربع.

هذه الحجة مقبولة منطقيًا، ولكننا جميعًا نعرف أنها ليست صحيحة. فالحجة مقبولة لأن النتيجة تتبع المقدمات. ولكن النتيجة خاطئة لأن المقدمة الأولى خاطئة. أي أن الحجة يمكن أن تكون سليمة منطقيًا، ومع ذلك تكون خاطئة لأن مقدمات الحجة لا تتطابق مع الواقع. فإلى هنا ينتهي عمل المنطق. أي أنّ المنطق يخبرنا أن حجةً ما خاطئة، ولكنه لا يستطيع وحده أن يُعَرِّفنا أي المقدمات صحيحة. فكيف نعرف أن زخاري إنسان؟ كيف نعرف أن البشر ليسوا زواحف ذوات أربع؟ نحتاج لمزيد من المعلومات حتى نكتشف تلك الحقائق.

ونحن نحصل على تلك المعلومات من ملاحظة العالم حولنا، ثم التوصل إلى نتائج عامة من تلك الملاحظات. فعندما تلاحظُ شيئًا مرارًا وتكرارًا، قد تستنتج مبدأً عامًا صحيحًا يحكم

هذا الشيء. فمثلاً عندما تُسقِط شيئًا من على المنضدة عدة مرات، من الطبيعي أن تلاحظ أن الشيء دائمًا ما يسقط على الأرض. فإن فعلت ذلك كثيرًا، ستدرك في النهاية أنه لا بد من وجود مبدأ عام يُعرَف باسم الجاذبية.

وهذه الطريقة في التوصُّل إلى استنتاجات عامة من ملاحظات محدّدة يُطلق عليها الاستقراء *induction* (وهي الطريقة المستخدمة في العلم بوجه عام). وللتوضيح، لا بد أن نميز بين الاستقراء والاستنباط *deduction*. إن عملية وضع مقدّمات بترتيب معين في حجة ما والتوصل منها إلى نتيجة مقبولة منطقيًا يُطلق عليها الاستنباط. وهو ما فعلناه في الحجتين أعلاه. أما عملية التحقق من صحة **المقدمات** التي تتضمنها الحجة عادة ما تتطلب الاستقراء.

والكثير من الأشياء التي تعرفها، عرفتها بالاستقراء. والواقع أنك استخدمت الاستقراء حدسيًا لتتأكد من صحة المقدّمات المتضمنة في الحجتين السابقتين. أي أنك قررت أنه بما أن كل إنسان رأيته هو من الثدييات التي تمشي على ساقين، فالرجل زخاري لا يمكن أن يكون من الزواحف ذوات الأربع. وقد طبَّقتَ الطريقة نفسها على مسألة فناء "سبنسر". فبما أن كل الناس الذين سمعت عنهم يموتون في النهاية، فقد توصلت إلى استنتاج عام بأن كل الناس يفنَون، ومنهم رجل محدد يُدعى "سبنسر". وهذه الاستنتاجات: البشر ذوو الساقين، الجاذبية، فناء البشر، كلها استنتاجات استقرائية.

ومعظم الاستنتاجات القائمة على الاستقراء لا يمكن اعتبارها مؤكَّدة بصفة مطلقة، ولكنها تُعتبر صحيحة بنسبة كبيرة جدًا. فمثلاً هل أنت متأكد تمامًا بنسبة ١٠٠% أن الجاذبية تتسبب في سقوط كل الأشياء؟ لا. لأنك لم تلاحظ كل الأشياء وهي تسقط. وهكذا، هل أنت متأكد تمامًا أن كل إنسان فانٍ؟ لا. لأنك لم ترَ كل الناس تموت. ربما هناك شخصٌ ما في مكانٍ ما لم يمُت أو لن يموت.

لذا، إن كانت الاستنتاجات الاستقرائية غير مؤكَّدة، هل يمكننا أن نثق فيها؟ نعم. ولكن بدرجات متفاوتة من اليقين. فكما ذكرنا سابقًا، بما أنه ليس هناك إنسان يمتلك معرفة غير محدودة، إذَن معظم استنتاجاتنا الاستقرائية قد تكون خاطئة. (مع استثناء واحد مهم، ويطلق عليه "الاستقراء التام" "*perfect induction*"، حيث تكون كل الجزئيات معروفة. فمثلاً، "كل الحروف في هذه الصفحة سوداء". هذا الاستقراء التام يقدِّم نتيجة يقينية لأنك تستطيع أن تلاحظ أن كل حرف هو فعلاً أسود ويمكنك التحقق من ذلك).

ولكن حتى عندما لا تتوفر لنا معلومات كاملة أو تامة، غالبًا ما تتوفر لنا معلومات كافية للتوصل إلى استنتاجات مؤكَّدة بدرجة مقبولة في معظم مسائل الحياة. فمثلاً، بما أنه من الملاحظ أن الجميع تقريبًا يموتون، إذَن استنتاجك أن كل إنسان فانٍ يُعتبر صحيحًا بما لا يقبل أي شك منطقي، فهو استنتاج مؤكَّد بنسبة تزيد عن ٩٩%، ولكنه ليس معصومًا من أي شك على الإطلاق. فالأمر يتطلب شيئًا من الإيمان، وإن كان بقدر ضئيل جدًا، لتصديق هذا الاستنتاج*. وهو ما ينطبق أيضًا على استنتاج أن الجاذبية تؤثِّر على كل الأشياء، وليس فقط على البعض منها. فهو استنتاج مؤكَّد عمليًا ولكنه ليس مؤكَّدًا بشكل مطلق. أي أننا نستطيع أن نتيقن بما لا يقبل الشك **المنطقي**، ولكننا لا نستطيع أن نتيقن بما لا يقبل **أي** شك على الإطلاق.

كيف تُعرف الحقائق المتعلقة بالله؟

فما علاقة الملاحظة والاستقراء باكتشاف وجودِ الله؟ العلاقة وثيقة. فالواقع أن الملاحظة والاستقراء يساعداننا في بحث أهم سؤال ديني: "هل الله موجود؟"

تقول: "لحظة من فضلِك! كيف يمكننا أن نستخدم الملاحظة لنبحث في كائن غير قابل للملاحظة يُدعى "الله"؟ فمهما كان، إن كان الله غير منظور وغير مادي، كما يقول المسيحيين، واليهود، والمسلمين، فكيف تساعدنا حواسنا في جمع معلومات عنه؟"

الإجابة: "نحن نستخدم الاستقراء لبحث مسألة الله كما نستخدمه لبحث ما لا نراه من أشياء أخرى؛ أي بملاحظة آثارها. فمثلاً، نحن لا نستطيع أن نلاحظ الجاذبية على نحو مباشر، كل ما يمكننا هو ملاحظة آثارها. وهكذا، لا نستطيع أن نلاحظ العقل البشري على نحو مباشر، ولكننا نلاحظ آثاره فحسب. ومن تلك الآثار نستدل منطقيًا على وجود مسبِّب.

* الحقيقة أننا نصل إلى معظم قرارات حياتنا، بدءًا من اختيارنا لما نأكل من أطعمة وانتهاء باختيارنا لأصدقائنا، عن طريق الملاحظة والاستقراء. فمثلاً، نحن لا نمتلك معلومات كاملة عن السائل الموجود في علبة العصير، ولكننا نعتقد أنه شيء يمكن أن نشربه وأنه ليس سامًا، ولكننا لسنا متأكدين مائة في المائة. إلا أننا نعتمد على خبرتنا السابقة مع هذا النوع من العصير وثقتنا فيه، ومنها نستنتج أن ما في العلبة هو فعلاً عصير وليس سمًا. وبالمثل، لسنا نملك معلومات كاملة عن شخصيات الأشخاص الذين نلتقي بهم. ولكن بعد قضاء وقت معهم، يمكننا أن نستنتج أنهم أهل للثقة. هل نحن متأكدون مائة في المائة؟ لا، لأننا نعمِّم من خبراتنا المحدودة. وقد يكون استنتاجنا محتمَلاً بدرجة عالية، ولكنه ليس مؤكَّدًا. وهذا هو حال الكثير من القرارات التي نتخذها في حياتنا.

وفي الواقع الكتاب الذي تقرؤه الآن مثال جيد على ذلك. لماذا تفترض أن هذا الكتاب هو أثر لعقل بشري؟ لأن كل ملاحظاتك تخبرك أن أي كتاب هو أثر لا يَنْتُج إلا من ذكاء سابق الوجود (أي مؤلِّف). وأنت لم ترَ مطلقًا الريح أو المطر أو غيرهما من القوى الطبيعية تُنتِجُ كتابًا، بل رأيت أن البشر فقط هم مَن يفعلون ذلك. لذا، رغم أنك لم تَرَ أحدًا يكتب هذا الكتاب، فقد استنتجت أنه لا بد أن يكون له على الأقل مؤلِّف واحد.

وعندما تستنتج أن هذا الكتاب له مؤلِّف، تكون قد جمعت طبيعيًا بين الملاحظة، والاستقراء، والاستنباط. فإن أردنا أن نكتب أفكارك في قالب منطقي، ستظهر على هيئة هذه الحجة الاستنباطية:

١- كل الكُتب لها مؤلِّف واحد على الأقل (مقدِّمة تقوم على البحث الاستقرائي).

٢- "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" كتاب (مقدمة تقوم على الملاحظة).

٣- إذَن "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" له مؤلِّف واحد على الأقل (نتيجة).

وأنت تعرف أن الحجة مقبولة منطقيًا عن طريق الاستنباط، وتعرف أنها صحيحة لأن المقدمات صحيحة (وهو ما تحققتَ منه بالملاحظة والاستقراء).

والآن إليك السؤال المهم: كما أن الكتاب يتطلب ذكاءً بشريًا سابق الوجود، هل هناك أي آثار قابلة للملاحظة يبدو أنها تتطلب نوعًا من الذكاء فوق الطبيعي سابق الوجود؟ أي أنه: هل هناك آثار يمكن أن نلاحظها تشير إلى وجودِ الله؟ الإجابة نعم، وأول أثر هو الكون نفسه. وسيكون استقصاء بداية الكون هو الخطوة التالية في مسيرتنا نحو اكتشاف سطح العلبة.

ولكن قبل أن نبحث أدلة بداية الكون، يجب أن نتناول اعتراضًا آخر على الحق. فالبعض يقولون: "وماذا يعنينا في الحق؟"

وماذا يعنينا في الحق؟

أحيانًا ما نسأل طلابنا: "ما أكبر مشكلة في أمريكا اليوم؟ الجهل أم اللامبالاة؟" ذات مرة أجاب أحد الطلاب قائلاً: "لا أعرف. ولا يعنيني أن أعرف".

هذه الإجابة تلخِّص مشكلة أمريكا اليوم. فالكثير منا يجهلون الحق ولا يبالون به، إلا إذا كان الحق يتعلق بالمال، أو الطب، أو غير ذلك من الأمور الملموسة التي ذكرناها آنفًا. فهذه الأشياء تعنينا بشدة. ولكن الكثيرون يجهلون الحق المتعلّق بالأخلاق والدين، ولا يبالون به

(ولكننا نعلم أنك لست منهم لأنك تصرف وقتـًا في قراءة هذا الكتاب). هل الفئة التي تَبَنـَّت الشعار الثقافي: "أيًا كان" هم على صواب، أم أن الحق الأخلاقي والديني أمر مهم فعلاً؟

إنه أمر مهم فعلاً. كيف نعرف ذلك؟ أولاً، رغم أن الناس قد **يزعمون** أن الحق الأخلاقي لا يهم، فهم لا يعتقدون في ذلك فعليًا عندما يتعامل معهم أحد الأشخاص معاملة لا أخلاقية. فقد يزعمون مثلاً أن الكذب ليس خطأً، ولكن لاحظ ما ينتابهم من غضب أخلاقي شديد إن كذِبْتَ عليهم (وخاصةً إن كان الأمر يَمَسّ أموالهم!).

وغالبًا ما نسمع عبارة: "هذا هو الاقتصاد يا غبي". ولكن تخيل إلى أي مدى يمكن أن يتحسن الاقتصاد لو قال الجميع الحق. ستختفي كل الفضائح المالية وكل عمليات الغش. وستختفي الضوابط الحكومية المرهقة. لا شك أن الاقتصاد مهم، ولكنه يتأثر تأثرًا مباشرًا بالأخلاق! إن الأخلاق هي الأساس الذي يُبنى عليه كل ما نفعله تقريبًا. وتأثيرها علينا لا يقتصر على النواحي المالية، ولكنه في ظروف معينة يمتد إلى النواحي الاجتماعية، والنفسية، والروحية، بل حتى الجسدية.

ثانيًا، ترجع أهمية الحق الأخلاقي إلى أن النجاح في الحياة غالبًا ما يتوقف على ما يتخذه المرء من قرارات أخلاقية. وهي تشمل اختياراته فيما يتعلق بالجنس، والزواج، والأطفال، والمخدرات، والمال، والمعاملات التجارية، وما إلى ذلك. وبعض الاختيارات تجلب النجاح، والبعض الآخر يجُرّ الدمار.

ثالثـًا، كما ذكرنا في كتاب سابق بعنوان "تشريع الأخلاق"[٤]، كل القوانين تـُشَرِّع الأخلاق. ولكن السؤال الوحيد هو: "أخلاق مَن هي التي ستُشَرَّع؟" فَكـِّر فيها. كل قانون يبين أن سلوكـًا ما هو الصحيح وعكسه هو الخطأ، هذه أخلاق. فأخلاق مَن هي التي يجب أن تـُشَرَّع في قضايا مثل الإجهاض أو القتل الرحيم؟ إنها قضايا تؤثـّر تأثيرًا مباشرًا على حياة أشخاص حقيقيين وصحتهم. فإن كان قتل الأبرياء خطأً أخلاقيًا، ألا يجب تشريع ذلك الحق؟ وكذلك، أخلاق مَن يجب أن تـُشَرَّع فيما يختص بقضايا أخرى في السياسة العامة قد تؤثر على حياتك، أو صحتك، أو أموالك؟ إن الإجابات التي نُشَرِّعها من شأنها أن تؤثـّر تأثيرًا عميقـًا على حياة كل مواطن، وحريته، وتحقيقه للسعادة.

فلا شك أن ما نراه صحيحًا بخصوص الأخلاق يؤثر تأثيرًا مباشرًا على حياة الناس. هل كان يَهُمّ ما رأته المحكمة العليا للولايات المتحدة (كما يتبين من قرار "درِد سكوت"

Dred Scott لسنة ١٨٥٧) من أن السود ليسوا مواطنين بل مِلكًا لأسيادهم؟ هل كان يَهُمّ ما اعتقده النازيون من أن اليهود أدنى من الجنس الآري؟ هل يَهُمّ اليوم رأيُنا في الوضع الأخلاقي للأشخاص الذين ينتمون لأجناس أو أديان أخرى؟ بالطبع! الحق الأخلاقي مهم.

وماذا عن الحق الديني؟ إن هذا الحق قد يكون تأثيره علينا أعمق من تأثير الحق الأخلاقي. وقد ساعدَني (أنا "فرانك") أحد زملائي من ضباط البحرية أن أفهم ذلك سنة ١٩٨٨ وأنا حديث الإيمان بالمسيحية.

كنا آنذاك مبعوثين ضمن قوة للبحرية الأمريكية لإحدى بلدان الخليج العربي. وكان ذلك قبيل نهاية حرب إيران والعراق، وكان الصراع لا يزال عنيفًا. وعندما تكون في مكان غريب وخطير، تفكّر بجدية وبكثرة في الحياة والموت.

وفي أحد الأيام، كان هذا بالضبط ما نفعله: نتحدث عنِ الله والحياة الآخرة. وأثناء الحديث قال صديقي شيئًا ظل عالقًا بذهني حتى اليوم. فقد قال مشيرًا إلى الكتاب المقدس: "لا أؤمن بالكتاب المقدس. ولكنه إن كان صحيحًا، سأكون في مشكلة كبيرة".

وبالطبع كان على صواب. لأنه إن كان الكتاب المقدس **صحيحًا**، فقد **اختار** صديقي مصيرًا أبديًا تعيسًا. والحقيقة أنه إن كان الكتاب المقدس صحيحًا، إذَن يمكن قراءة المصير الأبدي لكل شخص على صفحاته. ولكن إن لم يكن الكتاب المقدس صحيحًا، فإنه من السذاجة أن الكثير من المسيحيين يُضَيِّعون الكثير من الوقت والمال، بل يُضَيِّعون حياتهم أحيانًا في الكرازة بالمسيحية في مناطق خطرة. وفي الحالتين، الحق الديني مهم.

وإن كانت ديانة أخرى صحيحة، فهذا أيضًا مهم. فمثلاً، إن كان أي نَصّ مقدّس بخلاف الكتاب المقدس صحيحًا، إذَن أنا أيضًا في مشكلة أبدية مثل مشكلة صديقي ضابط البحرية غير المسيحي. ولكن، إن كان الملحدون على صواب، يمكننا أن نكذب، ونغش، ونسرق لنحصل على ما نريد؛ لأنه ليس هناك شيء إلا هذه الحياة، وليست هناك عواقب أبدية.

ولكن، لننسَ الأبدية قليلاً. ولنفكر في التداعيات الزمنية للتعاليم الدينية حول العالم. ففي بعض الأماكن، يتعلم بعض تلاميذ المدارس أن اليهود خنازير وأن غير المسلمين (الكفار) يجب أن يُقتَلوا (إلا أنه من حسن الحظ أن معظم المسلمين لا يؤمنون أنه يجب قتل غير المسلمين). هل صحيح أن هناك إلهًا في الأعالي اسمه الله يريد من المسلمين أن يقتلوا كل مَن لا يدينون بالإسلام (الذين قد تكون واحدًا منهم)؟ هل هذا "الحق" الديني مهم؟ إنه مهم عندما يكبر

أولئك الأطفال ويدخلون بالطائرات في المباني ويُفَجِّرون أنفسهم في المناطق الآهلة بالسكان. أليس من الأفضل أن نعلِّمهم الحق الديني القائل بأن الله يريدهم أن يحبوا قريبهم؟

ربما يُعَلِّم أولئك بأن اليهود خنازير، ولكن في بلدنا، بسبب مناهج الأحياء أحادية النظرة، نُعَلِّم الأطفال أنه لا فرق بين أي إنسان والخنزير. فمهما كان، إن كنا مجرد نتاج القوى الطبيعية العمياء، إن لم يكن هناك إله خلقنا وأعطانا قيمة خاصة، فنحن لسنا أكثر من خنازير بأمخاخ كبيرة. هل يَهُمّ هذا "الحق" الديني (الإلحادي)؟ نعم. عندما يُنَفِّذ الأطفال تداعياته. فبدلاً من أن نُكَوِّن مواطنين صالحين يرون البشر مخلوقين على صورةِ الله، نُنْتِج مجرمين لا يرون في الحياة البشرية معنى ولا قيمة. الأفكار لها عواقب.

ومن الناحية الإيجابية، ساعدت الأم تريزا في تحسين الأوضاع في الهند بمجابهة المعتقدات الدينية التي يعتنقها الكثيرون في الثقافة الهندوسية. فاعتقاد الهندوس في الكارما وتناسخ الأرواح* يؤدي بالكثيرين منهم إلى تجاهل صرخات المتألمين. لماذا؟ لأنهم يؤمنون أن المتألمين يستحقون هذه المعاناة لأنهم ارتكبوا خطأً في إحدى حيواتهم الماضية. ومن ثمّ، إن ساعدت المتألمين، فإنك تتدخل في الكارما الخاصة بهم. ولكن الأم تريزا علَّمت الهندوس في الهند المبادئ المسيحية من الاعتناء بالفقراء والمتألمين. هل تلك الفكرة الدينية مهمة؟ اسأل الملايين الذين لمَسَتْ حياتهم. هل تعليم الكارما الديني مهم؟ اسأل الملايين الذين ما زالوا يعانون.

خلاصة القول: بصرف النظر عن أي فكر من الأفكار الدينية والأخلاقية هو الصواب، فإن حياتنا تتأثر به شديدًا اليوم، وربما في الأبدية. ومَن يقولون في كبرياء: "وما الذي يعنينا في الحق الأخلاقي والديني؟" يتجاهلون الواقع ويتزلجون على طبقة رقيقة من الجليد بعيون معصوبة. إننا مدينون لأنفسنا وللآخرين بالعثور على الحق، وبالتصرف بناءً عليه. فلنبدأ بالسؤال: "هلِ الله موجود؟"

---

* في العقيدة الهندوسية والبوذية، "الكارما" هي أثر أفعال الإنسان في حياته. فإن كانت أفعاله صالحة، تكون له كارما صالحة؛ بمعنى أنه عندما يحيا حياة ثانية (تناسخ الأرواح) تكون حياته أفضل. ولكن إن كانت أفعاله شريرة تكون له كارما سيئة، فعندما يحيا حياة ثانية يعاني ويتألم حتى يُصلح من أفعاله، وقد يصل الأمر إلى أن تتناسخ روحه في هيئة حيوان أو حشرة. (المترجمة)

الملخص والخلاصة

١- غالبًا ما يأخذ الناس معتقداتهم من الوالدين، أو الأصدقاء، أو الدين الذي نشؤوا عليه، أو الثقافة. وأحيانًا ما يصيغون معتقداتهم ببساطة على أساس أحاسيسهم فقط. ورغم أن هذه المعتقدات قد تكون صحيحة، من الممكن أيضًا أن تكون خاطئة. والطريقة الوحيدة التي نتوصل بها إلى يقين معقول هي اختبار المعتقدات بالأدلة. وهو ما يتم باستخدام مبادئ فلسفية سليمة، ومنها مبادئ المنطق* والعلم.

٢- يُعَرِّفنا المنطق أن المتناقضات لا يمكن أن تكون صحيحة في نفس الوقت وبنفس المعنى. والمنطق هو جزء من الواقع نفسه، ومن ثم فهو ثابت في أمريكا، والهند، وكل مكان في الكون.

٣- يمكننا باستخدام خطة "رود رَنَر" أن نعرف أن "هيوم" لا يتشكك في نزعته الشكوكية، وأن "كانط" لا يتخذ موقفًا لاأدريًا من لاأدريته. إذَن، آراء كلٍّ منهما متناقضة تفند نفسها. فمن الممكن معرفة حقائق عنِ الله.

٤- الكثير من الحقائق عنِ الله يمكن معرفتها من آثاره التي نستطيع أن نلاحظها. وبالكثير من الملاحظات (الاستقراء) يمكننا أن نتوصل إلى نتائج منطقية (الاستنباط) عن وجودِ الله وطبيعته (وهو ما سنفعله في الفصول القادمة).

٥- الحق الأخلاقي والديني له عواقب زمنية وربما أبدية. واللامبالاة والجهل قد يأتيان بنتائج مميتة. فما لا تعرفه، أو ما لا تبالي بأن تعرفه، **يمكن** أن يؤذيك.

٦- فما الذي يجعل أي شخص يعتقد في أي شيء على الإطلاق؟ أنه يمتلك من الأدلة ما يؤيد معتقداته، ولأن المعتقدات لها عواقب.

* مَن لا يقبلون ضرورة المنطق في العثور على الحق، يفندون فكرتهم ويُثبتون فكرتنا. لماذا؟ لأنهم يحاولون استخدام المنطق لإنكار المنطق. وهو ما يشبه محاولة استخدام اللغة لتوصيل فكرة أن اللغة لا يمكن أن تُستخدَم في التواصل!

الفصول ٣ - ٧ تتناول :

١- الحَقّ المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.

٢- عكس الحق هو الخطأ.

٣- وجودُ إلهٍ خالق حافظٍ حقٌ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بداية الكون (الحجة الكونية *Cosmological Argument***)**

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument* **/ المبدأ الإنساني** *Anthropic Principle***)**

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument***)**

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) الشهادة المبكرة

ب) شهادة شهود العيان

ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)

د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين

٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأكَّد معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلِّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌ.

١١- يسوع عَلَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).



في البدء كان انفجار كبير

"العلم بلا دين أعرج، والدين بلا علم أعمى".

"ألبرت أينشتاين" *Albert Einstein*

حقائق "مزعجة"

كان العام ١٩١٦ ولم يكن "ألبرت أينشتاين" *Albert Einstein* سعيدًا بما قادته إليه حساباته. لأنه إن كانت نظريته في النسبية العامة *General Relativity* صحيحة، فهي تعني أن الكون ليس أزليًا بل له بداية. وكانت حسابات "أينشتاين" تكشف فعليًا بداية محددة للزمن كله، وللمادة كلها، وللفضاء كله. وهو ما ضرب بعرض الحائط اعتقاده في استاتيكية (أي ثبات) الكون وأزليته.

وقد وصف "أينشتاين" اكتشافه فيما بعد بالاكتشاف "المزعج"، لأنه أراد للكون أن يكون ذاتي الوجود - لا يعتمد على أي مسبب خارجي - ولكن ظهر أن الكون هو أثر عملاق. والحقيقة أن "أينشتاين" ضاق جدًا بتداعيات النسبية العامة، وهي نظرية ثبتت دقتها بدرجة لخمسة أرقام عشرية (واحد من مائة ألف)، حتى إنه أدخل ثابتًا كونيًا (أطلق عليه البعض منذ ذلك الحين "مُعامِل التصحيح" "*fudge factor*") في معادلاته ليبيّن أن الكون استاتيكي، وليتجنب فكرة البداية المحددة.

إلا أن معامل تصحيح "أينشتاين" لم يصحِّح طويلاً. ففي عام ١٩١٩ أجرى عالم الكون

البريطاني "آرثر إدينتون" *Arthur Eddington* تجربة أثناء كسوف شمسي أكدت فعليًا صحة النسبية العامة، فالكون ليس استاتيكيًا بل له بداية. ولم يسعد "إدينتون" كما لم يسعد "أينشتاين" بالتداعيات. فقد كتب فيما بعد: "من الناحية الفلسفية، أرى أن وجود بداية لنظام الطبيعة الحالي فكرة مُنَفِّرة لي شخصيًا... أتمنى أن أعثر على ثغرة حقيقية".[١]

وفي سنة ١٩٢٢ أثبت عالم الرياضيات الروسي "ألكسندر فريدمَن" *Alexander Friedmann* رسميًا أن معامل تصحيح "أينشتاين" خاطئ وفقًا لقواعد علم الجبر. (الغريب أن "أينشتاين" بكل نبوغه، في محاولاته للهروب من البداية، قَسَمَ على صفر، وهو ما يعرف حتى تلاميذ المدارس أنه لا يجوز مطلقًا!) وفي الوقت نفسه اكتشف عالِم الفَلَك الهولندي "ڤيلِم دي سيتَر" *Willem de Sitter* أن النسبية العامة تستلزم تمدد الكون. وسنة ١٩٢٧ لاحظ عالم الفلك "إدوين هَبِل" *Edwin Hubble* (الذي سُمِّي التلسكوب الفلكي "هَبِل" باسمه) تمدُّد الكون فعليًا.

فعندما نظر "هَبِل" من التلسكوب البالغ قطره ٢٥٤ سنتيمترًا الكائن في "مرصد ماونت ويلسون" *Mount Wilson Observatory* بولاية كاليفورنيا، اكتشف "انزياحًا نحو الأحمر" *red shift* في الضوء من كل المجرات التي يمكن ملاحظتها، مما يعني أن تلك المجرات تتحرك بعيدًا عنا. أي أن النسبية العامة تأكَّدت مرة أخرى، ويبدو أن الكون يتمدد من نقطة معينة في الماضي السحيق*.

وسنة ١٩٢٩ شدَّ "أينشتاين" الرِّحال إلى "ماونت ويلسون" لينظر في تلسكوب "هَبِل" بنفسه. وما رآه كان شيئًا لا يقبل الجدل. فالدليل **المبني على الملاحظة** بيَّن أن الكون يتمدَّد فعلاً كما تنبأَتْ النسبية العامة. والآن بعد أن انسحق ثابته الكوني نهائيًا تحت وطأة الدليل المضاد، لم يتمكن "أينشتاين" منذ تلك اللحظة أن يدعم أمله في أزلية الكون. ومن ثم، وَصَفَ الثابت الكوني بأنه "أكبر خطأ محرج في حياتي"، وأعاد توجيه جهوده نحو العثور على سطح علبة لغز الحياة. وقال "أينشتاين" إني أريد "أن أعرف كيف خَلَقَ الله العالم. ولا تهمني هذه الظاهرة أو تلك، ولستُ مهتمًا بمدى هذا العنصر أو ذاك. ولكني أريد أن أعرف

* كل المجرات تتجه بعيدًا عنا، ولكن هذا لا يعني أننا في مركز الكون. ولكي ترسم صورة في ذهنك لهذه الفكرة، تَخَيل بالونة عليها نقط سوداء. وعندما تنفخ البالونة، تنفصل كل النقط عن بعضها البعض سواء أكانت قريبة من المركز أم لا. والنقط التي على جانبي البالونة (الأبعد عن بعضها البعض) تنفصل أسرع من النقط المتجاورة. والحقيقة أن "هَبِل" اكتشف علاقة طردية بين المسافة والسرعة، أظهرت أن مجرة تبعد عنا ضعف المسافة التي تبعدها مجرة أخرى، تسير بعيدًا عنا بمقدار ضعف السرعة. وهو ما عُرِف باسم "قانون هَبِل".

فِكرَه، أما الباقي فهو تفاصيل".[٢]

ورغم أن "أينشتاين" قال إنه يؤمن بوحدة الوجود (الله والكون واحد)، فتعليقاته التي يعترف فيها بالخلق والفكر الإلهي هي أقرب للإيمان بالإله الخالق الحافظ. ورغم ما تسببه نظريته في النسبية العامة من "إزعاج"، فهي تقف اليوم بوصفها من أقوى الأدلة على وجود إله خالق حافظ. والحقيقة أن النسبية العامة تؤيد واحدة من أقدم الحجج الرسمية على وجود الإله الخالق الحافظ، ألا وهي الحجة الكونية.

الحجة الكونية: بدايةُ نهايةِ الإلحاد

لا تخف من هذا الاسم الاصطلاحي: فكلمة "كوني" "*cosmological*" مشتقة من الكلمة اليونانية *cosmos* التي تعني "العالم" أو "الكون". أي أن الحجة الكونية *Cosmological Argument* هي الحجة المبنية على بداية الكون. فإن كان للكون بداية، إذَن للكون مسبب. وفي القالب المنطقي تظهر الحجة هكذا:

١- كل ما له بداية له مسبِّب.

٢- الكون له بداية.

٣- إذَن الكون له مسبِّب.

وكما بينَّا في الفصل السابق، لكي تكون الحجة صحيحة، لا بد أن تكون مقبولة منطقيًا، ولا بد أن تكون فرضياتها صحيحة. هذه الحجة مقبولة منطقيًا، ولكن هل المقدمات صحيحة؟ فلنلقِ نظرة على فرضياتها.

فرضية ١: كل ما له بداية له مسبِّب. هذا هو قانون السببية الذي يمثِّل المبدأ الأساسي للعلم. فلولا قانون السببية، لكان العلم مستحيلاً. وقد قال "فرانسيس بيكون" *Francis Bacon* (أبو العلم الحديث): "المعرفة الحقيقية هي معرفة بالمسبِّبات".[٣] أي أن العلم هو بحث عن المسببات. وهذا ما يفعله العلماء؛ يحاولون أن يكتشفوا مسببات الأشياء.

وإن كنا قد لاحظنا أي شيء عن الكون، فما لاحظناه هو أن الأشياء لا تحدث بلا مسبب. فعندما يقود رَجُل سيارته في الطريق لا يمكن أن تظهر أمامه سيارة من مكان لا وجود له، بلا سائق، أو بلا مسبب. صحيح نحن نعلم أن الكثيرين من رجال الشرطة يسمعون ذلك، ولكنه ليس صحيحًا. فدائمًا ما يكون هناك سائق أو أي مسبب آخر وراء تلك السيارة التي ظهرت.

وحتى المتشكك العظيم "ديـڤيد هيوم" لم يقدر أن ينكر قانون السببية. وقد كتب: "لم أؤكد مطلقًا هذه الفرضية شديدة السخافة: أن شيئًا يمكن أن يحدث دون مسبب".[٤]

والحقيقة أن إنكار قانون السببية يعني إنكار العقلانية، لأن عملية التفكير العقلاني نفسها تتطلب منا أن نجمع معًا الأفكار (المسببات) التي تؤدي إلى نتائج (الآثار). فإن قال لك أحد إنه لا يؤمن بقانون السببية، اسأله: "ما **السبب** الذي وصل بك إلى تلك النتيجة؟"

وبما أن قانون السببية ثابت ومؤكَّد ولا يمكن إنكاره، إذَن الفرضية رقم ١ صحيحة. ماذا عن الفرضية رقم ٢؟ هل للكون بداية؟ إن لم يكن كذلك، إذَن لا حاجة لمسبِّب. ولكن إن كان كذلك، إذَن لا بد أن يكون للكون مسبب.

حتى زمن "أينشتاين" تقريبًا، كان الملحدون مستكينين للاعتقاد بأن الكون أزلي، ومن ثم لا يحتاج لمسبب. ولكن منذ ذلك الحين، اكتُشِفَت خمسة فروع من الأدلة العلمية تُثْبِت بما لا يقبل الشك المنطقي أن الكون له بداية بالفعل. وتلك البداية هي ما يُطلِق عليه العلماء حاليًا "الانفجار الكبير" "*The Big Bang*". وأدلة الانفجار الكبير يمكن تذكرها بسهولة بكلمة *SURGE*.*

في البدء كان انفجار كبير

كل عدة سنوات أو نحو ذلك، تنشر كبرى المجلات الإخبارية، مثل مجلة "تايم" *Time* ومجلة "نيوزويك" *Newsweek* وغيرهما، موضوع غلاف عن أصل الكون ومصيره. ومن الأسئلة التي تبحثها هذه المقالات: "متى بدأ الكون؟" و"متى سينتهي؟" ولكن فكرة أن الكون له بداية وأنه سيموت في النهاية لا تُطرح للمناقشة في هذه الموضوعات. لماذا؟ لأن العلماء اليوم يعلمون أنه لا بد من وجود بداية ونهاية للكون بناءً على واحد من أكثر القوانين الطبيعية المؤكَّدة، ألا وهو القانون الثاني في الديناميكا الحرارية.

القانون الثاني في الديناميكا الحرارية *(S)*

القانون الثاني في الديناميكا الحرارية *Second Law of Thermodynamics* هو ما سنشير إليه بحرف *S* في كلمة *SURGE*. والديناميكا الحرارية هي العلم الذي يدرس المادة والطاقة، ومن الأشياء التي ينص عليها القانون الثاني أن الكون يفقد الطاقة القابلة للاستخدام. فكل لحظة يتناقص مقدار الطاقة القابلة للاستخدام في الكون، مما يؤدي بالعلماء إلى النتيجة الواضحة

* الطريف أن كلمة *surge* تعني زيادة مفاجئة، أو ارتفاع مفاجئ، أو تدفق قوي مفاجئ. (المترجمة)

من أنه يومًا ما كل الطاقة ستنفد والكون سيموت. فالكون مثل السيارة المنطلقة على الطريق، لا بد أن تفرغ من البنزين.

تقول: "وَلَوْ! كيف يُثْبِت ذلك بداية الكون؟" لتنظر إلى الأمر هكذا: القانون الأول في الديناميكا الحرارية يقول إن إجمالي كمية الطاقة في الكون ثابت*. أي أن الكون لا يملك إلا مقدارًا محدودًا من الطاقة (مثل سيارتك التي لا تملك إلا مقدارًا محدودًا من الوقود). والآن، إن كانت سيارتك بها مقدار محدود من الوقود (القانون الأول)، وكلما تسير تستهلك الوقود باستمرار (القانون الثاني)، فهل يمكن لسيارتك أن تتحرك الآن لو كنت قد أدرتها منذ الأزل؟ لا، بالطبع لا. كان وقودها سينتهي. وهكذا لو كان الكون يعمل منذ الأزل، لكان الآن قد فقد كل طاقته. ولكنه ما زال يعمل. إذَن لا بد أنه بدأ في وقت ما في الماضي المحدود. أي أن الكون ليس أزليًا، ولكن له بداية.

يمكنك أيضًا أن تتخيل الكون مثل كشاف كهربائي. إن تركت الكشاف الكهربائي مضاءً طوال الليل، فكيف ستكون قوة الضوء في الصباح؟ سيكون خافتًا لأن البطاريات استهلكت معظم طاقتها. إن الكون مثل كشاف كهربائي يخفت ضوءه. وهو لا يملك إلا قدرًا محدَدًا من الطاقة المتبقية المتاحة للاستهلاك. ولكن بما أن بطارية الكون ما زال فيها قدر من الطاقة (لم تمُتْ تمامًا)، إذَن يستحيل أن يكون أزليًا. بل لا بد أن له بداية، لأنه لو كان أزليًا لكانت البطارية قد فرغت تمامًا من الطاقة.

ويُعرف القانون الثاني أيضًا باسم قانون الإنتروبي *Law of Entropy* وهو عبارة عن طريقة معقَّدة للتعبير عن ميل الطبيعة لإشاعة حالة من الفوضى. أي أن الأشياء تتهالك بمرور الزمن. فسيارتك تتهالك، وبيتك يتهالك، وجسمك يتهالك. (الحقيقة أن القانون الثاني هو السبب في أننا عندما نشيخ نمشي على ثلاثة بعد أن كنا نمشي على اثنتين!) ولكن إن كان النظام يقل في الكون، فمن أين أتى النظام الأصلي؟ عالم الفلك "روبرت جاسترو" *Robert Jastrow* يُشَبِّه الكون بساعة تُدار يدويًا.[٥] إن كانت هذه الساعة تعمل، لا بد أن شخصًا أدارها.

---

* ربما أنك سمعت القانون الأول في الديناميكا الحرارية مصاغًا على هذا النحو: "الطاقة لا تُخلق ولا تُدَمَّر" أو الطاقة لا تفنى ولا تَستحدث من عدم". هذه عبارة فلسفية، وليست ملاحظة تجريبية. فكيف لنا أن نعرف أن الطاقة لم تُخلَق لم تستحدث من عدم)؟ لم يكن هناك ملاحظون ليتحققوا من هذا الافتراض. ولكن التعريف الأدق للقانون الأول، بقدر ما تتيحه الملاحظة، هو أن "إجمالي كمية الطاقة في الكون (أي الطاقة القابلة للاستخدام وغير القابلة للاستخدام) تظل ثابتة". لذلك بينما تُستهلك الطاقة القابلة للاستخدام، تتحول إلى طاقة **غير** قابلة للاستخدام، ولكن مجموع الاثنتين يبقى كما هو. كل ما يتغير هو نسبة الطاقة القابلة للاستخدام إلى الطاقة غير القابلة للاستخدام.

وهذا الجانب أيضًا في القانون الثاني يُعَرِّفنا أن الكون له بداية. فبما أنه ما زال شيء من النظام متبقيًا عندنا، تمامًا كما أنه ما زال عندنا قدر من الطاقة القابلة للاستخدام، إذَن لا يمكن أن يكون الكون أزليًا، لأنه إن كان كذلك لكُنّا الآن قد وصلنا إلى فوضى كاملة (إنتروپي).

منذ عدة سنوات، دعاني (''أنا نورم'') أحد الطلاب الذين يشاركون في خدمة مسيحية في إحدى جامعات رابطة أيڤي ليج *Ivy League* لأتحدث هناك عن موضوع مشابه. وفي المحاضرة التي قدمتها للطلاب كان موضوعي الأساسي ما كتبناه هنا، ولكن بمزيد من التفاصيل الكثيرة. وبعد المحاضرة طلب مني الطالب الذي دعاني أن أتناول الغداء معه ومع الأستاذ الذي يُدَرِّسه الفيزياء.

وعندما جلسنا للأكل، أوضح الأستاذ أنه متشكك في حجتي التي مفادها أن القانون الثاني يستلزم بداية للكون. وقال إنه يؤمن بالفلسفة المادية التي تقول إنه لا يوجد إلا المادة، وإنها موجودة منذ الأزل.

فسألته: ''إن كانت المادة أزلية، فماذا تفعل بالقانون الثاني؟''

أجاب: ''لكل قاعدة استثناء. وهذا هو استثنائي''.

كان يمكنني أن أسأله إن كان هذا الافتراض علميًا. فهذا الكلام ليس علميًا، بل قد يكون متناقضًا ويفند نفسه. فهو يفند نفسه إن سألت: ''هل القاعدة التي تقول "لكل قاعدة استثناء" لها استثناءات؟'' إن كان لها أي استثناء، فقد يكون القانون الثاني استثناء من القانون الذي يقول إن كل قاعدة لها استثناءات.

ولكني لم أتخذ هذا النهج لأني لم أُرِدْ أن أحرجه. ولكني وضعت القانون الثاني جانبًا بشكل مؤقت وقررت أن أسأله عن المادية.

فسألته: ''إن كانت كل الأشياء مادية، إذَن ما هي النظرية العلمية؟ فمهما كان، النظريات عن كل الأشياء المادية ليست مادية، فالنظرية لا تتكون من جزيئات''.

ودون أن يتردد لحظة واحدة، أجاب بِرَدّ عبقري قائلاً: ''النظرية سِحْر''.

فكررت ما قال لأني لم أصدق أذني: ''سحر؟ على أي أساس تقول ذلك؟''

فأجاب مسرعًا: ''الإيمان''.

ففكرت في نفسي: ''الإيمان بالسحر؟ لست أصدق أذني! إن كان الإيمان بالسحر أفضل ما يمكن لدعاة الفلسفة المادية تقديمه، إذَن **لست أملك الإيمان الكافي لاعتناق المادية!**''

وعندما استرجعتُ الموقف بدا لي أن هذا الأستاذ عاش لحظة وجيزة من الصدق التام؛ فقد عرف أنه لا يستطيع الرد على الأدلة الكاسحة التي تؤيد القانون الثاني. ولذلك، اعترف أن موقفه لا يقوم على أي دليل أو منطق سليم. وبذلك، قَدَّم مثالاً آخر على رفض الإرادة أن تُصَدِّق ما يقبله العقل باعتباره الحق، وهو أيضًا مثال يبيِّن أن موقف الملحد يقوم على إيمان مَحض.

لقد أصاب الأستاذ في شيء واحد، ألا وهو أن عنده إيمانًا. والحقيقة أنه كان يحتاجُ **قفزة** إيمانية حتى يتجاهل إراديًا أكثر القوانين المؤكَّدة في الطبيعة برمتها. وقد وصف "آرثر إدينتون" القانون الثاني منذ أكثر من ثمانين عامًا قائلاً:

> القانون الذي يقول بزيادة الإنتروبي، وهو القانون الثاني في الديناميكا الحرارية، أظن أنه يحتل المكانة العليا بين قوانين الطبيعة. فإن أخبرك أحدهم أن نظريتك المفضلة عن الكون تتعارض مع معادلات "ماكسويل" *Maxwell*، يمكن أن تُنَحي معادلات "ماكسويل" جانبًا. وإن وُجدَت متعارضة مع الملاحظة، لا يهم، فالتجارب أحيانًا ما تفسد الأمور. ولكن **إن وُجِدَت نظريتك متعارضة مع القانون الثاني في الديناميكا الحرارية فلا أستطيع أن أعطيك أي أمل، لأنه ليس أمامها إلا أن تهوي إلى أعماق الخزي.**[٦]

وبما أني أدركت أن البروفسور لم يكن مهتمًا بقبول الحق، لم أسأله أي أسئلة أخرى محرجة. ولكن لأننا لم نتمكن من تجاهل تأثير القانون الثاني على أجسامنا، طَلَب كلانا الحلوى بعد الغداء. ولم يُرِدْ أي منا أن ينكر أننا نحتاج أن نعوض الطاقة التي فقدناها لتونا!

تمدد الكون *(U) The Universe Is Expanding*

إن النظريات العلمية الجيدة هي التي تستطيع أن تتنبأ بالظواهر التي لم تخضع للملاحظة بعد. فكما رأينا النسبية العامة تنبأت بأن الكون يتمدد. ولكن العلماء لم يؤكدوا أن الكون يتمدد وأنه يتمدد من نقطة واحدة إلا بعد أكثر من عشر سنوات عندما نظر أسطورة علم الفلك "إدوين هَبِل" في تلسكوبه. (منذ عام ١٩١٣ كان عالم الفلك "ڤستو ملـڤين سليفَر" *Vesto Melvin Slipher* على وشك أن يكتشف تمدد الكون، ولكن "هَبِل" هو من وَضَع أجزاء الصورة معًا حتى اكتملت في أواخر العشرينيات). وهذا الكون المتمدد هو الفرع الثاني من الأدلة العلمية على بداية الكون.

كيف يُثْبِت تمدُّد الكون أن له بداية؟ فكِّر فيها هكذا: تَخيَّل أننا نشاهد تسجيلاً بالفيديو لتاريخ الكون ولكن بالعكس، سنرى أن كل مادة الكون تنهار حتى تصل إلى نقطة، ليست في حجم كرة السلة، ولا في حجم كرة الجولف، ولا حتى في حجم رأس الدبوس، ولكنها رياضيًا ومنطقيًا نقطة عبارة عن لا شيء (لا مكان، ولا زمان، ولا مادة). أي أنه كان هناك عدم ثم، انفجار، صار هناك شيء، انفجر الكون كله إلى الوجود! وهو ما شاعت تسميته طبعًا باسم "الانفجار الكبير".

ومهم أن نفهم أن الكون لا يتمدد في فضاء فارغ، ولكن الفضاء نفسه يتمدد، فلم يكن هناك فضاء قبل الانفجار الكبير. ومهم أيضًا أن نفهم أن الكون لم ينبثق من مادة موجودة، ولكن من لا شيء، فقبل الانفجار الكبير لم يكن هناك مادة. بل الحقيقة أنه من الناحية الزمنية لم يكن هناك "قبل" الانفجار الكبير لأنه بدون الزمن ليس هناك "قبل"، ولم يكن هناك زمن حتى حدوث الانفجار الكبير.* الزمان، والمكان، والمادة أتت إلى الوجود عند الانفجار الكبير.

وهذه الحقائق تسبِّب الكثير من الاضطراب للملحدين، كما حدث في ليلة مطيرة في ولاية چورچيا من شهر نيسان/أبريل سنة ١٩٩٨. في تلك الليلة حضرتُ (أنا "فرانك") مناظرة في مدينة "أتلانتا" حول سؤال: "هلِ الله موجود؟" وقد اتخذ "وليم لين كريج" *William Lane Craig* الموقف المؤيِّد، واتخذ "پيتر آتكينز" *Peter Atkins* الموقف المعارض. وكانت المناظرة حيوية جدًا، بل فكاهية أحيانًا، وهو ما كان يرجع جزئيًا لحَكَم المناظرة "وليم ف. بَكلي" الابن*William F. Buckley, Jr*. (لم يُخفِ "بَكلي" انحيازه لموقف "كريج" المؤيِّد لله، فبعد أن قدَّم "كريج" ومؤهلاته المبهرة، بدأ تقديم "آتكينز" بتعبير فكاهي، فقال: "ومعنا الدكتور "پيتر آتكينز" في صف الشيطان!").

وكانت الحجة الكونية واحدة من الحجج الخمس التي طرحها "كريج" لإثبات وجودِ الله مؤيَّدةً بدليل الانفجار الكبير الذي تناولناه هنا. وقد أشار إلى أن الكون: كل الزمان، وكل المادة، وكل المكان انفجر من لا شيء، وهي حقيقة اعترف بها "آتكينز" في كتابه وأكدها ثانية فيما بعد في تلك المناظرة.

* كلمات مثل "يسبق" و"قبل" عادة ما تنطوي على زمن. ولكننا لا نقصدها بذلك المعنى، لأنه لم يكن هناك زمن "قبل" الانفجار الكبير. لأنه يستحيل أن يكون هناك زمن قبل بدء الزمن. فما الذي يمكن أن يوجد إذَن قبل الزمن؟ الإجابة بمنتهى البساطة هي: الأزلي! أي المسبب الأزلي الذي أوجد الزمان، والمكان، والمادة.

وبما أن ''كريج'' تحدَّث أولاً فقد أخبر الحضور عن محاولة ''آتكينز'' أن يفسر الكون من منظور إلحادي قائلاً: ''يبذل الدكتور "آتكينز" قصارى جهده في كتابه "مراجعة الخليقة" *The Creation Revisited* ليفسِّر كيفية ظهور الكون إلى الوجود، بلا مسبب ومن العدم. ولكنه في النهاية يجد نفسه وقد سقط في التناقض. فهو [يكتب]: "والآن نعود بالزمن إلى ما قبل لحظة الخلق عندما لم يكن هناك زمان، وحيثما لم يكن هناك مكان". وفي هذا الزمان الذي قبل الزمان يتخيل ترابًا من النقاط الرياضية التي تتحرك في دوامات وتتصل مرارًا وتكرارًا وأخيرًا عن طريق المحاولة والخطأ تشكل كوننا بزمانه ومكانه''.[٧]

ثم أشار ''كريج'' إلى أن موقف ''آتكينز'' ليس نظرية علمية ولكنه في الواقع ميتافيزيقا شعبية متناقضة. وهو ميتافيزيقا شعبية لأنها تفسير مُفَبرك، فليس هناك دليل علمي على الإطلاق يؤيده. وهو متناقض لأنه يفترض الزمان والمكان قبل أن يكون هناك زمان ومكان.

وحيث إن ''كريج'' لم يحصل على فرصة ليتحاور مع ''آتكينز'' مباشرةً حول هذه النقطة، وقفت أنا وكذلك ''راڤـي زكرايايس'' في صف الأسئلة قرب نهاية المناظرة لنسأل ''آتكينز'' عن موقفه. ولكن للأسف الوقت انتهى قبل أن يتمكن أيٌّ منا من طرح سؤاله. لذلك ذهبنا إلى ''آتكينز'' على انفراد بعد المناظرة.

وبدأ ''راڤـي'' الحديث قائلاً: ''دكتور "آتكينز"، إنك تعترف أن الكون انفجر من لا شيء، ولكن تفسيرك لبدايته يتلاعب بمعنى "اللاشيء". وذلك لأن النقاط الرياضية التي تتحرك في دوامات ليست لا شيء. ولكنها شيء. كيف تبرر ذلك؟''

وبدلاً من أن يرد ''آتكينز'' على هذه القضية استسلم حرفيًا للقانون الثاني من الديناميكا الحرارية، وقال: ''الحقيقة أنا متعَب جدًا ولا يمكنني أن أجيب عن المزيد من الأسئلة الآن''. أي أن انخفاض طاقته أثبت أن القانون الثاني سارٍ. والحقيقة أن ''آتكينز'' لم يكن لديه فعليًا أي شيء يقوله.

وفقًا للأدلة الكونية الحديثة، لم يكن هناك فعليًا أي شيء انبثق منه الكون. ولكن عندما حاول ''آتكينز'' أن يقدم تفسيرًا إلحاديًا لذلك لم يبدأ باللاشيء، بل بنقاط رياضية وزمان. وبالطبع لا يستطيع المرء على أي حال أن يتخيل كيف يمكن لمجرد نقاط رياضية وزمان أن يُسَبِّبا الكون. إلا أننا أردنا أن نؤكد أن الملحدين أمثال ''آتكينز'' عليهم أن يجدوا طريقة ليفسروا كيفية بدء الكون من لا شيء أصلاً.

ما هو اللاشيء؟ قدَّم أرسطو تعريفًا جيدًا حين قال: **اللاشيء هو ما تحلم به الصخور!** إن اللاشيء الذي نشأ منه الكون ليس "نقاطًا رياضية" كما يرجح "آتكينز"، ولا "طاقة إيجابية وسلبية" كما كتب ذات مرة "إسحاق أزيموف" *Isaac Asimov*، وهو أيضًا ملحد.[٨] اللاشيء هو حرفيًا **لا شيء**، إنه ما تحلم به الصخور.

وقد وصف الكاتب البريطاني "أنتوني كني" *Anthony Kenny* بأمانة المأزق الذي يجد نفسه فيه بصفته ملحدًا في ضوء الأدلة على الانفجار الكبير. فكتب: "وفقًا لنظرية الانفجار الكبير، كل مادة الكون ظهرت في الوجود في وقت معين في الماضي السحيق. ومؤيد هذه النظرية، على الأقل إن كان ملحدًا، لا بد أن يؤمن أن مادة الكون أتت من لا شيء وبواسطة لا شيء".[٩]

الإشعاع المنبعث من الانفجار الكبير *(R) Radiation from the Big Bang*

الفرع الثالث من الأدلة العلمية على أن للكون بداية اكتُشِفَ بالصدفة سنة ١٩٦٥. وكان ذلك عندما التقط كلٌّ من "آرنو پنزياس" *Arno Penzias* وزميله "روبرت ويلسون" *Robert Wilson* إشعاعًا غريبًا على هوائي "مَعامل بل" *Bell Labs* في "هولمدل" *Holmdel* بولاية نيو چيرسي. وحتى عندما أدارا الهوائي في كل الاتجاهات ظل هذا الإشعاع الغامض موجودًا. وفي البداية ظنّا أنه يمكن أن يكون نتيجة تراكم فضلات الحمام المعشش من شاطئ نيو چيرسي على الهوائي. فطلبا إبعاد الحمام وإزالة فضلاته. ولكنهما عندما دخلا ثانية وجدا أن الإشعاع ظل باقيًا، وظل يأتي من كل الاتجاهات.

وما رصده "پنزياس" وزميله "ويلسون" أصبح من أكثر الاكتشافات المدهشة في القرن الماضي، حتى إنه كان سببًا في فوزهما بجائزة نوبل. لقد اكتشف عالِما "مَعامل بل" الشعاع التابع لانفجار كرة النار الكبير!

وهذا الشعاع التابع للانفجار الذي يُعرف اصطلاحًا باسم إشعاع الخلفية الكونية *cosmic background radiation* هو فعليًا عبارة عن ضوء وحرارة من الانفجار الأصلي. إلا أن هذا الضوء لم يعُد منظورًا لأن طوله الموجي تَمَدَّد بفعل التمدُّد الكوني حتى وصل إلى أطوال موجية أقصر قليلاً من الموجات الصادرة من فرن الميكروويف. ولكننا ما زلنا قادرين على رصد الحرارة المنبعثة.

ومنذ سنة ١٩٤٨ تنبأ ثلاثة علماء أن الانفجار الكبير، إن كان حقيقيًا، فلا بد أن يوجد إشعاع كهذا. ولكن لسببٍ ما، لم يحاول أحد أن يرصده قبل أن يتعثر فيه "پنزياس" وزميله "ويلسون" بالصدفة بعد ما يقرب من عشرين عامًا. وعندما تأكد الاكتشاف أسكت كل الاقتراحات التي تُلِحّ على أن الكون في حالة أزلية ثابتة. وهو ما عَبَّرَ عنه عالم الفلك اللاأدري "روبرت چاسترو" بهذه الكلمات:

> لم يُكتَشَف تفسير لإشعاع كرة النار إلا الانفجار الكبير. والفيصل الذي أقنع تقريبًا آخر توما شكاك هو أن الإشعاع الذي اكتشفه "پنزياس" و"ويلسون" له نفس نمط الأطوال الموجية المتوقَّعة للضوء والحرارة الناتجين من انفجار ضخم. وقد حاول مؤيدو نظرية الحالة الثابتة *steady state theory* محاولات مستميتة أن يجدوا تفسيرًا بديلاً. ولكنهم فشلوا. وفي الوقت الحالي، نظرية الانفجار الكبير تقف بلا منافس.[١٠]

والواقع أن اكتشاف إشعاع كرة النار أحرق أي أمل في الحالة الثابتة. إلا أنه لم يكن آخِر الاكتشافات. وفيما يلي مزيد من أدلة الانفجار الكبير. والحقيقة أنه لو كان عِلم الكون مباراة كرة قدم أمريكية، لَطُلِب من المؤمنين بالانفجار الكبير أن "يقفزوا" فوق لاعبي الفريق المنافس مع ظهور هذا الاكتشاف التالي.

بذور المجرة العظيمة *(G) Great Galaxy Seeds*

بعد اكتشاف تمدُّد الكون الذي تنبأت به النظريات، والإشعاع التابع للانفجار الكبير، وَجَّهَ العلماء انتباههم لتنبوء آخر من شأنه تأكيد الانفجار الكبير. فإن كان الانفجار الكبير قد حدث بالفعل، رأى العلماء أنه لا بد أن نرى تنوعات طفيفة (أو حركات موجية دائرية صغيرة) في درجة حرارة الإشعاع الخلفي الكوني الذي اكتشفه "پنزياس" و"ويلسون". وهذه الحركات الموجية الدائرية من درجة الحرارة مَكَّنَت المادة من التجمع بفعل الجاذبية في هيئة مجرات. وإن وُجِدَت، ستُشَكِّل الفرع الرابع من الأدلة العلمية على بداية الكون.

وسنة ١٩٨٩ تَكَثَّف البحث عن هذه الحركات الموجية عندما أطلقت ناسا القمر الصناعي الذي تعادل قيمته ٢٠٠ مليون دولار، والذي اختير له اسم مناسب جدًا هو "مستكشف الخلفية الكونية" *Cosmic Background Explorer* واختصاره "كوب" *COBE*. وقد تمَكَّن "كوب" بما حمله من أجهزة شديدة الحساسية أن يرى ما إذا كانت هذه الحركات الموجية الدائرية الصغيرة موجودة بالفعل في الإشعاع الخلفي ومدى دقتها.

وعندما أعلن عالم الفلك "چورچ سموت" *George Smoot*، قائد المشروع، نتائجَ "كوب" سنة ١٩٩٢ نشرت صحف العالم وصفَه الصادم. فقد قال: "إن كنتَ متدينًا، فالأمر يشبه النظر إلى الله". ولم يكن "مايكل ترنر" *Michael Turner* عالم الفيزياء الفلكية بجامعة شيكاغو أقل حماسًا، إذ زعم قائلاً: "إن قيمة هذا [الاكتشاف] أعظم من أن توصف. لقد وجدوا قدس أقداس الكونيات". وقد اتفق معهما أيضًا "ستيـڤن هوكينج" عالم الفلك بجامعة كامبريدچ، ووصف النتائج بأنها "أهم اكتشاف في القرن، إن لم يكن في التاريخ كله".[١١] فما الذي اكتشفه "كوب" حتى يستحق كل هذه الأوصاف الرنانة؟

إن "كوب" لم يجد الحركات الموجية الدائرية فحسب، ولكن العلماء ذُهِلوا من دقتها. فالحركات الموجية تُبَيِّن أن انفجار الكون وتمدُّده ضُبِطَا بدقة تتيح إنتاج المادة بكمية تكفي لتَجَمُّعها معًا بما يسمح بتكوين المجرات، ولكنها لا تكفي لتجعل الكون ينهار مرة أخرى على نفسه. ولو حدث تغيير طفيف بأي شكل من الأشكال لن يكون أيٌّ منـًا هنا حتى يخبر به. وفي الحقيقة الحركات الموجية الدائرية الصغيرة في منتهى الدقة (تصل دقتها إلى جزء من مائة ألف) حتى إن "سموت" أطلق عليها "آثارُ آلةِ خلق الكون"، ووَصَفَها أيضًا بأنها "بصمات الخالق".[١٢]

ولكن هذه الحركات الموجية الدائرية لدرجة الحرارة ليست مجرد نقط على رسم بياني لأحد العلماء في مكانٍ ما. ولكن "كوب" التقط صورًا تحت الحمراء للحركات الموجية. تَذَكَّر أن ملاحظة الفضاءٍ هي في الواقع ملاحظة للماضي، نظرًا لطول الزمن الذي يستغرقه الضوء القادم من أجسام بعيدة جدًا حتى يصل إلينا. لذا، صور "كوب" هي فعليًا صور من الماضي. أي أن الصور تحت الحمراء التي التقطها "كوب" تشير إلى وجود مادة من الكون الأولي تُشَكِّل في النهاية المجرات والعناقيد المجرِّية. وقد أطلق "سموت" على هذه المادة "بذور المجرات كما توجد اليوم (يمكن الاطلاع على هذه الصور على الموقع الإلكتروني للقمر "كوب": *http://Lambda.gsfc.nasa.gov*). وهذه "البذور" هي أكبر بِنًى تم رصدها على الإطلاق، وأكبرها يمتد بعرض ثُلث الكون المعروف. وهو ما يعادل ١٠ مليار سنة ضوئية أو ٩٥ مليار تريليون (٩٥ يتبعها ٢١ صفر) كيلومتر.[١٣]

والآن تستطيع أن تفهم سبب الأوصاف المهيبة التي أطلقها بعض العلماء على الاكتشاف. إنه شيء آخر تنبّأت به نظرية الانفجار الكبير، والآن تم اكتشافه، وكان ذلك الشيء عظيم الكِبَر وشديد الدقة حتى إنه أحدث انفجارًا كبيرًا عند العلماء!

نظرية أينشتاين في النسبية العامة (E) Einstein's Theory of General Relativity

حرف *E* في كلمة *SURGE* يشير إلى "أينشتاين" *Einstein*. وتمثِّل نظريته في النسبية العامة الفرع الخامس في الأدلة العلمية على بداية الكون، وكان اكتشافها بداية النهاية لفكرة أزلية الكون. والنظرية نفسها التي تم التحقُّق من دقتها للرقم العشري الخامس (أي بنسبة واحد من مائة ألف)، تستلزم بداية محددة للزمان، والمكان، والمادة. وهي تبين أن الزمان، والمكان، والمادة ملازِمة لبعضها البعض. أي أنها في علاقة تكافلية، لا يمكن أن يوجد عنصر واحد دون العنصرين الآخَرين.

ومن نظرية النسبية العامة، تنبأ العلماء بتمدد الكون، والإشعاع المنبعث عقب الانفجار، وبذور المجرة العظيمة التي ضُبِطـَت بدقة تسمح للكون أن يتخذ شكله الحالي، ثم اكتشفوا كل هذه الحقائق. أضف هذه الاكتشافات إلى القانون الثاني في الديناميكا الحرارية، وبذلك تتكون لدينا خمسة فروع من الأدلة العلمية القوية على أن الكون له بداية. بداية، إن جاز لنا التعبير، أتت في انفجار كبير أشرنا إلى أدلته بلفظ *SURGE*.

الله وعلماء الفلك

إذَن الكون له بداية. ماذا يعني ذلك لمسألة وجودِ الله؟ العالِم الذي يشغل حاليًا كرسي "إدوين هَبِل" في "مرصد ماونت ويلسون" يخبرنا ببعض الأمور عن هذا الموضوع. واسمه "روبرت چاسترو"، وهو عالم فلك اقتبسنا من أقواله في هذا الفصل. وهو مدير "مرصد ماونت ويلسون"، ومؤسس "معهد جودارد لدراسات الفضاء التابع لناسا" *NASA's Goddard Institute of Space Studies*. ومن الواضح أن مؤهلاته العلمية لا تشوبها شائبة. وهو ما جعل لكتابه "الله وعلماء الفلك" *God and the Astronomers* تأثيرًا كبيرًا على من يبحثون في تداعيات الانفجار الكبير، أي من يطرحون سؤال: "هل الانفجار الكبير يشير إلى الله؟"

ويكشف "چاسترو" في افتتاحية الفصل الأول أنه لا يتبنى أي آراء دينية يود إقناع القارئ بها. فهو يقول: "عندما يكتب عالِم فَلَك عنِ الله، يفترض زملاؤه إما أنه شاخ وخَرِف، أو أنه أصيب بالجنون. ولكني أرجو أن يُفـْهَم من البداية أني لاأدري في الأمور الدينية".[١٤]

في ضوء لاأدرية "چاسترو"، تظهر أقواله التي تتعلق بالإيمان بالله الخالق أكثر إثارةً. فبعد أن شرح بعض أدلة الانفجار الكبير التي استعرضناها توًا، كتب: "يمكننا الآن أن نرى أن

الأدلة الفلكية تؤدي بنا إلى منظور كتابي* لأصل العالم. ورغم اختلاف تفاصيل الرواية الفلكية عن الرواية الكتابية الواردة في سفر التكوين؛ فالعناصر الأساسية في الروايتين واحدة: سلسلة الأحداث التي تؤدي إلى ظهور الإنسان بدأت بداية مفاجئة واضحة في لحظة محدَّدة في الزمن، في ومضة من الضوء والطاقة".[١٥]

والأدلة المذهلة على الانفجار الكبير وتوافقها مع الرواية الكتابية في سفر التكوين دفعا "چاسترو" أن يقول في حوار أُجري معه: "يرى علماء الفلك اليوم أنهم وضعوا أنفسهم في مزنق؛ لأنهم أثبتوا بطـُرُقِهم العلمية أن العالم بدأ فجأة بفِعْلِ خَلـْق يمْكِنك أن تعزي له كل بذور كل نجم، وكل كوكب، وكل كائن حي في هذا الكون وعلى الأرض. وقد وجدوا أن كل هذا حدث نتاجًا لقوى لا يمكنهم حتى أن يحلموا باكتشافها... **إني أعتقد أن وجود ما أُطـْلِقُ عليه، أنا أو غيري، قوى فوق طبيعية عاملة أصبح الآن حقيقة ثابتة علميًا**".[١٦]

وإذ يثير "چاسترو" فكرة فوق الطبيعي، يردد الخلاصة التي توصل إليها "آرثر إدينتون" الذي عاصر "أينشتاين". فكما ذكرنا فيما سبق، أنه رغم أن "إدينتون" وجدها فكرة "منفـِّرة"، فقد اعترف أن "البداية يبدو أنها تطرح صعوبات مستعصية إلا إذا اتفقنا أن ننظر إليها بصفتها فوق طبيعية على نحو صريح".[١٧]

ولكن لماذا يعترف "چاسترو" وكذلك "إدينتون" بوجود قوى "فوق طبيعية" عاملة؟ ما المانع أن يكون الكون نتاجَ قوى طبيعية؟ لأن هؤلاء العلماء يعلمون، مثلما يعلم أي شخص آخر، أن القوى الطبيعية، بل الطبيعة برمتها، خـُلِقـَت في الانفجار الكبير. أي أن الانفجار الكبير كان نقطة البداية للكون المادي كله. فالزمان والمكان والمادة أتت إلى الوجود عند تلك النقطة. وقبل الانفجار الكبير لم يكن هناك عالم طبيعي ولا قانون طبيعي. وبما أن المسبِّب لا يمكن أن يَعْقـُب الأثر، إذَن القوى الطبيعية لا يمكن أن تفسِّر الانفجار الكبير. ومن ثم لا بد من وجود شيء **خارج الطبيعة** يقوم بهذه الوظيفة. وهذا هو بالضبط ما يعنيه تعبير **فوق طبيعي**.

و"روبرت ويلسون" و"آرنو پنزياس"، مكتشفا الشعاع التابع للانفجار، لم يكونا من معلمي الكتاب المقدس المتحمسين له. بل كان كلاهما في البداية يؤمن بنظرية الحالة الثابتة. ولكنهما نظرًا لتزايد الأدلة، غيرًا موقفهما واعترفا بحقائق تتفق مع الكتاب المقدس. ويعترف "پنزياس" قائلاً: "لقد اتضح أن نظرية الحالة الثابتة في منتهى البشاعة حتى إن الناس

---

* كلمة "كتابي" في الفهم المسيحي تعني: وفقًا للكتاب المقدس. (المترجمة)

لفظوها. وأسهل وسيلة لتوفيق الملاحظات على أقل عدد من المعايير تتمثل في تأكيد أن الكون خـُلِقَ من لا شيء، في لحظة، وأنه ما زال يتمدد".[١٨]

وقد قال "ويلسون" الذي درس على يد "فْرِد هويل" *Fred Hoyle* (الذي روَّج لنظرية الحالة الثابتة ونشرها على نطاق واسع سنة ١٩٤٨): "لقد أُعجِبْتُ بنظرية الحالة الثابتة من الناحية الفلسفية. ولكن واضح أنه كان لا بد أن أتخلى عنها".[١٩] وعندما سأله الكاتب العلمي "فْرِد هيرِن" *Fred Heeren* عما إذا كانت أدلة الانفجار الكبير تشير إلى وجود خالق، أجاب "ويلسون" قائلاً: "مؤكد أن شيئـًا ما أطلق هذه العملية برمتها. ومؤكد، إن كنتَ متدينـًا، أنه لا يمكنني أن أجد نظرية أفضل منها عن أصل الكون تتناسب مع سفر التكوين".[٢٠] وقد أكد "چورچ سموت" تقييم "ويلسون" حينما قال: "لا شك أن هناك تشابهًا بين الانفجار الكبير بصفته حدثـًا والفكرة المسيحية المختصة بالخلق من عدم".[٢١]

"الإمبراطورية تعيد الضربات"* (ولكنها تتلاشى)

ما قول الملحدين في ذلك؟ لقد رأينا ما في تفسيرات "آتكينز" و"إسحق أزيموف" من قصور، فهي تنطلق من شيء وليس من عدم فعلي. فهل هناك أي تفسيرات إلحادية أخرى مقبولة منطقيًا؟ لم نرَ للملحدين تفسيرات مقبولة حتى الآن. فقد خرجوا بنظريات أخرى، ولكنها جميعًا مشوبة بأخطاء فادحة[٢٢]. فلنلقِ نظرة سريعة على القليل منها.

نظرية الارتداد الكوني ***The Cosmic Rebound Theory***: ترجِّح هذه النظرية أن الكون كان يتمدَّد وينكمش منذ الأزل. وهو ما يساعد مؤيديها على الهروب من البداية المحدَّدة. ولكن هذه النظرية محاطة بمشكلات عديدة، مما أدى إلى رفضها.

وأول هذه المشكلات وأوضحها هو عدم توافر دليل على وجود عدد لانهائي من الانفجارات (فمهما كان النظرية ليست نظرية الانفجار، الانفجار، الانفجار، الانفجار، الانفجار... الكبير!) بل يظهر أن الكون انفجر مرة واحدة من العدم، وليس مرارًا من مادة موجودة.

ثانيًا، الكون لا يحوي مادة كافية لسحب كل الأشياء معًا مرة أخرى. فيبدو أن الكون محكوم بشكل يجعله يستمر في التمدد إلى ما لانهاية.[٢٣] وهو ما أكَّده سنة ٢٠٠٣ "تشارلز بِنِت" *Charles Bennett* أحد علماء "مركز جودارد لرحلات الفضاء التابع لناسا" *NASA's Goddard Space Flight Center*. فبعد أن فحص قراءات من أحدث مسبار فضائي لوكالة ناسا قال:

---

* الإشارة إلى الجزء الخامس من فيلم "حرب النجوم" *Star Wars*، وعنوانه بالإنجليزية *The Empire Strikes Back*. (المترجمة)

"الكون سيستمر في التمدد إلى الأبد. فهو لن يرتد على نفسه وينهار محدثـًا دويًا عظيمًا"[٢٤]" والحقيقة أن علماء الفلك يكتشفون حاليًا أن سرعة تمدّد الكون تتزايد بالفعل، مما يستبعد أيضًا احتمالية الانهيار.[٢٥]

ثالثـًا، حتى وإن كانت هناك مادة كافية لجعل الكون ينكمش ثم "ينفجر" ثانيةً، فنظرية الارتداد الكوني تتناقض مع القانون الثاني في الديناميكا الحرارية لأن النظرية تفترض، خطأً، أنه لن يُفقـَد أي قدر من الطاقة في كل انكماش وانفجار. إن الكون الذي "ينفجر" مرارًا كثيرة لا بد أن يضعف ويتلاشى كما تضعف الكرة الساقطة. فلو كان الكون يتمدد وينكمش **منذ الأزل**، لكان قد تلاشى.

وأخيرًا، كان من المستحيل أن نصل إلى يومنا هذا لو كان الكون يتمدد وينكمش منذ الأزل. فحدوث عدد لانهائي من الانفجارات الكبيرة هو استحالة حقيقية (وسوف نتناول ذلك بالتفصيل بعد بضع صفحات). وحتى لو كان هناك عدد **نهائي** من الانفجارات، فالنظرية لا تستطيع أن تشرح ما سَبَّبَ أول انفجار. فلم يكن هناك شيء "ينفجر" قبل الانفجار الأول!

الزمن التخيلي ***Imaginary Time***: أما المحاولات الإلحادية الأخرى التي تحاول تفسير كيفية انفجار الكون إلى الوجود من عدم هي أيضًا محاولات معيبة. فمثلاً في محاولةً لتجنب بداية محددة للكون، طرح "ستيـڤن هوكينج" *Stephen Hawking* نظرية تستخدم "الزمن التخيلي". ويمكننا نحن أيضًا أن نسميها "نظرية تخيلية" لأن "هوكينج" نفسه يعترف أن نظريته "مجرد مقترح [ميتافيزيقي]" لا يستطيع أن يفسِّر ما حدث في الزمن الحقيقي. فهو يعترف أنه "في الزمن الحقيقي الكون له بداية..."[٢٦]" والواقع أن "هوكينج" يرى أن "الجميع تقريبًا اليوم يؤمنون أن الكون والزمن نفسه بدآ في الانفجار الكبير".[٢٧] ومن ثم، باعتراف "هوكينج" نفسه، نظريته التخيلية تتلاشى عندما تـُطـَبَّق على العالم الحقيقي. فالزمن التخيلي محض خيال.

انعدام اليقين ***Uncertainty***: نظرًا لقوة الأدلة على بداية الكون، فإن بعض الملحدين يشكِّكون في الفرضية المنطقية الأولى في الحجة الكونية، ألا وهي قانون السببية. إلا أن هذا التشكيك يمثِّل خطورة كبيرة على الملحدين الذين عادة ما يفخرون بأنهم أبطال العقل والعلم. وكما أشرنا آنفـًا، قانون السببية هو أساس العلم برمته. فالعلم هو بحث عن المسببات. فإن دَمَّرتَ قانون السببية، دَمَّرتَ العلم نفسه.

ولكن الملحدون يحاولون التشكيك في قانون السببية باللجوء إلى الفيزياء الكمية، وتحديدًا مبدأ عدم اليقين عند هايزنبرج *Heisenberg's Uncertainty Principle*. ويصف هذا المبدأ عجزنا عن التنبوء في آن واحد بموقع وسرعة الجسيمات الموجودة في الذرة *subatomic particles* (أي الإلكترونات). والملحدون هنا مقتنعون بأنه: إن كانت السببية غير ضرورية في عالم الذرة الداخلي، إذَن ربما سببية الكون برمته غير ضرورية أيضًا.

ولكن من حسن حظ العلم أن هذه المحاولة الإلحادية للتشكيك في قانون السببية تبوء بالفشل. لماذا؟ لأنها تخلط بين **السببية وإمكانية التنبوء**. فمبدأ عدم اليقين عند هايزنبرج **لا** يُثبت أن حركة الإلكترونات بلا مسبب، ولكنه يصف فقط عجزنا عن **التنبوء** بموقعها وسرعتها في وقت بعينه. فعدم قدرتنا على التنبوء بشيء لا يعني أن هذا الشيء بلا مسبب. والحقيقة أن واضعي نظريات الكم يعترفون أنه قد لا نستطيع التنبوء بسرعة الإلكترونات وموقعها في آن لأن محاولتنا لملاحظتها هي السبب في تحركاتها التي لا يمكن التنبوء بها! فكما يضع مربي النحل رأسه في خلية النحل، علينا أن نستثيرها حتى نلاحظها. ومن ثم قد تكون الحركة الحادثة هي عبارة عن عالِم يرى رموشه في الميكروسكوب.

وفي النهاية يتضح أنه ليست هناك نظرية إلحادية تُفَنِّد أيًا من فرضيات الحجة الكونية بكفاءة. فللكون بداية، ومن ثم فهو يحتاج إلى مسبب.

ديانة العلم

فلماذا إذَن لا يقبل كل العلماء هذه النتيجة بدلاً من أن يحاولوا تجنب الحقائق ومضامينها بتفسيرات معيبة وغير مقبولة منطقيًا؟ وتعليقات "چاسترو" ثاقبة في هذا الصدد أيضًا (تَذَكَّر أن "چاسترو" لاأدري). فهو يقول:

> اللاهوتيون عمومًا سعداء **بالبرهان** على بداية الكون، ولكن الغريب أن الفلكيين متضايقون. وردود أفعالهم تُعَبِّر تعبيرًا مثيرًا عن استجابة العقل العلمي، الذي يُفتَرَض أنه عقل موضوعي جدًا، عندما تؤدّي الأدلة التي كشفها العلم نفسه إلى صدام مع **بنود الإيمان في مهنتنا**. وينتهي المطاف بالعالِم إلى أن يتصرف كما نفعل جميعًا عندما تصطدم معتقداتنا بالأدلة. فإما أننا ننزعج، أو نتظاهر بعدم وجود صدام، أو نخفيه بعبارات لا معنى لها.[٢٨]

والعبارات التي رأينا ''آتكينز'' و''أزيموف'' يستخدمانها لتفسير بداية الكون مثل ''النقاط الرياضية''، و''الطاقة الإيجابية والسلبية'' على الترتيب تبدو لنا بالتأكيد بلا معنى. وهي في الواقع لا تفسِّر شيئًا.

أما بخصوص مشاعر ''أينشتاين'' ''المزعجة'' تجاه النسبية العامة وتمدد الكون، يقول ''چاسترو'': ''إنها لغة عاطفية غريبة لا تناسب مناقشة الصيغ الرياضية. ولكني أظن أن فكرة البداية الزمنية ضايقت "أينشتاين" لما لها من مضامين لاهوتية''.[٢٩]

إن الجميع يعلمون أن المؤمنين بالله الخالق لديهم معتقدات لاهوتية. ولكن الحقيقة المهملة غالبًا هي أن العلماء الملحدين والمؤمنين بوحدة الوجود لديهم أيضًا معتقدات لاهوتية. وكما أشرنا آنفًا، يُطلِق ''چاسترو'' على بعض هذه المعتقدات ''بنود الإيمان في مهنتنا''، وهو يؤكد أن بعض هذه المعتقدات تشكل ''الديانة العلمية''. فهو يكتب قائلاً:

> هناك نوع من الديانة العلمية... كل أثر لا بد أن يكون له مسبب؛ فليس هناك مسبب أولي... ولكن هذا الإيمان الديني عند العالِم يتأذى باكتشاف أن العالَم له بداية شروطها تُبطل قوانين الفيزياء المعروفة، وأنه نتاجُ قوى أو ظروف لا يمكننا اكتشافها. وعندما يحدثُ ذلك يفقد العالم السيطرة. ولو فَحَصَ مضامين هذه الاكتشافات فحصًا حقيقيًا، لأُصيب بصدمة. وكالعادة عندما يواجه العقل صدمة يكون رد فعله أنه يتجاهل مضامينها، وهو ما يُعرف في العلم باسم "رفض توقع النتائج المتضمّنة"، أو التهوين من أصل العالَم بتسميته الانفجار الكبير، وكأن الكون لعبة نارية.[٣٠]

وسواء كان العلماء مصدومين أم لا، عليهم أن يدركوا ما تنطوي عليه أدلة الانفجار الكبير من مضامين. فقد لا تعجبهم الأدلة أو مضامينها، إلا أن هذا لا يغير الحقائق. وحيث إن الأدلة تبين أن الزمان والمكان والمادة خُلِقَت في الانفجار الكبير، فالخلاصة العلمية الأكثر احتمالاً هي أن الكون سُبِّبَ بفعل شيء **خارج** الزمان والمكان والمادة (أي مسبب أزلي). وعندما يقصر العلماء عن مواجهة تلك الخلاصة بإخفائها ''بعبارات لا معنى لها'' أو ''برفض توقع النتائج المتضمنة''، يبدو أنهم ببساطة يرفضون قبول الحقائق والخلاصات الأكثر منطقية المترتبة عليها. وهو رفض إرادي، لا عقلي. فالأدلة موضوعية، ولكن العلماء الذين لا يصدقونها غير موضوعيين.

ماذا لو كانت نظرية الانفجار الكبير خاطئة؟

لقد استعرضنا حتى الآن أدلة علمية متينة (*SURGE*) على حقيقة بداية الكون. ولكن هَبْ أن العلماء استيقظوا ذات يوم واكتشفوا أن كل حساباتهم خاطئة، وأنه لم يكن هناك انفجار كبير. ولكننا إن أخذنا في الاعتبار الأدلة العديدة المتنوعة وقدرة النظرية على التنبوء تنبوءات صحيحة بكمٍّ كبير من الظواهر القابلة للملاحظة، يصبح رفض نظرية الانفجار الكبير أمرًا مستبعدًا تمامًا.

وهو ما يعترف به حتى الملحدين أنفسهم. فمثلاً "ڤيكتور ستنجر" *Victor Stenger*، وهو فيزيائي كان يُدَرِّس في "جامعة هاواي" *University of Hawaii* كتب أن "الكون انفجر من العدم".[٣١] واعترف "ستنجر" مؤخَّرًا أن الانفجار الكبير يبدو دائمًا أكثر احتمالاً. وقد قال: "علينا أن نترك المجال مفتوحًا لاحتمالية خطأ [الانفجار الكبير]، لكننا... كل سنة نكتشف أن البيانات الفلكية المتراكمة تزداد توافقًا على الأقل مع الصورة العامة للانفجار الكبير".[٣٢]

والواقع أنه سنة ٢٠٠٣ ظهرت المزيد من الأدلة على صحة الانفجار الكبير. فالقمر الصناعي المسمى "مسبار ويلكينسون لقياس اختلاف الموجات الراديوية" *WMAP (Wilkinson Microwave Anisotropy Probe)* التابع لناسا أكد اكتشافات سابقه "كوب" وأنتج صورًا أوضح خمسًا وثلاثين مرة من صور "كوب" للحركات الموجية الدائرية لإشعاع الخلفية الكونية.[٣٣] والحقيقة أن ملاحظات الفضاء تؤيِّد، يومًا بعد يوم، المنظور الإيماني حتى إن "چورچ ويل" *George Will* يعلق عليها قائلاً: ""الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية" *American Civil Liberties Union*، أو "أناس من أجل النهج الأمريكي" *People for the American Way*، أو غيرهما من الفصائل العلمانية المُحِبَّة للتقاضي سترفع قريبًا دعاوى قضائية على ناسا متهمة إياها بأن تلسكوب هَبِل الفضائي ينحاز لذوي الميول الدينية بما يخالف الدستور".[٣٤]

ومع ذلك دعونا نلعب دور محامي الشيطان للحظات. فلنفترض أنه في نقطة ما في المستقبل اعتُبِرَت نظرية الانفجار الكبير خاطئة. فهل هذا سيعني أن الكون أزلي؟ لا، لعدة أسباب.

أولاً، القانون الثاني في الديناميكا الحرارية (المشار إليه بحرف *S* في كلمة *SURGE*) يؤيِّد الانفجار الكبير ولكنه لا يعتمد عليه. فحقيقة أن الكون يستنفد الطاقة القابلة للاستخدام ويتجه نحو حالة من الفوضى هي حقيقة لا جدال عليها. وهو ما عبَّر عنه "إدينتون" قائلاً إن القانون الثاني "يحتل المكانة العليا بين قوانين الطبيعة". فهو قانون صحيح حتى إن لم يكن الانفجار الكبير صحيحًا.

ثانيًا، ينطبق هذا الكلام نفسه على نظرية "أينشتاين" في النسبية العامة (المشار إليها بحرف *E* في كلمة *SURGE*). فهذه النظرية، التي تم التحقق منها جيدًا بالملاحظة، تستلزم وجود بداية للمكان، والمادة، والزمان سواء أكان كل هذا قد بدأ بانفجار أم لا.

ثالثًا، هناك أيضًا أدلة علمية جيولوجية تؤكّد أن للكون بداية. وكما دَرَسَ الكثير منا في مادة الكيمياء في المدرسة الثانوية، العناصر المشعة تضمحل بمرور الوقت متحولة إلى عناصر أخرى. فمثلاً اليورانيوم المشع يتحول في النهاية إلى رصاص. وهو ما يعني أنه لو كانت كل ذرات اليورانيوم أزلية، لكانت قد تحولت جميعها إلى رصاص، ولكن ذلك لم يحدث. إذَن لا يمكن أن تكون الأرض أزلية.

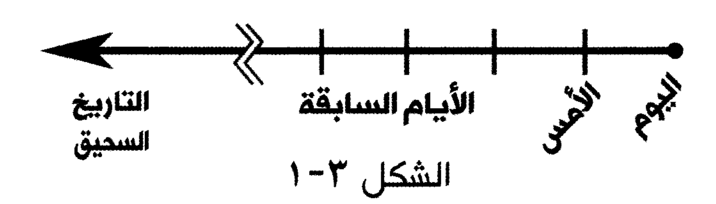
أخيرًا، هناك فرع فلسفي من الأدلة على بداية الكون. وهذا الفرع من الأدلة منطقي جدًا، على نحو لا يمَكِّننا من التملص منه ،حتى إن البعض يعتبرونه أقوى الحجج جميعًا. ويطلق عليه الحجة الكونية من علم الكلام *Kalam Cosmological Argument* ، وهي تقول:

١- العدد اللانهائي من الأيام لا نهاية له.

٢- ولكن اليومَ هو اليومُ النهائي في التاريخ (التاريخ باعتباره مجموعة من كل الأيام).

٣- إذَن لم يكن هناك عدد لانهائي من الأيام قبل اليوم (أي أن الزمان له بداية).

ولفهم هذه الحجة، انظر الخط الزمني أدناه، وهو مقسَّم إلى أجزاء تمثل أيامًا (شكل ٣-١). وكلما تتحرك يسارًا، تتجه تاريخيًا إلى الماضي. والآن تخيَّل لِلَحظة أن هذا الخط يمتد يسارًا إلى ما لانهاية، بحيث لا ترى بدايته أو لا ترى إن كانت له بداية أصلاً. ولكنك عندما تنظر إلى اليمين ترى نهاية الخط لأن آخر جزء في الخط يمثل اليوم. والغَدّ لم يأتِ بعد، ولكنه عندما يأتي سنضيف جزءًا آخر (أي يومًا) على الطرف الأيمن من الخط.



الشكل ٣-١

ولنشرح الآن كيف يُثْبت ذلك أن الزمان له بداية: بما أنه من المؤكَّد أن الخط ينتهي على اليمين، فلا يمكن أن يكون الخط الزمني لانهائيًا لأن اللانهائي ليس له نهاية. علاوة على ذلك، لا يمكنك أن تضيف أي شيء إلى اللانهائي، ولكننا غدًا سنضيف يومًا آخر إلى خطنا الزمني. إذَن لا نستطيع أن ننكر أن خطنا الزمني محدود.

ولننظر إلى هذه الحجة من زاوية مختلفة. لو كان هناك عدد لانهائي من الأيام قبل اليوم، إذَن اليوم لن يأتي أبدًا. ولكنه أتى! إذَن لا بد أنه لم يكن هناك إلا عدد **نهائي** من الأيام قبل اليوم. أي أننا حتى وإن كنا لا نستطيع أن نرى بداية الخط عندما ننظر يسارًا فنحن نعلم أنه لا بد أن يكون قد بدأ عند نقطةٍ ما، لأنه لا بد أن تنقضي مدة نهائية من الزمن حتى يأتي هذا اليوم الحاضر. فلا يمكن لعدد لانهائي من الأيام أن ينقضي. إذَن لا بد أن الزمان له بداية.

وقد يقول البعض إن الأعداد اللانهائية موجودة، فما المانع أن يكون هناك عدد لانهائي من الأيام؟ لأن هناك فرقًا بين سلسلة لانهائية مجرّدة وسلسلة محسوسة. فالأولى نظريةٌ بحتة، والثانية فعلية. فمن الناحية الرياضية يمكننا أن ندرك عددًا لانهائيًا من الأيام، ولكن من الناحية الفعلية يستحيل أن نَعُدّ أو نعيش عددًا لانهائيًا من الأيام. يمكنك أن تدرك عددًا لانهائيًا من النقاط الرياضية بين طرفي رف من رفوف المكتبة، ولكنك لا تستطيع أن تضع بينهما عددًا لانهائيًا من الكتب. وهذا هو الفرق بين المجرد والمحسوس. فالأرقام مجردة. أما الأيام محسوسة. (وبالمناسبة ينسحب هذا الكلام على إجابتنا المذكورة آنفًا عن سبب استحالة وجود عدد لانهائي من الانفجارات في تاريخ الكون. فمن المستحيل وجود عدد لانهائي من الأحداث الفعلية).

إن ما نقصده هنا هو أن الكون، سواء أكان الانفجار الكبير صحيحًا أم لا، له بداية. أي أن الحجة الكونية صحيحة لأن فرضيتيّ الحجة كلتيهما صحيحتان: كل ما يأتي للوجود له مسبِّب، والكون أتى للوجود. بما أن الكون له بداية، لا بد أن له بادئ.

مَنْ صَنَعَ الله؟

في ضوء كل الأدلة على وجود بداية للكون المحدود بالزمكان *space-time universe*، لا بد أن يكون البادئ خارجَ كونِ الزمكان. وعندما نقترح أن الله هو البادئ، ينبري الملحدون يسألون السؤال القديم قِدَم التاريخ: "إذَن مَنْ صَنَعَ الله؟ إن كان كل شيء يحتاج لمسبب،

فالله أيضًا يحتاج لمسبب!"

كما رأينا قانون السببية هو أساس العلم. فالعلم بحث عن المسببات، وذلك البحث يقوم على ملاحظتنا التي تبين دائمًا أن كل ما له بداية له مسبب. والحقيقة أن سؤال "مَنْ صَنَعَ الله؟" يشير إلى مدى احترامنا لقانون السببية. فإنه من المُسَلَّم به أن كل شيء تقريبًا يحتاج لمسبب.

فلماذا إذَن لا يحتاجُ الله لمسبب؟ لأن قناعات الملحد تسيء فهم قانون السببية. فقانون السببية لا يقول إن **كل شيء** يحتاج لمسبب. ولكنه يقول إن كل شيء **يأتي إلى الوجود** يحتاج لمسبب. والله لم يأتِ إلى الوجود. فالله لم يصنعه أحد. إنه غير مصنوع. والله بصفته كائنًا أزليًا لا بداية له، إذَن فهو لا يحتاج لمسبّب.

إلا أن الملحد سيَحتَجّ قائلاً: "ولكن مهلاً، إن كان عندك إله أزلي، إذَن يمكن أن يكون عندي كون أزلي! وإن كان الكون أزليًا، إذَن لا يكون له مسبب". نعم، من الممكن منطقيًا أن يكون الكون أزليًا ومن ثم لا يكون له مسبب. والواقع أن هذا الاحتمال هو واحد من اثنين: إما أن الكون أزلي، أو شيء خارج الكون هو الأزلي. (بما أنه لا شك أن شيئًا ما يوجد اليوم، إذَن لا بد أن شيئًا آخر وُجِدَ أزلاً. وليس أمامنا إلا خياران: الكون، أو شيء سبَّبَ الكون). ولكن المشكلة التي تواجه الملحد هي أنه رغم أنه ممكن **من الناحية المنطقية** أن يكون الكون أزليًا، يبدو أنه ليس ممكنًا **من الناحية الواقعية.** وذلك لأن كل الأدلة العلمية والفلسفية (*SURGE*)، واضمحلال النشاط الإشعاعي، والحجة الكونية من علم الكلام) تخبرنا أن الكون يستحيل أن يكون أزليًا. وعليه، باستبعاد أحد الخيارين، ليس أمامنا إلا الخيار الآخر: شيء خارج الكون هو الأزلي.

وعندما تنتبه للأمر جديًا، لا تجد إلا احتمالين لأي شيء موجود: إما أنه (١) موجود أزلاً ومن ثم لا مسبب له، أو (٢) له بداية وقد سبَّبَه شيء آخر (لا يمكن أن يكون سبَّبَ نفسه، لأنه في هذه الحالة لا بد أن يكون موجودًا من الأصل حتى يسبّب أي شيء). ووفقًا للأدلة الهائلة، الكون له بداية، إذَن لا بد أن شيئًا آخر سبَّبَه، شيء خارجه. لاحظ أن هذا الاستنتاج يتوافق مع الأديان التي تؤمن بالله الخالق، ولكنه لا يقوم على تلك الأديان، بل يقوم على منطق سليم ودليل صلب.

فما صفات هذا المسبب الأولي؟ قد يظن المرء أنه لا بد أن يعتمد على الكتاب المقدس أو

غيره مما يطلق عليه وحي ديني للإجابة عن ذلك السؤال، ولكننا لا نحتاج هنا أيضًا لأي نص مقدس حتى نستنتج صفات ذلك المسبب الأولي. فقد أصاب "أينشتاين" حين قال: "العلم بلا دين أعرج، والدين بلا علم أعمى".[٣٥] العلم يؤكد الدين ويُطـعِّمه بالمعارف، وهو ما تفعله الحجة الكونية مثلاً. أي أنه يمكننا أن نكتشف بعض سمات المسبب الأولي من الأدلة التي تناولناها في هذا الفصل فحسب. ومن تلك الأدلة فقط نعرف أن المسبب الأولي لا بد أن يكون:

- ذاتي الوجود، سرمدي غير محدود بزمان، غير محدود بمكان، غير مادي (بما أن المسبب الأولي خلق الزمان، والمكان، والمادة، إذَن لا بد أن يكون المسبب الأولي خارج الزمان، والمكان، والمادة). أي أنه غير محدود أو لانهائي.
- قويًا بشكل يفوق الخيال، ما دام قادرًا على خلق الكون برمته من العدم.
- ذكيًا ذكاءً فائقًا، ما دام قادرًا على تصميم الكون بهذه الدقة المذهلة (سنرى المزيد في هذا الموضوع في الفصل القادم).
- شخص، ما دام قادرًا أن يختار أن يُحَوِّل حالة العدم إلى كون من الزمان والمكان والمادة (القوة اللاشخصية لا تقدر على الاختيار).

سمات المسبب الأولي هذه هي بالضبط السمات التي ينسبها المؤمنون بالله الخالق إلى الله. ونكرِّر إن هذه السمات لا تقوم على ديانة شخصٍ ما أو على خبرة ذاتية. ولكنها مأخوذة من الأدلة العلمية التي استعرضناها توًا، وهي تساعدنا على رؤية جزء جوهري من سطح علبة هذا اللغز الذي نسميه الحياة.

الخلاصة: إن لم يكنِ الله موجودًا، فلماذا يوجد شيء بدلاً من العدم؟

منذ سنوات ناظرتُ ("أنا نورم") أحد الملحدين في "جامعة ميامي" *University of Miami* حول سؤال "هلِ الله موجود؟" وبعد أن قـدَّمتُ الكثير من الأدلة التي استعرضناها في هذا الفصل، أتيحت لي الفرصة أن أسأل خصمي بعض الأسئلة. وإليك ما سألت:

"سيدي، عندي لك بعض الأسئلة: أولاً "إن لم يكنِ الله موجودًا، لماذا أصلاً يوجد شيء بدلاً من العدم؟"" ثم سألته بضعة أسئلة أخرى معتقدًا أنه سيجيب عنها بالترتيب.

عادة عندما تناظر شخصًا تحاول أن تقنع الجمهور. ولكنك لا تتوقع أن تجعل خصمك يعترف بأنه مخطئ. فقد استثمر الكثير والكثير في الموقف الذي يتبناه، ومعظم المناظرين لا تسمح لهم كبرياؤهم أن يعترفوا بالخطإ. ولكن هذا الرجل كان مختلفـًا. فقد فاجأني بالقول: "السؤال الأول سؤال وجيه. إنه **حقـًا** سؤال وجيه". ودون أن يضيف أي تعليق آخر انتقل إلى إجابة سؤالي الثاني.

فبعد أن سمع هذا المُناظر الأدلة على وجودِ الله بدأ يشك في معتقداته. بل إنه حضر اجتماع متابعة عقب المناظرة وعبرَّ عن أنه يشك في الإلحاد. لقد بدأ إيمانه بالإلحاد يهتز بالفعل.

"إن لم يكنِ الله موجودًا، لماذا أصلاً يوجد شيء بدلاً من العدم؟" سؤال علينا جميعًا أن نجيبه. وفي ضوء الأدلة ليس أمامنا إلا خياران: إما أنه **لا أحدَ** خلق شيئـًا من العدم، أو أن **شخصًا ما** خلق شيئـًا من العدم. أيّ المنظورين أكثر منطقية؟ العدم خلق شيئـًا؟ لا. حتى "چولي أندروز" *Julie Andrews* عرفت الإجابة عندما غنـَّت قائلة: "لا شيء يأتي من العدم. لا شيء أبدًا أتى من العدم!" وإن كنت لا تستطيع أن تصدق أن العدم سبَّبَ شيئـًا، **إذَن أنت لا تملك الإيمان الكافي للإلحاد!**

إن المنظور الأكثر منطقية هو الله. وهو ما رجحه "روبرت چاسترو" عندما ختم كتابه "الله وعلماء الفلك" بهذه الكلمات الكلاسيكية: "بالنسبة للعالِم الذي عاش على إيمانه بقوة العقل، تنتهي القصة كحُلـْم مزعج. لقد تسلق جبال الجهل، وكان على وشك أن يغزو أعلى قممها، وبينما يجذب جسمه على آخر صخرة، يصادف مجموعة من اللاهوتيين يحيّونه وقد جلسوا هناك منذ قرون".[٣٦]





التصميم الإلهي

"الجاهل الذي لا يعرف شيئًا عن العلم هو فقط مَن يقول إن العلم يقلل من الإيمان. لأنك إن درستَ العلمَ بحق يُقرِّبك العلمُ من الله".

"جيمز تور" *James Tour* عالِم نانو

لا بد أن الأدلة الفلكية على وجودِ الله قوية طالما أن الفيزيائيين الملحدين يعترفون أن "الكون انفجر من العدم"، وعلماء الفلك اللاأدريين يزعمون أن "قوى فوق طبيعية" عملت في البداية، حتى إن العلماء يجدون أنفسهم يعودون إلى "مجموعة من اللاهوتيين... وقد جلسوا هناك منذ قرون" (انظر الفصل الثالث). إلا أن الأدلة العلمية على وجودِ الله لا تنتهي عند الحجة الكونية. فالكثيرون يرون أن **الدقة** التي انفجر بها الكون إلى الوجود تزودنا بدليل أكثر إقناعًا على وجود الله.

وهذا الدليل الذي يُعرَف اصطلاحًا باسم الحجة الغائية *Teleological Argument*، اسمه مشتق من الكلمة اليونانية *telos* التي تعني "تصميم". وتقول الحجة الغائية:

١- لكل تصميم مصمِّم.

٢- الكون له تصميم شديد التعقيد.

٣- إذَن الكون له مصمِّم.

وقد أكَّد "إسحاق نيوتن" (١٦٤٢-١٧٢٧) ضمنًا صحة الحجة الغائية عندما عبَّر عن اندهاشه من تصميم مجموعتنا الشمسية، وكتب "إن هذا النظام الأخاذ الذي يحكم الشمس، والكواكب، والنيازك لا يمكن أن ينبثق إلا من مشورةِ وسيادةِ كائنٍ ذي ذكاء وقوة".[١] إلا أن "وليم پيلي" William Paley (١٧٤٣-١٨٠٥) هو مَن أعطى الحجةَ شهرة واسعة عندما صرَّح تصريحًا بديهيًا مفاده أن كل ساعة تتطلب صانعًا. تخيل أنك تسير في الغابة ووجدت في الأرض ساعة ماركة "رولكس" مرصَّعة بالألماس. فما الذي تظن أنه مسبِّب تلك الساعة: الريح والمطر؟ عوامل التعرية؟ مزيج من القوى الطبيعية؟ بالطبع لا! لن تشك لحظة أن كائنًا ذكيًا صنع تلك الساعة، وأنها سقطت صدفةً من شخص سيء الحظ في تلك الغابة.

والعلماء اليوم يكتشفون أن الكون الذي نعيش فيه يشبه تلك الساعة "رولكس" المرصعة بفصوص الألماس، فيما عدا أن الكون مصمَّم بدقة تتجاوز دقة تصميم الساعة. والحقيقة أن الكون مصمم بدقة تسمح تحديدًا بوجود الحياة على الأرض، وهي كوكب يحوي المئات من الظروف المتكافلة التي يُعتبر وجودها أمرًا غير محتمل الحدوث، وهذه الظروف تدعم الحياة وتجعل من الأرض واحة شديدة الصغر وسط كون شاسع عدائي.

وهذه الظروف البيئية المتكافلة متناهية الدقة (التي يطلَق عليها "الثوابت الإنسانية" "*anthropic constants*") تشكِّل ما يُعرَف باسم "المبدأ الإنساني" "*Anthropic Principle*". وكلمة "*Anthropic*" مشتقة من كلمة يونانية تعني "إنساني" أو "إنسان". والمبدأ الإنساني هو مجرد تسمية جذابة للأدلة المتراكمة التي تجعل الكثير من العلماء يعتقدون أن الكون مضبوط ضبطًا في منتهى الدقة (مصمَّم) بحيث يدعم الحياة البشرية هنا على الأرض.

وفي هذا الكون الشاسع العدائي، نحن البشر سكان كوكب الأرض نشبه كثيرًا رواد الفضاء الذين لا يمكنهم البقاء على قيد الحياة إلا بين جدران سفينتهم الفضائية الصغيرة. وأرضنا مثل سفينة الفضاء، تدعم الحياة بينما تنطلق وسط فضاء بلا حياة. ولكنها مثل سفينة الفضاء أيضًا من حيث إنه إذا حدث أي تغير طفيف أو خلل في أي من العوامل، سواء في الكون أو في الأرض نفسها، يمكنه أن يُحْدِث تغييرًا قاتلاً في الظروف البيئية المحسوبة حسابًا دقيقًا اللازمة لبقائنا على قيد الحياة.

والمهمة "أپولو ١٣" *Apollo 13* التي تُعَدّ واحدة من أصعب المهام في تاريخ ناسا وأشهرها سوف تساعد في كشف هذه النقطة بمزيد من الجلاء. وسوف نقضي بضع

الصفحات القادمة على متن "أپولو ١٣". وأثناء رحلتنا سنشير إلى بعض الثوابت الإنسانية التي تجع ل حياتنا ممكنة.

هيوستن عندنا مشكلة

اليوم هو ١٣ نيسان/أبريل ١٩٧٠ بعد مرور أكثر من يومين على انطلاق رئيس المهمة "چيم لَـڤل" *Jim Lovell* ورائدي فضاء آخَرَيْن خارج الغلاف الجوي للأرض على متن سفينة الفضاء "أپولو ١٣". وهم الآن يطيرون عبر الفضاء بسرعة تزيد عن ٣٢٠٠ كيلومتر في الساعة، ويترقبون بشوق تمشية لم يقُم بها إلا عدد قليل من الرجال، تمشية على سطح القمر. وكل شيء يسير حسب الخطة على مركبتهم الفضائية ذات التصميم الرائع. وقد قال "لَـڤل" بالحرف الواحد إنه وطاقمه "منتفخون، مدهوشون، سعداء". ولكن هذه الحالة ستتغير سريعًا.

ففي الساعة الخامسة والخمسين والدقيقة الرابعة والخمسين من بدء المهمة بعد وقت قصير من إنهاء بث تليفزيوني للأرض، يعيد "لَـڤل" الأسلاك إلى مكانها حينما يسمع صوتًا مدويًا، فيظن في البداية أنه الطيار "چاك سويجرت" *Jack Swigert* يمزح بتشغيل صمام مرتفع الصوت خفيةً. ولكنه عندما يلمح علامات القلق على وجه "سويجرت"، وكأنه يريد أن يقول لستُ أنا"، سرعان ما يدرك "لَـڤل" أنها ليست مزحة.

والحوار الذي يدور بين رواد الفضاء "لَـڤل" و"سويجرت" و"فرِد هيز" *Fred Haise* و"تشارلي دوك" *Charlie Duke* (الذي كان على الأرض في مدينة هيوستن) يسير كالتالي:

"سويجرت": هيوستن، عندنا مشكلة هنا.

"دوك": هنا هيوستن. كَرِّرْ من فضلك.

"لَـڤل": هيوستن عندنا مشكلة. انخفاض في فولت الموصل العمومي *B*.

"دوك": "روچر". انخفاض في فولت العمومي *B*.

"هيز": هيوستن الفولت الآن... يبدو جيدًا. كان عندنا صوت عالٍ جدًا من الإنذار والتحذير. وعلى قدر ما أتذكر، العمومي *B* هو الذي حدث فيه من قبل ارتفاع مفاجئ في الأمبير.

"دوك": "روچر"، "فرِد".

"هيز": أكيد هذه الحركة العنيفة هزّت جهاز إحساس كمية الأكسجين رقم ٢، فهبط وأخذ يتذبذب من ٢٠ إلى ٦٠%. ولكنه الآن ارتفع إلى الحد الأقصى.

وعند هذه النقطة رواد الفضاء ليسوا متأكدين تمامًا مما يحدث. فأجهزة إحساس أنبوبة الأكسجين متذبذبة. تارة تبيّن أن الأنابيب تحوي فقط ٢٠% وتارة أكثر من ١٠٠% وهو شيء مستحيل. وفي الوقت نفسه رغم ملاحظة "هيز" الأولى أن "الفولت يبدو جيدًا"، فإن إشارة الإنذارات المتعددة على الأجهزة الكهربية في السفينة تحكي قصة عكسية.

وفي غضون بضع دقائق، تتضح حقيقة المشكلة الخطيرة. "أپولو ١٣" ليس فيها مجرد مشكلة جهاز إحساس. ولكن فيها مشكلة فعلية. إن مركبتهم الفضائية التي تبعد حاليًا قرابة ٣٧٠ ألف كيلومتر عن الأرض وتتجه بعيدًا عن موطنها، تفقد الأكسجين والطاقة بسرعة. لقد فرغت اثنتان من خلايا الوقود الثلاث، والثالثة تنضب سريعًا. ويُخطر "هيز" هيوستن بحالة الطاقة:

"هيز": قراءة $AC\ 2$ صفر... وعندنا الآن انخفاض في فولت الموصل العمومي A... قراءته حوالي ٢٥ ونصف. وقراءة العمومي B الآن صفر.

ثم يُبلغ "لـَڤل" عن مشكلة الأكسجين:

"لـَڤل": وأنبوبة رقم ٢ لكمية الأكسجين قراءتها صفر. سمعْتَ؟

هيوستن: كمية الأكسجين رقم ٢ صفر.

وبينما ينظر "لـَڤل" من زجاج إحدى النوافذ يرى شيئًا كأنه تسرب غاز إلى الفضاء من جانب مركبتهم الفضائية.

"لـَڤل": ويظهر لي وأنا أنظر من زجاج النافذة أن شيئًا ما يتسرب من عندنا.

هيوستن: "روچر".

"لـَڤل": نعم... نحن نـُسَرِّب شيئًا إلى، إلى الفضاء.

هيوستن: "روچر". نحن نسمعكم هنا، أنتم تـُسَرِّبون.

"روچر": إنه غاز من نوع ما.

اتضَحَ فيما بعد أن هذا الغاز هو الأكسجين. لقد انفجرت أنبوبة الأكسجين رقم ٢ وأضَرَّت أنبوبة الأكسجين رقم ١ بسبب انفجارها، وهو ما لم يكن يعلمه الطاقم حتى هذه اللحظة. فالقائد "لـَڤل" لا يستطيع رؤية الضرر الذي حدث للأنبوبة ولكنه يرى الغاز المتسرب فقط.

الثابت الإنساني ١ (مستوى الأكسجين): يشكل الأكسجين على الأرض ٢١% من الغلاف الجوي. وهذا الرقم الدقيق هو ثابت إنساني يجعل الحياة على الأرض ممكنة. فلو كان الأكسجين ٢٥%، لاندلعت الحرائق تلقائيًا، ولو كان ١٥% لاختنق البشر. والآن يتعين على "لَـڤل" وطاقمه أن يجدوا طريقة للحفاظ على مستوى الأكسجين الصحيح في سفينتهم.

ولكن الأكسجين ليس مشكلتهم الوحيدة. فكما هو الحال في الغلاف الجوي للأرض، تغيير ثابت واحد على المركبة الفضائية يمكن أن يؤثِّر على عدة ثوابت أخرى لازمة للحياة أيضًا. وذلك لأن الانفجار يؤدي إلى نقص في الأكسجين، وفي الكهرباء والماء أيضًا. وعلى "أپولو ١٣" يتم إنتاج الماء والكهرباء بخلط الأكسجين مع الهيدروجين في خلايا الوقود. ودون الأكسجين يستحيل تصنيع الهواء، أو الماء، أو الطاقة. وبما أنهم في فراغ الفضاء، ليس هناك مصدر خارجي للأكسجين.

إن المشكلة تفوق الخيال حتى إن "چاك سويجرت" قال فيما بعد "لو أن أحدًا فعل ذلك معنا في المُحاكي"، يقصد افتعل إخفاقًا رباعيًا في خليَّتي الوقود رقم ١ ورقم ٣، وأنبوبتي الأكسجين رقم ١ ورقم ٢، "لقلنا له: "هذا ليس واقعيًا"."

ولكن للأسف هذا ليس المحاكي، بل حالة طوارئ حقيقية في مركبة فضاء قطعت ثلثي الطريق إلى القمر. فماذا يفعلون؟ من حسن الحظ معهم قارب نجاةٍ اسمه المركبة القمرية *Lunar Module* (*LM*، وتُعرَف أيضًا باسم "اللِّم" *the lem*). وهي مزودة بإمدادات يمكن استخدامها في حالات الطوارئ. والمركبة القمرية تكون متصلة بسطح مركبة القيادة *Command Module (CM)* ليهبط بها اثنان من رواد الفضاء على سطح القمر بينما يدور الثالث في فَلَكه عاليًا. وبالطبع الهبوط على القمر سيُلغَى، لأن إنقاذ حياة رواد الفضاء أصبح الآن مهمة "أپولو ١٣" الجديدة.

وفي محاولة لتوفير الطاقة للعودة إلى الغلاف الجوي للأرض، يفصل رواد الفضاء الكهرباء بسرعة عن مركبة القيادة ويصعدون إلى المركبة القمرية. ولكنهم حتى داخل مركبة الفضاء ليسوا في مأمن من الخطر على الإطلاق، لأنهم يجب أن يستمروا في الدوران حول القمر حتى يعودوا إلى الأرض. وهو ما سيستغرق وقتًا، وقتًا ليس متوفرًا لديهم. والمركبة القمرية مجهزة بطريقة تمكِّنها من الحفاظ على حياة رجلين لمدة حوالي أربعين ساعة، ولكنهم ينبغي أن يحافظوا على حياة **ثلاثة** رجال لمدة **أربعة أيام!**

لذلك، فهم يبذلون كل جهدهم للحفاظ على الماء، والأكسجين، والكهرباء. كل الأجهزة غير الضرورية أُغْلِقت بما فيها جهاز التدفئة، ورواد الفضاء يُخفِّضون استهلاكهم للمياه إلى كوب واحد صغير في اليوم. ولكن "هيز" يشعر بالإعياء ويصاب بالحمى، ورواد الفضاء الثلاثة يصابون تدريجيًا بالجفاف، فيصعب عليهم التركيز.

ولسوء الحظ، مع إيقاف معظم الأجهزة الأوتوماتيكية يكون كل الاعتماد على تركيز أفراد الطاقم. فيجب عليهم، بالإضافة إلى الدوران حول القمر، أن يُجروا يدويًا عدة تعديلات في المسار ليضمنوا أنهم يدخلون الغلاف الجوي للأرض من الزاوية الصحيحة، وليسرعوا من رحلة العودة. وحتى يتمكنوا من ذلك، عليهم أن يوجِّهوا السفينة يدويًا بين النجوم. ولكن بما أن الحطام الناتج من الانفجار ما زال يغلف السفينة في فراغ الفضاء، فهم لا يستطيعون تمييز النجوم من ضوء الشمس المنعكس من الحطام. ومن ثم، ليس أمامهم إلا أن يستخدموا الأرض والشمس نقاطًا مرجعية لتوجيه السفينة بمحاذاتهما معًا في إحدى نوافذ مركبة الفضاء.

وباستخدام هذه الوسيلة البدائية، يراجعون حساباتهم مرة ومرات ليتأكدوا أنهم على صواب، لأن مساحة الخطإ المسموحة ضئيلة جدًا، لأنهم لا بد أن يبحروا بالسفينة للعودة إلى الأرض عند نقطة لا تقل عن ٥,٥ درجة ولا تزيد عن ٧,٣ درجة تحت أفق الأرض (من منظور مركبة الفضاء). وأي انحراف عن ذلك المدى سيؤدي بالسفينة إلى الخروج عن الغلاف الجوي للأرض أو السقوط بعمق كبير جدًا يتسبب في احتراقها.

الثابت الإنساني ٢ (شفافية الغلاف الجوي): النافذة الصغيرة التي يجب على رواد الفضاء التوصل إليها تعكس المعايير بالغة الدقة التي صُمِّم الكون على أساسها. فبينما يمثِّل الغلاف الجوي مشكلة لرواد الفضاء في عودتهم إلى الأرض، خواصه الحالية تمثل ضرورة مطلقة للحياة هنا على الأرض. إن درجة شفافية الغلاف الجوي هي أحد الثوابت الإنسانية. فلو كان الغلاف الجوي أقل شفافية، لما وصل سطح الأرض قدر كافٍ من الإشعاع الشمسي. ولو كان أكثر شفافية، لهبط علينا قدر هائل من الإشعاع الشمسي. (بالإضافة إلى شفافية الغلاف الجوي، فإن المستويات الدقيقة للعناصر المكونة للغلاف الجوي من النيتروجين، والأكسجين، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون تُعتبر في حد ذاتها ثوابت إنسانية).

الثابت الإنساني ٣ (تفاعل الجاذبية بين القمر والأرض): عندما يبدأ رواد الفضاء في الدوران حول القمر، يلتقون بثابت إنساني آخر*. وهذا الثابت يختص بتفاعل الجاذبية بين الأرض والقمر. فلو كان التفاعل أكبر من مقداره الحالي، لكان تأثير المد على المحيطات والغلاف الجوي وفترة الدوران حادًا للغاية. ولو كان أقل، لتسببت تغيرات المدارات الفلكية في اضطرابات مناخية. وفي أي من الحالتين تصبح الحياة على الأرض مستحيلة.

وبعد أن يواجه رواد الفضاء القمر عن قرب يتجهون أخيرًا إلى موطنهم. ولكنهم يواجهون مشكلة أخرى، لأن ظروف الحياة الحساسة داخل مركبة الفضاء بدأت تتلوث. فمع استهلاك الأكسجين بدأ رواد الفضاء في خلق مشكلة أخرى بالزفير. أي أن ثاني أكسيد الكربون بدأ يصل إلى مستويات خطيرة داخل السفينة. وإن لم يتمكنوا من إيجاد وسيلة لتغيير مرشِّحات ثاني أكسيد الكربون في المركبة القمرية، سيتسمم رواد الفضاء الثلاثة من أنفاسهم!

وطاقم التحكم في المهمة يخبر رواد الفضاء أن يفتحوا المرشِّحات المصمَّمة لمركبة القيادة (جزء السفينة الذي أخلاه رواد الفضاء وفصلوا عنه الكهرباء) ليجرِّبوا استخدامها في المركبة القمرية. ولكن بدلاً من أن يتلقى رواد الفضاء أخبارًا سارة هم في أمسّ الحاجة إليها، سرعان ما يكتشفون أن مرشِّحات مركبة القيادة لا تتناسب في حجمها ولا شكلها مع المركبة القمرية! يبدو أن المُورِّد (أ) لم ينسق مع المُورِّد (ب)! ومدير الرحلة المحبط "چين كرانس" *Gene Krantz* الذي اشتهر بمقولته "الفشل ليس خيارًا" التي ألهمت فريق التحكم في المهمة، يصيح غاضبًا: "قولوا لي إنه ليس مشروعًا حكوميًا!"

وفي محاولة للعثور على حل، يبدأ مهندسو ناسا على الأرض في "التحايل على المشكلة"، فهم يعصرون أذهانهم للعثور على طريقة لتعديل مرشِّحات مركبة القيادة المربعة لتتناسب مع فتحة المركبة القمرية المستديرة باستخدام مواد يمكن العثور عليها على مركبة الفضاء، فيصممون حلاً يعتقدون أنه سيفي الغرض، ثم يشرحون للطاقم كيفية عمل التعديل خطوة خطوة. ويتضمن الحل العبقري الذي توصلوا إليه استخدام الورق المقوى، وخراطيم بِدَل الفضاء، وحقائب التخزين، والشريط اللاصق (نعم، يُستخدم لإصلاح أي شيء حتى في الفضاء، لا تَخْرُج من بيتك بدونه!).

---

* كما هو الحال مع معظم الثوابت، هذا الثابت يعتمد على ثوابت أخرى. فمثلاً تفاعل الجاذبية هو أيضًا دالة *function* من حجم القمر الذي هو أكبر بالنسبة لكوكبه من معظم الأقمار الأخرى.

الثابت الإنساني ٤ (مستوى ثاني أكسيد الكربون): طبعًا هذا التعديل ليس مطلوبًا هنا على الأرض؛ لأن ثاني أكسيد الكربون محفوظ في مستواه الصحيح طبيعيًا في الغلاف الجوي للأرض. وهو ثابت آخر من الثوابت الإنسانية. فلو كان مستوى ثاني أكسيد الكربون أعلى من مستواه الحالي، لحدث احتباس حراري شديد (واحترقنا جميعًا). ولو كان المستوى أقل مما هو عليه الآن، لما تَمَكَّنت النباتات من الاستمرار في عملية البناء الضوئي بكفاءة (ولاختنقنا جميعًا، وهو المصير الذي يحاول رواد الفضاء الهروب منه).

ولحسن الحظ تنجح عملية تعديل المرشِّحات وتُكسب الطاقم وقتًا ثمينًا (وهواءً صالحًا للتنفس). وسريعًا يحين الوقت للتخلص من وحدة الخدمة المعطَّلة. وعندما تنفصل وحدة الخدمة، يرى الطاقم لأول مرة حجم الدمار: انفجار أنبوبة الأكسجين أطاح بلوحة حجمها حوالي ٣,٥ × ٢ متر من جانب وحدة الخدمة، وأمالَ خلايا الوقود، وأفسد الهوائي. ولو حدث انفجار حجمه **أقل من نصف ذلك الحجم** بالقرب من الدرع الحراري لمركبة القيادة، لأدى إلى خلل كارثي في مركبة الفضاء وفقدان الطاقم.

وعندما يقترب أفراد الطاقم من الغلاف الجوي للأرض يصعدون مرة أخرى إلى مركبة القيادة ليحاولوا توصيلها بالكهرباء. فهذا هو أملهم الوحيد للعودة إلى موطنهم (لأن المركبة القمرية ليس فيها درع حراري). ولكن مع فراغِ خلايا الوقود الثلاث ولم تبقَ إلا كهرباء البطارية، لا يمكن توصيل الكهرباء لمركبة القيادة بالإجراءات الطبيعية. فلا يمكن تشغيل كل الأجهزة لعدم توافر طاقة كافية في البطاريات. وبالتالي عليهم أن يعتمدوا على إجراء جديد للحصول على الكهرباء انتهى من تصميمه حالاً رواد فضاء ناسا ومُهَنْدسوها الموجودون على الأرض.

إلا أن ما زاد الأمر تعقيدًا أن المياه المكثَّفة بدأت تقطر من لوحات تحكم مركبة القيادة حيث درجة الحرارة أقل من ٣,٥ درجة مئوية. فهل سيحدث ماس كهربائي في لوحات التحكم؟ هل ستعمل الأجهزة الضرورية؟ من الخطورة استخدام الكهرباء في هذه البيئة، ولكن ليس أمامهم خيار آخر.

ورغم الخطورة، ينجح إجراء توصيل الكهرباء الجديد، ويربط رواد الفضاء أحزمتهم للعودة إلى الأرض. وأثناء رحلة عودة الرجال الثلاثة إلى الأرض تتطلع أنظار العالم كله إلى مصيرهم. فنشرات الأخبار والمؤتمرات الصحفية تنقل الأخبار أولاً بأول. والكونجرس يصدر قرارًا للشعب الأمريكي أن يصلي، والبابا يحثّ العالم على الصلاة بينما يتجه الأبطال الأمريكيون

الثلاثة نحو الغلاف الجوي للأرض بسرعة هائلة في كبسولة فضاء معطوبة. وبعد وقت قصير ستسحبهم الجاذبية الأرضية بأقصى سرعة تصل إلى ما يقرب من ٤٠ ألف كيلومتر في الساعة، أي ما يعادل تقريبًا ١١ كيلومتر **في الثانية!**

الثابت الإنساني ٥ (الجاذبية): الجاذبية التي تسحب رواد الفضاء إلى موطنهم الأرض هي أيضًا من الثوابت الإنسانية. وهي ذات قوة مريعة، ولكنها لا يمكن أن تكون غير ذلك لكي توجد حياة على الأرض. فإن تغيرَّتْ قوة الجاذبية بمقدار ٠,٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠١% لما وُجدَت شمسُنا، وبالتالي لما وُجِدنا نحن.[٢] تخيَّل مدى الدقة!

وعندما يهوي رواد الفضاء إلى الأرض بمركبتهم الفضائية المُضارة، لا أحد يعرف يقينًا إن كانوا سينجون من هذه العودة العنيفة شديدة الحرارة. وتبقى أسئلة عديدة بلا إجابات: هل الدرع الحراري سليم تمامًا؟ هل السفينة فعلاً على الزاوية الصحيحة لدخول الغلاف الجوي؟ هل بطاريات العودة على مركبة القيادة ستعمل؟ هل المظلات ستُبسَط على النحو الصحيح؟ ومما يزيد الطينة بلَّة صدور تحذير من حدوث إعصار استوائي في منطقة دخول مركبة الفضاء إلى الغلاف الجوي *recovery area*.

وفي ضوء كل هذا المجهول يتواصل رواد الفضاء مع الطاقم الأرضي قبل انقطاع الاتصال الذي استمر ثلاث دقائق عند العودة إلى الغلاف الجوي للأرض:

"سويجرت": مرحى! أريد أن أقول لكم إنكم تُبلون بلاءً حسنًا يا رجال.

هيوستن: وأنتم أيضًا يا "چاك".

"سويجرت": أعرف أن كلنا نريد أن نشكركم جميعًا على العمل الرائع الذي قمتم به.

"لَقل": أكيد يا "چو".

هيوستن: أؤكد لكم أننا استمتعنا بالعمل.

"لَقل": أنتم كالطبيب الماهر الذي يعتني بالمريض.

هيوستن: هذا أجمل ما سمعت.

هيوستن: سنفقد الإشارة بعد دقيقة... أهلاً بكم في وطنكم.

"سويجرت": شكرًا.

وأثناء العودة إلى الأرض، تحلق طائرة *C-135* في منطقة عودة مركبة الفضاء إلى الغلاف الجوي لإعادة الاتصال اللازم إلى وحدة التحكم في المهمة. ولكن بعد ثلاث دقائق ينقطع الاتصال مع رواد الفضاء. ويزداد التوتر.

هيوستون: يجب عودة الاتصال إلى "أبولو ١٣" هذه المرة. نحن مستعدون لأي أخبار عن التقاط طائرة معدات مدى أبولو *ARIA (Apollo Range Instrumentation Aircraft)* لأي إشارة.

الرحلة: شبكة، ليس هناك اتصال مع طائرة *ARIA* بعد؟

الشبكة: الآن ليس عندنا اتصال يا رحلة. (فترة صمت طويلة)

انقضت أربع دقائق على عودة المركبة إلى الغلاف الجوي، وما زال الاتصال منقطعًا. لم يحدث أبدًا أن العودة إلى الأرض استغرقت كل هذا الوقت.

هيوستن: مستعدون لأي أخبار عن التقاط إشارة. (صمت)

أخيرًا، تتلقى الطائرة إشارة من الكبسولة:

هيوستن: وصلَنا إخطار أن طائرة *ARIA 4* التقطت إشارة.

ولكن لم يصلنا تأكيد بأن أيًا منهم حي.

هيوستن: مركبة القيادة "أوديسي"، هنا هيوستن. مستعدون. حوِّل.

وأخيرًا يلتقط الجميع أنفاسهم عند سماع صوت "سويجرت".

"سويجرت": حسنًا يا "چو".

هيوستن: نسمعكم يا "چاك"!

رواد الفضاء أحياء، ولكن يبقى آخر عائق: مرحلتان من المظلات لا بد أن تعملا وإلا ضاع كل شيء، أولاً المظلة الابتدائية ثم المظلة الأساسية. فإن لم تُبسَط المظلات جيدًا، يتلاشى رواد الفضاء عند ارتطام كبسولتهم بالمحيط بسرعة ٤٨٠ كيلومترًا في الساعة.

هيوستن: باقي أقل من دقيقتين على بسط المظلات الابتدائية.

انتظار...

هيوستن: إخطار عن مظلتين ابتدائيتين نُشِرَتا بنجاح. والآن يقترب وقت المظلات الرئيسية. (صمت) مستعدون لتأكيد خبر بسط المظلات الرئيسية.

تنبسط المظلات الرئيسية حسب الخطة، وتتمكن هيوستن من رؤيتهم.

هيوستن: "أوديسي"، هنا هيوستن. نحن نَعْرِضُكم وأنتم على المظلات الرئيسية. المنظر رائع!

أخيرًا، بعد أربعة أيام من الترقب القلِق، رواد الفضاء، وطاقم وحدة التحكم في المهمة، والعالم كله يتنفسون الصعداء:

هيوستن: تصفيق حاد جدًا هنا في وحدة التحكم في المهمة! ... تصفيق حاد بينما تظهر "أپولو ١٣" في المظلات الرئيسية بكل وضوح على شاشات التليفزيون هنا.

تهبط مركبة الفضاء على المحيط الساعة ١:٠٧ مساءً بالتوقيت الشرقي القياسي لأمريكا الشمالية *ESt* يوم ١٧ نيسان/أبريل ١٩٧٠

المبدأ الإنساني: التصميم في التفاصيل

عندما بدأ بعض أفراد وحدة التحكم في المهمة يُعَبِّرون عن شكوكهم في أن رواد الفضاء سيعودون أحياء، واجه مدير الرحلة "چين كرانس" تشاؤمهم بقوله: "يا سادة، أظن أن هذه ستكون أسعد لحظاتنا". وقد كانت هكذا بالحقيقة. وعُرِفَت "أپولو ١٣" باسم "الإخفاق الناجح". لقد فشل رواد الفضاء في السير على القمر، ولكنهم نجحوا في العودة إلى الأرض رغم الظروف التي كان يمكن أن تودي بحياتهم.

وكما نجا الطاقم رغم كل المصاعب من تلك الظروف المميتة، نحن أيضًا نبقى على قيد الحياة، رغم كل الظروف المعاكسة، على هذا الكوكب الصغير الذي يطلَق عليه الأرض. فمركبات "أپولو" الفضائية صُمِّمَت، مثل أرضنا، بحيث تحافظ على الحياة البشرية في بيئة الفضاء المعادية. وبما أن البشر لا يمكنهم أن يظلوا على قيد الحياة إلا في غلاف ضيق جدًا من الظروف البيئية، لا بد من تصميم هذه السفن بدقة فائقة وبآلاف المكونات. وإن حدث خطأ واحد صغير، تعرضت الحياة البشرية للخطر.

والشيء الصغير الذي عَرَّضَ حياة طاقم "أپولو ١٣" للخطر يبدو أمرًا تافهًا: أنبوبة الأكسجين رقم ٢ سقطت بالصدفة من ارتفاع ٢ بوصة (٥سم) قبل تركيبها. وذلك السقوط من على ارتفاع بوصتين فقط أفسد جدار الأنبوبة الرفيع وأطلق سلسلة من الأحداث التي أدت في النهاية إلى انفجارها.[٣] ونظرًا للعلاقة التكافلية بين المكونات، أدى الخلل في جهاز الأكسجين إلى خلل في سائر الأجهزة وكاد يقضي على مركبة الفضاء وطاقمها. تخيل! ذلك السقوط البسيط من على ارتفاع بوصتين فقط تَسَبَّب في كل المشكلات التي كان لا بد لرواد الفضاء أن يتغلبوا عليها حتى

ينجوا. فقد أدى إلى تقليص كمية الأكسجين، والماء، والطاقة بشكل مفرط، وزيادة ثاني أكسيد الكربون زيادة مفرطة، وخلل في توجيه السفينة في الفضاء.

وكما هو الحال في حالة حدوث تغيير بسيط في سفينة الفضاء، هكذا أي تغيير بسيط في الكون يتسبّب لنا أيضًا في مشاكل هائلة. وكما رأينا، اكتشف العلماء أن الكون، مثل مركبة الفضاء، مصمَّم بدقة بحيث ينشئ غلافًا ضيقًا جدًا من الظروف الداعمة للحياة هنا على الأرض. وأي انحراف ضئيل في أي من العوامل البيئية والفيزيائية (التي أطلقنا عليها "الثوابت") من شأنه أن يمنع وجودنا أصلاً. وهذه الثوابت تكافلية مثل المكونات الموجودة على "أبولو ١٣"، أي أن تغييرًا صغيرًا في أحدها يمكن أن يؤثر على الثوابت الأخرى ويمنع الظروف اللازمة للحياة أو يدمرها.

إن مدى الضبط الدقيق في الكون قد يجعل المبدأ الإنساني أقوى حجة لوجودِ الله. فليس هناك مجرد بضعة ثوابت محددة بشكل عام قد تكون نشأت بالصدفة. لا، بل هناك أكثر من ١٠٠ ثابت محدَّدة بمنتهى الدقة تشير بقوة إلى مصمِّم ذكي.[٤] وقد تَعَرَّفنا بالفعل على خمسة منها. وإليك عشرة أُخَر:

١- لو لم تكن قوة الطرد المركزي في حركة الكواكب متوازنة بدقة مع قوى الجذب لما بقي شيء في مداره حول الشمس.

٢- لو انخفضت سرعةُ تمدُّدِ الكون بمقدار واحد على مليون من السرعة التي تَمَدَّد بها، لتوقف التمدد وانهار الكون على نفسه قبل تَكَوُّن أي نجم من النجوم.

٣- أي من قوانين الفيزياء يمكن تعريفه بأنه دالـَّة في سرعة الضوء (تُحَدَّد حاليًا بمقدار ٢٩٩٧٩٢٤٥٨ متر في الثانية). وأقل تغير في سرعة الضوء من شأنه أن يغير سائر الثوابت ويمنع إمكانية الحياة على الأرض.

٤- لو ارتفعت مستويات بخار الماء في الغلاف الجوي عن معدلاتها الحالية، لحدث احتباس حراري شديد يؤدي إلى ارتفاع كبير في درجة الحرارة لا تتحمله الحياة البشرية. ولو انخفضت مستويات بخار الماء، لانخفض الاحتباس الحراري على نحو يتسبب في برودة الأرض بشكل مفرِط لا يلائم الحياة البشرية.

٥- لو لم يكن المشترى في مداره الحالي، لانهالت المواد الفضائية على الأرض. وذلك لأن

مجال جاذبية المشترى يعمل مثل مكنسة كهربائية كونية تجذب الكويكبات والنيازك فلا تضرب الأرض.

٦- لو زاد سُمك القشرة الأرضية، لانتقلت كمية ضخمة جدًا من الأكسجين إلى القشرة لدعم الحياة. ولو كانت أقل سُمكًا، لتسبب النشاط البركاني والتكتوني في استحالة الحياة على الأرض.

٧- لو طالت دورة الأرض عن أربع وعشرين ساعة، لاتسعت الفروق بين درجتي حرارة الليل والنهار اتساعًا مفرطًا. ولو قَصُرَت، لازدادت سرعة رياح الغلاف الجوي زيادة مفرطة.

٨- الميل المحوري للأرض بمقدار ٢٣ درجة هو الميل الصحيح الدقيق. فلو تغير تغيرًا طفيفًا، لارتفعت درجات حرارة سطح الأرض ارتفاعًا هائلاً.

٩- لو ارتفع معدل تفريغ الغلاف الجوي (البرق)، لاندلعت الحرائق المدمّرة بمعدلات عالية جدًا. ولو انخفض، انخفضت معدلات تثبيت النيتروجين في التربة انخفاضًا حادًا.

١٠- لو ازداد النشاط الزلزالي، لارتفعت معدلات الوفيات الناتجة عن الزلازل. ولو انخفض، لما عادت العناصر الغذائية من قيعان البحار والمياه الجارية من الأنهار إلى القارات عن طريق الزيادة التكتونية. (نعم، حتى الزلازل ضرورية للحفاظ على هذه الحياة في صورتها الحالية!)

وجدير بالذكر أن "هيو روس" *Hugh Ross* عالم الفيزياء الفلكية حَسَبَ احتمال وجود هذه الثوابت وغيرها (تبلغ جميعًا ١٢٢ ثابت) اليوم **على أي كوكب في الكون** بالصدفة (أي بلا تصميم إلهي). فقد افترض أن هناك $١٠^{٢٢}$ كوكب في الكون (رقم ضخم جدًا: ١ وأمامه ٢٢ صفرًا)، وبناءً على هذا الافتراض جاءت النتيجة صادمة: الاحتمال هو واحد إلى $١٠^{١٣٨}$، أي احتمال واحد لواحد أمامه ١٣٨ صفر![٥] وليس في الكون كله سوى $١٠^{٧٠}$ **ذرة**. وهو ما يعني أن احتمال أن يحوي أي كوكب في الكون الظروف الداعمة للحياة المتوافرة على كوكب الأرض هو احتمال مقداره **صفر**، **إلا إذا** وُجِد وراء كل هذا مصمم ذكي.

وهو ما عَبَّرَ عنه "آرنو پنزياس" الحائز على جائزة نوبل لمشاركته في اكتشاف الإشعاع التابع للانفجار قائلاً: "عِلْم الفلك يقودنا إلى حدث فريد، ألا وهو كون خُلِقَ من عدم ووُضِعَ في حالة من التوازن الدقيق ليوفّر الظروف اللازمة بالضبط لدعم الحياة. وفي غياب فكرة

الصدفة الساذجة غير المحتملة، يبدو أن ملاحظات العلم الحديث ترجِّح وجود خطة فوق طبيعية، إن جاز التعبير، تكمن وراء كل شيء''.[٦]

ويستخدم عالِم الكون ''إد هاريسون'' *Ed Harrison* كلمةَ ''برهان'' عندما يتناول تداعيات المبدإ الإنساني على مسألةِ الله. فهو يكتب قائلاً: ''إليك البرهان الكوني على وجودِ الله، أيْ حجة التصميم التي وضعها "پيلي" بعد التحديث والتجديد. إن الضبط الدقيق للكون يزوّدنا بأدلة صريحة على التصميم الإلهي''.[٧]

البرهان على وجودِ الله! ما هو رد الملحدين؟

كيف يرد الملحدون على هذا ''البرهان على وجودِ الله''؟ يعترف بعض الملحدين بوجود مصمِّم ما في مكان ما. فقد اهتز إلحاد عالم الفلك ''فـرِد هويل'' بفعل المبدأ الإنساني وبما رآه في الحياة من تعقيد (وهو ما سنتناوله في الفصلين القادمين). وخلُـص ''هويل'' إلى أن ''تفسير الحقائق القائم على الحكم السليم يرجح أن "عقلاً أعلى قد تَدَخَّـل في الفيزياء، وفي الكيمياء، وفي الأحياء وأنه ليس هناك قوى عمياء في الطبيعة تستحق أن نتحدث عنها"''.[٨] ورغم أن ''هويل'' لم يوضح مَنْ هو هذا ''العقل الأعلى''، فقد اعترف أن الضبط الدقيق للكون يتطلب ذكاءً.

ولكن غيره من الملحدين يعترفون بالتصميم ولكنهم ينكرون وجود مصمِّم، ويُرجعون كل هذا إلى الصدفة. ولكن كيف يمكنهم أن يقترحوا فكرة الصدفة فعليًا رغم أن احتمال بقاء الثوابت التي تزيد عن ١٠٠ كما هي، هو احتمال مقداره صفر تقريبًا لو لم يكن هناك ذكاء؟ الأمر ليس بهذه السهولة. لذا اضطر الملحدون للجوء إلى استنتاج غريب ليتيحوا للصدفة فرصة أكبر. ويطلَق على استنتاجهم هذا نظرية الأكوان المتعددة.

وتقول نظرية الأكوان المتعددة بوجود عدد لانهائي من الأكوان، وكل ما في الأمر أن حُسْن حظنا هو ما وضَعَنا في كون يحوي الظروف المناسبة. وبناءً على وجود عدد لانهائي من الأكوان يقول هؤلاء الملحدون إن كل مجموعة من الظروف سوف تحدث، بما فيها الظروف الداعمة للحياة الموجودة على كوكبنا.

ولكن تفسير الأكوان المتعددة هذا مليء بمشكلات متعددة. أولها وأهمها أنه **لا دليل عليه!** فالأدلة تبين أن كل الواقع المحدود النهائي أتى إلى الوجود في الانفجار الكبير. وهذا الواقع

النهائي هو تحديدًا ما نطلق عليه "الكون". فإن وُجِدَ أي واقع نهائي آخر، فهو خارج نطاق ملاحظتنا. فلم يلحظ أحد أي أدلة على وجود هذه الأكوان. لذلك فكرة الأكوان المتعددة هذه ليست أكثر من فبركة ميتافيزيقية، قصة خيالية من قصص الجنيات تقوم على إيمان أعمى، وهي منفصلة عن الواقع مثل "الزمن التخيلي" عند "ستيڤن هوكينج".

ثانيًا، كما ذكرنا في الفصل السابق، عدد لانهائي من الأشياء "المحدودة" سواء أكانت أيامًا، أم كتبًا، أم انفجارات، أم أكوانًا؛ يمثّل استحالة فعلية. يستحيل أن يكون هناك عدد غير محدود من أكوان محدودة.

ثالثًا، حتى لو أمكن وجود أكوان أخرى، ستتطلب ضبطًا دقيقًا لكي تبدأ مثلما بدأ كوننا (تذكّر الدقة المتناهية للانفجار الكبير التي استعرضناها في الفصل السابق). لذلك افتراض وجود أكوان متعدّدة لا يلغي ضرورة وجود مصمِّم، بل **يُزيد** من ضرورة وجود مصمِّم!

رابعًا، نظرية الأكوان المتعددة واسعة جدًا حتى إنه يمكن استخدامها للتهوين من **أي حدث**. فمثلاً، إن سألنا: "لماذا صدمت الطائرات البنتاجون ومركز التجارة العالمي؟" يجب ألا نلوم الإرهابيين، لأن النظرية تسمح لنا أن نقول إننا موجودون بالصدفة في **هذا** الكون حيث تلك الطائرات واقعيًا تصدم المباني بالصدفة، ولكن ما يبدو ظاهريًا هو أن الطائرات صدمت المباني عمدًا. ومع نظرية الأكوان المتعددة يمكننا أن نبرّئ حتى هتلر. فربما أننا موجودون بالصدفة في **هذا** الكون الذي فيه يبدو ظاهريًا أن الهولوكوست قتل، ولكن واقعيًا اليهود تآمروا سرًا مع الألمان وأرسلوا أنفسهم إلى الأفران. في الحقيقة نظرية الأكوان المتعددة واسعة جدًا لدرجة أنها يمكن حتى أن تُستخدم لالتماس العذر للملحدين الذين اخترعوها. لعلنا وُجِدنا بالصدفة في **هذا** الكون الذي فيه الناس يفتقرون للعقلانية لدرجة أنهم يرون أن هذا الكلام الفارغ هو الحق!

وفي النهاية نظرية الأكوان المتعدّدة هي مجرد محاولة يائسة لتجنب تداعيات التصميم. وهي لا تُزيد الصُّدَف، بل تُزيد العبث. إنها تشبه رواد فضاء "أبولو ١٣" إذا أنكروا أن ناسا صمَّمت مركبتهم الفضائية وصنعتها، لصالح النظرية التي لا دليل عليها والتي تقول بوجود عدد لانهائي من مركبات الفضاء التي تحدث طبيعيًا، ورواد الفضاء محظوظون أن يكونوا على المركبة التي تدعم الحياة بالصدفة. هذه النظرية طبعًا كلام فارغ وعبثيتها الواضحة تكشف قوة الأدلة على التصميم. ولكن الأدلة غير العادية تتطلب نظريات غير عادية لتقلّل من شأنها.

الله؟ "ارفعوا إلى العلاء عيونكم"

في الأول من شباط/فبراير ٢٠٠٣ نظر الرئيس چورج و. بوش بعينين حزينتين في عدسة الكاميرا وخاطب الشعب الأمريكي عبر شاشات التليفزيون قائلاً: "إخوتي الأمريكيين، هذا اليوم حمل لبلادنا خبرًا مزعجًا وحزنًا عميقًا. في التاسعة من صباح اليوم فقدَتْ وحدة التحكم في هيوستن الاتصال مع مكوكنا الفضائي "كولومبيا". وبعد وقت قصير شوهد الحطام ساقطًا من سماء تكساس. لقد فُقِد "كولومبيا"، ولم ينجُ أحد".[٩]

لَمَّا كان "كولومبيا" يسير بسرعة ٢٠ ألف كيلومتر في الساعة، تفكَّك عند محاولته للدخول إلى الغلاف الجوي للأرض. وهذه المأساة المكوكية الثانية الكبرى هزت الأمة ولكنها لم تُثْنِها. فقد تَعَهَّد الرئيس قائلاً: "القضية التي ماتوا فيها ستستمر. فالجنس البشري يخترق الظلام القابع خلف عالمنا بإلهام الاكتشاف والتوق إلى الفهم. ورحلتنا إلى الفضاء ستستمر".

ولكن أي رحلة بشرية إلى الفضاء لن تخترق إلا جزءًا يسيرًا منه. فمجرتنا تحوي ١٠٠ مليار نجم، ومتوسط المسافة بين تلك النجوم يبلغ ٣٠ تريليون ميل (٤٨ تريليون كم). (بالمناسبة، هذه المسافة هي ثابت إنساني آخر. فلو قَصُرَت المسافة بين النجوم أو طالت، لتأثَّرَتْ مدارات الكواكب).

ما مقدار الثلاثين تريليون ميل؟ لنشرحها بهذه الطريقة: عندما يكون المكوك الفضائي في المدار، يتحرك بسرعة حوالي ١٧٠٠٠ ميل في الساعة، أي **ما يقرب من ٥ أميال في الثانية**. فلو تمكنت من الدخول إلى مكوك الفضاء وأبحرت في الفضاء بسرعة خمسة أميال في الساعة تقريبًا، ستأخذ ٢٠١٤٥٠ **سنة** لكي تقطع ٣٠ تريليون ميل! أي أنك لو ركبت المكوك الفضائي في زمن المسيح وبدأت تتحرك من شمسنا تجاه نجم آخر يبعد عنها مسافة متوسطة، ستكون الآن قد قطعت **واحد على مائة** من الطريق. شيء مذهل.

لاحظ أن هذه المسافة تقع بين **اثنين** فقط من المائة مليار نجم الموجودة في مجرتنا. فكم عدد النجوم في الكون كله؟ **عدد النجوم في الكون يعادل حوالي عدد حبات الرمال التي تغطي كل شواطئ الأرض بأسرها.** فلو سافرت بسرعة خمسة أميال في الساعة ستستغرق أكثر من ٢٠٠ ألف سنة لتنتقل من حبة رمل إلى الأخرى! ما **أبهى** العلاء.

يوصينا الكتاب المقدس أننا إن أردنا أن نعرف شيئًا من صفات الله علينا أن نرفع إلى العلاء عيوننا. وفي مزمور ١٩ يُعبِّر داود عن الحجة الغائية قبل "نيوتن" وقبل "پيلي" بآلاف السنين

قائلاً: «السماوات تُحَدِّث بمجدِ الله. والفَلَك يخبر بعمل يديه». وبعد بضعة قرون يطرح النبي إشعياء سؤالاً من الله: «فبمن تشبهونني فأساويه؟ يقول القدوس» (٤٠: ٢٥). وتأتي الإجابة في العدد التالي: «ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا» (ع ٢٦). ويستطرد إشعياء قائلاً إن الله يعرف كل نجوم السماء بأسمائها!

لماذا يخبرنا الله أن نُشَبِّهه بالسماوات؟ لأن الله لا حدود له، وهكذا السماوات من منظورنا. الله هو اللامحدود الذي يضع حدودًا لكل شيء، هو اللامخلوق الذي يخلقُ كل شيء. إنه الكائن اللانهائي، ذاتي الوجود، الذي خلق هذا الكون الفسيح الجميل من عدم، والذي يحفظه معًا اليوم. وليس هناك إلا كيان واحد في خبرتنا يمكن أن يزودنا بمشابهةٍ للامحدوديةِ الله. فرسم صورة تُعَبِّر عنِ الله لن يجدي*، بل إنها تُحِدّ جلاله. ولكن السماوات فقط هي التي تصيح وتنادي بلامحدوديته.

إن اللامحدودية هي السمة المميِّزة لكل صفة من صفاتِ الله بما فيها قوته، ومعرفته، وعدله، ومحبته. ولذلك يستخدم الكتاب المقدس السماوات ليساعدنا على إدراك ارتفاع محبةِ الله اللامحدود. فمزمور ١٠٣: ١١ يقول: «لأنه مثل ارتفاع السماوات فوق الأرض قويت رحمته† على خائفيه». فما ارتفاع السماوات فوق الأرض؟ عندما تفكر أن المسافة بين النجوم تصل إلى ٣٠ تريليون ميل وأن هذه النجوم تساوي في كثرتها عدد حبات الرمال التي تغطي الشطئان، قد تقول أيضًا: "السماوات مرتفعة بلا حدود". صحيح، وهذا هو ارتفاع محبةِ الله.

ولعل محبة الله غير المحدودة هي ما دفعت الرئيس بوش ليقتبس من إشعياء في تكريمه لطاقم "كولومبيا": "لقد رأينا في السماوات اليوم دمارًا مأساويًا. ولكن خلف المنظور الذي تراه عيوننا يوجد عزاء ورجاء، كما قال إشعياء النبي «ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه. مَنْ الذي يُخرج بعدد جندها يدعو كلها بأسماء. لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يُفقد أحد». إن الخالق نفسه الذي يدعو النجوم بأسماء يعرف أيضًا أسماء النفوس السبع التي ننوح عليها اليوم. إن طاقم المكوك "كولومبيا" لم يعد إلى الأرض بسلام، ولكننا نستطيع أن نصلي أن يكونوا جميعًا قد وصلوا إلى الوطن الأبدي بسلام".[١٠]

---

* ربما هذا هو سبب منع الوصية الثانية صُنْع الصور. فالصور تُحِدّ جلال الله. ولكن الأوثان أوثان سواء أكانت معدنية أم عقلية.

† ترد في ترجمة *NIV* (التي يستخدمها الكاتبان) "محبته" *his love*. (المترجمة)

الخلاصة

منذ ما يقرب من ٢٠٠٠ سنة كتب بولس في بداية رسالته إلى المؤمنين في رومية «لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر». مؤكِّدٌ أن الدليل على وجود مصمِّم واضح في الخليقة، ولكننا دائمًا ما نعتبره شيئًا عاديًا.

ويقدم "سي. إس. لويس" في كتابه الكلاسيكي "رسائل خربر" *The Screwtape Letters* فهمًا ثاقبًا لميلنا أن نرى العالم المُبهِر المحيط بنا وكأنه شيء عادي. فالشيطان الكبير "خُربر" يكتب نصيحة للشيطان الأصغر "علقم" *Wormwood* عن كيفية منع الناس من أن يصبحوا مسيحيين. فيكتب "خربر" قائلاً: "اطبع في داخله باستمرار أن الأشياء **عادية**. وأهم شيء ألا تحاول أن تستخدم العِلم (أقصد العلوم الحقيقية) للهجوم على المسيحية. لأنه سيشجعه على التفكير في الحقائق التي لا يمكنه أن يلمسها ويراها. وقد رأينا حالات مؤسفة بين علماء الفيزياء المحدثين".[١١] "الحالات المؤسفة" هي طبعًا علماء فيزياء كانوا أمناء للأدلة التي رأوها فأصبحوا مسيحيين.

لقد رصد "لويس" ميلاً عند الكثير منا. ففي حياتنا السريعة نادرًا ما نتوقف ونلاحظ العالم المحيط بنا، ومن ثم نميل أن نعتبر كل وجه مبهر لهذا الكون الجميل شيئًا عاديًا. ولكن كما رأينا، هذا الكون أبعد من أن يكون عاديًا. واليوم يبين لنا العلم، أكثر من أي وقت مضى في التاريخ، أن الكون يمتاز بتصميم وتعقيد مذهلين. فهو يزوّدنا بمنظور جديد للعالم الذي غالبًا ما نعتبره نحن أيضًا شيئًا عاديًا.

ورواد الفضاء يرون العالم من منظور جديد من سفنهم الفضائية يساعدهم أن يدركوا أن هذا الكون يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون عاديًا. فعندما سار رواد الفضاء الأوائل على سطح القمر ورأوا **الأرض** تشرق*، وهو منظر لم يشهده إنسان من قبل، قرؤوا في خشوع من سفر التكوين «في البدء خلق الله السماوات والأرض». وهل من شيء آخر يناسب تلك اللحظة؟ فتلاوة نظرية الأكوان المتعددة ما كانت – طبعًا - لَتُعَبِّر عما اجتاح رواد الفضاء من مشاعر المهابة. لقد شهدوا تصميمًا من زاوية لم يشهدها أحد قبلهم وبُهِتوا بفكرة أن الخليقة

---

* المقصود ارتفاع الأرض فوق الأفقِ كما تُرى من القمر (*https://www.ahdictionary.com/word/search.html?q=earthrise*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/٩/٢٩. (المترجمة)

المبهرة تستلزم خالقًا مبهرًا. وقد ردد "چون جلن" *John Glenn* هذه القناعة عينها عندما نظر من مكوك الفضاء "ديسكڤري" *Discovery* وهو في السابعة والسبعين من عمره وقال: "أن تنظر إلى خليقة كهذه ولا تؤمن بالله أمر مستحيل في نظري".

إن تأثير خبراتهم العميق يكشف أن الحجة الغائية أمر بديهي يدركه الإنسان بالحدس. فأنت لا تحتاج لمَنْ يخبرك أن الشيء المصمَّم تصميمًا جميلاً يتطلب مصمِّمًا. فهو أمر واضح في ذاته. ومع ذلك، لنطرح الحجة في شكلها المنطقي ثانيةً مع التركيز على ما اكتشفناه في هذا الفصل:

١- لكل تصميم مصمِّم.

٢- بناءً على المبدأ الإنساني، **نعرف بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي** أن الكون مصمَّم.

٣- إذَن الكون له مصمِّم.

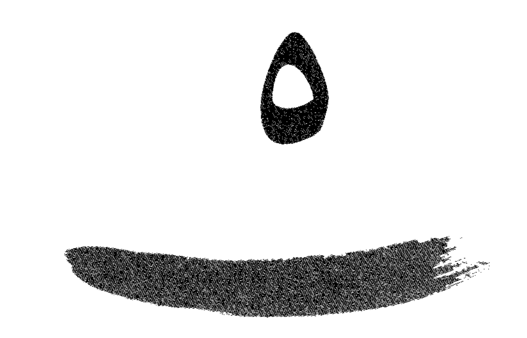
ليس هناك تفسير مقبول منطقيًا للمبدإ الإنساني إلا وجود مصمِّم كوني. وعلى الملحدين أن يشطحوا بمزاعمهم لكي يتمكنوا من إنكار الواضح. فعندما يخترعون نظريات افتراضية بلا أدلة تساندها، بل بالفعل نظريات مستحيلة، يكونون قد خرجوا من عالم المنطق والعقلانية ودخلوا إلى عالم الإيمان الأعمى. فقد كتب عالم الفيزياء "پول ديڤيز" *Paul Davies*: "ربما يجد المرء أن الاعتقاد في مجموعة لانهائية من الأكوان أسهل من الاعتقاد في إله لانهائي، ولكن هذا الاعتقاد لا بد أن يقوم على الإيمان وليس على الملاحظة".[١٢]

والاعتقاد في شيء دون ملاحظته هو عين الاتهام الذي يوجّهه الملحدون للأشخاص "المتدينين". ولكن المضحك أن الملحدين هم مَنْ يروِّجون لدين يقوم على الإيمان الأعمى. ولكن المسيحيين يستندون على أسباب وجيهة تقوم على الملاحظة (مثل الانفجار الكبير والمبدأ الإنساني) تُبرِّر ما يعتقدون فيه. إلا أن الملحدين ليس عندهم أسباب. **ولذلك لسنا نملك الإيمان الكافي للإلحاد.**

وهذا الإيمان الأعمى الذي يتسم به الملحد يكشف أن رفض المصمِّم لا يمثل مشكلة **عقلية**، فهو لا يرجع إلى قلة الأدلة أو المبررات العقلية التي تؤيد وجود مصمِّم. بل العكس هو الصحيح، فالأدلة مبهرة. ولكن المشكلة التي نحن بصددها مشكلة **إرادية، فكل** ما في الأمر أن البعض لا **يريدون** أن يعترفوا بوجود مصمِّم رغم الأدلة. وقد اعترف أحد نقاد المبدإ

الإنساني لمجلة "نيويورك تايمز" *New York Times* أن رفضه الحقيقي "عاطفي محض" لأنه "يشم رائحة الدين والتصميم الذكي".[١٣] إذَن وداعًا للموضوعية العلمية.

وسوف نتناول في الفصل السادس مزيدًا من هذه الدوافع وراء إنكار الأدلة القوية على وجود الله. ولكننا سنبحث أولاً في الفصل الخامس مزيدًا من الأدلة المقنعة على المصمِّم، وهي أدلة موجودة في الحياة نفسها.



الحياة الأولى: قوانين طبيعية أم عجائب إلهية؟

"الله لم يصنع معجزة أبدًا ليقنع ملحدًا، لأن أعماله العادية تقدّم أدلة وافية".

"إريال روث" Ariel Roth

أخرج القمامة—ماما

نزل چوني، البالغ من العمر ستة عشر عامًا، من غرفة نومه ودخل إلى المطبخ ليتناول سلطانية من حبوبه المفضلة ماركة ألفا بيتس *Alpha-Bits*. وعندما وصل إلى المائدة، فوجئ أن علبة الحبوب مقلوبة وبعض الحبوب مسكوبة على مفرش الأطباق وقد شكّلت عبارةَ "أخْـرِجْ القمامة–ماما" "*TAKE OUT THE GARBAGE—MOM*".*

وإذ تذكّر چوني درسًا في علم الأحياء أخذه مؤخرًا في المدرسة الثانوية، لم ينسب الرسالة لأمه. فقد درس أن الحياة نفسها مجرَّد نتاج للقوانين الطبيعية غير العاقلة. لذلك رأى چوني أنه ما دام الأمر كذلك، فما المانع أن تكون رسالة بسيطة مثل "أخْـرِج القمامة–ماما" هي أيضًا نتاج للقوانين الطبيعية غير العاقلة؟ لعل القطة هي التي قلبت العلبة، أو زلزالاً هز

* هذا النوع من الحبوب على هيئة الحروف الأبجدية الإنجليزية، ومن هنا يأتي اسمه *Alpha-Bits*. (المترجمة)

البيت. ولكن لا فائدة من القفز إلى الاستنتاجات. فعلى أي حال جوني لم يُرِد أن يُخْرِج القمامة، لأنه لم يكن لديه وقت للأعمال المنزلية. فقد كان في العطلة الصيفية، وأراد أن يذهب إلى الشاطئ لأن ماري ستكون هناك.

وبما أن ماري هي الفتاة التي يحبها سكوت *Scott* أيضًا، فقد أراد جوني أن يصل إلى الشاطئ قبله. ولكنه عندما وصل رأى ماري تسير على الشاطئ ويدها في يد سكوت. وبينما أخذ يتبعهما من بعيد نظر لأسفل فرأى قلبًا مرسومًا في الرمال وفيه عبارة تقول ''ماري تحب سكوت''. وللحظة اعتصر قلب جوني ألمًا. ولكن الأفكار التي تَعَلَّمها في مادة الأحياء أنقذته من السقوط في هوة اليأس. ففكَّر في نفسه قائلاً: ''لعلها حالة أخرى من حالات نشاط القوانين الطبيعية! ربما أن كابوريا أو أمواجًا غريبة الشكل أنتجت بالصدفة رسالة الحب هذه بشكل طبيعي''. فلا داعي لقبول استنتاج لا يعجبه! ويجب عليه أيضًا أن يتجاهل الدليل الذي يدعم كل ذلك، ألا وهو تشابك اليدين.

وإذ استراح جوني لفكرة أن المبادئ التي درسها في مادة الأحياء يمكن أن تساعده على تجاهل استنتاجات لا تعجبه، قرر أن يستلقي دقائق ويستمتع بالشمس قليلاً. وعندما سند رأسه على المنشفة لاحظ رسالة في السحب تقول: ''اشرب كوكاكولا''، وقد ظهرت الحروف البيضاء الكبيرة على خلفية السماء الزرقاء. ففكر في نفسه قائلاً: ''تكوينات غريبة من السحب؟ ربما دوامات الرياح؟''

وهنا لم يقدر جوني أن يواصل لعبة الإنكار. ''اشرب كوكاكولا'' كانت شيئًا حقيقيًا. ورسالة كهذه تمثل علامة أكيدة على وجود ذكاء، فمن المستحيل أن تكون نتيجة قوى طبيعية لأنه لم يثبت أبدًا بالملاحظة أن القوى الطبيعية تنشئ رسائل. ورغم أنه لم يرَ طائرة، فقد عرف أنه لا بد أن طائرة مرت هنا توًا وكتبت هذا الإعلان. وقد أراد أيضًا أن يُصَدِّق تلك الرسالة، فقد جف ريقه من حرارة الشمس وتمنى أن يشرب كوكاكولا.

حياة بسيطة؟ لا يوجد شيء بهذا الاسم!

لا بد أن يكون الشخص مخه ضارب أو أن يتعامى حتى يفترض أن رسائل مثل ''أخرِج القمامة–ماما''، ''ماري تحب سكوت'' هي نتاجُ القوانين الطبيعية. إلا أن هذه الاستنتاجات تتماشى تمامًا مع المبادئ التي تُدَرَّس اليوم في معظم مناهج الأحياء في المدارس الثانوية

والجامعات، حيث يؤكِّد علماء الأحياء الطبيعيون بكل تَعَنُّت أن الرسائل الأكثر تعقيدًا بما لا يقاس هي منتجات بلا عقل للقوانين الطبيعية. وهم يطلقون هذا الزعم محاولةً منهم أن يفسروا أصل الحياة.

فعلماء الأحياء الطبيعيون يؤكدون أن الحياة تَوَلَّدت تلقائيًا من مواد كيميائية غير حية بالقوانين الطبيعية دون أي تدخل ذكي. ربما كانت تبدو هذه النظرية مقبولة منطقيًا لعالِم في القرن التاسع عشر لم تتوافر له التكنولوجيا اللازمة لفحص الخلية واكتشاف تعقيدها المذهل. ولكن اليوم هذه النظرية الطبيعية تضرب بعرض الحائط كل ما نعرفه عن القوانين الطبيعية والأنظمة البيولوجية.

فمنذ خمسينيات القرن العشرين تَمَكَّن العلماء بفضل التكنولوجيا الحديثة من اكتشاف عالَم متناهي الصغر من التصميم الأخّاذ والتعقيد المذهل. فبينما بدأت تلسكوباتنا ترى مسافات أبعد في الفضاء، بدأت ميكروسكوباتنا تسبر أغوارًا أعمق في مكونات الحياة. وبينما أسفرت ملاحظاتنا للفضاء عن المبدإ الإنساني في الفيزياء (الذي ناقشناه في الفصل السابق)، أسفرت ملاحظاتنا للحياة عن مبدإ إنساني في علم الأحياء بنفس الروعة.

ولنوضّح ما نقصده، سنتناول المفهوم المدعو الحياة ''البسيطة''، أي الحيوان وحيد الخلية المعروف باسم الأميبا. يزعم التطوريون الطبيعيون أن هذه الأميبا وحيدة الخلية (أو ما يشابهها) تكوَّنت بفعل التولُّد التلقائي (أي دون تدخل ذكاء) في بِركة صغيرة دافئة في مكانٍ ما على الأرض القديمة جدًا. وتقول نظريتهم إن كل الحياة البيولوجية تطورت من الأميبا الأولى دون أي توجيه ذكي على الإطلاق. وهذه هي طبعًا نظرية الماكرو تطور *macroevolution*: من الخلية إلى الحيوان إلى الإنسان، أو من الخلية إلى الإنسان مرورًا بالحيوان *from the goo to you via the zoo*. والمؤمنون بهذه النظرية عن أصل الكون لهم أسماء كثيرة: التطوريون الطبيعيون، الماديون، الإنسانيون، الملحدون، الداروينيون (سنشير في بقية هذا الفصل والفصل التالي إلى المؤمنين بهذه النظرية التطورية الإلحادية باسم الدراوينيين أو الملحدين. وهذان الاسمان لا يشملان المؤمنين بالتطور الخَلقي *theistic evolutionists*، أي مَنْ يؤمنون أن الله وجَّهَ عملية التطور). وبصرف النظر عن الاسم الذي نُطلقه على المؤمنين الحقيقيين بهذه النظرية، فالسؤال الذي يهمنا هو: ''هل نظريتهم صحيحة؟'' لا تبدو كذلك.

ولنضع جانبًا التأكيدات الداروينية أن البشر انحدروا من القردة العليا أو أن الطيور تطورت من الزواحف. فالمشكلة الكبرى التي تواجه الداروينيين ليست تفسير كيفية ارتباط كل

أشكال الحياة ببعضها (رغم أن هذه أيضًا تمثل مشكلة كبيرة كما سنرى في الفصل القادم). إلا أن المشكلة الكبرى التي تواجه الداروينيين هي تفسير أصل **أول** حياة. فحتى يكون الماكرو تطور صحيحًا، لا بد أن تكون الحياة الأولى قد تولَّدت تلقائيًا من مواد كيميائية غير حية. ولكن لسوء حظ الداروينيين أن الحياة الأولى، بل أي شكل من أشكال الحياة، ليست "بسيطة" على الإطلاق. وهو ما أصبح واضحًا وضوح الشمس سنة ١٩٥٣ عندما اكتشف چيمز واطسون *James Watson* وفرانسيس كريك *Francis Crick* الـ*DNA* (*deoxyribonucleic acid* الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين)، وهو المادة الكيميائية التي تُشَفِّر تعليمات بناء وتكاثر كل الكائنات الحية.

وللـ*DNA* بنية حلزونية تشبه السُلَّم المبروم. وجوانب السُّلَّم تتكون من جزيئات الريبوز منقوص الأكسجين وجزيئات الفوسفات بالتبادل. ودرجات السُلَّم تتكون من أربع قواعد نيتروجينية لها ترتيب محدَّد. وهذه القواعد النيتروجينية هي الأدنين *Adenine*، الثايمين *Thymine*، السايتوسين *Cytosine*، الجوانين *Guanine*، ويشار إليها عادةً بالحروف أ، ث، س، ج *A, T, C, G*. وتشكل هذه الحروف ما يُعرَف باسم الأبجدية الوراثية ذات الحروف الأربعة. وهذه الأبجدية تماثل الأبجدية الإنجليزية من حيث قدرتها على توصيل رسالة، فيما عدا أن الأبجدية الوراثية تحوي أربعة حروف فقط لا ستة وعشرين حرفًا*. فكما أن ترتيب الحروف المحدَّد في هذه الجملة يوصل رسالة فريدة، كذلك الترتيب المحدد للحروف أ، ث، س، ج داخل الخلية الحيّة يحدّد التكوين الوراثي الفريد لذلك الكائن الحي. وتُعرَف أيضًا تلك الرسالة أو المعلومات، سواء كانت في جملة أو في الـ*DNA* باسم "التعقيد المحدَّد" "*specified complexity*". أي أنها معقدة، وتحمل رسالة محددة.

ويتضح هذا التعقيد المحدّد المذهل للحياة في رسالة الـ*DNA* للأميبا وحيدة الخلية (كائن صغير للغاية حتى إنه يمكن رَصّ عدة مئات منه في بوصة واحدة). ويعترف الدارويني الأصيل ريتشارد دوكينز *Richard Dawkins*، أستاذ علم الحيوان في جامعة أكسفورد، أن الرسالة الموجودة فقط في **نواة** خلية الأميبا متناهية الصغر أكبر من "موسوعة بريتانيكا"

---

* يوضح عالِم المعلومات "هيوبرت يوكي" *Hubert Yockey* من جامعة كاليفورنيا في بركلي، أن هذا المقارنة بين الأبجدية الإنجليزية والأبجدية الجينية ليست مشابهة جزئية ولكنها نموذج للتماثل الرياضي. فهو يكتب قائلاً: "من المهم أن نفهم أننا لا نتحدث عن مشابهة جزئية. ولكن الفرضية التسلسلية *sequence hypothesis* تنطبق مباشرة على البروتين والنص الجيني مثلما تنطبق على اللغة المكتوبة، ومن ثم نعامل كلاً منهما معاملة متماثلة رياضيًا". انظر *Hubert P. Yockey, "Self Organization, Origin-of-life Scenarios and Information Theory," Journal of Theoretical Biology 91 (1981):16*

Encyclopedia Britannica بأجزائها الثلاثين مجتمعة، والأميبا كلها تحوي معلومات في الـ*DNA* الخاص بها تعادل ١٠٠٠ مجموعة كاملة من "موسوعة بريتانيكا"![١] أي أنك لو أردت أن تتهجى كل أبجدية أ، ث، س، ج المتضمنة في "الأميبا التي يُطلق عليها ظلمًا "بدائية"" (كما يصفها دوكينز)، لملأْتْ الحروف ١٠٠٠ مجموعة كاملة من الموسوعة!

وهنا لا بد أن نؤكِّد أن هذه الموسوعات الألف لا تحوي حروفًا عشوائية، بل حروفًا مرتَّبة ترتيبًا محدّدًا جدًا، مثل الموسوعات الحقيقية. وهنا يأتي السؤال المحوري للداروينيين أمثال دوكينز: إن كانت الرسائل البسيطة مثل "أخرِج القمامة–ماما"، "ماري تحب سكوت"، "اشرب كوكاكولا" تتطلب كائنًا ذكيًا، فلماذا لا تتطلب رسالة في حجم ١٠٠٠ موسوعة كائنًا ذكيًا أيضًا؟

لا يمكن للداروينيين الإجابة عن ذلك السؤال بأن يبينوا كيف يمكن للقوانين الطبيعية القيام بهذه المهمة. وبدلاً من ذلك يقدّمون تعريفات ضيقة جدًا لقواعد العلم، بحيث تستبعد الذكاء مُقدَّمًا، وتجعل القوانين الطبيعية الشيء الوحيد الذي له قيمة. وقبل أن نبين كيف يفعل الداروينيون ذلك ولماذا يفعلونه، نلقي نظرة على المبادئ العلمية التي يجب استخدامها في اكتشاف كيف بدأت أول حياة.

استقصاء أصل أول حياة

يتحدّث الكثير من التطوريين وكذلك الخَلقيين وكأنهم يعرفون دون أدنى شك كيف أتت أول حياة إلى الوجود. وطبعًا لا يمكن أن يكون كلاهما على صواب. فإن كان أحدهما صائبًا، يكون الآخر خاطئًا. فكيف نكتشف أيهما على صواب؟

إن الحقيقة التالية واضحة ولكنها غالبًا مهمَلة: ليس هناك إنسان **لاحظ** أصل أول حياة. فنشأة أول حياة على الأرض كانت حدثًا تاريخيًا غير قابل للتكرار وقع مرة واحدة. ولم يكن أحد موجودًا ليراه، لا التطوريين ولا الخلقيين، ومؤكد أننا لا نستطيع أن نعود بالزمن ونلاحظ مباشرة سواء أكانت أول حياة خُلِقَت بفعل نوع من الذكاء أم نشأت بفعل القوانين الطبيعية من مواد غير حية.

وهو ما يطرح سؤالاً مهمًا: إن كنا لا نستطيع أن نلاحظ الماضي ملاحظة مباشرة، إذَن ما المبادئ العلمية التي يمكن أن نستخدمها لتساعدنا على اكتشاف مسبب الحياة الأولى؟ إننا نستخدم المبادئ المستعملة يوميًا في نظامنا الجنائي، أي مبادئ علم الأدلة الجنائية. بمعنى أن أصل الحياة هو مسألة بحث جنائي تتطلب منا أن نجمع الأدلة معًا مثلما يجمع

المخبرون السريون الأدلة في جريمة قتل. فالمخبرون لا يستطيعون أن يَرجعوا بالزمن ويشهدوا جريمة القتل ثانيةً. وهم لا يستطيعون أن يُحْيوا الضحية ويذهبوا إلى المعمل لإجراء تجربة ما تتيح لهم ملاحظة الجريمة وإعادتها مرارًا وتكرارًا. ولكنهم لا بد أن يستخدموا مبادئ علم الأدلة الجنائية ليكتشفوا ما حدث بالفعل.

والمبدأ المحوري في علم الأدلة الجنائية هو مبدأ النمطية *Principle of Uniformity* الذي يقضي بأن مسببات الماضي تماثل المسببات التي نلاحظها اليوم. أي أننا بناءً على مبدإ النمطية نفترض أن العالم سار في الماضي كما يسير اليوم بالضبط، خاصةً فيما يتعلق بالمسببات. فإن كانت رسالة "أخرج القمامة—ماما" تتطلب اليوم مسبِّبًا ذكيًا، إذَن أي رسالة مشابهة من الماضي لا بد أيضًا أن تتطلب مسببًا ذكيًا. وبالعكس، إن كانت القوانين الطبيعية تستطيع أن تقوم بهذه المهمة اليوم، إذَن يقودنا مبدأ النمطية إلى أن نستنتج أن القوانين الطبيعية تمكنت من القيام بالمهمة في الماضي.

خذ مثلاً الأخدود العظيم *Grand Canyon*. ما الذي سبَّبه؟ هل رآه أحد وهو يتكون؟ لا، ولكن وفقًا لمبدأ النمطية، نستطيع أن نستنتج أن العمليات الطبيعية، وخصوصًا التعرية المائية، هي المسؤولة عن الأخدود العظيم. ويمكننا أن نخلص إلى هذا الاستنتاج بثقة، رغم أننا لم نكن موجودين لنرى ذلك الحدث. وذلك لأننا نلاحظ هذه العمليات الطبيعية اليوم تُكَوِّن أخاديد. فنحن نرى هذا في الطبيعة عندما نلاحظ تأثير المياه على مساحة من اليابس. بل يمكننا حتى أن ندخل المعمل ونَصُبّ ماءً مرارًا وتكرارًا في وسط كومة من التراب، ودائمًا ما سنحصل على أخدود.

والآن خذ تكوينًا جيولوجيًا آخر: جبل رشمور *Mount Rushmore*. ما الذي سبَّبه؟ يخبرنا الحس السليم بأننا لا يمكن أن نفترض أن وجوه الرؤساء المنحوتة في جبل رشمور نتجت من القوانين الطبيعية. ولا يمكن أن تكون التعرية هي التي نحتتها. ولكن "حسنا السليم" هو نفسه مبدأ النمطية. فبما أننا اليوم لا نلحظ أبدًا القوانين الطبيعية تنحت في الحجر تمثالاً ذا تفاصيل غاية في الدقة لرأس رئيس، إذَن من الصواب أن نستنتج أنه يستحيل أن تكون القوانين الطبيعية قد فعلت ذلك في الماضي. فاليوم نحن لا نرى إلا الكائنات الذكية تصنع منحوتات مفصَّلة. ونتيجةً لذلك نستنتج استنتاجًا صائبًا أنه في الماضي لا يمكن إلا لكائن ذكي (نحَّات) أن يكون قد نحت الوجوه في جبل رشمور.

وبالقياس نفسه، عندما ننظر إلى الحياة الأولى وحيدة الخلية، يخبرنا مبدأ النمطية أن مسببًا ذكيًا هو فقط الذي يستطيع أن يجمع ما يعادل ١٠٠٠ موسوعة. فلم يلحظ أحد أبدًا القوانين الطبيعية تخلق رسالة بسيطة مثل "اشرب كوكاكولا"، فكم بالأحرى رسالة طولها ١٠٠٠ موسوعة.

فلماذا إذَن يستنتج الداروينيون أن أول حياة تولّدت تلقائيًا من مواد كيميائية غير حية دون تدخل ذكي؟ فلم يلحظ أحد أبدًا تولّدًا تلقائيًا للحياة. ومنذ أن عَقّمَ پاستير دورقه، ظهرت واحدة من أهم الملاحظات في العلم كله، ألا وهي أن الحياة لا تنشأ إلا من حياة موجودة تشبهها. ولم يتمكن العلماء من خلط مواد كيميائية في أنبوبة اختبار وتخليقِ جزئ *DNA*، فكم بالأحرى الحياة.[٢] والحقيقة أن كل التجارب **المصمَّمة** لتَوَلّـد الحياة تلقائيًا، بما فيها تجربة يوري-ميلر *Urey-Miller*، التي فقدت مصداقيتها حاليًا، لم تفشل فحسب، بل استخدمت الذكاء استخدامًا غير مشروع.[٣] أي أن العلماء يُجرون تجارب بذكاء ومع ذلك لا يمكنهم حتى الآن أن يفعلوا ما يقولون إن القوانين الطبيعية غير العاقلة فعلته. فلماذا نُصَدِّق أن العمليات غير العاقلة يمكنها أن تفعل ما لا يستطيع فعله العلماء العباقرة؟ وحتى لو تَمَكّن العلماء في النهاية من خلق حياة في المعمل، سوف يُثْبِتون الخلق. لماذا؟ لأن جهودهم ستبين أن خلق الحياة يتطلب الكثير من الذكاء.

هل الداروينيون يُصرّون على التولد التلقائي لأنهم لا يرون أدلة على التصميم؟ إطلاقًا. بل العكس تمامًا هو الصحيح، إنهم يرون الأدلة بوضوح! فمثلاً ريتشارد دوكينز اختار لكتابه عنوان "صانع الساعات الأعمى" *The Blind Watchmaker* ردًا على حجة التصميم لوليم پيلي التي أشرنا إليها في الفصل السابق. ويعترف دوكينز في أول صفحة من "صانع الساعات الأعمى" بأن الحياة تبدو ظاهريًا مصمَّمة. فهو يكتب: "علم الأحياء يختص بدراسة أمور معقدة تبدو ظاهريًا مصمَّمة لغرض".[٤] وبعد صفحتين، بالرغم من اعترافه بوجود "بنية وتصميم هندسي في منتهى الدقة" في الحياة البشرية وفي كل خلية من تريليونات الخلايا في الجسم البشري، فهو ينكر صراحةً أن الحياة البشرية أو أي حياة أخرى مصمَّمة. يظهر أن دوكينز يرفض أن يسمح للملاحظة أن تتدخل في استنتاجاته. وهو موقف غريب جدًا على رجل يؤمن بسلطة العلم العليا الذي يُفترَض أنه يقوم على الملاحظة.

وفرانسيس كريك الذي شارك في اكتشاف الـ*DNA*، وهو دارويني آخر عنيد، يتفق مع دوكينز في فكرة التصميم الظاهري. والحقيقة أن التصميم الظاهري في غاية الوضوح حتى إنه يشدد على أن "علماء الأحياء لا بد أن يضعوا في أذهانهم باستمرار أن ما يرونه لم يصمَّم، بل تَطـَّور".[٥] وتَذكِرة كريك الصغيرة لعلماء الأحياء دفعَتْ فيليپ چونسون، وهو كاتب وواحد من

قادة حركة التصميم الذكي *Intelligent Design (ID)* أن يقول: "على علماء الأحياء الداروينيين أن يستمروا في ترديد تلك التذكِرة لأنفسهم لئلا يستفيقون على الواقع الذي يحدق في عيونهم ويحاول أن يلفت انتباههم".[٦]

إلا أن طبيعة الـ*DNA* المعقدة ليست المشكلة الوحيدة التي تواجه الداروينيين. ولكن أصله أيضًا مشكلة. فهذه القضية تطرح السؤال العسير "الكتكوت أم البيضة؟"؛ لأن إنتاج الـ*DNA* يعتمد على البروتينات ولكن إنتاج البروتينات يعتمد على الـ*DNA*. فأيهما أتى أولاً، البروتينات أم الـ*DNA*؟ لا بد أن يوجد أحدهما أولاً حتى يُصنَع الآخر.

فلماذا يتجاهل كريك، ودوكينز، وغيرهما ممن ينتمون لنفس المعسكر مضامين الأدلة الجَليَّة التي تحدق في عيونهم؟ لأن أيديولوجيتهم المسبقة، ألا وهي المذهب الطبيعي، تمنعهم حتى من التفكير في مسبب ذكي. وكما سنرى بعد قليل هذا علم ركيك ويؤدي إلى خلاصات خاطئة.

العلم السليم مقابل العلم الركيك

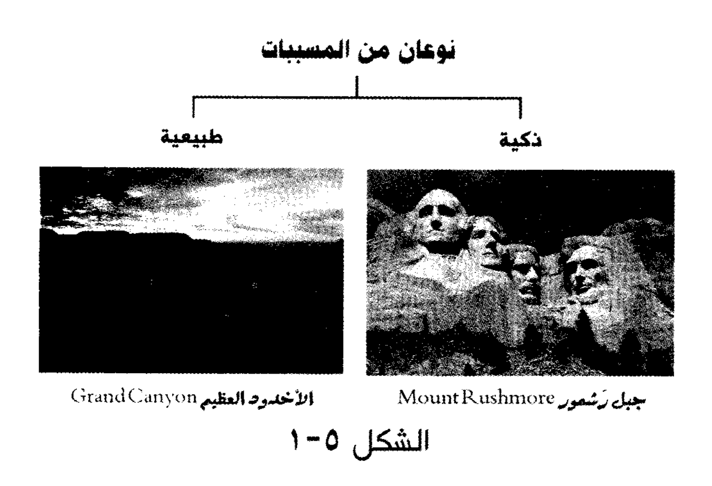
يشيع الاعتقاد بأن ما يُطلَق عليه جدل الخلق والتطور (غالبًا ما يُعرَف اليوم باسم جدل التصميم الذكي مقابل المذهب الطبيعي) ينطوي على حرب بين الدين والعلم، أو الكتاب المقدس والعلم، أو الإيمان والمنطق. وهو فهم تُروِّج له وسائل الإعلام التي دائمًا ما تصور الجدل في قالب فيلم "ميراث الرياح" *Inherit the Wind* إنتاج سنة ١٩٦٠ الذي صوَّر "محاكمة سكوبس في قضية القرد"* *Scopes monkey trial* سنة ١٩٢٥. وأنت تعرف هذا الأسلوب الذي يقصد أن يقول: ها هم أولئك الأصوليون المتدينون ثانيةً، وهم يُصِرّون على فرض دينهم بيقين مطلق، ويتجاهلون العلم الموضوعي.

وفي الواقع أنه ليس هناك ما هو أبعد عن الحقيقة من هذا الكلام. فجدل الخلق والتطور لا يدور حول الدين مقابل العلم، أو الكتاب المقدس مقابل العلم، ولكنه يدور حول العلم السليم مقابل العلم الركيك. وهو كذلك لا يدور حول الإيمان مقابل العقل، ولكنه يدور حول الإيمان العقلاني مقابل الإيمان اللاعقلاني. وقد تندهش عندما تعرف مَنْ الذين يمارسون العلم الركيك، ومَنْ الذين يتبنون الإيمان اللاعقلاني.

---

* محاكمة جرت في ولاية تنسي الأمريكية حيث اتُّهم سكوبس مدرس الأحياء بتدريس نظرية التطور بما يخالف قانون الولاية الذي يحظر تدريسها (من مذكرات غير منشورة بقلم د. مايكل باركر، مستخدَمة باعتبارها منهجًا دراسيًا إلكترونيًا لمادة تاريخ الكنيسة في كلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة). (المترجمة)

وكما ذكرنا آنفًا، العلم هو بحث عن المسبّبات. ومنطقيًا لا يوجد إلا نوعان من المسببات: الذكية وغير الذكية (أي الطبيعية). فالأخدود العظيم له مسبب طبيعي، وجبل رَشمور له مسبب ذكي (انظر الشكل ٥-١). وللأسف أن الداروينيين مثل دوكينز وكريك عندما يواجهون مسألة أول حياة يستبعدون المسبّبات الذكية حتى قبل أن ينظروا إلى الدليل. أي أن استنتاجاتهم متضمنة مسبقًا في افتراضاتهم. وهكذا **لا بد** أن يكون التولد التلقائي بفعل القوانين الطبيعية هو مسبب الحياة لأنهم لا يأخذون في اعتبارهم أي بدائل أخرى.



جبل رَشمور Mount Rushmore — الأخدود العظيم Grand Canyon

الشكل ٥-١

إن التولّد التلقائي هو ما يطلق عليه نقاد التطور قصة "بلا دليل". وذلك لأن التطوريين لا يقدمون أدلة لدعم التولد التلقائي الذي لا تؤيده الملاحظة التجريبية ولا قواعد علم الأدلة الجنائية. وهو "بلا دليل" لأن الحياة موجودة، وبما أن **المسببات الذكية مستبعدة مقدمًا**، فلا يمكن أن يكون هناك أي تفسير آخر.

إن الداروينيين يواجهون مشكلة ضخمة. فعالِم الكيمياء الحيوية كلاوس دوس *Klaus Dose* يعترف أن أكثر من ثلاثين عامًا من البحث في أصل الحياة أدت إلى "فهم أفضل لضخامة مشكلة أصل الحياة على الأرض أكثر مما ساعدت في حلها. ففي الوقت الحالي كل المناقشات التي تتناول النظريات والتجارب الكبرى في المجال إما تنتهي إلى طريق مسدود أو إلى الاعتراف بالجهل".[٧] ويُعبرِّ فرانسيس كريك عن حسرته قائلاً: "كلما أكتب ورقة بحثية في أصل الحياة، أُقسِم أنها ستكون الأخيرة لأن التخمينات كثيرة جدًا والحقائق شحيحة جدًا".[٨]

إن الأدلة تؤيد الذكاء بقوة وتتعارض مع المذهب الطبيعي. لدرجة أن التطوريين البارزين اقترحوا فعليًا أن كائنات فضائية أودعت أول حياة هنا على الأرض. فقد اخترع فرِد هُويل (التطوري الذي روَّج نظرية الحالة الثابتة التي ناقشناها في الفصل الثالث) نظرية شديدة الغرابة (تسمى "الـپـانسـپرميا" "*panspermia*" وتعني "البذور في كل مكان") بعد أن ثَبَتَ حسابيًا أن احتمال نشأة الحياة بالتولد التلقائي هي فعليًا صفر. (وطبعًا نظرية "الـپـانسـپرميا" لا تحل المشكلة، بل تزيحها إلى خطوة أبعد: فمن إذَن الذي صنع الكائنات الفضائية الذكية؟)

ورغم جنون نظرية "الـپـانسـپرميا"، فعلى الأقل مؤيِّدوها يعترفون أن ذكاءً ما لا بد أن يكون وراء هذا الشيء المذهل العجيب الذي نسميه الحياة. ومع ذلك عندما يضطر أبرز التطوريين للجوء إلى كائنات فضائية لتفسير أصل الحياة، أنت تَعْرِف أن أبسط أشكال الحياة لا بد أن يكون في منتهى التعقيد.

ويعترف تشاندرا ويكراماسينغ *Chandra Wickramasinghe*، وهو أيضًا من مؤيدي نظرية "الـپـانسـپرميا"، بأن الداروينيين يبنون اقتناعهم بالتولد التلقائي على إيمان أعمى. فهو يشير إلى أن "نشأة الحياة من حساء أساسي على الأرض هو **مجرد بند إيماني** يصعب على العلماء التخلص منه. فما من دليل تجريبي يؤيد هذا البند في الوقت الحاضر. والحقيقة أن كل محاولات خلق الحياة من اللاحياة، بدءًا من پاستير باءت بالفشل".[٩] ويضيف مايكل دنتون *Michael Denton* عالِم الأحياء الدقيقة، رغم أنه ملحد، قائلاً: "إن أبسط أنواع الخلايا المعروفة في غاية التعقيد حتى إنه يستحيل أن نقبل أن شيئـًا كهذا تكَوَّن بغتةً على نحو عشوائي بفعل حدثٍ شاذ غير محتمل بالمرة، وإذا وقع هذا الحدث فهو يعادل المعجزة".[١٠]

وفي ضوء التفسيرات التي "بلا دليل" مثل التولد التلقائي ونظرية "الـپـانسـپرميا"، مَنْ في رأيك يمارس العلم الركيك: المدعوون، استهزاءً، "متدينيين" (المؤمنين بالله الخالق الحافظ/الخلقيين) أم "المستنيرون" (الملحدون/الداروينيون) الذين هم في الواقع متدينون تمامًا مثل "المتدينين"؟ يرى هيوبرت يوكي *Hubert Yockey* عالِم الفيزياء والمعلومات أنهم الداروينيون. فهو يكتب: "الاعتقاد بأن الحياة على الأرض نشأت تلقائيًا من مادة غير حية **هو ببساطة مسألة إيمان** بالاختزالية المتشددة، وهو يقوم برمته على أيديولوجية".[١١]

يوكي مُحِقّ، فالداروينيون يؤمنون خطأً أنه بإمكانهم اختزال الحياة إلى مكوناتها الكيميائية غير الحية. وهذه هي أيديولوجية الاختزالية. ففي نظر الداروينيون أمثال دوكينز أو كريك الذين يؤمنون قطعًا أنه لا يوجد شيء إلا المادة (وليس هناك شيء غير مادي)، الحياة ليست

أكثر من مواد كيميائية. ولكن واضح أن الحياة أكثر من مواد كيميائية. فالحياة تحتوي على رسالة هي الـ*DNA* الذي **تُعَبرّ عنه** المواد الكيميائية، ولكن تلك المواد الكيميائية لا تستطيع أن تسبِّب الرسالة، كما أن المواد الكيميائية المكوِّنة للحبر والورق لا تستطيع أن تسبب الجمل الموجودة على هذه الصفحة. إن الرسالة تشير إلى شيء أبعد من المواد الكيميائية. والرسالة الموجودة في الحياة، مثل الرسالة الموجودة على هذه الصفحة، تشير إلى ذكاء أبعد من عناصرها الكيميائية. (إننا ندرك أن الحياة بالتأكيد **أكثر** من مجرد مواد كيميائية برسالة، ولكن النقطة المحورية هنا هي أنها بالتأكيد ليست **أقل** من ذلك).

ومن ثم يؤكِّد الداروينيون بمنتهى اليقين أن الحياة نشأت تلقائيًا من مكوناتها الكيميائية غير الحية، نظرًا لولائهم الأعمى لهذه الأيديولوجية الطبيعية الاختزالية. ولكن المضحك أن هذا هو الاتهام الذي طالما وجَّهه الداروينيون للخلقيين، أنهم يسمحون لأيديولوجيتهم أن تطغى على الملاحظة والعقل. والحقيقة أن الداروينيين هم من يسمحون لإيمانهم أن يطغى على الملاحظة والعقل. ولكنَّ الخلقيين ومؤيدي التصميم الذكي يستدلون استدلالاً منطقيًا بناء على الأدلة. فهم يتبعون الدليل إلى حيث يقودهم؛ إلى مسبب ذكي.

ويوكي ليس الوحيد الذي يشير إلى أن الداروينيين متحيزون فلسفيًا ضد المسببات الذكية. وفيليپ چونسون يمثل حَدّ الإسفين الماضي الذي يقطع خشبَ المذهبِ الطبيعيِّ المتحجرَ في المجتمع العلمي. فهو يشير صائبًا إلى أن "الداروينية تقوم على ولاء قَبْلِي *a priori* [مسبق] للمذهب الطبيعي، وليس على تقييم للأدلة محايد فلسفيًا. افصل الفلسفة عن العلم وستجد البرج الشامخ ينهار".[١٢]

وليس فقط نقاد التطور هم من يرون هذا التحيز. بل إن الداروينيين يعترفون به. ففي الحقيقة دوكينز نفسه اعترف بالتحيز ردًا على سؤال أُرسِلَ له بالبريد الإلكتروني من فيليپ چونسون. فقد أجابه قائلاً: "إن ولاءنا الفلسفي للمادية والاختزالية صحيح. ولكني أُفَضِّل أن أَصِفَه بأنه ولاء فلسفي لتفسير حقيقي في مقابل الانعدام التام للتفسير الذي تتبناه أنت".[١٣] (قد يعتقد دوكينز أنه يملك "تفسيرًا حقيقيًا"، ولكن تفسيره كما رأينا يتعارض مع كل الدلائل التي تقوم على الملاحظة وعلم الأدلة الجنائية).

وإن كان ريتشارد دوكينز يُسَرِّب على استحياء اعترافًا بتحيزه، فالدارويني ريتشارد ليونتن *Richard Lewontin* الأستاذ في جامعة هارڤارد *Harvard University* يتدفق باعتراف كامل

مكتوب. اقرأ كيف يعترف ليونتنِ أن الداروينيين يقبلون قصصًا عبثية "بلا دليل" تتعارض مع الحس العام بسبب ولائهم المسبق للمادية:

> استعدادنا لقبول المزاعم العلمية التي تخالف الحس العام هو مفتاح فهم الصراع الحقيقي بين العلم وما هو فائق للطبيعة. إننا نأخذُ صف العلم رغم ما يشوب بعض أفكاره من عبث بيِّن، رغم فشله في الوفاء بالكثير من وعوده السخية بالصحة والحياة، رغم قبول المجتمع العلمي للقصص التي لا تقوم على دليل لأننا **ملتزمون مسبقًا بالفلسفة المادية.** فمناهج العلم ومؤسساته لا تجبرنا على قبول تفسير مادي للعالم الظاهر، بل بالعكس، **التزامنا القَبْلي بالقضايا المادية هو ما يجبرنا** على خلق أداة للبحث ومجموعة من المفاهيم تُنتج تفسيرات مادية، مهما كانت مناقضة لما هو واضح، ومهما بدت غامضة لضعيف المعرفة. فضلاً عن ذلك، هذه المادية مطلقة لأننا **لا نستطيع أن نسمح بدخول قَدَم إلهية من الباب.**[١٤]

وهنا تنكشف الحقيقة. فالموضوع **ليس** أن الأدلة تؤيد الداروينية، بل الحقيقة أن التفسيرات الداروينية "مناقضة لما هو واضح" وفقًا لما يقوله ليونتنِ وما يقبله حِسُّنا العام. فالحقيقة أن الداروينيين عرَّفوا العلم على نحو يجعل من الداروينية الإجابة الوحيدة الممكنة. وأي تعريف آخر، لا قدَّرَ الله، سيسمح لله بأن يُدخل "قدمه من الباب"!

وسوف نبحث في الفصل القادم ما قد يكمن من دوافع وراء إبقاءِ الله في الخارج. ولكن النقطة الفاصلة الآن هي أن الداروينيين يُصَدِّقون الحدث اللازم لتشغيل نظرية الماكرو تطور الإلحادية، ألا وهو التولد التلقائي لأول حياة، لأنهم ملتزمون بافتراضات فلسفية مغلوطة تتنكر في ثوب العلم، لا لأن هناك ملاحظات علمية مشروعة تؤيد التولد التلقائي. إن العلم الزائف علم ركيك، والداروينيون هم من يمارسونه. فاعتقادهم في التولد التلقائي يَنتُج من إيمانهم الأعمى بالمذهب الطبيعي. إن الاعتقاد بأن أول كائن وحيد الخلية تكوَّن بفعل القوانين الطبيعية يتطلب قدرًا ضخمًا من الإيمان لأنه مثل الاعتقاد في أن ١٠٠٠ موسوعة نتجت من انفجار في إحدى المطابع! إن الملحدين لا يمكنهم حتى أن يفسروا أصل المطبعة، فكم بالأحرى الألف موسوعة. **لذلك، لسنا نملك الإيمان الكافي للإلحاد.**

أتِحْ للزمن والصدفة فرصة!

يقول الداروينيون: "الأمر لا يحدث بسرعة. لقد تجاهلتم الزمن والصدفة باعتبارهما تفسيرين مقبولين منطقيًا لكيفية تَوَلُّد الحياة تلقائيًا".

امنح الزمن زمنـًا أطول!

يرفض الداروينيون الاستنتاج الذي مفاده أن ذكاءً ما ضروري لإنشاء أول حياة، وذلك بالاستناد على أن مزيدًا من الزمن يتيح للقوانين الطبيعية أن تؤدي عملها. أعطها عدة مليارات من السنين وفي النهاية سنحصل على حياة. هل هذا مقبول منطقيًا؟

لِنَعُد قليلاً إلى جبل رَشمور. يؤكد الداروينيون أن العلم يقوم على الملاحظة والتكرار. فلنفترض أننا نلاحظ ونكرر تجربة نسمح فيها للقوانين الطبيعية أن تعمل في الصخر لمدة عشر سنوات. هل سنحصل على الوجوه الموجودة على جبل رَشمور؟ أبدًا.

تقول ربما تتمكن القوانين الطبيعية من القيام بهذا العمل إن أعطيناها مليارات السنين. لا، لن يحدث. لماذا؟ لأن الطبيعة لا تنظم الأشياء بل تُحدث فيها حالة من الفوضى (إحداث الطبيعة للفوضى هو جانب آخر من جوانب القانون الثاني في الديناميكا الحرارية). وعليه فإن طول الوقت لا يُحَسِّن موقف الداروينيين بل يزيده سوءًا. كيف؟

هب أنك تنثر قصاصات من الورق الأحمر والأبيض والأزرق من طائرة على ارتفاع حوالي ٣٠٠ متر فوق منزلك. ما احتمال تكوينها للعَلَم الأمريكي على حوض النجيل الأمامي في حديقة بيتك؟ احتمال ضعيف جدًا. لماذا؟ لأن القوانين الطبيعية ستخلط القصاصات وتنثرها بعشوائية. تقول: "أعطها وقتـًا أطول". حسنـًا، لنرتفع بالطائرة إلى ٣٠٠٠ متر لنتيح للقوانين الطبيعية وقتـًا أطول لاستخدام القصاصات الملونة. هل يُزيد ذلك من احتمال تكُّون العلم على حوض النجيل الأمامي؟ لا، بل إن المزيد من الوقت يُقَلِّص احتمالات تَكَوُّن العَلَم لأنه يتيح فرصة أكبر للقوانين الطبيعية لتؤدي عملها، ألا وهو الفوضى والعشوائية.

ما الفرق بين هذا المثال وأصل أول حياة؟ قد يقول الداروينيون إن القانون الثاني في الديناميكا الحرارية لا ينطبق دائمًا على الأنظمة الحية. فالكائنات الحية مهما كان تنمو ويمكنها أن تزداد تنظيمًا. نعم، إنها تنمو وتزداد تنظيمًا، ولكنها في الوقت نفسه تفقدُ طاقة في عملية النمو. فالطعام الذي يدخل إلى نظام حي لا يعالَج بدرجة ١٠٠% من الكفاءة. ومن ثم فالقانون الثاني ينطبق على الأنظمة الحية. ولكن هذه ليست النقطة المحورية. النقطة هي أننا لا نتحدث عما يمكن أن يفعله الشيء بمجرد أن يكون حيًا، بل **نتحدث عن الحصول على كائن حي أصلاً**. كيف نشأت الحياة من مواد كيميائية غير حية دون تدخُّل ذكي، وهذه المواد الكيميائية غير الحية خاضعة للقانون الثاني؟ الداروينيون لا يملكون إجابة، كل ما يملكونه هو الإيمان.

امنح الصدفة فرصة!

هل يمكن أن تمثِّل الصدفة تفسيرًا لكل ما في الحياة من تعقيد محدَّد مذهل؟ من رابع المستحيلات. لقد حَسَبَ الملحدون والمؤمنون بالله الخالق، على حد سواء، احتمالية أن تكون الحياة قد نشأت بالصدفة من مواد كيميائية غير حية، وجاءت محصلة حساباتهم في منتهى الصغر، تقارب الصفر. فقد قال مايكل بيهي *Michael Behe* مثلاً إن احتمالية الحصول على **جزيء واحد من البروتين** (الذي يحوي حوالي ١٠٠ حمض أميني) بالصدفة يعادل احتمالية أن يتمكن رجل معصوب العينين من العثور على حبة رمل عليها علامة معينة في الصحراء الكبرى ثلاث مرات متتالية. والحقيقة أن جزيء بروتين واحد ليس حياة. وذلك لأنك لكي تحصل على الحياة يجب أن تحصل على حوالي ٢٠٠ جزيء بروتين مجتمعة![١٥]

إن تلك الاحتمالية تقارب الصفر. ولكننا نعتقد أنها **فعليًا** صفر. لماذا؟ لأن "الصدفة" ليست مسبِّبًا. الصدفة **كلمة** نستخدمها للإشارة إلى الاحتمالات الرياضية. فهي لا تملكُ قوة خاصة بها. الصدفة هي **لا شيء**. إنها ما تحلم به الصخور.

إذا نقر شخصٌ طرف عملةً معدنيةً متعادلة *fair coin* بإصبعه، ما احتمال أن يظهر الوجه الذي يحمل الصورة؟ نقول إنه خمسون في المائة. نعم، ولكن ما **المسببات** التي تجعل وجه الصورة هو الذي يظهر؟ هل الصدفة؟ لا، بل إن المسبب الأولي هو كائن ذكي قرَّر أن ينقر طرف العملة ويستخدم قدرًا من القوة في هذا الفعل. والمسببات الثانوية، مثل القوى الطبيعية للرياح والجاذبية، تؤثِّر كذلك على نتيجة نقر العملة. فلو عرفنا كل تلك المتغيرات، أمكننا أن نحسب نتيجة نَقر العملة مقدّمًا. ولكن لأننا لا نعلم تلك المتغيرات، فإننا نستخدم كلمة "الصدفة" لنخفي جهلنا.

لذا يجب ألا نسمح للملحدين أن يخفوا جهلهم بكلمة "الصدفة". فإن كانوا لا يعرفون آلية طبيعية أتت بأول حياة إلى الوجود، إذَن عليهم أن يعترفوا أنهم لا يعلمون بدلاً من طرح كلمة عديمة القوة، يستحيل طبعًا أن تمثِّل مسبِبًا. إن "الصدفة" ليست إلا مثال آخر على العلم الركيك الذي يمارسه الداروينيون.

العلم عبد الفلسفة

نجح الداروينيون للأسف في إقناع العامة أن العلم الركيك الوحيد هو ما يخالف الداروينية (وهم يقولون إنه في الحقيقة ليس علمًا على الإطلاق، إنه مجرد دين متنكِّر في زي العلم).

والحقيقة أن العكس تمامًا هو الصحيح. إن الداروينيين هم من يمارسون العلم الركيك لأن علمهم مبني على فلسفة خاطئة. أي أن **دينهم** العلماني المتمثل في المذهب الطبيعي هو ما يدفعهم إلى تجاهل الأدلة العلمية الثابتة تجريبيًا التي تؤكِّد وجود تصميم.

فما الدروس التي يمكن أن نتعلمها من علم الداروينيين الركيك؟ للإجابة عن ذلك السؤال نتناول مزيدًا من تفاصيل المناظرة التي أشرنا إليها في الفصل الثالث بين وليم لين كريج المسيحي وبيتر آتكينز الدارويني.[١٦] تَذَكَّر أن المناظرة انتهت بوجودِ الله. ولكن عند نقطة معيَّنة طرح آتكينز حجة مفادها أن الله ليس ضروريًا لأن العلم يستطيع أن يفسِّر كل شيء.

فقد صرح آتكينز قائلاً: "لا حاجة لله. كل ما في العالم يمكن فهمه دون الاستعانة بإله. وعليك أن تقبل أنه من الممكن النظر إلى العالم من هذه الزاوية".

اعترف كريج أن هذا "ممكن بالتأكيد. لكن..." فقاطعه آتكينز متحديًا: "هل تنكر أن العلم يمكنه أن يفسر كل شيء؟"

أجاب كريج: "نعم. **مؤكد** أني أنكر أن العلم يمكنه أن يفسر كل شيء".

سأله آتكينز: "فما الذي لا يمكنه تفسيره؟"

وكريج له باع كبير في العديد من المناظرات، فكان جاهزًا بإجابة متعدِّدة الجوانب. ومن ثم قال له: "أظن أن الكثير من الأشياء لا يمكن إثباتها علميًا، ومع ذلك فإننا نمتلك من العقلانية ما يُمَكِّننا من قبولها". ثم سَرَدَ كريج خمسة أمثلة لمعتقدات عقلانية لا يمكن إثباتها بالعلم:

١- الرياضيات والمنطق (العلم لا يستطيع أن يثبتهما لأن العلم يتخذ منهما فرضيات مسبقة).
٢- الحقائق الميتافيزيقية (مثل وجود عقول أخرى غير عقلي).
٣- الأحكام الأخلاقية (لا يمكنك أن تُثْبِت بالعلم أن النازيين كانوا أشرارًا لأن الأخلاق لا تخضع للمنهج العلمي).
٤- الأحكام الجمالية (الجميل، كالخيِّر، لا يمكن إثباته علميًا)، بل
٥- العلم نفسه (الاعتقاد بأن المنهج العلمي يكتشف الحقيقة لا يمكن إثباته بالمنهج العلمي نفسه)، (سنتحدث عن المزيد في هذا الموضوع أدناه).

(بعد هذا الوابل من الأمثلة التي تدحض موقف آتكينز، لم يتمكن الحَكَم وليم ف. بَكلي الابن من إخفاء سعادته بإجابة كريج. فالتفت إلى آتكينز وقال: "اضغط على نفسك وحاول أن تبلعها!")

كان كريج محقًا. إن المنهج العلمي من البحث عن المسببات بالملاحظة والتكرار ليس إلا

وسيلة **واحدة** للعثور على الحق. ولكنه ليس الوسيلة **الوحيدة** للعثور على الحق. وكما رأينا في الفصل الأول، القوانين غير العلمية (الفلسفية) مثل قوانين المنطق تساعدنا أيضًا في العثور على الحق. والحقيقة أن المنهج العلمي يستخدم تلك القوانين!

فضلاً عن ذلك، زَعْم آتكينز أن العلم يستطيع أن يفسِّر كل شيء خاطئ نظرًا للأمثلة الخمسة المضادة التي ذكرها كريج، وهو خاطئ أيضًا لأنه يفنِّد نفسه. فكأن آتكينز يقول: "العلم هو المصدر الموضوعي الوحيد للحق". وإن اختبرنا هذا التصريح بخطة "رود رَنَر" التي ذكرناها في الفصل الأول، نرى أنه يفند نفسه، ومن ثم فهو خاطئ. فعبارة "العلم هو المصدر الوحيد للحق الموضوعي" تزعم أنها حق موضوعي، ولكنها ليست حقًا علميًا. بل العبارة فلسفية في طبيعتها، أي لا يمكن إثباتها بالعلم، ومن ثم تفند نفسها.

وقد يأتي بنا ذلك إلى أهم درس يمكننا أن نتعلمه من علم الداروينيين الركيك: **العلم مبني على الفلسفة. بل الحقيقة إن العلم عبد الفلسفة.** والفلسفة الركيكة تؤدي إلى علم ركيك، والعلم السليم يتطلب فلسفة سليمة. لماذا؟ لأن:

١- **العلم لا يمكن أن يتم دون الفلسفة.** فالافتراضات الفلسفية تُستخدم في البحث عن المسببات، ومن ثم لا يمكن أن تكون نتيجة للمسببات. فمثلاً العلماء يفترضون (بالإيمان) أن العقل والمنهج العلمي يتيحان لنا أن نفهم بدقة العالم المحيط بنا. هذا الافتراض لا يمكن إثباته بالعلم نفسه. فلا يمكنك أن تُثْبِت أدوات العلم، ألا وهي قوانين المنطق، وقانون السببية، ومبدأ النمطية، وصدق الملاحظة بإجراء تجربةٍ ما. ولكن عليك أن تفترض أن تلك الأشياء صحيحة حتى **تُجري** التجربة! إذَن العلم مبني على الفلسفة. ولكن للأسف الكثيرون من المدعوين علماء هم فلاسفة أردياء للغاية.

٢- **الافتراضات الفلسفية قادرة على إحداث تأثير شديد على الاستنتاجات العلمية.** فإن افترض أحد العلماء مسبقًا أن المسببات الطبيعية فقط هي الممكنة، من المحتمل أن الأدلة مهما بلغ قدرها لن تقنعه بأن ذكاءً خَلَقَ أول أميبا وحيدة الخلية أو أي كيان آخر ذا تصميم. فعندما **يفترض** الداروينيون **مسبقًا** أن المسببات الذكية مستحيلة، تصبح القوانين الطبيعية هي الشيء الوحيد الذي له قيمة. وبالمثل إن استبعد أحد الخَلْقيين مسبقًا المسببات الطبيعية (وإن كنا لا نعرف أيًا منهم يفعل ذلك)، فهو أيضًا يخاطر بفقدان الإجابة الصحيحة. ولكن العالِم **ذو الذهن المنفتح**

على كل من المسببات الطبيعية والذكية يمكنه أن يتبع الأدلة حيثما تقوده.

٣- **العلم في الواقع لا يقول شيئا، العلماء هم مَنْ يقولون.** إن العلماء هم دائمًا مَنْ يفسّرون البيانات. وعندما يسمح أولئك العلماء لاستحساناتهم الشخصية أو لافتراضاتهم الفلسفية غير المثْبَتة أن تملي عليهم تفسير الأدلة، يفعلون بالضبط ما يتهمون به المتدينين، أي أنهم يسمحون لأيديولوجيتهم أن تملي عليهم استنتاجاتهم. وفي هذه الحالة يجب أن نتشكك في استنتاجاتهم لأنها قد لا تكون أكثر من افتراضات فلسفية مسبقة تُعرَض على أنها حقائق علمية.

المادية تجعل العقل مستحيلاً

عندما تصل إلى جذر المشكلة، تجد أن علم الداروينيين الركيك يَنتج من الفلسفة الطبيعية أو المادية التي تمثل أساس منظورهم الفلسفي للحياة. ولكن لماذا تُعد المادية خاطئة؟ إليك خمسة أسباب تجعل المادية غير منطقية:

أولاً، كما أشرنا هناك رسالة كامنة في الحياة، يطلق عليها اصطلاحًا التعقيد المحدد. لا يمكن تفسيرها ماديًا. فهذه الرسالة لا يمكن أن تفسرها القوانين الطبيعية غير الذكية. تمامًا كما أن قوانين الحبر والورق غير الذكية لا تستطيع أن تفسر الرسالة المتضمنة في هذا الكتاب.

ثانيًا، الأفكار والنظريات البشرية لا تتكون من مواد فحسب. مؤكد أن المواد الكيميائية تشارك في عملية الفكر البشري، ولكنها لا تستطيع أن تشرح كل الأفكار البشرية. **فنظرية** المادية غير مصنوعة من جزيئات. وكذلك أفكار المرء، سواء أكانت أفكار حُبّ أو كراهية، ليست مواد كيميائية. فكم يَزِن الحب؟ وما التركيب الكيميائي للكراهية؟ إنها أسئلة عبثية لأن الأفكار والقناعات والعواطف لا تقوم بالكامل على المادة. وبما أنها لا تقوم بالكامل على المادة، إذَن المادية خاطئة.

ثالثًا، لو لم تكن الحياة سوى مواد، يمكننا أن نأخذ كل مواد الحياة، وهي نفس المواد الموجودة في التراب، ونصنع منها كائنًا حيًا. ولكننا لا نستطيع. واضح أن هناك شيئًا في الحياة أبعد من المواد. فمَنْ مِنَ الماديين يستطيع أن يفسر لماذا يكون أحد الأجسام حيًا وجسم آخر ميتًا؟ كلاهما يحتوي على نفس المواد الكيميائية. لماذا يكون جسم ما حيًا الآن وفي لحظة يموت؟ ما مزيج المواد الذي يمكنه أن يفسر الوعي؟ حتى آتكينز في مناظرته مع كريج اعترف أن تفسير الوعي مشكلة كبيرة للملحدين.

رابعًا، إن كانت المادية صحيحة، إذَن كل مَنْ مَرَّ بأي نوع من الخبرة الروحية في كل التاريخ البشري كان مخطئًا تمامًا. رغم أن هذا وارد، ولكن بالنظر إلى العدد الضخم من الخبرات الروحية، من غير المحتمل أنهم كانوا مخطئين. فمن الصعب أن نُصَدِّق أن عظماء القادة والمفكرين الروحيين في تاريخ البشرية كانوا جميعًا مخطئين تمامًا بخصوص خبرتهم الروحية، ومنهم بعض من أعظم العقول المفكرة والعلمية والناقدة. ومن أمثلة هؤلاء إبراهيم، وموسى، وإشعياء، وكپلر، ونيوتن، وپاسكال، ويسوع المسيح نفسه. **وإن كانت خبرة روحية واحدة فقط في تاريخ العالم كله صحيحة، تكون المادية خاطئة.**

أخيرًا، إن كانت المادية صحيحة، إذَن العقل نفسه مستحيل. لأنه إن لم تكن العمليات العقلية إلا تفاعلات كيميائية في المخ، إذَن ليس هناك ما يدعونا أن نصدق أن **أي شيء** صحيح (بما في ذلك نظرية المادية). فالمواد الكيميائية لا تستطيع أن تُقَيِّم ما إذا كانت النظرية صحيحة أم خاطئة. إن المواد الكيميائية لا تفكر، ولكنها تتفاعل.

وهو أمر يثير السخرية الشديدة لأن الداروينيين الذين يزعمون أنهم يناصرون الحق والعقل، جعلوا الحق والعقل مستحيلين بنظريتهم في المادية. لذا حتى عندما يكون الداروينيون على صواب بخصوص شيء ما، منظورهم الفلسفي لا يقدِّم لنا أي سبب يجعلنا نصدّقهم، لأن العقل نفسه مستحيل في عالم لا تحكمه إلا القوى الكيميائية والفيزيائية.

ولا يكون العقل فقط مستحيلاً في هذا العالم الدارويني، ولكن تأكيد الداروينيين على الاعتماد على العقل وحده يصبح بلا مبرر. لماذا؟ لأن العقل يتطلب فعليًا **الإيمان**. كما يشير ج. بودچيشفسكي *J.Budziszewski* قائلاً: "شعار "العقل وحده" كلام فارغ على أي حال، لأن العقل نفسه يعتبر الإيمان فرضية مسبقة. لماذا؟ لأن الدفاع عن العقل **بالعقل** هو قياس دائري*، ومن ثم فهو عديم القيمة. فالشيء الوحيد الذي يضمن لنا عمل العقل البشري أن الله صانعه".[١٧]

ولنبسِّط فكرة بودچيشفسكي بالنظر إلى مصدر العقل. إن قدرتنا على التفكير لا تنبع إلا من أحد مصدرين: إما إن قدرتنا على التفكير نشأت من ذكاء سابق الوجود، أم إنها نشأت من

---

* إحدى المغالطات المنطقية المعروفة ويطلق عليها أيضًا المصادرة على المطلوب وهي: "خطأ منطقي ينشأ من إيراد البرهان أو البينة، بحيث تنطوي المقدّمات (الفرضيات) على النتيجة التي يراد التوصل إليها". (الدكتور كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي: عربي- إنجليزي، ط ١ (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٠، ٥٦٥). (المترجمة)

المادة عديمة العقل. ويعتقد الملحدون/الداروينيون/الماديون **بالإيمان** أن عقولنا نشأت من المادة عديمة العقل بلا تدخل ذكي. ونقول إنه اعتقاد يقوم على الإيمان؛ لأنه يتناقض مع كل الملاحظة العلمية التي تُبين أن الأثر يستحيل أن يكون أكبر من مسببه. ففاقد الشيء لا يعطيه، ولكن الماديون يعتقدون أن المادة الميتة غير الذكية أنتجت الحياة الذكية. وهو ما يشبه الاعتقاد بأن مكتبة الكونجرس نتجت من انفجار في مطبعة!

ولكن الأرجح أن نعتقد بأن العقل البشري مصنوع على صورة العقل الأعظم؛ الله. أي أن عقولنا تستطيع أن تفهم الحق وتستطيع أن تفكر في الواقع لأن بانيها هو مهندس الحق والواقع والتفكير نفسه. فكما تعجز المادية عن تفسير الحياة، تعجز كذلك عن تفسير العقل. والمادية ببساطة ليست معقولة. **ومن ثم، لسنا نملك الإيمان الكافي لاعتناق المادية!**

الملحد مقابل مستشار في التفكير النقدي

إن اعتقاد الداروينيين نفسه بأن عندهم أسبابًا لإلحادهم يفترض فعليًا وجود الله افتراضًا مسبقًا. كيف ذلك؟ لأن **العقول** تتطلب أن يكون هذا الكون **معقولاً** يفترض مسبقًا وجود نظام، ومنطق، وتصميم، وحق. ولكن النظام، والمنطق، والتصميم، والحق لا يمكنها أن توجد وتُعرَف إلا إذا كان لها مصدر ومعيار موضوعيان ثابتان. فحتى يحكم الداروينيون بأن شيئًا ما **ليس** معقولاً، لا بد أن يعرّفوا ما هو **المعقول**. وحتى يحكم الداروينيون أن شيئًا ما **ليس** مصمَّمًا، عليهم أن يعرفوا ما هو **المصمَّم**. وحتى يحكم الداروينيون أن شيئًا **ليس** حقًا، عليهم أن يعرفوا ما هو **الحق**، وهَلُمَّ جرًّا. ولكن الداروينية مثلها مثل كل المنظورات الفلسفية التي لا تؤمن بالله الخالق، تستعير من منظور الإيمان بالله الخالق حتى تجعل منظورها مفهومًا.

وهذا الميل اللاواعي للاستعارة من منظور الإيمان بالله الخالق انكشف بشكل جميل على يد الكاتب بيت بوتشينو[١٨] *Pete Bocchino* أثناء اجتماع تابع للإدارة التعليمية بولاية چورچيا للمقررات الدراسية. وبيت، الذي كان يعمل آنذاك في هيئة مسيحية معروفة عالميًا، اختير للانضمام إلى لجنة فرعية لمراجعة وتطوير مقررات المدارس الحكومية للصف السادس إلى الصف الثاني عشر في مواد مثل الحكومة الأمريكية، والقانون، والأخلاق، وتدريب الشخصية.

وأول سلسلة من الاجتماعات، التي دامت أسبوعًا كاملاً، عُقِدَت في غرفة كبيرة حيث بدأ الاجتماع بتقديم أعضاء اللجنة الفرعية لأنفسهم. ولكن بيت وصل متأخرًا بسبب ازدحام الطرق،

وفاته التقديم، فدخل متجهًا إلى مقعده. وعندما لاحظ رئيس اللجنة الفرعية بيت يدخل الغرفة، أخبره أنهم انتهوا من التعريف بأنفسهم وطلب منه أن يفعل الشيء نفسه بذكر اسمه وتخصصه الأكاديمي ومهنته. فذكر بيت اسمه وقال إنه يحمل درجة علمية في الهندسة الميكانيكية. وفكَّر بيت في نفسه قائلاً: ''مؤكد لا يجب أن أخبرهم أني أعمل في هيئة مسيحية دولية''. فقدم مهنته بشكل غامض قائلاً: ''أعمل حاليًا مستشارًا في التفكير النقدي في منظمة غير هادفة للربح''.

فقال الرئيس: ''تعمل ماذا؟!''

وكرر بيت: ''مستشارًا في التفكير النقدي''.

واستطرد الرئيس: ''ماذا يفعل مستشار التفكير النقدي تحديدًا؟''

فأجاب بيت: ''أرى أننا متأخرون ولستُ أود أن أُضَيِّع وقت اللجنة. ولكنك ستكتشف أثناء الأسبوع''.

وعلى مدار الأسبوع ناقشَتْ اللجنة موضوعات مختلفة مثل التنوع وقبول الاختلاف وحقوق الإنسان وغيرها من القضايا الخلافية. وعند لحظة معينة عندما كانوا يناقشون المعايير النفسية أشار بيت إلى أن المعايير لا تتضمن تعريفًا للشخصية (كون الإنسان شخص *personhood*). وقد كان ذلك ثغرة في منهج علم النفس، ومن ثم اقترح بيت التعريف التالي بناءً على جزء في كتاب مورتيمر آدلر *Mortimer Adler* ''الجميع مالكون، ولا معدمين'' [١٩] *Haves Without Have-Nots*:

المادة: علم النفس / الموضوع: التفرّد

المعيار: يُقَيِّم تفرد الطبيعة البشرية ومفهوم الشخصية.

١- العقل / التفكير المفاهيمي *conceptual thought*

٢- حرية الاختيار / الإرادة الحرة

٣- المسؤولية الأخلاقية (المعايير)

٤- المساءلة الأخلاقية (الالتزامات الأخلاقية)

٥- الحقوق الراسخة *inalienable rights* للشخصية

وما إن طُرح هذا المعيار على الطاولة، حتى كانت أخصائية في التعليم جلست مقابل بيت وقد أوضحت قبلاً أنها ملحدة، على وشك أن تتحدى هذا المعيار. ولكنها قبل أن تفعل ذلك

أوقفها بيت وقال للمجموعة:

إن كان أحد يختلف على هذا المعيار، فهذا معناه أنه يفعل ما يلي:

١- ذلك الشخص يجذبني إلى عملية تفكير مفاهيمي (كما في رقم ١ أعلاه).

٢- ذلك الشخص يمارس "حريته" في أن يفعل ذلك (كما في رقم ٢ أعلاه).

٣- ذلك الشخص لا بد وأنه يعتقد أن علينا مسؤولية أخلاقية في تعليم ما هو صحيح/حق (كما في رقم ٣ أعلاه).

٤- ذلك الشخص يحاول أن يُحَمِّلني مسئولية أخلاقية بأن أُعَلِّم الحق (كما في رقم ٤ أعلاه).

٥- ذلك الشخص يتمتع بحق الاختلاف مع موقفي (كما في رقم ٥ أعلاه).

لذا إن كان أحد يختلف على هذه المعايير، ذلك الشخص في الواقع يؤكِّد صحة كل معيار منها.

وهنا خَيَّم الصمت على المجموعة برهة. ثم تحدث الرئيس قائلاً: "الآن عرفنا ما يفعله مستشار التفكير النقدي!" وبهذا أخبر أمين اللجنة أن يُدرج هذا المعيار في التوصيات.

إذَن بالقليل من التفكير النقدي، نرى أن المنظور الفلسفي الدارويني للحياة ينهار، ليس فقط لانعدام الأدلة، بل أيضًا لأن الداروينيين لا بد أن يستعيروا من منظور الإيمان بالله الخالق حتى يبنوا قضيتهم. فالعقل، والإرادة الحرة، والأخلاق الموضوعية، وحقوق الإنسان، مثلها مثل العقل، والمنطق، والتصميم، والحق؛ لا وجود لها إلا إذا كان الله موجودًا. إلا أن الداروينيين يفترضون بعض هذه الحقائق، أو كلها، عندما يدافعون عن منظورهم الإلحادي للحياة. ولكن هيهات أن يجمعوا بين النقيضين.

الداروينيون يستخدمون سطح علبة خطأ

ذكرنا في المقدمة أن المنظور الذي نرى به الحياة يشبه سطح علبة يتيح لنا أن نضع قطع لغز الحياة الكثيرة في صورة مكتملة متسقة. فإن كان معك سطح العلبة الصحيح، عندئذٍ يكون للقطع معنى في ضوء الصورة الكاملة.

ولكن ماذا لو أنك ظلَلتَ تكتشف قطعًا لا تتوافق مع سطح العلبة الذي عندك؟ الحس السليم يخبرك أن سطح العلبة الذي معك خطأ، إذَن عليك أن تبحث عن سطح العلبة الصحيح. إلا أن الداروينيين للأسف لا يفعلون ذلك. فالأدلة تبيّن بجلاء أن سطح العلبة الذي

معهم خطأ، ولكنهم يرفضون حتى أن يفكروا أن هذا الاحتمال وارد (ناهيك عن البحث عن سطح العلبة الصحيح). إن سطح علبتهم المفهوم مسبقًا لديهم يُظهر صورة خالية من المسببات الذكية. ولكنهم، باعترافهم شخصيًا، اكتشفوا الكثير من قطع اللغز التي يبدو عليها بوضوح مظهر التصميم الذكي. أي أنهم يحاولون أن يُوَفِّقوا قطعًا من الإيمان بالله الخالق مع لغزهم الإلحادي/المادي. فكيف يفعلون ذلك؟

بدلاً من أن يقرّر الداروينيون التخلص من سطح العلبة الخاطئ والبحث عن الصحيح، يُصِرّون ببساطة أن القطع ليست في حقيقتها كما تبدو في الظاهر. وهم يحاولون أن يوفقوا كل قطعة، بدءًا من الكون المصمَّم تصميمًا دقيقًا وانتهاءً بالخلية الوحيدة الغنية بالمعلومات، على لغز لا يحوي تلك القطع. وبهذا الفعل يتجاهلون الملاحظة التي تمثل جوهر العلم التجريبي الذي يدَّعون تأييده. فالداروينيون، باعترافهم، يدينون فلسفيًا بالولاء لسطح علبتهم بصرف النظر عن شكل قطع اللغز.

فكيف تعثر على سطح علبة لغز الحياة الصحيح؟ التوصل إلى سطح العلبة الصحيح ليس مسألة استحسان (أنت تحب الإلحاد، أنا أحب الإيمان بالله الخالق الحافظ). لا، ولكنه مسألةُ حقيقة موضوعية. فقد اكتشفنا في الفصلين الثالث والرابع أن هذا الكون يؤكّد الإيمان بالله الخالقٍ وفقًا لمبادئ المنطق الأولى الواضحة في ذاتها ومبادئ البحث العلمي الصحيحة. فإن كان الكون نتيجة خلق إلهي، عندئذ تكون الفلسفة الطبيعية خاطئة. وإن كانت الفلسفة الطبيعية خاطئة، إذَن من المحتمل أن الداروينيين لا يفسرون الأدلة تفسيرًا صحيحًا.

إن إيجاد سطح العلبة الصحيح مهم لأنه يزوّدنا بالإطار الصحيح لتفسير الأدلة. والإطار هو البيئة الكبرى التي تظهر فيها الأدلة. فإن كان الإطار الذي تحتكم إليه خاطئًا، قد تصل إلى استنتاجات خاطئة بخصوص الأدلة التي تلاحظها. فمثلاً، إن قلتُ لك إني رأيت توًا رجلاً يشق بطن امرأة بسكين، من المحتمل أن تفترض أن الرجل ارتكب فعلاً خاطئًا. ولكن لاحظ ما يحدث عندما أكشف لك الإطار، أو البيئة التي حدثت فيها هذه الواقعة: كنا في حجرة ولادة في أحد المستشفيات، والرجل طبيب، وقلب الجنين توقف حالاً عن العمل. ما رأيك في الرجل الآن؟ حالما فهمتَ البيئة، غيَّرتَ نظرتك بالكامل للأدلة: فأنت الآن تعتبر الرجل بطلاً لا وحشًا لأنه كان فعليًا يحاول أن ينقذ حياة الطفل.

وعلى القياس نفسه، يجب تفسير الأدلة البيولوجية في ضوء البيئة الكبرى المعروفة لنا. وكما اكتشفنا، البيئة الكبرى المعروفة تبين أن هذا الكون نتيجة خلق إلهي. الحقيقة أن هناك كائنًا

ذكيًا قويًا غير مادي أبعد من العالم الطبيعي خلق الكون وصممه بدقة تسمح بالحياة على الأرض. أي أننا نعرف الآن بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن المصمِّم جزء من سطح العلبة لأن الدليل يبين أنه صمم هذا الكون العجيب بما فيه من دقة وتعقيد مذهلَين.

وفي ضوء حقيقة وجود هذا المصمم، عندما نرى أنظمة بيولوجية يعترف حتى الداروينيين أمثال ريتشارد دوكينز بأنها "تبدو ظاهريًا مصمَّمة لغرض"، لعله من الواجب علينا أن نستخلص **أنها فعليًا مصمَّمة لغرض.** وكما يوضح وليم دمبسكي *William Dembski* "إن كان مخلوق شكله كلب، ورائحته كلب، وينبح نباح الكلب، ويشعر كالكلب، ويلهث كالكلب، تكون البينة على من يدعي أن المخلوق ليس كلبًا".[٢٠] فبما أن الكون مخلوق ومصمَّم، إذَن يجب أن نتوقع أن الحياة أيضًا مخلوقة ومصمَّمة. (على أقل تقدير **من الممكن** أن تكون الحياة قد خُلقَت بواسطة ذكاء. ومن الواضح أن استبعاد تلك الإمكانية مسبقًا فِعل غير مشروع).

إذَن استنتاج أن الحياة نتاج مصمِّم ذكي استنتاج له معنى لأنه ليس دليلاً وحيدًا. ولكنه يتوافق مع غيره من نتائج البحث العلمي. أو استكمالاً لتشبيه لغز الصور المقطَّعة الذي بدأنا به، يمثل هذا الدليل قطعة تتوافق تمامًا مع غيرها من قطع اللغز.

الملخص والخلاصة

بما أننا تناولنا قدرًا كبيرًا من الموضوعات في هذا الفصل، سنوجزها في بضع نقاط قصيرة:

١- الحياة لا تتكون من مواد كيميائية فحسب. ولو كان ذلك صحيحًا، لأمكن إنتاج الحياة من خلط كيماوياتها في أنبوبة اختبار. ولكن من الواضح أن الحياة تتكون مما هو أكثر من كيماويات، فهي تشتمل أيضًا على تعقيد محدد (لا يأتي إلا من عقل). إذَن المادية خاطئة. (وهناك العديد من الأسباب الإضافية التي تجعل المادية خاطئة، ومنها أن العقل نفسه يكون مستحيلاً في كون مادي).

٢- لسنا نعرف قوانين طبيعية تخلق تعقيدًا محدّدًا (معلومات). الذكاء فقط هو ما لوحظ يخلق تعقيدًا محددًا (مثل "أخرج القمامة—ماما"، "اشرب كوكاكولا"، جبل رَشمور... إلخ).

٣- أبسط حياة تتكون من تعقيد محدد مذهل يعادل ١٠٠٠ مجموعة كاملة من "موسوعة

بريتانيكا". وقد قال أينشتاين: "الله لا يلعب لعبة زهر بالكون"[٢١] وقد كان محقـًا، كما قال فيليـب جولد *Phillip Gold* "الله يلعب كلمات متقاطعة!"[٢٢]

٤- العلم بَحْثٌ عن المسبِّبات يقوم على الفلسفة. وليس هناك إلا نوعان من المسببات: الذكية والطبيعية، إلا أن الداروينيين يستبعدون المسببات الذكية لاعتبارات فلسفية حتى قبل أن يفحصوا الدليل. ولذلك عندما ينظر الداروينيون إلى تلك الموسوعات الألف يؤكدون أنها ترجع لمسبب طبيعي، رغم ما يلاحظونه ويدركونه فيها من تصميم واضح. ولكن إن كانت رسالة "أخرج القمامة–ماما" تتطلب مسبّبًا ذكيًا، إذَن الألف موسوعة تتطلب كذلك مسببًا ذكيًا.

٥- التولد التلقائي للحياة الذي تستلزمه الداروينية لتشغيل نظريتها لم يَثْبُت بالملاحظة أبدًا. ولكنهم يعتقدونه. وفي ضوء الأدلة الكونية والغائية الدامغة على أن هذا الكون مخلوق (وللكثير من الأسباب الأخرى)، يُعَدّ الاعتقاد الدارويني في الفلسفة الطبيعية (أو المادية) من بنود الإيمان أيضًا. ومن ثم الداروينية لا تزيد عن كونها دينـًا علمانيًا يتنكر في ثياب العلم.

وقد يقول المتشكك: "مهلاً. أنت تتحدث بسرعة كبيرة. ما الذي يجعلك تظن أن التصميم الذكي علمي؟ أليس التصميم الذكي مجرد شكل آخر من أشكال مغالطة "إله الفجوات" التي تسرع دائمًا إلى إقحامِ الله في الصورة لحين أن تجد مسببًا طبيعيًا؟ فما المانع أن نستمر في البحث عن مسبب طبيعي إلى أن نجده؟ إن التصميم الذكي يبدو أنه هو نفسه نظرية الخلق في ستة أيام التي تتخذ من الكتاب المقدس سلاحًا لها، وقد تم تهريبها إلى مجال المناقشة العام ولكن باسم جديد. وماذا عن الأدلة المؤيدة لتطور أشكال جديدة من الحياة التي لم تذكراها حتى الآن؟"

سيأتي الرد على هذه المزاعم الداروينية وغيرها في الفصل التالي. ولن نكتفي بتناول تلك المزاعم، ولكننا سنقدم كذلك مزيدًا من قطع اللغز التي تؤكد أن مؤيدي التصميم الذكي هم مَنْ يمتلكون سطح العلبة الصحيح، لا الداروينيين.



من الخلية إلى الإنسان مرورًا بالحيوان؟

"في المدرسة الثانوية علّموني أن الضفدع الذي يتحول إلى أمير قصة خيالية.
وفي الجامعة علّموني أن الضفدع الذي يتحول إلى أمير قصة حقيقية!"
"رون كارلسون" *Ron Carlson*

في فيلم "اتصال" *Contact*، تلعب جودي فوستر *Jodie Foster* دور عالِمة ضمن فريق برنامج "البحث عن ذكاء من خارج الأرض" ("ستي") *Search for Extra-Terrestrial Intelligence (SETI)*. وبرنامج "ستي"، الذي هو عبارة عن منظمة حقيقية، يضم علماء يمكنهم مسح الفضاء للعثور على علامات صريحة تبين وجود حياة ذكية. فممَّ تتألف العلامة الصريحة على وجود حياة ذكية؟ من رسالة. هذا صحيح. شيء من قبيل "أَخْرِج القمامة—ماما".

وفي الفيلم تشتعل جودي حماسةً عندما يلتقط الهوائي موجات راديو يبدو أنها تتسم بنمط ذكي، وتقول مندهشة: "واحد، اثنان، ثلاثة، خمسة، سبعة، ١١... أولية!" (تقصد أعدادًا أولية). "مستحيل أن تكون ظواهر طبيعية!"

فعلاً، موجات الراديو العشوائية يمكن إنتاجها طبيعيًا، ولكن الموجات التي تحوي رسالة دائمًا ما تأتي من مصدر ذكي. والأعداد الأولية، من واحد إلى ١٠١ بالترتيب، تشكل رسالة لا تصدر إلا من كائن ذكي.

وچودي الآن واثقة أنها عثرت على شيء من خارج الأرض، فتعلن عن اكتشافها. ومن ثم يتجه مسؤولون من الحكومة والجيش إلى مكان عملها. ويسألها أحدهم بنبرة ساخرة: "لو كان هذا مصدرًا ذكيًا، فلماذا لا يتحدث الإنجليزية؟"

فتجيب چودي بحزم: "لأن الرياضيات هي اللغة العالمية الوحيدة!"

وهي بالطبع على صواب. ففي الحقيقة الأبجديات، وبالتالي اللغة نفسها، يمكن اختزالها نهائيًا إلى أعداد. ولذلك الأبجدية الإنجليزية متماثلة رياضيًا مع الأبجدية الوراثية للـ*DNA*، وتشبيه معلومات الخلية بالموسوعات يمثل علاقةٌ تامةُ التطابقِ وليس مشابهة جزئية.

ورغم أن چودي وزملاءها يكتشفون فيما بعد رسالة أكثر تعقيدًا متضمَّنة في موجات الراديو، فهم على يقين تام أن الأعداد الأولية وحدها تبرهن على أن الرسالة صادرة من حياة ذكية. ولكن ما سِرّ يقينهم؟ السر هو أن الملاحظات المتكررة تخبرنا أن الكائنات الذكية فقط هي مَنْ تخلُق رسائل، وأن القوانين الطبيعية لا تفعل ذلك أبدًا. فعندما نرى سلسلة من الأعداد الأولية، ندرك أنها تتطلب مسببًا ذكيًا تمامًا مثل رسائل: "أخْرِج القمامة—ماما"، "ماري تحب سكوت".

ومن المضحك أن فيلم "اتصال" مأخوذ عن رواية للراحل كارل ساجان *Carl Sagan*، وهو تَطَوُّري متشدد آمن بالتولد التلقائي ولعب دورًا فعالاً في إطلاق برنامج "ستي" في الواقع. والمضحك في الأمر أن ساجان كان مقتنعًا تمامًا أن سلسلة بسيطة من الأعداد الأولية تبرهن على وجود كائن ذكي، ولكن ما يعادل ١٠٠٠ موسوعة في الحياة الأولى وحيدة الخلية لا يبرهن على ذلك. **إن عدم الاعتقاد في الله يتطلب قدرًا كبيرًا من الإيمان. أكبر مما نملك!**

علاوة على ذلك، ساجان هو من كتب عن المخ البشري:

> المحتوى المعلوماتي للمخ البشري مُعبرًا عنه بوحدات البِت* غالبًا ما يعادل مجموع عدد الاتصالات فيما بين العصبونات (الخلايا العصبية أو النيورونات *neurons*)، حوالي مائة تريليون بِت. ولو كُتِبَت هذه المعلومات بالإنجليزية لملأت حوالي عشرين مليون مجلدًا، وهو ما يعادل ما تحويه أكبر مكتبات العالم. إن ما يعادل عشرين مليون كتابًا يسكن داخل رأس كلٍّ منا. فالمخ هو مكان كبير جدًا في مساحة صغيرة جدًا. ... والكيمياء العصبية للمخ مشغولة على نحو يثير الاندهاش. إنها عبارة عن مجموعة دوائر كهربية لماكينة تفوق في روعتها كل ما هو من صُنْع البشر.[1]

* *bit* اختصار *binary digit* وتستخدم كوحدة قياس للمعلومات الرقمية. (المترجمة)

من المحتمل أن تقدير ساجان لمحتوى المخ المعلوماتي بعشرين مليون كتابًا هو تقدير **أقل** من الواقع. ومع ذلك حتى هذا الرقم مذهل. وحتى تُكوِّن عنه تصورًا، تخيل نفسك في الصالة الرئيسية لمُجَمَّع ماديسون سكوير جاردن *Madison Square Garden* قبل بدء مباراة كرة سلة بعدة ساعات. وليس هناك أحد غيرك في الساحة، وأنت تنظر إلى ما يقرب من ٢٠ ألف مقعد فارغ تحيط بك جميعًا. فكم عدد الكتب التي يجب أن تضعها فوق بعضها البعض على **كل مقعد** بحيث تضع عشرين مليون كتاب في تلك الساحة؟

يجب أن تضع ١٠٠٠ كتاب فوق بعضها **على كل مقعد على حدة** حتى تستطيع أن تُدخل عشرين مليون كتاب في ماديسون سكوير جاردن. فكِّر فيها. فارتفاع السقف لا يكفي هذا العدد من الكتب. لذا، ستضطر لتفجير السقف حتى تستمر في تكويم الكتب فوق بعضها! هذه هي كمية المعلومات المحددة والمعقدة الموجودة فيما بين أذنيك. وبالحقيقة أصاب ساجان في قوله إن المخ مكان كبير جدًا في مساحة صغيرة جدًا، وهو شيء أكثر تعقيدًا بما لا يقاس من كل ما هو من صُنع البشر.

فلنراجع الحقائق: أدرك ساجان أن المخ البشري يضم محتوى من المعلومات يبلغ عشرين مليون كتاب. وقد أدرك أيضًا أن هذا المحتوى أكثر تحديدًا وتعقيدًا بما لا يقاس من سلسلة أعداد أولية. إذَن لماذا اعتقد أن الرسالة الأبسط تتطلب كائنًا ذكيًا ولكن رسالة طولها عشرين مليون كتاب لا تتطلب ذلك؟ ويمكننا أيضًا أن نسأل ساجان وإخوانه الداروينيين سؤالاً آخر بنفس الأهمية تقريبًا: إن كان البشر **الأذكياء** لا يستطيعون أن يصنعوا أي شيء يقترب من المخ البشري، فلماذا نتوقع من القوانين الطبيعية **غير الذكية** أن تفعل ذلك؟

عادةً ما تشتمل إجابة الداروينيين على فكرة "الانتخاب الطبيعي". فهل هذا يكفي لتفسير الأشكال الجديدة من الحياة؟ فمهما كان، المسافة بين خلية واحدة والمخ البشري مسافة طويلة.

ماذا عن الأشكال الجديدة من الحياة؟

قبل أن نناقش أصل الأشكال الجديدة من الحياة، يجب أن نراجع مشكلة أصل أول حياة. مؤكد أن المسافة طويلة بين خلية واحدة والمخ البشري، ولكن المسافة بين المواد الكيميائية غير الحية وأول خلية قد تكون أطول بكثير. وهذه هي أصعب مشكلة تواجه الداروينيين. فمن أين أتت أول حياة؟

هل ترى ضخامة هذه المشكلة التي تواجه الداروينيين؟ فإن لم يكن عند الداروينيين تفسير لأول حياة، فما الفائدة من الحديث عن أشكال جديدة من الحياة؟ فعملية الماكرو تطور، إن كانت ممكنة أصلاً، لا يمكنها حتى أن تبدأ إلا إذا كانت هناك حياة سابقة الوجود.

ولكن كما رأينا في الفصل السابق، هذه المشكلة لا تثني الداروينيين. فهم يسيرون عكس كل الأدلة التجريبية والجنائية، ويختلقون قصة "بلا دليل" عن التولد التلقائي أو "البـانسـپرميا" تعطيهم، بشكل سحري، الحياة الأولى التي يحتاجونها. وهذا ليس علمًا، بل نكتة. وهو فعليًا يُذَكِّرنا بنكتة. فقد اعتاد ستيـڤ مارتن *Steve Martin* أن يقول: "أعْرِف كيف يمكنك أن تصبح مليونيرًا دون أن تدفع ضرائب أبدًا! أولاً، احصل على مليون دولار، والآن...".

بل إن موقف الداروينيين ينطوي على إشكالية أكبر عندما تأخذ في اعتبارك أنهم لا يملكون حتى تفسيرًا لمصدر المواد الكيميائية غير الحية، فما بالك أن يجدوا تفسيرًا للحياة. وكما رأينا في الفصل الثالث، من أعمق الأسئلة التي يمكننا أن نطرحها: "إن لم يكنِ الله موجودًا، فلماذا يوجد شيء بدلاً من العدم؟" وقد رأينا أن الملحدين لا يملكون إجابة معقولة على هذا السؤال. فاقتراحهم لبعض الاحتماليات الممكنة ليس كافيًا، ولكن عليهم أن يقدِّموا دلائل إن أرادوا أن يكونوا علميين. إلا أنه من الواضح أنهم لا يعلمون من أين أتى الكون. وسطح العلبة (المنظور الفلسفي للحياة) يجب أن يتمكن من تقديم تفسير معقول لكل البيانات. فإن لم يتمكن من الإجابة عن الأسئلة الأساسية المختصة بأصل العالم أو أصل الحياة، فهو لا يصلح أن يكون سطح علبة. وعندئذٍ يجب البحث عن بديل.

ورغم أننا نرى أن سطح العلبة الدارويني معيب في أساسه، يجب أن ننظر في بضعة مزاعم يطلقها الداروينيون بخصوص أصل الأشكال الجديدة من الحياة. ونظريتهم هي الماكرو تطور.

الميكرو تطور مقابل الماكرو تطور

لعلك تتذكر الماكرو تطور: من الخلية إلى الإنسان مرورًا بالحيوان. وهو يتلخَّص في الاعتقاد بأن كل أشكال الحياة انحدرت من سَلَف مشترك، هو الكائن الأول وحيد الخلية، وكل هذا حدث بعمليات طبيعية دون أي تدخل ذكي. فالله لا يدَّ له في هذا الموضوع. ولكنها عملية عمياء تمامًا.

ويقول الداروينيون إن هذا حدث بالانتخاب الطبيعي. ولكن مصطلح "الانتخاب الطبيعي"

تسمية خاطئة. فبما أن عملية التطور تخلو من الذكاء بطبيعة الحال، فهي لا تنطوي على أي "انتخاب" على الإطلاق. إنها عملية عمياء. ولكن مصطلح "الانتخاب الطبيعي" يعني ببساطة أن أصلح الكائنات هي التي تبقى على قيد الحياة. ما الجديد الذي أتت به هذه الفكرة؟ هذا صحيح بطبيعة الحال، فالأصلح هو الذي يبقى على قيد الحياة (وهذا ما نسميه تكرارًا مخلاً؛ حجة دائرية لا تُثبت أي شيء). فمنطقيًا، هذه الكائنات مجهَّزة جيدًا من الناحية الوراثية أو البنيوية للتعامل مع الظروف البيئية المتغيرة (ولذلك تبقى على قيد الحياة).

ومن أمثلة "الانتخاب الطبيعي" ما يحدث للبكتيريا التي تهاجمها المضادات الحيوية. عندما تنجو البكتيريا من إحدى هجمات المضادات الحيوية وتتكاثر، هذه المجموعة الناجية من البكتيريا قد تكون مقاوِمة لذلك المضاد الحيوي. والبكتيريا الناجية مقاوِمة لذلك المضاد الحيوي لأن البكتيريا الأم كانت تمتلك القدرة الوراثية على المقاومة، أو طفرة بيوكيميائية نادرة ساعدتها بشكل ما على البقاء (نقول "نادرة" لأن الطفراتِ ضارة في كل الأحوال تقريبًا). وبما أن البكتيريا الضعيفة تموت، فالبكتيريا الناجية تتكاثر وتسود.

ويقول الداروينيون عن البكتيريا الناجية إنها تطورت. فبما أن البكتيريا الناجية تكيَّفت على البيئة، فهي تقدِّم لنا مثالاً للتطور. موافقون، ولكن أي نوع من التطور؟ الإجابة التي سنقدِّمها حرجة جدًا. فالحقيقة أنه بصرف النظر عن الافتراضات الفلسفية المسبقة التي رفعنا عنها الستار، نجد أن تعريف "التطور" قد يمثل أكثر الأفكار إرباكًا في مجادلة الخلق والتطور. وهنا تبدأ الأخطاء والمزاعم الداروينية الزائفة في التكاثر مثل البكتيريا لو لم يوقفها مَن يؤمنون بأهمية الملاحظة للعلم. وإليك ما تخبرنا به الملاحظة: **البكتيريا الناجية تظل دائمًا بكتيريا.** فهي لا تتطور إلى كائن من نوع آخر، وإلا أصبح هذا ماكرو تطور. ولكن الملاحظة لم تُثْبِت أبدًا أن الانتخاب الطبيعي خلق أشكالاً جديدة من الحياة.

ومع ذلك فالماكرو تطور هو بالضبط ما يزعمه الداروينيون من البيانات المتاحة. فهم يقولون إن هذه التغيرات **الدقيقة** *micro* القابلة للملاحظة يمكن تعميمها لإثبات حدوث الماكرو تطور غير القابل للملاحظة. فهم لا يميزون بين **الميكرو** تطور *microevolution* **والماكرو** تطور، ومن ثم يستخدمون أدلة الميكرو لإثبات الماكرو. وإذ يتجاهل الداروينيون هذا الفرق الحيوي، يمكنهم أن يخدعوا العامة للاعتقاد بأن أي تغير قابل للملاحظة في أي كائن حي يبرهن على أن كل الحياة تطورت من الكائن الأول وحيد الخلية.

ولذلك من الضروري أن نميز جيدًا بين الأمور وأن نكشف كل الافتراضات الخفية عند

مناقشة الجدل بين الخلق والتطور. لذا إن سألك أحد: "هل تؤمن بالتطور؟" عليك أن تسأله: "ماذا تقصد بالتطور؟ هل تقصد الميكرو أم الماكرو تطور؟" الميكرو تطور ثَبَتَ بالملاحظة، ولكن لا يمكن استخدامه دليلاً على الماكرو تطور الذي لم يَثْبُت بالملاحظة أبدًا.

والداروينيون خبراء في تعريف مصطلح "التطور" تعريفًا عامًا يسمح باعتبار الأدلة في مجالٍ ما أدلة في مجال آخر. ولكن من سوء حظهم أن العامة بدؤوا يدركون هذه الخطة. ويرجع معظمُ الفضل في ذلك للأعمال الشهيرة لفيليب چونسون أستاذ القانون في بركلي *Berkeley*. فقد فضح چونسون أولاً هذا النوع من خفة اليد الداروينية بكتابه غير المسبوق "داروين أمام المحكمة" *Darwin on Trial*. وهو يشير في هذا الكتاب إلى أنه: "ما من "برهان" واحد [على الانتخاب الطبيعي] يقدِّم أي سبب مقنع للاعتقاد بأن الانتخاب الطبيعي قادر على إنتاج أنواع بيولوجية جديدة، أو أعضاء جديدة، أو غيرها من التغيرات الكبرى، أو حتى التغيرات الصغرى الدائمة".[٢] ويتفق معه في ذلك عالِم الأحياء چوناثان ولز *Johnathan Wells* عندما يكتب قائلاً: "الطفرات البيوكيميائية لا تستطيع أن تفسر التغيرات واسعة النطاق التي تحدث في الكائنات الحية التي نراها في تاريخ الحياة".[٣]

فلماذا لا يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يقوم بهذه الوظيفة؟ إليك خمسة أسباب تمنعه من ذلك:

١- **الحدود الوراثية** ***Genetic Limits***: يقول الداروينيون إن الميكرو تطور الذي يتم داخل شكل واحد من أشكال الحياة يُثْبِت حدوث الماكرو تطور. فإن كانت هذه التغيرات الصغيرة يمكن أن تحدث على مدار فترة قصيرة من الزمن، تَخيَّل ما يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يفعله على مدار فترة طويلة من الزمن.

ولسوء حظ الداروينيين، يبدو أن الحدود الوراثية جزء أصيل في بنية الأشكال الأساسية للحياة. فمثلاً، المتخصصون في تربية الكلاب يصطدمون دائمًا بالحدود الوراثية عندما يستخدمون ذكاءهم لتخليق سلالات جديدة من الكلاب. فقد تتباين الكلاب في الحجم من التشيواوا إلى الكلب الدنماركي الكبير، ولكن بالرغم مما يقوم به المربون الأذكياء من محاولات مستميتة، تظل الكلاب دائمًا كلابًا. وبالمثل، رغم أفضل ما يبذله العلماء الأذكياء من جهود للتحكم في ذبابة الفاكهة، فتجاربهم لم تسفر مطلقًا عن شيء سوى المزيد من ذباب الفاكهة (وعادةً ما تكون معوَّقة أيضًا).[٤] وهو أمر ذو أهمية خاصة لأن حياة ذبابة الفاكهة القصيرة تتيح للعلماء أن يختبروا سنوات كثيرة من التنوع الوراثي في فترة زمنية قصيرة.



الشكل ٦-١

والأهم من ذلك كله أن مقارنة الانتخاب الطبيعي بالانتخاب الصناعي الذي يقوم به المتخصصون في تربية الحيوانات مقارنة لا تصلح إطلاقًا، كما يتبين من الجدول ٦-١. والفرق الأكبر هو أن الانتخاب الصناعي يتم توجيهه بالذكاء، وهو ما لا ينطبق على الانتخاب الطبيعي.

الفروق الجوهرية:	الانتخاب الصناعي	الانتخاب الطبيعي
الهدف	الهدف (الغاية) معروف	ليس هناك هدف (غاية) معروف
العملية	عملية موجَّهة بالذكاء	عملية عمياء
الاختيارات	اختيار ذكي لسلالات معينة	لا اختيارات ذكية للسلالات
الحماية	السلالات محمية من العمليات المدمِّرة	السلالات ليست محمية من العمليات المدمرة
الصفات الغريبة	يحتفظ بالصفات الغريبة المرغوبة	يقضي على معظم الصفات الغريبة
المقاطعات	مقاطعات مستمرة لتحقيق الغاية المرجوة	ليس هناك مقاطعات مستمرة لتحقيق أي غاية
البقاء	بقاء تفضيلي	بقاء غير تفضيلي

الجدول ٦-١

إن الخلط بين العمليات الذكية وغير الذكية خطأ شائع عند الداروينيين. وهو ما حدث عندما ناظرتُ (نورم) الفيلسوف الإنساني پول كرتس *Paul Kurtz* سنة ١٩٨٦ في موضوع التطور. والمناظرة التي كان يديرها المدافع التليفزيوني چون آنكربرج *John Ankerberg* أسفرت عن هذا الحوار بخصوص الماكرو تطور:

جايسلر: قال [تشاندرا] ويكراماسينغ [الملحد]: "الاعتقاد بأن الحياة أتت بالصدفة كالاعتقاد بأن طائرة بوينج ٧٤٧ نتجت من إعصار هَبَّ على ساحة خردة". إن تصديق هذا الأمر يتطلب الكثير من الإيمان.

كرتس: حسنـًا، طائرة البوينج ٧٤٧ تطورت. يمكننا أن نعود إلى الأخوين رايت *Wright brothers* ونرى أول نوع خلقاه من الطائرات ...

جايسلر: خلقاه؟

كرتس: نعم، لكن...

آنكربرج: بالذكاء أم بالصدفة؟ [ضَحِكْ]

كرتس: كان هناك فترة من الزمن تغيرت فيها هذه الأشكال...

آنكربرج: ولكن ألم يخلقا تلك الطائرات باستخدام الذكاء؟

كرتس: كنتُ أستخدم المشابَهة التي استخدمها الدكتور جايسلر.

جايسلر: حسنـًا، أنت تساعدني في حجتي! [ضحك] عليك أن تجد لنفسك مشابَهة أخرى!

كرتس: لا، لا، أظن أن المعنى الذي أقصده مهم لأنه حدثت تغيرات في الطائرات من الأبسط إلى الأعقد.

جايسلر: نعم، ولكن تلك التغيرات تَمَّتْ بتدخل ذكي!

مؤكد أن التغيير الاتجاهي الذي يسير في اتجاه محدد *directional change* في الطائرات بواسطة الذكاء لا يُثبت أي شيء عن إمكانية حدوث تغيير اتجاهي في الكائنات الحية دون ذكاء. وكما سنرى في الجزء التالي، التغيير الاتجاهي في الكائنات الحية بواسطة الانتقاء الطبيعي لم يَثْبُت بالملاحظة. واستخدام الذكاء لإحداث تغيير اتجاهي في الكائنات الحية يصطدم بالحدود الوراثية. لذا، حتى إن كان التطور موجَّهًا بالذكاء، فهو يصطدم بحوائط. أي أنه حتى عندما يتحكم العلماء بذكاء في الكائنات لتحقيق غاية محددة، ألا وهي الأطروحة المضادة للعملية الداروينية العمياء، لا ينجح الماكرو تطور! فإن كان العلماء الأذكياء لا يستطيعون اختراق الحدود

الوراثية، فكيف نتوقع من الانتخاب الطبيعي غير الذكي أن يفعل ذلك؟

٢- التغير التكراري ***Cyclical Change*****:** لا يقتصر الأمر على وجود حدود وراثية للتغيير داخل النوع الواحد، بل التغيير داخل النوع الواحد يبدو تكراريًا. أي أن التغيرات لا تتجه نحو تكوين أشكال جديدة من الحياة، كما تتطلب نظرية الماكرو تطور، ولكنها تتحركُ جيئة وذهابًا في نطاق محدود. فمثلاً، عصافير داروين كانت تتفاوت في أحجام مناقيرها طبقًا لحالة الطقس.[٥] فالمناقير الكبيرة كانت تساعد على تكسير بذور أكبر حجمًا وأشد صلابةً أثناء مواسم الجفاف، والمناقير الصغيرة كانت مناسبة عندما كانت الأمطار تأتي بكمية وفيرة من البذور الصغيرة اللينة. فعند حلول موسم الجفاف، كانت نسبة العصافير ذات المناقير الكبيرة تنمو مقارنةً بالعصافير ذات المناقير الصغيرة. ولكن النسبة كانت تنعكس بعد حلول موسم ممطر طويل. لاحظ أنه لم تظهر للوجود أي أشكال جديدة من الحياة (العصافير ظلت عصافير)، كل ما تَغَيَّرَ هو نسبة العصافير كبيرة المناقير إلى العصافير صغيرة المناقير. لاحظ أيضًا أن الانتخاب الطبيعي لا يستطيع أن يفسِّر كيف أتت العصافير إلى الوجود أصلاً. أي أن الانتخاب الطبيعي قد يتمكن من تفسير بقاء النوع، ولكنه لا يستطيع أن يفسر مجيء النوع.

٣- التعقيد غير القابل للاختزال ***Irreducible Complexity*****:** سنة ١٨٥٩ كتب تشارلز داروين "إن ثَبَت وجود أي عضو معقَّد لم يتكون بالعديد من التغيرات الطفيفة المتوالية، فنظريتي ستنهار لا محالة".[٦] ونحن الآن نعرف أن هناك الكثير من الأعضاء، والأجهزة، والعمليات في الحياة تتناسب مع ذلك الوصف.

ومنها الخلية. وقد كانت الخلية في أيام داروين "صندوقًا أسود"، جزءًا صغيرًا غامضًا في الحياة لم يتمكن أحد من رؤية ما فيه. ولكننا الآن بعد أن تمكنَّا من النظر في أعماق الخلية، نرى أن الحياة على المستوى الجزيئي أكثر تعقيدًا بما لا يقاس مما كان يحلم به داروين. فهي في الحقيقة معقّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال. والجهاز المعقد تعقيدًا لا يقبل الاختزال "يتركب من عدة أجزاء متفاعلة ومتناسقة تساهم في الوظيفة الأساسية، بحيث إن نَزْعَ أي من هذه الأجزاء يوقف وظيفة الجهاز فعليًا".[٧]

وهذه هي كلمات مايكل بيهي أستاذ الكيمياء الحيوية في جامعة ليهاي *Lehigh University* صاحب الكتاب الثوري "صندوق داروين الأسود: التحدي البيوكيميائي للتطور" *Darwin's Black Box: The Biochemical Challenge to Evolution*. ويؤكد بحث بيهي أن الكائنات الحية مملوءة حَرْفيًا بماكينات جزيئية تؤدي العديد من وظائف الحياة. وهذه الماكينات الجزيئية معقّدة

تعقيدًا لا يقبل الاختزال، وهو ما يعني أن كل أجزاء كل ماكينة لا بد أن تتكون بالكامل، في الأماكن الصحيحة، وبالأحجام الصحيحة، وبنظام قابل للعمل، وفي وقت واحد حتى تعمل الماكينة.

ويُعَدّ محرك السيارة مثالاً لجهاز معقد تعقيدًا لا يقبل الاختزال. فإن حدث تغيير في حجم المكبس، سيتطلب ذلك تغييرات موازية في عمود الكامات، والبلوك، والمبرد، وحجرة المحرك، وغيرها، وإلا لن يعمل المحرك الجديد.

ويبين بيهي أن الكائنات الحية معقَّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال مثل محرك السيارة. فهو يبين بالتفصيل الممل أن وظائف عديدة في الجسم مثل تجلّط الدم، وأهداب الخلايا (الأجزاء المحرِّكة للخلية)، والبصر، كلها تتطلب أجهزة معقدة تعقيدًا غير قابل للاختزال، فلا يمكن أن تتكون بالطريقة الداروينية المتدرجة. لماذا؟ لأن المراحل المتوسطة *intermediates* لن تتمكن من أداء الوظيفة. وكما هو الحال في محرك السيارة، يجب أن تكون كل الأجزاء الصحيحة في أماكنها، وبالأحجام الصحيحة، في وقت واحد، حتى تتمكن من القيام بوظيفة أصلاً. فيمكنك أن تُكَوِّن المحركَ جزءًا جزءًا (وهو أمر يتطلب ذكاء)، ولكن لا يمكنك أن تقود السيارة إلى مكان عملك بجزء من المحرك. ولا يمكنك أن تقود السيارة إلى مكان عملك إذا أجريت تعديلات على جزء أساسي من المحرك، ولم تُجْرِ هذه التعديلات على باقي الأجزاء. وهكذا الأجهزة الحية تتعطل فورًا عن أداء وظيفتها إن أُجْرِيَت عليها تعديلات قطعة قطعة.

إن درجة التعقيد غير القابل للاختزال في الكائنات الحية تُذهب العقل. تَذَكَّر أن أبجدية الـ*DNA* الوراثية تتكون من أربعة حروف: أ، ث، س، ج. في كل خلية بشرية يوجد حوالي ٣٠٠٠ مليون زوج من تلك الحروف.[٨] فجسمك يحتوي على تريليونات الخلايا، وينتج ملايين الخلايا الجديدة كل ثانية، وعلاوة على ذلك كل خلية معقَّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال وتحتوي على أجهزة فرعية معقَّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال!

إن اكتشافات بيهي تسدِّدُ ضربة قاضية للداروينية. فالتعقيد غير القابل للاختزال يعني أنه لا يمكن أن تأتي حياة جديدة إلى الوجود بالطريقة الداروينية التي تتكون من تغيرات طفيفة متتالية على مدار فترة طويلة من الزمن. والداروينية تشبه القوى الطبيعية التي تُنتج دون أي ذكاء محرك سيارة يعمل (أي الأميبا) ثم تُعَدِّل ذلك المحرك المعقَّد تعقيدًا لا يقبل الاختزال وتحوّله إلى محركات متوسطة متتالية حتى تُنتجُ تلك القوى الطبيعية أخيرًا المكوك الفضائي (أي الإنسان). ولكن الداروينيون لا يستطيعون أن يفسروا مصدر المواد اللازمة لصنع

المحرك، فما بالك بتفسير كيفية وجود أي محرك معقَّد تعقيدًا لا يقبل الاختزال. ولا يمكنهم كذلك أن يبينوا العملية غير الذكية التي تطوَّر بها أي محرك حتى وصل إلى مكوك الفضاء وهو يُنتجُ قوة دافعة في كل خطوة من الخطوات المتوسطة. وهذا واضح من الغياب التام للتفسيرات الداروينية لكيفية نشوء الأجهزة المعقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال نشوءًا تدريجيًا. وقد كشف بيهي مزاعم الداروينيين الفارغة عندما كتب قائلاً:

> فكرة التطور الجزيئي الدارويني لا تقوم على العلم. فليس هناك أي منشورات في الكتابات العلمية، كالصحف المتخصصة أو الكتب، تقدّم وصفًا مؤكَّدًا لكيفية حدوث تطور جزيئي لأي جهاز بيوكيميائي حقيقي معقَّد، أو حتى وصفًا احتماليًا غير مؤكد. إنهم يؤكدون حدوث هذا التطور، ولكن ولا واحد من كل تأكيداتهم مدعوم بتجارب أو حسابات. وبما أنه لا مرجعية لهذه المزاعم المعرفية، يمكننا أن نقول بحق إن تأكيد التطور الجزيئي الدارويني محض استعراض فارغ.[٩]

إن محاولات الداروينيين الواهنة للتعامل مع التعقيد غير القابل للاختزال تكشف ضخامة المشكلة التي تواجه نظريتهم. وقد قال الدارويني كِن ميلر *Ken Miller* بأن التعقيد غير القابل للاختزال غير صحيح لأنه يستطيع أن يُثْبِت أن مثال بيهي على التعقيد غير القابل للاختزال – ألا وهو مصيدة الفئران – ليس بالفعل معقَّدًا بما لا يقبل الاختزال. وفقًا لما يقوله بيهي جميع الأجزاء الخمسة لمصيدة الفئران التقليدية يجب أن تكون في مكانها وفي وقت واحد وبنظام قابل للعمل حتى تعمل. فلا يمكنك أن تصطاد الفئران بالقاعدة والزنبرك مثلاً. ولكن ميلر يعتقد أنه يستطيع أن يفند فكرة بيهي بصنع مصيدة مشابهة بأربعة أجزاء فقط. (طَرَحَ ميلر هذه الفكرة فعليًا أثناء مناظرة تليفزيونية على محطة پي. بي. إس *PBS* في أواخر التسعينيات).

ولكن نقد ميلر يخفق فعليًا في إصابة الهدف. فهو أولاً، مِثْل أي دارويني، يتجاهل أن صُنْع مصيدته يتطلب ذكاء. ثانيًا، بيهي لا يقول إنك تحتاج خمسة أجزاء لأي مصيدة فئران، ولكنه يتحدث عن المصيدة التقليدية. وهكذا يتضح أن مصيدة ميلر ليست مرحلة مادية سابقة تطورت منها مصيدة بيهي التقليدية. أي أن تحويل مصيدة ميلر إلى مصيدة بيهي يتطلب أكثر من خطوة عشوائية (أي داروينية)، فهو يتطلب إضافة جزء آخر محدَّد جدًا وعدة تعديلات محدّدة جدًا للأجزاء الموجودة (وهذا يتطلب ذكاء). ثالثًا، وحتى لو أمكن بشكلٍ ما إجراء تلك التغييرات بعمليات عديمة العقل، فالمصيدة لن تعمل أثناء المرحلة الانتقالية. ولكن

حتى تكون الداروينية صحيحة، لا بد من الحفاظ على الأداء الوظيفي في كل المراحل لأن الكائنات الحية لا تستطيع أن تبقى على قيد الحياة لو، مثلاً، لم تؤدِ أعضاؤها الأساسية وظيفتها المعتادة أثناء المراحل الانتقالية الداروينية البطيئة التي تقوم على المحاولة والخطإ* . وفي النهاية مصيدة الفئران ليست سوى مثال توضيحي. ولكن الأنظمة الحية أعقد بما لا يقاس من مصيدة الفئران. لذا، واضح أن ميلر لم يفنِّد فكرة بيهي، ولم يفندها أي دارويني غيره.[١٠]

وفي مؤتمر عن التصميم الذكي عُقِدَ في تموز/يوليو ٢٠٠٢ تحدَّثت فيه أنا (فرانك) وبيهي، كان أحد الداروينيين عنيفـًا نوعـًا ما في فقرة الأسئلة والأجوبة بعد المحاضرات. لذلك أردت أن أقلب الطاولة وأسأله بضعة أسئلة، فحرصتُ أن أجلس بجواره على الغداء.

فسألـْتـُه فيما بين شرائح البيتزا: "ماذا تفعل بحجة بيهي عن التعقيد غير القابل للاختزال؟"

فدار بعينيه مستاءً وقال: "هذه ليست مشكلة كبيرة. هناك سقالات بيوكيميائية تـُبنى حول الجهاز لتسمح له بالتطور التدريجي".

وعندما رأيت بيهي بعدئذٍ في اليوم نفسه، أخبرته بتفسير الدارويني. فأوضح قائلاً، وكان محقـًا: ١) ليس هناك دليل على هذه "السقالات"، ٢) وهي فعليًا تـُعَقـِّد الأمور على الداروينيين، بمعنى أنه إن وُجِدَت هذه "السقالات" بحق، فمَن الذي يبنيها باستمرار في أماكنها الصحيحة؟ إنها عملية تتطلب ذكاء.

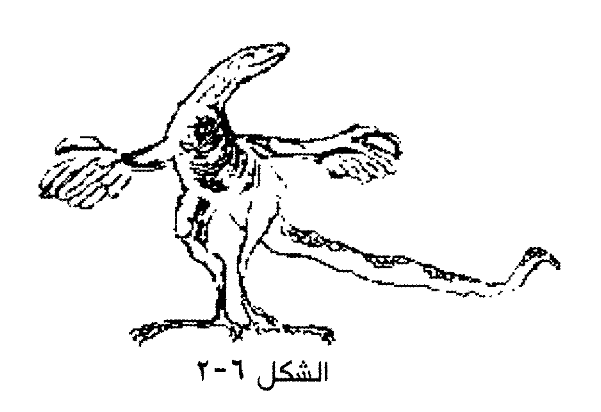
لقد حاول آخرون أن يجدوا طرقـًا داروينية للتهرب من التعقيد غير القابل للاختزال، ولكنهم فشلوا جميعًا. وهو ما يؤكده بيهي عندما يقول قطعيًا: "ليس لدينا حاليًا أي دليل تجريبي يبين أن الانتخاب الطبيعي يستطيع أن يتهرب من التعقيد غير القابل للاختزال".[١١]

---

* يتفق ميلر مع بيهي في أن الانتخاب الطبيعي لا يستطيع أن يفضّل تطور جهاز لا يعمل. ولكنه يفند الحجة باقتراحه أن المصيدة في المرحلة الانتقالية، عندما لا تقدر على اصطياد الفئران، يمكن أن تعمل كمشبك ربطة عنق أو سلسلة مفاتيح (انظر *http://www.millerandlevine.com/km/evol/DI/ Mousetrap.html*). وهو ما يخطئ الهدف طبعًا. فالكائنات الحيّة المعقدة لا يمكنها أن تستبدل عشوائيًا وظيفة بوظيفة أخرى وتظل على قيد الحياة. ولكن الكائن الحي يموت لو فشلت أجزاؤه الأساسية في أداء وظيفتها الأولية، حتى إن كانت تؤدي وظيفة أخرى أثناء مرحلته الانتقالية الداروينية. أي أن المهم هو فقدان الوظيفة الأساسية، وليس أن الجهاز المتوسط قد يتمكن من فعل شيء آخر في المرحلة المتوسطة!

ويبيِّن بيهي الأهمية الجوهرية التي يتضمنها التعقيد غير القابل للاختزال وغيره من الاكتشافات بخصوص تعقيد الحياة. فهو يكتب قائلاً: "إن نتيجة هذه الجهود المتراكمة لفحص الخلية، أي لفحص الحياة على المستوى الجزيئي، هي صرخة عالية مدوية تعلن عن "التصميم"! إن النتيجة في غاية الوضوح وفي غاية الأهمية حتى إنه لا بد من احتسابها ضمن أعظم الإنجازات في تاريخ العلم. إنه اكتشاف ينافس اكتشافات نيوتن وأينشتاين".[١٢]

٤- عجز الأشكال الانتقالية عن الحياة *Nonviability of Transitional Forms*: هناك مشكلة أخرى تهاجم معقولية الفكرة القائلة بأن الانتخاب الطبيعي يخلق أشكالاً جديدة من الحياة. وتتمثل هذه المشكلة في أن الأشكال الانتقالية لا تقدر أن تبقَ على قيد الحياة. فكِّر مثلاً في تأكيد الداروينيين أن الطيور تطوَّرت تدريجيًا من الزواحف على مدار فترات زمنية طويلة. وهو ما يتطلب مرحلة انتقالية من الحراشف إلى الريش. فكيف يمكن لكائن أن يعيش بلا حراشف ولا ريش؟ إن الريش معقَّد تعقيدًا لا يقبل الاختزال. فكائن بأنصاف ريش لا يقدر أن يطير، مما يجعله فريسة سهلة على الأرض، وفي المياه، وفي الهواء. وفي منتصف المرحلة بين مرحلتي الزواحف والطيور، غالبًا لن يتمتع بالمهارة اللازمة للعثور على الغذاء أيضًا. إذن يواجه الداروينيون مشكلة مزدوجة: أولاً، ليس عندهم آلية صالحة للانتقال من الزواحف إلى الطيور. ثانيًا، حتى إن اكتُشِفَت آلية صالحة، فعلى أي حال لا يُحتَمَل للأشكال الانتقالية أن تعيش.

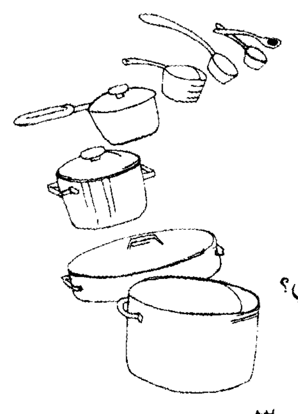


الشكل ٦-٢

٥- الانعزال الجزيئي *Molecular Isolation*: غالبًا ما يقول الداروينيون إن دليل الانحدار من سلف مشترك يكمن في أن كل الكائنات الحية تحتوي على *DNA*. فمثلاً ريتشارد دوكينز يقول: "السبب الذي يجعلنا موقنين أن هناك صلة تجمع بيننا جميعًا، بما في ذلك البكتيريا، هو شمولية الشفرة الوراثية وغيرها من الأساسات البيوكيميائية".[١٣] يعتقد الداروينيون أن نسبة تشابه الـ*DNA* بين القردة العليا والبشر مثلاً، التي يُقَدِّر البعض أنها تتراوح بين ٨٥ وأكثر من ٩٥%[١٤]، تشير بقوة إلى سلف مشترك.

ولكن هل هذا دليل على سلف مشترك أم على خالق مشترك؟ يمكن تفسيره بالطريقتين. فقد يكون الداروينيون محقّين، قد يكون لنا شفرة وراثية *genetic code* مشتركة لأننا جميعًا انحدرنا من سلف مشترك. ولكن يمكن أن يكونوا أيضًا مخطئين بالقدر نفسه، فربما الشفرة الوراثية المشتركة بيننا جميعًا ترجع إلى خالق مشترك صمَّمَنا أن نعيش في نفس الغلاف الحيوي. فلو كان كل كائن حي مختلفًا عن غيره من الناحية البيوكيميائية، ربما لن توجد سلسلة غذائية. ومن المحتمل أنه لا يمكن وجود حياة بتكوين بيوكيميائي مختلف. حتى إن كان ذلك ممكنًا، فربما لا يمكنها أن تستمر في هذا الغلاف الحيوي.

فكِّر في الشكل ٦-٣. هل التشابه والتدرج يُثبِتان أن الغلاية تطورت من ملعقة الشاي؟ لا. إن التشابه والتدرج لا يعنيان أوتوماتيكيًا سلفًا مشتركًا. وفي هذه الحالة نعرف أنهما يعنيان خالقًا أو مصممًا مشتركًا. وهو ما ينطبق على الكائنات الحية الحقيقية.



التشابه والتدرج

هل تشابه التصميم يُثبِت سلفًا مشتركًا أم مصممًا مشتركًا؟

هل القِدر تطورت من ملعقة الشاي؟

الشكل ٦-٣

كما ذكرنا آنفًا، قدرة أبجدية الـ*DNA* الوراثية على احتواء رسالة تساوي قدرة الأبجدية الإنجليزية على احتواء رسالة (الفرق الوحيد هو أن أبجدية الـ*DNA* لا تضم إلا أربعة حروف مقابل ستة وعشرين حرفًا في الأبجدية الإنجليزية). فبما أن كل الكائنات الحية تحوي *DNA* بقواعده الأربعة التي تحتوي على النيتروجين (الممثَّلة بالحروف أ، ث، س، ج)، من الطبيعي أن نتوقع درجة عالية من التشابه في المعلومات بين الكائنات سواء أكانت متصلة بسلف واحد أم لا.

ولنستخدم مثالاً من اللغة الإنجليزية لتوضيح ما نقصده. إليك جملتين مكونتين من الحروف نفسها:

Charles Darwin was a scientific god. كان تشارلز داروين إلهًا علميًا.

*Charles Darwin was a scientific dog.*كان تشارلز داروين كلبًا علميًا.

رغم أن حروف الجملتين متماثلة وترتيب الحروف يكاد يكون متماثلاً (بدرجة تزيد عن ٩٠%)، فالفرق الضئيل في الترتيب يؤدي إلى معنيين متضادين. وهكذا أي فرق ضئيل في ترتيب الحروف (أ، ث، س، ج) في الكائنات الحية قد يؤدّي إلى كائنات بعيدة جدًا عن بعضها البعض على شجرة التطور الافتراضية. فمثلاً بينما تبين بعض الدراسات أن تشابه الـ*DNA* بين البشر والقردة العليا الأقرب شبهًا بالإنسان قد يصل إلى حوالي ٩٠%، تبين دراسات أخرى أن تشابه الـ*DNA* بين البشر والفئران يبلغ أيضًا حوالي ٩٠%[١٥]. ولكن هذه التشابهات محل خلاف وليست مفهومة على نحو كامل. فيجب القيام بمزيد من البحث في هذا المجال. ولكن إن كان التشابه الوراثي بين الفئران والبشر يعادل التشابه بين القردة العليا والبشر، فإن هذا من شأنه أن يُعَقِّد أي تفسير دارويني تعقيدًا كبيرًا.

ولكن لنفترض أن مزيدًا من الدراسات سيُظهر يومًا ما أن *DNA* القردة العليا أكثر شبهًا بالبشر من *DNA* سائر الكائنات. فهذا لن يُثبِت ما يخلص إليه الداروينيون بخصوص السلف المشترك. فقد يرجع التشابه إلى خالق مشترك لا إلى سلف مشترك. لذا علينا أن نجد دليلاً آخر على المستوى الجزيئي يساعدنا في اكتشاف ما إذا كانت الشفرة الوراثية المشتركة دليلاً على سلف مشترك أم خالق مشترك.

وقد وُجِدَ ذلك الدليل الآخر بمقارنة سلاسل البروتين. البروتينات هي الوحدات الأساسية لبنية الحياة. وهي تتكون من سلاسل طويلة من الوحدات الكيميائية التي يُطلَق عليها الأحماض الأمينية. ومعظم البروتينات تحوي في بنيتها أكثر من ١٠٠ حمض أميني يجب أن يكون لها

ترتيب محدد جدًا. والـDNA هو ما يحتوي على تعليمات ترتيب الأحماض الأمينية في البروتينات، والترتيب مسألة حرجة لأن أي تغيير عادةً ما يؤدي إلى خلل في وظيفة البروتين.

وإليك أين تنشأ المشكلة أمام الداروينيين. لو كانت كل الأنواع تشترك في سلف واحد، يجب أن نتوقع أن نجد سلاسل بروتينية في شكل انتقالي *transitional form*، أي مثلاً أثناء المرحلة الانتقالية من الأسماك إلى البرمائيات، أو من الزواحف إلى الثدييات. ولكن ليس هذا ما نجده على الإطلاق. بل نجد أن الأشكال الأساسية منعزلة جزيئيًا عن بعضها البعض، وهو ما ينفي أي نوع من الصلة بسلف واحد. ويقول مايكل دنتون:

> ليس هناك أي أثر على المستوى الجزيئي للانتقال التطوري من الأسماك ← البرمائيات ← الزواحف ← الثدييات. فالبرمائيات، التي دائمًا ما تُعتبر تقليديًا شكلاً متوسطًا بين الأسماك وغيرها من الفقاريات البرية، تبعد جزيئيًا عن الأسماك نفس بُعْد أي مجموعة من الزواحف أو الثدييات عن الأسماك! إن النتيجة مدهشة حقًا للعارفين جيدًا بالصورة التقليدية لتطور الفقاريات.[١٦]

لذا، رغم أن كل الكائنات الحية تشترك في شفرة وراثية واحدة بدرجات متفاوتة من التشابه، فتلك الشفرة رتبت الأحماض الأمينية في البروتينات على نحو يجعل الأشكال الأساسية منعزلة جزيئيًا عن بعضها البعض. فليس هناك مراحل انتقالية داروينية، كل ما هنالك فجوات جزيئية متمايزة. والداروينيون يعجزون عن تفسير وجود هذه الفجوات الجزيئية باستخدام الانتخاب الطبيعي، تمامًا كما يعجزون عن تفسير وجود فجوات ضخمة في سجل الحفريات (وهو ما سنتحدث عنه في الجزء التالي).

ماذا عن سجلّ الحفريات؟

لنراجع سريعًا ما رأيناه حتى الآن. إليك الأدلة الخمسة التي تبين أن الانتخاب الطبيعي ما كان ليمكنه أن يُنتج أشكالاً جديدة من الحياة:

١- الحدود الوراثية

٢- التغير التكراري

٣- التعقيد غير القابل للاختزال

٤- عجز الأشكال الانتقالية عن الحياة

٥- الانعزال الجزيئي

ولكن ألا يؤيد سجلُ الحفريات النظريةَ الداروينية؟ لنلقِ نظرة.

نظرًا لعدم توافر التكنولوجيا الحديثة في عصر تشارلز داروين، لم يتمكَّن من إدراك المشكلات التي تواجه نظريته على مستوى الخلية. إلا أنه أدرك أن سجل الحفريات يمثل مشكلة كبيرة لنظريته لأنه لا يُظهِر تدرجًا. وهو ما دفعه أن يكتب: "فلماذا لا يزخر كل تكوين جيولوجي وكل طبقة جيولوجية بمثل هذه الحلقات المتوسطة؟ مؤكَّدٌ أن الجيولوجيا لا تكشف عن أي سلسلة عضوية متدرجة. ويبدو أن هذا هو أوضح وأخطر الاعتراضات التي يمكن أن تثار ضد نظريتي".[١٧]

إلا أن داروين اعتقد أن مزيدًا من الاكتشافات الأحفورية سيكشف عن صحة نظريته. ولكن الزمن أثبت أنه مخطئ. وعلى عكس ما تسمع في وسائل الإعلام العامة، سجل الحفريات اتضح أنه سبب إحراج هائل للداروينيين. فإن كانت الداروينية صحيحة، لوجدنا حتى الآن آلاف، إن لم يكن ملايين الحفريات الانتقالية. ولكن كما يقول الراحل ستيفن جاي جولد *Stephen Jay Gould* عالم الحفريات في جامعة هارڤارد (وهو تطوري):

> يتميز تاريخ معظم الأنواع البيولوجية المتحجّرة بخاصيتين تتعارضان بشكل خاص مع فكرة التطور التدريجي لهذه الأنواع: ١) السكون *Stasis*: معظم الأنواع البيولوجية لا يحدث فيها تغير يسير في اتجاه معين أثناء وجودها على الأرض. ويظل شكلها كما هو تقريبًا منذ أن تظهر في سجل الحفريات وحتى تختفي، أي أن التغير التركيبي عادة ما يكون محدودًا ولا يسير في اتجاه محدد. ٢) الظهور المفاجئ *Sudden appearance*: في أي منطقة لا ينشأ النوع البيولوجي تدريجيًا بحدوث تغير مطرد في أسلافه، ولكنه يظهر بغتةً ويكون "مكتمل التكوين".[١٨]

أي أن جولد يعترف أن الأشكال الأحفورية تظهر فجأة، مكتملة التكوين، وتظل كما هي حتى تنقرض دون أي تغير اتجاهي، وهو تمامًا ما يتوقع المرء أن يجده إن كان الخلق صحيحًا.

ولكن بدلاً من أن يتبنى جولد نظرية الخلق، رفض التطور التدريجي الدارويني وصاغ نظرية أطلق عليها "التوازن المتقطع" *Punctuated Equilibria (PE)*. وترجّح نظرية التوازن المتقطع أن الأنواع البيولوجية تطورت أسرع على مدار فترة زمنية أقصر، وهو ما يفسّر الفجوات الأحفورية الكبيرة. ولكن جولد لم يبين أي آلية طبيعية لحدوث هذا الأمر، ولكن بما أنه كان ملحدًا كان عليه أن يفسر سجل الحفريات بأي شكل. وهو ما يمثل نموذجًا كلاسيكيًا على

السماح للتحيزات بالتشويش على الملاحظات.

ولكن هذا يخرجنا عن موضوعنا. فنقطتنا الأساسية هنا هي أن سجل الحفريات أقرب للخلق فوق الطبيعي منه للماكرو تطور. فالحقيقة أن المفقود من السجل ليس حلقات، بل سلسلة كاملة!

ليس هناك سلسلة؛ لأن كل المجموعات الرئيسية من الحيوانات المعروفة تقريبًا تظهر في سجل الحفريات فجأة وكاملة التكوين في طبقات من العصر الكامبري *Cambrian period* (الذي يُقَدِّر الكثير من العلماء أنه وُجِدَ منذ حوالي ٦٠٠ إلى ٥٠٠ مليون سنة). ويكتب چوناثان ولز قائلاً: "الدليل الأحفوري قوي جدًا، والحَدَث مفاجئ وضخم جدًا، حتى إنه عُرِفَ باسم "الانفجار الكامبري" *the Cambrian explosion*، أو "الانفجار البيولوجي الكبير" *biology's big bang*".[١٩]

وهذا الدليل بالطبع يتعارض تمامًا مع الداروينية. فكل المجموعات الحيوانية تظهر منفصلة عن بعضها البعض، مكتملة التكوين، وفي وقت واحد. وهو ما لا يدل على تطور تدريجي بل على خلق لحظي. إذَن الشجرة الداروينية التي اعتدنا أن نراها كثيرًا لا تمثل سجل الحفريات الحقيقي تمثيلاً صحيحًا. والحقيقة أنه كما يشير ولز: "لو كانت هناك أي مشابَهة نباتية مناسبة، لكانت **حوض نباتات**، لا شجرة".[٢٠] ولكان ذلك الحوض يحتوي على رُقَع من الحشائش أو النباتات المختلفة التي تفصلها عن بعضها البعض مساحات شاسعة لا شيء فيها سوى التراب.

والآن لعلك تفكِّر: "ولكن ماذا عن تدرج الجمجمة الذى اعتدنا دائمًا أن نراه؟ ألا يبدو أن الإنسان تطور من القردة العليا؟"

منذ عدة سنوات ناظرتُ (أنا نورم) داروينيًا رصَّ جماجم بجوار بعضها على منضدة ليبين أن التطور حدث بالفعل. وصرح قائلاً: "السيدات والسادة، إليكم الدليل على التطور".

أمرك غريب، كيف تتجاهل الحفريات؟ الجماجم تبدو متدرجة. يبدو أنها متصلة بسلف واحد. هل هذا دليل جيد على الداروينية؟ لا، إنه ليس أفضل من الدليل على أن الغلاية الكبيرة تطورت من ملعقة الشاي.

مشكلة الداروينيين أن سجل الحفريات لا يستطيع أن يُثْبِت أي ارتباط بسلف واحد. لمَ لا؟ لأنه كما يقول مايكل دنتون: "٩٩٪ من التكوين البيولوجي لأي كائن حي يكمن في تشريح

أنسجته soft anatomy، وهو ما يستحيل عمله في الحفرية".[٢١] أي أنه من الصعب جدًا اكتشاف التكوين البيولوجي للكائن بالنظر إلى بقاياه الأحفورية. ويشير جوناثان ولز إلى أن "الدليل الأحفوري يقبل الكثير من التفسيرات لأن النوع البيولوجي الواحد يمكن أن يُعاد بناؤه بطرق متنوعة، ولأن سجل الحفريات لا يمكنه إثبات سلف مشترك يربط بين كل الكائنات".[٢٢]

إلا أن هذا لا يردع الداروينيين. فبما أن الداروينية **ينبغي** أن تكون صحيحة نظرًا لولائهم الفلسفي المسبق، إذَن **ينبغي** أن يجدوا أدلة تؤيدها. فبدلاً من أن يعترفوا بأن الحفريات لا تستطيع أن تُثبت ارتباط الكائنات بسلف مشترك، يأخذون الواحد في المائة الذي تخبرهم به الحفريات ويستخدمون التسعة والتسعين في المائة من هامش الحرية المتبقي لهم لتصوير اكتشافاتهم الأحفورية على أنها تسد كل الثغرات كما يحلو لهم. ومع هذا الهامش الفسيح وغياب الحقائق التي تقيّدهم، توفرت لهم الحرية في ابتداع "حلقات مفقودة" بأكملها من بقايا أحفورية في منتهى التفاهة. ولذلك، الكثير مما يسمى "حلقات مفقودة" انكشف فيما بعد أنه مزيف أو خاطئ.[٢٣] وقد كتب هنري جي Henry Gee أحد الكُتّاب العلميين الرئيسيين في جريدة نيتشر Nature: "إن أخذ تسلسل معيَّن من الحفريات والزعم بأنه يمثل سلالة واحدة ليس فرضية علمية قابلة للاختبار، ولكنه تأكيد تتساوى صلاحيته مع قصص قبل النوم، مسلٍّ، وقد يقدّم معلومات مفيدة، ولكنه ليس علميًا".[٢٤]

إن سجل الحفريات لا يكفي لإثبات العلاقة بسلف مشترك، وفي ضوء ما نعرفه حاليًا عن طبيعة الأنظمة البيولوجية المعقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال، يتضح أن **سجل الحفريات لا يمت بصلة للقضية.** وتَشابُه البنية أو التشريح بين الأشكال (يطلق عليه أحيانًا التماثل homology) لا يخبرنا أيضًا بأي شيء عن وجود سلف مشترك. فمايكل بيهي يكتب قائلاً:

> التشريح ببساطة لا يمت بصلة لمسألة ما إذا كان حدوث التطور على المستوى الجزيئي ممكنًا أم لا. وهو ما ينطبق على سجل الحفريات أيضًا. فلم يعُد مهمًا ما إذا كان هناك فجوات كبيرة في سجل الحفريات أم أن السجل متصل مثل سجل رؤساء الولايات المتحدة. وإن كانت هناك فجوات، لا يهم ما إذا كان يمكن تفسيرها تفسيرًا معقولاً. فسجل الحفريات ليس عنده ما يخبرنا به عما إذا كانت التفاعلات بين الريتينال-سي تي إس-١١ *11-cts-retinal* والرودوبسين *rhodopsin* والترانسدوسين *transducin* والفوسفودايستريس *phosphodiesterase* [أنظمة معقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال] قد تكونت خطوة خطوة أم لا.[٢٥]

إذَن وفقـًا لما يقوله بيهي، البيولوجيا تتفوق بامتياز على التشريح في تحديد معقولية الماكرو تطور. فكما أن محتويات الكتاب تقدِّم معلومات تتجاوز كثيرًا ما يقدّمه غلاف الكتاب، هكذا التكوين البيولوجي للكائن يزودنا بكمية معلومات تزيد كثيرًا عن المعلومات التي يوفرها لنا تكوينه العظمي. ومع ذلك طالما حاجَّ الداروينيون بأن تشابه التكوين بين القردة العليا مثلاً والإنسان دليل على السلف المشترك (أو الانحدار من أصل واحد). **فهل يخطر على بالهم أبدًا أن تشابه البنية قد يدلل على مصمم مشترك لا سلف مشترك؟*** فمهما كان، في عالم محكوم بقوانين فيزيائية وكيميائية معينة، ربما أن عدد البنى التشريحية التي ستسفر عن حيوانات مصمَّمة لتمشي على ساقين سيكون محدودًا جدًا، وبما أننا جميعًا يجب أن نعيش في نفس الغلاف الحيوي، ينبغي أن نتوقع تشابه بعض الكائنات في التصميم.

علاوة على ذلك، رغم أن بنية القردة العليا قد تتشابه مع بنية البشر، الحقيقة المهملة غالبًا هي أنه ليس هناك أي وجه شبه بين القردة العليا والبشر من ناحية والثعابين، والفطريات، والأشجار من ناحية أخرى. ولكن وفقـًا للداروينية كل الكائنات الحية تطورت من سلف واحد. وإن قَبلتَ الداروينية، يجب عليك أن تتمكن من تفسير **الاختلاف** الشاسع بين الكائنات الحية. يجب عليك أن تفسّر مثلاً كيف أن النخلة، والطاووس، والأخطبوط، والجرادة، والخفاش، وفرس النهر، والقنفد، وفرس البحر، وخَنَّاق الذباب، والإنسان، وفطر العفَن؛ انحدرت جميعًا من أول حياة معقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال، دون تدخل ذكي. وعليك أيضًا أن تفسر كيف أتت أول حياة وكيف أتى الكون إلى الوجود. فبلا تفسيرات مقبولة منطقيًا، وهو ما يفشل الداروينيون في تقديمه، فإن الاعتقاد في الداروينية يتطلب إيمانـًا مفرطـًا. **ولذلك لسنا نملك الإيمان الكافي للتحول إلى الداروينية.**

هل التصميم الذكي بديل ذكي؟

يمكننا أن نقول المزيد والمزيد عن الماكرو تطور، ولكن المجال لا يسمح لنا أن نتوسع أكثر من ذلك. إلا أنه يمكننا استخلاص استنتاج معقول من البيانات التي بحثناها في هذا الفصل. ففي ضوء سجل الحفريات، والانعزال الجزيئي، واستحالة حدوث مراحل انتقالية، والتعقيد غير القابل للاختزال، والتغير التكراري، والحدود الوراثية (وعجز الداروينيين عن تفسير أصل

---

* كما رأينا، ينطبق ذلك على تشابه الـ*DNA* الذي يمكن أن يكون أيضًا نتيجة لمصمم مشترك تمامًا كما يمكن أن يكون نتيجة لسلف مشترك.

الكون أو أول حياة)، قد تظن أن الداروينيين سيعترفون أخيرًا أن نظريتهم لا تتفق مع ما لوحظ من أدلة. ولكن الداروينيون ما زالوا يقدمون قصصًا "بلا دليل" وبلا أساس، وتتناقض فعليًا مع الملاحظة العلمية. فهم ما زالوا يصرّون أن التطور حقيقة، حقيقة، حقيقة!

إننا نتفق أن التطور حقيقة، ولكن ليس بالمعنى الذي يقصده الداروينيون. فإن كنت تُعَرِّف التطور بأنه "تغيرٌ"، عندئذٍ من المؤكد أن الكائنات الحية تطوَّرت. ولكن هذا التطور حدث على المستوى الميكرو، لا الماكرو. وكما رأينا لا يوجد دليل على الماكرو تطور، بل إن **عندنا أدلة تؤكد أنه لم يحدث.**

فإن لم يكن الماكرو تطور صحيحًا، ما البديل؟ إن لم يكن هناك تفسير طبيعي لأصل الأشكال الجديدة من الحياة، إذَن لا بد من وجود تفسير ذكي. هذا هو الخيار الوحيد المتبقي. فليس هناك مرحلة انتقالية بين الذكاء واللاذكاء. إما أن ذكاءً تدخل في الأمر أو لا. ولكن الداروينيون لا يحبون هذا الخيار. فما إن تنفد قدرتهم على الدفاع عن موقفهم بكفاءة باستخدام أدلة علمية محايدة (وهو ما يحدث بسرعة شديدة)، حتى يصوبوا عادةً أسلحتهم على أنصار التصميم الذكي، نحن المؤمنين بذكاء وراء الكون والحياة. وإليك اعتراضاتهم المعتادة وردودنا:[٢٦]

الاعتراض: التصميم الذكي ليس علمًا.

الرد: كما رأينا، العلم بحث عن المسببات، وليس هناك إلا نوعان من المسببات: الذكية وغير الذكية (الطبيعية). وزَعْم الداروينيين بأن التصميم الذكي ليس علمًا مبني على تعريفهم للعلم، وهو تعريف متحيز. ولكن هذه حجة دائرية!* فإن كان تعريفك للعلم يستبعد المسببات الذكية مسبقًا، إذَن لن تعتبر أبدًا التصميم الذكي علمًا.

إلا أن المضحك في أمر الداروينيين هو أنه: إن لم يكن التصميم الذكي علمًا، فالداروينية مثله. لماذا؟ لأن كلاً من الداروينيين وعلماء التصميم الذكي يحاولون اكتشاف ما حدث في الماضي. والأسئلة المختصة بالأصل أسئلة أدلة جنائية، ومن ثم تتطلب استخدام مبادئ علم الأدلة الجنائية التي ناقشناها. والحقيقة أن استبعاد الداروينيين للتصميم الذكي من مجال العلم يعني أنهم يستبعدون أنفسهم ويستبعدون علم الآثار، وعلم الشفرة السرية،

* انظر الحاشية السفلية ص ١٤٤. (المترجمة)

والأبحاث الجنائية المستخدمة في الجرائم والحوادث، والبحث عن ذكاء من خارج الأرض. كل هذه علوم أدلة جنائية مشروعة تفحص الماضي للتوصل إلى مسببات ذكية. إذَن لا بد أن التعريف الدارويني للعلم ينطوي على خطإٍ ما.

جدول ٦-٢ يبين الفرق بين العلم التجريبي وعلم الأدلة الجنائية:

العلم التجريبي (الذي يدرس العملية الحالية *Operation*)	**علم الأدلة الجنائية** (الذي يدرس الأصل *Origin*)
يدرس الحاضر	يدرس الماضي
يدرس الأحداث المنتظمة *regularities*	يدرس الأحداث الانفرادية *singularities*
يدرس المتكرِّر	يدرس غير المتكرِّر
يمكن إعادة الحدث	يستحيل إعادة الحدث
يدرس كيف تعمل الأشياء	يدرس كيف بدأت الأشياء
يُختبَر بتكرار التجريب	يُختبَر بالنمطية
يسأل: كيف يعمل الشيء؟	يسأل: ما أصل الشيء؟
أمثلة: كيف تسقط المياه؟ كيف تتآكل الصخور؟ كيف يعمل المحرك؟ كيف يلتصق الحبر بالورق؟ كيف تعمل الحياة؟ كيف يعمل الكون؟	أمثلة: ما أصل المحطة الكهرومائية؟ ما أصل جبل رَشمور؟ ما أصل المحرك؟ ما أصل هذا الكتاب؟ ما أصل الحياة؟ ما أصل الكون؟

الجدول ٦-٢

الاعتراض: التصميم الذكي يرتكب مغالطة إله الفجوات.

الرد: تحدث مغالطة إله الفجوات عندما يعتقد المرء خطأً أن الله سبَّب الحدث رغم أنه في الواقع نتج بسبب ظاهرة طبيعية لم تُكتشَف. فمثلاً، كان الناس يعتقدون أن الله هو المسبب

المباشر للبرق. فقد كانت هناك فجوة في معرفتنا بالطبيعة، فنَسَبْنا الأثر لله. ويؤكد الداروينيون أن المؤمنين بالله الخالق يفعلون الشيء نفسه عندما يزعمون أن الله خلق الكون والحياة. فهل هم على صواب؟ لا، لعدة أسباب.

أولاً، عندما نخلص إلى أن ذكاءً خلق أول خلية أو المخ البشري، لا نقول ذلك لمجرد إننا نفتقر لأدلة تشير إلى تفسير طبيعي؛ ولكن لأننا أيضًا نمتلك أدلة إيجابية يمكن رصدها تجريبيًا على وجود مسبب ذكي. فالرسالة (التعقيد المحدد) يمكن رصدها تجريبيًا. وعندما نرصد رسالة، مثل ''أخْـرِج القمامة—ماما'' أو ١٠٠٠ موسوعة، نعرف أنه من المؤكد أنها أتت من كائن ذكي لأن كل خبراتنا القائمة على الملاحظة تخبرنا أن الرسائل لا تأتي إلا من كائنات ذكية. فكلما نلاحظ رسالة، نجد أنها آتية من كائن ذكي. ونحن ندمج هذه البيانات مع حقيقة أننا لا نلاحظ أبدًا قوانين طبيعية تنشئ رسائل، ونعرف أنه لا بد أن يكون المسبب كائنًا ذكيًا. وهذا استنتاج علمي مقبول بناءً على الملاحظة والتكرار. فهي ليست محاجة تقوم على الجهل، ولا تقوم على أي ''فجوة'' في معرفتنا.

ثانيًا، علماء التصميم الذكي يقبلون كلاً من المسببات الطبيعية والذكية. فهم لا يعارضون البحث المستمر عن تفسير طبيعي لأول حياة. ولكن كل ما في الأمر أنهم يلاحظون أن كل التفسيرات الطبيعية المعروفة تبوء بالفشل، وكل الأدلة التي يمكن رصدها تجريبيًا تشير إلى مصمم ذكي.

والآن يمكننا أن نتساءل عن الحكمة وراء الاستمرار في البحث عن مسبب طبيعي للحياة. ويسأل وليم دمبسكي الذي نشر أبحاثًا موسعة في التصميم الذكي قائلاً: ''متى يتحول الإصرار [على إيجاد مسبب طبيعي] إلى صلابة دماغ حمقاء؟ ... إلى متى يجب أن نستمر في البحث حتى يحق لنا أن نتوقف عن البحث ونعلن أنه لا جدوى من استمرار البحث، بل أيضًا أن موضوعَ البحثِ نفسَه لا وجود له؟''[٢٧]

فكِّر في مضامين سؤال دمبسكي. هل يجب أن نستمر في البحث عن مسبب طبيعي لظواهر مثل جبل رَشمور أو رسائل مثل ''أخْـرِج القمامة—ماما''؟ متى يُغلَق هذا الملف؟

والتر برادلي *Walter Bradley*، المشارك في تأليف كتاب عظيم الأثر بعنوان ''سر أصل الحياة'' *The Mystery of Life's Origin* يعتقد أنه ''لا يبدو أن هناك أي إمكانية للعثور على [تفسير

طبيعي]" لأصل الحياة. وهو يضيف قائلاً: "أظن أن مَن يعتقدون أن الحياة نشأت طبيعيًا يحتاجون إلى قدر من الإيمان يفوق بكثير إيمان من يستدلون منطقيًا على مصمم ذكي".[٢٨]

بصرف النظر عما إذا كنت تعتقد أنه علينا أن نستمر في البحث عن تفسير طبيعي أم لا، فالنقطة الرئيسية هي أن علماء التصميم الذكي يقبلون كلاً من المسببات الطبيعية والذكية. ولكن اتضح أن المسبب الذكي هو أكثر ما يتفق مع الأدلة.

ثالثًا، استنتاج التصميم الذكي يمكن تخطيئه. أي أن التصميم الذكي يمكن إثبات خطئه إذا اكتُشِف يومًا ما أن القوانين الطبيعية خلقت التعقيد المحدد. إلا أن هذا لا يمكن أن ينطبق على الموقف الدارويني. فالداروينيون لا يسمحون بتخطيء "قصة الخلق" الخاصة بهم لأنهم، كما أشرنا، لا يسمحون بالتفكير في أي قصة خلق أخرى. وذلك لأن "عِلمهم" ليس مبدئيًا يقبل المراجعة أو التصحيح، ولكنه أضيق أفقًا من تعاليم الكنيسة المتصلبة التي يحلو للداروينيين انتقادها.

وأخيرًا، الحقيقة أن الداروينيين هم من يرتكبون مغالطة إله الفجوات. فداروين نفسه اتُّهِم ذات مرة بأنه يعتبر الانتخاب الطبيعي "قوة عاملة أو الله" (انظر الفصل الرابع من كتاب "أصل الأنواع" *Origin of Species*). ولكن يبدو أن الانتخاب الطبيعي هو فعلاً الله أو "إله الفجوات" عند الداروينيين اليوم. فعندما يفشلون تمامًا في معرفة كيف وُجِدَت الأنظمة البيولوجية الغنية بالمعلومات والمعقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال، يسدون فجوتهم المعرفية بأن يزعموا أن الانتخاب الطبيعي، والزمن، والصدفة فعلت ذلك.

إن قدرة هذه الآلية على خلق أنظمة بيولوجية غنية بالمعلومات تناقض الأدلة التي ثبتت بالملاحظة. فالطفرات ضارة في كل الحالات تقريبًا، والزمن والصدفة ليسا في صالح الداروينيين كما شرحنا في الفصل الخامس. والانتخاب الطبيعي في أحسن الأحوال قد يكون مسؤولاً عن تغيرات طفيفة في الأنواع الحية، ولكنه لا يستطيع أن يفسر أصل الأشكال الأولى من الحياة. فالانتخاب الطبيعي لكي يحدث أصلاً يحتاج إلى كائن حي يبدأ به عمله. ولكن، بالرغم مما يتضح من مشكلات في الآلية الداروينية، يصر الداروينيون على أنها تسد أي فجوة في معرفتهم. وإضافة إلى ذلك، يتجاهلون عمدًا الأدلة الإيجابية المرصودة بالتجريب على وجود كائن ذكي. إن هذا ليس علمًا بل عقيدة جامدة لدين علماني. فالداروينيون مثل معارضي جاليليو يسمحون لديانتهم أن تتغلب على الملاحظات العلمية!

الاعتراض: التصميم الذكي مدفوع بالدين.

الرد: هذا الاعتراض له شقان. الأول هو أن بعض أنصار التصميم الذكي قد يكونون مدفوعين بالدين. وما العيب في ذلك؟ هل هذا يجعل التصميم الذكي خاطئـًا؟ هل الدافع الديني عند بعض الداروينيين يجعل الداروينية خاطئة؟ لا، الحق لا يكمن في دوافع العلماء، بل في جودة الأدلة. فدافع العالِم أو تحيزه لا يعني بالضرورة أنه مخطئ. فمن الممكن أن يكون متحيزًا ومع ذلك صائبًا. التحيز أو الدافع ليس هو القضية الأساسية، ولكن الحق هو القضية.

وأحيانًا ما يقال الاعتراض بهذه الطريقة: "لا يمكنك أن تصدق أي شيء يقوله عن الأصول لأنه خَلـْقيّ". على أي حال، إن كان السيف يقطع، فهو يقطع على الجانبين. أي أنه يمكننا أيضًا أن نقول: "لا يمكنك أن تصدق أي شيء يقوله عن الأصول لأنه دارويني".

لماذا تُعتبَر الاستنتاجات الخَلْقية فورًا متحيزة وتُعتبَر الاستنتاجات الداروينية تلقائيًا موضوعية؟ لأن الأغلبية لا تدرك أن الملحدين لديهم منظور فلسفي للحياة مثلهم مثل الخَلـْقيين. وكما نرى منظور الملحدين الفلسفي ليس محايدًا وهو يتطلب فعليًا قدرًا من الإيمان يزيد عن إيمان الخلقيين.

وكما ذكرنا آنفـًا، إن كانت التحيزات الفلسفية أو الدينية تمنع المرء من تفسير الأدلة تفسيرًا صحيحًا، عندئذ يحق لنا أن نشك في استنتاجاته. وفي الموضوع الذي نحن بصدده، يبدو أن الداروينيين هم أكثر من يواجهون تلك المشكلة. إلا أن النقطة الرئيسية هي أنه حتى إن كان المرء مدفوعًا بالدين أو الفلسفة، يمكنه تصحيح استنتاجاته بنظرة مخلصة للأدلة. فالعلماء على الجانبين قد يصعب عليهم أن يكونوا محايدين، ولكنهم إن كانوا أمناء، يمكنهم أن يكونوا موضوعيين.

أما الشق الثاني في هذا الاعتراض هو الاتهام القائل بأن مؤيدي التصميم الذكي ليس لديهم أدلة على موقفهم، كل ما في الأمر أنه يرددون كلام الكتاب المقدس ترديدًا ببغائيًا. وهذا الشق من الاعتراض لا ينجح أيضًا. فمعتقدات التصميم الذكي قد تتوافق مع الكتاب المقدس، ولكنها لا تقوم على الكتاب المقدس. ولكن كما رأينا، التصميم الذكي استنتاج يقوم على أدلة مرصودة تجريبيًا، لا على نصوص مقدسة. وكما أشار مايكل بيهي "الحياة على الأرض في أساسها، وفي مكوناتها الجوهرية نتاج نشاط ذكي. واستنتاج التصميم الذكي ينبع تلقائيًا من البيانات نفسها، لا من كتب مقدسة أو معتقدات دينية".[٢٩]

التصميم الذكي ليس "عِلمًا خَلْقيًا" أيضًا. علماء التصميم الذكي لا يزعمون مزاعم المدعوين "علماء الخلق". فهم لا يقولون إن البيانات تؤيد بكل وضوح منظور سفر التكوين ذا الأيام الستة التي يتكون كل منها من أربع وعشرين ساعة، ولا طوفانًا غطى العالم كله. ولكنهم يعترفون أن البيانات المؤيدة للتصميم الذكي لا تقوم على عمر أو تاريخ جيولوجي محدد للأرض. وعلماء التصميم الذكي يدرسون في الطبيعة نفس الأشياء التي يدرسها الداروينيون، وهي الحياة والكون نفسه، ولكنهم يتوصّلون لاستنتاج أكثر منطقية بخصوص مسبِّب تلك الأشياء. باختصار، بصرف النظر عما يقوله الكتاب المقدس في هذا الموضوع، الداروينية مرفوضة لأنها لا تتوافق مع البيانات العلمية، والتصميم الذكي مقبول لأنه متوافق مع البيانات.

الاعتراض: التصميم الذكي خاطئ لأن المدعو تصميمًا لا يتسم بالكمال.

الرد: طالما حاجَّ الداروينيون أنه لو وُجِد مصمِّم، لصمَّم المخلوقات على نحو أفضل. وهو ما أشار إليه ستيفن چاي جولد في كتابه "إبهام الپاندا" *The Panda's Thumb* حيث استشهد بالتصميم غير المثالي للبروز العظمي الذي يقوم مقام الإبهام عند حيوان الپاندا.

إن مشكلة الداروينيين أن هذا ينقلب إلى حجة لصالح المصمم لا حجة ضده. أولاً، وصف جولد لشيءٍ ما بأنه تصميم غير مثالي يعني ضمنيًا أنه يعرف التصميم المثالي. لأنه لا يمكنك أن تعرف أن شيئًا ما غير مثالي إلا إذا كنت تعرف المثالي. إذَن ملاحظة جولد لتصميم غير مثالي تمثل اعترافًا ضمنيًا بأنه يمكن رصد تصميم في إبهام الپاندا. (بالمناسبة، هذا سبب آخر يجعل الداروينيين مخطئين عندما يؤكدون أن التصميم الذكي ليس علمًا. فعندما يزعمون أن شيئًا ما ليس مصممًا بشكل صحيح، يقصدون ضمنًا أنهم يستطيعون أن يحددوا التصميم الصحيح. وهو ما يثبت ما يقوله علماء التصميم الذكي منذ زمن بعيد، ألا وهو أن التصميم الذكي علم لأنه يمكن رصده تجريبيًا).

ثانيًا، التصميم غير المثالي لا يلغي وجود تصميم. وهو ما يعني أنه حتى إن حَكَمْتَ أن شيئًا ما ليس مصممًا بالشكل المثالي، لا يعني هذا أنه ليس مصمَّمًا على الإطلاق. فسيارتك ليست مصممة بالشكل المثالي، ومع ذلك فهي مصممة، مؤكد أنها لم تتكون بالقوانين الطبيعية.

ثالثًا، حتى تقول إن شيئًا غير مثالي، لا بد أن تعرف أهداف المصمم أو أغراضه. فإن كان جولد لا يعرف ما كان يقصده المصمم، فلا يمكنه أن يقول إن التصميم يَقْصُر عن بلوغ تلك المقاصد. فكيف يعرف جولد أن إبهام الپاندا ليس هو بالضبط ما كان في عقل المصمم؟

جولد يفترض أن إبهام الـپـاندا يجب أن يكون مجاورًا للسبابة كما هو الحال في الإنسان. ولكن ربما أن المصمم أراد إبهام الـپـاندا بالشكل الذي هو عليه. وبالرغم من كل شيء، فإبهام الـپـاندا يؤدي غرضه بامتياز في مساعدة الـپـاندا على تقشير نبات البامبو حتى يصل إلى جزئه الداخلي الذي يمكن أكله. من المحتمل أن الـپـاندا لا يحتاج إبهامًا مجاورًا للسبابة لأنه لا يحتاج أن يكتب كتبًا مثل جولد، ولكن كل ما يحتاجه هو تقشير البامبو. لذا، لا يمكن لجولد أن يخَطِّئ مصمم ذلك الإبهام إن كان الغرض منه لا يزيد عن تقشير البامبو.

أخيرًا، في عالم مقيَّد بالواقع الفيزيائي، يتطلب التصميم كله تحقيق نوع من التوازن. فحاسبات اللاپ توپ لا بد أن تُوازِن بين الحجم، والوزن، والأداء. والسيارات الكبيرة قد توفر مزيدًا من الأمان والراحة، ولكن التحكم فيها أصعب وتستهلك كمية أكبر من الوقود. السقوف العالية تُزيد الغرف فخامةً، ولكنها تستهلك أيضًا مزيدًا من الطاقة. ونظرًا لاستحالة التخلص من التوازنات في هذا العالم، على المهندسين أن يبحثوا عن حلول وسطية تحقق الأغراض المرجوة بأفضل ما يمكن. فمثلاً، لا يمكنك أن تعيب على تصميم سيارة صغيرة لأنها لا تكفي خمسة عشر راكبًا. فالهدف هو أن تحمل أربعة ركاب لا خمسة عشر راكبًا. وذلك لأن مصنع السيارات ضحى بالحجم في سبيل توفير الوقود وحَقَّقَ الغرض المرجو. وهكذا، ربما يُعَدَ تصميم إبهام الـپـاندا حلاً وسطًا يحقق الأغراض المرجوة. فالإبهام مناسب جدًا لتقشير البامبو. ربما لو صُمِّمَ الإبهام بأي شكل آخر، لأعاق الـپـاندا في مجال آخر. فنحن لا نعرف إلا إذا عرفنا أهداف المصمم. ولكن ما نعرفه بالتأكيد أن انتقادات جولد لا تنجح دون معرفة تلك الأهداف.

إذَن لماذا يوجد داروينيون حتى الآن؟

إن كانت أدلة التصميم الذكي بهذه القوة، إذَن لماذا يوجد داروينيون حتى الآن؟ فمهما كان، هؤلاء الأشخاص ليسوا سُذَّجًا، بل أسماؤهم عادةً ما تكون مسبوقة بلقب دكتور!

أول ما يجب ملاحظته أن المسألة ليست مجرد قضية فكرية حيث ينظر الداروينيون إلى الأدلة نظرة متجردة من المشاعر الشخصية ثم يتوصلون إلى استنتاج عقلاني. فقد كتب ريتشارد دوكينز هذه الكلمات المشهورة: "إن التقيتَ بشخص يزعم أنه لا يؤمن بالتطور، تستطيع أن تقول بكل ارتياح وثقة إنه جاهل، أو غبي، أو مجنون (أو شرير، وإن كنت لا أفضل أن آخذ هذا الوصف في الحسبان)".[٣٠] وطبعًا تعليق دوكينز خاطئ بكل بساطة. وذلك لأن هناك عباقرة حملة دكتوراه

يؤمنون بالتصميم الذكي. ولكن السؤال الحقيقي هو: لماذا الإهانات؟ لماذا الانفعال؟ لماذا العداوة؟ كنت أظن أن الموضوع علمي. لا بد أن هناك شيئًا آخر.

نعم. لنرجع إلى كلام ريتشارد ليونتنِ الذي اقتبسناه في الفصل السابق. تَذَكَّر تأكيده أن الداروينيين يؤمنون بما يؤمنون به من عبث لأن "المادية مطلقة لأننا لا نستطيع أن نسمح بدخول قَدَم إلهية من الباب". هذه هي القضية الحقيقية؛ إبقاءُ الله خارجًا. ولكن لماذا لا يريد الداروينيون "قدمًا إلهية في الباب"؟ نقترح أربعة أسباب رئيسية.

أولاً، اعتراف الداروينيين بالله يعني الاعتراف بأنهم ليسوا السلطة المرجعية العليا للحق. فحاليًا في هذا العالم المتقدِّم تكنولوجيًا، تنظر العامة إلى العلماء باعتبارهم السلطة المرجعية الموقَّرة، إنهم الكهنة الجدد الذين بِيَدِهم إمكانية تحسين الحياة والذين يشكلون المصدر الوحيد للحق الموضوعي. ولكن السماح بإمكانية وجودِ الله يعني التنازل عن زعمهم بأنهم أصحاب السلطة العليا.

ثانيًا، اعتراف الداروينيين بالله يعني الاعتراف أنهم ليسوا أصحاب السلطة المرجعية المطلقة في تفسير المسببات. بمعنى أنه إن كان الله موجودًا لا يمكنهم أن يفسروا كل حدث باعتباره نتيجة لقوانين طبيعية يمكن التنبؤ بها. وهو ما عَبَّرَ عنه ريتشارد ليونتن على هذا النحو: "الاحتكام إلى إله كلي القدرة يعني السماح بخرق منتظِمات الطبيعة في أي لحظة، والسماح بالمعجزات".[٣١] وكما أشار چاسترو أنه عندما يحدثُ ذلك "يفقد العالِم السيطرة" ويتركها لله بالتأكيد، وربما للاَّهوتي.[٣٢]

ثالثًا، اعتراف الداروينيين بالله يعاني المخاطرة بأمانهم المادي وإعجاب الناس بهم على المستوى المهني. كيف؟ بسبب الضغط الشديد من المجتمع الأكاديمي لنشر مواد تؤيد التطور. هات موضوعًا مهمًا، وقد تجد نفسك على غلاف مجلة ناشونال چيوجرافك *National Geographic* أو موضوع حلقة خاصة على محطة پـي. بي. إس. *PBS*. وإن لم تجد شيئًا مهمًا، قد تجد نفسك خارج وظيفتك، أو قد تفقد الأموال الممنوحة لك، أو تفقد على الأقل رضا زملائك المؤمنين بالفلسفة المادية. إذَن المال، والأمان الوظيفي، والمركز الاجتماعي كلها دوافع لتأييد المنظور الدارويني.

أخيرًا، وربما الأهم، اعتراف الداروينيين بوجودِ الله يعني الاعتراف بأنهم لا يملكون سلطةَ تعريفِ الصواب والخطإ بأنفسهم. فاستبعاد الداروينيين لما هو فائق للطبيعة يُمَكِّنهم من

تجنب إمكانية وجود ممنوعات أخلاقية. لأنه إن لم يكن هناك إله، يكون كل شيء مشروعًا، كما قالت إحدى الشخصيات في رواية للكاتب دوستويفسكي.[٣٣] (سنتناول الارتباط بين الله والأخلاق في الفصل القادم).

والحقيقة أن الراحل چوليان هَكسلي *Julian Huxley*، أحد قادة الداروينيين في إحدى الفترات، اعترف أن الحرية الجنسية دافع شائع وراء العقيدة التطورية. وعندما سأله مرف جريفن *Merv Griffin* مضيف البرامج الحوارية: "لماذا يؤمن الناس بالتطور؟" أجاب بصدق قائلاً: "سبب قبولنا للداروينية، حتى دون برهان، هو أننا لم نُرِدْ أن يتدخل الله في أعرافنا الجنسية".[٣٤] لاحظ أنه لم يستشهد بأدلة على التولد التلقائي ولا من سجل الحفريات. والدافع الذي لاحظ انتشاره بين التطوريين يقوم على استحسانات أخلاقية، لا أدلة علمية.

ويكشف الملحد السابق لي ستروبل *Lee Strobel* أن إيمانه بالداروينية يرجع إلى هذا الدافع. فهو يكتب: "كنتُ سعيدًا أن أتعلق بالداروينية كذريعة للتخلص من فكرة الله حتى أتمكن من تحقيق أغراضي في الحياة بلا خجل دون أي محاذير أخلاقية".[٣٥]

وقد اعترف بعض الداروينيين أيضًا بذلك للكاتب والمحاضر رون كارلسون. ففي إحدى المناسبات، بعد أن ألقى محاضرة في جامعة كبرى عن مشكلات الداروينية وأدلة التصميم الذكي، تناول العشاء مع أستاذ في علم الأحياء حَضَرَ عَرْضَه.

فسأله كارلسون: "ما رأيك في محاضرتي؟"

فبدأ الأستاذ كلامه قائلاً: "رون، كلامك صحيح ومعقول جدًا. ولكني سأستمر في تدريس الداروينية على أي حال".

فتحير كارلسون وسأله: "لماذا؟"

أجاب الأستاذ: "بصراحة يا رون لأن الداروينية مريحة أخلاقيًا".

فسأل كارلسون بإلحاح: "مريحة أخلاقيًا؟ ماذا تقصد؟"

أجاب الأستاذ: "أقصد إن كانت الداروينية صحيحة، أي إن لم يكن الله موجودًا وكلنا تطورنا من طحالب خضراء لزجة، يمكنني أن أنام مع من أريد. في الداروينية لا مُساءلة أخلاقية".[٣٦]

إنها لحظة صدق تام. طبعًا هذا لا يعني أن كل الداروينيين يفكرون بهذه الطريقة أو أن كل الداروينيين غير أخلاقيين، فلا شك أن البعض يعيشون حياة أخلاقية أفضل من الكثيرين ممن

يُدْعَون مسيحيين. ولكنه يكشف ببساطة أن بعض الداروينيين مدفوعون لا بالأدلة بل برغبة في أن يظلوا أحرارًا مما يضعه الله من محاذير أخلاقية معروفة. وهذا الدافع قد يؤدي بهم إلى إخماد الأدلة على وجود خالق حتى يواصلوا حياتهم بالطريقة التي تحلو لهم. (وبهذا المعنى لا تختلف الداروينية عن الكثير من أديان العالم الأخرى من حيث إنها تقدم طريقة للتعامل مع الذنب الذي ينتج من السلوك غير الأخلاقي. الفرق هو أن بعض الداروينيين بدلاً من أن يُقِرّوا بالذنب ويقدموا طرقـًا للتكفير عنه أو قواعد لتجنبه، يحاولون أن يتجنبوا أي إشارة للذنب بتأكيد أنه ليس هناك سلوك غير أخلاقي حتى نكون مذنبين بارتكابه).

هذه الدوافع الأربعة التي اقترحناها يجب ألا تدهشنا. فالجنس والسلطة هما الدافعان اللذان يشكلان أساس الكثير من مناقشاتنا الثقافية الأشَدّ حدةً، مثل تلك المختصة بالإجهاض والمثلية الجنسية. ففي أغلب الأحيان يتخذ الناس في تلك المجادلات المواقف التي تتماشى مع رغباتهم الشخصية فحسب بدلاً من أن يفكروا في الأدلة.

وكذلك الاعتقاد في الداروينية غالبًا ما يكون مسألة إرادية أكثر منه مسألة عقلية. وأحيانًا يرفض الناس ما يعرفون أنه حقيقي بسبب ما سيُحدثه من تأثير على حياتهم الشخصية. وهو ما يفسر اقتراح بعض الداروينيين لهذه التفسيرات العبثية "المناقضة لما هو واضح"، التفسيرات التي "تخالف الحس العام". فبالرغم من الأدلة الصريحة على التصميم، هؤلاء الداروينيون يخشون تدخّل الله في حياتهم الشخصية أكثر مما يخشون أن يكونوا مخطئين في استنتاجاتهم العلمية.

وهو ما لا يعني أن كل الداروينيين لديهم هذه الدوافع وراء معتقداتهم. فالبعض قد يعتقدون فعلاً أن الأدلة العلمية تؤيد نظريتهم. ونظن أنهم يكَوِّنون هذا المفهوم الخاطئ لأن معظم الداروينيين نادرًا ما يدرسون أبحاثـًا في مجالات أخرى. والنتيجة أن عددًا قليلاً جدًا هو من يرى الصورة الكاملة.

وهو ما ينطبق بوجه خاص على علماء الأحياء. فعالِم الأحياء الخلوية والجزيئية چوناثان ولز يشير إلى أن "معظم علماء الأحياء أمناء ومجتهدون وحريصون على تقديم الأدلة بدقة، ولكنهم نادرًا ما يغامرون بالخروج من مجالاتهم".[٣٧] وهو ما يعني أنه بالرغم من أنهم أمناء في عملهم، فهم لا يرون إلا قطعة اللغز التي تخصهم. وبما أن معظم علماء الأحياء تعلموا أن سطحَ علبة اللغزِ الدارويني صحيح بوجه عام (فقط تلك التفاصيل

المزعجة هي التي لم يوجد لها حل حتى الآن)، إذَن هم يفسرون قطعة اللغز التي تخصهم بناءً على سطح العلبة الذي في عقولهم، مفترضين صدق المنظور الدارويني ومفترضين أن أقوى الأدلة على الداروينية موجودة في مجال آخر من مجالات علم الأحياء. لذا، حتى إن كانوا لا يرون أدلة على التولد التلقائي أو الماكرو تطور في قطعة اللغز التي تخصهم، فمن المؤكد أن الدليل موجود في مجال آخر في علم الأحياء لأن سطح العلبة الدارويني يستلزم أن تكون تلك الأمور صحيحة. وهذه الظروف تجعل معظم علماء الأحياء لا يَشُكّون في النموذج التطوري.

ما أهمية عمر الكون؟

لا نستطيع أن نترك مناقشة التطور والخلق دون أن نذكر على الأقل عمر الكون. وبما أن الآراء تتعدد حول هذا الموضوع، وخاصةً في الدوائر المسيحية، فالمجال هنا لا يسمح بتناول كل هذه الآراء (ولكنها مشروحة بالتفصيل في "موسوعة بيكر للدفاعيات المسيحية واللاهوت النظامي، الجزء الثاني" *Baker Encyclopedia of Christian Apologetics and Systematic Theology, Volume 2*).[٣٨]

إلا أننا نريد أن نؤكّد أنه رغم أن عمر الكون مسألة لاهوتية مهمة، فالأهم ليس **متى خُلِقَ** الكون ولكن **أنه خُلِقَ**. وكما رأينا الكون انفجر إلى الوجود من العدم، وقد ضُبِطَ ضبطًا دقيقًا ليدعم الحياة على الأرض. وبما أن هذا الكون، بما فيه مُتَصَّل الزمكان *time-space continuum* كله، له بداية، إذَن فهو يتطلب بادئًا بغضِّ النظر عن الوقت الذي حدثت فيه هذه البداية. وهكذا، بما أن هذا الكون مصمَّم، إذَن هو يتطلب مصمِّمًا بغض النظر عن الوقت الذي تم فيه هذا التصميم.

يمكننا أن نناقش مدة أيام سفر التكوين، أو ما إذا كانت الافتراضات التي تقوم عليها أساليب تحديد عمر الأرض افتراضات صحيحة. ولكننا عندما نفعل ذلك، لا بد أن نحترس من التشويش على الفكرة الأهم، ألا وهي أن هذه الخليقة تتطلب خالقًا.*

* بعض المسيحيين يخشون من أن التسليم بفترات زمنية طويلة يُزيد من معقولية الماكرو تطور. ولكن هذا ليس صحيحًا كما رأينا في الفصل الخامس.

الملخص والخلاصة

والآن نصل إلى فصل القول. ليس هناك فعليًا إلا احتمالان: إما أن الله خَلَقَنا، أو أننا خَلَقْنا الله. إما أن الله موجود فعلاً، أو أنه من نسجِ عقولنا. وكما رأينا الداروينية حيث لا إله هي نتاج العقل البشري. ولا بد أن تتمتع بقدر كبير من الإيمان حتى تصبح داروينيًا. وعليك أن تؤمن أنه **بدون تدخل ذكي:**

١- شيء نشأ من لا شيء (أصل الكون).

٢- النظام نشأ من الفوضى (تصميم الكون).

٣- الحياة نشأت من اللاحياة (أي أن الذكاء نشأ من اللاذكاء، والشخصية من اللاشخصية).

٤- الأشكال الجديدة من الحياة نشأت من أشكال حياة موجودة رغم الأدلة التي تُثْبت العكس مثل:

(١) الحدود الوراثية

(٢) التغير التكراري

(٣) التعقيد غير القابل للاختزال

(٤) الانعزال الجزيئي

(٥) عجز الأشكال الانتقالية عن الحياة

(٦) سجل الحفريات

إذَن الأدلة ليست في صالح الماكرو تطور. ولكن ماذا عن الماكرو تطور الخَلقي؟ ربما ما لا يمكن تفسيره طبيعيًا يصبح له معنى إن أدخلت الله في الصورة.

لماذا هذا الاقتراح؟ لأنه إن وُجِدَت أدلة على الله **وعلى** الماكرو تطور، إذَن قد نجد سببًا لدمج الاثنين معًا. ولكن كما رأينا، ليس هناك أدلة على الماكرو تطور. فالأمر ليس أن عندنا أدلة متضاربة: بعضها يشير إلى الماكرو تطور، وبعضها يدحضه. فإن كان عندك مثلاً سجل حفريات يحوي ملايين الأشكال الانتقالية من ناحية، ولكن عندك من ناحية أخرى مخلوقات معقَّدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال، ربما يمكنك أن ترجح أن الله وَجَّهَ التطور أثناء تلك الفجوات التي لا يربط بينها رابط. ولكن بما أن الحال ليس هكذا، يبدو أنه لا حاجة أن يوجِّه الله الماكرو

تطور لأنه ليس هناك دليل على حدوث الماكرو تطور أصلاً!

أخيرًا نلقي نظرة على الأدلة من منظور سؤال آخر: ما نوعية الأدلة المطلوبة لإثبات صحة الخلق (التصميم الذكي)؟ ماذا عن:

١- الكون الذي انفجر إلى الوجود من العدم

٢- الكون الذي يحوي أكثر من ١٠٠ ثابت مضبوطة ضبطًا دقيقًا وتُمَكِّن الحياة من الوجود على هذا الكوكب النائي شديد الصغر الذي يُطلَق عليه الأرض

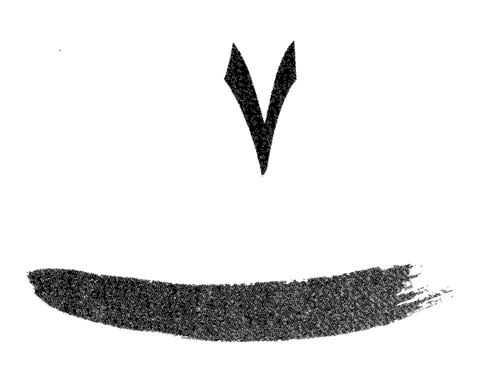
٣- الحياة التي:

- لوحظ أنها لا تنشأ إلا من حياة موجودة (لم يُلحَظ أبدًا أنها نشأت تلقائيًا)
- تتكون من آلاف بل ملايين الموسوعات من التعقيد المحدد المرصود تجريبيًا (ومِن ثم فالحياة أعظم من المواد الكيميائية غير الحية التي تحويها)
- تتغير تكراريًا وفي نطاق محدود
- لا يمكن بناؤها أو تعديلها تدريجيًا (أي أنها معقدة تعقيدًا لا يقبل الاختزال)
- منعزلة جزيئيًا فيما بين الأشكال الأساسية (ليس هناك تدرج ينحدر من سلف واحد على المستوى الجزيئي)
- تترك سجل حفريات يحوي كائنات مكتملة التكوين تظهر فجأة، ولا تتغير، ثم تختفي فجأة.

إن نظرة متجردة إلى الحقائق ترجِّح أن الخلق هو الصحيح، وليس الماكرو تطور. وكما رأينا الملحدون عليهم أن يبذلوا جهدًا كبيرًا حتى ينكروا الواضح. **ولذلك فهم يحتاجون إلى إيمان أكبر بكثير مما نحتاج إليه.**

أخيرًا، نقدم مقترحًا يساعد في حل الجدل الدائر في هذا البلد بشأن ما يجب تدريسه في المدارس الحكومية عن الخلق والتطور. ما الخطأ في تدريس ما تناولناه من الفصل الثالث إلى السادس؟ لاحظ أننا لم نقتبس آيات من الكتاب المقدس لإثبات أفكارنا. ولكننا استشهدنا بأدلة علمية. إذَن فهي ليست معركة بين العلم والدين، ولكنها معركة بين العلم **السليم** والعلم **الركيك**. وحاليًا معظم أبنائنا يدرسون علمًا ركيكًا لأنهم لا يدرسون إلا التطور. ولكن الأمور يجب ألا تسير هكذا. فما هو الذي ضد الدستور في تدريس أدلة *SURGE*، أو تعريف الأطفال

بتعقيد أبسط أشكال الحياة، أو إظهار الفرق بين الميكرو والماكرو تطور وبين علم الأدلة الجنائية والعلم التجريبي، أو كشف المشكلات التي تشوب الماكرو تطور؟ لا شيء. فلماذا نستمر في حقن أبنائنا بنظرية معيبة مهترئة تقوم على افتراضات فلسفية مسبقة أكثر مما تقوم على الملاحظات العلمية؟ لماذا لا نطرح على أبنائنا كل الأدلة العلمية، المؤيِّدة والمضادة، ونترك لهم الاختيار؟ فمهما كان، ألا يجب أن نعلِّمهم أن يفكِّروا بأنفسهم تفكيرًا نقديًا؟ بالطبع، علينا أن نفعل ذلك. ولكن الداروينيون سيفعلون كل ما بوسعهم للحيلولة دون هذا الأمر. فالداروينيون يفضلون إخماد الدليل على تقديمه بشكل منصف. لماذا؟ لأن هذا هو المجال الوحيد الذي يفتقر فيه الداروينيون للإيمان، **فهم لا يملكون الإيمان بأن أبناءنا سيستمرون في تصديق نظريتهم إذا رأوا كل الأدلة.**



الأم تريزا مقابل هتلر

"إننا نعتبر هذه الحقائق واضحة في ذاتها، ألا وهي أنّ كافة البشر مخلوقون سواسية، وأنهم مُنِحوا من خالقهم حقوقًا راسخة معينة غير قابلة للتصرف، ومنها الحق في الحياة، والحرية، والسعي نحو السعادة".

إعلان الاستقلال الأمريكي

هل من مقياس؟

بينما كنت أنا وصديقي ديـف *Dave* ننتهي من تناول العشاء في مطعم يطل على المحيط في مدينة پورتلاند بولاية مين، تَحَوَّل الحديث إلى موضوع الدين. فقد قال ديـف: "لا أظن أنه من الممكن أن يكون دين واحد صحيحًا والباقي كله خطأ. ولكن يبدو أنك يا فرانك وجدت مركزًا لحياتك. وجدت شيئًـا صحيحًا بالنسبة لك، وأظن أن هذا عظيم".

فبدأت أساير فرضيته من أن شيئًـا قد يكون صحيحًا لشخص وليس صحيحًا لشخص آخر، وسألته: "ديـف ما الصحيح بالنسبة لك؟ ما الذي يعطي حياتك معنى؟"

فأجاب: "كسب المال ومساعدة الناس". ديـف رجل أعمال ناجح جدًا، فحاولتُ أن أستثيره لأعرف منه المزيد.

وقلت: "ديـف، أعرف رؤساء تنفيذيين بلغوا قمة النجاح المهني. خططوا لأمور عظيمة في

حياتهم المهنية وحقّقوها، ولكنهم لم يخططوا لحياتهم الشخصية ولم يحققوا فيها إلا القليل. وهم الآن على وشك التقاعد، ويسألون أنفسهم: "ثم ماذا؟"''

فوافق ديـف وأضاف: ''نعم، وأعرف أن معظم أولئك الرؤساء التنفيذيين مروا بخبرات طلاق بشعة، غالبًا لأنهم أهملوا أسرهم سعيًا وراء الدولار. ولكني لست كذلك. لن أضحي بأسرتي من أجل المال، وفي عملي أريد أن أساعد الناس أيضًا''.

مدحْتُه على التزامه بأسرته ورغبته في مساعدة الناس، ولكن الأسئلة لم تنتهِ. فلماذا يجب أن نُخلص لعائلاتنا؟ مَن قال إنه ينبغي أن ''نساعد الناس''؟ هل ''مساعدة الناس'' واجب أخلاقي عام، أم أنه صحيح لك وليس صحيحًا لي؟ وما نوعية مساعدتك لهم: مالية؟ نفسية؟ مادية؟ روحية؟

فقلت: ''ديـف، إن لم يكن هناك مقياس موضوعي، فالحياة ليست إلا لعبة "بنك الحظ" *Monopoly*. يمكنك أن تحصل على الكثير من الأموال والكثير من الممتلكات، ولكن عندما تنتهي اللعبة، يرجع كل شيء إلى العلبة. هل هذه هي الحياة؟''

وإذ شعر ديـف بعدم ارتياح لاتجاه الحوار، غيَّر الموضوع بسرعة. ولكن إحساسه بأنه يجب أن ''يساعد الناس'' كان صحيحًا، ولكنه لم يجد له مبررات. لماذا يعتقد أنه يجب أن ''يساعد الناس''؟ من أين أتى بهذه الفكرة؟ ولماذا أنا وأنت نتفق معه في أعماقنا؟

توقفْ وتَعَمَّق برهة في هذه الفكرة: ألستَ مثل ديـف؟ ألا تشعر بهذا الإحساس العميق بواجبنا جميعًا نحو ''مساعدة الناس''؟ كلنا نشعر بذلك. لماذا؟ ولماذا يبدو أن معظم البشر لديهم ذلك الحس الحدسي بأنه ينبغي أن يفعلوا الخير وينبذوا الشر؟

ووراء إجابات تلك الأسئلة يكمن المزيد من الأدلة على وجودِ الله الخالق الحافظ. ولكن هذه الأدلة ليست علمية، فقد تناولنا الأدلة العلمية في الفصول السابقة، ولكنها أدلة ذات طبيعة أخلاقية. وهي مثل قوانين المنطق والرياضيات؛ غير مادية ولكن حقيقية. إن ما يجعلنا نعتقد أنه علينا أن نفعل الخير لا الشر، ما يجعلنا نعتقد مثل ديـف أنه علينا أن ''نساعد الناس'' هو وجود قانون أخلاقي كُتِب على قلوبنا. أي أن هناك ''تشريعًا'' لعمل الخير أُعْطيَ للبشرية جمعاء.

والبعض يسمون هذا التشريع الأخلاقي ''الضمير''، والبعض الآخر يسمونه ''القانون الطبيعي''، ولكن آخرون (مثل الآباء المؤسّسين للولايات المتحدة) يطلقون عليه ''قانون

الطبيعة". ونحن نطلق عليه "القانون الأخلاقي". ولكن أيًا كان الاسم الذي تطلقه عليه، وجود مقياس أخلاقي منقوش في عقول البشر أجمعين يشير إلى مشرِّع لهذا القانون الأخلاقي. فكل قانون له مُشَرِّع. والقانون الأخلاقي كذلك. لا بد أن شخصًا كلّفنا بهذه الواجبات الأخلاقية.

هذا القانون الأخلاقي هو حجتنا الثالثة لوجود إله خالق حافظ (بعد الحجة الكونية والحجة الغائية). وهي كالتالي:

١- لكل قانون مشرِّع.

٢- هناك قانون أخلاقي.

٣- إذَن هناك مُشَرِّع للقانون الأخلاقي.

إن كانت المقدمتان الأولى والثانية صحيحتين، فالنتيجة تترتب عليهما بالضرورة. وطبعًا كل قانون له مُشَرِّع. لا يمكن أن يوجد تشريع إلا إذا وُجِدت سلطة تشريعية. بالإضافة إلى أنه إذا كان هناك التزامات أخلاقية، لا بد من وجود شخص نكون ملتزمين تجاهه.

ولكن هل حقًا يوجد قانون أخلاقي؟ هذا ما اعتقده الآباء المؤسسون للولايات المتحدة. فكما كتب توماس چفرسون *Thomas Jefferson* في إعلان الاستقلال ""قانون الطبيعة" واضح في ذاته". فأنت لا تستخدم العقل حتى تكتشفه، ولكنك تعرفه هكذا. وربما هذا ما جعل صديقي ديـف يصطدم بحائط سد في تفكيره. فهو يعرف أن "مساعدة الناس" فعل صائب، ولكنه لم يستطع تعليل هذا الصواب دون الاحتكام إلى مقياس خارج نفسه. فبلا مقياس موضوعي من المعنى والأخلاق، تخلو الحياة من المعنى وينتفي الصواب المطلق والخطأ المطلق. ويصبح كل شيء مجرد رأي.

فعندما نقول إن القانون الأخلاقي موجود، نعني أن كل الناس مطبوعون بحس جوهري للصواب والخطإ. فالكل مثلاً يعلم أن الحب أسمى من الكره وأن الشجاعة أفضل من الجُبن. ويكتب ج. بودچيشفسكي الأستاذ بجامعة تكساس في أوستن *University of Texas at Austin*: "الجميع يعرفون مبادئ معينة. فما من بلد يَعتبر القتل فضيلة والعرفان رذيلة".[١] وسي. إس. لويس الذي تناول هذا الموضوع بعمق في كتابه الكلاسيكي "المسيحية المجردة" *Mere Christianity* عبرَّ عن الفكرة قائلاً: "تخيل بلدًا حيث يحظى الناس بالإعجاب عندما يفرون

من المعركة، أو حيث يشعر الرجل بالفخر عندما يخون كل مَن أحسن إليه. إن استطعت أن تتخيل ذلك يمكنك أن تتخيل أن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة". [٢]

وهو ما يعني أن الجميع يعرفون بوجود واجبات أخلاقية مطلقة. والواجب الأخلاقي المطلق هو شيء مُلْزِم للجميع، في كل زمان، وفي كل مكان. والقانون الأخلاقي المطلق يتضمن مُشَرِّعًا مطلقًا للقانون الأخلاقي.

إلا أن هذا لا يعني أن كل قضية أخلاقية لها إجابات يسهل التعرف عليها، أو أنه لا أحد ينكر وجود أخلاق مطلقة. ولكن الأخلاق تضم مشكلات عسيرة، والناس ينكرون القانون الأخلاقي كل يوم. ولكنه يعني أن هناك مبادئ أساسية للصواب والخطإ يعرفها الجميع، سواء اعترفوا بها أم لا. ويطلق بودچيشفسكي على هذه المعرفة الأساسية بالصواب والخطإ "ما لا نستطيع أن نجهله" *What We Can't Not Know* في كتاب له تحت ذلك العنوان. [٣]

فنحن مثلاً لا نستطيع ألا نعرف أن قتل الأبرياء بلا سبب خطأ. البعض قد ينكرون ذلك ويرتكبون جرائم قتل، ولكنهم في أعماق قلوبهم يعرفون أن القتل خطأ. وحتى السفاحون **يعرفون** أن القتل خطأ، ولكنهم قد لا **يشعرون** بالندم. [٤] والقتل خطأ عند الجميع، وفي كل مكان: في أمريكا، والهند، وزيمبابوي، وسائر البلدان جميعًا، الآن وكل أوان، مثل غيره من سائر القوانين الأخلاقية المطلقة. هذا هو ما يقوله القانون الأخلاقي لكل قلب بشري.

كيف نعرف أنه يوجد قانون أخلاقي؟

تتعدد أسباب معرفتنا بوجود قانون أخلاقي، وسنستعرض ونناقش ثمانية منها. وبعض هذه الأسباب متداخل، ولكننا سنناقشها بهذا الترتيب:

١- القانون الأخلاقي لا يمكن إنكاره.

٢- نعرفه من ردود أفعالنا.

٣- إنه أساس حقوق الإنسان.

٤- إنه مقياس العدالة الثابت.

٥- يفصل فصلاً حقيقيًا بين المواقف الأخلاقية (مثل الأم تريزا مقابل هتلر).

٦- بما أننا نعرف الخطأ المطلق، لا بد أن هناك مقياسا مطلقًا للصواب.

٧- القانون الأخلاقي هو أساس الخلافات السياسية والاجتماعية.

٨- لو لم يكن هناك قانون أخلاقي، لما كنا نبحث عن أعذار عندما نخرقه.

١- القانون الأخلاقي لا يمكن إنكاره: النسبيون عادةً ما يزعمون زعمين بخصوص الحق: ١) ليس هناك حق مطلق، ٢) ليس هناك قِيَم أخلاقية مطلقة. وخطة "رود رَنَر" تساعدك على تفنيد زعمهم الأول: إن لم يكن هناك فعلاً حق مطلق، إذَن زعمهم المطلق بأنه "ليس هناك حق مطلق" لا يمكن أن يكون صحيحًا. وهكذا ترى أن عبارة النسبيين غير منطقية لأنها تؤكد ما يحاولون إنكاره.

حتى چوزيف فلتشر *Joseph Fletcher* أبو أخلاق الموقف الحديثة وقع في هذا الفخ. فقد أصر في كتابه "أخلاق الموقف" *Situation Ethics* أن "مَن يؤمن بأخلاق الموقف يتجنب كلمات من قبيل "أبدًا"، "تام"، "دائمًا"... كمن يتجنب شيئًا ضارًا، كما يتجنب كلمة "مطلقًا"".[٥] وهو ما يعني طبعًا أن "المرء يجب ألا يقول أبدًا كلمة "أبدًا"" أو "يجب أن نتجنب دائمًا استخدام كلمة "دائمًا"". إلا أن تلك العبارات عينها لا تتجنب ما تطلب منا تجنبه. فالنسبيون متأكدون **بصفة مطلقة** أنه ليس هناك مطلْقَات.

والقيم المطلقة كالحق المطلق، لا يمكن إنكارها. ففي حين أن الزعم الذي مفاده أنه "لا يوجد قيم مطلقة" لا يفند نفسه، لا يمكننا عمليًا أن ننكر وجود قيم مطلقة. وذلك لأن مَن ينكر كل القيم، يعطي قيمة لحقه في إنكارها. وهو علاوة على ذلك يريد من الجميع أن يعطوه قيمة بصفته شخصًا، بينما ينكر أن هناك قيمة لجميع الأشخاص. وهو ما تم التعبير عنه بوضوح منذ عدة سنوات عندما كنتُ (أنا نورم) أتحدث إلى مجموعة من سكان ضواحي شيكاغو من ذوي الثروة والتعليم الراقي. وبعد أن قلت إن هناك قيمًا أخلاقية موضوعية مُلزِمة لجميعنا، وقفَتْ سيدة واعترضت بصوت مرتفع قائلة: "ليس هناك قيم حقيقية. المسألة كلها أذواق أو آراء!" فقاومْتُ إغراء الرغبة في توصيل فكرتي بأن أصرخ فيها قائلاً: "اجلسي واخرسي، يا متعلمة يا صاحبة الشهادات. لا أحد يريد أن يسمع رأيك!" وطبعًا لو كنتُ بهذه الوقاحة والفظاظة، لكان من حقها أن تشكو من أني انتهكت حقها في أن يكون لها رأي وحقها في التعبير عنه. وهو ما كان يمكنني أن أرد عليه بالقول "ليس لكِ هذا الحق، فقد أخبرتِني توًا أن هذه الحقوق لا وجود لها!"

فشكواها كانت ستُثْبِت أنها تؤمن فعليًا بقيمة حقيقية مطلقة، فهي تعطي قيمة لحقها في أن تقول إنه ليس هناك قيم مطلقة. أي أن حتى مَن ينكرون كل **القيم**، يعطون **قيمة** لحقهم في ذلك الإنكار. وهنا يكمن التناقض. فمن المستحيل عمليًا إنكار القيم الأخلاقية.

٢- ردود أفعالنا تساعدنا على اكتشاف القانون الأخلاقي (الصواب من الخطأ): في السيناريو المذكور أعلاه، كان رد فعل السيدة سيُذكِّرها بوجود قيم أخلاقية موضوعية. وأحد الأساتذة في واحدة من كبرى الجامعات في ولاية إنديانا عَرَّضَ أحد طلابه ممن يؤمنون بالنسبية للخبرة نفسها من وقت ليس ببعيد. وكان الأستاذ يُدَرِّس مادة في الأخلاق، وكَلَّف طلابه بكتابة بحث للفصل الدراسي. وطلب من كل دارس أن يكتب في أي موضوع أخلاقي من اختياره، بشرط أن يدعم أطروحته جيدًا بالأسباب والمراجع الموَثَّقة.

وكتب طالب ملحد بحثًا بليغًا في موضوع النسبية الأخلاقية. وكانت حجته تقول إن "كل الأخلاق نسبية؛ ليس هناك مقياس مطلق للعدالة أو الصواب الأخلاقي؛ إنها مسألة رأي؛ "أنت تحب الشوكولاتة، أنا أحب الڤانيليا"، وهكذا". وقد دعم بحثه بالأسباب والمراجع. وكان مستوفيًا للشروط من حيث الحجم، وموعد التسليم، وقدَّمه في غلاف أزرق أنيق.

وبعد أن قرأ الأستاذ البحث كله كتب على الغلاف الأمامي "راسب، لا أحب الأغلفة الزرقاء". وعندما استلم الطالب بحثه استشاط غضبًا واندفع إلى مكتب الأستاذ محتجًا: ""راسب، لا أحب الأغلفة الزرقاء" هذا ليس إنصافًا. ليس صوابًا. ليس عدلاً. لم تُقَيِّم البحث بناءً على ما يستحق".

فأجاب الأستاذ بهدوء وهو يرفع يده ليهدئ الطالب الفصيح: "تمهل لحظة. لقد قرأت أبحاثًا كثيرة. انتظر... أليس بحثك هو الذي يقول إنه ليس هناك شيء اسمه الإنصاف، والصواب الأخلاقي، والعدالة؟"

فأجاب الطالب: "نعم".

فسأله الأستاذ: "إذَن ما هذا الذي تقوله عني إني لست **منصفًا**، ولا **صائبًا**، ولا **عادلاً**؟ ألم تكن حجة بحثك أن الأمر كله مسألة ذوق؟ "أنت تحب الشوكولاتة، أنا أحب الڤانيليا؟""

أجاب الطالب: "نعم هذا رأيي".

فأجاب الأستاذ: "عظيم. إذَن أنا لا أحب الأزرق. وأنت تحصل على تقدير راسب".

وفجأة أضاء المصباح في دماغ الطالب. لقد أدرك أنه يؤمن **فعليًا** بالمطلقات الأخلاقية. فهو على الأقل يؤمن بالعدالة. ومهما كان من أمر، فهو يتهم أستاذه **بالظلم**

لأنه أعطاه تقدير راسب بسبب لون الغلاف. وهذه الحقيقة البسيطة دحضت كل القضية التي قدمها دفاعًا عن النسبية.

والدرس الذي يكمن في القصة هو أن هناك أخلاقيات مطلقة. وإن أردت حقًا أن تدفع النسبيين للاعتراف بها، كل ما يجب أن تفعله أن تعاملهم معاملة ظالمة. وردود أفعالهم ستكشف القانون الأخلاقي المكتوب على قلوبهم وعقولهم. ففي هذه القصة أدرك الطالب وجود مقياس موضوعي للصواب الأخلاقي من **رد فعله** لمعاملة الأستاذ له. وهكذا قد لا أظن أن السرقة خطأ عندما أسرق منك. ولكن لاحظ الغضب الذي سيشتعل بداخلي عندما تسرق مني.

وردود أفعالنا تبين أيضًا أن النسبية في النهاية لا تصلح للعيش. فقد يزعم الناس أنهم نسبيون، ولكنهم مثلاً لا يريدون زوجاتهم أن تُخلصن لهم **نسبيًا**. فكل الرجال النسبيين تقريبًا يتوقعون من زوجاتهم أن تعشن على أساس أن الزنا خاطئ **على نحو مطلق**. وسيكون **رد فعلهم** سلبيًا إن مارسن النسبية عمليًا بارتكاب الزنا. وحتى إن كان هناك القليل من النسبيين لا يعترضون على الزنا، هل تظن أنهم لو كانوا مهددين بالقتل أو الاغتصاب سيعتبرون القتل أو الاغتصاب عملاً أخلاقيًا؟ طبعًا لا. إن النسبية تتناقض مع ردود أفعالنا وحِسِّنا العام.

وردود الأفعال تساعدنا كأمة في تحديد الصواب والخطأ. فعندما اخترق الإرهابيون **مبانينا بطائراتنا** التي كانت تحمل **أحباءنا** الأبرياء، كان رد **فعلنا العاطفي** مناسبًا لبشاعة الجريمة. فرد فعلنا أكَّد أن الفعل خاطئ على نحو مطلق. وقد يقول البعض: "ولكنَّ ابن لادن ورفاقه المجرمين رأوا أن الفعل صحيح أخلاقيًا". إن هذا يَرجع جزئيًا إلى أن الجريمة لم تكن موجَّهة ضدهم. في رأيك ماذا يكون **رد فعل** ابن لادن لو اخترقنا **مبانيه بطائراته** التي تحمل **أحباءه** الأبرياء؟ كان سيعرف فورًا أن هذا الفعل خاطئ على نحو لا يمكن إنكاره.

لذا فالقانون الأخلاقي لا يظهر دائمًا من أفعالنا، كما يتضح من الفظائع التي يرتكبها البشر تجاه بعضهم البعض. ولكنه ينكشف بجلاء في **ردود** أفعالنا، أي ما نفعله عندما نتعرض شخصيًا للظلم. وهو ما يعني أن **القانون الأخلاقي ليس هو دائمًا المقياس الذي نعامل به الآخرين، ولكنه في كل الحالات تقريبًا المقياس الذي نتوقع من الآخرين أن يعاملونا به.** فهو لا يصف سلوكنا **الفعلي**، بل ينص على السلوك **الواجب**.

٣- دون القانون الأخلاقي تنتفي حقوق الإنسان: تأسَّست الولايات المتحدة الأمريكية على الاعتقاد في القانون الأخلاقي وحقوق الإنسان الممنوحة من الله. فقد كتب توماس چفرسون في إعلان الاستقلال:

> إننا نعتبر هذه الحقائق واضحة في ذاتها، ألا وهي أن كافة البشر مخلوقون سواسية، وأنهم مُنِحوا من خالقهم حقوقًا راسخة معينة غير قابلة للتصرف، ومنها الحق في الحياة، والحرية، والسعي نحو السعادة. ولضمان **هذه الحقوق**، تتأسس الحكومات بين الناس، وتكتسب **صلاحياتها العادلة** من موافقة المحكومين (الخط الأسود العريض من إضافة الكاتب).

لاحظ عبارة ''مُنِحوا من خالقهم حقوقًا راسخة معينة غير قابلة للتصرف''. أي أن الآباء المؤسسين آمنوا أن حقوق الإنسان ممنوحة من الله، ومن ثم فهي عامة ومطلقة، أي أنها حقوق تشمل كل البشر، في كل مكان، وفي كل زمان، بصرف النظر عن جنسيتهم أو دينهم.

لقد أدرك چفرسون وسائر الآباء المؤسسين أن هناك سلطة أعلى، أي ''الخالق''، يمكنهم الاحتكام إليها لإرساء أسس أخلاقية موضوعية لاستقلالهم. فلو بدأوا إعلان الاستقلال بعبارة ''إننا نعتبر أن هذه **الآراء** آراؤنا...'' (بدلاً من ''حقائق واضحة في ذاتها'')، لما قَـدَّمَ ذلك مبررًا أخلاقيًا موضوعيًا لإعلان استقلالهم. ولكنه كان فقط سيُعَبِّر عن رأيهم المضاد لرأي الملك چورچ. لذا احتكم المؤسسون إلى ''الخالق'' لأنهم آمنوا أن قانونه الأخلاقي هو المقياس المطلق للصواب والخطإ الذي يبرِّر قضيتهم. وكانت قضيتهم إنهاء حكم الملك چورچ في المستعمرات الأمريكية. لقد اقتنعوا بضرورة إنهاء حكم چورچ لأنه كان ينتهك حقوق الإنسان الأساسية لمستوطني المستعمرات.

ومن وجهة ما، كان موقف الآباء المؤسسين مثل موقف دول الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية. فعندما مَثَـلَ مجرمو الحرب النازيون أمام المحكمة في نورمبرج *Nuremburg*، أُدينوا بتهمة انتهاك حقوق الإنسان الأساسية كما يُعَرِّفها القانون الأخلاقي (الذي ينعكس في القانون الدولي). إنه القانون الذي يفهمه كافة البشر بالفطرة والذي تخضع له كل الأمم. ولو لم تكن هناك هذه الأخلاق الدولية التي تتجاوز حدود قوانين الحكومة الألمانية العلمانية، لما وجد الحلفاء أساسًا لإدانة النازيين. وهو ما يعني أنه لما أمكننا أن نقول إن النازيين كانوا مخطئين على نحو مطلق ما لم نعرف الصواب المطلق. ولكننا موقنون أنهم مخطئون على نحو مطلق، إذَن مؤكَّد أن القانون الأخلاقي موجود.

٤- دون القانون الأخلاقي لا نميّز بين العدل والظلم: ربما تُعَدّ أشهر حجة ضد وجودِ الله هي وجود الشر واستمراره في العالم. فإن كان هناك إله صالح وعادل، لماذا إذَن يسمح بالسوء للأخيار؟ لطالما أكد الملحدون أن الإيمان بعدم وجود هذا الإله أكثر منطقية من محاولة تفسير وجود الشر والله ومعًا.

وكان سي. إس. لويس أحد هؤلاء الملحدين. فقد رأى أن كل ما في العالم من ظلم يؤكِّد إلحاده، حتى بدأ يفكر في الوسيلة التي مكّنَته من معرفة الظلم أصلاً: فقد كتب: "[بصفتي ملحدًا] كانت حجتي ضد الله هي أن الكون يبدو في منتهى القسوة والظلم. ولكن من أين أتيت بفكرة العدل والظلم؟ فالمرء لا يسمي الخط منكسرًا إلا إذا كان يعرف الخط المستقيم. فبمَ كنتُ أقارن هذا الكون عندما سميتُه ظالماً؟"[٦] وهذا الإدراك أخرج لويس من الإلحاد وأتى به أخيرًا إلى المسيحية.

إن لويس مثلك ومثلي لا يمكنه أن يحدِّد الظلم إلا عن طريق وجود مقياسٍ ثابت للعدل مكتوب على قلوبنا. فحقيقةً، لا يمكنك أن تعرف الشر ما لم تعرف الخير. ولا يمكنك أن تعرف الخير لولا وجود مقياسٍ ثابت للخير خارجك. ودون ذلك المقياس الموضوعي يُعَدّ أي اعتراض على الشر محضَ رأي شخصي لك.

أنا (نورم) أحب مناظرة الملحدين اليهود. لماذا؟ لأني لم ألتقِ أبدًا بيهودي يعتقد أن الهولوكوست كان مجرد مسألة رأي. ولكن جميعهم يؤمنون أنه كان خطأً حقيقيًا، بصرف النظر عن رأي أي شخص فيه. وفي إحدى هذه المناظرات مع ملحد يهودي، سألته: "على أي أساس تقول إن الهولوكوست كان خطأ؟" فأجاب: "بإحساسي الأخلاقي الطيب".

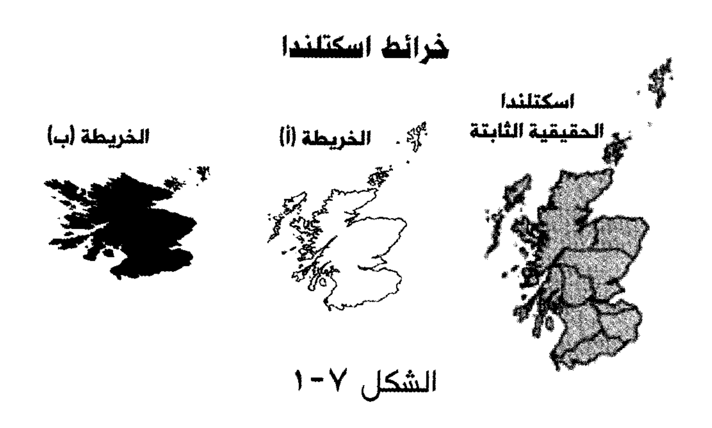
وماذا عساه أن يقول غير ذلك؟ فدون أن يعترف بقانون أخلاقي موضوعي، وهو ما يعني الاعتراف بالله، يستحيل أن يجد أساسًا موضوعيًا للاعتراض على الهولوكوست. وبذلك اعتراضه لا يزيد عن كونه رأيًا شخصيًا.

ولكن جميعنا نعرف أن الوضع الأخلاقي للهولوكوست ليس مجرد مسألة رأي. ورد فعلك على أي تعليق يختص بالهولوكوست يجب أن يزودك بمؤشر على وجود شيء خطأ حقًا في قتل الأبرياء. فمهما كان، رد فعلك على شخص يقول: "كانت الوجبة رائعة" سيختلف عن رد فعلك عندما يقول الشخص: "كان الهولوكوست رائعًا". فأنت تعرف حدسيًا أن ذوق الشخص في الطعام شيء وذوقه في الشر شيء آخر. فهناك اختلاف أخلاقي حقيقي بين الوجبة

والقتل، فأحدهما مجرد استحسان والآخر ظلم حقيقي. وردود أفعالك على تلك التعليقات تساعدك على إدراك ذلك.

وسنناقش المزيد عن وجود الشر والله معًا في الملحق الأول. ولكن الآن نقطتنا الأساسية هي: لو لم يوجد قانون أخلاقي، لما أمكننا التعرف على أي نوع من الشر أو الظلم. فبلا عدل، يصبح الظلم بلا معنى. وكذلك ما لم يكن هناك مقياسٌ ثابت للخير، لما كان هناك شر موضوعي. ولكن بما أننا جميعًا نعرف أن الشر موجود، إذَن القانون الأخلاقي موجود أيضًا.

٥- دون القانون الأخلاقي، لما كانت هناك طريقة لقياس الاختلافات الأخلاقية: فكِّر في خريطتي اسكتلندا في الشكل ٧- ١. أيهما أفضل؟ كيف يمكنك أن تعرف الخريطة الأفضل؟ السبيل الوحيد لتحديد الأفضل أن ترى شكل اسكتلندا الحقيقية. أي أنك لا بد أن تقارن الخريطتين بمكان حقيقي ثابت اسمه اسكتلندا. فلو لم توجد اسكتلندا، تصبح الخريطتان بلا معنى. ولكن بما أن اسكتلندا موجودة، يمكننا أن نرى أن الخريطة (أ) هي الأفضل لأنها أقرب للمقياس الثابت، أي اسكتلندا الحقيقية.



الشكل ٧-١

وهذا ما نفعله بالضبط عندما نقَيِّم سلوك الأم تريزا مقابل سلوك هتلر. إننا نحتكم إلى مقياسٍ ثابت مطلق أعلى من كليهما. وذلك المقياس هو القانون الأخلاقي. وهو ما عبرَّ عنه سي. إس. لويس قائلاً:

> في اللحظة التي تقول فيها إن مجموعة معينة من الأفكار الأخلاقية أفضل من غيرها، فإنك في الواقع تقيس الاثنتين بمقياس وتقول إن إحداهما تتفق مع ذلك المقياس

أكثر من الأخرى. إلا أن المقياس الذي يقيس شيئين يختلف عن أي منهما. فأنت في الواقع تقارنهما بأخلاق حقيقية، معترفًا بوجود صواب حقيقي بصرف النظر عن آراء الناس، وبأن أفكار بعض الناس تقترب من ذلك الصواب الحقيقي أكثر من غيرها. أو يمكنك أن تُعَبِّر عن ذلك بطريقة أخرى: إن كانت أفكارك الأخلاقية أَصَحّ، وأفكار النازيين أقل صحة، فلا بد من وجود شيء، أي نوع من الأخلاق الحقيقية تحدّد صحة هاتين المجموعتين من الأفكار.[٧]

لو لم يوجد قانون أخلاقي، إذَن ليس هناك اختلافات أخلاقية بين سلوك الأم تريزا وسلوك هتلر. وكذلك عبارات من قبيل "القتل شر"، أو "العنصرية خطأ"، أو "يجب ألا تسيء إلى الأطفال" تصبح بلا معنى موضوعي. ولكنها تُعَبِّر فقط عن آراء شخص، مثل "الشكوكولاتة ألذ من الفانيليا". فالواقع أنه لولا القانون الأخلاقي لأصبحت التعبيرات القيمية البسيطة مثل "جيد"، "سيئ"، "أفضل"، "أسوأ" بلا معنى موضوعي عندما تُستخدم في سياق أخلاقي. ولكننا نعلم بالتأكيد أن لها معنى. فمثلاً عندما نقول إن "المجتمع يتحسن" أو "المجتمع يسوء"، فنحن نقارن المجتمع بمقياس أخلاقي أعلى منا. وذلك المقياس هو القانون الأخلاقي المكتوب على قلوبنا.

وباختصار، الاعتقاد في النسبية الأخلاقية يعني القول بعدم وجود اختلافات أخلاقية حقيقية بين الأم تريزا وهتلر، أو الحرية والعبودية، أو المساواة والعنصرية، أو العناية والإساءة، أو الحب والكراهية، أو الحياة والقتل. ونحن جميعًا نعلم أن مثل هذه الاستنتاجات عبثية. إذَن لا بد أن تكون النسبية الأخلاقية خاطئة. وإن كانت النسبية الأخلاقية خاطئة، إذَن يوجد قانون أخلاقي موضوعي.

٦- دون القانون الأخلاقي لا يمكنك أن تعرف الصواب والخطأ: عندما أُجريَتْ مناظرة في موضوع الدين في المجال العام بين آلن درشويتس *Alan Dershowitz* الذي يصف نفسه بأنه ملحد وآلن كيز *Alan Keyes* الكاثوليكي في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ سأل أحد الحضور درشويتس قائلاً: "ما الذي يجعل الشيء صوابًا؟"

أثنى درشويتس على السؤال ثم قال: "نحن نعرف الشر. فقد رأيناه" واستشهد بأمثلة واضحة على الشر مثل الهولوكوست والحروب الصليبية. ثم رمق درشويتس الحضور، ورفع صوته، وأعلن بنبرة واثقة: **"لا أعرف ما هو الصواب! ولكني أعرف ما هو الخطأ!"**

ثم بدأ يتحدث إلى الجمهور وكأنه يوبخهم قائلاً: "ولكن عندي شيء آخر أخبركم به يا جماعة. **أنتم لا تعرفون ما هو الصواب!** ففي اللحظة التي تظنون فيها أنكم تعرفون الصواب، لحظة ما تظنون أن عندكم إجابة لسؤال ما هو الصواب، تفقدون بُعدًا ثمينًا جدًا للنمو والتطور. فأنا لا أتوقع أبدًا أن أعرف على وجه الدقة ما هو الصواب، ولكني أتوقع أن أكرس بقية حياتي لمحاولة اكتشافه".[٨] وهنا صفق بعض الحاضرين.

ولكن لم تُتَح الفرصة لكيز ليرد على إجابة درشويتس. ولو أتيحت له الفرصة، لأطلق خطة "رود رَنَر" ليفضح حجة درشويتس التي تفند نفسها، فكان سيسأل درشويتس: "كيف تعرف الخطأ إلا إذا عرفت الصواب؟" فبالفعل لا يمكنك أن تعرف أن ٥ هي الإجابة الخاطئة لمسألة ٢+٢ إلا إذا كنت تعرف الإجابة الصحيحة! وهكذا لا يستطيع درشويتس أن يعرف الخطأ الأخلاقي إلا إذا كانت عنده فكرة عن الصواب الأخلاقي.

وأثناء المناظرة لم يجد درشويتس مشكلة في التعبير عن غضبه الشديد تجاه أشياء يرى أنها خطأ أخلاقيًا (أي القوانين المضادة للمثلية الجنسية، والقوانين المضادة للإجهاض، والعنصرية، والعبودية، والميثاق الأخلاقي للكشافة، والخلط بين الكنسية الدولة... إلخ). ولكنه عندما يزعم أن أشياء معينة خاطئة، يُثْبِت بطبيعة الحال أن أشياء معينة صحيحة. فكل نفي يتضمن إثباتـًا. فعندما يقول درشويتس بأن حظر الإجهاض خطأ (نفي)، لا بد أنه يعرف أن النساء لهن حق أخلاقي في الإجهاض (إثبات). ولكن دون القانون الأخلاقي، لا يستطيع درشويتس أن يبرر ذلك الموقف الأخلاقي ولا أي موقف أخلاقي آخر. فهو لا يزيد عن كونه رأيه الشخصي.

وإنه لَخطأ فادح وغرور سافر أن يزعم بأنه ما من أحد في الحاضرين يعرف الصواب. فالمسيحيون غالبًا ما يُنتقَدون لأنهم يقولون إن "عندهم الحق" ولكن ها هو درشويتس يقول إن **عنده الحق الذي يقول إنَّ لا أحد عنده الحق.** ولكن حتى يعرف درشويتس أنه لا أحد عنده الحق، **لا بد أن يعرف هو نفسه الحق.**

وبعض النسبيين مشهورون بهذا النوع من الغرور الذي يفنِّد نفسه. فهم يزعمون أنه ليس هناك حق، ولكنهم بعدئذٍ يطلقون مزاعمهم الخاصة بشأن الحق. فهم يزعمون أنهم لا يعرفون الصواب، ولكنهم بعدئذٍ يزعمون أن قضاياهم السياسية صائبة. وهم ينكرون القانون الأخلاقي في جملة ثم يفترضونه في الجملة التالية.

٧- دون القانون الأخلاقي، تنتفي الأساسات الأخلاقية للاختلافات السياسية أو الاجتماعية:

إن الليبراليين السياسيين مثل آلن درشويتس والكثيرين في هوليوود مشهورون بمعارضتهم الأخلاقية للحرب، والقوانين المناهضة للإجهاض، والقوانين المناهضة للمثلية الجنسية، وخفض الضرائب، وتقريبًا كل القضايا التي يؤيدها "اليمين الديني المحافظ". ومشكلتهم أن الكثير منهم ملحدون، ومن ثم ليس عندهم أسس أخلاقية موضوعية للمواقف التي يؤيدونها بقوة. وذلك لأنه إن لم يوجد قانون أخلاقي، إذَن ليس هناك موقف صائب أو خاطئ موضوعيًا بخصوص أي قضية أخلاقية، بما في ذلك المواقف التي يتخذها الملحدون.

وبلا قانون أخلاقي، ليس هناك خطأ موضوعي في فرض أحدهم دينه بالقوة على الملحدين. ولا يكون هناك خطأ في اعتبار الإلحاد خروجًا على القانون، ومصادرة أملاك الملحدين وإعطائها لكل من پات روبرتسون* *Pat Robertson* وجري فولول† *Jerry Falwell* ولن يكون هناك خطأ في كراهية المثليين والاعتداء عليهم، أو العنصرية، أو الحروب الاستعمارية. ولن يكون هناك خطأ في منع الإجهاض، وتنظيم النسل، والجنس بين الراشدين! أي أنه دون القانون الأخلاقي لا يكون عند الملحدين أسس أخلاقية يبنون عليها حججهم المؤيدة لقضاياهم السياسية المفضلة. فليس هناك **حق** في الإجهاض، ولا المثلية الجنسية، ولا أيٍّ من مقدساتهم السياسية الأخرى لأنه في عالم لا يؤمن بالله ليس هناك حقوق. فما لم يعترف الملحدون بوجودِ الله وبأن قانونه الأخلاقي يبيح هذه الأنشطة أو يأمر بها، فمواقفهم لا تزيد عن استحسانات ذاتية. وليس هناك التزام أخلاقي على أي شخص ليتفق مع محض استحسانات، أو ليسمح للملحدين أن يفرضوها علينا تشريعيًا‡.

فمما يثير السخرية أن الملحدين بتمرّدهم على القانون الأخلاقي يقوّضون الأساس اللازم

---

* مؤسس إذاعة مسيحية باسم "الشبكة الإذاعية المسيحية" *Christian Broadcasting Network* وهو رجل أعمال وسياسي وكاتب وناشط في العمل الإنساني (*http://www.patrobertson.com/index.asp*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/١٠/٢٣ (المترجمة)

† مؤسس منظمة سياسية باسم "الأغلبية الأخلاقية" *Moral Majority* لدعم القيم الأخلاقية المحافظة، ومبشر تليفزيوني، توفي سنة ٢٠٠٧ (*https://www.britannica.com/biography/Jerry-Falwell*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/١٠/٢٣ (المترجمة)

‡ خلافًا للفكرة الشائعة، فإن الملحدين كغيرهم من العاملين بالسياسة يحاولون تشريع الأخلاق. وكتابنا "تشريع الأخلاق" يتناول هذا الموضوع بالتفصيل (*Frank Turek and Norman Geisler, Legislating Morality [Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2003]*). صدر سابقًا عن دار نشر *Bethany, 1998*

للتمرد على أي شيء. فالحقيقة أنه دون القانون الأخلاقي، لا يجد أي شخص أساسًا موضوعيًا لتأييد شيء أو مناهضته. ولكن بما أننا جميعًا نعرف أن القضايا التي تتضمن الحياة والحرية ليست مجرد استحسانات، أي أنها تتضمن حقوقًا أخلاقية فعلية، إذَن القانون الأخلاقي موجود.

٨- لو لم يكن هناك قانون أخلاقي، لما كنا نبحث عن أعذار عندما نخرقه: هل لاحظت أبدًا أن الناس يوجِدون أعذارًا للسلوك غير الأخلاقي؟ إن تقديم الأعذار هو اعتراف غير مباشر بوجود القانون الأخلاقي. فما الداعي لتقديم الأعذار إن لم يكن هناك سلوك غير أخلاقي؟

حتى قمة الفضائل في ثقافتنا اللاأخلاقية، ألا وهي قبول الآخر، تكشف عن القانون الأخلاقي لأن قبول الآخر نفسه مبدأ أخلاقي. فإن لم يكن هناك قانون أخلاقي، لماذا يجب على أي شخص أن يقبل الآخر؟ والحقيقة أن القانون الأخلاقي يدعونا أن نتجاوز قبول الآخر وصولاً إلى المحبة. فقبول الآخر ضعيف جدًا، وذلك لأن قبول الآخر يقول سد مناخيرك واحتمله. ولكن المحبة تقول اذهب وساعده. فقبول الشر ليس من المحبة، إلا أن هذا ما يريدنا الكثير من أبناء ثقافتنا أن نفعله.

فضلاً عن ذلك، الدعوة للتقبُّل والاحتمال تمثِّل اعترافًا غير مباشر بأن السلوك الذي نحتمله هو سلوك خاطئ. لماذا؟ لأنك لا تحتاج أن تدعو الناس لتحمل السلوك الجيد، بل السيئ فقط.* فأنت لا تحتاج أن تقنع أحدًا بأن يتقبل سلوك الأم تريزا، ولكنك تحتاج أن تقنعه بتقبل سلوك بعض النسبيين. وكذلك، لا أحد يقدِّم أعذارًا عندما يتصرف مثل الأم تريزا. ولكننا لا نقدم الأعذار إلا عندما نتصرف عكس القانون الأخلاقي. ولو لم يوجد لما فعلنا ذلك.

المطلق مقابل النسبي: لماذا الخلط؟

إن كان هناك فعلاً قانون أخلاقي مطلقٌ كما بينَّا بالحجة، فلماذا يؤمن العديد من الناس بنسبية الأخلاق؟ ولماذا يبدو أن العديد من الناس يتبنون قيمًا مختلفة؟ منطقيًا، يكمن السبب في العجز عن التمييز بين بعض الأمور المختلفة. فلنلقِ نظرة على تلك الاختلافات لإزالة الخلط:

* الكلمة الإنجليزية التي ترجمناها في هذا الكتاب إلى "قبول الآخر" (وهي ترجمة شائعة لها) هي *tolerance* ومن معانيها اللغوية: القدرة على احتمال شيء غير مُسِرّ دون التضرر منه. لذلك فضَّلنا ترجمتها هنا إلى "تقبل واحتمال" لتناسب المعنى المقصود في هذا السياق. (المترجمة)

الخلط # ١: الأخلاق المطلقة مقابل السلوك المتغير

من الأخطاء الشائعة عند النسبيين أنهم يخلطون بين السلوك والقيمة. أي أنهم يخلطون بين ما هو **كائن** وما **يجب أن يكون**. فما **يفعله** الناس عُرضَة للتغير، ولكن ما **يجب** أن يفعلوه لا يتغير. وهذا هو الفرق بين عِلم الاجتماع والأخلاق. فعلم الاجتماع **وصفي** *descriptive*، في حين أن الأخلاق **توجيهية** *prescriptive*.

وهو ما يعني أن النسبيين غالبًا ما يخلطون بين الموقف السلوكي المتغير والواجب الأخلاقي الثابت. فمثلاً، عند مناقشة موضوع أخلاقي مثل الجنس قبل الزواج أو عيش رجل وامرأة معًا دون زواج، غالبًا ما تسمع الناس المؤيدين له يقولون شيئًا من قبيل: "لاحظوا أننا في القرن الحادي والعشرين" وكأنّ السلوكيات الحالية تحدِّد الصواب والخطأ. وحتى تبين عبثية التفكير النسبي، ليس عليك إلا أن تحوِّل المناقشة إلى قضية أخلاقية أخطر مثل القتل، الذي ازدادت معدلاته أيضًا في أمريكا اليوم عنها منذ خمسين سنة. فكم عدد النسبيين الذي سيؤيدون القتل بأن يقولوا لنا "لاحظوا أننا في القرن الحادي والعشرين". إن هذا ما يوصلهم إليه تفكيرهم عندما يخلطون بين ما يفعله الناس وما يجب أن يفعلوه.

ويتضح جانب آخر في مغالطة **ما هو كائن وما يجب أن يكون** عندما يقول الناس إنه ليس هناك قانون أخلاقي لأن الناس لا يطيعونه. طبعًا الجميع يعصون القانون الأخلاقي بنسبة ما، بدءًا من الكذب الأبيض وانتهاءً بالقتل. إلا أن هذا لا ينفي وجود قانون أخلاقي ثابت، ولكنه يعني ببساطة أننا جميعًا ننتهكه. فالجميع يرتكبون أخطاء في الرياضيات، إلا أن هذا لا ينفي وجود قواعد رياضية ثابتة.

الخلط # ٢: الأخلاق المطلقة مقابل الفهم المتغير للحقائق

هناك خلط آخر بين وجود قيمة أخلاقية مطلقة وفهم الحقائق المستخدمة في تطبيق تلك القيمة. فمثلاً أشار سي. إس. لويس إلى أنه في أواخر القرن الثامن عشر كان يُحكم على الساحرات كالقَتَلَة، ولكن هذا لا يحدث الآن.[٩] والنسبي ستكون حجته: "أرأيت؟ قِيَمُنا الأخلاقية تغيَّرت لأننا لم نعُد نقتل الساحرات. الأخلاق نسبية حسب الزمن والثقافة".

إلا أن زعم النسبي خاطئ. فما تَغَيَّر ليس المبدأ الأخلاقي الذي مفاده أن القتل خطأ بل إدراك أو فهم الحقائق بخصوص ما إذا كانت "الساحرات" تستطعن فعلاً أن تقتلن الناس بلعناتهن أم لا. فالناس لم يعودوا يعتقدون أن الساحرات قادرات على ذلك. ومن ثم فالناس لم يعودوا يعتبرونهن قتلة. أي أن **إدراك الموقف الأخلاقي نسبي** (ما إذا كانت الساحرات قاتلات فعلاً أم لا)، **ولكن القِيَم الأخلاقية المتضمَّنة في الموقف ليست نسبية** (القتل كان دائمًا خطأ وسيظل دائمًا خطأ).

والعجز عن التفريق بين الاثنين يؤدي بالناس أيضًا إلى الاعتقاد بأن الاختلافات الثقافية تعكس اختلافات جوهرية في القيم الأخلاقية الجوهرية. فمثلاً، يعتقد البعض أنه بما أن الهندوس يقدّسون البقر والأمريكيين يأكلونه، إذَن هناك اختلاف جوهري بين القيم الأخلاقية عند الأمريكيين والهندوس. ولكن سبب تقديس الهندوس للبقرة لا يمُتّ بصلة لقيمة أخلاقية جوهرية، ولكنه مرتبط باعتقادهم الديني المختص بتناسخ الأرواح. فالهنود يعتقدون أن البقر قد يحمل أرواح بشر موتى، لذلك لا يأكلونه. ولكننا في الولايات المتحدة لا نؤمن أن أرواح موتانا قد تسكن في البقر، لذلك نأكل البقر بحُرية. وفي التحليل النهائي، ما يظهر أنه اختلاف أخلاقي هو في الواقع اتفاق، فكلانا يؤمن أن أكل الجَدَّة خطأ! فالقيمة الأخلاقية الجوهرية التي تقول إنه من الخطأ أن تأكل جَدَّتَك يعتبرها أبناء الثقافتين قيمة مطلقة. ولكنهم يختلفون فقط فيما إذا كانت روح الجدة في البقرة أم لا![١٠] فأهل الثقافتين يختلفون في **إدراكهم للحقائق** المتصلة بالقيمة الأخلاقية، ولكنهم يتفقون جوهريًا على ضرورة احترام القيمة الأخلاقية.

الخلط # ٣: الأخلاقيات المطلقة مقابل تطبيقها على مواقف بعينها

كما رأينا ردود أفعال الناس تُعَرِّفهم الصواب من الخطإ أكثر من أفعالهم. فعندما يقع الناس ضحايا سلوك سيئ، لا يجدون صعوبة في فهم أن السلوك خاطئ على نحو مطلق. ولكن حتى إن انتهت ضحيتان إلى الاختلاف على أخلاقية فعل بعينه، هذا لا يعني أن الأخلاق نسبية. لأنه يمكن أن يوجد قانون أخلاقي مطلق حتى إنْ عَجَزَ الناس عن معرفة الفعل الصائب الذي يجب عمله في موقف بعينه.

فكِّر في المعضلة الأخلاقية التي غالبًا ما يستخدمها أساتذة الجامعات ليجعلوا طلابهم يؤمنون بالنسبية: هناك خمسة أشخاص على قارب نجاة لا يكفي إلا لأربعة. فإن لم يُلقَ

أحدهم في الماء، سيموت الجميع. ويبذل الطلاب قصارى جهدهم لحل المعضلة، ويتوصلون لقرارات مختلفة، وأخيرًا يستخلصون أن اختلافهم يُثْبِت أن الأخلاق لا بد أن تكون نسبية.

إلا أن المعضلة في الواقع تُثْبِت العكس، ألا وهو أن الأخلاق مطلقة. كيف؟ لأنه **لو كانت الأخلاق نسبية لما كانت هناك معضلة أصلاً!** لو كانت الأخلاق نسبية ولو لم يكن هناك حق مطلق في الحياة، لقُلْتَ: "ليكن ما يكون! ارموا الجميع من القارب! لا يهم". إن سبب صعوبة المعضلة هو أننا نعلم قيمة الحياة.

ورغم أن الناس يخطئون فهم الأخلاق في المواقف المعقدة، فهم لا يخطئون في الأساسيات. فمثلاً، الجميع يعرفون أن القتل خطأ. هتلر كان يعرف ذلك. لذلك كان عليه أن ينزع صفة الإنسانية عن اليهود حتى يبرِّر قتله لهم. وحتى آكلو لحوم البشر يبدو أنهم يعرفون أن قتل البشر الأبرياء خطأ. صحيح إنهم قد يعتقدون أن أفراد القبائل الأخرى ليسوا بشرًا. ولكن الاحتمال الأكبر أنهم يعتبرونهم بشرًا. وإلا، كما يشير ج. بودجيشفسكي، لماذا يؤدي آكلو لحوم البشر "طقوسًا تكفيرية معقَّدة قبل قتل الناس؟"[11] فما كانوا لَيؤدون هذه الطقوس إلا إذا كانوا يعتقدون أن هناك خطأ ما فيما سيفعلون.

إذَن الأساسيات واضحة، حتى وإن كانت بعض المشكلات الصعبة ليست بهذا الوضوح. علاوة على ذلك، وجود مشكلات صعبة في الأخلاق لا ينفي وجود قوانين أخلاقية موضوعية، تمامًا كما أن المشكلات الصعبة في العلم لا تنفي وجود قوانين طبيعية موضوعية. فعندما يواجِه العلماء مشكلة صعبة في العالم الطبيعي (أي عندما يصعب عليهم معرفة الإجابة) لا ينكرون وجود عالَم موضوعي. ويجب ألا ننكر وجود الأخلاق لمجرد أننا نجد صعوبة في معرفة الحل في بضعة مواقف صعبة.

فكما أن العلم يحوي مشكلات سهلة وأخرى صعبة، كذلك الأخلاق. والإجابة عن سؤال علمي بسيط مثل "لماذا تسقط الأشياء إلى الأرض؟" تُثْبِت وجود قانون طبيعي واحد أو قوة طبيعية واحدة على الأقل (أي الجاذبية). وكذلك الإجابة الصادقة على سؤال أخلاقي بسيط مثل "هل القتل مبرَّر؟" تُثْبِت وجود قانون أخلاقي واحد على الأقل (أي: لا تقتل). فإن وُجِدَ واجب أخلاقي **واحد فقط** (مثل لا تقتل، أو لا تغتصب، أو لا تعذب الرضع)، إذَن القانون الأخلاقي موجود. وإن كان القانون الأخلاقي موجودًا، إذَن مشرِّع القانون الأخلاقي موجود.

الخلط # ٤: أمر مطلق (ما) مقابل ثقافة نسبية (كيف)

هناك فارق آخر مهم، غالبًا ما يتجاهله دعاة النسبية الأخلاقية بين الطبيعة المطلقة للأمر الأخلاقي والطريقة النسبية التي يتكشف بها ذلك الأمر في الثقافات المختلفة. فمثلاً، كل الثقافات عندها نوع من التحية، وهو تعبير عن المحبة والاحترام. إلا أن الثقافات تختلف اختلافًا كبيرًا فيما بينها في شكل تلك التحية. ففي بعض الثقافات تكون قُبلة، وفي ثقافات أخرى حضن، وفي ثقافات أخرى مصافحة أو انحناءة. **فما** يجب فعله مشترك بين كل الثقافات، ولكن **كيف** يجب فعله يختلف بين الثقافات. والعجز عن إدراك هذا الفرق يضلل الكثيرين فيعتقدون أن اختلاف ممارسات الناس يعني اختلاف قيمهم. إلا أن القيمة الأخلاقية مطلقة، ولكن كيفية ممارستها نسبية.

الخلط # ٥: الأخلاق المطلقة مقابل الاختلافات الأخلاقية

غالبًا ما يشير النسبيون إلى قضية الإجهاض، وهي قضية خلافية ليبينوا أن الأخلاق نسبية. فالبعض يرى أن الإجهاض مقبول، في حين أن البعض الآخر يعتبره قتلاً. إلا أن اختلاف الآراء حول الإجهاض لا يعني نسبية الأخلاق.

وفي الحقيقة أن الخلاف حول قضية الإجهاض برمته، لا يُعتبَر مثالاً على نسبية القيم الأخلاقية، بل إن الخلاف يرجع أساسًا إلى أن كل جانب يدافع عما يرى أنه قيمة أخلاقية **مطلقة**: ألا وهي حماية الحياة والسماح بالحرية (أي السماح للمرأة أن "تتحكم في جسدها"). ولكن الجدل يدور حول **أي** القيمتين تمَسّ (أو لها الأولوية في) قضية الإجهاض.[١٢] فلو لم يكن الجنين كائنًا بشريًا، إذَن يجب أن يطبِّق التشريع القيمة المناصِرة للحرية. ولكن بما أن الجنين **هو فعلاً** كائن بشري، يجب أن يطبِّق التشريع القيمة المناصِرة للحياة؛ لأن حق الشخص في الحياة يَجُبّ حق شخص آخر في الحرية الشخصية. (فالجنين ليس مجرد جزء من جسد المرأة، ولكن هو أيضًا له جسده بشفرته الوراثية الفريدة، وفصيلة دمه، ونوعه). حتى إن كنا في شك بشأن الوقت الذي فيه تبدأ الحياة، يجب أن هذا الشك يرجّح كفة حماية الحياة، فالعقلاء لا يطلقون النيران إلا إذا كانوا متأكدين **على نحو مطلق** أنهم لن يقتلوا إنسانًا بريئًا.

تَذَكَّر أن رد فعلنا لممارسة بعينها يكشف معتقداتنا الحقيقية عن أخلاقية الممارسة. وقد ذكر رونالد ريجان *Ronald Reagan* ملاحظة ذكية قائلاً: "لقد لاحظت أن كل مَنْ

يؤيدون الإجهاض هم من المولودين". فعلاً، كل مناصري الإجهاض سيتحولون فورًا إلى مناصرين للحياة لو عادوا إلى الرحم. **فرد فعلهم** لاحتمالية تعرّضهم للقتل سيُذَكِّرهم أن الإجهاض خاطئ تمامًا. وبالطبع معظم الناس يعرفون في أعماق قلوبهم أن الطفل الذي لم يولد بعد هو إنسان، ومن ثم يعرفون أن الإجهاض خطأ. وحتى بعض النشطاء المؤيدين للإجهاض يعترفون أخيرًا بذلك.* ولذا، في النهاية هذا الخلاف الأخلاقي لا يرجع إلى نسبية الأخلاق ولا إلى غموض القانون الأخلاقي. ولكن هذا الخلاف الأخلاقي موجود لأن البعض يخمدون القانون الأخلاقي ليبرِّروا ما يريدون فعله. وهو ما يعني أن تأييد الإجهاض مسألة إرادية أكثر منه مسألة عقلية. (للاطلاع على تناول أكثر تفصيلاً لهذا الموضوع وغيره من الموضوعات الأخلاقية، راجع كتابنا بعنوان "تشريع الأخلاق"[١٣]).

الخلط # ٦: غايات مطلقة (قيم) مقابل وسائل نسبية

غالبًا ما يخلط النسبيون الأخلاقيون بين الغاية (القيمة نفسها) ووسيلة بلوغ تلك الغاية. والكثير من النزاعات السياسية تقع في هذه الفئة. ففي بعض القضايا (لا كلّها طبعًا)، الليبراليون والمحافظون يريدون أشياء واحدة، أي **غايات** واحدة. ولكنهم يختلفون في أفضل **الوسائل** لإدراك تلك الغايات.

فمثلاً، بخصوص الفقراء، يعتقد الليبراليون أن المعونات الحكومية أفضل وسيلة لمساعدتهم. ولكن بما أن المحافظين يعتقدون أن هذه المعونات تخلق نوعًا من الاعتمادية، فهم يفضلون خلق فرص اقتصادية حتى يساعد الفقراءُ أنفسَهم. لاحظ أن الغاية واحدة (مساعدة الفقراء)، ولكن الوسيلة مختلفة. وكذلك كلٌّ من مؤيدي الحرب ومؤيدي السِّلْم يرغبون في السلام (الغاية)؛ ولكنهم ببساطة يختلفون حول ما إذا كان الجيش القوي هو أفضل وسيلة لتحقيق هذا السلام أم لا. فكلاهما يتفقان على **الغاية** المطلقة؛ ولكنهما يختلفان في **الوسيلة** النسبية لتحقيقها.

* تُعد نُعمي وولف *Naomi Wolf* الناشطة النسائية مثالاً بارزًا على هذه الحالة. فهي تعترف أن الجميع يعلمون أن الطفل قبل ولادته إنسان، وأن الإجهاض خطية حقيقية تستلزم كفارة. ولكن نعمي بدلاً من أن تقترح القضاء على الإجهاض، تقترح أن النساء اللاتي تجهضن تنظّمن سهرة بالشموع في مراكز الإجهاض الطبية تعبيرًا عن حزنهن! وهو ما يشبه طقسًا تكفيريًا مثل طقوس آكلي لحوم البشر - معذرةً لهذا التشبيه.

القانون الأخلاقي: ماذا يقول عنه الداروينيون؟

إذَن الدليل على القانون الأخلاقي معقول، والاعتراضات عليه تخطئ الهدف. فكيف يتعامل الداروينيون إذَن مع مسألة الأخلاق؟ في الواقع معظم الداروينيين يتجنبون الموضوع نهائيًا. لماذا؟ لأنه ليس من السهل أن يفسروا وجود صواب وخطأ موضوعيين (وهو ما يعرفه حتى الداروينيين في قلوبهم) إلا إذا كان هناك مشرِّع للقانون الأخلاقي.

إلا أن الدارويني إدوارد أو. ويلسون *Edward O. Wilson* يُعَدّ استثناءً لافتًا للنظر. فهو يزعم أن حِسَّنا الأخلاقي تطوَّر كما تطورنا نحن، أي بالانتخاب الطبيعي. وبينما يعترف ويلسون أن "التقدم الذي تحقق لاستكشاف الحس الأخلاقي بطرق بيولوجية ضعيف جدًا"، يؤكد أن العملية البيولوجية لانتقال الجينات من الآباء إلى الأبناء "عبر آلاف الأجيال أنشأت حتمًا الأحكام الأخلاقية".[١٤] أي أن الأخلاق تتحدد ماديًا ووراثيًا. وهي تقوم على مشاعر أو نزعات فطرية موروثة، لا على مقياس موضوعي للصواب والخطأ. ولكننا رأينا عجز الانتخاب الطبيعي عن تفسير الأشكال الجديدة من الحياة (الفصل السادس). وسنرى بعد قليل أن الانتخاب الطبيعي عاجز كذلك عن تفسير "الأحكام الأخلاقية" الكامنة في تلك الأشكال الجديدة من الحياة.

أولاً، الداروينية تؤكد أنه ليس هناك إلا المادة، ولكن المادة لا تحوي أخلاقًا. فما وزن الكراهية؟ وهل الحُبّ له ذَرَّة؟ وما التركيب الكيميائي لجزيء القتل؟ إنها أسئلة بلا معنى لأن الجسيمات الفيزيائية ليست مسؤولة عن الأخلاق. فإن كانت المواد هي المسؤول الوحيد عن الأخلاق، إذَن هتلر لم تكن عليه أي مسؤولية أخلاقية عما فعل، كل المشكلة أن جزيئاته كانت رديئة. هذا كلام فارغ، والجميع يعلم ذلك. فالأفكار البشرية والقوانين الأخلاقية التي تتجاوز حدود الزمان والمكان ليست أشياء مادية، مثلها مثل قوانين المنطق والرياضيات. فهي كيانات غير مادية لا يمكن أن توزن ولا أن تقاس فيزيائيًا. ونتيجةً لذلك، لا يمكن تفسيرها بلغة مادية عن طريق الانتخاب الطبيعي أو غيره من الوسائل الإلحادية.

ثانيًا، لا يمكن أن تكون الأخلاق مجرد فطرة كما يُرَجِّح ويلسون لأن: ١) لدينا نزعات فطرية متصارعة، ٢) غالبًا ما يكون هناك شيء آخر يقول لنا أن نتجاهل الفطرة الأقوى حتى نفعل شيئًا أنبل. فمثلاً، إنْ تَعَرَّض شخص لسرقة بالإكراه وسمعته يستغيث طالبًا النجدة، قد تكون

فطرتك الأقوى أن تظل في الأمان ولا "تـوَرِّط نفسك"، وفطرتك الأضعف (إن جاز أن نسميها هكذا) تميل إلى المساعدة. وهو ما يُعَبِّر عنه سي. إس. لويس قائلاً:

> ولكنك ستجد بداخلك، إضافةً إلى هاتين النزعتين، شيئًا ثالثًا يخبرك بأنه ينبغي عليك أن تتبع النزعة إلى المساعدة، وأن تقمع النزعة إلى الهروب. هذا الشيء الذي يحكم بين النزعتين، الذي يقرِّر أي النزعتين يجب تعزيزها، لا يمكن أن يكون هو نفسه أيًا منهما. وإلا نقول أيضًا إن النوتة الموسيقية التي تخبرك في لحظة معينة أن تعزف نغمة معينة على البيانو دون غيرها، هي نفسها إحدى النغمات الموجودة على أصابع البيانو. إن القانون الأخلاقي يخبرنا بالنغمة التي يجب أن نعزفها: ونزعاتنا الفطرية هي مجرد أصابع البيانو.[١٥]

ثالثًا، يقول ويلسون إن الأخلاق الاجتماعية تطوَّرت لأن تلك الأخلاق "المتعاونة" ساعدت البشر على أن يبقوا على قيد الحياة معًا. إلا أن هذا يفترض غاية للتطور ألا وهي البقاء، في حين أن الداروينية بطبيعتها لا غاية لها لأنها عملية غير ذكية. وحتى إن قبلنا أن البقاء هو الغاية، لا يمكن للداروينيين أن يفسروا ما يقوم به الناس من سلوكيات تدمّرهم رغم معرفتهم بذلك (مثل التدخين، وإدمان الخمور والمخدرات، والانتحار... إلخ). ولا يمكن للداروينيين أيضًا أن يفسروا قمع الناس غالبًا لنزعتهم الفطرية نحو البقاء في سبيل مساعدة الآخرين، حتى إن تطلَّب الأمر التضحية بحياتهم في بعض الأحيان*. وكلنا نعرف أن هناك غايات أنبل من مجرّد البقاء على قيد الحياة: الجنود يضحون بأنفسهم من أجل بلادهم، والآباء والأمهات من أجل أبنائهم، وإن كانت المسيحية صحيحة، فالله ضحى بابنه من أجلنا.

رابعًا، ويلسون وغيره من الداروينيين يفترضون أن البقاء شيء "خيِّر"، ولكن ليس هناك خير حقيقي دون القانون الأخلاقي الموضوعي. وفي الواقع هذه هي مشكلة الأنظمة الأخلاقية البراجماتية والنفعية التي تقول "افعل ما ينفع" أو "افعل ما يجلب

---

* يقول چفري شلوس *Jeffrey Schloss* الحاصل على دكتوراه في علم البيئة وعلم أحياء التطور بأنه رغم من أن بعض السلوكيات التي تتسم بالغيرية والتضحية بالذات قد يمكن تفسيرها تفسيرًا داروينيًا، هناك سلوكيات أخرى لا يمكن تفسيرها بهذه الطريقة؛ ويركز شلوس بوجه خاص على السلوكيات التي ساعدت من كان يمكن أن يقعوا ضحية للهولوكوست وخبأتهم. انظر فصلاً بقلم چفري شلوس بعنوان *Evolutionary Account of Altruism and the Problem of Goodness by Design," in William Dembski, ed., Mere CreationDowners Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1998, , 236-261.*

الخير الأعظم". افعل ما ينفع في تحقيق غاية مَنْ، غاية الأم تريزا أم غاية هتلر؟ افعل ما يجلب الخير الأعظم بناءً على تعريف مَنْ للخير، الأم تريزا أم هتلر؟ إن هذه الأنظمة الأخلاقية لا بد أن تختلس لنفسها خفيةً القانون الأخلاقي لتعريف الغايات التي **يجب** أن نعمل على تحقيقها ولتعريف "الخير" الأعظم.

خامسًا، الداروينيون يخلطون بين كيفية **معرفة** المرء للقانون الأخلاقي **ووجود** القانون الأخلاقي. حتى إن كنا نعرف بعض "أحكامنا الأخلاقية" نتيجةً للعوامل الوراثية أو البيئية، هذا لا يعني عدم وجود قانون أخلاقي موضوعي خارجنا.

برز هذا الموضوع في المناظرة بين بيتر آتكينز ووليم لين كريج. فقد زعم آتكينز أن الأخلاق تطورت من الوراثة ومن "أمخاخنا الضخمة". ولكن كريج أصاب في إجابته قائلاً: "إن هذا الكلام يُبَيِّن، في أفضل الأحوال، كيف **تُكتَشَف** القيم الأخلاقية، ولكنه لا يبين أن تلك القيم **مختَرَعة**". مؤكَّدٌ أنه من الممكن أن أرِث قدرات رياضية من أمي وأتعلم منها جدول الضرب، ولكن قوانين الرياضيات موجودة بغض النظر عن كيفية معرفتي بها. وكذلك، الأخلاق موجودة بصرف النظر عن الكيفية التي نعرفها بها.

وأخيرًا، الداروينيون لا يستطيعون أن يفسروا لماذا **يجب** على أي شخص أن يطيع أي "حكم أخلاقي" يقوم على البيولوجيا. لماذا **يجب** على الناس **ألا** يقتلوا، أو يغتصبوا، أو يسرقوا ليحصلوا على ما يريدون إن لم يكن هناك أي شيء أبعد من هذا العالم؟ لماذا **يجب** على القوي أن "يتعاون" مع الضعيف رغم أن القوي يستطيع أن يبقى على قيد الحياة مدة أطول باستغلال الضعيف؟ وعلى أي حال، التاريخ زاخر بمجرمين ودكتاتوريين أطالوا حياتهم لأنهم تحديدًا عصَوا كل "الأحكام الأخلاقية" بقمع خصومهم والقضاء عليهم.

الأفكار لها عواقب

إن كان الداروينيون على حق في أن الأخلاق تنبع من مصدر طبيعي، إذَن الأخلاق ليست موضوعية ولا مطلقة. لأنه إن لم يكن هناك إله وإن كان البشر قد تطوَّروا من مادة لزجة، إذَن وضعنا الأخلاقي لا يرقى عن المادة اللزجة؛ لأنه ليس هناك شيء أبعد منا يغرس فينا أخلاقًا موضوعية أو كرامة.

وقد أدرك الداروينيون وأتباعهم مضامين هذه الفكرة. وفي الواقع استخدم أدولف هتلر *Adolf Hitler* نظرية داروين كتبرير فلسفي للهولوكوست. وقد سَطَّر في كتابه المنشور سنة ١٩٢٤ بعنوان *Mein Kampf* (''كفاحي'') هذه الكلمات:

> إن كانت الطبيعة لا ترغب في أن الضعفاء يخالطون الأقوياء، فهي ترفض أن جنسًا أرقى يختلط بجنس أدنى. وذلك لأنه في هذه الحالة كل ما بذلَتْهُ من جهود على مدى مئات الآلاف من السنين لتأسيس مرحلة تطورية أعلى في الكينونة سيذهب أدراج الرياح.
>
> إلا أن هذه الحماية تسير جنبًا إلى جنب مع القانون الجارف الذي يقضي بانتصار الأقوى والأفضل وبحقه في البقاء. فمَنْ أراد العيش عليه أن يحارب. ومَنْ لا يرغب في أن يحارب في هذا العالم، حيث الكفاح المستمر هو قانون الحياة، لا حق له في الوجود.[١٦]

وهتلر، مثل غيره من الداروينيين، يُشَخْصِن الطبيعة دون وجه حق بأنه ينسب لها الإرادة (أي ''الطبيعة **لا ترغب**''). وفكرته الرئيسية هي أن هناك أجناسًا أرقى وأجناسًا أدنى. واليهود بما أنهم جنس أدنى، لا حق لهم في الوجود إن كانوا لا يرغبون في الحرب. أي أن العنصرية ثم الإبادة الجماعية هي التداعيات المنطقية للداروينية. ومن ناحية أخرى، المحبة ثم التضحية بالذات هي التداعيات المنطقية للمسيحية. الأفكار لها عواقب.

لقد انكشفت العنصرية المرتبطة بالتطور أثناء ''محاكمة سكوبس في قضية القرد'' الشهيرة سنة ١٩٢٥. فكتاب الأحياء المقرَّر على المدرسة الثانوية الذي تَسَبَّب في المحاكمة كان يتكلم عن خمسة أجناس من البشر، وخَلُصَ إلى أن الجنس ''القوقازي'' هو ''أرقى الأنواع جميعًا''.* وهو ما يتناقض طبعًا بشكل مباشر مع تعليم الكتاب المقدس (تك١: ٢٧؛

---

* إليك النص كاملاً: ''أجناس البشر.– يوجد في الوقت الحالي خمسة أجناس أو تنوعات من البشر على وجه الأرض، وكل منها يختلف عن الآخر اختلافًا كبيرًا في النزعات الفطرية، والعادات الاجتماعية، وإلى حدٍّ ما في البنية. فهناك النوع الإثيوبي أو الزنجي الذي نشأ في أفريقيا، وجنس الملايو أو البني وهو من جزر الهادي، والهنود الحمر. والجنس المنغولي أو الأصفر ومنهم السكان الأصليون للصين واليابان والإسكيمو، وأخيرًا **الجنس القوقازي أرقى الأنواع جميعًا** الذي يمثّله سكان أوروبا وأمريكا البيض المتحضرون'' (جورج وليم هَنْتَر *George William Hunter*، ''أُسُس علم الأحياء: مقدَّمة في صورة مشكلات'' *Essentials of Biology: Presented in Problems [New York, Cincinnati, Chicago: American Book, 1911], 320,* الخط الأسود العريض من إضافة الكاتب).

أع١٧: ٢٦، ٢٩؛ غل٣: ٢٨). وهو يتناقض أيضًا مع ما يؤكده إعلان الاستقلال ("كافة البشر مخلوقون سواسية").

وفي زمن أقرب استخدم بيتر سينجر *Peter Singer* الدارويني والأستاذ في جامعة برينستون *Princeton* الداروينية ليؤكد أن "حياة المولود الجديد **أقل** قيمةً من حياة الخنزير، أو الكلب، أو الشمبانزي"[١٧]. نعم، ما قرأتـه قيل بالفعل.

ما عواقب أفكار سينجر الداروينية الصادمة؟ إنه يعتقد أن الآباء والأمهات يجب أن يمكنهم قتل أطفالهم حديثي الولادة حتى سن ٢٨ يومًا! وهذه المعتقدات تتفق اتفاقـًا تامًا مع الداروينية. فإن كنا جميعًا نشأنا من مادة لزجة، فلا أساس للقول بأن البشر أفضل أخلاقيًا من أي سلالة أخرى. ولكن السؤال الوحيد هو لماذا نـُحِدّ قتل الأطفال بسن ٢٨ يومًا، أو ٢٨ شهرًا، أو ٢٨ سنة؟ إن لم يكن هناك مشرِّع للقانون الأخلاقي، فليس هناك خطأ في القتل في أي عمر. وطبعًا الداروينيون أمثال سينجر قد يرفضون هذه النتيجة، ولكنهم لا يملكون أساسًا موضوعيًا للرفض إلا إذا تمكنوا من الاحتكام إلى مقياس أعلى منهم، ألا وهو مشرع للقانون الأخلاقي.

وجيمز ريتشلز *James Rachels* مؤلف كتاب "مخلوقون من الحيوانات: المضامين الأخلاقية للداروينية" *Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism*، يدافع عن الموقف الدارويني الذي مفاده أن النوع البشري ليس له قيمة في ذاته تفوق أي نوع آخر. وقد كتب ريتشلز عن ذوي الإعاقة الذهنية قائلاً:

> ماذا نقول عنهم؟ الاستنتاج الطبيعي وفقـًا للتعليم الذي نحن بصدده [الداروينية] يقول إن مركزهم يتساوى مع الحيوانات. وربما يجب أن نستخلص أيضًا أنه يمكن استخدامهم كما نستخدم الحيوانات غير البشرية، ربما كفئران تجارب، أو كغذاء؟[١٨]

على قدر بشاعة هذا الكلام، أي استخدام ذوي الإعاقة الذهنية كفئران تجارب أو غذاء، إلا أن الداروينيين لا يستطيعون أن يقدموا سببًا أخلاقيًا لعدم جواز استخدام **أي** كائن بشري على هذا النحو. فالداروينيون لا يستطيعون أن يدينوا التجارب التي تشبه التجارب النازية لأن العالم الدارويني لا يحوي مقياسا أخلاقيًا موضوعيًا.

ومؤخرًا كتب داروينيان آخران، هما راندي ثورنهيل *Randy Thornhill* وكريج پالمر *Craig Palmer* كتابًا يؤكِّد أن الاغتصاب عاقبة طبيعية للتطور.[١٩] فهما يعتقدان أن الاغتصاب "ظاهرة طبيعية بيولوجية ناتجة عن الإرث التطوري البشري" بالضبط مثل "رُقَط النمر وعنق الزرافة الطويل".[٢٠]

ورغم أن هذه الاستنتاجات الداروينية عن القتل والاغتصاب صادمة بحق، يجب ألا تكون مفاجئة لأي شخص يفهم التداعيات الأخلاقية للداروينية. لماذا؟ لأنه طبقًا للداروينيين **كل** السلوكيات تُحَدَّد وراثيًا. ورغم أن بعض الداروينيين قد يختلفون مع فكرة أن القتل والاغتصاب ليسا خطأ (تحديدًا لأن القانون الأخلاقي يخاطبهم في ضمائرهم)، فتلك الاستنتاجات هي النتيجة الحتمية لمنظورهم الفلسفي للحياة. لأنه إن كان كل ما هنالك هو الأشياء المادية، إذَن القتل والاغتصاب ليسا إلا نتائج التفاعلات الكيميائية في مُخّ الجاني التي تنشأ عن الانتخاب الطبيعي. علاوة على ذلك، القتل والاغتصاب لا يمكن أن يكونا خطأ موضوعيًا (أي ضد القانون الأخلاقي) لأنه إن لم يكن هناك إلا المواد الكيميائية، فليس هناك قوانين. فالقوانين الأخلاقية الموضوعية تتطلب مشرِّعًا للقانون متجاوزًا لحدود الزمان والمكان، ولكن المنظور الدارويني للحياة استبعده مُقَدَّمًا. لذا، الداروينيون المُتَّسِقون مع هذا المنظور لا يمكنهم إلا أن يعتبروا أن استهجان القتل والاغتصاب مجرد رأي شخصي، وأنهما لا يمثلان أخطاء أخلاقية حقيقية.

ولفهم ما يكمن وراء التفسير الدارويني للأخلاق، علينا أن نميز بين التأكيد *assertion* والحجة *argument*. التأكيد يقرِّر استنتاجًا، أما الحجة تقرِّر الاستنتاج **ثم تؤيده بالدليل.** والداروينيون يقدمون تأكيدات، لا حججًا. فليس هناك أدلة تجريبية ولا جنائية على أن الانتخاب الطبيعي يمكنه أن يفسر الأشكال الجديدة للحياة، فكم بالحري الأخلاق. والداروينيون يؤكِّدون ببساطة أن الأخلاق تطوَّرت طبيعيًا لأنهم يعتقدون أن الإنسان تطوَّر طبيعيًا. وهم يعتقدون أن الإنسان تطوَّر طبيعيًا، لا لأن عندهم أدلة على هذا الاعتقاد. ولكن لأنهم استبعدوا المسبِّبات الذكية مقدَّمًا. لذلك، التفسير الدارويني للأخلاق يضاف إلى سلسلة القصص التي "بلا دليل" التي تقوم على القياس الدائري والافتراضات الفلسفية المسبقة الخاطئة.

الملخص والخلاصة

عندما نقدِّم حلقتنا النقاشية بعنوان "الاثنتا عشرة نقطة التي تُثْبِت صحة المسيحية"، نجد أن العبارتين التاليتين عن الأخلاق تجذب انتباه الحاضرين فورًا:

إن لم يكن هناك إله، فما فعله هتلر كان مجرد مسألة رأي!

إن كان شيء واحد على الأقل خطأً حقيقيًا من الناحية الأخلاقية، كأن نقول إن تعذيب الرُضّع خطأ، أو إن اختراق المباني عمدًا بالطائرات التي تُقِلّ أبرياء خطأ، إذَن الله موجود.

هاتان الجملتان تساعدان الناس على إدراك أنه بدون مصدر موضوعي للأخلاق، كل ما ندعوه قضايا أخلاقية ليس إلا استحسان شخصي. هتلر كان يحب أن يقتل الناس، والأم تريزا كانت تحب أن تساعدهم. فإن لم يكن هناك مقياس أعلى من هتلر والأم تريزا، إذَن ليس هناك مصيب ولا مخطئ بحق، ولكنها آراء شخصية عكس بعضها البعض.

ولحسن الحظ أنه، كما رأينا، هناك مقياس أخلاقي حقيقي أعلى من البشر. وقد كتب سي. إس. لويس "البشر في جميع أنحاء البسيطة يعرفون هذه الفكرة الغريبة التي مفادها أنه يجب عليهم أن يسلكوا بطريقة معينة، ولا يمكنهم فعليًا التخلص منها. ثانيًا، إنهم يعرفون أيضًا أنهم لا يسلكون وفقًا لهذه الطريقة. فهم يعرفون قانون الطبيعة ولكنهم يكسرونه. هاتان الحقيقتان هما أساس كل تفكيرنا الواضح عن أنفسنا وعن الكون الذي نعيش فيه".[٢١]

ونتمنى أن نكون قد قمنا بشيء من التفكير الواضح في هذا الفصل. وإليك ملخص ما تناولناه:

١- هناك مقياس مطلق للصواب والخطإ مكتوب على قلوب كافة البشر. الناس قد ينكرونه، وقد يخمدونه، وأفعالهم قد تناقضه، ولكن **ردود أفعالهم** تكشف أنهم يعرفونه.

٢- النسبية خاطئة. فالبشر لا **يحدِّدون** الصواب والخطأ، ولكننا **نكتشف** الصواب والخطأ. فلو كان البشر يحددون الصواب والخطأ، لكان "على صواب" أي شخص يؤكد أن الاغتصاب والقتل والهولوكوست أو أي شر آخر ليس خطأ. ولكننا نعرف حدسيًا أن تلك الأفعال خاطئة من خلال ضمائرنا التي تعكس القانون الأخلاقي.

٣- هذا القانون الأخلاقي لا بد أن يكون له مصدر أعلى منا لأنه أمر توجيهي منقوش على

قلوب جميع البشر. وبما أن الأوامر دائمًا ما يكون لها آمر يصدرها، أي أنها لا تنشأ من الفراغ، فالآمر الذي أصدر القانون الأخلاقي (الله) لا بد أن يكون موجودًا.

٤- هذا القانون الأخلاقي هو مقياسُ الله للصواب، وهو يساعدنا أن نحكم في الآراء الأخلاقية المختلفة التي يتبناها الناس. ودون مقياسِ الله، لا يبقى لنا إلا هذه الآراء البشرية. ولكن القانون الأخلاقي هو المقياس النهائي الذي يقاس به كل شيء. (في اللاهوت المسيحي القانون الأخلاقي هو طبيعةُ الله نفسها. وهو ما يعني أن الأخلاق ليست اعتباطية، إنها ليست "افعل هذا ولا تفعل ذاك لأني أنا الله وأنا أقول ذلك". لا، الله لا يخترع قواعد بقرارات فجائية. ولكن مقياس الصواب هو ذات طبيعة الله نفسه: عدالة بلا حدود ومحبة بلا حدود).

٥- رغم أن الاعتقاد الشائع هو أن كل الأخلاق نسبية، فالقيم الأخلاقية الجوهرية مطلقة، وهي تتجاوز الثقافات. والتشوش حول هذا الأمر غالبًا ما يقوم على سوء فهم أو سوء تطبيق المطْلَقَات الأخلاقية، لا على رفض حقيقي لها. وهو ما يعني أن القيم الأخلاقية مطلقة حتى إن كان فهمنا لها أو للظروف التي يجب تطبيقها فيها ليس مطلقًا.

٦- الملحدون لا يملكون أساسًا حقيقيًا للصواب والخطإ الموضوعيين. وهو ما لا يعني أن الملحدين ليسوا أخلاقيين أو أنهم لا يعرفون الصواب من الخطإ. بل على العكس، الملحدون يستطيعون أن يعرفوا الصواب من الخطإ، وهم يعرفونه بالفعل لأن القانون الأخلاقي منقوش على قلوبهم كما على قلوب سائر البشر أجمعين. ولكنهم بينما **يعتقدون** في الصواب والخطإ الموضوعيين، لا يجدون وسيلة **لتبرير** هذا المعتقد (إلا إذا اعترفوا بمُشَرِّع للقانون الأخلاقي، وعندئذٍ لا يكونون ملحدين).

وفي النهاية، لا يمكن للإلحاد أن يبرِّر صواب أو خطأ أي شيء من الناحية الأخلاقية. فهو لا يستطيع أن يضمن حقوق الإنسان ولا العدالة النهائية في الكون. فلكي تكون ملحدًا، ملحدًا متسقًا مع مبادئه، عليك أن تؤمن أنه لا خطأ حقيقي في القتل، ولا الاغتصاب، ولا الإبادة الجماعية، ولا التعذيب، ولا غير ذلك من سائر الأفعال الوحشية. ولكنك بالإيمان عليك أن تـُصَدِّق أنه لا فرق أخلاقي بين القاتل والمرسَل، ولا بين المدرس والإرهابي، ولا بين الأم تريزا وهتلر. أو بالإيمان عليك أن تصدق أن المبادئ الأخلاقية الحقيقية نشأت من لا شيء. وبما أنه واضح أن هذه المعتقدات غير منطقية، **فلسنا نملك الإيمان الكافي للإلحاد.**

الفصل ٨ يتناول :

١- الحَقّ المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.

٢- عكس الحق هو الخطأ.

٣- وجودُ إله خالقٍ حافظ حقٌّ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بدايةً الكونً (الحجّة الكونية *Cosmological Argument*)

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument*/ المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*)

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) الشهادة المبكرة

ب) شهادة شهود العيان

ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)

د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين

٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأَكّد معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

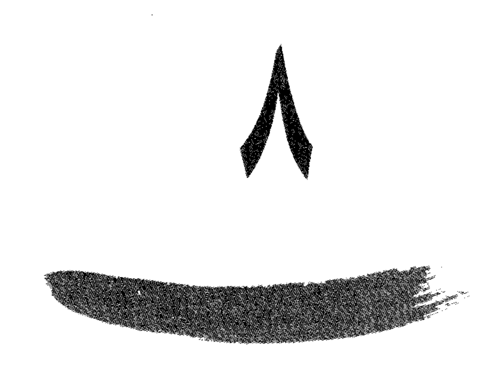
ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌّ.

١١- يسوع عَلّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).



المعجزات: علامات تشير لله أم سذاجة؟

"إن اعترفنا بالله، هل لا بد أن نعترف بالمعجزات؟ بالتأكيد. بالتأكيد. لا مناص من ذلك. هذه هي الصفقة الكاملة".

سي. إس. لويس

مَنْ المؤهَّل للفوز بالنهائي؟

يجب أن نتوقف برهة ونجمع قطع اللغز التي اكتشفناها حتى الآن. وتَذَكَّر أننا نبحث عن الوحدة في التنوع. إننا نحاول أن نرتب قطع الحياة المتنوعة في صورة متسقة. وصورتنا المتسقة حتى الآن تبين لنا أن الحق موجود ويمكن معرفته. وأي إنكار للحق يفترض الحق مسبقـًا. إذَن لا مهرب من وجود الحق. وإن كنا لا نستطيع أن نعرف معظم الحق معرفة مطلقة نظرًا لمحدوديتنا البشرية، إلا أننا نستطيع أن نعرف الكثير من الحقائق بدرجة كبيرة من اليقين (أي "بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي"). ومن هذه الحقائق وجودُ الله وطبيعته. وطبقـًا لما تناولنا من فروع الأدلة، أي الحجج الكونية، والغائية، والأخلاقية يمكننا أن نعرف بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أنه يوجد إله خلق الكون ويحفظه وله صفات معينة.

من الحجة الكونية نعرف أن الله:

١- ذاتي الوجود، وخارج حدود الزمان والمكان، وغير مادي (فبما أنه* خلق الزمان والمكان

* هذا الكائن شخص عاقل، لا جمادًا غير عاقل. ونحن نعلم أن هذا الكائن له شخصية لأنه فعل شيئًا لا يفعله إلا الأشخاص، أي أنه اختار. لقد اختار أن يخلق.

والمادة، لا بد أن يكون خارج الزمان والمكان والمادة). وهو ما يعني أنه غير محدود، أي أنه لانهائي.

٢- قوته تفوق الخيال، بما أنه خلق الكون كله من العدم.

٣- شخص، بما أنه اختار أن يحوِّل حالة من العدم إلى كون مادي زمكاني (القوة اللاشخصية لا تقدر أن تختار).

من الحجة الغائية نعرف أن الله:

١- يتصف بذكاء فائق بما أنه صمَّم الحياة والكون بهذا التعقيد والدقة المذهلينَ.

٢- له غرض، بما أنه صمَّم أشكال الحياة الكثيرة بحيث تعيش في هذه البيئة المحددة والمنظمة.

من الحجة الأخلاقية نعرف أن الله:

يتصف بالنقاء الأخلاقي المطلق (هو المقياس الثابت للأخلاق الذي تقاس عليه كافة الأفعال. وهذا المقياس يشتمل على عدالة ومحبة بلا حدود).

إن منظور الله الخالق الحافظ *Theism* هو المصطلح الدقيق الذي يصف مثل هذا الإله. والآن إليك الحقيقة المذهلة بخصوص هذه النتائج: الله الخالق الحافظ الذي اكتشفناه يتطابق مع إله الكتاب المقدس، إلا أننا اكتشفناه دون اللجوء للكتاب المقدس. وقد بيَّنا أنه بالمنطق السليم، والعِلْم، والفلسفة يمكن معرفة الكثير عن إله الكتاب المقدس. والحقيقة أن هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس نفسه (مثلاً مزمور١٩؛ رومية١: ١٨- ٢٠؛ ٢: ١٤، ١٥). ويطلق اللاهوتيون على إعلانِ الله عن نفسه بهذه الصورة مصطلح الإعلان الطبيعي أو العام (الذي يُرى بوضوح بالاستقلال عن أي نص). أما إعلان الكتاب المقدس يُطلق عليه الإعلان الخاص.

ومن ثم، نعرف من الإعلان الطبيعي أن الإيمان بالله الخالق الحافظِ صحيح. ويساعدنا هذا الاكتشاف أن نعرف شكل سطح العلبة الصحيح، بل يساعدنا أيضًا أن نعرف الأشكال التي **لا يمكن** أن تمثِّل الشكل الصحيح. وبما أن عكس الصحيح هو الخاطئ (الفصل الثاني)، فإننا نعرف أن أي منظور للحياة يناقض الإيمان بالله الخالق الحافظ منظور خاطئ. أو يمكننا التعبير عن ذلك بطريقة أخرى: لا يمكن أن يكون هناك دين صحيح إلا واحد فقط من بين أديان العالم الرئيسية التي تؤمن بالله الخالق الحافظ، أي اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. وسائر ديانات العالم الرئيسية جميعًا لا يمكن أن تكون صحيحة لأنها لا تؤمن بالله الخالق الحافظ.

يمكن أن تكون صحيحة (تؤمن بالله الخالق الحافظ)	**لا يمكن أن تكون صحيحة** (لا تؤمن بالله الخالق الحافظ)
١- اليهودية	١- الهندوسية (تؤمن بوحدة الوجود وتعدّد الآلهة)
٢- المسيحية	٢- البوذية (تؤمن بوحدة الوجود أو الإلحاد)
٣- الإسلام	٣- العصر الجديد (يؤمن بوحدة الوجود)
	٤- الإنسانية العلمانية (إلحادية)
	٥- المورمونية (تؤمن بتعدد الآلهة)
	٦- الويكا *Wicca* (تؤمن بوحدة الوجود أو تعدد الآلهة)
	٧- الطاوية (تؤمن بوحدة الوجود أو الإلحاد)
	٨- الكونفوشيوسية (إلحادية)
	٩- الشنتو *Shinto* (تؤمن بتعدد الآلهة)

الجدول ٨-١

وقد يبدو هذا الكلام زعمًا متكبِّرًا ينكر وجود الحق في العديد من ديانات العالم في هذه المرحلة. ولكن بالمنطق البسيط، وفقًا لقانون عدم التناقض، لا يمكن لديانات مضادة لبعضها البعض أن تكون جميعًا صحيحة. فكما يُستبعَد بعض لاعبي كرة القدم من سجل المرشحين للّعب لأنهم يفتقدون للقدرات اللازمة، وهو إجراء عادل، هكذا تُستبعَد ديانات معينة في العالم من سجل الديانات التي يمكن أن تكون صحيحة، لأنها تفتقد للمؤهلات اللازمة.

لذا، منطقيًا، إن كان الإيمان بالله الخالق صحيحًا، إذَن كل الأديان التي لا تؤمن بالله الخالق خاطئة. إلا أن هذا لا يعني أن كل تعاليم الديانات التي لا تؤمن بالله خاطئة أو أن تلك الديانات تخلو تمامًا من أي صلاح، بل من المؤكد أن هناك شيئًا من الحق والصلاح في معظم ديانات العالم. ولكنه يعني ببساطة أن الديانات التي لا تؤمن بالله خاطئة من حيث كونها طريقة لرؤية العالم (أي منظورًا فلسفيًا للحياة). فرغم أن بعض تفاصيلها قد تكون صحيحة، فهي خاطئة في جوهرها. وذلك لأنها منظومات بُنِيَت على أساس خاطئ حتى إن كانت تشتمل على قدر من الحق.

فمثلاً يُعَلِّم الهندوس بأنك تحصد ما تزرع، وهو تعليم صحيح، إلا أن المنظور الهندوسي للحياة، ألا وهو "أنك" لا توجد وجودًا حقيقيًا لأن كل شيء يمثل جزءًا من واقع واحد لا يمكن التمييز بين أجزائه واسمه البراهمان *Brahman*، هو منظور خاطئ. والفلسفة الإنسانية

العلمانية تؤكِّد حقيقة الشر، وهو تأكيد صحيح، إلا أن المنظور الإنساني للحياة الذي ينكر وجود مقياس موضوعي لتحديد الشر هو منظور خاطئ. والمورمون يُعَلِّمون أن هناك مقاييس أخلاقية يجب أن نتبعها، وهو تعليم صحيح، إلا أن المنظور المورموني للحياة الذي يقول بتعدد الآلهة منظور خاطئ.[١]

وهذه النقطة الأخيرة بخصوص المورمونية تطرح سؤالاً، ألا وهو: لماذا يدحض وجودُ إله خالق فكرةَ تعدد الآلهة؟ إنه يدحضُ تعدد الآلهة لأن الله لا متناهٍ، ولا يمكن أن يوجد أكثر من كائن واحد لامتناه. وذلك لأن التمييز بين كائن وآخر يستلزم وجود اختلافات بين الكائنات. ولكنهم لو اختلفوا في أي ناحيةٍ، فهذا يعني أن أحدهم ينقصه شيء موجود عند آخر. وإن كان أحد الكائنات ينقصه شيء موجود عند آخر، إذَن الكائن الناقص ليس لا متناهيًا لأن الكائن اللامتناهي لا ينقصه شيء بطبيعة الحال. لذا، يستحيل أن يوجد إلا كائنًا واحدًا لا متناهيًا.

وهنا يمكن لأحدهم أن يقول إنه توجد كائنات متناهية (أو "آلهة") أقوى من البشر. ففي الواقع اليهودية والمسيحية والإسلام تُعَلِّم جميعًا بوجود ملائكة وشياطين. إلا أن هذا يختلف عن تعدد الآلهة الذي ينكر وجود كائن أعلى لا متناهٍ سرمدي تدين له كل المخلوقات بوجودها ويكون كل البشر مسؤولين أمامه في النهاية. وبماً أن الإيمان بالله الخالق الحافظِ صحيح، إذَن الإيمان بتعدد الآلهة خاطئ مثله مثل الإلحاد، ووحدة الوجود، وغيرها من المنظورات التي لا تؤمن بالله الخالق.

ولكننا ابتعدنا عن موضوعنا. فالنقطة الرئيسية هي أن سطح العلبة الصحيح للكون يُظهر إلهًا خالقًا. وهو ما يعني أن واحدة فقط من ديانات العالم الرئيسية الثلاث هي المؤهَّلة للفوز بالنهائي: إما اليهودية، أو المسيحية، أو الإسلام. والآن، لا يمكن منطقيًا أن تكون كل ديانات العالم هذه التي تؤمن بالله الخالق صحيحة، لأنها تزعم مزاعم تنفي بعضها البعض. فضلاً عن ذلك، من المحتمل أيضًا أنه ليس هناك ديانة واحدة صحيحة تمامًا من بين ديانات العالم هذه. فربما أن إيمانها بالله الخالق هو الصحيح، وفيما عدا ذلك لا تحوي من الحق إلا القليل. فهذا ممكن. إلا أنه بما أننا نعلم بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن الله موجود وأنه يتصف بالصفات التي عددناها أعلاه، وهي صفات تشتمل على التصميم، والغرض، والعدالة، والمحبة، إذَن يجب أن نتوقع منه أن يكشف المزيد من نفسه وغرضه لحياتنا. وهو ما يتطلب منه أن يتواصل معنا. والاحتمال المتوقع أن واحدة من هذه الديانات الرئيسية الثلاث التي تؤمن بالله الخالق تحتوي على ذلك التواصل.

كيف يتواصلُ الله؟

كما رأينا، الله تواصل معنا من خلال الخليقة والضمير (الإعلان الطبيعي أو العام) الذي يزوِّدنا بأفكار أولية عن وجوده وقوته ومتطلباته الأخلاقية. ولكن كيف يمكن أن يعلن الله نفسه بحيث نصل إلى فهم أكثر تفصيلاً لغرضه النهائي لنا؟

لماذا لا يستطيع أن يَظهر لكلٍّ منا؟ يستطيع، ولكن هذا الأسلوب قد يقهر إرادتنا الحرة. سي. إس. لويس له أفكار ثاقبة في هذا الموضوع. ففي كتابه "رسائل خربر"، يكتب الشيطان الكبير "خربر" الرسالة التالية لتلميذه "علقم":

> لا شك أنك تساءلت لماذا لا يُزيد العدو [الله] من استخدام قوته حتى يكون حضوره محسوسًا لنفوس البشر بالدرجة التي يبغيها وفي أي لحظة. ولكنك الآن فهمت أن طبيعة خطّته في صميمها تمنعه من استخدام هذين السلاحين: ما يستعصي على المقاومة، وما يستعصي على الشك. فقهر الإرادة البشرية (الذي يَنتج حتمًا عن حضوره المحسوس في أبهت وأخف درجاته) عديم الفائدة له. فهو لا يستطيع أن يغتصب. ولكنه يستطيع فقط أن يُبهر.[٢]

إن لم يستخدم الله هذا الخيار القاهر بأن يتعامل وجهًا لوجه مع كل شخص على الكوكب، إذَن ربما أنه اختار طريقة للتواصل أكثر استتارًا. (والحقيقة أن الكتاب المقدس يقول إن الله ليس ظاهرًا باستمرار على النحو الذي نتمناه [إشعياء٤٥: ١٥]). فمن المحتمل أن الله أظهر نفسه بطريقةٍ ما لفئة منتقاة من البشر على مر قرون كثيرة وأوحى لهم أن يكتبوا ما شهدوه وسمعوه منه. واللغة المكتوبة واسطة دقيقة للتواصل يسهل نسخها بدقة ونقلها للأجيال المتعاقبة، وفي الوقت نفسه مَن يقرِّر بإرادته الحرة أنه لا يريد أن يزعج نفسه بالله يستطيع أيضًا أن يتجاهلها.

لذا فالكتاب وسيلة مناسبة للتواصل الإلهي ولكنها ليست قاهرة. ولكن كتاب مَنْ يا تُرى؟ هل تواصَلَ الله من خلال كتاب اليهود، أم كتاب المسيحيين، أم كتاب المسلمين؟ فإن كان أيٌّ من هذه الكتب يمثِّل بحق رسالة من الله، فكيف يمكننا أن نحدِّد هذا الكتاب؟

ختم الملك

قبل عصر الاتصالات الجماهيرية عندما كانت كل الرسائل التي ترسَل إلى مسافات بعيدة تُسَلَّم باليد، كان الملك يضع ختمه على الرسالة. وهذا الختم هو علامة تبيِّن لمتلقي الرسالة

أنها أصلية، أي أنها مرسَلة فعلاً من الملك لا مِن شخص ينتحل شخصية الملك. وطبعًا لإنجاح العمل بهذا النظام، كان لا بد للختم أن يتخذ شكلاً فريدًا أو غير مألوف، ويسهل التعرف عليه، وكان يجب ألا يكون بحوزة أحد إلا الملك.

وقد تَمَكَّن الله من استخدام نظام مشابه ليؤكِّد أصالة رسائله، وهذا النظام هو المعجزات. فالمعجزات فريدة وغير مألوفة، ويسهل التعرف عليها، ولا أحد يستطيع أن يفعلها إلا الله. حتى المتشككون عندما يطالبون الله بآية يعترفون ضمنـًا أن المعجزات تـُثبْت وجوده.

ما هي المعجزة؟ المعجزة هي فعل خاص يقوم به الله يقطع مجرى الأحداث الطبيعي. وهو ما عبَّر عنه الملحد أنتوني فلو *Antony Flew* تعبيرًا جيدًا حين قال: "المعجزة شيء ما كان لَيحدث أبدًا لو تـُرِكَت الطبيعة هكذا لأدواتها الخاصة".[٣] ومن ثم يمكننا أن نقول إن القوانين الطبيعية تصف ما يحدث بانتظام بواسطة المسببات الطبيعية، أما المعجزات، إن كانت تحدث أصلاً، تصف ما يحدث نادرًا بالمسببات فوق الطبيعية.

فبالمعجزات استطاع الله أن يخبر العالم أي كتاب أو أي شخص يُعَبِّر عنه. لذا، إن أراد الله أن يبعث رسالة من خلال موسى، أو إيليا، أو يسوع، أو بولس، أو أي شخص آخر، كان باستطاعته أن يصبّ المعجزات من خلال ذلك الشخص.

فإن كان الله يعمل فعليًا بهذه الطريقة، إذَن المعجزة تؤكِّد الرسالة، والآية تؤكد العظة. أو يمكننا التعبير عن هذا المعنى بشكل آخر: المعجزة فعل يقوم به الله ليؤكّد كلمة الله بواسطة رسول من الله.

والسؤال هو: هلِ الله يعمل بهذه الطريقة؟ هل ملك الكون يستخدم هذه الآيات؟ هل المعجزات ممكنة أصلاً؟ عالَمنا العلماني يقول لا. ولكنه مخطئ خطـًا فادحًا كما سنرى.

هل الصندوق مفتوح أم مغلق؟

منذ قريب واجه أستاذ كلية اللاهوت رونالد ناش تحديًا كبيرًا وهو في زيارة إلى روسيا ليتحدث إلى المعلمين الروس. فقد أراد أن يتحدث إليهم عنِ الله، ولكنه كان يعرف أنه لن يصل إلى أي شيء معهم إلا إذا نجح في التغلب على تحيزاتهم القديمة المتأصلة ضد الإيمان بالله. فالروس تعلّموا على مدى أكثر من سبعين عامًا منظورًا فلسفيًا للحياة يستبعدُ الله مسبقـًا. وكان الإلحاد الدين الرسمي للدولة، والمنظور الإلحادي للحياة يؤكد أنه لا يوجد سوى العالم الطبيعي المادي. وطبقـًا لمعتقدات الملحدين، المعجزات مستحيلة لأنه ليس هناك عالم

فوق طبيعي. ومَن يؤمن بغير ذلك كمَنْ يؤمن بقصص الجنيات.

فبدأ ناش بأن عرض أمامهم صندوقين صغيرين من الورق المقوى. كان أحدهما مفتوحًا، وكان الآخر مغلقًا.

وبدأ كلامه قائلاً: "إليكم الفرق بين منظوركم الفلسفي للحياة ومنظوري". وقال مشيرًا إلى الصندوق المغلق: "أنتم تعتقدون أن الكون المادي مغلق؛ أي أنه لا يوجد سوى الكون ولا شيء خارج الكون".

ثم انتقل إلى الصندوق المفتوح وواصل كلامه قائلاً: "أنا أيضًا أعتقد أن الكون المادي موجود، ولكني أعتقد كذلك أن الكون مفتوح، أي أن هناك شيء خارج الكون نسميه الله". ثم توقف ناش لحظة وأضاف: "والله خَلَقَ الصندوق!"

ثم أدخل يده في الصندوق المفتوح وقال: "كما أستطيع أن أُدْخِل يدي في هذا الصندوق لأتَحَكَّم في محتوياته، كذلك الله يستطيع أن يَدخُل في كوننا ويجري ما نسميه معجزات".

ولسببٍ ما كان هذا التشبيه عميقًا في نظر الروس. وبدأت المصابيح تضيء في عقول المعلمين في القاعة كلها. فقد افترض هؤلاء المعلمون أن منظورهم الفلسفي الطبيعي للحياة صحيح ولم يفكروا في أي بدائل. ولكن ناش ساعدهم أن يفكروا في أنه من المحتمل أن بديلاً آخر كالإيمان بالله الخالق أدلته أقوى.

وكما رأينا من الفصل الثالث إلى السابع، الإيمان بالله الخالق أدلته أقوى فعلاً. فنحن نعرف بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أنه يوجد إله خالق. وبما أن الله موجود، فالكون الذي يمثله الصندوق المغلق خطأ. إن الصندوق مفتوح وقد خلقه الله. إذَن **من الممكن** أن يتدخل الله في العالم الطبيعي بصنع المعجزات. **والحقيقة أن المعجزات ليست ممكنة فحسب، بل المعجزات فعلية، لأن أعظم المعجزات جميعًا، ألا وهي خلق الكون من عدم، حدثت بالفعل. لذا، بخصوص الكتاب المقدس، إن كان تكوين ١: ١ صحيحًا – «في البدء خلق الله السموات والأرض»- إذَن من السهل تصديق سائر المعجزات الأخرى الواردة في الكتاب المقدس.**

فهل الإله الذي خلق الكون كله من عدم يستطيع أن يشق البحر الأحمر؟ ويُنزِل نارًا من

السماء؟ ويحفظ رَجُلاً داخل حوت لمدة ثلاثة أيام؟* ويتنبأ بأحداث مستقبلية بدقة؟ ويحوِّل الماء إلى خمر؟ ويشفي الأمراض في لحظة؟ ويقيم الموتى؟ طبعًا. كل تلك الأحداث المعجزية مهام بسيطة بالنسبة لكائن قوي بلا حدود خَلَقَ الكون أصلاً.

إلا أن هذا لا يعني أن الله صنع تلك المعجزات الكتابية. فهذا ما سنراه لاحقًا. ولكنه يعني فقط أنه باستطاعته أن يفعل ذلك، أي أن تلك المعجزات ممكنة. ففي ضوء حقيقة أننا نعيش في عالم خَلَقَه الله، يتضح بجلاء أن استبعاد المعجزات مسبقًا (كما يفعل الكثير من الملحدين) موقف غير مشروع. كما قال سي. إس. لويس "إن اعترفنا بالله، هل لا بد أن نعترف بالمعجزات؟ بالتأكيد، بالتأكيد، لا مناص من ذلك. هذه هي الصفقة الكاملة".[٥]

لذلك، لماذا يقول العديد من الناس اليوم إن المعجزات مستحيلة أو إنه لا يجب تصديقها؟ كيف يمكن للمتشككين ألا يؤمنوا بالمعجزات والكون كله يبدو معجزة مذهلة؟ يجب أن نتناول تلك الأسئلة قبل أن نبحث ما إذا كان الله قد أكد حق اليهودية أو المسيحية أو الإسلام بالمعجزات.

الاعتراضات على المعجزات

منذ أواخر القرن السابع عشر ظَهَرَ اعتراضان رئيسيان على المعجزات يجب أن نتناولهما بالفحص. أتى أولهما من بنيديكت سپينوزا *Benedict Spinoza*، وثانيهما من ديـڤيد هيوم. وسنبدأ باعتراض سـپينوزا.

القوانين الطبيعية ثابتة لا تتغير ***Immutable***: كان بنيديكت سـپينوزا، وهو يهودي يؤمن بوحدة الوجود، أول مَن نشر الحجة القائلة بأن القوانين الطبيعية ثابتة لا تتغير في سبعينيات القرن السابع عشر. وتقول حجة سـپينوزا المضادة للمعجزات ما معناه:

١- المعجزات خرق للقوانين الطبيعية.

٢- القوانين الطبيعية ثابتة لا تتغير.

---

* كثيرًا ما نسمع مسيحيين يحاولون شرح قصة يونان المعجزية بالاستناد إلى قصص يُفترض أنها حقيقية عن صيادين عاشوا فترة معينة داخل حيتان. وحتى إن كانت تلك الأحداث صحيحة، فهي لا تمت بصلة لقصة يونان على الإطلاق. فالقصد من قصة يونان أن تكون قصة معجزية، أي أنها شيء لا يستطيع أن يفعله سوى الله. فمؤكد أنه ليس هناك رجل يستطيع أن يعيش في بطن سمكة عملاقة لمدة ثلاثة أيام ثم تتقيؤه السمكة على بقعة معينة من اليابس، إلا إذا كان ذلك عملاً إلهيًا. وإن كان يبدو شيئًا يستحيل تصديقه لأن العالم لا يسير بتلك الطريقة عادةً، **فالهدف** من الحدث هو أن يبدو بهذا الشكل الذي يصعب تصديقه! فالمعجزة التي يمكن تفسيرها بالوسائل الطبيعية ليست معجزة. والمحصلة النهائية هي أن الله الذي صنع أعظم المعجزات جميعًا، أي خَلْق الكون بما فيه من حيتان وبشر، لا يجد أدنى صعوبة في تصميم معجزة يونان.

٣- يستحيل خرق قوانين ثابتة لا تتغير.
٤- إذَن المعجزات مستحيلة.

إن كان سپينوزا على حق، أي أنه إن كان مستحيلاً التغلب على القوانين الطبيعية، أو توقيفها مؤقتًا، أو التدخل فيها، إذَن المعجزات مستحيلة.

إلا أن مشكلة هذا الاعتراض أنه يصادر على المطلوب.* فإن عرَّفْتَ القوانين الطبيعية بأنها ثابتة، إذَن المعجزات مستحيلة طبعًا. ولكن هذا هو السؤال الذي نبحث عن إجابته! فمَن قال إن القوانين الطبيعية ثابتة؟

إن سپينوزا، تمشّيًا مع منظور وحدة الوجود، استبعد مسبقًا الإله الخالق دون وجه حق، ومن ثم استبعد المعجزات. ولكن إن كان الله موجودًا، المعجزات ممكنة. وكما رأينا أعظم المعجزات جميعًا، وهي خلق الكون من عدم، حدثت بالفعل.

والخليقة نفسها تبيِّن أن القوانين الطبيعية ليست ثابتة. فليس من الطبيعي أن ينشأ شيء من لا شيء. ولكن هذا ما حدث.

ونحن نعرف أيضًا أن القوانين الطبيعية ليست ثابتة لأنها **توصيفات** لما يحدث، وليست **تعليمات** تحدِّد ما يجب أن يحدث. إن **القوانين** الطبيعية لا تسبِّب فعليًا أي شيء، ولكنها تصف فحسب ما يحدث بانتظام في الطبيعة. فهي تصف آثار **القوى** الطبيعية الأربع المعروفة: الجاذبية، والمغناطيسية، والقوى النووية القوية والضعيفة. وما إن تُدخل كائنات ذكية في الصورة، حتى يمكن التغلّب على القوى الطبيعية. فنحن نعلم أن تلك القوى يمكن التغلب عليها لأننا نحن أنفسنا نفعل ذلك يوميًا.

فمثلاً عندما يمسك لاعب البيسبول الكرة وهي تسقط، فهو يتغلب على قانون الجاذبية. وهو ما نفعله كلما نقود طائرة أو نطلق صاروخًا في الفضاء. ففي هذه الحالات نحن لا نغير الجاذبية ولكننا نتغلب عليها. فإن كانت كائنات متناهية مثلنا تستطيع أن تتغلب على القوى الطبيعية، إذَن من المؤكد أن الكائن اللامتناهي الذي خلق تلك القوى يستطيع أن يفعل ذلك.†

* انظر الحاشية السفلية ص ١٤٤. (المترجمة)

† القوانين الطبيعية تختلف عن القوانين الأخلاقية من حيث إنها لا تقوم على طبيعة الله، ومن ثم فهي قابلة للتغير. فرغم أن الله لا يستطيع أن يخرق القوانين الأخلاقية، لأنه هو المقياس الثابت للأخلاق، يستطيع أن يغير القوانين الطبيعية أو يوقفها مؤقتًا كما يشاء. فالواقع أن الله كان يمكنه أن يخلق واقعًا ماديًا، بما فيه القوانين الطبيعية والبيئة الطبيعية والكائنات الحية، بسمات تختلف كليةً عن سماته الحالية.

المعجزات عديمة المصداقية: منذ عدة سنوات، دعيتُ (أنا نورم) لأتحدث في كلية لاهوت جامعة هارڤـارد، وهي من أكثر كليات اللاهوت ليبراليةً في البلاد. وكان موضوعي بعنوان "وداع هارڤـارد للإنجيلية المحافِظة قبل الأوان" *"Harvard's Premature Farewell to Evangelicalism"*. صَدِّقْ أو لا تصدق، هارڤـارد مثل معظم الجامعات في عصرها تأسست على يد مسيحيين إنجيليين محافظين لتعليم الطلاب معرفة يسوع المسيح. وميثاق هارڤـارد سنة ١٦٤٦ ينص صراحةً على الغرض منها (مع الاحتفاظ بالشواهد الكتابية المذكورة فيه):

> ليتعلمْ كل طالب صراحةً ويُستَحَثُّ جَدّيًا أن يعتبر فعليًا أن الغاية الأساسية من حياته ودراساته هي معرفةُ الله ويسوع المسيح التي هي الحياة الأبدية (يوحنا١٧: ٣)، ومن ثم يجعل المسيحَ قاعدةَ حياتِه، باعتباره الأساس الوحيد لكل المعرفة والتعلم السليم. وإذ يدرك كل طالب أن الرب وحده واهب الحكمة، يوجِّه نفسه جديًا لطلب الحكمة منه بالصلاة السرية (أمثال٢: ٣).[٦]

فكيف ابتعدت هارڤـارد كل هذا البعد عن ميثاقها؟ لأنها صدَّقت واحدة من أقوى الحجج التي صيغت ضد المعجزات. ولكنها ليست حجة سـپينوزا. فنتيجةً للتطورات التي شهدها العلم الحديث وفهمِنا للعالم الطبيعي بشكل أفضل، ليس كثيرون اليوم يؤمنون فعليًا بثبات القوانين الطبيعية. ولكن الحجة المضادة للمعجزات المقبولة اليوم، والتي حظيت بالقبول في هارڤـارد، طرحها الشكوكي الكبير ديـڤيد هيوم (١٧١١- ١٧٧٦) بعد سـپينوزا بحوالي قرن من الزمان.

ولعلك تتذكر هيوم من الفصل الثاني. فهو الذي قال إن أي كلام عنِ الله عديم المعنى لأن هذا الكلام لا يشتمل على ملاحظة تجريبية ولا حقائق واضحة في ذاتها. وقد رأينا أن زعمه يفند نفسه.

إلا أن حجة هيوم ضد المعجزات أعقد قليلاً، ولا يسهل دحضها كما هو الحال في الحجة ضد الكلام عنِ الله. ولعل هذا هو أحد الأسباب التي تجعل الناس يصدقونها حتى اليوم. والحقيقة أن حجة هيوم ضد المعجزات تمثل واحدًا من أعمدة المذهب المدعو التنوير *Enlightenment* (فعند هذه المرحلة يُفترَض أننا استنرنا بما يكفي للتخلي عن إيماننا الخرافي بالمعجزات، والإيمان بالعقل والحقائق التجريبية التي يكتشفها المنهج العلمي). وقد ساعدت حجة هيوم في تقدم المنظور الطبيعي الذي تفشى فيما بعد مع نظرية داروين في التطور.

وفيما يلي مجمل المادة التي قدمْتُها للحضور في هارڤـارد في ذلك اليوم. بدأت بتوضيح حجة هيوم المضادة للمعجزات ثم انتقلت إلى نقدها. إليك حجة هيوم في شكل قياس منطقي:

١- القانون الطبيعي بطبيعته توصيف لحدث متكرر.

٢- المعجزة بطبيعتها حدث نادر.

٣- الأدلة على الأحداث المتكررة دائمًا ما تكون أكثر من الأدلة على الأحداث النادرة.

٤- الحكيم دائمًا ما يؤسس معتقداته على الأدلة الأكثر.

٥- إذَن الحكيم يجب ألا يؤمن أبدًا بالمعجزات.

إن كانت تلك المقدِّمات المنطقية الأربع صحيحة، فالنتيجة تتبع المقدمات بالضرورة: الحكيم يجب ألا يؤمن أبدًا بالمعجزات. ولكن لسوء حظ هيوم ومَن صدَّقوه على مر السنين أن حجته تشتمل على مقدمة خاطئة، لأن المقدمة الثالثة ليست بالضرورة صحيحة. فالأدلة على الأحداث المتكررة **ليست** دائمًا أكثر من الأدلة على الأحداث النادرة.

للوهلة الأولى قد يهيأ لنا أن الأمر ليس هكذا. ففي العصر الذي يمكننا فيه مشاهدة اللقطة معادة في المباريات الرياضية في التو واللحظة، تبدو المقدمة الثالثة منطقية. فمثلاً، حَكَم مباراة كرة القدم يرى لعبةً ما من زاوية واحدة بكامل سرعتها، بينما نتمكن نحن من رؤيتها من عدة زوايا بالتصوير البطيء. وبذلك تتوفر لنا أدلة أكثر لأننا نرى اللعبة مرارًا (الحدث المتكرر) أكثر من الحَكَم الذي لا يراها إلا مرة (الحدث النادر).

ولكن ما ينطبق على مباراة كرة قدم مصوَّرة بالفيديو لا ينطبق بالضرورة على كل أحداث الحياة. وحتى ندحض المقدمة الثالثة ليس علينا إلا أن نأتي بمثال واحد مضاد. والحقيقة أن لدينا عدة أمثلة، وكلها من المنظور الطبيعي الذي ينتهجه هيوم:

١- **نشأة الكون لم تحدث إلا مرة واحدة.** لقد كانت حدثًا نادرًا غير متكرّر، إلا أن كل أنصار المذهب الطبيعي تقريبًا يعتقدون أن أدلة الانفجار الكبير تُثْبِت أن الكون انفجر إلى الوجود.

٢- **نشأة الحياة لم تحدث إلا مرة واحدة.** وهي أيضًا حدث نادر غير متكرر، إلا أن كل مَن يتبع المذهب الطبيعي يؤمن أن الحياة نشأت تلقائيًا من اللاحياة في مكانٍ ما على الأرض أو في مكان آخر في الكون.

٣- **نشأة أشكال جديدة من الحياة لم تحدث أيضًا إلا مرة واحدة.** ولكن معظم أتباع المذهب الطبيعي يؤمنون إيمانـًا قاطعًا بتلك الأحداث النادرة غير المتكررة، ويقولون إن كل هذا حدث بعمليات من الماكرو تطور غير قابلة للملاحظة (أي نادرة).

٤- **في الواقع تاريخ العالم بأكمله يتكون من أحداث نادرة غير متكررة.** فمثلاً مولد ديـڤيد هيوم نفسه لم يحدث إلا مرة واحدة، ولكنه لم يواجه صعوبة في تصديق الحدث!

في كلٍّ من هذه الأمثلة المضادة من منظور هيوم الطبيعي نفسه، نرى أنه لا بد من رفض مقدمته الثالثة أو اعتبارها خاطئة. فلو آمن هيوم فعلاً بتلك المقدمة، لما آمن بمولده ولا بمنظوره الطبيعي!

وهكذا نفهم من هذه الأمثلة المضادة أن مقدمة هيوم الثالثة، ومن ثم حجته بأكملها، لا يمكن أن تكون صحيحة. ولكن ما المشكلات المحدَّدة التي ينطوي عليها هذا النوع من التفكير الطبيعي؟

أولاً، هذا التفكير يخلط بين **إمكانية التصديق** *believability* **وإمكانية الحدوث** *possibility*. فحتى لو كانت المقدمة الثالثة صحيحة، الحجة لا تدحض إمكانية حدوث المعجزات، ولكنها فقط تشكك في إمكانية تصديقها. فحتى لو شهِدْتَ بنفسك مثلاً يسوع المسيح يقوم من الأموات كما تنبأ، أي أنك لو كنت في القبر، وتحققت أن الجسد كان ميتـًا، ثم رأيته يقوم ويخرج من القبر، ففي هذه الحالة تقول حجة هيوم إنك (بصفتك شخصًا "حكيمًا") يجب ألا تصدق هذا الحدث. إن الحجة التي تخبرك بأن تُكَذِّب ما تحققت من صحته حجة خاطئة.

ثانيًا، هيوم يخلط بين **الاحتمالية** *probability* **والدليل** *evidence*. فهو **لا يزن** الدليل على كل حدث نادر، بل **يضيف** الأدلة على كل الأحداث المنتظمة إلى بعضها البعض ويستخلص أن كثرة هذه الأدلة تجعل كل الأحداث النادرة غير جديرة بالتصديق. ولكن هذا التفكير أيضًا معيب. فهناك الكثير من الأحداث غير المحتملة (النادرة) في الحياة نصدقها عندما تتوفر أدلة قوية عليها. فمثلاً سقوط كرة الجولف في الحفرة من أول مرة حدث نادر، ولكننا عندما نراه لا نجد صعوبة في تصديقه. ومؤكد أننا لا نقول للاّعب: "بما أن الأدلة على الأحداث المتكررة دائمًا أكثر من الأدلة على الأحداث النادرة، فلن أصدق ضَرْبَتك إلا إذا وضعت الكرة على الحامل وكررت الضربة خمس مرات متتالية!" وكذلك من المؤكد أننا لا نقول للفائز بورقة اليانصيب الذي يفوز بنسبة ٧٦ مليون إلى واحد إنه لن يحصل على المبلغ إلا إذا فاز به

خمس مرات متتالية! لا، في هذه الحالات الدليل على الحدث النادر أقوى من الدليل على الحدث المتكرر. فشهود العيان اليقظون العقلاء يقدمون دليلاً أقوى على سقوط الكرة من أول مرة بصرف النظر عن مدى تكرار خطإ اللاعب في إصابة الهدف في الماضي. وكذلك الورقة الفائزة تقدّم دليلاً أقوى على أن شخصًا بعينه فاز باليانصيب عكس الاحتمالات المتوقعة بصرف النظر عن مدى تكرار خسارة ذلك الشخص في الماضي.*

إذَن القضية ليست تكرار الحدث أو ندرته، بل القضية هي قوة الأدلة على الحدث. لذا، علينا أن **نزن** الدليل على الحدث المعني، لا أن **نضيف** الأدلة على كل الأحداث السابقة.

ثالثًا، الحقيقة أن هيوم يقدِّم حجة دائرية. فبدلاً من أن يقَيِّم صدق الأدلة على كل زعم يقول بالمعجزات، يستبعد الاعتقاد في المعجزات مسبقًا لأنه يعتقد أن هناك خبرة عامة *uniform experience* ضد المعجزات. وكالعادة سي. إس. لويس عنده فكرة عبقرية:

> والآن ينبغي طبعًا أن نتفق مع هيوم أنه إن كانت هناك "خبرة عامة" موحدة ضد المعجزات، أي إن كانت المعجزات لم تحدث مطلقًا، فلماذا؟ لسوء الحظ أننا نعرف أن الخبرة المضادة لها لا يمكن أن تكون عامة إلا إذا عرفنا أن كل روايات المعجزات خاطئة. ولا يمكننا أن نعرف أن كل الروايات خاطئة إلا إذا كنا نعرف أصلاً أن المعجزات لم تحدث أبدًا. وفي الواقع نحن نحاجّ حجة دائرية.[٧]

إذَن هيوم يرتكب أخطاء الداروينيين نفسها، فهو يخفي النتيجة في مقدِّمة حجته بطرح افتراضات فلسفية مسبقة خاطئة. وافتراضه المسبق الخاطئ هو أن كل الخبرات البشرية مضادة للمعجزات. كيف يستطيع أن يعرف ذلك؟ لا يستطيع. لذلك، يفترضه مسبقًا. وكما رأينا، المعجزات ممكنة لأن الله موجود. ومن ثم، محتمل أن يكون البشر قد اختبروا معجزات حقيقية. والسبيل الوحيد للتحقق هو أن نفحص الأدلة على كل زعم يقول بحدوث معجزة. ومن ثم، يتضح أن الافتراض بأن كل زعم يقول بمعجزة خاطئ، كما يفترض هيوم، افتراض غير مشروع.

---

* معظم الناس يعتقدون خطأً أنهم كلما لعبوا اليانصيب في الماضي، زادت فرص الفوز هذه المرة. ولكن ليس المهم عدد مرات لعب الشخص لليانصيب في الماضي لأن كل ورقة يانصيب حدث فريد من نوعه لا يتأثر بأحداث اللعب الماضية. فالنسبة كل مرة هي ٧٦ مليون إلى واحد (أو أيًا كانت النسبة). وهيوم كان سيقترح أن تكرار خبرة الخسارة في الماضي يجب أن يجعلك تُكَذِّب الفوز إذا فُزْت. ولكنك إذا فزت يومًا ما، فأنت فزت بالفعل، رغم أنك خسرت ألف مرة فيما سبق. وهكذا، يمكن أن تحدث المعجزة بصرف النظر عن عدد المرات التي لم تحدث فيها هذه المعجزة في الماضي.

أخيرًا، رغم أن هيوم يُعَرِّف المعجزة تعريفـًا صحيحًا بأنها حدث نادر، فهو بعد ذلك يعاقبها على ندرتها! وكأن هيوم يقول: "لو تكرر حدوث المعجزات، لصَدَّقناها". ولكن لو تكرر حدوث المعجزات، على نحو منتظم مثلاً (حسب مصطلحات هيوم)، لما كانت معجزات (أحداث نادرة)، وقد نعتبرها قوانين طبيعية أو جزءًا من ظواهر طبيعية لا تفسير لها. ولكن ما إن نعتبرها طبيعية من حيث أصلها، حتى تتوقف عن لفت انتباهنا باعتبارها أفعالاً خاصة يقوم بها الله. فندرة المعجزة تمثّل واحدة من سماتها التي تميّزها عما عداها. وللتعبير عن الفكرة بطريقة أخرى نقول إن ما يجعل المعجزات تلفت انتباهنا هو أننا نعرف أن هذا الحدث لا يمكن أن يَنتُج من القوانين الطبيعية.

لذا بناءً على منطق هيوم، حتى إن وُجِدَ إله يصنع معجزات، يجب ألا نصدق أي معجزات يصنعها لأنها ليست أحداثـًا منتظمة. وهنا أيضًا نكرر أن الحجة التي تخبرك أن تُكَذِّب ما حدث بالفعل حجة معيبة. والحجة التي تطالب بألا تكون المعجزة معجزة حتى نستطيع أن نصدقها هي أيضًا حجة معيبة.

والخلاصة أن هيوم يصرح ببساطة، دون مبرر، أن الأحداث القابلة للتصديق هي فقط الأحداث المنتظمة، وبما أن المعجزة ليست حدثـًا منتظمًا، فهي تَقْصُر عن بلوغ هذا المعيار المصطنع. وكما ذكرنا سلفـًا، إن كنا لا نستطيع أن نؤمن بالأحداث النادرة، فلا نستطيع أن نصدق أي شيء من التاريخ، لأن التاريخ يتألف من أحداث نادرة متتالية غير متكررة. فمن الواضح أن هذا الموقف غير منطقي.

وبعد أن قدَّمت هذه المعلومات في جامعة هارڤارد، لم أتلقَ أي أسئلة ولا تحديات لنقدي لهيوم، بل ساد المكان صمت رهيب. وأثناء هذه الفترة نفسها (ثمانينيات القرن العشرين) دعاني أحد الأساتذة في جامعة أخرى من جامعات رابطة أيـڤـي ليج، وهي جامعة پرينستون لمناظرته في هذا الموضوع. وطلب الأستاذ نسخة من المادة التي سأقدمها قبل المناظرة، وهو طلب غير معتاد بالمرة. فعنصر المفاجأة في المناظرة ميزة لا يتنازل عنها معظم المناظرين. إلا أني كنت واثقـًا تمامًا من صحة نقدي لهيوم حتى أني أرسلته للبروفسور مسبقـًا. وبعد أن استلم البروفسور نقدي لهيوم، اتصل بي ليقول إنه يفضل أني أقدم محاضرة لطلابه على أن أناظره، على أن يكون حاضرًا حتى "يقود الأسئلة المضادة" أثناء فترة الأسئلة والإجابة. فوافقت.

وعندما وصلت إلى الحرم الجامعي في التاريخ والموعد المحدَّدين، لم أعثر للبروفسور على أثر. وقال مساعده إن "ظرفـًا شخصيًا طارئـًا" حدث وإن الاجتماع قد أُلـْغي. وانتهى بي الأمر أني قدمت نقدي لمجموعة من الطلاب كان راقـي زكراياس قد أحضرهم من كلية نِياك *Nyack College*. ومحاولاتي للاتصال بالبروفسور فيما بعد باءت بالفشل.

وقد تلقيت استجابة مشابهة من أنتوني فلو الذي يُعَدّ حاليًا واحدًا من أبرز الفلاسفة الملحدين.* ففي أواخر الثمانينيات طلبت منه أن يعلق على كتابي "المعجزات والفكر الحديث"[٨٨] *Miracles and Modern Thought* الذي تناول بالنقد العديد من الحجج المضادة للمعجزات بما فيها حجته (وهي شديدة الشبه بحجة هيوم). فقـَبِلَ أنتوني فلو أن يقدم نقدًا مكتوبًا في العدد التالي لإحدى الصحف الإنسانية الكبرى. إلا أنه، في ذلك المقال، بدلاً من أن يحاول تفنيد الحجج التي قدمتها، مَدَحَها بشكل غير مباشر بأنه أوصى أنه على الملحدين أن يأتوا بحجج أفضل ضد المعجزات حتى يَرُدّوا على المؤمنين بالله الخالق المعاصرين.

إن التقاعس عن التعامل مباشرةً مع العيوب التي تشوب حجة هيوم يبين لنا أن عدم الإيمان بالمعجزات غالبًا مسألة إرادية أكثر منه مسألة فكرية. فيبدو كما لو أن البعض يتمسكون بسذاجة بحجة ديـڤيد هيوم لأنهم ببساطة لا يريدون أن يعترفوا بوجودِ الله. **ولكن بما أننا نعرف أن الله موجود، إذَن المعجزات ممكنة. وأي حجة ضد المعجزات يمكن تلفيقها، ومنها حجة ديـڤيد هيوم، تسقط بهذه الحقيقة الواحدة.** لأنه إن كان هناك إله قادر على الفعل، إذَن يمكن أن يكون هناك أفعال إلهية (معجزات).

إذَن، في النهاية، ليست المعجزات هي التي يصعب تصديقها، بل حجة ديـڤيد هيوم هي التي يصعب تصديقها! حتى إنه يمكننا أن نقول إن تصديق الكثير من الناس لها حتى الآن يُعَدّ "معجزة".

---

* صدرت النسخة الإنجليزية من كتابنا هذا سنة ٢٠٠٤، إلا أنه في العام نفسه اعترف أنتوني فلو بأنه تحوَّل إلى الإيمان بالله الخالق، وفي سنة ٢٠٠٧ أصدر كتابه الأشهر "يوجد إله: كيف غيرَّ أعتى ملحدي العالم رأيه" *There Is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind* قبل أن يرحل عن عالمنا سنة ٢٠١٠ (*http://www.bethinking.org/atheism/professor-antony-flew-reviews-the-god-delusion*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/١١/٥ (المترجمة-المحرر)

ليس كل من يصنع معجزة هو الله: ما المعجزة، وما هو ليس بمعجزة؟

إذَن الصندوق مفتوح، أي أن المعجزات ممكنة. ولكن إذا رأينا معجزة كيف نعرف أنها معجزة؟ للإجابة عن هذا السؤال، مهم أن نُعَرِّف المعجزة وما ليس معجزة حتى نَعْرف عما نبحث.

كما هو مبيَّن في الجدول ٨- ٢، هناك على الأقل ستة أنواع مختلفة من الأحداث غير العادية، وواحد منها فقط هو الذي ينطبق عليه وصف معجزة.

هناك على الأقل ست فئات مختلفة من الأحداث غير العادية:

	الأحداث الشاذة	السحْر	التأثير النَفْسْجِسْمي	الآيات الشيطانية	العناية الإلهية	المعجزات
الوصف	أحداث غريبة في الطبيعة	خفة يد	القدرة على التحكم في المواقف أو المشكلات المادية بالعقل والإرادة	قوة شريرة	أحداث مرتَّبة مسبقًا	فعل إلهي
القوة	مادية	بشرية	عقلية	نفسية	إلهية	فوق طبيعية
السمات	حدث طبيعي ذو نمط موحد	غير طبيعية وتحت سيطرة الإنسان	تتطلب إيمانًا؛ تفشل مع أمراض معينة	شر، زيف، قوى سحرية خارقة للطبيعة، قوى محدودة	تُفَسَّر طبيعيًا؛ إطار روحي	لا تفشل أبدًا، فورية، تستمر، تمجدُ الله
مثال	النحل الطنان	أرنب في القبعة	العلاجات النفْسْجِسميَّة	التأثير الشيطاني	ضباب في نورماندي	إقامة الموتى

الجدول ٨-٢

فلنلقِ نظرة سريعة على كلٍّ من هذه الأحداث غير العادية. وسنبدأ بالمعجزات لأننا إذا عرفنا ماهيتها، سنفهم بشكل أفضل لماذا لا تُعتبر سائر الأحداث غير العادية معجزات.

المعجزة: حتى يكون الفعل الإلهي آية من الله لا تخطئها عين، لا بد أن تتوافر فيه معايير معينة، وهي معايير تميز أفعال الله عن أي حدث آخر غير عادي. فآيةُ الله مثل ختم الملك، يجب أن تكون فريدة، ويسهل التعرُّف عليها، ولا يستطيع أحد أن يفعلها إلا الله. وهو ما يعني أنها تتسم بسمات لا يمكن تفسيرها بالقوانين الطبيعية، ولا القوى الطبيعية، ولا أي شيء آخر في الكون المادي. فما هي هذه المعايير؟

كما رأينا من الحجج الكونية، والغائية، والأخلاقية، الله وحده عنده قوة لامتناهية (قوة تفوق القوة الموجودة في العالم الطبيعي)، وغرض وتصميم أعلى، ونقاء أخلاقي كامل. لذا، من المنطقي أن نفترض أن أفعاله تعكس أو تشتمل على عناصر من هذه الصفات. إذَن معايير المعجزاتِ الحقيقيةِ تتضمن:

أ) بداية فورية لفعل قوي، وتدلّل عليها الحجة الكونية (بداية الكون).

ب) تصميمًا ذكيًا وغرضًا، وتدلّل عليهما الحجة الغائية (التصميم الدقيق للكون بغرض دعم الحياة، والتصميم المحدَّد والمعقد للحياة نفسها).

ج) تعزيز السلوك الصالح أو الصحيح، وتدلل عليه الحجة الأخلاقية (القانون الأخلاقي المطبوع فينا).

إن عنصر القوة في المعجزات (أ) يعني أن الآية لا يمكن تفسيرها طبيعيًا. لأنه إن كان من المحتمل وجود مسبب طبيعي، إذَن الآية لا يمكن طبعًا أن تُعتبر معجزة. فالمعجزة لها مسبب فوق طبيعي لا لبس فيه، إنه مسبب يتجاوز حدود الطبيعة.

وعنصر التصميم (ب) يعني أن أي آية تُفْعَل دون غرض واضح، أي لتأكيد حق أو رسول يأتي بالحق أو لتمجيد الله، غالبًا ليست آية من الله. أي أن الله لن يصنع معجزات بغرض التسلية. فكما أن معظم ملوك الأرض لن يستخدموا أختامهم لأغراضٍ تافهة، كذلك ملك الكون لن يستخدم ختمه لأغراضٍ تافهة. وإن استخدم المعجزات لمجرد التسلية، سيصعب علينا التعرف على قصده عندما يريد أن يؤكد حقًا جديدًا أو رسولاً جديدًا. فحتى لا تكون المعجزات كالولد الذي أخذ ينادي كذبًا "ذئب في حقلنا"، يجب أن تركز على تثبيت زعم يختص بالحق، ولا بد أن تكون نادرة نسبيًا حتى تكون مؤثرة.

والعنصر الأخلاقي في المعجزات (ج) يعني أن أي آية تنطوي على خطإ أو انحراف أخلاقي لا يمكن أن تكون آية من الله. فالخطأ والانحراف الأخلاقي ضد طبيعةِ الله لأنه المقياس الثابت للحق والأخلاق. فهو لا يستطيع أن يُثَبِّت الخطأ أو الانحراف الأخلاقي.

وبناءً على هذه المعايير: القوة الفورية، والتصميم الذكي، والأخلاق، يمكننا أن نحدِّد الأحداث غير العادية التي تمثِّل آيات حقيقية من الله. لاحظ أننا استنتجنا هذه المعايير مما تعلمناه عنِ الله من العالم الطبيعي وما تعلمناه عن حدود الطبيعة نفسها. والكتاب المقدس يتفق مع تقديرنا بتوصيفه للأحداث التي تطابق هذه المعايير بأنها معجزات.[٩] وكلٌّ من الكتاب المقدس والقرآن يُعَلِّمان بأن المعجزات استُخدِمَت لتثبيت كلمة من الله.*

لذا الحدث المرتبط بزعم يختص بحق إلهي ويتسم بهذه السمات يسمى "معجزة"، أي فعل يقوم به الله ليُثَبِّت كلمة من الله. فمثلاً، إن كان يسوع قد قام فعلاً من الأموات، وهو رجل تنبأ بقيامته من الأموات، نقول إن معجزة قد حدثت. وهذا الحدث يعكس قوة فورية تتجاوز القدرات الطبيعية، وتخطيطًا مسبقًا وتصميمًا ذكيًا، وغرضًا أخلاقيًا بتأكيد أن يسوع من الله (لذلك يجب أن نصغي لما يقول). وليس هناك قوة طبيعية أو أي مصدر آخر للقوة يمكن أن يفسر هذا الحدث.

علاوة على ذلك، إن كانت القيامة قد حدثت بالفعل، فهي لم تحدث "في فراغ" بل في محيط معين. وهو ما يعني أن القيامة كانت حدثًا تم في محيط كون يؤمن بالله الخالق، حيث تنبأ بها رجل يزعم أنه من الله ويصنع معجزات. وهذا المحيط يرجح أنها معجزة وليست مجرد حدث طبيعي لم يظهر له تفسير بعد. وباختصار، إن كانت القيامة قد حدثت بالفعل (وسوف نتناول هذه القضية بالفحص فيما بعد)، فإن "بصماتِ" الله تغطيها بالكامل.

العناية الإلهية: إن المتدينيين، وخاصةً المسيحيين، يستخدمون مصطلح "معجزة" استخدامًا فضفاضًا نوعًا ما. فهم غالبًا ما يُسَمّون أحداث العناية الإلهية معجزات.

إن أحداث العناية الإلهية هي الأحداث التي يسببها الله بشكل غير مباشر، لا بشكل مباشر. أي أن الله يستخدم القوانين الطبيعية لتنفيذها. ومن أمثلتها استجابة الصلوات

* الكتاب المقدس: خروج٤: ١- ٥؛ عدد١٦: ٥ وما بعده؛ ١ملوك ١٨: ٢١، ٢٢؛ متى١٢: ٣٨، ٣٩؛ لوقا٧: ٢٠- ٢٢؛ يوحنا٣: ١، ٢؛ أعمال٢: ٢٢؛ عبرانيين٢: ٣، ٤؛ ٢كورنثوس١٢: ١٢. القرآن: سورة آل عمران (٣): ١٨٤؛ الإسراء (١٧): ١٠٢؛ قارن سورة المؤمنون (٢٣): ٤٥.

والأحداث المفيدة غير المحتملة الحدوث. وعادةً ما تكون هذه الأحداث لافتة جدًا للنظر وتقوّي الإيمان، ولكنها ليست فائقة للطبيعة. فمثلاً، الضباب في نورماندي كان من أعمال العناية الإلهية لأنه حجب جيوش الحلفاء أثناء استعدادها للهجوم على النظام النازي الشرير. فهو لم يكن معجزة، لأنه يمكن أن يفسَّر بالقوانين الطبيعية، ولكن من المحتمل أن الله كان وراء حدوثه. ولكن على النقيض من ذلك، المعجزة تتطلب حدوثَ شيء مثل خروج الرصاص من صدور شبابنا في هجومهم على الشاطئ.

الآيات الشيطانية: تُعتبر الكائنات الروحية الأخرى من المسببات المحتملة للأحداث غير العادية. فإن كان الله موجودًا، من الوارد أن توجد أيضًا كائنات روحية أخرى. ولكن إن كان الشيطان والأرواح الشريرة موجودين، فقدراتهم محدودة. لماذا؟ لأنه كما ذكرنا آنفًا في هذا الفصل، مستحيل وجود كائنين لامتناهيين. وبما أن الله لامتناهٍ، يستحيل أن يوجد كائن آخر لامتناهٍ.

فضلاً عن ذلك، فإن الثنائية *dualism* المَحضَة - أي وجود قوة صالحة لامتناهية مقابل قوة شريرة لامتناهية - أمر مستحيل. وذلك لأنه لا يوجد شر محض. ولكن الشر هو غياب الخير. أو هو طُفيل على الخير، أي أنه لا يقدر أن يوجد بمفرده. فالشر كالصدأ للسيارة. إن نزعت كل الصدأ، تصبح السيارة أفضل. وإن نزعت كل السيارة، لا يتبقى شيء. لذا، لا يمكن أن يكون الشيطانُ هو الشرَّ المعادلَ لله. والشيطان في الواقع يتمتع بصفات جيدة مثل القوة، وحرية الإرادة، والتفكير العقلاني، ولكنه يستخدمها لأغراض شريرة.

والخلاصة أن الله ليس له مُعادِل. إنه الكائن الواحد اللامتناهي الذي يعلو فوق الخليقة كلها. وعليه، فالكائنات الروحية المخلوقة، إن وُجِدَت، الله يضع لها حدودًا ولا تستطيع أن تؤدي نوعية الأفعال الفائقة للطبيعة التي لا يفعلها إلا الله.

لذا، نعرف من الإعلان الطبيعي فقط، دون إعلان من أي كتاب ديني، أنه إن وُجِدَت كائنات روحية أخرى فهي محدودة القوة. وبالمصادفة، هذا هو بالضبط ما يُعَلِّم به الكتاب المقدس.

ولكن ما مدى محدودية هذه الكائنات الروحية الأخرى؟ هنا نحتاج إعلانًا خاصًا. فرغم أننا لم نثبت حتى الآن صحة الكتاب المقدس بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي، فلنفترض أن هذه الكائنات حقيقية وتستطيع أن تتفاعل مع العالم الطبيعي كما يبين الكتاب المقدس.

وفقًا لتعليم الكتاب المقدس، لا يمكن إلا لله فقط أن يخلق الحياة ويقيم الموتى (تكوين١: ٢١؛ تثنية٣٢: ٣٩). فسحرة فرعون الذين قلَّدوا أول ضربتين، لم يقدروا أن يقلدوا الثالثة التي خَلَقَت حياة (في شكل بعوض). وقد اعترف هؤلاء السحرة أن الضربة الثالثة هي "أصبعُ الله" (خروج٨: ١٩).

إن الشيطان يقدر أن يأتي بخدع أفضل من أحسن السحرة، والكتاب المقدس يحوي أمثلة كثيرة على ذلك،[١٠] إلا أن تلك الخدع لا تتوفر فيها سمات المعجزة الحقيقية. وكما رأينا، المعجزات الحقيقية تقود المرء إلى تعظيم الله، وتخبر بالحق، وتعلي شأن السلوك الأخلاقي. أما الآيات الكاذبة التي يأتي بها الشيطان لا تفعل ذلك. ولكنها تمجّد الشخص الذي يؤديها في الظاهر، وهي غالبًا ما ترتبط بالخطإ والسلوك غير الأخلاقي. وقد لا تكون فورية، ولا لحظية، ولا مستديمة.

وبإيجاز، الله وحده يصنع المعجزات الحقيقية، ولكن الشيطان يصنع معجزات كاذبة. وهذا هو بالضبط الاسم الذي يطلقه عليها الكتاب المقدس في ٢تسالونيكي٢: ٩ عندما يكتب بولس «الذي مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبآيات وعجائب **كاذبة**». وطبعًا إن لم يكن المرء ممَيِّزًا، يمكن أن ينخدع بهذه الآيات ويظنها معجزات (متى٢٤: ٢٤).

ويلخِّص الجدول ٨- ٣ الاختلافات بين المعجزة الإلهية والآية الشيطانية:[١١]

المعجزة الإلهية	الآية الشيطانية
• فعل فائق للطبيعة بحق	• مجرد فعل فائق **للعادة** *supernormal*
• تحت سيطرة الخالق	• تحت سيطرة المخلوق
• لا ترتبط إطلاقًا بالقوى السحرية الخارقة	• مرتبطة بالقوى السحرية الخارقة
• مرتبطة بالإله الحقيقي	• غالبًا ما ترتبط بالإيمان بوحدة الوجود أو تعدد الآلهة
• مرتبطة بالحق	• مرتبطة بالخطإ
• مرتبطة بالخير	• مرتبطة بالشر
• تتضمن نبوات حقيقية	• تتضمن نبوات كاذبة
• تمجد الخالق	• تمجد المخلوق

الجدول ٨-٣

التأثير النفسجسمي: منذ سنوات كثيرة، أصبتُ (أنا نورم) بما ظننته حساسية الربيع أثناء تَفَتُّح الزهور. فبدأت أتناول عقارًا قويًا في ربيع ذلك العام لتخفيف الأعراض. وفي صباح يوم أحد هذا الربيع دعيتُ لأعظ في كنيسة محلية، فذهبتُ قبل الموعد لألتقي بالشيوخ. وعندما اقتربتُ من المنبر رأيتُ بعض الزهور على منضدة بالقرب من المنبر. فبدأت على الفور أعطس وبدأت عيناي تدمع.

فقلتُ لأحد الشيوخ: "لن أقدر أن أعظ في وجود هذه الزهور لأنها تهيّج حساسيتي. فهل يمكن أن تنقلها من هنا؟"

فنظر إليَّ وقال: "إنها زهور بلاستيكية!"

فقلتُ لنفسي: "جايسلر، أنت تعطس من زهور بلاستيكية. لقد أصبَحَتْ تلك الحساسية في عقلك فقط!" فأقلعتُ عن تناول الأدوية ولم أعد أعاني من تلك المشكلة إلى اليوم.

إلا أن هذا لا يعني أن أي حساسية نفسجسمية صرف. ولكن من المؤكد أن بعض الأمراض والعلاجات نفسجسمية، وهي حالات موثّقة جيدًا. فمثلاً نورمان كَزينز Norman Cousins يصف بالتفصيل في كتابه "تشريح مرض" *Anatomy of an Illness* كيف ساهم ضَحكُه حرفيًا في شفائه من السرطان. لا شك أن التوتر العقلي يمكن أن يؤثِّر على الصحة البدنية تأثيرًا سلبيًا، في حين أن التوجُّه العقلي الإيجابي، أو الإيمان، أو السعادة يمكن أن يأتي بتأثير إيجابي يؤدي للشفاء (انظر أمثال١٧: ٢٢).

إلا أن بعض الحالات المَرَضية، مثل إصابة النخاع الشوكي أو بتر الأطراف، لا يمكن شفاؤها بسيطرة العقل على المادة لأنها ليست أمراض نفسجسمية. ولكن شفاء تلك الحالات يتطلب معجزة حقيقية.

والخلاصة أن العلاجات النفسجسمية طبيعتها نفسية، وليست فائقة للطبيعة. وهي تدل على أن تأثير العقل على الجسم محدود ولكنه كبير. ويجب ألا نخلط بينها والمعجزات.

السحر: ربما يُعتبَر السحر أكثر الأحداث غير العادية المألوفة لنا. ويقوم السحر على خفة اليد البشرية أو تضليل العقل. فالساحر الماهر يستطيع أن يجعلك تظن أنه شَطَرَ امرأة إلى نصفين، أو أخرج أرنبًا من قبعة، أو أخفى فيلاً. ولكن كلها خدع ذكية. وعندما تعرف السر تقول: "كيف لم يخطر ذلك ببالي؟" والسحر، من حيث إنه خدعة تحت سيطرة البشر، ليس معجزة. الله وحده هو من يستطيع أن يصنع المعجزات.

الأحداث الشاذة: الحدث الشاذ هو حدث غريب في الطبيعة لا تفسير له. فمثلاً، في فترة معينة لم يستطع العلماء أن يفهموا كيف يمكن للنحل الطنان أن يطير. فأجنحته صغيرة جدًا بالنسبة لجسمه. واعتبر العلماء أن طيران النحل الطنان حدثٌ شاذ، حتى اكتشفوا فيه نوعًا من "المصدر الكهربائي" الذي يعوِّض صغر الأجنحة. وقد عرفوا أنها ليست معجزة لأنها تتضمن نمطًا موحَّدًا قابلاً للملاحظة، ألا وهو أن كل النحل الطنان يطير. وهو ما دفعهم للاستمرار في البحث عن تفسير طبيعي حتى وجدوه.

وقد يتساءل المتشكك: "إذَن لماذا لا نعتبر قيامة يسوع المسيح حدثًا شاذًا؟" لأن القيامة تم التنبوء بها. وكان وراءها تصميم ذكي، أي أن بصماتِ الله تغطيها بالكامل. ولكن الأحداث الشاذة لا ترتبط بمزاعم عن الذكاء تدعي أنها حق، وهي لا تتضمن أبعادًا أخلاقية ولاهوتية. لذا، إن كانت قيامة المسيح قد حدثت بالفعل، فهي ليست حدثًا طبيعيًا شاذًا.

لماذا لا نرى المعجزات الكتابية اليوم؟

الكثير من الناس اليوم ينظرون نظرة ضيقة جدًا للتاريخ وللخبرة البشرية. فهم يقولون: "إن لم أرَ شخصيًا أحداثًا معينة تحدث اليوم، فمن المحتمل أنها لم تحدث أبدًا". والمعنى الذي تنطوي عليه هذه الجملة بخصوص المعجزات واضح. فالمقصود إنه "طالما أنه ليست هناك معجزات علنية مثل معجزات الكتاب المقدس تحدث اليوم (ولو كانت تحدث، لرأيناها على قناة فوكس نيوز *Fox News*)، فلماذا يجب أن أصدق أنها حدثت في الماضي؟" سؤال في محله.

إلا أن هذا السؤال يكمن وراءه مفهوم خاطئ شائع، وهو الاعتقاد بأن الكتاب المقدس مملوء بمعجزات تحدث باستمرار عبر تاريخ الكتاب المقدس. إن هذا الاعتقاد صحيح جزئيًا. فصحيح أن الكتاب المقدس مليء بالمعجزات التي حدثت في حوالي ٢٥٠ مناسبة.* إلا أن معظم تلك المعجزات تحدث في أوقات قصيرة جدًا في التاريخ، وذلك أثناء ثلاث فترات زمنية محددة: أثناء مدة حياة موسى وإيليا وأليشع، ويسوع، والرسل. لماذا؟ لأن هذه هي الأوقات

* بعض هذه المناسبات تضمَّنت معجزات عديدة. فمثلاً يُذْكَر عدة مرات أن يسوع شفى "كثيرين" عادةً عندما كان أهل المدينة يجتمعون حوله (مثلاً مرقس١: ٣-٤؛ ٣: ١٠؛ ٦: ٥٦؛ لوقا٥: ١٥؛ ٦: ١٨؛ ٩: ١١). وكان الرسل أيضًا يصنعون عدة معجزات في مناسبة واحدة (أعمال٥: ١٦؛ ٨: ٧؛ ١٩: ١١، ١٢).

التي كان الله يؤكد فيها حقًا جديدًا (إعلانًا إلهيًا) ورُسلاً جددًا يحملون ذلك الحق.*

فإن كانت معظم المعجزات تتركز في هذه الفترات الثلاث، فما الأحداث المعجزية التي تقع أثناء الفترات الأخرى التي يغطيها الكتاب المقدس؟ لا شيء. ففي الحقيقة هناك فجوات زمنية شاسعة في الكتاب المقدس (تصل إلى مئات السنين) لا تُسَجَّل فيها أي معجزات من الله. لماذا؟ لأن هذه الفترات لم يكن فيها كلمة جديدة من الله، ومعظم المعجزات كانت تؤكد كلمة جديدة من الله.

إذَن لماذا لا نرى معجزات كتابية اليوم؟ لأنه إن كان الكتاب المقدس صحيحًا ومكتملاً، فالله لا يؤكد أي إعلان جديد، ومن ثم فلا محل عنده لهذا الغرض الرئيسي من صُنْع المعجزات اليوم. ليس هناك كلمة جديدة من الله يريد أن يؤكدها.

ولكن لا تسيء فهمنا في هذه النقطة. فنحن لا نقول إن الله لا يستطيع أن يصنع معجزات اليوم، أو إنه لا يصنعها أبدًا. بل بصفته خالق الكون وحافظه وله السلطان، يمكنه أن يصنع معجزة وقتما يريد. ولكن كل ما في الأمر أنه قد لا يكون عنده سبب ليُظهر قوته علانية كما فعل في أزمنة الكتاب المقدس؛ لأن كل الحقائق التي أراد أن يكشفها كُشِفَت فعليًا وتأكدت. فكما هو الحال في بناء بيت، الأساس لا يوضع إلا مرة واحدة. والمعجزات الكتابية كانت أفعالاً إلهية خاصة وضعت أساس إعلانه الدائم للبشر.

الملخص والخلاصة

١- يمكن اكتشاف السمات الجوهرية لإله الكتاب المقدس دون الكتاب المقدس عن طريق الإعلان الطبيعي، كما يتضح من الحجج الكونية والغائية والأخلاقية. وتلك الحجج المؤيَّدة بأدلة قوية جدًا تُظهر لنا أن هذا الكون خلقه إله ويحفظه. وبما أن الحال هكذا، إذَن الديانات التي تؤمن بالله الخالق الحافظ فقط، هي "المؤهَّلة للفوز بنهائي" الحق حتى الآن. ولكن كل الديانات التي لا تؤمن بالله الخالق الحافظ مبنية على أساس مزيف لأنها

* من الناحية اللاهوتية تشترك الفترات الثلاث الكبرى للمعجزات في سمات معينة: كان موسى يحتاج للمعجزات ليخلص إسرائيل ويعول هذا الشعب الكثير في البرية (خروج٤: ٨). وإيليا وأليشع صنعا المعجزات لتخليص إسرائيل من عبادة الأصنام (انظر ١ملوك١٨). ويسوع والرسل صنعوا المعجزات ليؤكدوا تأسيس العهد الجديد وما يقدمه من خلاص من الخطية (عبرانيين٢: ٣، ٤).

خاطئة في مفهومها عن وجودِ الله وطبيعته.

٢- بما أن الله موجود، إذَن المعجزات ممكنة. والحقيقة أن أعظم المعجزات جميعًا، أي خَلْق الكون من عدم، قد حدثت بالفعل، وهو ما يعني أن تكوين١: ١ وسائر المعجزات الكتابية كلها قابلة للتصديق. والحجج المضادة للمعجزات فاشلة لأنها تقوم على افتراضات فلسفية خاطئة لا على أدلة قابلة للملاحظة. والنتيجة أنها تعجز عن نفي المعجزات. فالله يستطيع أن يتدخل في الكون الذي خلقه رغم ما يقوله ديـڤيد هيوم.

٣- المعجزة الحقيقية عمل لا يستطيع فعله إلا الله، وهو ما يعني أنها تتضمن سمات تتناسب مع الله، مثل القوة الفائقة للطبيعة، والتصميم الذكي، وتوكيد السلوك الأخلاقي. وبهذه السمات يمكن تمييز المعجزات عن غيرها من الأشكال الأخرى للأحداث غير العادية مثل أحداث العناية الإلهية، والآيات الشيطانية، والشفاء النفسجسمي، والسحر، وشواذ الطبيعة.

٤- نحن نتوقع من الله، بناءً على طبيعته الأخلاقية، أن يوَصِّل لنا غايته المحدَّدة بمزيد من التفصيل (أي بما يتجاوز الإعلان الطبيعي وصولاً إلى الإعلان الخاص). وقد استطاع الله أن يستخدم المعجزات كعلامة تؤكِّد لنا إعلانه الخاص. والمعجزة عندما تُستخدَم على هذا النحو تُعَدّ فعلاً إلهيًا لتأكيد رسالة من الله.

الفصول ٩ - ١٢ تتناول :

١- الحَقّ المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.

٢- عكس الحق هو الخطأ.

٣- وجودُ إله خالق حافظ حقٌّ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بداية الكون (الحجّة الكونية *Cosmological Argument*)

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument*/ المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*)

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) الشهادة المبكرة

ب) شهادة شهود العيان

ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)

د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين

٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأكّد معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌّ.

١١- يسوع عَلّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).



هل عندنا شهادات مبكرة عن يسوع؟

"إن الأدلة التاريخية تقودنا إلى تأكيد اعتقادنا؛ والنتيجة أن الإيمان اللازم لملء الفجوة المتبقية إيمان معقول".

كريج بلومبرج *Craig Blomberg*

الإنجيل حسب غير المسيحيين

سنة ٦٦ م قام اليهود في فلسطين بثورة ضد الحكم الروماني، وإن أردنا أن نعطيها وصفًا مخفَّفًا، نقول إن الرومان لم يتوقعوها. ومن ثم أرسل الإمبراطور قوات بقيادة الجنرال ڤسپزيان *Vespasian* لقمع التمرد واستعادة السيطرة على مناطق المتمردين. وسنة ٦٧ ضرب ڤسپزيان الحصار على مدينة يودفات *Jotapata* المتمردة في الجليل. وفي اليوم السابع والأربعين من ذلك الحصار، فَضَّلَ أحد شباب الثورة أن يستسلم للجيش الروماني الأقوى على أن ينتحر، وهو المصير الذي اختاره الكثير من أهل بلده. ونال ذلك الشاب رضا ڤسپزيان ثم أخذه بعد ذلك الجنرال تيطس، ابن ڤسپزيان، إلى روما بعد أن دمر تيطس أورشليم والهيكل اليهودي سنة ٧٠.

وكان ذلك الشاب فلاڤيوس يوسيفوس *Flavius Josephus* (حوالي ٣٧- حوالي ١٠٠) الذي أصبح أعظم مؤرخ يهودي في عصره. وقد بدأ يوسيفوس كتاباته التاريخية في روما أثناء عمله مؤرخًا للإمبراطور الروماني دوميتيان *Domitian*. وهناك كتب سيرته الذاتية وعملين تاريخيين كبريين. وأحدهما عمله المشهور حاليًا، وعنوانه "آثار اليهود" *Antiquities of the Jews* الذي

انتهى منه حوالي سنة ٩٣ م. وفي الكتاب الثامن عشر من هذا العمل، في القسم الثالث من الفصل الثالث كتب يوسيفوس، الذي لم يكن مسيحيًا، هذه الكلمات:

في ذلك الوقت [زمن بيلاطس] كان هناك رجل حكيم يدعى يسوع. كان سلوكه طيبًا وعُرِفَ بفضيلته. والكثير من اليهود ومن الأمم الأخرى صاروا له تلاميذ. إلا أن بيلاطس حَكَمَ عليه بالصلب والموت. ولكن مَن صاروا له تلاميذ لم يهجروا تَتَلْمُذهم له. وقد رووا أنه ظهر لهم بعد صلبه بثلاثة أيام، وأنه كان حيًا؛ وبناءً عليه من المحتمل أنه كان المسيا الذي روى عنه الأنبياءُ الأعاجيبَ.

وهذه ليست المناسبة الوحيدة التي يشير فيها يوسيفوس* إلى يسوع.

ففي فقرة أخرى من كتاب "الآثار"، كشف يوسيفوس كيف استغل رئيس كهنة اليهود الجديد (حنَّان الصغير) الفراغ في الحكم الروماني لقتل يعقوب أخي يسوع. ففي سنة ٦٢ م مات الحاكم الروماني فستوس فجأة وهو لم يزل في منصبه. ولم يصل خليفته ألبينوس *Albinus* إلى اليهودية إلا بعد ثلاثة شهور، مما أتاح لحنَّان وقتًا كافيًا للقيام بعمله الدنيء. ويصف يوسيفوس الحادثة على هذا النحو:

مات فستوس، وكان ألبينوس في الطريق لم يصل بعد، فجمع [حنَّان رئيس الكهنة] سنهدريم القضاة، وأحضر أمامهم أخا يسوع الذي يُدعى المسيح، واسمه يعقوب، وأناسًا آخرين [أو بعض رفاقه]، وعندما حَبَكَ تهمة ضدهم باعتبارهم خارجين على القانون، سَلَّمَهم للرجم.[١]

لذا، هذه ليست مجرد إشارة أخرى إلى يسوع من القرن الأول، ولكنها أيضًا تأكيد أن يسوع كان له أخ يُدعى يعقوب واضح أنه لم يكن محبوبًا من السلطات اليهودية. هل من المحتمل أن يعقوب استُشهد لأنه كان قائد كنيسة أورشليم كما هو متضمن في العهد الجديد؟†

* لماذا لم يُشِرْ يوسيفوس إلى يسوع أكثر من ذلك؟ يمكننا أن نخمن أن يوسيفوس بصفته مؤرخًا للإمبراطور كان لا بد أن يختار موضوعاته وكلماته بعناية. فقد كان دوميتيان شديد الارتياب من أي شيء قد يكون له ارتباط بالفِتَن. وهذه الطائفة الجديدة المسماة بالمسيحية ربما اعتُبِرَت مثيرة للفتن؛ لأن المسيحيين كان عندهم هذه المنظومة العقائدية الجديدة الغريبة من رفض عبادة القيصر والآلهة الرومانية. ولذلك، من المؤكد أن يوسيفوس لم يُرِد إزعاج رئيسه أو مضايقته بالإفراط في كتابة الكثير من التعليقات الإيجابية عن المسيحية. ومع ذلك، هاتان الإشارتان تؤكدان وجود يسوع ويعقوب وتؤيدان روايات العهد الجديد.

† انظر أعمال ٢١: ١٧، ١٨؛ قارن ١٥: ١٣

ولكن كم عدد المصادر غير المسيحية التي تذكر يسوع؟ هناك عشرة كُتَّاب غير مسيحيين معروفون، منهم يوسيفوس، يذكرون يسوع في غضون ١٥٠ سنة من حياته.* وخلافًا لذلك، نجد أنه على مدار هذه المائة والخمسين سنة هناك تسعة مصادر غير مسيحية تذكر طيباريوس قيصر، الإمبراطور الروماني في زمن يسوع.[٢] لذا، باستثناء كافة المصادر المسيحية، نجد أن المصادر التي تذكر يسوع تزيد عن التي تذكر الإمبراطور الروماني بمصدر. وإن أضفت المصادر المسيحية، تجد أن الكُتَّاب الذين يذكرون يسوع يزيدون عن الذين يذكرون طيباريوس بنسبة ٤٣ إلى ١٠!*

وبعض هذه المصادر غير المسيحية، مثل سيلسوس *Celsus*، وتاسيتس *Tacitus*، والتلمود اليهودي يمكن أن تُعتبر مصادر ضد المسيحية. ورغم أن هذه الأعمال لا تتضمن أي شهادة شهود عيان تتناقض مع الأحداث الموصوفة في وثائق العهد الجديد، فهي أعمال ألّفها كُتَّاب ضد المسيحية على خط مستقيم. فماذا نستنتج من مصادرهم ومن المصادر غير المسيحية الأكثر حيادية؟ نستنتج أنهم يعترفون بحقائق معيَّنة عن المسيحية المبكِّرة تساعدنا على تجميع أحداث قصة تتوافق بشكل مدهش مع العهد الجديد. وإنْ جَمَعْنا كل المراجع العشرة غير المسيحية، نرى أن:

١- يسوع عاش أثناء حكم طيباريوس قيصر.

٢- عاش حياة فاضلة.

٣- صنع عجائب.

٤- كان له أخ يدعى يعقوب.

٥- أُعلِنَ أنه المسيا.

---

* المصادر العشرة غير المسيحية هي: يوسيفوس، والمؤرخ الروماني تاسيتس، والسياسي الروماني پلينيوس الأصغر *Pliny the Younger*، وفليجون *Phlegon* وهو عبد مُعْتَقٌ له مؤلَّفات تاريخية، وثالوس *Thallus* وهو مؤرخ من القرن الأول، والمؤرخ الروماني سويتونيوس *Seutonius*، ولوقيان *Lucian* الكاتب اليوناني الساخر، والفيلسوف الروماني سيلسوس، ومارا بار-سرابيون *Mara Bar-Serapion* وهو مواطن كتب لابنه، والتلمود اليهودي. وللاطلاع على قائمة كاملة بكل النصوص التي ذكرت المسيح من هذه المصادر، انظر *Norman L. Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 381-385*. انظر أيضًا *Gary Habermas, The Historical Jesus (Joplin, Mo.: College Press, 1996), chapter 9*.

* بما أن لوقا ذكر طيباروس، يكون مجموع الكتاب الذين ذكروا طيباروس هو ١٠. انظر *Habermas and Licona, Case for the Resurrection of Jesus*. اضفنا التلمود اليهودي لقائمة *Habermas and Licona* لأنه الأرجح كُتب في مطلع القرن الثاني، في غضون ١٥٠ سنة من موت يسوع. لذا فنحن نعتبرهم ٤٣ إلى ١٠ بدلاً من ٤٢ إلى ٩ التي اقترحوها.

٦- صُلِبَ على عهد بيلاطس البنطي.

٧- صُلِبَ ليلة الفصح اليهودي.

٨- عند موته حدثت ظُلمة وزلزلة.

٩- آمن تلاميذه أنه قام من الأموات.

١٠- كان تلاميذه على استعداد أن يموتوا في سبيل عقيدتهم.

١١- المسيحية انتشرت بسرعة حتى وصلت إلى روما.

١٢- تلاميذ يسوع أنكروا الآلهة الرومانية وعبدوا يسوع بصفته الله.

في ضوء هذه المراجع غير المسيحية يتضح أن النظرية التي تقول بأنه لم يكن هناك شخص اسمه يسوع، غير منطقية على الإطلاق. فكيف يكشف كُتَّاب غير مسيحيين مجتمعين أحداث قصة تتفق مع العهد الجديد لو لم يكن هناك شخص اسمه يسوع؟

ولكن هذه الحقيقة تنطوي على مضامين أعمق. فماذا تعني بخصوص العهد الجديد؟ واضح أن المصادر غير المسيحية تؤكِّد العهد الجديد. فبالرغم من أن الكُتاب غير المسيحيين لا يقولون إنهم يؤمنون بالقيامة، فهم يسجلون أن التلاميذ آمنوا بها دون أدنى شك.

وبما أن الإعلان الطبيعي يؤكد وجود الله وإمكانية المعجزات كما أوضحنا، وبما أن مصادر غير مسيحية تؤكد الأحداث الرئيسية في قصة المسيح والكنيسة الأولى، فهل معجزات المسيح حدثت بالفعل كما يزعم التلاميذ؟ هل وثائق العهد الجديد تسجّل تاريخًا حقيقيًا؟ هل من الممكن ألَّا تكون كتابات دينية متحيزة مليئة بالأساطير والحكايات كما يفترض الكثيرون في عالمنا الحديث، بل تصف أحداثًا وقعت بالفعل منذ حوالي ألفي عام؟ إن كان كذلك، فنحن في طريقنا إلى اكتشاف الدين الصحيح من بين الأديان التي تؤمن بالله الخالق.

وحتى نتأكد مما إذا كان العهد الجديد سجِلاً لتاريخ حقيقي، ينبغي أن نجيب عن سؤالين بخصوص الوثائق التي تشكل العهد الجديد:

١- هل لدينا نسخ دقيقة للوثائق الأصلية التي كُتِبَت في القرن الأول؟

٢- هل تلك الوثائق تقول الحقيقة؟

حتى نصدّق رسالة العهد الجديد، لا بد أن تكون إجابة كلٍّ من هذين السؤالين بالإثبات. فلا يكفي تقديم أدلة على أنه لدينا نسخة دقيقة من وثائق القرن الأول الأصلية (السؤال الأول)

لأنه من المحتمل أن تلك الوثائق تسجل أكاذيب. ولكن يجب أن تتوافر لدينا نسخة دقيقة من الوثائق وأن يكون لدينا سبب لتصديق أن تلك الوثائق تصف ما حدث حقًا منذ ما يقرب من ألفي عام (السؤال الثاني). فلنبدأ بالسؤال الأول.

السؤال الأول: هل لدينا نسخة دقيقة؟

مؤكد أنك تتذكر لعبة الأطفال "التليفون". في هذه اللعبة يعطَى أحد الأطفال رسالة شفهية ليوصلها للطفل المجاور له، وهكذا دواليك. وعندما تصل الرسالة إلى آخر طفل في السلسلة تكون قد اختلفت عن الرسالة التي أعطيت لأول طفل. ويبدو للملاحِظ غير المدقّق أن هذا النوع من التشوه يمكن أن يطول الوثائق التي انتقلت من جيل إلى جيل على مدى ألفي عام.

ولكن من حسن الحظ أن العهد الجديد لم ينتقل بتلك الطريقة. فبما أنه لم يقال لشخص واحد أخبر به شخصًا آخر وهكذا، إذَن مشكلة لعبة التليفون لا تنطبق على العهد الجديد. ولكن أعدادًا كبيرة من البشر، كلاً منهم على حدة، شهدوا لأحداث العهد الجديد. والكثيرون منهم احتفظوا بها في الذاكرة، وتسعة من شهود العيان/ المعاصرين أولئك سجلوا ملاحظاتهم كتابةً.

وهنا يجب أن نزيل مفهومًا خاطئًا شائعًا عن العهد الجديد. عندما نتحدث عن وثائق العهد الجديد لا نقصد كتابًا واحدًا، بل حوالي ٢٧ كتابًا. فوثائق العهد الجديد عبارة عن ٢٧ وثيقة مختلفة كُتِبَت على ٢٧ دَرْجًا مختلفًا بقلم تسعة كُتاب مختلفين في فترة زمنية حوالي من عشرين إلى خمسين عامًا. وهذه الكتب الفردية جُمِعَت منذ كتابتها في كتاب واحد نطلق عليه اليوم الكتاب المقدس. إذَن العهد الجديد ليس مجرد مصدر واحد، بل مجموعة مصادر.

ولكن أمامنا مشكلة واحدة: حتى الآن لم تُكتشف ولا واحدة من وثائق العهد الجديد المكتوبة **الأصلية**. ليس لدينا إلا **نسخ** من الكتابات الأصلية يُطلق عليها مخطوطات. فهل يمنعنا ذلك من معرفة ما تقوله الأصول؟

إطلاقًا. فالحقيقة أن كل كتابات العالم القديم القَيِّمَة أعيد إنشاؤها بما يطابق الشكل الأصلي عن طريق المقارنة بين المخطوطات الباقية. ولإعادة إنشاء الأصل، من المفيد أن يتوافر لدينا عدد كبير من المخطوطات التي كُتِبَت بعد الأصل بفترة ليست طويلة. وكلما ازداد عدد المخطوطات وكلما كانت أقدم، عادةً ما تُوَفِّر لنا شهادة أكثر موثوقية وتُمَكِّننا من إعادة الإنشاء بمزيد من الدقة.

فما مدى مطابقة وثائق العهد الجديد لهذه القواعد؟ إنها تتطابق معها بدرجة كبيرة جدًا، بل بدرجة تفوق بكثير أيًّا من وثائق العالم القديم. فالحقيقة أن مخطوطات وثائق العهد الجديد أكثر وأقدم ولها أدلة أوفر مقارنةً بأفضل عشرة أعمال كلاسيكية مجتمعة. وإليك ما نعنيه:

مخطوطات أكثر: بيَّنَ آخر إحصاء أن مخطوطات العهد الجديد اليونانية المكتوبة بخط اليد تصل إلى ما يقرب من ٥٧٠٠ مخطوطة. علاوة على ذلك هناك أكثر من ٩٠٠٠ مخطوطة بلـُغات أخرى (مثل السريانية، والقبطية، واللاتينية، والعربية). وبعض هذه المخطوطات التي تبلغ زهاء ١٥٠٠٠ مخطوطة عبارة عن كتاب مقدس كامل، والبعض الآخر عبارة عن أسفار أو صفحات، والقليل منها مجرد قصاصات غير مكتملة. وكما هو مبين في الشكل ٩- ١ في الصفحة التالية، ليس هناك شيء من العالم القديم يقترب من هذا المستوى من تأييد المخطوطات لصحة النص. فأول عمل يقترب من هذا المستوى بعد العهد الجديد هو إلياذة هوميروس التي يبلغ عدد مخطوطاتها ٦٤٣ مخطوطة. ومعظم الأعمال القديمة الأخرى تستند على أقل من اثنتي عشرة مخطوطة،[٣] ومع ذلك قليل من المؤرخين يشكِّكون في تاريخية الأحداث التي تصفها تلك الأعمال.

مخطوطات أقدم: إن العهد الجديد لا يتمتع بالتأييد نتيجة لوفرة مخطوطاته فحسب، بل يتمتع أيضًا بمخطوطات كـُتبَت بعد الأصول بفترة وجيزة. وأقدم مخطوطة لا خلاف عليها عبارة عن جزء من يوحنا١٨: ٣١-٣٣، ٣٧، ٣٨ وتـُعرف باسم قصاصة چون ريلاندز *John Rylands fragment* (لأنها محفوظة في مكتبة چون ريلاندز *John Rylands Library* في مانشستر بإنجلترا). ويحدد الدارسون تاريخها فيما بين ١١٧-١٣٨ م، ولكن البعض يقولون إنها أقدم من ذلك. وقد وُجِدَت في مصر على البحر المتوسط مقابل المكان الذي يُتَوَقـَّع أنها كـُتِبَت فيه في آسيا الصغرى، مما يبين أن إنجيل يوحنا نـُسِخَ وانتشر في مساحة شاسعة بحلول مطلع القرن الثاني.

ولكن هناك تسع قصاصات **عليها خلاف** أقدم من قصاصة چون ريلاندز يتراوح تاريخها من ٥٠ إلى ٧٠ م، عُثِرَ عليها مع مخطوطات البحر الميت.[٤] ويعتقد بعض العلماء أن هذه القصاصات عبارة عن أجزاء من ستة أسفار من العهد الجديد تتضمن إنجيل مرقس، وسفر الأعمال، ورسالة رومية، ورسالة تيموثاوس الأولى، ورسالة بطرس الثانية، ورسالة يعقوب. ورغم أن علماء آخرين يعترضون على هذا الاستنتاج (ربما لأن الاعتراف به يقوض ميلهم الليبرالي إلى الاعتقاد بأن العهد الجديد كـُتِب في مرحلة متأخرة عن ذلك)، فلم يمكنهم العثور

على أي نصوص أخرى بخلاف العهد الجديد تتطابق مع هذه المخطوطات.*

مصداقية العهد الجديد مقارنة بغيره من الوثائق

الفجوة الزمنية (بالسنين) بين الأصل وأول النسخ الباقية




عدد نُسخ المخطوطات



الشكل ٩-١

* قليل من النقاد اقترحوا بدائل محتملة بخلاف العهد الجديد. ولكن حتى ينجحوا في ذلك كان عليهم أن يغيروا عدد الحروف التي يسعها السطر في النص القديم من العشرينات إلى الستينات في بعض الحالات. ولكن هذا العدد الكبير من الحروف غير محتمل بالمرة. انظر *Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 547*

وقد وُجِدَت القصاصات في كهف عُرِف فيما سبق أنه يحوي مادة من سنة ٥٠ ق.م إلى ٥٠م. وأول عالِم رصد هذه القصاصات المبكرة باعتبارها أسفارًا من العهد الجديد هو هوسيه أوكالاهان *Jose O'Callahan*، وهو عالِم أسباني مشهور في خطوط الكتابة *paleographer*. وقد أقرت مجلة نيويورك تايمز بتداعيات نظرية أوكالاهان إذ اعترفت أنها إذا كانت صحيحة "ستُثْبِت أن واحدًا من الأناجيل على الأقل، ألا وهو إنجيل القديس مرقس، كُتِب عقب موت يسوع ببضع سنوات قليلة".[٥]

ولكنها حتى إن لم تكن قصاصات حقيقية من العهد الجديد وقصاصة چون ريلاندز هي فعلاً الأقدم، فالفاصل الزمني بين الأصل وأول نسخة باقية ما زال أقصر بكثير من أي شيء آخر من العالم القديم.* فثاني أقصر فاصل هو الذي يفصل بين أصل الإلياذة وأقدم نُسَخها، ويبلغ حوالي ٥٠٠ سنة، ومعظم الأعمال القديمة الأخرى يبلغ عمرها ١٠٠٠ سنة أو أكثر بعد الأصل. ولكن فجوة العهد الجديد حوالي ٢٥ سنة وربما أقل. (وهذا لا يعني عدم وجود مخطوطات أخرى بين الأصل والنسخة الأولى، بل المؤكد أنه كان هناك مخطوطات. ولكنه يعني ببساطة أن تلك المخطوطات فنيت، أو دُمِّرَت، أو لم تُكتشَف بعد).

ما عمر أقدم المخطوطات الباقية لأسفار كاملة من العهد الجديد؟ المخطوطات التي تمثل أسفارًا كاملة من العهد الجديد باقية من حوالي سنة ٢٠٠ م. وماذا عن أقدم مخطوطات العهد الجديد كاملاً؟ معظم العهد الجديد، بما فيه كل الأناجيل، باقٍ من سنة ٢٥٠، وهناك مخطوطة للعهد الجديد كله (وتتضمن عهدًا قديمًا يونانيًا) يطلق عليها المخطوطة الفاتيكانية *Codex Vaticanus* باقية من حوالي سنة ٣٢٥. وما زال عدد من المخطوطات الأخرى الكاملة باقيًا من ذلك القرن. وتتميز تلك المخطوطات بسمات في الهجاء وعلامات الترقيم ترجِّح أنها تنتمي لعائلة من المخطوطات يمكن إرجاعها إلى سنة ١٠٠-١٥٠ م.

فإن كان هذا العدد الضخم من المخطوطات المبكِّرة كل ما يملكه العلماء، يمكنهم إعادة إنشاء العهد الجديد الأصلي بقدر كبير من الدقة. ولكنهم أيضًا يملكون أدلة داعمة وفيرة من العالم القديم تُزيد من درجة اليقين في إعادة إنشاء العهد الجديد. فلنتناول هذه الفكرة فيما يلي.

* لاحظ أن هذا ليس فاصلاً بين الأحداث والكتابات الأصلية. فالفاصل بين الأحداث والكتابات الأصلية أقصر من الفاصل بين النصوص الأصلية والمخطوطات كما سنرى لاحقًا في هذا الفصل.

مخطوطات مؤيدة بأدلة وفيرة: منذ شباط/فبراير ٣٠٣ م أصدر الإمبراطور الروماني دقلديانوس ثلاثة مراسيم تقضي باضطهاد المسيحيين لأنه اعتقد أن وجود المسيحية يكسر العهد بين روما وآلهتها. وقد دعت المراسيم إلى تدمير الكنائس، والمخطوطات، والكتب، وقتل المسيحيين.[٦]

وهو ما أدى إلى تدمير مئات، إن لم يكن آلاف، المخطوطات في أنحاء الإمبراطورية الرومانية أثناء هذا الاضطهاد الذي استمر حتى سنة ٣١١م. ولكن حتى إن كان دقلديانوس قد نجح في مسح كل المخطوطات الكتابية من على وجه الأرض، إلا أنه لم ينجح في تدمير قدرتنا على إعادة إنشاء العهد الجديد. لماذا؟ لأن آباء الكنيسة الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث مثل يوستينوس الشهيد، وإيريناوس، وأكليمندس السكندري، وأوريجانوس، وترتليان، وغيرهم اقتبسوا من العهد الجديد بغزارة (٣٦٢٨٩ مرة بالضبط) حتى إنه يمكن إعادة إنشاء العهد الجديد كله ماعدا ١١ آية من اقتباساتهم فقط.[٧] أي أنه يمكنك أن تزور مكتبتك العامة المحلية، وتستعير أعمال آباء الكنيسة الأوائل وتقرأ العهد الجديد كله تقريبًا من اقتباساتهم منه فقط! إذَن لسنا نملك آلاف المخطوطات فقط، بل آلاف الاقتباسات من تلك المخطوطات. وهو ما يجعل إعادة إنشاء النص الأصلي عملية تكاد تكون يقينية.

ولكن ما مدى يقينيتها؟ كيف يعاد إنشاء الأصول، وما مدى دقة هذا العهد الجديد الذي أعيد إنشاؤه؟

كيف يُعاد إنشاء الأصل؟

هذه الحقائق الثلاث: مخطوطات كثيرة، مبكّرة، مدعمَّة بالأدلة؛ تُيَسِّر على العلماء إعادة إنشاء مخطوطات العهد الجديد الأصلية. فعملية مقارنة العدد الضخم من النسخ والاقتباسات تسمح بإعادة إنشاء الأصل بمنتهى الدقة حتى وإن حدثت أخطاء أثناء النَّسخ. كيف تسير هذه العملية؟ خذ المثال التالي. هب أن عندنا أربع مخطوطات مختلفة تحوي أربعة أخطاء مختلفة في آية واحدة مثل فيلبي٤: ١٣ («أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني».) إليك النُّسخ الافتراضية:

١- أ#تطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني.

٢- أس#طيع كل شيء في المسيح الذي يقويني.

٣- أست#يع كل شيء في المسيح الذي يقويني.

٤- أستط#ع كل شيء في المسيح الذي يقويني.

هل من غموض حول ما يقوله الأصل؟ لا غموض على الإطلاق. فبمقارنة المخطوطات ومطابقتها ببعضها البعض يمكن إعادة إنشاء العهد الجديد الأصلي بدقة متناهية. بل إن إعادة إنشاء العهد الجديد أسهل من ذلك لأن الأخطاء في مخطوطات العهد الجديد الحقيقية أقل بكثير من المبيَّنة في هذا المثال.

ولنفترض لحظة أن العهد الجديد فعلاً كلمة الله. وعندئذ قد يسأل الشكوكيون: "إن كان العهد الجديد فعلاً كلمة الله، فلماذا لم يحفظ الله الأصل؟" لا يمكننا هنا إلا أن نخمن، ولكن أحد الاحتمالات هو أن كلمته يمكن أن تُحفَظ في النُّسَخ أفضل مما تُحفَظ في الوثائق الأصلية. كيف؟ لأنه لو كان الأصل بحوزة أحد الأشخاص، قد يُحَرِّفه. ولكن إن كانت النسخ منتشرة في كافة أنحاء العالم القديم، فمن المستحيل أن يُغَيِّر واحد من الكتبة أو الكهنة كلمة الله. وكما رأينا، عملية إعادة الإنشاء تسمح بتحديد التغييرات والتنوعات بين النسخ وتصحيحها بسهولة كبيرة. لذا، من المدهش أن **عدم** وجود الأصول قد يحفظ كلمة الله على نحو أفضل مما لو كانت الأصول موجودة.

ما مدى دقة إعادة الإنشاء؟

لتناول قضية الدقة، علينا أن نجلو بعض المفاهيم الخاطئة عند الكثير من النقاد بخصوص "الأخطاء" في المخطوطات الكتابية. فقد قدَّر البعض أن هناك حوالي ٢٠٠ ألف خطأ في مخطوطات العهد الجديد. أولاً، هذه ليست "أخطاء" ولكنها قراءات متنوعة، وغالبيتها العظمى لُغَويَّة صرف (أي علامات ترقيم وهجاء). ثانيًا، هذه القراءات موزَّعة على ما يقرب من ٥٧٠٠ مخطوطة، بحيث إن التنوع في هجاء حرف **واحد** في كلمة **واحدة** في آية **واحدة** في ٢٠٠٠ مخطوطة يُحسَب ٢٠٠٠ "خطأ".

وقد قدَّر عالِما الدراسات النصِّية *Textual scholars* وِستكوت *Westcott* وهورت *Hort* أن التنوعات ذات الأهمية تعادل فقط **واحدًا من ستين**. وهو ما يعني نقاء النص بنسبة ٩٨,٣٣%.[٨] وقد حَسَبَ فيليب شاف *Philip Schaff* أنه، من بين التنوعات المائة والخمسين ألفًا المعروفة في أيامه، ٤٠٠ فقط هي التي غيرَّت معنى النص، وخمسون فقط من هذه

الأربعمائة ذو قيمة حقيقية، وليس هناك **ولا حتى واحد** منها أثَّرَ على "أحد أركان الإيمان أو إحدى الوصايا؛ حيث إنها مؤيَّدة بالعديد من النصوص الأخرى التي لا يرقى إليها الشك، وبروح التعليم الكتابي ككل".[٩]

ما من كتاب آخر من العالم القديم يتمتع بهذا القدر من الدقة. وقد قدَّر أستاذ العهد الجديد البارز والأستاذ بجامعة پرينستون، بروس متسجَر *Bruce Metzger* أن نَسْخ كتاب المهابهاراتا *Mahabharata* الهندوسي دقيق بنسبة حوالي ٩٠% فقط، وإلياذة هوميروس بنسبة حوالي ٩٥%. وبالمقارنة، قدَّر أن العهد الجديد دقيق بنسبة حوالي ٩٩,٥%.[١٠] وأيضًا الـ٠,٥% المشكوك فيها لا تؤثِّر على تعليم واحد من تعاليم الإيمان المسيحي.

فردريك كنيون *Fredric Kenyon* الذي يُعَدّ حُجَّة في المخطوطات القديمة أوجز ببراعة وضع العهد الجديد في هذه السطور:

> إن الكلمات تعجز عن تأكيد مدى دقة نص الكتاب المقدس في جوهره، وخاصةً العهد الجديد. فعدد مخطوطات العهد الجديد، وترجماته المبكرة، واقتباسات أقدم كُتَّاب الكنيسة منه كبير جدًا حتى أننا نكاد نجزم أن القراءة الصحيحة لكل نص مشكوك فيه محفوظة في واحدة أو أخرى من هذه المراجع القديمة الموثوقة. وهو ما لا يمكن أن يقال عن أي كتاب آخر من كتب العالم القديم.[١١]

إذَن نحن نعلم أن العهد الجديد الذي بين أيدينا هو نفسه الذي كُتِبَ من ٢٠٠٠ سنة تقريبًا. ولكن السؤال التالي أهم: هل هو نسخة دقيقة من الحق، أم أنه كذبة؟ أي هل العهد الجديد موثوق تاريخيًا؟

السؤال الثاني: هل العهد الجديد موثوق تاريخيًا؟

عندما نطرح سؤال: "هل العهد الجديد موثوق تاريخيًا؟" نحن نحاول أن نكتشف ما إذا كانت الأحداث الكبرى التي تصفها وثائق العهد الجديد حدثت بالفعل أم لا. وتحديدًا، هل كان هناك فعلاً رجل يهودي منذ ٢٠٠٠ عام تقريبًا يدعى يسوع علَّم حقائق عميقة، وصنع معجزات، وصُلِبَ على يد السلطات الرومانية واليهودية لأنه زعم أنه الله، وظهر للكثير من الشهود عقب قيامته من الأموات بعد ثلاثة أيام؟

من المهم أن نلاحظ أننا هنا لا نحاول أن نكتشف ما إذا كان العهد الجديد خاليًا من

الأخطاء أو ما إذا كان "كلمة الله". كل ما نحاول أن نكتشفه هو ما إذا كانت أحداث القصة الأساسية حقيقة، وليست خيالاً. وحتى نكتشف ذلك، يجب أن نتثبت من نوعية السجلات التي تؤلف العهد الجديد. هل هي وثائقُ كتبها شهود عيان عقب الأحداث بفترة وجيزة (أو كَتَبَها أناس التقوا بشهود العيان شخصيًا وتحدثوا معهم)، أم أنها وثائقُ كتبها أتباع متحيزون بعد الأحداث بفترة طويلة وأضافوا تفاصيل تجميلية عن حياةِ شخصية تاريخية حقيقية؟

ولكي نكتشف، سنفحص وثائق العهد الجديد في بضعة الفصول القادمة بمعايير غالبًا ما يستخدمها المؤرخون ليحددوا صدق أو كذب أي وثيقة تاريخية. وسنشير إلى هذه المعايير باسم "الاختبارات التاريخية". وهي تتكون من:

١- **هل عندنا شهادة مبكرة؟** بوجه عام، كلما كانت المصادر أقدم، كانت الشهادة أدق.

٢- **هل عندنا شهادة شهود عيان؟** عادةً شهادة شهود العيان أفضل وسيلة للتأكد مما حدث بالضبط.

٣- **هل عندنا شهادة من شهود عيان متعدّدين ومستقلين عن بعضهم البعض؟** شهود العيان المتعددون والمستقلون عن بعضهم البعض يؤكِّدون أن الأحداث حدثت بالفعل (أنها ليست خيالاً)، ويُدْلون بتفاصيل إضافية قد تفوت المصدر الواحد. (المصادر الصادقة المستقلة عن بعضها البعض عادةً ما تتفق في القصة الأساسية ولكنها تختلف في التفاصيل. وهو ما يطلق عليه المؤرخون أحيانًا "الاتساق مع عدم التماثل" *"coherence with dissimilarity"*).

٤- **هل شهود العيان مصادر موثوقة؟** هل يجب أن تصدقهم؟ شخصية الإنسان الأخلاقية مهمة.

٥- **هل لدينا أدلة داعمة من علم الآثار أو كتابات أخرى؟** هذا يقدم مزيدًا من التأكيد.

٦- **هل لدينا شهادات من أعداء؟** إن كان خصوم شهود العيان يعترفون بأشياء معينة يقول شهود العيان إنها صحيحة، فهي غالبًا صحيحة (فمثلاً إن كانت أمك تقول إنك شجاع، قد يكون قولها صحيحًا، ولكنه غالبًا يكون أكثر مصداقية إن كان عدوك اللدود يعترف به).

٧- **هل الشهادة تتضمن أحداثًا أو تفاصيل محرجة للكُتّاب؟** بما أن معظم الناس

لا يحبون أن يسجلوا معلومات سلبية عن أنفسهم، فأي شهادة تسيء إلى صورة الكاتب غالبًا تكون صحيحة.

وفي معظم الحالات، الوثائق التي تجتاز معظم هذه الاختبارات التاريخية، أو كلها، تُعتبَر موثوقة بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي. فما مستوى وثائق العهد الجديد بالنسبة لهذه الاختبارات؟ سنكتشف في هذا الفصل والفصول الثلاثة القادمة. ولكن قبل أن نبدأ في الاختبار التاريخي رقم ١ (الشهادة المبكرة)، يجب أن نرد على بعض الاعتراضات التي تمنع الكثير من الشكوكيين حتى من التفكير في صحة العهد الجديد.

اعتراضات شائعة على صحة العهد الجديد

التاريخ لا يمكن أن يُعرَف: أحدث حجة صيغت ضد حتى مجرد التفكير في صحة وثائق العهد الجديد هي التي تؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف التاريخ. والمضحك أن هذا الاعتراض عادةً ما يصدر من نفس الأشخاص الذين يقولون إنهم **يعرفون** أن الحياة الأولى تولّدت تلقائيًا من كيماويات غير حية، وأن كل الحياة اللاحقة تطوّرت من تلك الحياة الأولى دون تدخُّل ذكي. إنهم على يقين مطلق بشأن **ذلك التاريخ** رغم عدم وجود شهود عيان أو بيانات داعمة لتلك الأحداث. ومع ذلك فهم يؤكدون أن قيامة يسوع المسيح، وهي حدث يؤكده شهود عيان وبيانات داعمة، لا يمكن أن يُعرَف!

والتأكيد الذي يقول باستحالة معرفة التاريخ ضد الحس السليم تمامًا. فهل نحن لسنا متأكدين أن چورچ واشنطن كان أول رؤساء الولايات المتحدة؟ وأن لينكون كان السادس؟ وأن اليابان ضربت پيرل هاربور *Pearl Harbor* يوم ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١؟ وأن فريق نيويورك متس *New York Mets* لكرة البيسبول فاز ببطولة ورلد سيريز *World Series* سنة ١٩٦٩؟ طبعًا متأكدون. إن الشكوكي مخطئ. فنحن نستطيع أن نعرف التاريخ، بل نعرفه بالفعل. والحقيقة أننا إن لم نكن قادرين على معرفة التاريخ، فيستحيل أن نرصد التحريف التاريخي *historical revisionism* أو الدعاية التاريخية الزائفة *historical propaganda*، وكلتاهما تفترضان وجود تاريخ موضوعي يمكن معرفته.

لماذا لا يستطيع الشخص أن يعرف حدثًا من الماضي؟ قد يقول الشكوكي: "لأنك لا تمتلك كل الحقائق". وهو ما نَرُدّ عليه بالقول: "إذَن العلماء أيضًا لا يستطيعون أن يعرفوا أي شيء

لأنهم لا يملكون كل الحقائق". واضح أنه كلام عبثي. فرغم أننا لا نملك كل الحقائق، يمكننا أن نجمع ما يكفي منها حتى نصل إلى يقين معقول بشأن ما وقع من أحداث.

وينطوي هذا التشوش جزئيًا على الفشل في تعريف كلمة "المعرفة". فبما أننا لا نستطيع أن نعود بالزمن ونشهد الأحداث التاريخية مجددًا، فمعرفتنا التاريخية تقوم على الاحتمالية. وهو ما يعني أننا نستخدم نفس المقاييس التي تستخدمها هيئة المحكمة للجزم بما إذا كان المدعى عليه هو مرتكب الجريمة بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي. فإن كانت معرفة التاريخ مستحيلة، إذَن لا يمكن لأي محكمة أن تصدر أي حكم! ففي كل الأحوال، هيئة المحكمة تحكم بإدانة المتهم أو براءته بناءً على **معرفتها** بحدث **ماضٍ**. والمؤرخون عليهم أن يكتشفوا أحداث الماضي مثلما يفعل رجال الشرطة وعلماء الأدلة الجنائية، أي بجمع الأدلة معًا والتحدث مع شهود العيان. وعندما يفعلون ذلك، غالبًا ما يستخدمون الاختبارات التاريخية السبعة التي سردناها أعلاه.

وأخيرًا، إن كنا لا نستطيع أن نعرف التاريخ، إذَن الشكوكيون لا يستطيعون أن يزعموا أن المسيحية ليست صحيحة. فحتى يقول الشكوكي بأن المسيحية ليست صحيحة، عليه أن يعرف التاريخ. لماذا؟ لأن كل نفي يتضمن إثباتـًا. فحتى يقول الشكوكي بأن يسوع لم يقُم من الأموات (النفي)، يجب عليه أن **يعرف** ما حدث له **فعلاً** (الإثبات).

في النهاية يتضح أن الشكوكيين واقعون في مأزق. فإن قالوا إن معرفة التاريخ مستحيلة، لا يستطيعون أن يقولوا إن التطوّر صحيح والمسيحية خاطئة. وإن اعترفوا بأن معرفة التاريخ ممكنة، عليهم أن يتعاملوا مع العديد من أنواع الأدلة التاريخية على الخلق والمسيحية.

وثائق العهد الجديد تحتوي على معجزات: عادةً ما يعترض الشكوكيون قائلين: "العهد الجديد يحتوي على معجزات، إذَن جزء كبير منه **لا بد** أن يكون أساطير". لقد أجبنا على ذلك الاعتراض. بما أن الله موجود، إذَن المعجزات ممكنة. وكما سنرى في الفصل الثالث عشر، أحداث العهد الجديد تتم في إطار لم تكن فيه المعجزات ممكنة فحسب بل جاءت عنها نبوات. إذَن وجود المعجزات لا ينفي تاريخية وثائق العهد الجديد، بل بالعكس قد يقوي تاريخيتها (لأنها تسجل أحداثـًا تم التنبوء بها).

كُتاب العهد الجديد متحيزون: قال الشكوكي الكبير ديـڤيد هيوم إن الشهود لا بد أن يكونوا محايدين حتى يكونوا جديرين بالثقة. لذا، عندما ينظر الشكوكيون إلى وثائق العهد

الجديد، غالبًا ما يسألون: "كيف تستطيع أن تقول إنها جديرة بالثقة وقد كتبها المتحولون إلى المسيحية؟ إنها روايات منحازة كتبها أشخاص منحازون".

صحيح أن كُتّاب العهد الجديد كانوا أشخاصًا **متحيزين** ومتحولين إلى المسيحية. إلا أن هذا لا يعني أنهم كانوا يكذبون أو يبالغون. بل الحقيقةً أن تحولهم للمسيحية وتحيزهم غالبًا ما دفعاهم بالفعل لتحري **المزيد** من الدقة. فلنرَ سبب ذلك.

منذ بضع سنوات، على إحدى الفضائيات بدأ فيلم وثائقي مفترض أنه عن يسوع بهذا التعليق بصوت الراوي: "معظم ما نظن أننا نعرفه عن يسوع يأتي من أناجيل العهد الجديد: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. ولكننا لا نستطيع أن نثق في دقة المعلومات التي تقدمها تلك الأسفار لأن كُتّابها كانوا ممن تحولوا إلى المسيحية".

ما الخطأ في ذلك المنطق؟ الخطأ في ذلك المنطق أنه يَنْقُصه طرح أهم سؤال: **لماذا تحولوا إلى المسيحية؟** فالحقيقة أن أول وأهم سؤال **ليس**: "ماذا كانت عقائد كُتّاب العهد الجديد؟" بل أول وأهم سؤال: "لماذا تحولوا إلى هذه العقائد الجديدة"؟ أي لماذا هجر كُتّاب العهد الجديد موارد رزقهم بغتةً وتقاليدهم الدينية التي كانوا يُجِلّونها من أجل هذه العقائد الجديدة؟

طرحتُ (أنا فرانك) ذلك السؤال، أثناء مناظرة إذاعية من وقت ليس ببعيد، على اثنين ممن لا يؤمنون أن يسوع صُلب، ومن ثَمَّ مستحيل أن يكون قد قام. وبناءً على ذلك، سألتهما: "لماذا تحول كُتّاب العهد الجديد فجأة من اليهودية إلى الإيمان بقيامة يسوع؟"

فقال أحدهما: "لأنهم أرادوا أن يكتسبوا سلطة على الشعب".

قلتُ: "ما السلطة التي اكتسبها كُتّاب العهد الجديد بتأكيدهم أن يسوع قام من الأموات؟ الإجابة أنهم "لم يكتسبوا أي سلطة على الإطلاق". الحقيقة أنهم اكتسبوا ما هو عكس السلطة تمامًا: الخضوع، والخدمة، والاضطهاد، والتعذيب، والموت". فلم يجدا إجابة.

ثم سألتهما السؤال بطريقة مختلفة: "لو لم تكن قصة القيامة حقيقية، تُرى ما الدافع الذي جعل كُتّاب العهد الجديد يختلقونها؟"

ولم تكن عندهما إجابة أيضًا. لماذا؟ لأنهما بدآ يدركان أن كل الدوافع الأرضية كانت تدفع كُتّاب العهد الجديد إلى **إنكار** القيامة لا إلى إعلانها. فلم يكن هناك أي دافع أو حافز يغريهم

باختلاق قصة العهد الجديد. والحقيقة أننا دائمًا ما نجد أن الوعد بالخضوع، والخدمة، والاضطهاد، والتعذيب، والموت لا يدفع أي شخص لاختلاق مثل هذه القصة.

مؤكد أن كُتّاب العهد الجديد لم يكن عندهم سبب لاختراع دين جديد. بل علينا أن نتذكر أن جميعهم (ربما باستثناء لوقا) كانوا يهودًا آمنوا إيمانًا راسخًا أن اليهودية هي الدين الوحيد الصحيح. وهذا الدين الذي بلغ عمره آنذاك زهاء ألفي عام أكد أنهم، أي اليهود، شعبُ الله المختار. فلماذا يخاطر اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية بالاضطهاد، والموت، وربما الهلاك الأبدي، لأنهم أسسوا شيئًا ١) لم يكن صحيحًا ٢) رَفَعَ مكانة غير اليهود إلى العلاقة الوحيدة الصحيحة التي زعموا أنهم يتمتعون بها مع خالق الكون؟ ولو لم تكن القيامة قد حدثت بالفعل، لماذا يهجرون بشكل شبه فوري حفظ السبت، والختان، وناموس موسى، ومركزية الهيكل، والنظام الكهنوتي، وغير ذلك من تعاليم العهد القديم؟ لا شك أن كُتّاب العهد الجديد شهدوا أدلة قوية جدًا دفعتهم إلى إدارة ظهورهم لتلك العقائد والممارسات القديمة التي ميَّزَتهم وآباءهم لمدة ما يقرب من ألفي عام.

الأشخاص المتحولون إلى إيمان آخر غير موضوعيين: هنا قد يعترض الشكوكيون قائلين: "ولكن بما أن كُتّاب العهد الجديد كانوا أشخاصًا متحولين إلى المسيحية، يستحيل أن يكونوا موضوعيين". كلام فارغ. فالناس يمكن أن يكونوا موضوعيين حتى إن لم يكونوا محايدين. الطبيب مثلاً يستطيع أن يشخص تشخيصًا موضوعيًا حتى إن كان يشعر بعواطف قوية تجاه المريض. أي أنه يقدر أن يكون موضوعيًا رغم أنه غير محايد. فالحقيقة أن مشاعره نحو المريض قد تدفعه لمزيد من الدقة في التشخيص ثم معالجة المرض على النحو الصحيح.

وفي كتابتنا لهذا الكتاب، رغم أننا طبعًا غير محايدين، فنحن نقدّم حقائق موضوعية. وكذلك الملحدون غير محايدين، ولكنهم أيضًا يستطيعون أن يقدموا حقائق موضوعية إن أرادوا. وكُتّاب العهد الجديد أيضًا يقدرون أن يفعلوا ذلك.

وحقيقة الأمر أن كل الكتب تُكتَب لغرض، ومعظم الكُتّاب يؤمنون بما يكتبون. إلا أن هذا لا يعني أن ما يكتبونه خطأ أو لا يحتوي على عنصر موضوعي. ولكن كما ذكرنا في تمهيد هذا الكتاب، الناجون من الهولوكوست الذين كتبوا خبراتهم، مؤكد أنهم لم يكونوا متفرجين محايدين. فقد آمنوا بكل قلوبهم بضرورة تسجيل تلك الأحداث لأنهم أرادوا ألا ينسى العالم أبدًا الهولوكوست وتمنوا ألا يكرره أبدًا. فرغم أن الولع بموضوع معين قد يدفع البعض إلى

المبالغة، قد يدفع البعض الآخر إلى مزيد من الدقة والحرص حتى لا يفقد مصداقية وقبول الرسالة التي يبغي توصيلها.

وهذا التمييز بين الحياد والموضوعية عند كُتَّاب العهد الجديد نقطة في منتهى الأهمية. ففي أغلب الأحيان الوثائق التي تُكَوِّن العهد الجديد يُنظَر إليها تلقائيًا على أنها متحيزة وغير جديرة بالثقة. وهو أمر يثير السخرية لأن أصحاب هذا الموقف غالبًا ما يكونون هم أنفسهم متحيزين. وهم متحيزون لأنهم لم يفحصوا أولاً وثائق العهد الجديد ولا الإطار الذي كُتبَت فيه حتى يمكنهم أن يبنوا تقييمهم لمصداقيتها على معلومات سليمة.

وكما سنرى بعد قليل، وثائق العهد الجديد ليست "دعاية كنسية زائفة" ولا مجموعة كبيرة من الكتابات قُصِد بها الترويج للاهوت مِنْ صُنْع الكنيسة. فما هي إذَن؟ هذا هو السؤال الذي سنتناوله في بقية هذا الفصل والفصول الثلاثة القادمة.

فلنبدأ. نعرف أن عندنا نسخة دقيقة مما كتبه كُتَّاب العهد الجديد. ولكن هل تلك الوثائق جديرة بالثقة؟ سؤالنا الأول يتناول الاختبار التاريخي # ١: هل وثائق العهد الجديد من تاريخ مبكر؟

هل وثائق العهد الجديد من تاريخ مبكر؟

نعم. منذ متى؟

كل أسفار العهد الجديد كُتِبَت قبل سنة ١٠٠ م (بعد موت يسوع بحوالي ٧٠ سنة): كما يتبين من الجدول ٩- ١ (الصفحة التالية) ثلاثة من آباء الكنيسة الأوائل وهم أكليمندس وإغناطيوس وپوليكارپوس اقتبسوا نصوصًا من ٢٥ سفرًا من أسفار العهد الجديد السبعة والعشرين في رسائل مكتوبة بين سنة ٩٥ وسنة ١١٠ م.[١٢] والسفران الوحيدان اللذان لم يقتبسوا منهما هما رسالة يهوذا ورسالة يوحنا الثانية، وهما من أصغر الأسفار، ولكن مؤكد أنهما كانتا قد كُتبَتا. (كان يهوذا قد كتب رسالته الصغيرة قبل هذا التاريخ لأنه حيث إنه كان أخا يسوع، نكاد نكون متأكدين أنه توفي قبل ١٠٠ م، ويوحنا الثانية كانت قد كُتبَت لأنها تسبق يوحنا الثالثة التي كانت ضمن الخمسة والعشرين سفرًا التي اقتبس منها آباء الكنيسة).

وثائق العهد الجديد اقتبسها:		
أكليمندس كَتَبَ من روما (حوالي سنة ٩٥ م)	**إغناطيوس** كَتَبَ من سميرنا في آسيا الصغرى (حوالي سنة ١٠٧)	**بوليكاربوس** كَتَبَ من سميرنا في آسيا الصغرى (حوالي سنة ١١٠)
متى	متى	متى
مرقس	مرقس	مرقس
لوقا	لوقا	لوقا
رومية	يوحنا	يوحنا
كورنثوس الأولى	أعمال الرسل	أعمال الرسل
أفسس	رومية	رومية
تيموثاوس الأولى	كورنثوس الأولى	كورنثوس الأولى
تيطس	كورنثوس الثانية	كورنثوس الثانية
العبرانيين	غلاطية	غلاطية
يعقوب	أفسس	أفسس
بطرس الأولى	فيلبي	فيلبي
	كولوسي	كولوسي
	تسالونيكي الأولى	تسالونيكي الثانية
	تيموثاوس الأولى	تيموثاوس الأولى
	تيموثاوس الثانية	تيموثاوس الثانية
	تيطس	العبرانيين
	فليمون	بطرس الأولى
	العبرانيين	يوحنا الأولى
	يعقوب	
	بطرس الأولى	
	بطرس الثانية	
	يوحنا الأولى	
	يوحنا الثالثة	
	رؤيا يوحنا	

الجدول ٩-١

بما أن أكليمندس كان في روما وكان إغناطيوس وپوليكارپوس على بعد مئات الأميال في سميرنا، مؤكد أن وثائق العهد الجديد الأصلية كُتِبَت قبل ذلك بوقت طويل، وإلا لما انتشرت عبر العالم القديم قبلما اقتبس منها آباء الكنيسة الثلاثة. من ثم يمكننا أن نقول بثقة إن العهد الجديد كله كُتِبَ قبل سنة ١٠٠ م وعلى الأقل الأسفار الموضحة في العمود الأيمن كُتِبَت قبل سنة ٩٥ بعدة سنوات.

ولكن هذا هو **أحدث** تاريخ يمكن أن تكون أسفار العهد الجديد قد كُتِبَت فيه. فغالبًا أن معظمه كُتِب في فترات مبكرة قبل ذلك بكثير. قبل ذلك بكم عام؟ معظمه إن لم يكن كله قبل سنة ٧٠.

معظم هذه الأسفار، إن لم يكن كلها، كُتِب قبل سنة ٧٠ م (بعد موت يسوع **بحوالي ٤٠ سنة**): تخيَّل ذلك. أنت يهودي تقي في القرن الأول. وأورشليم، ولا سيما الهيكل، يمثِّلان مركز حياتك القومية والاقتصادية والدينية. وقد ظل الحال هكذا في أُمَّتك وعائلتك وكل العائلات اليهودية تقريبًا على مدى ألف عام منذ أن بنى سليمان الهيكل الأول. وأحدثُ هيكل الذي بناه الملك هيرودس اكتمل معظمه عندما كنت طفلاً، ولكن أجزاء منه لا تزال تحت الإنشاء منذ سنة ١٩ ق.م. وقد حضرْتَ طيلة حياتك خدمات في الهيكل وقدَّمت ذبائح هناك للتكفير عما ارتكبت من خطايا ضد الله. لماذا؟ لأنك أنت وأهل بلدك تعتبرون هذا الهيكل المَسكَن الأرضي لإله الكون صانع السماء والأرض، الإله الذي يحمل الاسم الكلي القداسة حتى إنك لا تجرؤ أن تنطقه.

وفي شبابك تبدأ في اتّباع رجل يهودي يدعى يسوع يزعم أنه المسيا الذي طال انتظاره والذي تنبأت عنه الكتب المقدسة. وهو يصنع المعجزات، ويُعلِّم حقائق عميقة، ويوبخ الكهنة المسؤولين عن الهيكل ويحيرهم. والغريب أنه يتنبأ عن موته وقيامته. وهو يتنبأ أيضًا أن الهيكل نفسه سيُهْدَم قبل أن يمضي جيلك (مرقس١٣: ٢، ٣٠).

ولكن المشين حقًا أن كهنة الهيكل يدينونه بتهمة التجديف ويُصلَب ليلة الفصح، أحد أقدس أعيادك. ويُدفَن في قبر يهودي، ولكن أنت وأتباع يسوع الآخرون ترونه حيًا مثلما تنبأ. فتلمسونه، وتأكلون معه، ويستمر في صنع المعجزات، وآخرها صعوده إلى السماء. وبعد أربعين عامًا، يُهدَم هيكلك كما تنبأ يسوع، وتخرب المدينة بكاملها ويموت الآلاف من أبناء بلدك.

سؤال: إن كتبْتَ أنت ورفاقك من أتباع يسوع روايات عن يسوع **بعد** خراب الهيكل والمدينة سنة ٧٠ م، ألن تذكروا على الأقل تلك المأساة القومية والإنسانية والاقتصادية والدينية غير المسبوقة، خاصةً أن يسوع المُقام تنبأ بها؟ طبعًا. وهنا تكمن المشكلة أمام مَن يقولون إن العهد الجديد كُتِبَ بعد سنة ٧٠، والمشكلة هي أنه لا ذكر على الإطلاق لتحقيق هذه المأساة التي تنبأ عنها يسوع في أي موضع من وثائق العهد الجديد. وهو ما يعني أن معظم الوثائق إن لم يكن كلها كُتِبَت قبل سنة ٧٠.

وقد يعترض البعض قائلين: "إنها حجة مبنية على الصمت* *argument from silence*، وهي لا تُثبِت أي شيء". ولكن الحقيقة أنها ليست حجة مبنية على الصمت لأن وثائق العهد الجديد تتحدث عن أورشليم والهيكل، أو الأنشطة المرتبطة بهما كما لو أنهما ظلا في أمان دون أن يمسهما سوء أثناء زمن الكتابة.† ولكنها حتى لو كانت حجة مبنية على الصمت، فهذا لا يعني أنها خاطئة. خذ مثلاً هذه الأمثلة المشابهة من التاريخ الحديث. هب أن بَحَّارًا سابقًا على متن السفينة يو إس إس أريزونا *USS Arizona* كَتَبَ كتابًا عن تاريخ تلك السفينة والكتاب ينتهي دون أي ذِكْر لغرق السفينة وموت ١١٧٧ من بحَّاريها في بيرل هاربور، فهل يخالجك **أي** شك أن الكتاب لا بد أن يكون قد كُتِبَ قبل ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١؟ أو لو أن أحد المستأجرين السابقين في مركز التجارة العالمي كتب كتابًا عن تاريخ تلك المباني، والكتاب ينتهي بأن هذه الأبراج لا تزال قائمة، دون أي ذِكْر على الإطلاق لتدمير الأبراج ومقتل ٣٠٠٠ شخص تقريبًا على يد الإرهابيين، فهل يخالجك **أي** شك في أن الكتاب لا بد أن يكون قد كُتِب قبل ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؟ بالطبع لا.

إن الكارثة التي وقعت سنة ٧٠ م كانت أكبر بما لا يقاس من كارثة بيرل هاربور وكارثة ١١ سبتمبر من حيث حجم الخسائر في الأرواح، والممتلكات، والأثر القومي. لقد أنهت حربًا شعواء وصفها يوسيفوس بأنها "أعظم" حروب التاريخ كله، حتى أنه هو نفسه استسلم

---

* مغالطة منطقية تُستخدم في التاريخ، وهي تحاول أن تُثبِت خطأ زعمٍ ما لعدم وجود أدلة تُثبته. مثال: بما أنه ليس هناك ذكر للحثيين في المصادر اليونانية والرومانية، إذَن لا بد أن إشارات الكتاب المقدس إلى الحثيين محض خيال (*Lange, John. "The Argument from Silence." History and Theory, vol. 5, no. 3, 1966, pp. 288–301. www.jstor.org/stable/2504447*.) تم الاطلاع عليه بتاريخ ٢٠١٦/١١/٢٧ (المترجمة).

† انظر يوحنا٥: ٢؛ ٢تسالونيكي٢: ٤؛ عبرانيين٥: ١-٣؛ ٧: ٢٣، ٢٧؛ ٨: ٣-٥؛ ٩: ٢٥؛ ١٠: ١، ٣، ٤، ١١؛ ١٣: ١٠، ١١؛ رؤيا١١: ١، ٢.

للرومان سنة ٦٧.[١٣] فاليهود لم يفقدوا مجرد سفينة واحدة ولا بضعة مبانٍ عظيمة، ولكنهم فقدوا بلادهم بالكامل، وعاصمتهم، وهيكلهم الذي كان مركز حياتهم الدينية والسياسية والاقتصادية على مدار الألف سنة الأخيرة. وعلاوة على ذلك **عشرات الآلاف** من أبناء بلادهم لقوا حتفهم ومئات من قراهم حُرِقَت حتى سُوِّيَت بالأرض.

لذا، إن كنا نتوقع ذِكْر كوارث مثل هزيمة بيرل هاربور، وأحداث ١١ سبتمبر في كتابات اليوم المتصلة بهذه الأحداث، مؤكد أنه يجب أن نتوقع الإشارة إلى أحداث سنة ٧٠ م في أي موضع من العهد الجديد (خاصة أن يسوع تنبأ بهذه الأحداث). ولكن بما أن العهد الجديد لا يذكر هذه الأحداث في أي موضع، ويوحي بأن أورشليم والهيكل كانا في مأمن من أي تخريب. فمن المنطقي أن نستنتج أن معظم وثائق العهد الجديد إن لم يكن كلها كُتِبَت قبل سنة ٧٠.

قبلها بكم سنة؟

الكثير من أسفار العهد الجديد كُتِبَ قبل سنة ٦٢ م (بعد موت يسوع بحوالي **٣٠ سنة**): تخيل هذا: أنت طبيب بشري تعيش في القرن الأول وقد بدأت مشروعًا بحثيًا لتسجيل أحداث الكنيسة الأولى. وهذا البحث يتطلب منك أن تجري لقاءات مع شهود عيان من الكنيسة الأولى وأن تسافر مع الرسول بولس في زياراته للكنائس الجديدة في أنحاء العالم القديم. وأنت تسجل الأحداث البارزة في حياة الكنيسة مثل الأعمال المبكّرة التي قام بها يوحنا وبطرس، وكذلك استشهاد استفانوس ويعقوب (أخي يوحنا). وتسجّل كل شيء في حياة بولس بدءًا بالعظات، والضربات، والمحاكمات، وانتهاءً بحوادث انكسار السفن والسِّجن عدة مرات. وتسجّل أيضًا المجمع اللاهوتي الذي عقده مع بطرس ويعقوب أخي يسوع قائد كنيسة أورشليم.

وإذ تصف الكثير من هذه الأحداث، تعجّ روايتك بتفاصيل يفهم منها كل قارئ مُطَّلِع أنك إما تستند على شهادة شهود عيان أو أنك أنت نفسك شاهد عيان. فمثلاً، بينما تتبع بولس في رحلاته تنتقل من استخدام الضمير "هم" إلى الضمير "نحن"، وتسجِّل بدقة أسماء الساسة المحليين، واللغة العامية المحلية، وأنماط الطقس المحلي، والتضاريس المحلية، والممارسات التجارية المحلية، بل إنك تسجل كذلك عمق المياه بدقة إذ تقول نحو ربع ميل من مالطة بينما كانت سفينتكم على وشك الرسو أثناء هبوب عاصفة! والحقيقة أنك تسجل ما لا يقل عن ٨٤ من هذه التفاصيل في النصف الأخير من روايتك.

سؤال: بما أنه يتضح أنك مهتم بتسجيل كل هذه التفاصيل الفرعية، فلو كان موضوعك

الرئيسي، ألا وهو الرسول بولس، قد أُعْدِم على يد الإمبراطور الروماني نيرون، هل تظن أنك كنت ستسجل هذا الحدث؟ أو لو كان أخو يسوع، قائد كنيسة أورشليم، قد قُتِل على يد السنهدريم، وهو نفس المجمع اليهودي الذي حكم بموت يسوع، أتظن أنك كنت ستسجل هذا الحدث؟ بالطبع. وإن لم تدون هذه الأحداث الكبرى، نكون مُحِقّين عندما نفترض أنك كتبت روايتك **قبل** موتهما.

وهذا هو الوضع الذي نجده في العهد الجديد. فلوقا الطبيب يدوِّن بمنتهى الدقة كافة التفاصيل في سفر الأعمال الذي يسجل تاريخ الكنيسة الأولى (في الفصل التالي قائمة تضم ٨٤ معلومة تفصيلية ثابتة تاريخيًا). إن لوقا يسجّل موت شهيدين مسيحيَّين (استفانوس، ويعقوب أخي يوحنا)، ولكن روايته تنتهي باثنين من أبرز القادة (بولس، ويعقوب أخي يسوع) على قيد الحياة. وينتهي سفر أعمال الرسل فجأة بالرسول بولس قيد الإقامة الجبرية في روما، دون ذِكْر لموت يعقوب. ونعرف من أكليمندس الروماني *Clement of Rome* الذي كتب في أواخر القرن الأول، ومن غيره من آباء الكنيسة الأوائل، أن بولس أُعدِمَ أثناء حكم نيرون الذي انتهى سنة ٦٨ م.[١٤] ونعرف من يوسيفوس أن يعقوب قُتِل سنة ٦٢. إذَن يمكننا أن نستنتج بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن سفر الأعمال كُتِب قَبل سنة ٦٢.

إن كنت غير مقتنع حتى الآن، خذ هذا المثال المشابه من تاريخنا الحديث: هب أن شخصًا كَتَبَ كتابًا يسجل الأحداث المرتبطة بالشخصيات الرئيسية في حركة الحقوق المدنية التي انطلقت في ستينيات القرن العشرين. يبدأ الكتاب باغتيال الرئيس جون كنيدي ويتضمن تشريع الحقوق المدنية لسنة ١٩٦٤، والمسيرات والاحتجاجات التي قادها مارتن لوثر كينج، وكذلك إلقاء القبض عليه وسجنه، وخُطبته العظيمة "عندي حُلم" *"I have a dream"* التي ألقاها في حديقة مول *Mall* في العاصمة واشنطن. سؤال: إن انتهى الكتاب بمارتن لوثر كينج، قائد الحركة شخصيًا، على قيد الحياة، فما الاستنتاج الذي ستتوصل إليه بخصوصِ زمن كتابة الكتاب؟ واضح أنه قبل اغتياله في نيسان/أبريل ١٩٦٨. وهو ما ينطبق على رواية لوقا. فكتابه ينتهي بالقادة الأساسيين على قيد الحياة، وهو ما يعني أنه انتهى من كتابته سنة ٦٢ على أقصى تقدير. (يسوقُ كولين هِمَر *Colin Hemer* الباحث في اليونانية واللاتينية القديمة ثلاثة عشر سببًا إضافيًا تعلّل أن سفر الأعمال كُتِبَ سنة ٦٢ على أقصى تقدير).[١٥]

إن كان سفر الأعمال قد كُتِب سنة ٦٢ على أقصى تقدير، إذَن إنجيل لوقا كُتِب قبل ذلك.

كيف نعرف هذا؟ لأن لوقا يُذَكِّر ثاوفيلس (الذي كان غالبًا من كبار المسؤولين الرومان)، المتلقي الأصلي لسفر الأعمال أنه كتب له فيما سبق. فأول آية في سفر الأعمال تقول: «الكلام الأول أنشأتـه يا ثاوفيلس، عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويُعَلِّم به». "الكلام الأول" لا بد أن يكون إنجيل لوقا لأن لوقا يوجهه إلى ثاوفيلس أيضًا (لوقا١: ١- ٤، انظر الشاهد أدناه).

فما الفارق الزمني بين إنجيل لوقا وسفر الأعمال؟ من المنطقي أن يكون تاريخ إنجيل لوقا سنة ٦٠ م أو قبلها. لماذا؟ لأن سنة ٦٢ هي **أقصى** تقدير لتاريخ كتابة سفر الأعمال، ولا بد من وجود فارق زمني بين كتاب لوقا الأول إلى ثاوفيلس وكتابه الثاني. فإن كان سفر الأعمال كُتِب سنة ٦٢ على أقصى تقدير (وغالبًا قبل ذلك)، إذَن من الواقعي أن يكون إنجيل لوقا قد كُتِبَ سنة ٦٠ أو قبلها.

وهذا التاريخ منطقي أيضًا نظرًا لأن بولس يقتبس من إنجيل لوقا. فبولس، وهو يكتب فيما بين سنة ٦٢ وسنة ٦٥م، اقتبس من لوقا١٠: ٧ وسمَّاه "الكتاب" (١تيموثاوس٥: ١٨). إذَن لا بد أن إنجيل لوقا كان متداولاً قبل ذلك الوقت بفترة كافية تسمح لكلٍّ من بولس وتيموثاوس أن يعرفا محتواه ويعتبراه جزءًا من الكتاب المقدس. (بالمناسبة هذا الزعم الذي يقوله بولس ليس بالأمر الهين. فهو يعني أن بولس يؤكِّد تأكيدًا جريئًا مفاده أن إنجيل لوقا موحى به تمامًا مثل الكتاب المقدس اليهودي، أي العهد القديم الذي كان يُقَدِّره أيما تقدير).

فإن كان لوقا قد كُتِب سنة ٦٠ م على أقصى تقدير، إذَن مرقس لا بد أن يكون قد كُتِب فيما بين منتصف وأواخر الخمسينيات إن لم يكن قبل ذلك. لماذا؟ لأن لوقا يقول إنه جَمَعَ الحقائق من مصادر منسوبة لشهود عيان:

> إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدامًا للكلمة رأيتُ أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيزُ ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمتَ به. (لوقا١: ١- ٤)

يعتقد معظم الباحثين أن إنجيل مرقس كان أحد هذه المصادر المنسوبة لشهود عيان. وإن كانت قصاصات البحر الميت التي ذكرناها سلفًا تنتمي فعلاً للفترة بين سنة ٥٠ وسنة ٧٠ م، إذَن مؤكَّد أن مرقس أقدم من لوقا. ولكن حتى إن لم يكن مرقس قبل لوقا، فبما أننا نعرف بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن لوقا قبل سنة ٦٢ وأنه غالبًا قبل سنة ٦٠، إذَن نحن عندنا شهادة شهود عيان مسجلة بمنتهى الدقة ومكتوبة في غضون ٢٥ أو ٣٠ سنة من موت يسوع

ودفنه وقيامته. وهو وقت مبكِّر جدًا بحيث يستحيل أن تكون الرواية مجرد أسطورة تقليدية. وهو ما يعني أيضًا أن المصادر المنسوبة لشهود العيان ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك. أقدم منه بمقدار كم سنة؟

بعض أسفار العهد الجديد كُتِبَت في الأربعينيات والخمسينيات، وبعض المصادر من الثلاثينيات (عقب موت يسوع بسنوات قليلة): على قدر يقيننا بخصوص تاريخ سجلات لوقا، فما من باحث، بما فيهم أكثر الباحثين ليبراليةً، يشك أن بولس كتب رسالته الأولى إلى كنيسة كورنثوس (التي تقع في اليونان الحالية) بين عامي ٥٥ و٥٦. ويتحدث بولس في هذه الرسالة عن مشكلات أخلاقية في الكنيسة، ثم ينتقل إلى مناقشة خلافات حول الألسنة والنبوات وعشاء الرب. وهو ما يبين طبعًا أن كنيسة كورنثوس كانت تختبر نوعًا من النشاط المعجزي وكانت تمارس عشاء الرب في غضون ٢٥ سنة من القيامة.

ولكن أهم جانب في هذه الرسالة أنها تحوي أقدم وأصدق شهادة عن القيامة نفسها. ففي الأصحاح الخامس عشر من كورنثوس الأولى، يسجل بولس الشهادة التي تلقاها من الآخرين والشهادة التي تأكَّد صدقها عندما ظهر له المسيح:

> فإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلتُه أنا أيضًا: أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب. وأنه دُفِنَ، وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب. وأنه ظهر لصفا ثم للاثني عشر. وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمس مئة أخ أكثرهم باقٍ إلى الآن ولكن بعضهم قد رقدوا. وبعد ذلك ظهر ليعقوب ثم للرسل أجمعين. وآخر الكل كأنه للسقط ظهر لي أنا (١كورنثوس١٥: ٣- ٨).

مِنْ أين أتى بولس بما "قَبِلَه"؟ محتمل أنه قَبِله من بطرس ويعقوب عندما زارهما في أورشليم بعد تحوله للإيمان بثلاث سنوات (غلاطية١: ١٨). ما أهمية ذلك؟ كما يشير جاري هابرماس *Gary Habermas*، معظم الباحثين (حتى الليبراليين) يعتقدون أن هذه الشهادة كانت جزءًا من قانون إيمان مبكِّر يعود تاريخه إلى القيامة نفسها، أي عقب القيامة بما يتراوح بين ثمانية عشر شهرًا وثماني سنوات، ولكن البعض يقولون إنها أقدم من ذلك.* فمن المستحيل

* معظم الباحثين، إن لم يكن كلهم، يُرجعون أصل هذه المادة إلى ما قبل سنة ٤٠ م. انظر *Gary Habermas, The Historical Jesus (Joplin, Mo.: College Press, 1996),152-157*. انظر أيضًا *Habermas and Licona, Case for the Resurrection of Jesus, forthcoming), chapter 7*.

بأي حال أن تصف هذه الشهادة أسطورة لأنها تعود مباشرةً إلى زمان ومكان الحدث نفسه.* فإن كان هناك مكان **يستحيل** أن تحدث فيه قيامة خيالية أسطورية، فهذا المكان هو أورشليم؛ لأن اليهود والرومان كانوا يتوقون إلى سحق المسيحية وكان يمكنهم أن يفعلوا ذلك بسهولة بأن يطوفوا شوارع المدينة بجسد يسوع.

لاحظ، بالإضافة إلى ذلك أن بولس يستشهد بأربعة عشر شاهد عيان معروفين بالاسم: الرسل الاثني عشر، ويعقوب، وبولس نفسه (''صفا'' هو الترجمة الآرامية لبطرس)، ثم يشير إلى ظهور شهده أكثر من ٥٠٠ آخرين دَفعة واحدة. وكان من بين تلك الجماعات أحد الشكوكيين وهو يعقوب، وعدو لدود هو بولس نفسه. وإذ يعدّد بولس كل هؤلاء الأشخاص الذين يُثبتون ما يقول، يتحدى القراء الكورنثيين للتحقق من كلامه. وهو ما يُعَبِّر عنه وليم ليلي *William Lillie* أستاذ الكتاب المقدس قائلاً:

> ما يجعل من هذه القائمة حجة مرجعية خاصة باعتبارها دليلاً تاريخيًا هو الإشارة إلى أن معظم الخمسمائة أخ باقٍ إلى الآن. وكأن القديس بولس يقول: ''إن كنتم لا تصدقونني، يمكنكم أن تسألوهم''. إن هذا التصريح المذكور في رسالة أصلية دون أدنى شك، كُتِبَت في غضون ثلاثين عامًا عقب الحدث، يمثل أقوى دليل يتمنى المرء الحصول عليه على حدث وقع منذ ما يقرب من ألفي عام.[١٦]

لو أن القيامة لم تحدث، لماذا يسرد بولس قائمة كهذه من شهود عيان افتراضيين؟ لو فعل ذلك لفقد مصداقيته فورًا عند قرائه الكورنثيين بسبب كذبة متبجحة كهذه.

وبالإضافة إلى كورنثوس الأولى، هناك العديد من وثائق العهد الجديد الأخرى التي كُتِبَت في الخمسينيات أو قبلها. غلاطية (٤٨م)، وتسالونيكي الأولى (٥٠- ٥٤)، ورومية (٥٧- ٥٨) تَدخُل كلها ضمن هذه الفئة. والحقيقة (ونحن نعلم أننا قد نكون الآن في موقف خطير وليس أمامنا فرصة للتراجع) أن كل أعمال بولس لا بد أن تكون قد كُتِبَت قبل موته الذي حدث نحو منتصف الستينيات.

ولكن ليس الباحثون المحافظون فقط هم مَنْ يعتقدون في هذه التواريخ المبكرة. بل حتى

* فضلاً عن ذلك، عندما يكتب بولس «فإنني سلمت إليكم»، فهذا يعني أنه يُذَكِّرهم بأنه أعطاهم تلك الشهادة من قبل. فرغم أنه كتب إليهم ربما سنة ٥٦، لا بد أنه قالها لهم شفاهةً في زيارة سابقة له لكورنثوس، ربما سنة ٥١ م. وهو ما يعني أيضًا أن بولس لا بد أنه تسلمها قبل سنة ٥١ أي أن هذه المعلومة كانت موجودة قبل ذلك الوقت.

بعض النقاد الأشداء مثل الملحد چون أ. ت. روبنسون *John A. T. Robinson*، يعترفون أن أسفار العهد الجديد كُتِبَت مبكرًا. ورغم أن روبنسون معروف بالدور الذي لعبه في إطلاق حركة "موت الله" *"Death of God"*، فقد كَتَبَ كتابًا ثوريًا بعنوان "إعادة تأريخ العهد الجديد" *Redating the New Testament* حيث قال بأن معظم أسفار العهد الجديد، بما فيها الأناجيل الأربعة جميعًا، كُتِبَت بين سنة ٤٠ وسنة ٦٥ م.

وعالِم الآثار العظيم والليبرالي السابق وليم ف. أولبرايت *William F. Albright*، بعد أن رأى مدى توافق العهد الجديد مع البيانات الأثرية والتاريخية، كَتَبَ: "يمكننا أن نؤكد فعليًا أنه لم يعُد هناك أي أساس متين لتأريخ أي سفر من أسفار العهد الجديد بعد نحو سنة ٨٠ م".[١٧] وقد قال أولبرايت في مناسبة أخرى "في رأيي كل سفر من أسفار العهد الجديد كتبه أحد اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية بين الأربعينيات والثمانينيات من القرن الأول (غالبًا فيما بين نحو سنة ٥٠ وسنة ٧٥ م)".[١٨]

إذَن نحن نعلم بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن معظم أسفار العهد الجديد، إن لم يكن كلها، ترجع لتاريخ مبكر. إلا أن الشكوكيين ما زالت عندهم بعض الاعتراضات.

محامي الشكوكي

الوثائق ليست مبكرة بما يكفي

بعض الشكوكيين قد يعتقدون أن فجوة زمنية من ١٥ إلى ٤٠ سنة بين حياة المسيح والكتابات التي تتحدث عنه واسعة جدًا بحيث لا نستطيع أن نثق في مصداقية الشهادة. ولكنهم مخطئون.

فكِّر في الأحداث التي وقعت منذ ١٥ إلى ٤٠ عامًا. عندما يكتب المؤرخون عن تلك الأحداث، لا نقول: "هذا مستحيل! لا يستطيع أحد أن يتذكر أحداثًا من هذا الزمن البعيد!" واضح أن هذه الشكوكية لا مبرر لها. فالمؤرخون اليوم يكتبون بدقة عن أحداث وقعت في سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين بالرجوع إلى ذاكرتهم، وذاكرة غيرهم من شهود العيان، وأي مصادر مكتوبة من هذا العصر.

وهي العملية نفسها التي استخدمها كُتَّاب العهد الجديد لتسجيل وثائقهم. فلوقا أجرى

حوارات مع شهود عيان، مثل أي صحفي ماهر.* وكما سنرى في الفصل التالي، بعض كُتَّاب العهد الجديد كانوا هم أنفسهم شهود عيان. ومن ثم تمكنوا أن يتذكروا أحداثًا عمرها ١٥ إلى ٤٠ سنة بسهولة شديدة، مثلك تمامًا. لماذا تستطيع أن تتذكر جيدًا أحداثًا معينة منذ ١٥ إلى ٤٠ سنة، بل أكثر (إن كنت أكبر سنًا)؟ قد تستطيع أن تتذكر أحداثًا معينة لأنها تركت فيك أثرًا نفسيًا كبيرًا. (الحقيقة أن كبار السن منا يستطيعون أن يتذكروا بعض الأحداث منذ ٣٠ سنة أفضل مما يتذكرون أحداثًا منذ ٣٠ دقيقة).

أين كنتَ وماذا كنت تفعل عندما اغتيل الرئيس كنيدي؟ عندما انفجر المكوك الفضائي تشالنچر *Challenger*؟ عندما صَدَمَت الطائرة الثانية البرج؟ لماذا تقدر أن تتذكر تلك الأحداث جيدًا؟ لأنها تركت فيك أثرًا نفسيًا عميقًا. وبما أنه من المؤكد أن حدثًا مثل القيامة ترك أثرًا نفسيًا عميقًا في كُتَّاب العهد الجديد وغيرهم من شهود العيان الذين ربما استشارهم الكُتَّاب. إذَن مِنَ السهل أن نفهم لماذا يمكن تذكر تاريخ يسوع بسهولة بعد سنوات كثيرة، خاصةً في ثقافة اعتمدت لزمن طويل على الشهادة الشفهية (مزيد حول هذا الموضوع أدناه).

علاوة على ذلك، إن كانت الأعمال الكبرى في العهد الجديد عبارة عن روايات شهود عيان كُتِبَت في غضون جيلين من وقوع الأحداث، إذَن ليس من المحتمل أن تكون حكايات أسطورية. لماذا؟ لأن البحث التاريخي يبين أن الأسطورة لا تقوى على إزاحة الحقائق التاريخية طالما شهود العيان باقون على قيد الحياة. ولذلك، يصف المؤرخ الروماني أ. ن. شروين-وايت *A. N. Sherwin-White* المنظور الأسطوري للعهد الجديد بأنه "غير قابل للتصديق".[١٩] ويكتب وليم لين كريج قائلاً "تُبينَ الاختبارات أن جيلين وقت قصير جدًا لا يسمح للميول الأسطورية أن تكتسح جوهر الحقيقة التاريخية الصلب".[٢٠] ففي هذين الجيلين، لا يزال شهود العيان أحياء مما يمكِّنهم من تصحيح أخطاء المحرفين التاريخيين.

ونحن نرى هذا الميل حاليًا بخصوص الهولوكوست. ففي مطلع القرن الحادي والعشرين بدأنا نرى البعض يزعمون أن الهولوكوست لم يحدث مطلقًا. لماذا يحاول المحرِّفون أن يقولوا ذلك الآن؟ لأن معظم شهود العيان ماتوا. ولكن لحسن الحظ أننا سجلنا شهادة شهود العيان

---

* إن كان لوقا قد تحاور فعلاً مع شهود عيان كما يزعم، إذَن إنجيله يحوي شهادة شهود عيان مبكرة يجب أن نثق بها كما لو كان لوقا قد شهد الأحداث بنفسه. فشهادة شهود العيان تُعتبَر مادة من مصدر أساسي حتى لو سُجِّلَت فيما بعد على يد شخص آخر.

عن الهولوكوست كتابةً، وبذلك لم ينجح المحرفون في نشر أكاذيبهم على أنها الحقيقة. وهو ما ينطبق على العهد الجديد. إن كان العهد الجديد قد كُتِب خلال ٦٠ سنة من الأحداث التي يسجِّلها، فمن المستبعد تمامًا أن تكون تلك الأحداث أسطورية. وكما رأينا، كل وثائق العهد الجديد كُتِبَت في خلال ٦٠ سنة من الأحداث، والكثير منها كُتِب قبل ذلك بكثير.

لماذا لم تُكتب قبل ذلك؟

وهنا قد يقول الشكوكي: "جميل. العهد الجديد يرجع لتاريخ مبكر، ولكنه ليس مبكرًا كما كنت أتوقع. فلماذا لم يكتبوا شهادتهم قبل ذلك؟ لو رأيتُ ما يقولون إنهم رأوه، لما انتظرتُ ١٥ أو ٢٠ سنة حتى أُدَوِّنه".

هناك عدد من الأسباب المحتملة للانتظار.

أولاً، بما أن كُتَّاب العهد الجديد كانوا يعيشون في ثقافة الغالبية العظمى من أهلها أُميّون، لم تظهر حاجة ولا فائدة في البداية لتدوين الأحداث. فأهل فلسطين في القرن الأول تَدَّربوا بالضرورة على تقوية ذاكرتهم حتى يتذكروا المعلومات وينقلوها. وفي هذا الصدد يكتب كريج:

> في ثقافة شفهية مثل ثقافة فلسطين في القرن الأول كانت القدرة على حفظ واختزان كميات ضخمة من التقليد الشفهي مهارة قوية جدًا وتحظى بتقدير كبير. فمنذ الصغر كان الأطفال في البيت، والمدرسة الابتدائية، والمجمع يتعلمون أن يحفظوا التقليد المقدس بأمانة. وهو ما فعله التلاميذ مع تعاليم يسوع.[٢١]

وفي مثل هذه الثقافة الشفهية، من المتوقع أن الحقائق المختصة بيسوع حُفِظَت في قالب يسهل تذكره. ولدينا من الأدلة القوية ما يؤكِّد ذلك. فقد رصد جاري هابرماس واحدًا وأربعين جزءًا صغيرًا في العهد الجديد يبدو أنها إقرارات إيمان، أي مقولات موجزة يسهل تذكرها، وأغلب الظن أنها كانت تُتداوَل شفهيًا قبل أن تُدَوَّن (ومنها ما ذكرناه آنفًا في ١كورنثوس١٥: ٣- ٨).[٢٢]

ثانيًا، حيث إنه غالبًا أن بعض كُتَّاب العهد الجديد كانوا يأملون آمالاً كبيرة في أن يسوع سيأتي ثانية في حياتهم، لم يروا حاجة مُلِحَّة لكتابة أسفار العهد الجديد. ولكنهم عندما بدؤوا يتقدمون في العمر، ربما رأوا أنه من الحكمة أن يدونوا ملاحظاتهم على البردي.

ثالثًا، عندما أخذت المسيحية تنتشر في أنحاء العالم القديم، أصبحت الكتابة أكثر الوسائل فاعلية في التواصل مع الكنيسة التي كانت تمتد سريعًا. وهو ما يعني أن الزمن والمسافة أجبرا كُتَّاب العهد الجديد على كتابته.

ومن ناحية أخرى، من المحتمل أنه لم تكن هناك فجوة زمنية في حالة إنجيل واحد على الأقل. فإن كانت تلك القصاصات التي عُثِر عليها في مخطوطات البحر الميت فعلاً من إنجيل مرقس (والاحتمال الأكبر أنها كذلك)، إذَن من المحتمل أن ذلك الإنجيل كُتِبَ في الثلاثينيات. لماذا؟ لأن القصاصات عبارة عن أجزاء من نُسَخ، وليست من الأصل. فإن كان عندنا نسخ من الخمسينيات، إذَن لا بد أن الأصل أقدم.*

فضلاً عن ذلك، يعتقد الكثير من الدارسين أنه كانت هناك مصادر مكتوبة قبل الأناجيل. ففي الحقيقة لوقا في الأعداد الأربعة الأولى من إنجيله يقول إنه رجع لمصادر أخرى، وإن كان من المحتمل أن بعضها أناجيل أسبق (مثلاً متى ومرقس).† فهل كان إنجيل مرقس أحد مصادره؟ لسنا نعلم على وجه اليقين. ولكن من المؤكد أن لوقا يتحدث عن **عدة** مصادر أخرى **مكتوبة**، لأنه يقول «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا» (لوقا١: ١). فمن المحتمل أن لوقا رجع إلى إنجيل مرقس وغيره من الشهادات المكتوبة بما فيها سجلات المحكمة العامة المختصة بمحاكمة يسوع.

وفي النهاية، ليس المهم ما إذا كانت هناك مصادر مكتوبة تسبق العهد الجديد. ولا المهم ما إذا كان مرقس قد كُتِب في الثلاثينيات من القرن الأول. لماذا؟ لأن الوثائق المعروفة لدينا على وجه اليقين ترجع لتاريخ مبكر بما يكفي وتحتوي على مادة من مصادر مبكرة. وكما سنرى في الفصل التالي، الكثير من وثائق العهد الجديد إن لم يكن كلها كُتبَت بيد شهود عيان أو معاصريهم في خلال ١٥ إلى ٤٠ سنة من حياة يسوع، وبعضها يتضمن شهادات أخرى

---

* يعتقد بعض الدارسين بوجود دليل عرَضي آخر على أن مرقس كُتِب في الثلاثينيات. فمرقس يذكر رئيس الكهنة خمس مرات ولكنه لا يذكر اسمه. ولكن الأناجيل الثلاثة الأخرى تذكر أن اسمه قيافا. فلماذا لا يذكره مرقس بالاسم؟ ربما لأن قيافا كان رئيس الكهنة أثناء كتابة مرقس لإنجيله، لذا لم تكن هناك ضرورة لذكر اسمه. إن كان ذلك صحيحًا، إذَن مرقس كُتِب قبل سنة ٣٧ م لأن هذا هو وقت انتهاء رئاسته للكهنوت (يوسيفوس، الآثار، ١٨: ٤,٣).

† يعتقد بعض الدارسين أن كُتَّاب العهد الجديد استخدموا سجلات مكتوبة تسبق الأناجيل. ويبدو أن لوقا١: ١ يؤكد ذلك. إلا أن الكثير من الباحثين الليبراليين يرجحون أن الأناجيل ليست روايات شهود عيان ولكنها اشتُقَت من مصدر لم يُكتشف بعد يُعرف باسم "*Q*". ولكننا سنرى في الفصل القادم ما يؤكد أن كتبة العهد الجديد كانوا بالفعل شهود عيان. للاطلاع على تحليل نقدي مهم للنقد الكتابي وفكرة وجود مصدر "*Q*" اقتَبَسَ منه كُتَّاب العهد الجديد. راجع هذا الكتاب بقلم إتا لينمان *Eta Linnemann* أحد مؤيدي المصدر "*Q*" سابقًا *Eta Linnemann, Biblical Criticism on Trial (Grand Rapids, Mich.: Kregel, 2001)*. انظر أيضًا *Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 618-621*.

مكتوبة أو شفهية تعود إلى تاريخ القيامة نفسها. أي أن **القضية الأهم ليست تاريخ الكتابات، بل تاريخ المصادر المستخدمة في الكتابات.**

لماذا لا نجد وثائق أكثر؟

قد يتساءل الشكوكيون: "إن كان يسوع قد قام حقـًا من الأموات، أما كان يجب أن يُكتَب عنه أكثر من ذلك؟" وردًا على ذلك نقول إن عندنا بالفعل شهادات **أكثر** مما نتوقع، ومؤكد أنها أكثر من كافية لتأكيد ما حدث بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي. وكما رأينا، عدد الكُتَّاب الذين يشيرون إلى يسوع يتجاوز بكثير عدد الكُتَّاب الذين يشيرون إلى **الإمبراطور** الروماني في عصره (الكُتَّاب الذين أشاروا إلى يسوع ٤٣ مقابل ١٠ أشاروا إلى طيباريوس في غضون ١٥٠ سنة من حياتهما). وتسعة من أولئك الكُتَّاب كانوا شهود عيان أو معاصرين للأحداث، وقد كتبوا ٢٧ وثيقة، ومعظمها تَذكُر القيامة صراحة أو ضمنـًا. وهو أكثر من كافٍ لتأكيد تاريخية يسوع.

أما للذين ما زالوا يعتقدون أنه كان يجب أن يوجد المزيد من الوثائق المكتوبة عن يسوع، يقدم أستاذ العهد الجديد كريج بلومبرج أربعة أسباب تبين عدم منطقية هذا التوقع: ١) البدايات المتواضعة للمسيحية. ٢) موقع فلسطين النائي على الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية. ٣) ضآلة أعمال المؤرخين اليونانيين الرومان القدماء التي ظلت باقية (وقد يرجع ذلك إلى الفقد، أو الفناء، أو التدمير، أو كل ما سبق). ٤) قلة اهتمام الوثائق التاريخية الباقية بالشخصيات اليهودية عمومًا.[٢٣]

ومع ذلك، لا يزال بعض الشكوكيين يعتقدون أنه يجب أن تكون هناك شهادة من الخمسمائة الذين يقال إنهم رأوا المسيح المُقام. ومنهم الشكوكي فارل تيل *Farrell Till*. فأثناء مناظرة عن القيامة كانت لي (أنا نورم) معه سنة ١٩٩٤، طالبني قائلاً: "اعرض لنا شهود العيان الخمسمائة أولئك أو أعطِنا شيئـًا كتبوه، وسنقبل ذلك باعتباره برهانـًا أو دليلاً صادقـًا".[٢٤]

إنه مطلب غير منطقي لعدة أسباب. أولاً، كما أشرنا سابقـًا، فلسطين في القرن الأول كانت ثقافة شفهية. فمعظم السكان كانوا أميين وكانوا يتذكرون المعلومات وينقلونها شفهيًا.

ثانيًا، كم من شهود العيان أولئك الذين كان معظمهم من الأميين كان سيكتب شيئـًا حتى إن كان قادرًا على الكتابة؟ وحتى اليوم، مع ارتفاع نسبة القراءة والكتابة وكل وسائل الكتابة الحديثة وأدوات البحث اليسيرة، كم شخصًا تعرفه كَتَبَ كتابًا أو حتى مقالاً في أي موضوع؟

كم شخصًا تعرفه كَتَبَ كتابًا أو مقالاً في أي حدث تاريخي معاصر، حتى وإن كان حدثًا جللاً مثل ١١ سبتمبر؟ غالبًا ليسوا كثيرين، ومؤكد أنهم أقل من ١ من ٥٠٠. (هل كَتَبَ فارل تيل طيلة حياته مقالاً في حدث تاريخي كبير شَهِدَه؟)

ثالثًا، حتى إن كان بعض هؤلاء الخمسمائة شخص العاديين قد كتبوا ما رأوا، لماذا يتوقع الشكوكيون أن تبقى شهاداتهم لمدة ٢٠٠٠ سنة؟ العهد الجديد ظل باقيًا بفضل آلاف المخطوطات التي نسخها الكتبة للكنيسة النامية على مر القرون. فالمؤلفات التاريخية لأعظم المؤرخين القدماء مثل يوسيفوس، وتاسيتس، وپلينيوس لم يبقَ منها إلا حفنة من النسخ، وتلك النسخ أحدث من الأصول بمئات السنين. فلماذا يظن الشكوكيون أن مجموعة من الفلاحين الجليليين الأميين القدماء يجب أن تكتب أي شيء، ناهيك عن أن يظل هذا الشيء باقيًا؟*

وأخيرًا، نحن نعلم على وجه اليقين أسماء الكثير من الخمسمائة، وشهادتهم مسجلة في العهد الجديد. فمنهم متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، وبطرس، وبولس، ويعقوب، بالإضافة إلى تسعة مذكورين بالاسم في مواضع أخرى بصفتهم رسلاً (متى١٠، أعمال١).

إذَن يجب ألا نتوقع شهادة أكثر مما عندنا عن يسوع. وما عندنا أكثر من كافٍ لإثبات تاريخيته.

الملخص والخلاصة

لدينا أمور أكثر من ذلك بكثير يجب فحصها بخصوص تاريخية العهد الجديد. ولكن يمكننا حتى الآن أن نتوصل إلى استنتاجين رئيسيين:

١- لدينا نسخة دقيقة من وثائق العهد الجديد الأصلية:

أ) رغم أن وثائق العهد الجديد الأصلية ليست باقية، أو لم تُكتشَف حتى الآن، فلدينا نسخ وفيرة ودقيقة من وثائق العهد الجديد الأصلية، أكثر بكثير من النسخ الباقية لأفضل عشرة أعمال مجتمعة من الكتابات القديمة. إضافةً إلى ذلك، يمكن إعادة

* على سبيل المصادفة أنه بالرغم من عدم وجود وثائق من الخمسمائة شخص، فإدراجهم مع شهود العيان الأربعة عشر المذكورين بالاسم يجعل رؤيتهم للمسيح المُقام ليس اختراعًا من بولس. وسنناقشُ ذلك بمزيد من التفصيل في الفصل العاشر.

إنشاء الأصول بدقة تكاد تكون تامة وذلك عن طريق مقارنة آلاف النسخ من المخطوطات التي لا تزال باقية. وقد اكتشفنا قصاصات من المخطوطات ترجع إلى مطلع القرن الثاني وربما إلى منتصف القرن الأول. **وليس هناك أي** من كتابات العالم القديم يقترب من العهد الجديد من حيث قوة تأييد المخطوطات.

ب) تتأكد صحة إعادة الإنشاء بعنصر آخر، ألا وهو آلاف الاقتباسات في كتابات آباء الكنيسة الأوائل. والحقيقة أن العهد الجديد كله، فيما عدا إحدى عشرة آية، يمكن إعادة إنشائه من اقتباساتهم منه فقط.

٢- وثائق العهد الجديد مبكِّرة وتحتوي على مادة من مصادر أسبق:

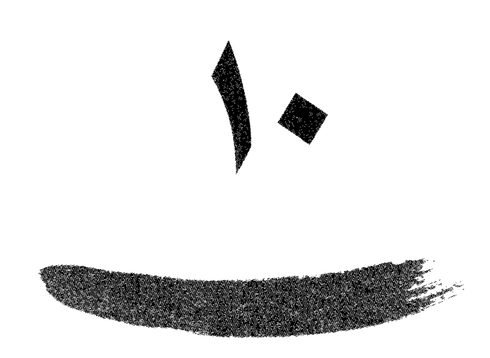
أ) بما أن كُتَّابًا آخرين استشهدوا بوثائق العهد الجديد قبل حوالي سنة ١٠٠ م، إذَن مؤكد أن هذه الوثائقَ كُتِبت قبل ذلك.

ب) بما أن وثائق العهد الجديد تتحدث عن الهيكل والمدينة على أنهما ما زالا باقيين في زمن الكتابة، وليس هناك ذِكر لاندلاع الحرب اليهودية ولا لتدمير الهيكل وأورشليم، إذَن الاحتمال الأكبر أن معظم وثائق العهد الجديد كُتِبَت قبل سنة ٧٠ م.

ج) لدينا أدلة قوية جدًا على أن سفر الأعمال كُتِب سنة ٦٢ على أقصى تقدير، وهو ما يعني أن إنجيل لوقا أقدم.

د) لدينا مواد من مصادر يرجع تاريخها إلى الثلاثينيات. وكل المتخصصين تقريبًا يتفقون على أن الشهادة الواردة في ١كورنثوس١٥ عن موت يسوع ودفنه وقيامته ترجع إلى زمن تلك الأحداث أو في غضون بضع سنوات من وقوعها. بالإضافة إلى ذلك، هناك ما لا يقل عن ٤٠ إقرارًا آخر في العهد الجديد يبدو أن أصلها يرجع إلى تاريخ مبكر جدًا.

إذَن الوثائق من تاريخ مبكر والمصادر أسبق منها. ولكن هذا لا يكفي لإثبات التاريخية بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي. ولإثبات التاريخية علينا أن نتأكد أن هذه الوثائق تحوي فعلاً شهادة **شهود عيان**. فهل هذا هو الحال؟ هذا هو السؤال الذي سنبحثه فيما يلي.



هل لدينا شهادة شهود عيان عن يسوع؟

«لأننا لم نتبع خرافات مصنعة، إذ عرّفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه. بل قد كنا معاينين عظمته».

سمعان بطرس

لقد رأينا أدلة قوية على أن وثائق العهد الجديد مبكرة، وهي بذلك تجتاز الاختبار التاريخي #١. ولكن ماذا عن الاختبار التاريخي #٢؟ هل وثائق العهد الجديد تحتوي على شهادة شهود عيان؟ لنبدأ بإلقاء نظرة على مزاعم شهود العيان من كُتَّاب العهد الجديد.

إن قبِلْتَ القراءة المباشرة للنص، فمؤكَّد أن العهد الجديد يتضمن شهادة شهود عيان. لاحظ كم مرة يزعم مخْتَلَف الرسل أنهم شهود عيان:

فيسوع هذا أقامه الله، **ونحن جميعًا شهود** لذلك (أعمال٢: ٣٢).

ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات، **ونحن شهود** لذلك (أعمال٣: ١٥).

فدعوهما وأوصوهما أن لا ينطقا البتة، ولا يُعَلِّما باسم يسوع. فأجابهم [الحكام، والشيوخ، ومعلمي الناموس] بطرسُ ويوحنا وقالا: "إن كان حقًا أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله، فاحكموا. لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم **بما رأينا وسمعنا**" (أعمال٤: ١٨- ٢٠).

إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلِّقين إياه على خشبة. هذا رفَّعه الله بيمينه رئيسًا ومخلصًا، ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا. **ونحن شهود** له بهذه الأمور، والروح القدس أيضًا، الذي أعطاه الله للذين يطيعونه (أعمال٥: ٣٠-٣٢).

ونحن شهود بكل ما فعل في كورة اليهودية وفي أورشليم. الذي أيضا قتلوه معلِّقين إياه على خشبة. هذا أقامه الله في اليوم الثالث، وأُعطى أن يصير ظاهرًا (أعمال١٠: ٣٩، ٤٠).

... المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب. وأنه دفن وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب. وأنه **ظهر** لصفا ثم للاثني عشر. وبعد ذلك **ظهر** دفعة واحدة لأكثر من خمس مئة أخ أكثرهم باق إلى الآن ولكن بعضهم قد رقدوا. وبعد ذلك **ظهر** ليعقوب ثم للرسل أجمعين. وآخر الكل كأنه للسقط **ظهر** لي أنا (١كورنثوس١٥: ٣- ٨).

أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، **والشاهد** لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يُعلَن (١بطرس٥: ١).

لأننا لم نتبع خرافات مصنّعة، إذ عرَّفْناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا **معاينين** عظمته (٢بطرس١: ١٦).

وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه، لأنهم رأوه قد مات. لكنَّ واحدًا من العسكر طعن جنبه بحربة، وللوقت خرج دم وماء. والذي **عاين** شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم (يوحنا١٩: ٣٣- ٣٥).

أما توما، أحد الاثني عشر، الذي يقال له التوأم، فلم يكن معهم حين جاء يسوع. فقال له التلاميذ الآخرون:«**قد رأينا الرب!**». فقال لهم:«إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه، لا أومن». وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضا داخلاً وتوما معهم. فجاء يسوع والأبواب مُغلـَّقة، ووقف في الوسط وقال: «سلام لكم!» ثم قال لتوما: «**هات إصبعك إلى هنا وأبصر يديَّ، وهات يدك وضعها في جنبي**، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمنـًا». أجاب توما وقال له: «ربي وإلهي!» قال له يسوع: «**لأنك رأيتني** يا توما آمنت! طوبى للذين آمنوا ولم يروا». **وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه** لم تُكتـَب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كـُتبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابنُ الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه (يوحنا٢٠: ٢٤- ٣٠).

> الذي كان من البدء، **الذي** سمعناه، **الذي** رأيناه بعيوننا، **الذي** شاهدناه، **ولمسته أيدينا**، من جهة كلمة الحياة. فإن الحياة أُظهِرَت، **وقد رأينا** ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب **وأُظهِرَت لنا** (١يوحنا١: ١، ٢).

إن الانطباع الذي يتكون عندك هو أن هؤلاء الرجال أرادوا أن يعرف الجميع أنهم رأوا شيئًا بالفعل، أليس كذلك؟ إضافةً إلى ذلك، لوقا وكاتب العبرانيين يزعمان أنهما جمعا معلوماتهما من شهود عيان:

> إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء **معاينين** وخدامًا للكلمة (لوقا١: ١، ٢).

> فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصًا هذا مقداره، قد ابتدأ الرب بالتكلم به، ثم **تَثبَّت لنا من الذين سمعوا**، شاهدًا الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوعة ومواهب الروح القدس، حسب إرادته؟ (عبرانيين٢: ٣، ٤)

باختصار بطرس وبولس ويوحنا يزعمون جميعًا أنهم شهود عيان، ولوقا وكاتب العبرانيين يزعمان أنهما حصلا على معلوماتهما من شهود عيان. علاوة على ذلك، كُتَّاب العهد الجديد يذكرون آخرين بالاسم رأوا القيامة. فبولس يذكر ١٤ شخصًا بالتحديد معروفين بالاسم بصفتهم شهود عيان للقيامة (الرسل الاثني عشر، ويعقوب، وبولس نفسه) ويزعم أنه كان هناك أكثر من ٥٠٠ آخرين. ويؤكد كلٌّ من متى ولوقا الظهورات التي شهدها الرسل. والأناجيل الأربعة جميعًا تذكر النساء بصفتهن شهودًا، ومرقس يذكر بالتحديد أنهن مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب، وسالومة. ولوقا يضيف يُوَنَّا. فهؤلاء أربعة أُخَر. ويكشف أعمال١ أيضًا أن يوسف الذي يدعى بارسابا كان شاهد عيان (أعمال١: ٢٣).

والرسل لا يكتفون بأن يزعموا أنهم شهود عيان، ولكنهم يخبرون قُرَّاءهم في عدة مناسبات أن الجميع يعرفون أن ما يقولونه حق. فهذه ليست تعليقات عابرة بل تصريحات جريئة أمام أناسٍ ذوي سلطة.

ولعل أكثر التصريحات جرأةً هو الذي يصرح به بولس في محاكمته أمام أغريباس الملك وفستوس الوالي. فما إن يبدأ بولس بإخبار كلٍّ من أغريباس وفستوس عن سبب تحوله إلى المسيحية وكيف أن المسيح قام من الأموات حسب نبوات العهد القديم، حتى يقاطعه فستوس فجأة ويصفه بالجنون! ويسجل لوقا هذا الحوار الساخن في أعمال٢٦: ٢٤-٢٨:

وبينما هو يحتج بهذا قال فستوس بصوت عظيم: «أنت تهذي يا بولس! الكتب الكثيرة تحولك إلى الهذيان».

فقال: «لست أهذي أيها العزيز فستوس بل أنطق بكلمات الصدق والصحو. لأنه من جهة هذه الأمور عالِم المَلِك الذي أكلمه جهارًا إذ أنا لست أصدق أن يخفى عليه شيء من ذلك لأن هذا لم يُفعل في زاوية. أتؤمن أيها الملك أغريباس بالأنبياء؟ أنا أعلم أنك تؤمن».

فقال أغريباس لبولس: «بقليل تقنعني أن أصير مسيحيًا».

أتَرى مدى شجاعة بولس التي قد تصل إلى درجة التحدي؟ فهو لا يقدم شهادة جريئة فحسب للملك وللوالي، ولكنه يملك من الشجاعة ما يجعله يقول للملك إنه يعرف أن بولس يقول الحق! ما الذي يجعل بولس واثقًا إلى هذا الحد؟ لأن أحداث المسيحية لم تُفعل "في زاوية". ولكنها كانت معروفة للجميع ومؤكَّد أنها لم تخفَ على الملك. تخيَّل متهمًا يتحدى حاكمًا أو قاضيًا على هذا النحو! لا شك أن هذا الشاهد يعرف أن الأحداث التي يصفها معروفة جيدًا.

وقد اتبع هذا المنهجَ الاستفزازيَّ عددٌ من شخصيات العهد الجديد الذين لم يستحوا من تحدي مستمعيهم أن يتحققوا من صحة شهادتهم. فمثلاً، سائر الرسل بقيادة بطرس يُظهرون هذا التحدي والثقة أمام استجواب السلطات اليهودية الغاضبة. ويسجل لوقا الواقعة في أعمال٥: ٢٧- ٣٢:

فلما أحضروهم أوقفوهم في المجمع. فسألهم رئيس الكهنة: «أما أوصيناكم وصية أن لا تُعَلِّموا بهذا الاسم؟ وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان».

فأجاب بطرس والرسل: «ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس. إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلِّقين إياه على خشبة. هذا رفَّعه الله بيمينه رئيسًا ومخلصًا ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا. ونحن شهود له بهذه الأمور والروح القدس أيضًا الذي أعطاه الله للذين يطيعونه».

وتستطرد الرواية قائلة إن السلطات اليهودية حنقت وبدأت تتشاور على قتل الرسل، إلا أن أحد الفريسيين المكرَّمين واسمه غمالائيل أثناهم عن هذه الفكرة.

إن المخاطرةَ التي اتخذها كلٌّ من بولس وبطرس وغيرهما من الرسل عندما زعموا أنهم

يقدِّمون شهادة شهود عيان، تبينٌ بكل تأكيد أنهم كانوا يقولون الحق. فإن صَحَّت هذه الروايات، فإن شهادة الرسل الصلبة وتحدياتهم الاستفزازية تبين أنهم كانوا شهود عيان آمنوا فعلاً أن يسوع قام من الأموات.

ولكن هل هذه الروايات صحيحة؟ فمهما كان، ما الذي يجعلنا نثق في أن لوقا يقول الحق بشأن هذه الأحداث؟ فالزعم بأنك شاهد عيان، أو أن عندك شهادة شاهد عيان شيء، وإثباته شيء آخر. ما الأدلة المتوفرة عندنا على أن كُتَّاب العهد الجديد كانوا فعلاً شهود عيان أو كانوا يعرفون شهادات شهود عيان؟ أكثر كثيرًا مما تظن.

هل كانوا حقًا شهود عيان؟

أدلة على شهادة العيان: لوقا

هَبْ أن شخصًا كَتَبَ كتابًا سنة ١٩٨٠ يصف مدينتك الأم كما كانت في تلك السنة. والكاتب يقدِّم في كتابه أوصافًا صحيحة عن: ساسة مدينتك، وقوانينها الخاصة وقانون عقوبتها، وصناعتها المحلية، وأنماط الطقس فيها، ولغتها الدارجة، وطرقها وجغرافيتها، وتضاريسها المميَّزة، ودُور عبادتها، وفنادقها، وتماثيلها ومنحوتاتها، وعمق المياه في مينائها، والعديد غير ذلك من التفاصيل الخاصة عن مدينتك في تلك السنة. سؤال: إن زعم الكاتب أنه زار مدينتك في ذلك العام، أو قال إنه حصل على معلومات جيدة من أناس كانوا هناك، فهل تظن أنه يقول الحقيقة؟ طبعًا، لأنه يقدّم تفاصيل لا يستطيع أن يقدِّمها إلا شاهد عيان. وهذا هو نوع الشهادة التي نجدها في جزء كبير من العهد الجديد.

ويذكر لوقا معظم التفاصيل التي لا تُتاح إلا لشاهد عيان. (رغم أن لوقا ربما لم يكن شاهد عيان للقيامة نفسها، مؤكّد أنه كان شاهد عيان للكثير من أحداث العهد الجديد). مثلاً في النصف الثاني من سفر الأعمال يُظهِر لوقا قدرًا مذهلاً من المعرفة بأماكن، وأسماء، وظروف بيئية، وعادات وظروف محلية، لا تأتي إلا من شاهد عيان معاصر للزمان والأحداث.

ويتتبَّع المؤرخ والمتخصّص في اليونانية واللاتينية القديمة، كولين هِمر، دقة لوقا في سفر الأعمال آية آية. ويرصد بالتفصيل الدقيق ٨٤ حقيقة في الستة عشر أصحاحًا الأخيرة من السفر تأكَّدت صحتها بالبحث التاريخي والأثري.[١] وأثناء قراءتك للقائمة التالية تَذَكَّر أن لوقا لم يكن

عنده خرائط ولا رسوم بحرية كالتي نعرفها في العصر الحديث. إلا أن لوقا يسجل بدقة* :

١- المَعبَر الطبيعي بين ميناءين مذكورين باسميهما الصحيحين (أعمال١٣: ٤، ٥)
٢- الميناء الصحيح (برجة) على الطريق إلى الوجهة المباشِرة لسفينة تبحر من قبرص (١٣: ١٣)
٣- الموقع الصحيح لليكأونية (١٤: ٦)
٤- التصريف غير المعتاد ولكنه صحيح للاسم لسترة (١٤: ٦)
٥- اللغة الصحيحة التي يتحدثها أهل لسترة: ليكأونية (١٤: ١١)
٦- إلَهين معروفين بارتباطهما معًا: زفس وهرمس (١٤: ١٢)
٧- الميناء الصحيح، أتالية، الذي يستخدمه المسافرون في رحلة العودة (١٤: ٢٥)
٨- الترتيب الصحيح للذهاب إلى دربة ثم لسترة من كيليكية (١٦: ١؛ قارن ١٥: ٤١)
٩- الشكل الصحيح للاسم ترواس (١٦: ٨)
١٠- مكان أحد المعالم المعروفة بين البحارة، وهو ساموثراكي (١٦: ١١)
١١- الوصف الصحيح لفيلبي بأنها مستعمرة* رومانية (١٦: ١٢)
١٢- الموقع الصحيح للنهر (جانجايتس *Gangites*) الواقع قرب فيلبي (١٦: ١٣)
١٣- شهرة ثياتيرا بأنها مركز للصباغة (١٦: ١٤)
١٤- الألقاب الصحيحة لحكام *magistrates* المستعمرة (١٦: ٢٢)
١٥- الموقعين الصحيحين (أمفيبوليس وأبولونية) حيث يقضي المسافرون ليالي متتابعة أثناء هذه الرحلة (١٧: ١)
١٦- مجمعًا يهوديًا في تسالونيكي (١٧: ١)
١٧- المصطلح الصحيح ("حكام" *"politarchs"*) لولاة المدينة (١٧: ٦)
١٨- الإشارة الصحيحة إلى أن السفر بالبحر أنسب وسيلة للذهاب إلى أثينا مع الرياح الشرقية المواتية عند الإبحار صيفًا (١٧: ١٤، ١٥)
١٩- كثرة الأصنام في أثينا (١٧: ١٦)

---

* القائمة التالية مقارنة بالنص اليوناني لسفر الأعمال (المحرر)

* "كولونيَّة" حسب ترجمة ثاير، هي نفس الكلمة اليونانية *kolōnia* المشتقة منها كلمة *Colony* الإنجليزية التي تعني "مستعمرة" (*Thayer's Greek Definitions, e-Sword edition*). (المترجمة)

٢٠- الإشارة إلى مجمع يهودي في أثينا (١٧: ١٧)

٢١- تصوير حياة المجادلات الفلسفية الأثينية في السوق *Agora* (١٧: ١٧)

٢٢- الكلمة الدارجة الأثينية الصحيحة لاسم بولس (''مهذار'' *spermologos*، ١٧: ١٨) وكذلك للمحكمة (''أريوس باغوس'' *Areios pagos* ١٧: ١٩)

٢٣- الوصف الصحيح للشخصية الأثينية (١٧: ٢١)

٢٤- مذبحًا ''لإله مجهول'' (١٧: ٢٣)

٢٥- رد الفعل الصحيح للفلاسفة اليونان الذين كانوا ينكرون قيامة الجسد (١٧: ٣٢)

٢٦- ''أريوباغي'' باعتباره اللقب الصحيح لأحد أعضاء المحكمة (١٧: ٣٤)

٢٧- مجمعًا يهوديًا في كورنثوس (١٨: ٤)

٢٨- التسمية الصحيحة لمنصب غاليون، وهي والٍ* *proconsul*، مقيم في كورنثوس (١٨: ١٢)

٢٩- كرسي الولاية *bema* (كرسي القضاء) الذي يطل على ''ملتقى'' *forum* كورنثوس (١٨: ١٦ وما بعده)

٣٠- اسم تيرانس كما يتضح من أفسس في نقوش من القرن الأول (١٩: ٩)

٣١- هياكل وتماثيل مشهورة لأرطاميس (١٩: ٢٤)

٣٢- ''أرطاميس الإلهة العظيمة''، وهي حقيقة ثابتة بالبحث (١٩: ٢٧)

٣٣- أن المسرح† الأفسسي كان مكان اجتماع المدينة (١٩: ٢٩)

٣٤- اللقب الصحيح، ألا وهو ''الكاتب'' *grammateus* لكبير ولاة أفسس (١٩: ٣٥)

٣٥- لقب التكريم الصحيح، ألا وهو ''مُتَعَبِّدة'' *neokoros* الممنوح من السلطات الرومانية (١٩: ٣٥)

---

* ترجمة ڤان دايك تستخدم لقب ''والٍ'' أو منصب ''ولاية'' لترجمة كلمة *stratēgos* اليونانية التي تَرِد في بعض الترجمات الإنجليزية *magistrate* ويستخدمها الكاتبان هنا، وتستخدم لقب ''والٍ'' أيضًا لترجمة كلمة *anthupateuō* التي ترد في بعض الترجمات الإنجليزية *proconsul* وهي أيضًا يستخدمها الكاتبان (*Thayer's Greek Definition, e-Sword edition*). (المترجمة)

† مترجمة في ڤان دايك إلى ''مشهد'' ولكن الكلمة اليونانية هي *theatron* التي اشتُقت منها كلمة *theater* الإنجليزية وتعني ''مسرح'' (*Thayer's Greek Definition, e-Sword edition*). (المترجمة)

٣٦- الاسم الصحيح للإشارة إلى الإلَهة (١٩: ٣٧)*

٣٧- المصطلح الصحيح لمن يفصلون في القضايا (١٩: ٣٨)

٣٨- صيغة الجمع *anthupatoi*، وهي ربما إشارة لافتة للنظر إلى وجود **رَجُلين** يمارسان مهام الولاية معًا آنذاك (١٩: ٣٨)†

٣٩- عبارة المحفل "الشرعي" التي عُثِرَ عليها تحديدًا في موضع آخر خارج العهد الجديد (١٩: ٣٩)

٤٠- نَسَبًا عرقيًا صحيحًا: "البيريّ" *beroiaios* (٢٠: ٤)

٤١- المصطلح العرقي: "من أهل أسيا" *Asianos* (٢٠: ٤)

٤٢- الاعتراف الضمني بالأهمية الاستراتيجية لمدينة ترواس (٢٠: ٧ وما بعده)

٤٣- خطورة الرحلة البرية في هذا الموقع (٢٠: ١٣)

٤٤- التسلسل الصحيح للأماكن (٢٠: ١٤، ١٥)

٤٥- الاسم الصحيح للمدينة على هيئة جمع محايد *neuter plural* ("باتَرا" *Patara*) (٢١: ١)

٤٦- الطريق المناسب الذي يمر بعرض البحر جنوب قبرص نظرًا لهبوب الرياح الشمالية الغربية الدائمة (٢١: ٣)

٤٧- المسافة المناسبة بين هذه المدن (٢١: ٨)

٤٨- ممارسة تعبُّدية خاصة في اليهودية (٢١: ٢٤)

٤٩- حُكم الناموس اليهودي بخصوص استخدام الأمم لمنطقة الهيكل (٢١: ٢٨) (الكشوف الأثرية وأقوال يوسيفوس تؤكد أنه كان من الممكن الحكم على الأمم بالإعدام في حالة دخولهم إلى منطقة الهيكل. فأحد النقوش يقول: "لا يدخل أممي في محيط السور والساحة المحيطة بالقدس. ومَنْ يُضبَط يتحمل مسؤوليته الشخصية في مواجهة عقوبة الإعدام".‡)

* وفقًا للأصل اليوناني. (المترجمة)

† الكلمة في ترجمة ڤان دايك العربية تأتي بصيغة الجمع "ولاة". (المترجمة)

‡ عقوبة الموت كانت تنسحب حتى على الرومان. انظر: *Paul Maier, In the Fullness of Time (Grand Rapids, Mich.: Kregel, 1991), 305*

٥٠- وجود أمير كتيبة *cohort (chiliarch)* بصفة مستمرة في أنطونيا* *Antonia* لقمع أي شغب في مواسم الأعياد (٢١: ٣١)

٥١- الدَّرَج الذي كان يستخدمه الحراس (٢١: ٣١، ٣٥)

٥٢- الطريقة المعتادة للحصول على الجنسية الرومانية في ذلك الوقت (٢٢: ٢٨)

٥٣- احترام المحكمة للجنسية الرومانية لا الجنسية الطرسوسية (٢٢: ٢٩)

٥٤- أن حنانيا رئيس الكهنة آنذاك (٢٣: ٢)

٥٥- أن فيلكس هو الوالي في ذلك الوقت (٢٣: ٢٤)

٥٦- نقطة التوقف الطبيعية على الطريق إلى قيصرية (٢٣: ٣١)

٥٧- دائرة الاختصاص القضائي† التي تتبعها كيليكية في ذلك الوقت (٢٣: ٣٤)

٥٨- الإجراءات الجنائية المحلية المتبعة في ذلك العصر (٢٤: ١- ٩)

٥٩- اسم بوركيوس فستوس، وهو يتطابق تمامًا مع الاسم الذي يذكره يوسيفوس (٢٤: ٢٧)

٦٠- حق المواطنين الرومانيين في الاستئناف (٢٥: ١١)

٦١- الصيغة القانونية الصحيحة (٢٥: ١٨)

٦٢- الشكل المعتاد لإحالة القضية إلى الإمبراطور في ذلك العصر (٢٥: ٢٦)

٦٣- أفضل طرق السفر بالبحر آنذاك (٢٧: ٤)

٦٤- الارتباط الشائع بين كيليكية وبمفيلية(٢٧: ٥)

٦٥- الميناء الرئيسي الذي يمكن أن توجد فيه سفينة مسافرة إلى إيطاليا (٢٧: ٥، ٦)

٦٦- بطء الإبحار إلى كنيدس في مواجهة الرياح الشمالية الغربية المعتادة (٢٧: ٧)

٦٧- طريق الإبحار الصحيح بالنظر إلى اتجاه الرياح (٢٧: ٧)

٦٨- مواقع المواني الحسنة ومدينة لسائية المجاورة (٢٧: ٨)

٦٩- المواني الحسنة باعتبارها ميناءً مفتوحًا لا يصلح للمشتى (٢٧: ١٢)

---

* كانت حصنًا يُسمى باريس *Baris* ولكن هيرودس وَسَّعَه وطوّره ليصبح قلعة فخمة وأسماها أنطونيا تكريمًا لماركوس أنطونيوس وكانت تقع في الزاوية الشمالية الغربية من ساحة الهيكل (*Edward A. Cerny, "ARCHAEOLOGICAL CORNER, The Catholic Biblical Quarterly, vol. 4, no. 3, 1942, pp. 258–261. www.jstor.org/stable/43719664)*. تم الاطلاع عليه بتاريخ ٢٠١٦/١٢/٤ (المترجمة)

† مترجمة في ڤان دايك إلى "ولاية". (المترجمة)

٧٠- الميل الملحوظ للريح الجنوبية في أجواء هذه المناطق أن تغير اتجاهها فجأة إلى ريح زوبعية شمالية شرقية، وهي ريح "أوروكليدون" الشهيرة (٢٧: ١٣)

٧١- طبيعة سفينة قديمة ذات أشرعة مربّعة لا تستطيع أن تواجه الرياح العنيفة، فتُسَلِّم لها (٢٧: ١٥)

٧٢- المكان والاسم الصحيحين لهذه الجزيرة (٢٧: ١٦)

٧٣- المناورات الملائمة لضمان أمان السفينة في هذه المحنة (٢٧: ١٦)

٧٤- الليلة الرابعة عشرة: حساب مذهل، وهو حتمًا مبني على تقديرات واحتمالات مركَّبة، ويؤكّده الملاحون ذوو الخبرة بالبحر المتوسط (٢٧: ٢٧)

٧٥- المصطلح الصحيح الذي كان يطلق آنذاك على البحر الأدرياتي (٢٧: ٢٧)

٧٦- المصطلح الدقيق ("قاسُوا" *Bolisantes*) لتحديد عمق المياه، وعمق المياه الصحيح بالقرب من مالطة (٢٧: ٢٨)

٧٧- الوضع الذي يلائم خط السير المحتمل لحركة سفينة أُطْلِقَت من المرسى لتجري أمام ريح شرقية (٢٧: ٣٩)

٧٨- المسؤولية القانونية الخطيرة على الحرس إذا سمحوا لسجين بالهرب (٢٧: ٤٢)

٧٩- السكان المحلّيين والخرافات المنتشرة بينهم آنذاك (٢٨: ٤- ٦)

٨٠- المنصب الصحيح: "مقدَّم" *protos tēs nēsou* (٢٨: ٧)

٨١- ريغيون باعتبارها ملاذًا لانتظار ريح جنوبية تحملهم عبر المضيق (٢٨: ١٣)

٨٢- الموقع الصحيح لكلٍّ من فورن أبيوس والثلاثة حوانيت باعتبارها نقاط توقف على طريق أبيوس (٢٨: ١٥)

٨٣- الأسلوب الصحيح لوضع السجناء تحت حراسة العسكر الروماني (٢٨: ١٦)

٨٤- ظروف السَّجن، والمعيشة "على نفقته الخاصة" (٢٨: ٣٠، ٣١)

هل من شك أن لوقا كان شاهد عيان لهذه الأحداث أو أنه على الأقل حصل على شهادة شهود عيان صادقة؟ فماذا كان يجب أن يفعل أكثر من ذلك لإثبات صحة كلامه بصفته مؤرخـًا؟

يقول المؤرخ الروماني أ. ن. شروين-وايت: "في حالة سفر الأعمال، يُعَد يقين تاريخيته أمرًا مذهلاً... وأي محاولة الآن لرفض تاريخيته تبدو نوعًا من العبث. فطالما أخذ المؤرخون

الرومان تاريخية هذا السفر أمرًا مسلَّمًا به".[٢] وليم م. رامزي *William M. Ramsay*، العالِم المتخصص في اليونانية واللاتينية القديمة وفي الأثريات، بدأ بحثه في سفر الأعمال بقدر كبير من الشك، ولكن اكتشافاته ساعدته على تغيير موقفه. وقد كتب:

> بدأتُ بتوجه سلبي نحوه [سفر الأعمال]... لم يكن جزءًا من حياتي آنذاك أن أفحص الموضوع بدقة، ولكني مؤخرًا وجدت نفسي غالبًا ما أتعامل مع سفر الأعمال بصفته حجة في تضاريس آسيا الصغرى وآثارها ومجتمعها. وبالتدريج أدركت أن الرواية صحيحة بشكل مدهش في الكثير من التفاصيل المختلفة.[٣]

حقـًا، إن دقة لوقا في سفر الأعمال مذهلة فعلاً.

ولكن هنا سيشعر الشكوكيون بقدر كبير من عدم الارتياح. وذلك لأن لوقا يسجل ٣٥ معجزة في نفس السفر الذي يسجل فيه هذه التفاصيل الأربعة والثمانين الثابتة تاريخيًا.[٤] فهو يسجل عدة معجزات لبولس في النصف الثاني من السفر. ومنها أن بولس ضرب ساحرًا بالعمى المؤقت (١٣: ١١)، وشفى رجلاً مُقعَدًا من بطن أمه (١٤: ٨)، وأخرج روحًا شريرًا من فتاة (١٦: ١٨)، وقد "صنع معجزات كثيرة" أقنعت الكثيرين في مدينة أفسس بالتحول من السحر إلى يسوع (١٩: ١١- ٢٠)، وأقام رجلاً من الموت إثر سقوطه من كوة بينما أطال بولس العظة (٢٠: ٩، ١٠)، وشفى أبا بوبليوس من الدوسنتاريا، وشفى العديد من المرضى الآخرين على جزيرة مالطة (٢٨: ٨، ٩). كل هذه المعجزات متضمّنة في نفس السردية التاريخية التي تأكدت صحتها في ٨٤ نقطة. وروايات المعجزات لا تنم عن أي محاولة لتجميل الحقائق أو الإضافة عليها، ولكنها تـُروى بنفس الكفاءة المتزنة التي تميّز سائر السردية التاريخية.

فلماذا يتحرى لوقا كل هذه الدقة في تفاصيل ثانوية مثل اتجاهات الرياح، وأعماق المياه، وأسماء المدن الغريبة، ولا يتحرى الدقة في أحداث مهمة مثل المعجزات؟ في ضوء ما أظهره لوقا من دقة في العديد من التفاصيل الثانوية، فالقول بأنه لا يقول الحقيقة بخصوص ما يسجِّله من معجزات ليس سوى تحيُّز صِرف ضد ما هو فوق طبيعي. وكما رأينا، هذا التحيز غير مشروع. إنه عالم خَلَقَه الله، إذَن حدوث المعجزات فيه أمر وارد. ومن ثم تصديق ما يسجِّله لوقا من معجزات أكثر منطقية من رفضها. وهو ما يعني أن مؤهلات لوقا بصفته مؤرخـًا تبرهنت في الكثير من النقاط حتى إن **عدم** تصديق رواياته عن المعجزات يتطلب إيمانـًا أكثر مما يتطلبه تصديقها.

هل إنجيل لوقا "إنجيل"؟

ماذا عن إنجيل لوقا؟ أولاً، ينبغي أن ندرك أن سفر الأعمال وإنجيل لوقا كتابان مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. كيف نعرف ذلك؟ أولاً، الوثيقتان تحتويان على نفس المفردات اليونانية والأسلوب الأدبي. ولكن الأهم من ذلك أن لوقا يوجِّه الوثيقتين إلى "العزيز ثاوفيلس". ومن المحتمل أنه كان مسؤولاً رومانيًا لأن لقب "العزيز" هو ذات اللقب الذي استخدمه بولس لمخاطبة الواليين الرومانيَّين فيلكس وفستوس.*

وبصرف النظر عن هوية ثاوفيلس الحقيقية، فإن النقطة الرئيسية هي أن لوقا يكشف أن سفر الأعمال استمرارية لإنجيله. فافتتاحيته تقول: «**الكلام الأول** أنشأته يا ثاوفيلس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به إلى اليوم الذي ارتفع فيه...» (أعمال١: ١، ٢). ويستخدم لوقا بقية سفر الأعمال ليخبر ثاوفيلس ما حدث بعد صعود المسيح. وقد فعل ذلك بدقة مذهلة، كما رأينا.

هل يجب أن نتوقع نفس درجة الدقة من إنجيل لوقا؟ ما المانع؟ الحقيقة أن لوقا يكتب ما يدلل على ذلك: «رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول **بتدقيق** أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس» (لوقا١: ٣). إذا حَكَمْنا بناءً على عمله الشديد الدقة في سفر الأعمال، يمكننا أن نؤكد أن لوقا مؤرخ دقيق أهل للثقة. وكما يشير أستاذ العهد الجديد كريج بلومبرج "المؤرخ الذي أثبت أنه أهل للثقة في الأشياء التي يمكن إخضاعها للاختبار، يجب أن نثق فيه في الأشياء التي لا يمكن إخضاعها للاختبار".[٥] فبما أن لوقا اجتاز الاختبار في ٨٤ نقطة وحصل على الدرجة النهائية، فإن لدينا من الأسباب ما يكفي لتصديق أن إنجيله "إنجيل".

ولكن يجب ألا نعتمد فقط على عمل لوقا في سفر الأعمال لإثبات إنجيله. فهناك عدة تفاصيل في إنجيل لوقا تم التحقق منها بالاستقلال عن سفر الأعمال. فمثلاً، لوقا يذكر في الأصحاحات الثلاثة الأولى فقط من إنجيله أسماء أحد عشر قائدًا (اثني عشر إن أضفت إليها يسوع) ثابتة تاريخيًا. وهذه الأسماء هي هيرودس الكبير (١: ٥)، أوغسطس قيصر (٢: ١)، كيرينيوس (٢: ٢). وفي مستهل الأصحاح الثالث يكتب:

> وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر، إذ كان بيلاطس البنطي

---

* من المحتمل أن أحد الأسباب التي دعت لوقا إلى كتابة سفر الأعمال هو إظهار براءة بولس للمسؤولين في الإمبراطورية الرومانية. ومؤكد أنه قدم مراجع تاريخية تكفي لإثبات حقيقة ما يقول. وبالطبع، ليس من الحكمة أن يكذب لوقا على المسؤولين الرومان.

> واليًا على اليهودية، وهيرودس رئيس ربع على الجليل، وفيلبس أخوه رئيس ربع على إيطورية وكورة تراخونيتس، وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية، في أيام رئيس الكهنة حنـَّان وقيافا، كانت كلمةُ الله على يوحنا بن زكريا في البرية، فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا،

هل يبدو هذا الكلام وكأنه قصة من اختراع لوقا؟ بالطبع لا. لو كان يخترع قصة، لما أدخل خيوطـًا تاريخية فيما يصفه من أحداث بتسمية قادة بارزين بتواريخهم. وكما يشير أستاذ الكتاب المقدس ف. ف. بروس *F. F. Bruce* "إن الكاتب الذي يربط قصته على هذا النحو بالإطار الأكبر لتاريخ العالم يجلب على نفسه المتاعب إن لم يكن دقيقـًا. ولكن لوقا يقبل هذه المخاطرة، وينجح في الامتحان بامتياز".[٦] والحقيقة أن الشخصيات التاريخية الإحدى عشرة التي يسميها لوقا في الأصحاحات الثلاثة الأولى من إنجيله، بما فيها يوحنا المعمدان (ابن زكريا)، مؤكَّدة بعلم الآثار أو بكُتـَّاب غير مسيحيين. فمثلاً يوسيفوس يذكر يوحنا المعمدان ("الآثار" ١٨: ٥. ٢) واسم ليسانيوس يظهر في نقش يرجع تاريخه إلى ما بين سنة ١٤ وسنة ٢٩م.

ويمكننا أيضًا العثور على معلومة تاريخية أخرى دقيقة في لوقا٢٢: ٤٤ حيث يسجل لوقا أن يسوع كان في جهاد حتى صار يَعْرَق قطرات دم عشية صلبه. من الواضح أن يسوع كان يمر بحالة نادرة يسببها الضغط النفسي الشديد نعرفها اليوم باسم التعرق المدمى *hematohidrosis*. وفيها تنفجر الأوعية الدموية الصغيرة بسبب شدة الضغط النفسي، فيختلط الدم بالعرق. وبما أنه من المحتمل أن لوقا لم يعرف هذه الحالة الطبية منذ ٢٠٠٠ سنة، ما كان يمكنه تسجيلها إلا إذا كان يعرف شخصًا رآها بعينيه.

لقد دفعت مثل هذه التفاصيل وليم رامزي (المذكور أعلاه) أن يقول: "إن تاريخ لوقا لا يعلوه تاريخ فيما يختص بموثوقيته"، وقد قال أيضًا: "إن لوقا مؤرخ من الطراز الأول... ويجب وضعه في مصاف أعظم المؤرخين".[٧] والنقطة الجوهرية هي أن لوقا أهل للثقة. فبما أن صحة كلامه تبرهنت بالاستقلال عن بقية النص الكتابي في الكثير من النقاط القابلة للفحص. لدينا كل الأسباب التي تدعونا لتصديقه في نقاط أخرى.

وهنا تأتي النقطة الحاسمة: **بما أن لوقا يقول الحق، إذَن مرقس ومتى كذلك؛ لأن إنجيليهما يرويان القصة نفسها في جوانبها الأساسية.** وهو ما يصدم الشكوكيين صدمة هائلة، ولكن لا مهرب من المنطق، حتى إنك **إذا أردت أن تتجاهله يلزمك الكثير من الإيمان.**

أدلة على شهادة العيان: يوحنا

لقد أثبت لوقا مصداقيته، وكذلك متى ومرقس ضمنًا، ولكن ماذا عن يوحنا؟ يزعم النقاد أن إنجيل يوحنا عملٌ جاء متأخرًا كثيرًا عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، وهو يخترع لاهوتًا يقول بألوهية المسيح، لذا لا يمكن الثقة فيه من حيث دقة المعلومات التاريخية. ولكن إن كان النقاد مخطئين ويوحنا دقيقًا، إذَن يضاف عندنا شاهد آخر مستقل، وبذلك يمكننا أن نخلص إلى أن القصة الأساسية للعهد الجديد صحيحة. فما مدى دقة يوحنا؟ ماذا تقول الأدلة؟

يبدو من الظاهر أن يوحنا شاهد عيان لأنه يذكر تفاصيل خاصة عن العديد من حوارات يسوع الشخصية (انظر يوحنا ٣، ٤، ٨- ١٠، ١٣- ١٧). إلا أن هناك أدلة أقوى كثيرًا على أن يوحنا شاهد عيان، أدلة تكاد تشابه نوعية الأدلة التي رأيناها في سفر الأعمال.

وقد أجرى كريج بلومبرج دراسة مفصلة على إنجيل يوحنا، مثل الدراسة التي أجراها كولين هرمر على سفر الأعمال. فكتاب بلومبرج "المصداقية التاريخية لإنجيل يوحنا"[٨٨] *The Historical Reliability of John's Gospel* يفحص إنجيل يوحنا آية آية ويرصد العديد من التفاصيل التاريخية.

وبما أن يوحنا يصف أحداثًا تقتصر على الأرض المقدسة، فإنجيله لا يضاهي سفر الأعمال من حيث عدد ما يحويه من معلومات جغرافية، وتضاريسية، وسياسية. إلا أنه، كما سنرى، يحوي عددًا مذهلاً من التفاصيل الثابتة تاريخيًا أو التي يمكن أن تكون صحيحة تاريخيًا بنسبة كبيرة جدًا. والكثير من هذه التفاصيل تبرهنت تاريخيتها بعلم الآثار أو بالكتابات غير المسيحية، وبعضها يمكن أن يكون صحيحًا من الناحية التاريخية بنسبة كبيرة جدًا لأنها لا يُحتمل أن تكون من اختراع كاتب مسيحي. وتبدأ هذه التفاصيل في الأصحاح الثاني من إنجيل يوحنا وتشتمل على الآتي:

١- علم الآثار يؤكد استخدام أجران من الحجارة لحفظ الماء في زمن العهد الجديد (يوحنا٢: ٦).

٢- إن أخذنا في اعتبارنا ميل المسيحيين الأوائل للتقشف، فمن غير المحتمل أن تكون معجزة تحويل الماء إلى خمر من اختراع يوحنا (٢: ٨).

٣- علم الآثار يؤكد مكان بئر يعقوب المذكور في إنجيل يوحنا (٤: ٦).

٤- يوسيفوس ("حروب اليهود" *Wars of the Jews* ٢. ٢٣٢) يؤكّد العداء الشديد بين اليهود والسامريين في زمن يسوع (٤: ٩).

٥- "انزل" تصف تضاريس الجليل الغربية وصفًا دقيقًا. (هناك انحدار شديد من قانا إلى كفرناحوم). (٤: ٤٦، ٤٩، ٥١).[٩]

٦- "صعد" تصف الصعود إلى أورشليم وصفًا دقيقًا (٥: ١)

٧- علم الآثار يؤكّد صحة موقع ووصف الخمسة أورقة عند بركة بيت حسدا (٥: ٢). (أعمال التنقيب من سنة ١٩١٤ إلى ١٩٣٨ كشفت عن تلك البركة ووجدت أنها مطابقة تمامًا لوصف يوحنا لها. وبما أن هذا البناء لم يَعُدْ له وجود بعد تدمير الرومان للمدينة سنة ٧٠ م، فمن المستبعد أن يكون شخص لم يشهدها وصفها بهذه التفاصيل الواضحة بعد سنة ٧٠. إضافةً إلى ذلك، يوحنا يقول إن هذا البناء "في أورشليم". مما يعني ضمنًا أنه يكتب قبل سنة ٧٠).

٨- فكرة أن شهادة يسوع لا تَصْلُح دون شهادة الآب لا يمكن أن تكون اختراعًا مسيحيًا (٥: ٣١)، فلو قام شخص بتحرير النص لاحقًا، لَحرص على إبراز لاهوت يسوع. وغالبًا كان سيجعل شهادته صادقة في ذاتها.

٩- رغبة الجموع في تنصيب يسوع مَلِكًا تعكس النعرة القومية المعروفة التي ميَّزت إسرائيل في مطلع القرن الأول (٦: ١٥).

١٠- الرياح المفاجئة والعنيفة شائعة في بحر الجليل (٦: ١٨).

١١- أمر المسيح بأكل جسده وشُرب دمه لا يمكن أن يكون من اختراع الكاتب (٦: ٥٣).

١٢- من المستبعد كذلك أن يكون رفض الكثير من تلاميذ يسوع له من اختراع الكاتب (٦: ٦٦).

١٣- الرأيان السائدان عن يسوع: أحدهما أن يسوع رجل "صالح"، والآخر أنه "يُضِلّ الشعب" لا يمكن أن يكونا الخيارين اللذين يود يوحنا أن يخترعهما (٧: ١٢)، فلو أن كاتبًا مسيحيًا كَتَب الإنجيل في تاريخ متأخر لأضاف رأيًا ثالثًا يقول إن يسوع هو الله.

١٤- اتهام يسوع بأن به شيطانًا لا يمكن أن يكون اختراعًا (٧: ٢٠).

١٥- استخدام كلمة "سامري" لتشويه سمعة يسوع يتماشى مع العداوة بين اليهود والسامريين (٨: ٤٨).

١٦- اعتزام **المؤمنين** اليهود على رجم يسوع من المستبعد أن يكون اختراعًا (٨: ٣١، ٥٩).

١٧- علم الآثار يؤكّد وجود بركة سلوام وموقعها (٩: ٧).

١٨- طَرْد الفريسيين للناس من المجمع كان سببًا مشروعًا للخوف عند اليهود. لاحظ أن الرجل الذي شفاه يسوع لا يعترف بإيمانه بيسوع إلا **بعد** أن طرده الفريسيون من المجمع (٩: ١٣- ٣٩)، وعندها لم يعد عنده شيء يخسره. وهو ما يعكس المصداقية.

١٩- قول الأعمى الذي شُفي أن يسوع "نبي" وليس أي شيء أعلى من ذلك يبين أن الواقعة تاريخ حقيقي غير مصطنع (٩: ١٧).

٢٠- أثناء أحد أعياد الشتاء، كان يسوع يتمشى في رواق سليمان، وهو الجانب الوحيد المغطَّى في منطقة الهيكل مما يجعله صالحًا للحماية من ريح الشتاء الشرقية الباردة (١٠: ٢٢، ٢٣)، ويوسيفوس يذكر هذه المنطقة عدة مرات.

٢١- خمس عشرة غلوة (أقل من ميلين) هي بالضبط المسافة من بيت عنيا إلى أورشليم (١١: ١٨).

٢٢- إن أخذنا في اعتبارنا ما نشأ لاحقًا من عداوة بين المسيحيين واليهود، فمن المستبعد أن يكون تصوير اليهود بشكل إيجابي في تعزيتهم لمرثا ومريم من اختراع الكاتب (١١: ١٩).

٢٣- أقمطة الدفن التي كان لعازر ملفوفًا بها كانت شائعة في طقوس الدفن اليهودية أثناء القرن الأول (١١: ٤٤)، فمن المستبعد أن كاتب قصة خيالية يدرج تفاصيل كهذه لا تحمل أي بعد لاهوتي.

٢٤- الوصف الدقيق لتكوين السنهدريم (١١: ٤٧): في زمن خدمة يسوع كان يتكون أساسًا من رؤساء الكهنة (معظمهم صدوقيون) والفريسيين.

٢٥- قيافا كان فعلاً رئيس الكهنة في تلك السنة (١١: ٤٩)، فنحن نعرف من يوسيفوس أن قيافا شغل هذا المنصب من ١٨- ٣٧ م.

٢٦- يوسيفوس يذكر قرية أفرايم الصغيرة المجهولة (١١: ٥٤) الواقعة بالقرب من أورشليم.

٢٧- التطهير الطقسي كان ممارسة شائعة في الإعداد للفصح (١١: ٥٥).

٢٨- دهن قدمي الضيف بالطيب أو الزيت كان يمارَس أحيانًا مع الضيوف المهمين في

الثقافة اليهودية (١٢: ٣)، فمن المستبعد أن يكون مسح مريم لقدمي يسوع بشعرها من اختراع الكاتب (لأنه من السهل أن يُفهم على أنه مبادرة جنسية).

٢٩- التلويح بسعوف النخل كان ممارسة يهودية شائعة للاحتفال بالانتصارات العسكرية والترحيب بالحكام القوميين (١٢: ١٣).

٣٠- كان غسل القدمين في فلسطين أثناء القرن الأول عملاً ضروريًا بسبب الأتربة والأحذية المفتوحة، وقيام يسوع بهذه المهمة الوضيعة لا يمكن أن يكون من اختراع الكاتب (فقد كانت مهمة لا تـُطلَب حتى من **العبيد** اليهود) (١٣: ٤)، وإصرار بطرس على أن يُغتَسَل بالكامل يتماشى أيضًا مع شخصيته المتسرعة (ومؤكد أنه ليس هناك غرض من اختراع هذا الطلب).

٣١- بطرس يطلب من يوحنا أن يسأل يسوع سؤالاً (١٣: ٢٤)، لا داعي لإدراج هذا النوع من التفاصيل إن كانت الرواية خيالية، فكان يمكن لبطرس أن يسأل يسوع بنفسه.

٣٢- من المستبعد أن تكون عبارة «أبي أعظم مني» من اختراع الكاتب (١٤: ٢٨)، خاصة إن أراد يوحنا أن يخترع عقيدة لاهوت المسيح (كما يَدَّعي النقاد).

٣٣- استخدام الكرمة كتصوير بلاغي أمر مفهوم في أورشليم (١٥: ١)، فالكروم كانت منتشرة بالقرب من الهيكل، ووفقـًا لما يقوله يوسيفوس، كان هناك كرمة ذهبية محفورة على أبواب الهيكل.

٣٤- استخدام تشبيه الولادة (١٦: ٢١) يهودي حتى النخاع، فقد وُجِدَ في مخطوطات البحر الميت (*1QH 11: 9-10*).

٣٥- رَفْع العينين "نحو السماء" (١٧: ١) كان الوضع الجسماني الطبيعي الذي يتخذه اليهود في الصلاة.

٣٦- لو كان يوحنا يخترع فكرة لاهوت المسيح، لما ذَكَرَ اعتراف يسوع بأنه أخذ كلامه من الآب (١٧: ٧، ٨).

٣٧- ليس هناك إشارة محدّدة لنص النبوة المتمَّمة بخصوص خيانة يهوذا، فلو كان الكاتب يكتب قصة خيالية أو لو كان محرر مسيحي قد أجرى تعديلات على النص فيما بعد، فمن المحتمل أن يحدّد نص العهد القديم الذي كان يشير إليه يسوع (١٧: ١٢).

٣٨- من المستبعد أن يكون اسم عبد رئيس الكهنة (ملخس) الذي قـُطِعَت أذنه من اختراع

الكاتب (١٨: ١٠).

٣٩- تحديد حمي قيافا بشكل صحيح، وهو حنَّان الذي كان رئيس الكهنة من ٦ إلى ١٥ م (١٨: ١٣)، ومثول يسوع أمام حنَّان أمر مقبول نظرًا لصلة القرابة، ولأن رؤساء الكهنة السابقين كانوا يحتفظون بنفوذ كبير.

٤٠- يبدو زعم يوحنا أنه كان معروفًا عند رئيس الكهنة (١٨: ١٥) حقيقة تاريخية، لأن اختراع هذا الادعاء عديم النفع ومن شأنه أن يُعَرِّض يوحنا لفقدان مصداقيته عند السلطات اليهودية.

٤١- أسئلة حنَّان بخصوص تعاليم يسوع وتلاميذه معقولة جدًا من المنظور التاريخي، فمن المنطقي أن يقلق حنَّان من احتمال حدوث اضطرابات مدنية وزعزعة سلطة رجال الدين اليهودي (١٨: ١٩).

٤٢- تحديد نسيب ملخس (عبد رئيس الكهنة الذي قُطِعَت أذنه) لا يمكن أن يكون معلومة اخترعها يوحنا (١٨: ٢٦)، فهي لا تحمل أي قيمة لاهوتية ويمكن أن تشوِّه مصداقية يوحنا إن كان يحاول أن يقدِّم الخيال على أنه حقيقة.

٤٣- هناك أسباب تاريخية وجيهة لتصديق تردّد بيلاطس في التعامل مع يسوع (١٨: ٢٨ وما بعده): كان بيلاطس محصورًا بين الاحتفاظ برضا اليهود والاحتفاظ برضا روما، وحدوث أي اضطراب مدني قد يعني فقدانه لمنصبه (كان اليهود يعرفون مصالحه المتصارعة عندما ضغطوا عليه بصراخهم: «إن أطلقت هذا فلست محبًا لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكًا يقاوم قيصر» ١٩: ١٢)، ويسجِّل فيلون الفيلسوف اليهودي نجاح اليهود في الضغط على بيلاطس بطريقة مشابهة لتنفيذ مطالبهم ("إلى غايس" *To Gaius* ٣٨. ٣٠١- ٣٠٢).

٤٤- عُثِرَ على سطح يشبه "البلاط" *Stone Pavement* بالقرب من قلعة أنطونيا (١٩: ١٣) ووُجِدَت عليه علامات ربما تدل على أن العسكر كانوا يلعبون ألعابًا هناك (كما في الاقتراع على ثيابه ١٩: ٢٤).

٤٥- صراخ اليهود: «ليس لنا ملك إلا قيصر» (١٩: ١٥) لا يمكن أن يكون من اختراع الكاتب إن أخذنا في اعتبارنا كراهية اليهود للرومان، وخاصةً لو كان إنجيل يوحنا قد كُتِب بعد ٧٠ م. (إنه يشبه القول بأن سكان نيويورك اليوم يصرحون بأنه "ليس لنا ملك إلا أسامة بن لادن!")

٤٦- صَلْب يسوع (١٩: ١٧- ٣٠) مشهود له من مصادر غير مسيحية مثل يوسيفوس،

وتاسيتس، ولوقيان، والتلمود اليهودي.

٤٧- المحكوم عليهم بالصلب عادةً ما كانوا يُجْبَرون على حمل صلبانهم (١٩: ١٧).

٤٨- يؤكِّد يوسيفوس أن الصلب كان أسلوبًا للإعدام يستخدمه الرومان (''حروب اليهود'' ١. ٩٧؛ ٢. ٣٠٥؛ ٧. ٢٠٣)، علاوة على ذلك، عُثِر على عظمة كاحل لرجل مصلوب بها مسمار في أورشليم سنة ١٩٦٨ (المزيد عن هذا الموضوع في الفصل الثاني عشر).

٤٩- أغلب الظن أن الإعدام كان يتم خارج أورشليم القديمة، كما يقول يوحنا (١٩: ١٧)، لضمان عدم تنجيس المدينة اليهودية المقدسة بالجثث (تثنية٢١: ٢٣).

٥٠- بعد أن طُعِنَ يسوع بحربة في جنبه، خرج ما يظهر أنه دم وماء (١٩: ٣٤). ونحن اليوم نعلم أنه في حالة الشخص المصلوب قد يتجمع سائل مائي في الكيس المحيط بالقلب الذي يُطلق عليه التامور *pericardium*.[١٠] وما كان يوحنا ليَعرف هذه الحالة الطبية، وما كان يمكنه أن يسجل هذه الظاهرة إلا إذا كان شاهد عيان أو نَمَتْ إلى معرفته شهادة شهود عيان.*

٥١- من المستبعد أن يكون يوسف الرامي (١٩: ٣٨)، أحد أعضاء السنهدريم، الذي يدفن يسوع من اختراع يوحنا (المزيد عن هذا الموضوع في الفصل القادم).

٥٢- يؤكد يوسيفوس (''الآثار'' ١٧. ١٩٩) أن الأطياب (١٩: ٣٩) كانت تُستخدم في دفن الملوك، وهذه المعلومة تُبين أن نيقوديموس لم يتوقع قيامة يسوع من الأموات، وهي تُظهر أيضًا أن يوحنا لم يُقحم في النص عقيدة مسيحية متأخرة.

٥٣- لا يمكن أن يخترع الكاتب قصة أن مريم المجدلية (٢٠: ١)، وهي امرأة كان **يسكنها شياطين** فيما سبق (لوقا٨: ٢)، هي أول شاهد على القبر الفارغ. فالحقيقة أن المرأة عمومًا ما كانت لتُقَدَّم بصفتها شاهدًا في قصة مؤلَّفة (المزيد أيضًا عن هذا الموضوع لاحقًا).

٥٤- خطأ مريم في يسوع ظنًا منها أنه البستاني (٢٠: ١٥) ليست واقعة يمكن أن يخترعها كاتب في مرحلة لاحقة (خاصةً إن كان يسعى لإعلاء شأن يسوع).

٥٥- ''ربوني'' (٢٠: ١٦)، وهي الكلمة الآرامية لكلمة ''معلم'' تبدو من التفاصيل الأصيلة

---

* قد يقول الشكوكيون: ''من المحتمل أنه رأى شخصًا آخر مصلوبًا طُعِنَ في جنبه بحربة''. قد يكون هذا تفسيرًا جيدًا لو كانت هذه هي المعلومة الوحيدة التي يقدِّمها يوحنا التي تدل على شهادة عيان. ولكن كما رأينا، فقد أعطانا عددًا من التفاصيل الأخرى التي ترجح بقوة أنه كان بالفعل شاهد عيان على صلب يسوع.

لأنها أيضًا لا يمكن أن تكون من اختراع مؤلف يحاول إعلاء شأن يسوع المُقام.

٥٦- قول يسوع بأنه سيعود إلى "إلهي وإلهكم" (٢٠: ١٧) لا يتماشى مع كاتب يكتب في مرحلة متأخرة بدافع اصطناع فكرة لاهوت المسيح.

٥٧- مائة وثلاثة وخمسون سمكة (٢١: ١١) معلومة لا تحمل معنى لاهوتيًا، ولكنها تتسق تمامًا مع ميل صياد إلى تسجيل صيد كبير والافتخار به.

٥٨- من المستبعد أن يكون الكاتب قد اخترع فكرة خوف التلاميذ من أن يسألوا يسوع مَنْ هو (٢١: ١٢)، ولكنها تبيّن الاندهاش البشري الطبيعي من يسوع المُقام، وربما كان جسد القيامة مختلفًا نوعًا ما.

٥٩- العبارة الغامضة التي يقولها يسوع عن مصير بطرس ليست واضحة بما يكفي للتوصل إلى استنتاجات لاهوتية (٢١: ١٨)، فما الذي يدعو يوحنا إلى اختلاقها؟ فهي أيضًا من الأشياء التي لا يمكن أن تكون من اختراعه.

عندما ندمج معرفة يوحنا بحوارات يسوع الخاصة مع هذه التفاصيل التي تقترب من ستين معلومة ثابتة تاريخيًا أو احتمال صحتها التاريخية كبير جدًا، هل يراودنا أي شك في أن يوحنا كان شاهد عيان أو على الأقل نمَتْ إلى معرفته شهادة شهود عيان؟ مؤكد أن **عدم** تصديق إنجيل يوحنا يتطلب إيمانًا أكثر مما يتطلبه تصديقه.

خيوط تاريخية

فلنراجع ما توصلنا إليه حتى الآن. بالنظر إلى عدد قليل من وثائق العهد الجديد (إنجيل يوحنا، وإنجيل لوقا، ونصف سفر الأعمال)، وجدنا أكثر من ١٤٠ معلومة تبدو صحيحة، ومعظمها ثبتت صحته تاريخيًا، والبعض منها محتمل أن يكون صحيحًا تاريخيًا بنسبة كبيرة جدًا. وإذا فحصنا سائر وثائق العهد الجديد، غالبًا سنجد الكثير من الحقائق التاريخية الأخرى. ولكن الوقت والمساحة لا يتيحان لنا القيام بهذا البحث. إلا أن ما وجدناه فقط من يوحنا ولوقا والأعمال مؤكد أنه كافٍ لإثبات تاريخية القصة الأساسية في العهد الجديد (حياة يسوع وتاريخ الكنيسة المبكر).

ولكن هناك المزيد من الأدلة على التاريخية. فكُتّاب العهد الجديد يُدخلون خيوطًا تاريخية في رواياتهم بالإشارة إلى شخصيات تاريخية حقيقية وأعمالهم. وإجمالي عدد هذه

الشخصيات ثلاثون شخصية على الأقل في العهد الجديد ثبتت تاريخيتها بعلم الآثار والمصادر غير المسيحية* (انظر الجدول ١٠-١ في الصفحة التالية).

فمثلاً، متَّى يذكر شخصيات ثبتت تاريخيتها بالاستقلال عن النص، ومنها هيرودس الكبير (٢: ٣) وأبناؤه الثلاثة: هيرودس أرخيلاوس (٢: ٢٢)، وهيرودس فيلبس (١٤: ٣)، وهيرودس أنتيباس (١٤: ١- ١١). ومتَّى يصف أيضًا الرجل الذي قتله هيرودس أنتيباس، وهو يوحنا المعمدان (أصحاح ١٤ ونقرأ عنه أول مرة في أصحاح ٣)، وكذلك السيدتين اللتين أوعزتا بالقتل، وهما هيروديا وابنتها. ويروي مرقس القصة نفسها عن هيرودس أنتيباس ويوحنا المعمدان (٦: ١٤ وما بعده). ويتوسع لوقا في الإشارات الكتابية لنسل هيرودس فيذكر الملك أغريباس الأول، حفيد هيرودس الكبير، الذي قتل يعقوب أخا يوحنا (أعمال ١٢)، وحفيد ابنه الملك أغريباس الثاني الذي شهد بولس أمامه (أعمال ٢٥: ١٣- ٢٦: ٣٢).

وبيلاطس من الشخصيات البارزة في الأناجيل الأربعة كلها ويشير إليه بولس.† وبيلاطس نفسه هذا يَظهر في عدة مناسبات في اثنين من أعمال يوسيفوس ("الآثار" و"حروب اليهود") ويوصف في أحد النقوش القديمة بأنه (والي) اليهودية المثالي. وقد تم هذا الكشف الأثري في مدينة قيصرية الساحلية الإسرائيلية سنة ١٩٦١.

وبالإضافة إلى بيلاطس، يذكر كلٌّ من متى ولوقا ويوحنا قائدًا آخر بالاسم لعب دورًا بارزًا في موت يسوع، وهو رئيس الكهنة قيافا الذي حكم على يسوع بالموت.‡ وقيافا لا يُذكر في تاريخ يوسسيفوس فقط، ولكن عظامه وُجِدَت في كشف أثري مدهش سنة ١٩٩٠. وما جعل هذا الاكتشاف ممكنًا هو إحدى ممارسات الدفن القديمة عند اليهود.

---

* من المحتمل أن العدد الفعلي أكثر من ذلك الذي رصدناه لأننا لم نُجرِ بحثًا شاملاً على كل الأسماء الواردة في العهد الجديد.

† يظهر بيلاطس كثيرًا في العهد الجديد: الوالي الروماني على اليهودية: متى٢٧: ٢؛ لوقا٣: ١، يتسبب في قتل عدد من الجليليين بوحشية: لوقا١٣: ١، يحاكم يسوع ويأمر بصلبه: متى٢٧؛ مرقس١٥؛ لوقا٢٣؛ يوحنا١٨: ٢٨-٤٠: ١٩؛ أعمال٣: ١٣؛ ٤: ٢٧؛ ١٣: ٢٨؛ ١تيموثاوس٦: ١٣، يأذن ليوسف الرامي أن يأخذ جسد يسوع: متى٢٧: ٥٧، ٥٨؛ مرقس١٥: ٤٣- ٤٥؛ لوقا٢٣: ٥٢؛ يوحنا١٩: ٣٨.

‡ مرقس يشير إلى رئيس الكهنة دون ذكر اسمه(١٤: ٥٣). وهو ما يؤدي أيضًا ببعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن رواية مرقس كُتِبَت قبل سنة ٣٧م؛ لأن هذا هو العام الذي انتهى فيه حكم قيافا. والنظرية هنا تقول بأن مرقس كان يكتب لقراء معاصرين يعرفون اسم رئيس الكهنة.

شخصيات العهد الجديد المذكورة في كتابات غير مسيحية أو مؤكدة بعلم الآثار أو كليهما

الشخص	الإشارة إليه في العهد الجديد	المصادر غير المسيحية*
يسوع	إشارات كثيرة	يوسيفوس، تاسيتس، پلينيوس الأصغر، فليجون، ثالوس، سويتونيوس، لوقيان، سيلسوس، مارا بار-سراپيون، التلمود اليهودي
أغريباس الأول	أعمال١٢: ١- ٢٤	فيلون، يوسيفوس
أغريباس الثاني	أعمال٢٥: ١٣- ٢٦: ٣٢	عملات معدنية، يوسيفوس
حنانيا	أعمال٢٣: ٢؛ ٢٤: ١	يوسيفوس
حنَّان	لوقا٣: ٢؛ يوحنا١٨: ١٣، ٢٤؛ أعمال٤: ٦	يوسيفوس
الحارث	٢كورنثوس١١: ٣٢	يوسيفوس
برنيكي (زوجة أغريباس الثاني)	أعمال٢٣: ١٣	يوسيفوس
أوغسطوس قيصر	لوقا٢: ١	يوسيفوس وآخرون
قيافا	عدة إشارات	مدفن عظام، يوسيفوس
كلوديوس	أعمال١١: ٢٨؛ ١٨: ٢	يوسيفوس
دروسلا (امرأة فيلكس)	أعمال٢٤: ٢٤	يوسيفوس
نبي كاذب مصري	أعمال٢١: ٣٨	يوسيفوس
أرسطوس	أعمال١٩: ٢٢	نقش
فيلكس	أعمال٢٣: ٢٤- ٢٥: ١٤	تاسيتس، يوسيفوس
غاليون	أعمال١٨: ١٢- ١٧	نقش
غمالائيل	أعمال٥: ٣٤؛ ٢٢: ٣	يوسيفوس
هيرودس أنتيباس	متى١٤: ١- ١٢؛ مرقس٦: ١٤- ٢٩؛ لوقا٣: ١؛ ٢٣: ٧- ١٢	يوسيفوس
هيرودس أرخيلاوس	متى٢: ٢٢	يوسيفوس
هيرودس الكبير	متى٢: ١- ١٩؛ لوقا١: ٥	تاسيتس، يوسيفوس
هيرودس فيلبس الأول	متى١٤: ٣؛ مرقس٦: ١٧	يوسيفوس
هيرودس فيلبس الثاني	لوقا٣: ١	يوسيفوس
هيروديا	متى١٤: ٣؛ مرقس٦: ١٧	يوسيفوس
ابنة هيروديا (سالومة)	متى١٤: ١- ١٢؛ مرقس٦: ١٤- ٢٩	يوسيفوس
يعقوب	عدة إشارات	يوسيفوس
يوحنا المعمدان	عدة إشارات	يوسيفوس
يهوذا الجليلي	أعمال٥: ٣٧	يوسيفوس
ليسانيوس	لوقا٣: ١	نقش، يوسيفوس
بيلاطس	عدة إشارات	نقش، عملات معدنية، يوسيفوس، فيلون، تاسيتس
كيرينيوس	لوقا٢: ٢	يوسيفوس
بوركيوس فستوس	أعمال٢٤: ٢٧- ٢٦: ٣٢	يوسيفوس
سرجيوس بولس	أعمال١٣: ٦- ١٢	نقش
طيباريوس قيصر	لوقا٣: ١	تاسيتوس، سويتونيوس، پاتركولوس *Paterculus*، كاسيوس ديو *Dio Cassius*، يوسيفوس

* ملحوظة: هذه ليست قائمة شاملة لكل المراجع غير المسيحية. من المحتمل أن شخصيات العهد الجديد هذه ذُكِرت في مواضع أخرى في هذه المصادر غير المسيحية أو في غيرها.

الجدول ١٠-١

منذ نحو سنة ٢٠ ق.م حتى سنة ٧٠ م، اعتاد اليهود أن يُخرجوا جثث الأشخاص المهمين من قبورهم بعد حوالي سنة من موتهم ويضعوا بقاياها في صندوق صغير من الحجر الجيري يُطلق عليه مدفن عظام. وقد اكتُشِفَ عدد من مدافن العظام هذه في مقبرة جنوب أورشليم، وواحد منها وُجِدَ عليه نقش بالآرامية يقول "يوسف بن قيافا". وعُثِرَ بداخله على عظام أسرة بأكملها: أربعة شباب، وامرأة، ورجل يبلغ من العمر ستين عامًا. والاحتمال الأكبر أن الرجل هو رئيس الكهنة السابق يوسف قيافا الذي أشار إليه يوسيفوس بصفته رئيس الكهنة،[١١] وهو نفسه الذي يقول عنه العهد الجديد إنه حكم على يسوع بالموت.* إذَن لدينا الآن مراجع غير مسيحية مكتوبة تشير إلى رئيس الكهنة الذي شارك في محاكمة يسوع، ولدينا أيضًا عظامه![١٢]

وكما يبين الجدول ١٠-١، هناك عدد من شخصيات العهد الجديد الأخرى مذكورة خارج العهد الجديد. ومنهم كيرينيوس، وسرجيوس بولس، وغاليون، وفيلكس، وفستوس، وأوغسطوس قيصر، وطيباريوس قيصر، وكلوديوس.[١٣] فماذا كان يجب على كُتَّاب العهد الجديد أن يفعلوا أكثر من ذلك حتى يُثْبِتوا أنهم شهود عيان لا يختلقون قصة من خيالهم؟

العهد الجديد: رواية تاريخية أم تاريخ رواية؟

بالرغم من هذه التفاصيل التي تزيد عن ١٤٠ بندًا تأتي من شهود عيان، والإشارات التي تزيد عن ٣٠ إشارة إلى أشخاص حقيقيين، قد يقول الشكوكي العنيد: "ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن العهد الجديد صحيح. هب أنه رواية تاريخية، أي أنه قصة خيالية موضوعة في إطار تاريخي حقيقي، مثل روايات توم كلانسي *Tom Clancy*؟"†

تنطوي هذه النظرية على الكثير من المشكلات. أولاً، إنها لا تستطيع أن تفسِّر لماذا نجد كُتَّابًا غير مسيحيين مستقلين عن بعضهم البعض يكشفون جميعًا الأحداث الرئيسية لقصة تشبه قصة العهد الجديد. فإن كانت أحداث العهد الجديد خيالية، فلماذا يسجِّل الكُتَّاب غير المسيحيين بعض هذه الأحداث كأنها حدثت بالفعل؟

ثانيًا، لا تستطيع أن تفسر لماذا احتمل كُتَّاب العهد الجديد الاضطهاد والتعذيب والموت. ما الذي يدفعهم لتأليف مثل هذه القصة الخيالية؟ (المزيد عن هذا في الفصل القادم).

---

* انظر متى٢٦: ٣، ٥٧؛ لوقا٣: ٢؛ يوحنا١١: ٤٩؛ ١٨: ١٣، ١٤، ٢٤، ٢٨؛ أعمال٤: ٦.

† روائي أمريكي كانت الكثير من رواياته تدور حول الحرب الباردة والإرهاب (*https://www.theguardian.com/books/2013/oct/02/tom-clancy-dies-aged-66*)، تم الاطلاع على الرابط بتاريخ ٢٠١٦/١٢/٧ (المترجمة)

ثالثـًا، الروائيون التاريخيون عادة ما لا يسمون الشخصيات الرئيسية في القصة بأسماء الأشخاص الحقيقيين. ولو فعلوا، فأولئك الأشخاص الحقيقيون، وخاصةً أصحاب النفوذ من رجال الدين والحكومة، سينكرون القصة، ويشوهون مصداقية الكـُتـَّاب، بل قد يتخذون ضدهم إجراءات عقابية على هذا الفعل. ولكننا كما رأينا، العهد الجديد يحوي ما لا يقل عن ثلاثين شخصية تاريخية حقيقية تؤكدها مصادر غير مسيحية، ومعظمهم قادة بارزون ولهم نفوذ.

أخيرًا، بما أن العهد الجديد يحتوي على الكثير من الروايات المستقلة لهذه الأحداث بقلم تسعة كـُتـَّاب مختلفين، فنظرية الرواية التاريخية تتطلب حياكة مؤامرة ضخمة على مدى فترة من ٢٠ إلى ٥٠ سنة بين أولئك الكـُتـَّاب التسعة المنتشرين في أرجاء العالم القديم. وهذا أيضًا غير معقول. فالحقيقة أن التأكيد القائل بأن أحداث العهد الجديد جزء من مؤامرة ضخمة لا يوجد إلا في الروايات. ولكن في العالم الواقعي، هذه التأكيدات تنسحق انسحاقـًا تحت وطأة الأدلة.

العهد الجديد: مصدر واحد أم مصادر كثيرة؟

قد يحتج الشكوكي قائلاً: "مهلاً! يمكن أن يكون عندك شهادة شهود عيان، ولكنك لا تستطيع أن تـُصَدِّق العهد الجديد لأنه يأتي من مصدر واحد فقط. إنها ليست "روايات متعددة مستقلة عن بعضها البعض" كما تقول". هذا خطأ شائع يرتكبه الشكوكيون لأنهم يعجزون عن التمييز بين الكتاب المقدس بوصفه "كتابًا دينيًا" والوثائق التاريخية التي تـُكَوِّن الكتاب المقدس.

فعندما نتناول تاريخية العهد الجديد، يجب أن نـُذكـِّر أنفسنا دائمًا أن العهد الجديد الذي نراه في الكتاب المقدس هو **مجموعة** من الكتابات المستقلة أساسًا بأقلام تسعة كـُتـَّاب مختلفين. فهو لم يُكتـَب أو يُحرَّر بقلم شخص واحد أو بقلم الكنيسة. ورغم أن كـُتـَّاب العهد الجديد يصفون نفس الأحداث في الكثير من الأحيان، بل قد يستقون مادتهم من نفس المصادر الأقدم، فالأدلة تبين أن وثائق العهد الجديد تحتوي على عدة شهادات مستقلة لشهود عيان.

كيف نعرف أن عندنا شهادات شهود عيان مستقلة؟ لأن ١) كل كاتب من الكـُتـَّاب الرئيسيين يُدْرِج مادة مبكـِّرة وفريدة لا يعرفها إلا شهود عيان. ٢) رواياتهم تصف نفس الأحداث الرئيسية ولكنها تتضمن تفاصيل مختلفة. ما أهمية اختلاف التفاصيل؟ لأنه لو

كانت كل الروايات من مصدر واحد أو محرر واحد، لكانت التفاصيل متماثلة وليست مختلفة. فعندما تَقُصّ الروايات المبكرة نفس القصة الأساسية وتختلف في التفاصيل، يتوصل المؤرخون إلى استنتاج صحيح مفاده أن الرواة لديهم روايات من شهود عيان مستقلين عن بعضهم بخصوص أحداث تاريخية حقيقية (الاختبار التاريخي #٣ في صفحة ٢٥٢). مستحيل أن تكون القصة مختلقة لأن المصادر المستقلة يستحيل أن تخترع نفس القصة الخيالية.

وبناءً على هذه المعايير، نعرف أن يوحنا ومرقس مستقلان، ونعرف أن لوقا ومتى يختلفان عن مرقس وعن بعضهما البعض بما يكفي ليجعلهما نتاجَ شهادات مستقلة أيضًا. إذَن هناك ما لا يقل عن أربعة مصادر مستقلة لقصة العهد الجديد الأساسية، وبإضافة بولس (١كورنثوس١٥: ٨) وبطرس (١بطرس١: ٢١) إلى المجموعة نجد على الأقل ستة مصادر مستقلة للقيامة.

ستة شهود عيان في كامل قواهم العقلية يرفضون إنكار شهادتهم حتى تحت تهديد الموت قادرون على إثبات أي تهمة على أي شخص في قاعة محكمة (حتى دون الأدلة الإضافية الداعمة التي تؤيد قصة العهد الجديد). إن شهادة شهود العيان هذه تفضي إلى حكم يقيني بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي. وما لم تكن قد رأيت الحدث بنفسك، لا يمكنك أن تصل إلى يقين أقوى من هذا بشأن أن تلك الأحداث التاريخية حدثت بالفعل.

الملخص والخلاصة

١- رأينا من الفصل التاسع أن:

أ) وثائق العهد الجديد مبكّرة وتضم أيضًا مادة من مصادر أقدم منها.

ب) ما لا يقل عن ١٠ كُتّاب قدماء غير مسيحيين يسجِّلون معلومات عن يسوع في غضون ١٥٠ سنة من حياته، وإشاراتهم مجتمعة تشكل قصة تتماشى مع قصة العهد الجديد.

٢- نستخلص من هذا الفصل أن:

أ) العهد الجديد يحوي من أربع إلى ست مجموعات على الأقل من شهادات مكتوبة **مبكرة لشهود عيان مستقلين.** ونحن نستخلص هذا للأسباب التالية:

(١) كُتَّاب العهد الجديد الرئيسيون يسجِّلون نفس الأحداث الرئيسية بتفاصيل مختلفة ومادة فريدة تميز كلاً منهم على حدة.

(٢) يذكرون ما لا يقل عن ثلاثين شخصية تاريخية حقيقية مشار إليها في كتابات قديمة غير مسيحية والكثير من الكشوف الأثرية المختلفة.

(٣) لوقا ينثر في النصف الثاني من سفر الأعمال ما لا يقل عن ٨٤ من التفاصيل التاريخية الصادرة عن شهود عيان والثابتة تاريخيًا ويذكر عدة تفاصيل أخرى من هذا النوع في إنجيله.

(٤) مصداقية لوقا المثْبَتة تؤكِّد مصداقية متى ومرقس لأنهما يسجلان نفس الأحداث الرئيسية للقصة.

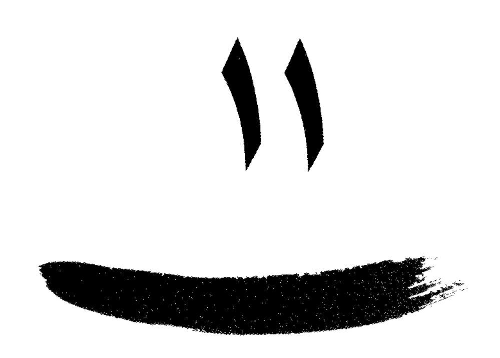
(٥) يوحنا يذكر في إنجيله ما لا يقل عن ٥٩ معلومة من شهود عيان، ثابتة تاريخيًا أو صحيحة تاريخيًا بنسبة كبيرة جدًا.

(٦) بولس وبطرس يدليان بالشهادتين المكتوبتين الخامسة والسادسة عن القيامة.

ب) بما أن شهادة شهود العيان المبكرة والمستقلة تقع في غضون جيل واحد من الأحداث، إذَن يستحيل أن تكون أحداث العهد الجديد أسطورية.

وعليه لا شك في أن أحداثًا تاريخية حقيقية تقع في صميم العهد الجديد. **والنقطة المحورية هي أن الشكوكي يحتاج إلى قدر كبير من الإيمان ليصدق أن العهد الجديد قصة خيالية.**

إلا أن هناك المزيد من القضايا التي ينبغي فحصها قبل أن نخلص إلى أن العهد الجديد يتمتع بمصداقية تاريخية مؤكدة. فمثلاً، كيف نعرف أن شهادة شهود العيان لا تنطوي على مبالغات أو إضافات؟ هذا هو السؤال الذي سنتناوله في الفصل التالي.



الأسباب العشرة الرئيسية التي تؤكد لنا صحة أقوال كُتَّاب العهد الجديد

"ما الذي يجعل الرسل يكذبون؟... لو كانوا يكذبون، فما دافعهم. ماذا استفادوا من ذلك؟ استفادوا منه إساءة الفهم، والرفض، والاضطهاد، والتعذيب، والاستشهاد. يا لها من استفادة!"

بيتر كريفت *Peter Kreeft*

رأينا أدلة قوية جدًا على أن وثائق العهد الجديد الرئيسية كتبها شهود عيان ومعاصروهم في غضون ١٥ إلى ٤٠ سنة من موت يسوع. أضف إلى ذلك تأكيدات المصادر غير المسيحية وعلم الآثار، ونعلم كذلك بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن العهد الجديد يقوم على الحق التاريخي. ولكن كيف نعرف أن الكُتَّاب لم يبالغوا أو يجِّملوا فيما يقولون إنهم رأوه؟ عندنا عشرة أسباب على الأقل تؤكد لنا أن كُتَّاب العهد الجديد لم يستهينوا بالحقائق.

١- كتَّاب العهد الجديد سجلوا تفاصيل محرجة عن أنفسهم

من الأساليب التي يستخدمها المؤرخون للتحقق مما إذا كان الكاتب يقول الحقيقة أن يختبروا ما يقوله بما يسمى "مبدأ الحَرَج" *"the principle of embarrassment"* (الاختبار

التاريخي #٧ في صفحة ٢٥٢). ويفترض هذا المبدأ أن أي تفاصيل محرجة للكاتب غالبًا صحيحة. لماذا؟ لأن معظم الكُتَّاب يميلون إلى إغفال أي شيء يشوه صورتهم.

كيف يحقِّق العهد الجديد مبدأ الحَرَج؟ لنُعَبِّر عن الفكرة بهذه الطريقة: لو كنت أنت وأصدقاؤك تؤلفون قصة تريدون أن تنقلوها على أنها حقيقة، هل ستقدمون أنفسكم في القصة كأناس جبناء قليلي الفهم، غير مبالين، موبَّخين، شكَّاكين؟ بالطبع لا. لكن هذا هو بالضبط ما نجده في العهد الجديد. مَنْ كتبوا جزءًا كبيرًا من العهد الجديد شخصيات (أو أصدقاء شخصيات) في القصة، وهم غالبًا ما يصورون أنفسهم في قمة الغباء:

- إنهم قليلو الفهم: كثيرًا ما يعجزون عن فهم كلام يسوع (مرقس٩: ٣٢؛ لوقا١٨: ٣٤؛ يوحنا١٢: ١٦).
- إنهم غير مبالين: فهم يتركون يسوع وينامون مرتين بينما يطلب منهم أن يُصَلّوا (مرقس١٤: ٣٢-٤١). ويؤمن كُتَّاب العهد الجديد فيما بعد أن يسوع هو الله وإنسان، ولكنهم يعترفون أنهم تركوه مرتين وناموا في أشد ساعاته ضيقًا! علاوة على ذلك، لا يبذلون أي جهد ليدفنوا صديقهم دفنًا لائقًا، ولكنهم يسجلون أن الذي دَفَنَ يسوع هو يوسف الرامي عضو السنهدريم اليهودي، نفس المحكمة التي حكمت بموت يسوع.
- إنهم موبَّخون: يسوع يُطلق على بطرس "شيطان" (مرقس٨: ٣٣)، وبولس يوبِّخ بطرس على خطئه بشأن إحدى القضايا اللاهوتية. فبولس يكتب «ولكن لما أتى بطرس إلى أنطاكية قاومته مواجهةً، لأنه كان ملومًا» (غلاطية٢: ١١). لاحظ أن بطرس أحد أعمدة الكنيسة الأولى، وها هو بولس يسجِّل في الكتاب المقدس أنه كان مخطئًا!
- إنهم جبناء: كل التلاميذ ما عدا واحدًا يختبئون عندما يذهب يسوع إلى الصليب. بل إن بطرس ينكره ثلاث مرات بعد أن وعده صراحةً قائلاً "لا أنكرك" (متى٢٦: ٣٣-٣٥). ومع ذلك، بينما يختبئ الرجال خوفًا من اليهود، تقف النساء الجريئات بجوار يسوع وهن أول مَنْ يكتشفن القبر الفارغ.
- إنهم شكاكون: رغم أن يسوع علَّمَ تلاميذه عدة مرات أنه سيقوم من الأموات (يوحنا٢: ١٨-٢٢؛ متى١٢: ٣٩-٤١؛ ١٦: ٢١؛ ١٧: ٩، ٢٢، ٢٣)، فعندما يسمعون بقيامته يشُكّون. بل إن بعضهم يشُكّون حتى **بعد** أن يروه قائمًا من الأموات (متى٢٨: ١٧)!

والآن فَكِّروا في هذا: لو كنتم من كُتَّاب العهد الجديد، هل كنتم ستسجلون هذه التفاصيل

المحرجة لو كنتم تختلقون قصة؟ هل كنتم ستكتبون أن واحدًا من كبار قادتكم دعاه يسوع "شيطانًا"، وأنه أنكر الرب ثلاث مرات، واختبأ أثناء الصلب، ثم صحَّحه آخَر بشأن قضية لاهوتية؟ هل كنتم ستصوّرون أنفسكم أشخاصًا غير مبالين، جبناء مذعورين، وتُصوِّرون النساء اللاتي لم تكن شهادتهن مقبولة في المحاكم، على أنهن الشخصيات الشُّجاعة اللاتي وقفن بجوار يسوع، وبعدئذ اكتشفن القبر الفارغ؟ هل كنتم ستعترفون أن البعض منكم (الأحد عشر تلميذًا الباقين) شكّوا في ابنِ الله نفسه **بعد** أن أثبت لكم جميعًا أنه قام من الأموات؟ بالطبع لا.

في رأيك لو كان كُتَّاب العهد الجديد يختلقون قصة، ماذا كانوا سيفعلون؟ أنت تعلم تمام العلم: كانوا سيغفلون قصورهم، وجبنهم، وتَوَبُّخهم، وحوادث الإنكار الثلاث، ومشكلاتهم اللاهوتية. وكانوا سيصورون أنفسهم مؤمنين شجعان وقفوا بجانب يسوع في محنته من البداية إلى النهاية وساروا بثقة إلى القبر صباح الأحد واخترقوا الحرس الروماني الرفيع ليجدوا يسوع القائم من الأموات في انتظارهم ليهنئهم على عظمة إيمانهم! والرجال الذين كتبوا القصة كانوا سيقولون أيضًا **إنهم** أعلنوا قيامة يسوع **للنساء** اللاتي اختبأن بسبب الخوف من اليهود. وطبعًا لو كانت القصة تأليفًا، لما رأينا أي تلميذ يشك في أي وقت (وبالأخص بعد قيامة يسوع).

باختصار، **لسنا نملك الإيمان الكافي لتصديق أن كُتَّاب العهد الجديد سجلوا كل تلك التفاصيل المحرجة في قصة من تأليفهم.** ولكن أفضل تفسير هو أنهم كانوا فعلاً يقولون الحق، وكشفوا صراحة عن كل أوجه القصور والعيوب.

٢- كُتَّاب العهد الجديد سجلوا تفاصيل محرجة وأقوال صعبة عن يسوع

كُتَّاب العهد الجديد أمناء بشأن يسوع أيضًا. فهم لا يقتصرون على تسجيل تفاصيل تديّنهم شخصيًا، بل يسجلون كذلك تفاصيل محرجة عن يسوع قائدهم، قد تُظهره بصورة سيئة. فيسوع:

- تعتبره عائلته "مختلاً" ويأتون ليمسكوه لكي يأخذوه إلى البيت (مرقس٣: ٢١، ٣١)
- إخوته لا يؤمنون به (يوحنا٧: ٥)
- يُظَنّ أنه مُضِلّ (يوحنا٧: ١٢)
- يهجره الكثير من أتباعه (يوحنا٦: ٦٦)

- يُنَفِّر منه اليهود ''الذين آمنوا به'' (يوحنا٨: ٣٠، ٣١) لدرجة أنهم يريدون أن يرجموه (ع٥٩)
- يقال عنه ''شريب خمر'' (متى١١: ١٩)
- يقال عنه ''به شيطان'' (مرقس٣: ٢٢؛ يوحنا٧: ٢٠؛ ٨: ٤٨)
- يقال عنه ''مجنون'' (يوحنا١٠: ٢٠)
- يسمح لعاهرة أن تمسح قدميه بشعرها (حَدَثٌ يمكن أن يُفهَم على أنه إشارة جنسية، لو٧: ٣٦- ٣٩)
- يُصلَب على يد اليهود والرومان رغم أن «المعلَّق ملعون من الله» (تثنية٢١: ٢٣؛ قارن غلاطية٣: ١٣)

مؤكَّد أن كُتَّاب العهد الجديد لو كانوا يحاولون أن يصوِّروا يسوع بصفته الله المتأنس (آخذًا صورة إنسان) الكامل الخالي من الخطية لَما اختاروا هذه الأحداث والصفات. وهذه الصفات لا تتفق مع التوقعات اليهودية عن المسيا الذي سيأتي ليحرّرهم من الظلم السياسي. والحقيقة أنه وفقـًا لكتابهم المقدس آنذاك (العهد القديم)، يسوع ملعون من الله لأنه عُلـِّقَ على خشبة! فأفضل تفسير لهذه التفاصيل المحرجة هو أنها حدثت بالفعل، وأن كُتَّاب العهد الجديد يقولون الحقيقة.

وبالإضافة إلى التفاصيل المحرجة، هناك عدة أقوال صعبة تـُنسَب إلى يسوع كان يستحيل أن يسجلها كُتَّاب العهد الجديد لو كانوا يختلقون قصة عن لاهوت يسوع. فمثلاً، يسوع وفقـًا للعهد الجديد:

- يصرح بأن «أبي أعظم مني» (يوحنا١٤: ٢٨)
- يبدو كما لو كان يتنبأ خطأً أنه سيعود إلى الأرض في خلال جيل (متى٢٤: ٣٤)
- ثم يقول عن مجيئه الثاني إن لا أحد يعلم الوقت «ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن» (مرقس١٣: ٣٢)
- قد يُفهم أنه ينكر لاهوته عندما يسأل الرئيسَ الشابَّ الغنيَّ «لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله» (لوقا١٨: ١٩)
- يُرى وهو يلعن شجرة تين لأنها لا تحمل تينًا رغم أنه لم يكن موسم التين (متى٢١: ١٨ وما بعده)
- يبدو عاجزًا عن صنع المعجزات في مدينته، فيما عدا شفاء قليل من المرضى (مرقس٦: ٥)

لو أراد كُـتّـاب العهد الجديد أن يُثْبِتوا للجميع أن يسوع هو الله، فلماذا إذَن تركوا هذه الأقوال الصعبة التي تبدو أنها تقدّم حجة ضد لاهوته؟

فضلاً عن ذلك، يسوع يزعم زعمًا في منتهى الغرابة: «الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم» (يوحنا٦: ٥٣). وبعد هذا القول الصعب، يقول يوحنا «من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه» (يوحنا٦: ٦٦). بما أن كُـتّـاب العهد الجديد ما كانوا ليخترعوا هذا القول الغريب وما نَتَجَ عنه من رد فعل غير مرغوب، فلا بد أنه صحيح.

رغم أن هناك تفسيرات منطقية لهذه الأقوال الصعبة،[١] فلا يُعقَل أن يتركها كُـتّـاب العهد الجديد لو كانوا يحاولون أن يُمَرِّروا كذبة على أنها حقيقة. (في الواقع لا يُـعقَل أن يخترعوا أصلاً شخصية مثل يسوع. مسيا ضعيف يموت كحمل ذبيح. إنه نقيض الأبطال الذين يصنعهم البشر). وهنا أيضًا أفضل تفسير هو أن كُـتّـاب العهد الجديد لم يستخفوا بالحقائق، بل كانوا في منتهى الدقة وهم يسجّلون ما قاله يسوع وعمله بالضبط.

٣- كُـتّـاب العهد الجديد سجلوا أقوالاً ليسوع صعبة التنفيذ

لو كان كُـتّـاب العهد الجديد يخترعون قصة، مؤكد أنهم لم يخترعوا قصة جعلت حياتهم أسهل. وذلك لأن يسوع هذا وضع مقاييس عسيرة جدًا. فالعظة على الجبل مثلاً لا تبدو اختراعًا بشريًا:

- «وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه» (متى٥: ٢٨).
- «وأما أنا فأقول لكم: إن مَنْ طَلَّقَ امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني، ومَنْ يتزوج مطلقة فإنه يزني» (متى٥: ٣٢).
- «وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل مَنْ لطمك على خدك الأيمن فحَوِّلْ له الآخر أيضًا. ومَنْ أراد أن يخاصمك ويأخذَ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا. ومن سخَّرك ميلاً واحدًا فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تَرُدَّه» (متى٥: ٣٩-٤٢).
- «وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل

الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى٥: ٤٤، ٤٥).

- «فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل» (متى٥: ٤٨).
- «لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يُفسِد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضًا» (متى٦: ١٩-٢١).
- «لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم» (متى٧: ١، ٢).

كل هذه الأوامر يصعب أو يستحيل على البشر تنفيذها ويبدو أنها ضد أعمق الاهتمامات الطبيعية عند الرجال الذين كتبوها. ومؤكد أنها ضد رغبات الكثيرين اليوم ممن يريدون دينًا ذا روحانية خالية من المتطلبات الأخلاقية. فكِّر فيما تتضمنه هذه الوصايا من معانٍ عسيرة وغير مرغوبة:

- إن كان التفكير في خطيةٍ ما فعلاً خاطئًا، إذَن الجميع، بما فيهم كُتَّاب العهد الجديد، مذنبون.
- وَضْع هذه المقاييس الصارمة للطلاق والزواج الثاني لا يبدو مناسبًا لأعمق الرغبات الدنيوية للرجال الذين سجلوا هذا القول.
- عدم مقاومة إهانات شخص شرير يعني مقاومة فطرتنا البشرية الأساسية، وهو ما يضع أيضًا مقياسًا صعبًا لسلوك الرسل الذين عانوا من الاضطهاد زمن كتابة هذه المقولة.
- الصلاة من أجل أعدائنا وصية تتجاوز كل ما قيل من مبادئ أخلاقية وتأمر باللطف حينما تكون العداوة هي الوضع الطبيعي.
- عدم تكويم الثروات والأموال يتناقض مع أعمق رغباتنا في تحقيق الأمان الزمني.
- أن نكون كاملين هو طلب مستحيل على بشر ناقصين.
- عدم الإدانة إلا إذا كانت حياتنا مستقيمة يتناقض مع ميلنا الطبيعي لإبراز ما في الآخرين من أخطاء.

واضح أن هذه الوصايا ليست من النوع الذي يودّ البشر أن يفرضوه على أنفسهم. فمن يستطيع أن يبلغ تلك المقاييس؟ الكاملون فقط. ربما هذا هو المغزى بالضبط.

٤- كتّاب العهد الجديد ميزوا جيداً بين كلام يسوع وكلامهم

رغم أن علامات التنصيص لم توجد في يونانية القرن الأول، كُتّاب العهد الجديد ميّزوا كلمات يسوع بمنتهى الوضوح. فمعظم طبعات الكتاب المقدس التي تظهر فيها كلمات يسوع باللون الأحمر* متطابقة، مما يبين مدى سهولة التمييز بين ما قاله يسوع وما لم يَقُلْه بفضل دقة كُتّاب العهد الجديد.

لماذا نعتبر هذا دليلاً على مصداقيتهم؟ لأنه كان من السهل جدًا على كُتَّاب العهد الجديد أن يُسَوّوا الخلافات اللاهوتية في القرن الأول بوضع كلمات على فم يسوع. فلو كنت تخترع "قصة المسيحية" وتحاول أن تمررها على أنها الحقيقة، ألن تخترع مزيدًا من الأقوال وتنسبها إلى يسوع لتقنع الناس العنيدين برؤية الأمور كما تراها؟ تخيل كم كان سهلاً أن ينهوا كل المجادلات في القضايا الخلافية مثل الختان، وطاعة ناموس موسى، والتكلم بألسنة، والنساء في الكنيسة، وغيرها، بمجرد اختراع أقوال ونَسَبها إلى يسوع.

ورغم الإحباط اللانهائي الذي حلَّ ببعض المؤمنين الأوائل، فكُتَّاب العهد الجديد لا يفعلون ذلك أبدًا. فبدلاً من استغلال سلطتهم على هذا النحو، يتضح أنهم يظلون أمناء لما قاله يسوع وما لم يَقُلْه. فبولس، الرجل الذي كتب ما يقرب من نصف أسفار العهد الجديد (على الأقل ثلاثة عشر من السبعة والعشرين)، وتعامل مع معظم تلك المشكلات الخلافية في الكنيسة، لا يستغل سلطته أبدًا. فهو يستشهد بأقوال يسوع في مناسبات قليلة. وفي إحدى هذه المناسبات، يحرص على أن يميز بوضوح بين كلامه وكلام يسوع (١كورنثوس٧: ١٠-١٢).

فلماذا كان بولس شديد الحرص بهذا الشكل لو لم يكن يقول الحقيقة؟ هنا أيضًا أفضل تفسير لدقة كُتَّاب العهد الجديد أنهم كانوا فعلاً يقولون الحقيقة.

٥- كتَّاب العهد الجديد يسجلون أحداثًا متعلقة بالقيامة ما كانوا ليخترعوها

إن كُتَّاب العهد الجديد، بالإضافة إلى تسجيل تفاصيل محرجة عن أنفسهم وعن يسوع، يسجلون أحداثًا متعلقة بالقيامة ما كانوا ليذكروها لو كانت القصة من اختراعهم. وتضم هذه الأحداث:

دفن يسوع: يسجل كُتَّاب العهد الجديد أن من دَفَنَ يسوع هو يوسف الرامي، عضو

* المقصود الطبعات الإنجليزية. (المترجمة)

السنهدريم، وهو المجلس الحاكم اليهودي الذي حكم على يسوع بالموت بتهمة التجديف. هذا حَدَثٌ يستحيل أن يكون من اختراعهم. وإن نظرنا إلى المرارة التي اعتملت في نفوس بعض المسيحيين تجاه السلطات اليهودية، فلماذا يرسمون هذه الصورة المضيئة لعضو في السنهدريم؟ ولماذا يضعون يسوع في قبر رَجُل في السلطة اليهودية؟ لأنه لو لم يكن يوسف قد دفن يسوع حقـًا، لانكشف زيف القصة بسهولة على يد أعداء المسيحية من اليهود. ولكن اليهود لم ينكروا القصة أبدًا، ولم يُعثـَر أبدًا على قصة دفن بديلة.

الشاهد الأول: الأناجيل الأربعة جميعًا تقول إن بعض النسوة كن أول شهود على القبر الفارغ وكن أول من عَلِمْن بالقيامة. ومن أولئك النسوة مريم المجدلية التي يعترف لوقا أنها كانت مسكونة بالشياطين (لوقا٨: ٢). هذا أمر يستحيل أن يُدْرَج في قصة مختلَقة. فشهادة شخص كان به شياطين مشكوك فيها. علاوة على هذا، **النساء** عمومًا لم يؤخذ بشهادتهن في تلك الثقافة في القرن الأول. والحقيقة أن شهادة المرأة لم يكن لها أي وزن في المحاكم. لذا، إن كنتم تؤلفون قصة عن القيامة في القرن الأول، ستتجنبون شهادة المرأة وتجعلون من أنفسكم، أنتم الرجال الشجعان، أول من يكتشف القبر الفارغ ويسوع القائم من الأموات. ولكن ذِكـْر شهادة النساء، وخاصةً المسكونات بأرواح شريرة، سيفسد محاولتكم لتمرير كذبة على أنها حقيقة.*

تحَوُّل الكهنة إلى الإيمان المسيحي: "لماذا لم يَظهر يسوع المُقام للفريسيين؟" سؤال شائع يسأله الشكوكيون. وربما الإجابة أنه لم يكن ضروريًا. فالأمر الذي غالبًا ما يُغفَل عنه أن الكثير من الكهنة في أورشليم آمنوا. ولوقا يكتب «وكانت كلمةُ الله تنمو، وعدد التلاميذ يتكاثر جدًا في أورشليم، **وجمهور كثير من الكهنة يطيعون الإيمان**» (أعمال٦: ٧). وهؤلاء الكهنة أثاروا في النهاية خلافـًا في كنيسة أورشليم. فأثناء اجتماع للمجمع بين بطرس وبولس ويعقوب وغيرهم من المشايخ «قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب **الفريسيين**، وقالوا: "إنه ينبغي أن [الأمم] يُختَنوا، ويوصَوا بأن يحفظوا ناموس موسى".» (أعمال١٥: ٥).

وحَلَّ المجمع القضية. ولكن نقطتنا الرئيسية هنا إنه لو كانت هذه التفاصيل خيالية لما دَوَّنَها لوقا. لماذا؟ لأن الجميع كانوا سيعرفون أن لوقا يزيف الحقائق لو لم يكن هناك جمهور

* من اللافت للانتباه أن الإقرار المسجل في ١كورنثوس١٥ لا يَذْكر النسوة ضمن شهود العيان. وقد يرجع ذلك إلى أن الرسل أدركوا أن ذِكر النساء لن يضيف مزيدًا من المصداقية على شهادة شهود العيان الذكور الأربعة عشر الواردة أسماؤهم في هذا الإقرار.

كثير من الفريسيين قد أطاع الإيمان. وكان ثاوفيلس وغيره من قراء القرن الأول سيعرفون الحقيقة، أو كان سيسهل عليهم اكتشافها. ومن الواضح أن الفريسيين أيضًا كانوا سيعرفون. فلماذا يُسَهِّل عليهم لوقا كشف أكاذيبه؟ فمهما كان، إن كنت تحاول أن تمرر كذبة على أنها الحقيقة، فأنت لا تُسَهِّل لأعدائك كشف قصتك. إنَّ تَحَوُّل الفريسيين إلى الإيمان ويوسف الرامي تفاصيل غير ضرورية، ولو لم تكن حقيقية لانكشف لوقا على حقيقته. وقصة يوسف كانت ستكشف كلاً من لوقا وسائر كُتَّاب الأناجيل لأنهم يسردون قصة الدفن نفسها.

تفسير اليهود: التفسير اليهودي للقبر الفارغ مدوَّن في آخر أصحاح من إنجيل متى:

> وفيما هما ذاهبتان إذا قوم من الحراس جاءوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما كان. فاجتمعوا مع الشيوخ، وتشاوروا، وأعطوا العسكر فضة كثيرة قائلين: "قولوا إن تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه ونحن نيام. وإذا سُمِع ذلك عند الوالي فنحن نستعطفه، ونجعلكم مطمئنين". فأخذوا الفضة وفعلوا كما علَّموهم، فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم (متى٢٨: ١١-١٥).

لاحِظْ أن متى يبيّن بوضوح أن قرّاءه يعرفون عن هذا التفسير اليهودي للقبر الفارغ لأنه يقول «فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم». وهو ما يعني أن قراء متى (وأكيد اليهود أنفسهم) كانوا سيعرفون إن كان يقول الحقيقة أم لا. فلو كان متى يؤلف قصة القبر الفارغ، لماذا يعطي قراءه هذه الوسيلة السهلة لكشف أكاذيبه؟ إن التفسير الوحيد المقبول أن القبر لا بد أنه كان فارغًا بالفعل، ولا بد أن أعداء المسيحية من اليهود كانوا فعلاً يُشيعون ذلك التفسير بالتحديد للقبر الفارغ. (الحقيقة أن يوستينوس الشهيد وترتليان اللذين كتبا سنة ١٥٠ وسنة ٢٠٠م على التوالي يزعمان أن السلطات اليهودية استمرت تروجُ قصة السرقة هذه طيلة القرن الثاني. وسنناقش مشكلات هذه النظرية في الفصل التالي).[٢]

٦- كُتَّاب العهد الجديد يذكرون في كتاباتهم أكثر من ثلاثين شخصية ثابتة تاريخيًا

هذه نقطة شديدة الأهمية تستحق التكرار. فمن المستحيل أن تكون وثائق العهد الجديد مختلَقة لأنها تحوي عددًا كبيرًا جدًا من الشخصيات الثابتة تاريخيًا (انظر الجدول ١٠-١ في الفصل العاشر). إن كُتَّاب العهد الجديد كان من الممكن أن يعصفوا بمصداقيتهم مع قرائهم المعاصرين بإقحام شخصيات حقيقية في قصة خيالية، وخاصةً ذوي السلطة والبطش. فكان

من المستحيل أن ينجو كُتَّاب العهد الجديد بفعلتهم لو كتبوا أكاذيب صريحة عن بيلاطس، وقيافا، وفستوس، وفيلكس، والعائلة الهيرودسية كلها. لا بد أن شخصًا ما كان سيكشف إقحامهم لهؤلاء الأشخاص في أحداث لم تقع مطلقًا. وقد عرف كُتَّاب العهد الجديد ذلك، وما كانوا ليدرجوا كل هؤلاء الأشخاص البارزين الحقيقيين في قصة خيالية هدفها الخداع. ومرة أخرى، أفضل تفسير أن كُتَّاب العهد الجديد سجَّلوا ما رأوه بدقة.

٧- كتَّاب العهد الجديد يختلفون في التفاصيل

النقاد ماهرون في اصطياد روايات الإنجيل التي تظهر متناقضة باعتبارها دليلاً على أنه لا يمكننا أن نثق في الأناجيل من حيث دقة معلوماتها. فمثلاً، متَّى يقول بوجود ملاك واحد عند قبر يسوع، ولكن يوحنا يذكر ملاكين. أليس هذا تناقضًا يعصف بمصداقية هاتين الروايتين؟ لا، بل العكس تمامًا هو الصحيح: التفاصيل المختلفة ترجّح أكثر أن هذه الروايات روايات شهود عيان. كيف؟

أولاً، دعنا نوضح أنه لا تناقض في رواياتي الملائكة. فمتَّى لا يقول إنه كان هناك ملاك واحد **فقط** عند القبر. فالناقد لا بد أن يضيف كلمة لرواية متَّى حتى تتناقض مع رواية يوحنا.[٣]

ولكن لو كان هناك ملاكان فعلاً، لماذا لا يذكر متَّى إلا ملاكًا واحدًا؟ لنفس السبب الذي يجعل صحفيَّين مختلفين يغطيان الحدث نفسه يختاران تفاصيل مختلفة في قصصهما. فشاهِدا عيان مستقلان عن بعضهما نادرًا ما يريان التفاصيل نفسها ولن يستخدما الكلمات عينها لوصف الحدث. إلا أنهما سيسجلان نفس الحدث الرئيسي (أي أن يسوع قام من الأموات)، ولكنهما قد يختلفان في التفاصيل (أي عدد الملائكة الذين كانوا عند قبره). والحقيقة أن القاضي عندما يسمع شاهدين يدليان بشهادتين متطابقتين تمام التطابق، ما الافتراض الصحيح الذي يفترضه القاضي؟ اتفاق سري؛ الشاهدان التقيا مسبقًا واتفقا على القصة.

إذَن من المنطقي جدًا أن يختلف متَّى عن يوحنا، فكلاهما يسجل شهادة شهود عيان. ربما متَّى ذكر فقط الملاك الذي تَكَلَّم (متى٢٨: ٥)، ولكن يوحنا وصف عدد الملائكة الذين رأتهم مريم (يوحنا١٠: ٢٠). أو من المحتمل أن أحد الملاكين كان أبرز من الآخر. لسنا نعلم على وجه اليقين. كل ما نعرفه أن هذه الاختلافات شائعة بين شهود العيان.

وفي ضوء الاختلافات العديدة في تفاصيل العهد الجديد، يتضح أن كُتَّاب العهد الجديد لم يتقابلوا معًا للاتفاق على شهادة مناسبة. وهو ما يعني أنه من المؤكد أنهم لم يحاولوا تمرير كذبة على أنها حقيقة. لأنهم لو كانوا يخترعون قصة العهد الجديد، لاجتمعوا معًا ليضمنوا أنهم متفقون في كل التفاصيل. ولكن من الواضح أن هذا التوافق لم يحدث، وهو ما يؤكد صدق شهادة شهود العيان في العهد الجديد واستقلالية كل كاتب.

ومن المضحك أنه ليس العهد الجديد هو المتناقض، بل النقاد. فمن ناحية، يزعم النقاد أن الأناجيل الإزائية (متَّى ومرقس ولوقا) شديدة التوافق لدرجة أنها لا يمكن أن تُعتبَر مصادر مستقلة. ومن ناحية أخرى، يزعمون أنها شديدة الاختلاف لدرجة أنها لا يمكن أن تكون صادقة. فأي الاثنين هي؟ هل هي شديدة التوافق أم شديدة الاختلاف؟

في الحقيقة نحن نرى أنها مزيج مثالي من الاثنين. وهو ما يعني أنها متوافقة بما يكفي ومختلفة بما يكفي (ولكنها ليست شديدة التوافق ولا شديدة الاختلاف)، وذلك لأنها روايات شهود عيان مستقلة بخصوص الأحداث نفسها. فعندما نقرأ حدثًا في ثلاثِ صحف مستقلة عن بعضها نتوقع أن نرى اتفاقًا في الحقائق الرئيسية واختلافات في التفاصيل الفرعية.

إن كنت لا تصدقنا، فاذهب إلى الإنترنت اليوم واقرأ في الأخبار ثلاثَ قصص مستقلة بخصوص حدث واحد. خذ قصة من وكالة أسوشيتد پرس، وقصة أخرى من رويترز. وربما الثالثة من يونايتد پرس إنترناشونال أو صحفي مستقل. ستجد أن كل قصة تحوي بعضًا من الحقائق الرئيسية نفسها ولكنها قد تتضمن تفاصيل فرعية مختلفة. وفي معظم الحالات الروايات تكون **مُكَمِّلة** لبعضها البعض لا متناقضة.

فمثلاً، إن كانت ثلاثة مصادر إخبارية تنقل قصة عن زيارة الرئيس لبلد أجنبي، فالقصص كلها ستُصيب في تحديد البلد، ولكنها قد تختلف فيما تبرزه من تفاصيل. فإن قالت إحدى الروايات إن الرئيسَ زار رئيس وزراء بريطانيا العظمى، وإن قالت رواية أخرى إن الرئيسَ زار رئيس الوزراء في غرفة ذات أعمدة رخامية، هل هاتان الروايتان مكملتان لبعضهما أم متناقضتان؟ مُكَمِّلتان. إن الرواية الثانية لا تناقض الأولى، ولكنها تضيف لها.

وهكذا تتفقُ كل الأناجيل في الحقيقة الرئيسية، ألا وهي قيامة يسوع من الأموات. ولكنها تختلف في التفاصيل المُكَمِّلة لبعضها. وحتى لو وجدنا بعض التفاصيل الفرعية المتناقضة تناقضًا صريحًا بين الأناجيل، فهذا لن يُثْبت أن القيامة حدث خيالي. إنها

قد تثير مشكلة حول التعليم القائل بِخُـلُـوّ الكتاب المقدس من أي أخطاء ثانوية، ولكنها لا تنفي الحدث الرئيسي.

إن سايمون جرينليف *Simon Greenleaf*، أستاذ القانون في جامعة هارڤارد الذي كتب دراسة قياسية عن مقومات الأدلة القانونية، أرْجَع الفضل في تحوله للمسيحية إلى ما قام به من فحص دقيق لشهادات الإنجيل. فإن كان هناك مَنْ يعرف مواصفات شهادة شهود العيان الصادقة، فهو جرينليف. وقد خَلـُص إلى أن الأناجيل الأربعة "تـُقبَل باعتبارها بيِّنة دون أدنى تردد في أي محكمة قانونية".[٤]

الفكرة المحورية هي: الاتفاق في النقاط الرئيسية والاختلاف في التفاصيل الفرعية هو طبيعة شهادة شهود العيان، وهي نفسها طبيعة وثائق العهد الجديد.

٨- كُتَّاب العهد الجديد يتَحَدَّون قراءهم لمراجعة الحقائق التي يمكن التحقق منها، حتى الحقائق المختصة بالمعجزات

رأينا بعض المزاعم المتعلقة بالدقة التي يقدمها كُتـَّاب العهد الجديد لقراء وثائقهم. ومنها تأكيد لوقا الصريح لثاوفيلس عن دقة روايته (لوقا١: ١-٤)، وزَعْم بطرس أنهم لم يتبعوا خرافات مصنعة، بل قد كانوا معاينين عظمة المسيح (٢بطرس١: ١٦)، وتصريح بولس الجريء لفستوس والملك أغريباس عن المسيح المُقام (أعمال٢٦)، واستشهاد بولس بقانون إيمان مبكر يذكر أكثر من ٥٠٠ شاهد عيان للمسيح المُقام (١كورنثوس١٥).

إضافةً إلى ذلك، بولس يقدم زعمًا آخر لأهل كورنثوس ما كان لينطق به إلا إذا كان يقول الحق. ففي رسالته الثانية إلى مؤمني كورنثوس، يعلن أنه صنع لهم معجزات فيما سبق. ففي حديث بولس عن مؤهلاته بصفته رسولاً، أي شخصًا يتحدث بالنيابة عن الله، نجده يُذَكـِّر أهل كورنثوس بأن «علامات الرسول صُنِعت بينكم في كل صبر، بآيات وعجائب وقوات» (٢كورنثوس١٢: ١٢).

فلماذا يكتب بولس هذا الكلام لأهل كورنثوس إلا إذا كان قد صنع لهم معجزات بالفعل؟ لو طلب منهم أن يتذكروا معجزات لم يصنعها لهم مطلقـًا لقضى على مصداقيته تمامًا. ولكن الاستنتاج الوحيد المعقول أن ١) بولس كان رسولاً لله بالفعل. ٢) ومن ثم كان قادرًا على تأكيد رسوليته بصنع المعجزات. ٣) أظهر هذه القدرة علنـًا أمام الكورنثيين.

٩- كتّاب العهد الجديد يصفون المعجزات مثل غيرها من الأحداث التاريخية: بروايات بسيطة دون تجميل

التفاصيل التي تنطوي على مبالغة وتجميل للحقائق تُعَدّ علامات قوية على أن السرد التاريخي يحوي عناصر أسطورية. فمثلاً، هناك سرد أسطوري لقيامة المسيح كُتِب بعد الحدث الفعلي بأكثر من ١٠٠ سنة. وهو من الكتاب الأبوكريفي المزيف المعروف باسم "إنجيل بطرس" *Gospel of Peter* وهو يقول:

> في الصباح الباكر، مع بزوغ فجر يوم الرب، أتى جمهور غفير من أورشليم والمناطق المحيطة ليروا القبر المختوم. ولكن في العشية قبل بزوغ فجر يوم الرب، بينما كان العسكر يحرسون اثنين اثنين في كل نوبة، جاء صوت عظيم من السماء، ورأوا السماوات مفتوحة ورجلان ينزلان مضيئَين بنور باهر، واقتربا من القبر. والحجر الذي كان موضوعًا على الباب تدحرج من نفسه وتحرك إلى أحد جانبي القبر. وانفتح القبر ودخل الشابان.
>
> وعندما رأى هؤلاء العسكر ذلك، أيقظوا قائد المائة والشيوخ (لأنهم أيضًا كانوا يحرسون هناك). وبينما كانوا يخبرونهم بما رأوه، رأوا ثلاثة رجال خارجين من القبر. اثنان منهم يسندان الآخر، وصليب يتبعهم. ورأسا الرجلين اللذين رأوهما يبلغان السماء، ولكن رأس الذي كانا يقودانه تَخَطَّى السماء. وسمعوا صوتًا من السماوات يقول "هل وعظتَ لهم عن ذلك الرقاد؟" وكانت الإجابة التي سُمِعَت من الصليب: "نعم".[٥]

مدهش! هذه هي الطريقة التي كنت سأستخدمها لو أردت تأليف قصة القيامة أو تجميلها! فنحن نرى جماهير غفيرة، وحجارة متحركة، ورؤوس رجال تطول السماء وتتجاوزها. بل إننا نرى صليبًا سائرًا متحدثًا. يا للإثارة! يا للتضخيم.

ولكن روايات القيامة في العهد الجديد لا تحوي أي شيء من هذا القبيل. فالأناجيل تقدِّم أوصافًا للقيامة خالية من المؤثرات العاطفية، وتكاد تكون عادية.

فمثلاً مرقس يصف ما رأته النسوة على هذا النحو:

> فتطلعن ورأين أن الحجر قد دُحرِج! لأنه كان عظيمًا جدًا. ولما دخلن القبر رأين شابًا جالسًا عن اليمين لابسًا حلة بيضاء، فاندهشن. فقال لهن: "لا تندهشن! أنتن

تطلبن يسوع الناصري المصلوب. قد قام! ليس هو ههنا. هوذا الموضع الذي وضعوه فيه. لكن اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: إنه يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه كما قال لكم". فخرجن سريعًا وهربن من القبر، لأن الرعدة والحيرة أخذتاهن. ولم يقلن لأحد شيئًا لأنهن كُنَّ خائفات (مرقس١٦: ٤-٨).

ووصْف **لوقا** يشبهه في بساطته:

فوجدن الحجر مدحرجًا عن القبر، فدخلن ولم يَجِدنْ جسد الرب يسوع. وفيما هن محتارات في ذلك، إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة. وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض، قالا لهن: "لماذا تطلبن الحي بين الأموات؟ ليس هو ههنا، لكنه قام! اذكرن كيف كلمكن وهو بعد في الجليل قائلاً: إنه ينبغي أن يسلم ابن الإنسان في أيدي أناس خطاة، ويصلب، وفي اليوم الثالث يقوم". فتذكرن كلامه (لوقا٢٤: ٢-٨)

وإنجيل **يوحنا** يذكر بإيجاز اكتشاف مريم المجدلية للقبر الفارغ، ويضيف خبرة بطرس ويوحنا، ثم يعود إلى مريم خارج القبر. ومرة أخرى لا تظهر أي زيادة أو مبالغة في هذه الرواية:

وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرًا، والظلام باقٍ. فنظرت الحجر مرفوعًا عن القبر. فركضت وجاءت إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه، وقالت لهما: "أخذوا السيد من القبر، ولسنا نعلم أين وضعوه!". فخرج بطرس والتلميذ الآخر وأتيا إلى القبر. وكان الاثنان يركضان معًا. فسبق التلميذ الآخر بطرس وجاء أولاً إلى القبر، وانحنى فنظر الأكفان موضوعة، ولكنه لم يدخل. ثم جاء سمعان بطرس يتبعه، ودخل القبر ونظر الأكفان موضوعة، والمنديل الذي كان على رأسه ليس موضوعًا مع الأكفان، بل ملفوفًا في موضعٍ وحده. فحينئذٍ دخل أيضًا التلميذ الآخر الذي جاء أولاً إلى القبر، ورأى فآمن، لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب: أنه ينبغي أن يقوم من الأموات. فمضى التلميذان أيضًا إلى موضعهما.

أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجًا تبكي. وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر، فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحدًا عند الرأس والآخر عند الرجلين، حيث كان جسد يسوع موضوعًا (يوحنا٢٠: ١-١٢).

ثم تصف رواية يوحنا ظهور يسوع لمريم.

أما رواية **متى** لخبرة النساء أكثر دراماتيكية، ولكنها لا تشتمل على أي شيء غريب مثل

الرؤوس الشاهقة، أو الصليب السائر الناطقِ كما نرى في الرواية الأسطورية الواردة في "إنجيل بطرس":*

> وإذا زلزلة عظيمة حدثت، لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عن الباب، وجلس عليه. وكان منظره كالبرق، ولباسه أبيض كالثلج. فمن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كأموات. فأجاب الملاك وقال للمرأتين: "لا تخافا أنتما، فإني أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب. ليس هو ههنا، لأنه قام كما قال! هلما انظرا الموضع الذي كان الرب مضطجعًا فيه. واذهبا سريعًا قولا لتلاميذه: إنه قد قام من الأموات. ها هو يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه. ها أنا قد قلت لكما" (متى٢٨: ٢-٧).

القيامة هي الحدث المركزي في المسيحية. وكما كتب بولس «وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطل إيمانكم. أنتم بعد في خطاياكم!» (١كورنثوس١٥: ١٧). لو كانت القيامة قصة مختلَقة تهدف لإقناع المتشككين، مؤكد أن كُتّاب العهد الجديد كانوا سيسردون روايات أطول وبمزيد من التفاصيل. ومن المحتمل أنهم كانوا سيقولون إنهم شهدوا يسوع يقوم جسديًا من الأموات. ولكنهم يصلون إلى القبر بعد قيامته، ولا يحاولون إطلاقًا أن يُجَمِّلوا اكتشافهم بأوصاف مُسهِبة ولا صلبان ناطقة كالأشياء التي نراها في أفلام الكارتون. بل إن متى ومرقس ولوقا لا يقولون شيئًا عن المعاني اللاهوتية العميقة المتضمنة في القيامة، ويوحنا يسجل تلك المعاني في جملة واحدة فقط (يوحنا٢٠: ٣١).

وهذه النقطة المختصة بالحدود اللاهوتية عند كُتّاب الأناجيل تستحق مزيدًا من المناقشة. فهي تبين أن كُتّاب الأناجيل كانوا معنيين بتسجيل التاريخ الصحيح، لا اختراع نوع جديد من اللاهوت. وأستاذ العهد الجديد إن. تي. رايت *N. T. Wright* له ملاحظة ثاقبة في هذا الصدد إذ يقول "لا "الذهاب للسماء بعد الموت"، ولا "الحياة بعد الموت"، ولا "الحياة الأبدية"، ولا حتى "قيامة كل شعب المسيح" مذكورة في قصص القيامة القانونية الأربع. فلو أراد متى ومرقس ولوقا ويوحنا أن يروُوا قصصًا فحواها أن "يسوع قام، فأنتم أيضًا ستقومون"، فهم قد فشلوا في ذلك فشلاً ذريعًا".[٦]

إن فكرت في هذا الكلام تجده صادمًا. فعندما تذهب إلى معظم اجتماعات الكنائس

* حتى إن جادل أحدهم بأن الملاك في رواية متى إضافة للتضخيم، هذا لا ينفي تاريخية القيامة. فحتى إنجيل بطرس، على ما فيه من مبالغة، يقوم على حقيقة القيامة التاريخية.

الإنجيلية اليوم، تجد أن التركيز دائمًا على رسالة "تعالَ إلى يسوع فتَخَـلَّـص". بالتأكيد هذا ما يُعَلِّم به العهد الجديد كله، ولكنه لا يكاد يُذكر في الأناجيل. لماذا؟ لأن كُتَّاب الأناجيل كانوا يكتبون تاريخـًا، لا لاهوتـًا خالصًا. طبعًا تاريخ العهد الجديد يتضمن معاني جوهرية تُشَكِّل اللاهوت، إلا أن تلك المعاني تُستخلَص في كتابات أخرى في العهد الجديد، ألا وهي الرسائل. كان من السهل على كُتَّاب الأناجيل أن يحشروا المضامين اللاهوتية لكل حدث تاريخي، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك. لقد كانوا شهود عيان يدونون تاريخـًا، لا مؤلِّفي روايات خيالية ولا لاهوتيين يقنعون الناس باعتناقِ دين جديد.

ويتضح أيضًا اتزانهم فيما يسجلونه من معجزات أخرى. فالمعجزات الخمس والثلاثون الأخرى المنسوبة ليسوع في الأناجيل مدونة كأنها تقارير صحفية، لا عظات حماسية. فكُتَّاب الأناجيل لا يقدمون أوصافـًا براقة ولا تعليقات نارية، بل الحقائق فقط.

١٠- كُتَّاب العهد الجديد هجروا عقائدهم وممارساتهم المقدسة المتأصلة، وتبعوا عقائد وممارسات جديدة، ولم ينكروا شهادتهم أمام الاضطهاد أو التهديد بالموت

كُتَّاب العهد الجديد لا يكتفون بأن يقولوا إن يسوع صنع معجزات وقام من الأموات، ولكنهم يؤيدون تلك الشهادة بأفعال ثورية. فهم أولاً يهجرون الكثير من عقائدهم وممارساتهم المقدسة التي طالما آمنوا بها، في ليلة وضحاها إن جاز التعبير. وقد هجروا ما يلي من أنظمة يبلغ عمرها أكثر من ١٥٠٠ سنة:

- نظام الذبائح الحيوانية: يستعيضون عنه للأبد بذبيحة المسيح الكاملة.
- قوة ناموس موسى الملزمة: فهم يقولون إنه بلا قوة بفضل حياة المسيح الخالية من الخطية.
- التوحيد الجامد: وهم الآن يعبدون يسوع؛ الله المتأنس، رغم أن ١) عقيدتهم العزيزة عليهم كانت «اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد» (تثنية٦: ٤). ٢) عبادة الإنسان كانت دائمًا تُعتبر تجديفـًا يستوجب الموت.
- السبت: لم يعودوا يحفظون السبت رغم أنهم آمنوا دائمًا أن كسر السبت عقوبته الموت (خروج٣١: ١٤).
- الاعتقاد في مسيا غاز: كان يسوع عكس فكرة المسيا الغازي. إنه حَمَلٌ ذبيح (على الأقل في مجيئه الأول).

وليس كُتَّاب العهد الجديد فقط هم من يفعلون ذلك، بل الآلاف من يهود أورشليم، ومنهم الكهنة الفريسيون، يتحولون إلى المسيحية وينضمون لكُتَّاب العهد الجديد في ترك هذه العقائد والممارسات الثمينة. ويساعدنا ج. ب. مورلاند *J. P. Moreland* أن نفهم قيمة تخلّي هؤلاء اليهود الأتقياء عن أنظمتهم الراسخة في ليلة وضحاها تقريبًا:

> [اليهود] آمنوا أنهم ائتُمنوا من الله على هذه الأنظمة. وقد آمنوا أن التخلي عن هذه الأنظمة يعني هلاك نفوسهم في جهنم بعد الموت.
>
> والآن يظهر مُعَلِّم اسمه يسوع من إقليم قليل الشأن. ويُعَلِّم لمدةِ ثلاثِ سنوات، ويجمع أتباعًا من الطبقة الدنيا والمتوسطة، ويدخل في مشكلات مع السلطات، ويُصلَب مع ثلاثين ألف رجل يهودي آخر يعدمون في هذه الفترة.
>
> ولكن بعد صلبه بخمسة أسابيع، أكثر من عشرة آلاف يهودي يتبعونه ويزعمون أنه مؤسِّس ديانة جديدة. وخذ هذا أيضًا: إنهم مستعدون أن يغيروا أو يهجروا الأنظمة الاجتماعية الخمسة التي تعَلَّموا ما لها من أهمية اجتماعية ولاهوتية منذ صبـاهم. ... يا له من أمر عظيم **جدًا**.[٧]

كيف تفسر هذه التغيرات الجذرية لو كان كُتَّاب العهد الجديد يخترعون قصة؟ كيف تفسرها لو لم تكن القيامة قد حدثت؟

ثانيًا، هؤلاء المؤمنون الجدد لا يهجرون عقائدهم وممارساتهم المتأصلة فقط، ولكنهم أيضًا يتبعون عقائد وممارسات جديدة ثورية. ومنها أن:

- يوم الأحد، وهو يوم عمل، أصبح يوم العبادة الجديد.
- المعمودية علامة جديدة على أن الشخص شريك في العهد الجديد (كما كان الختان علامة على العهد القديم).
- عشاء الرب عمل تذكاري لذبيحة المسيح عن خطاياهم.*
- عشاء الرب بوجه خاص لا يُفهم إلا إذا كانت القيامة صحيحة. فلماذا يخترع اليهود ممارسة فيها يأكلون جسد يسوع ويشربون دمه رمزيًا؟

---

* رسالة بولس الأولى إلى مؤمني كورنثوس، التي كُتِبَت في منتصف الخمسينيات بعد الميلاد، تتناول قضية عشاء الرب كما لو كانت ممارسة موجودة منذ فترة. فبولس يقول إنه سَلَّمَهم ما تَسَلَّمه من الرب (١كورنثوس١١: ٢٣). وكانت زيارة بولس الأولى لكورنثوس حوالي سنة ٥١ م ومحتمل أنه أثناء هذه الزيارة سلَّمهم ممارسة عشاء الرب. وهو ما يعني طبعًا أن بولس تَسَلَّمها قبل ذلك.

والجدول ١١-١ يلخِّص التغيرات الجذرية التي أحدثتها القيامة:

معتقدات ما قبل القيامة	معتقدات ما بعد القيامة
ذبائح حيوانية	لا فائدة منها بعد ذبيحة المسيح
ناموس موسى الملزِم	غير ملزم لأنه تَحقَّقَ بحياة المسيح
الوحدانية الجامدة	الثالوث (ثلاثة أقانيم في جوهر إلهي واحد)
السبت	استُبدِل بعبادة الأحد
مسيا غازٍ منتصر	مسيا ذبيح (سيغزو ويغلب عندما يعود)
الختان	استُبدِل بالمعمودية وعشاء الرب

الجدول ١١-١

أخيرًا، بالإضافة إلى التخلي عن الأنظمة المقدسة القديمة جدًا واتّباع أنظمة جديدة؛ فقد عانى كُتَّاب العهد الجديد من الاضطهاد والموت رغم أنه كان بإمكانهم أن ينقذوا أنفسهم بإنكار إيمانهم. لو كانوا قد اخترعوا قصة القيامة، لقالوا ذلك بالتأكيد قبيل صَلْبهم (بطرس)، أو رجمهم (يعقوب)، أو قطع رؤوسهم (بولس). ولكن لم ينكر أحد منهم إيمانه، وقد استُشهِد أحد عشر من الاثني عشر في سبيل إيمانهم (الوحيد الذي نجا كان يوحنا الذي نُفي إلى جزيرة بطمس اليونانية). لماذا يموتون من أجل كذبة معروفة؟

تشَك كولسون *Chuck Colson* المساعد السابق للرئيس نيكسون ومؤسس رابطة السجون *Prison Fellowship* سُجِنَ بسبب فضيحة واترجيت *Watergate*. وقد كتب يقارن بين خبرته وخبرة الرسل:

> واترجيت اشتملت على مؤامرة للتغطية، وقد ارتكبها مساعدو رئيس الولايات المتحدة المقربون، أقوى رجال أمريكا الذين كانوا شديدي الولاء لرئيسهم. إلا أن واحدًا منهم وهو چون دين *John Dean* وشى بنيكسون، أي شهد ضده لكي "ينفد بجلده" على حد تعبيره، وقد فعل ذلك بعد أسبوعين فقط من إخطار الرئيس بحقيقة الوضع، أسبوعين! إن التغطية الحقيقية، الكذبة، لم تقدر أن تصمد إلا أسبوعين، بعدئذٍ قفز الجميع من السفينة لينجوا بحياتهم. والحقيقة أن كل المحيطين

بالرئيس كانوا يواجهون موقفًا مشينـًا، قد يصل إلى السَّجن. ولكن لم تكن حياة أي منهم معرضة للخطر. ولكن ماذا عن التلاميذ؟ اثنا عشر رجلاً لا حول لهم ولا قوة، فلاحون في الواقع، لم يواجهوا موقفًا مشينـًا ولا فضيحة سياسية، بل كانوا يواجهون الضرب، والرجم، والإعدام. كل تلميذ من التلاميذ أصر حتى النـَّفَس الأخير أنه رأى يسوع رؤى العين مقامًا بالجسد من الأموات. ألا تظن أن أحد أولئك الرسل كان سينهار ويُقِرّ بالحقيقة قبل أن يُقطع رأسه أو يرجم؟ أو أن أحدهم كان يمكن أن يعقد صفقة مع السلطات؟ ولا واحدًا فعل ذلك.[٨]

كولسون على حق. مؤكّد أن الرسل كانوا سيُقرّون بالحقيقة لينقذوا أنفسهم. فقد أنكر بطرس يسوع ثلاث مرات قبل القيامة حتى "ينفد بجلده"! مؤكد أنه كان سينكره بعد القيامة لو ثبت أن القصة خدعة.

وقد أشار قاضي المحكمة العليا بالولايات المتحدة أنتونين سكليا *Antonin Scalia* إلى سخف مَنْ يشـُكّون في تاريخية العهد الجديد. ففي تعليق ساخر ضد مفكري العصر الحديث عبَّر سكليا بالضبط عما قلناه بشأن دوافع كـُتـَّاب العهد الجديد. ألا وهو بما أن كـُتـَّاب العهد الجديد لم يكن أمامهم أي مكسب وكانوا يواجهون كل أنواع الخسائر، يجب أن نصدق ما يقولونه عن القيامة. فقد صرح سكليا قائلاً: "ليس عبثـًا أن نقبل شهادة شهود العيان الذين ما كانوا سينتفعون أي شيء... حكماء [العالم] لا يؤمنون بقيامة الأموات. لذا كان على المساكين المتحمسين أن يخترعوا كل شيء من صباح القيامة إلى الصعود باعتباره جزءًا من خطتهم للاستشهاد".[٩]

سكليا وكولسون مُحِقـَّان تمامًا. لا مبرِّر للشك في روايات العهد الجديد، وعندنا كل المبررات لتصديقها. فرغم أن الكثيرين يمكن أن يموتوا في سبيل كذبة يظنون أنها حقيقة، فما من شخص عاقل يموت في سبيل شيء **يعرف** أنه كذبة. إن كـُتـَّاب العهد الجديد والرسل عرفوا يقينـًا أن يسوع قام، وقد أظهروا هذه المعرفة بدمائهم. فماذا يفعل شهود العيان أكثر من ذلك ليُثبتوا أنهم يقولون الحق؟

ماذا عن الانتحاريين؟

قد يعترض الشكوكي قائلاً: "انتظر لحظة. إننا نرى أناسًا يموتون من أجل إيمانهم كل يوم. هل تشاهد الأخبار؟ يوجد انتحاري كل أسبوع. سرعان ما نسيت ١١ سبتمبر؟ إن مختطفي

الطائرة فعلوا ذلك في سبيل الله! فما الذي يُثبته الاستشهاد؟ هل يُثبت أن عقيدتهم أيضًا حق؟"

كلا، على الإطلاق. هناك بعض التشابهات، ولكن هناك اختلاف جوهري بين شهداء العهد الجديد وهؤلاء. التشابه فيما بين كل الشهداء هو الإخلاص. فسواء كنت تتحدث عن المسيحيين، أو من يقومون بالعمليات الانتحارية، الكل يتفق أن الشهداء يؤمنون بقضيتهم بإخلاص. ولكن الفرق الجوهري هو أن شهداء العهد الجديد المسيحيين كان لديهم ما هو أكثر من الإخلاص، لقد كان لديهم أدلة على حقيقة القيامة. لماذا؟ لأن **شهداء العهد الجديد كانوا شهود عيان للمسيح المُقام**. لقد عرفوا أن القيامة حقيقة وليست كذبة لأنهم تحققوا منها بحواسهم. لقد رأوا يسوع الذي قام من الأموات ولمسوه وأكلوا معه في عدة مناسبات. ورأوه قبل ذلك يصنع أكثر من ثلاثين معجزة. وفي ضوء هذه الأدلة التجريبية القوية، لم تكن لهم حاجة إلا لقدر قليل جدًا من الإيمان ليُصَدِّقوا حدث القيامة. فقد كان عندهم **برهان** بناءً على الملاحظة التي تعتمد على الحس السليم. لذلك، سلَّموا أنفسهم طوعًا للاضطهاد والموت في سبيل ما تحققوا منه بأنفسهم.

وهو ما يختلف عن أي شيء في أي منظومة عقائدية أخرى تُنتج شهداء؛ فرغم أنهم من المؤكد مخلصون لإيمانهم، فهم لا يملكون برهانًا معجزيًا من شهود عيان على صحة ما يعتقدون. أي أنهم ليسوا شهود عيان لأي شيء معجزي.

اختلاف جوهري آخر أن المسيحية بدأت بصفتها إيمانًا مسالمًا وكانت تُعتبر مخالفة للقانون على مدى حوالي ٢٨٠ سنة من نشأتها (وفي هذه الأثناء شهدت أعظم نمو لها). فإن أصبحت مسيحيًا في الإمبراطورية الرومانية قبل نحو سنة ٣١١، كان يمكن أن تُقتل.

وهنا سيتدخل الشكوكي قائلاً: "وماذا عن الحملات الصليبية؟". خذ درس تاريخ، الحملات الصليبية لم تبدأ إلا في سنة ١١٠٠ تقريبًا، أي بعد بداية المسيحية بأكثر من ١٠٠٠ سنة. والسبب الأساسي للحملات الصليبية كان سياسيًا لا علاقة له بالمسيحية نفسها.

فإن كان يمكننا أن نفهم لماذا ينتشر الدين بالقوة العسكرية، فلماذا ينتشر الدين عندما يتعرض أتباعه للاضطهاد والتعذيب والقتل في أول ٢٨٠ سنة من نشأته؟ (**ليست** عوامل جذب لتسويق أي شيء). ربما هناك شهادة موثوقة جدًا عن أحداث معجزية تُثبت صحة الدين. وإلا كيف تفسِّر التحوُّل الفجائي لمجموعة من الجبناء الخائفين المشتتين المتشككين إلى قوة مُرسَلية سلمية لم يعرف العالم مثيلاً لها في التكريس والإصرار وبذل الذات؟

الملخص والخلاصة

في الفصلين الأخيرين رأينا أن عندنا نسخة دقيقة من شهادة شهود العيان المبكرة في وثائق العهد الجديد. وسؤالنا المحوري في هذا الفصل يختص بالتأليف والإضافة والمبالغة. أي هل كُتـَّاب العهد الجديد اخترعوا عناصر القصة أو أضافوا عليها أو بالغوا فيها؟ هل استهانوا بالحقائق؟

لا. بل كما رأينا، هناك ما لا يقل عن عشرة أسباب وجيهة للتأكد من صدق الرجال الذين سجلوا ما رأوا بأمانة ودقة. إن كُتـَّاب العهد الجديد:

١- يَذْكُرون العديد من التفاصيل المحرجة عن أنفسهم.

٢- يذكرون العديد من التفاصيل المحرجة والأقوال الصعبة عن يسوع.

٣- يذكرون الأقوال العسرة التنفيذ التي قالها يسوع.

٤- يميزون بدقة بين كلام يسوع وكلامهم.

٥- يذكرون أحداثـًا عن القيامة لا يمكن أن تكون من اختراعهم.

٦- يذكرون في كتاباتهم ما لا يقل عن ثلاثين شخصية عامة ثابتة تاريخيًا.

٧- يذكرون تفاصيل مختلفة عن بعضهم البعض.

٨- يتَحَدَّون قراءهم ليراجعوا الحقائق القابلة للتحقق، حتى الحقائق المختصة بالمعجزات.

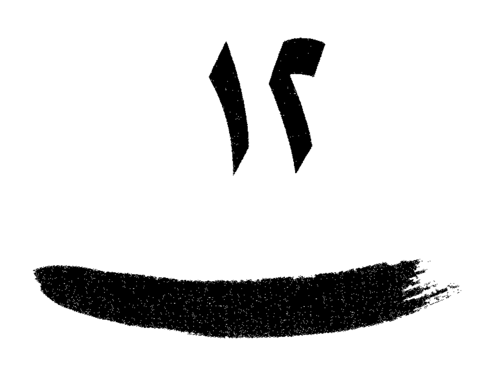
٩- يصفون المعجزات كما يصفون سائر الأحداث التاريخية، بروايات بسيطة خالية من التجميل.

١٠- تخلـَّوا عن معتقداتهم وممارساتهم المقدَّسة المتأصلة، وتبعوا معتقدات وممارسات جديدة، ولم ينكروا شهادتهم أمام الاضطهاد أو التهديد بالموت.

إذَن لدينا كل هذه الأسباب التي تؤيد فكرة التزام كُتـَّاب العهد الجديد الشديد بالحق. ولمَ لا يفعلون ذلك؟ ما الذي يدفعهم للكذب، أو التزيين، أو المبالغة؟ ماذا كانوا سيجنون من مكاسب؟ لم يجنوا إلا الاضطهاد والموت بسبب شهادتهم. أي أن كُتـَّاب العهد الجديد كان عندهم كل ما يدفعهم **لإنكار** أحداث العهد الجديد، لا لاختراعها ولا تجميلها ولا المبالغة

فيها. وهم أيضًا لم يكونوا بحاجة لدين جديد! فعندما أتى يسوع كان معظم كُتَّاب العهد الجديد يهودًا أتقياء آمنوا أن اليهودية هي الديانة الوحيدة الصحيحة وأنهم شعبُ الله المختار. فلا بد أن حدثًا جللاً وقع فأفاقهم من سباتهم العقائدي الجامد على منظومة عقائدية جديدة لم تَعِدْهم إلا بالضيق في هذه الحياة. **في ضوء كل ما تَقَدَّم، لسنا نملك الإيمان الكافي للتشكك في العهد الجديد.**

إلا أنه بالرغم من كل هذه الأدلة المضادة لفكر الشكوكيين، لا يزالون محتفظين بإيمانهم. فبما أن الأدلة تُظهر أنه يكاد يكون من المستحيل أن نستنتج أن يسوع أسطورة أو أن كُتَّاب العهد الجديد كَذَبة، فبعض الشكوكيين يتشبثون بالاحتمال الوحيد المتبقي لهم: كُتَّاب العهد الجديد كانوا مخدوعين. فقد ظنوا بصدق أن يسوع قام من الأموات، ولكنهم كانوا مخطئين. هذا هو الاحتمال الذي سنناقشه في الفصل التالي.



هل حقًا قام يسوع من الأموات؟

"لا يكفي أن يطرح الشكوكيون نظريات بديلة للقيامة،
بل عليهم أن يقدموا أدلة على تلك النظريات من القرن الأول".

جاري هابرماس *Gary Habermas*

القيامة: ماذا يقول الباحثون؟

أجرى جاري هابرماس البحث الأشمل حتى الآن فيما يؤمن به الباحثون الأكاديميون عن القيامة. فقد جمع هابرماس أكثر من ١٤٠٠ من أهم الأعمال الأكاديمية التي كُتِبَت عن القيامة من سنة ١٩٧٥ إلى ٢٠٠٣. ويقول هابرماس في كتابه "يسوع المُقام ورجاء المستقبل"[١] *The Risen Jesus and Future Hope* إن كل الباحثين الأكاديميين تقريبًا من مختلف الأطياف الأيديولوجية، بدءًا من الليبراليين المتطرفين وانتهاءً بالمحافظين المتشددين، يتفقون أن النقاط التالية بخصوص يسوع والمسيحية حقائق تاريخية فعلية:

١- يسوع ماتَ بعقوبة الصلب الرومانية.

٢- دُفِن، غالبًا في قبر خاص.

٣- بعد ذلك بوقت قصير شعر التلاميذ بالإحباط وفقدان الحبيب واليأس لأن أملهم تحطم.

٤- قبر يسوع وُجِدَ فارغًـا بعد دفنه بفترة وجيزة جدًا.*

٥- التلاميذ مروا بخبرات آمنوا أنها ظهورات حقيقية ليسوع القائم من الأموات.

٦- نتيجةً لهذه الخبرات، حدث تحول جذري في حياة التلاميذ. بل إنهم كانوا مستعدين أن يموتوا في سبيل عقيدتهم.

٧- إعلان القيامة تم في مرحلة مبكرة جدًا، منذ بدء تاريخ الكنيسة.

٨- شهادة التلاميذ الجهرية ووعظهم عن القيامة حدثا في مدينة أورشليم حيث صُلِب يسوع ودُفِنَ قبل ذلك بفترة قصيرة.

٩- رسالة الإنجيل تمحورت حول الكرازة بموت يسوع وقيامته.

١٠- كان يوم الأحد يوم الاجتماع والعبادة الأساسي.

١١- يعقوب أخو يسوع الذي كان يشك فيه قبل هذه الأحداث تحَوَّلَ إلى الإيمان عندما صَدَّق أنه هو أيضًا رأى يسوع المـُقام.

١٢- بعد بضع سنوات، أصبح شاول الطرسوسي (بولس) مؤمنـًا مسيحيًا نتيجةً لاختبار جازه آمن هو أيضًا أنه ظهور ليسوع المُقام.[٢]

إن قبول هذه الحقائق منطقي في ضوء ما رأيناه حتى الآن. فالأدلة تبين أن:

قصة العهد الجديد ليست أسطورة: إن وثائق العهد الجديد كُتِبَت في غضون جيلين من الأحداث بيد شهود عيان أو معاصريهم، والأحداث الرئيسية لقصة العهد الجديد مدعومة من كُتـَّاب غير مسيحيين. علاوة على ذلك، العهد الجديد يذكر ٣٠ شخصية تاريخية على الأقل تؤكدها مصادر أخرى خارج العهد الجديد. إذَن يستحيل أن تكون قصة العهد الجديد أسطورة.

قصة العهد الجديد ليست كذبة: كُتـَّاب العهد الجديد سجَّلوا تفاصيل مختلفة ومحرجة، وأقوالاً صعبة وعسرة التنفيذ، وقد ميَّزوا بدقة بين كلام يسوع وكلامهم. وأشاروا إلى حقائق وشهود عيان معروفين عند قرائهم أو يمكن للقراء التحقق منهم. والحقيقة أن كُتـَّاب العهد الجديد استفزوا قراءهم وأعداءهم البارزين في القرن الأول ليفحصوا ما قالوا. وإن لم يكن ذلك كافيًا

* رغم عدم إجماع الباحثين على القبر الفارغ، **معظمهم** (حوالي ٧٥%) يعتقدون أن القبر كان فارغـًا، أما الإحدى عشرة حقيقة الأخرى المذكورة هنا تتمتع بتأييد كل الدارسين.

لتوكيد صدقهم، إذَن الاستشهاد يجب أن يزيل أي شك. إن شهود العيان هؤلاء احتملوا الاضطهاد والموت في سبيل زعمهم القائم على خبرتهم الشخصية حيث إنهم رأوا يسوع المُقام وسمعوه ولمسوه، رغم أنهم كانوا يستطيعون أن ينقذوا أنفسهم ببساطة إن أنكروا شهادتهم.

قصة العهد الجديد ليست تضخيمًا: كان كُتّاب العهد الجديد في منتهى الدقة، كما يتضح من أكثر من ١٤٠ معلومة ثابتة تاريخيًا. وقد سجّلوا معجزات في هذه الروايات المؤكدة تاريخيًا، دون تضخيم ظاهر أو تعليقات لاهوتية عميقة.

فهل العهد الجديد صحيح؟ إن كان معظم الباحثين يتفقون في الاثنتي عشرة حقيقة المذكورة آنفًا لأن الأدلة تُثْبِت أن قصة العهد الجديد ليست أسطورة، ولا كذبة، ولا تضخيمًا، إذَن فنحن نعلم بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن كُتّاب العهد الجديد سجلوا ما رأوه بدقة. فهل هذا يعني أن كل أحداث العهد الجديد صحيحة؟ ليس بالضرورة. فما زال عند الشكوكيين محاولة أخيرة.

آخر محاولة عند الشكوكيين هي أن كُتّاب العهد الجديد كانوا مخدوعين. أي أنه من المحتمل أن كُتّاب العهد الجديد كانوا ببساطة مخطئين فيما ظنوا أنهم رأوه.

بناءً على ما عرضناه من سمات العهد الجديد، لا يبدو معقولاً أن كُتّاب العهد الجديد كانوا مخدوعين في الأحداث اليومية غير المعجزية. فقد ثبتت صحة كلامهم في العديد من التفاصيل التاريخية. فلماذا نشك في ملاحظاتهم عن أحداث الحياة اليومية؟

ولكن هل كانوا مخدوعين بخصوص الأحداث المعجزية مثل القيامة؟ ربما أنهم صدَّقوا فعلاً أن يسوع قام من الأموات، فدفعوا حياتهم ثمنًا لذلك، ولكنهم كانوا مخطئين أو مضلَّلين. من المحتمل وجود تفسيرات طبيعية لكل المعجزات التي ظنوا أنهم رأوها.

إن الباحثين الناقدين يُحَصِّنون أنفسهم. فكِّر في الحقيقة رقم ٥ من الحقائق الاثنتي عشرة التي يؤمن بها كل الباحثين تقريبًا: "التلاميذ مروا بخبرات **آمنوا** أنها ظهورات حقيقية ليسوع القائم من الأموات". وهو ما يعني أن الباحثين لا يقولون بالضرورة إن يسوع قام فعليًا من الأموات (وإن كان البعض يعتقدون أنه قام). فإن الحد الأدنى لإجماع كل الباحثين تقريبًا أن التلاميذ **آمنوا** أن يسوع قام من الأموات.

ولكن حتى يكون شهود العيان على الأحداث ومعاصروهم مخطئين، لا بد من وجود تفسير

آخر للقيامة وغيرها من المعجزات المسجلة في العهد الجديد. ولكن بما أن القيامة هي الحدث المركزي في المسيحية، فلنبدأ منها. كيف ينفي الشكوكيون القيامة؟

النظريات الشكوكية المشكوك فيها

إليك تفسيرات القيامة التي غالبًا ما يطرحها الشكوكيون:

نظرية الهلوسة: هل انخدع التلاميذ بفعل هلاوس؟ ربما أنهم ظنوا بصدق أنهم رأوا المسيح المُقام ولكنها كانت في الواقع هلاوس. إن هذه النظرية تشتمل على عدد من الأخطاء القاتلة. وسنتناول اثنين منها.

أولاً، الهلاوس لا تحدث لمجموعات بل فقط لأفراد. وهي في هذا الصدد شديدة الشبه بالأحلام. ولذلك، إن قال لك أحد أصدقائك ذات صباح: "يا له من حلم رائع الذي **حلمنا** به ليلة أمس، أليس كذلك؟" لن تقول: "نعم، كان بديعًا. ما رأيك في استكماله هذه الليلة؟" لا، ستظن أن صديقك أصيب بالجنون أو أنه يمزح. لن تأخذ كلامه على محمل الجد لأن الأحلام ليست خبرات جماعية. فالحلم خبرة فردية لا جماعية. والهلاوس كذلك، فإن توافرت ظروف نفسية **نادرة**، قد يتعرض الفرد للهلاوس، ولكن صديقه لن يتعرض للهلاوس. وحتى إن حدث، لن يتعرضا للهلاوس نفسها.

ونظرية الهلاوس لا تصلح لأنَّ يسوع لم يظهر مرة واحدة لشخص واحد، ولكنه ظهر في اثنتي عشرة مناسبة منفصلة، في ظروف متنوعة لأشخاص مختلفين على مدى **أربعين يومًا**. وقد رآه رجال ونساء. وشوهد يمشي ويتحدث ويأكل. وقد شوهد في الداخل وفي الخارج. ورآه كثيرون وقليلون. وإجمالي من رأوا يسوع المُقام يزيد عن ٥٠٠ شخص. ولم يروا هلوسة ولا شبحًا لأنه في ستة ظهورات من الاثني عشر كان يُلمَس جسديًا أو يأكل طعامًا حقيقيًا (انظر الجدول ١٢-١ في الصفحة التالية).

ووجود القبر الفارغ هو ثاني الأخطاء القاتلة في نظرية الهلوسة. فلو كان شهود العيان الذين يتجاوز عددهم خمسمائة شخص مروا بهذه الخبرة غير المسبوقة من رؤية الهلاوس نفسها في اثنتي عشرة مناسبة مختلفة، فلماذا لم تطُف السلطات اليهودية أو الرومانية بجسد يسوع في المدينة؟ وهو ما كان سينهي المسيحية للأبد. كم كانوا يتمنون أن يفعلوا ذلك، ولكن يبدو أنهم لم يقدروا لأن القبر كان فارغًا بالفعل.

ترتيب ظهورات المسيح الاثني عشر

	الأشخاص	رأوا	سمعوا	لمسوا	أدلة أخرى
١	مريم المجدلية (يوحنا٢٠: ١٠-١٨)	×	×	×	القبر الفارغ
٢	مريم المجدلية ومريم الأخرى (متى٢٨: ١-١٠)	×	×	×	القبر الفارغ (القبر الفارغ وأيضًا الأكفان في لوقا٢٤: ١-١٢)
٣	بطرس (١كورنثوس١٥: ٥) ويوحنا (يوحنا٢٠: ١-١٠)	×	×		القبر الفارغ والأكفان
٤	تلميذان (لوقا٢٤: ١٣-٣٥)	×	×		أكلا معه
٥	عشرة رسل (لوقا٢٤: ٣٦-٤٩؛ يوحنا٢٠: ١٩-٢٣)	×	×	×**	رأوا الجراح، وأكل طعامًا
٦	أحد عشر رسولاً (يوحنا٢٠: ٢٤-٣١)	×	×	×**	رأوا الجراح
٧	سبعة رسل (يوحنا٢١)	×	×		أكل طعامًا
٨	كل الرسل (متى٢٨: ١٦-٢٠؛ مرقس١٦: ١٤-١٨)	×	×		
٩	٥٠٠ أخ (١كورنثوس١٥: ٦)	×	×*		
١٠	يعقوب (١كورنثوس١٥: ٧)	×	×*		
١١	كل الرسل (أعمال١: ٤-٨)	×	×		أكلوا معه
١٢	بولس (أعمال٩: ١-٩؛ ١كورنثوس١٥: ٨)	×	×		

*ضمنيًا **قدَّم نفسه لهم ليلمسوه

الجدول ١٢-١

الشهود ذهبوا لقبر خطإ: محتمل أن التلاميذ ذهبوا إلى قبر خطإ ثم افترضوا أن يسوع قام. هذه النظرية أيضًا تشتمل على خطأين قاتلين.

أولاً، لو ذهب التلاميذ لقبر خطإ، لذهبت السلطات اليهودية أو الرومانية للقبر الصحيح وطافوا المدينة بجسد يسوع. إن القبر كان معروفًا لليهود لأنه كان **قبرهم** (كان مِلكًا ليوسف الرامي عضو السنهدريم). وكان القبر معروفًا للرومان لأنهم ضبطوه بحراس. وكما يشير وليم

لين كريج، إن نظرية القبر الخطإ تفترض أن كل اليهود (والرومان) كانوا يعانون من حالة "فقدان ذاكرة جماعية" مستديمة بشأن ما فعلوه بجسد يسوع.[٣]

ثانيًا، حتى وإن ذهب التلاميذ فعلاً إلى القبر الخطإ، فالنظرية لا تفسر كيف ظهر يسوع المُقام اثنتي عشرة مرة مختلفة. وهو ما يعني أنه لا بد من تفسير الظهورات، لا القبر الفارغ فقط.

لاحظ أن القبر الفارغ لم يُقْنِع معظم التلاميذ (ربما باستثناء يوحنا) أن يسوع قام من الأموات. ولكن **ظهورات** يسوع هي التي حوَّلَتهم من جبناء شكاكين مشتتين خائفين إلى أعظم قوة مرسلية سلمية في التاريخ. وهو ما ينطبق بوجه خاص على عدو المسيحية الأصيل شاول (بولس). فهو لم يكن مقتنعًا بالقبر الفارغ، بل كان يضطهد المسيحيين عقب القيامة بفترة وجيزة جدًا. وكان الأمر يتطلب ظهور يسوع نفسه ليغير بولس تغييرًا كليًا. ويبدو أن يعقوب أخا يسوع المتشكك تَحَوَّل أيضًا للإيمان بعد أحد ظهورات يسوع. وكما رأينا، تحول يعقوب كان جذريًا بكل معنى الكلمة لدرجة أنه أصبح قائد كنيسة أورشليم ثم استُشهِد بعد ذلك على يد رئيس الكهنة.

والفكرة المحورية هي: حتى إن أمكننا إيجاد تفسير طبيعي للقبر الفارغ، فهذا لا يكفي لنفي القيامة. فأي نظرية بديلة للقيامة عليها أن تنفي أيضًا ظهورات يسوع. ولكن نظرية القبر الخطإ لا تفسر هذا ولا ذاك.

نظرية الإغماء أو الموت الظاهري: هل من الممكن أن يسوع لم يمت حقًا على الصليب؟ من المحتمل أنه أصيب بحالة إغماء فقط. أي أنه عندما وُضِعَ في القبر لم يكن قد فارق الحياة، ولكنه هرب بطريقةٍ ما وأقنع تلاميذه أنه قام من الأموات. هذه النظرية أيضًا مشوبة بالعديد من الأخطاء القاتلة.

أولاً، الأعداء والأصدقاء على حد سواء اعتقدوا أن يسوع مات. فالرومان الذين كانوا محترفين في الإعدام جلدوا يسوع وضربوه بوحشية إلى أن انهار. ثم دقوا مسامير ثقيلة من الحديد المطاوع في رسغيه وقدميه، وطعنوه بحربة في جنبه. ولم يكسروا ساقيه ليُعَجِّلوا بموته لأنهم علموا أنه مات. (ضحايا الصلب غالبًا ما كانوا يموتون بالاختناق لأنهم لم يتمكنوا من دفع أنفسهم لأعلى حتى يتنفسوا. ومن ثم كان كسر السيقان يُعَجِّل بالموت). بالإضافة إلى ذلك، بيلاطس تحقَّق من موت يسوع، وموت يسوع كان السبب في فقدان التلاميذ لكل ما عندهم من أمل.

وأساليب الصلب الروماني الوحشية ثابتة في علم الآثار وفي المصادر المكتوبة غير المسيحية (انظر الفصل الخامس عشر للاطلاع على وصف حي لخبرة صلب يسوع). وسنة ١٩٦٨ عُثِرَ على بقايا أحد ضحايا الصلب من القرن الأول في كهف بمدينة أورشليم، وقد وُجِدَ في عظمة الكعب مسمار طوله ١٨ سنتيمترًا تقريبًا، وظهرت آثار مسامير على أسفل الذراعين أيضًا.* وقد تَبَيَّنَ من أعمال الكاتب الروماني كونتيليان *Quintilian* (٣٥-٩٥م) أن طعن القلب بحربة كان أيضًا أحد أساليب الصلب الرومانية.[٤] وبناءً على هذه المعاملة التي تعرض لها يسوع، لا عجب أن يعتقد شهود العيان أنه مات.

ليسوا أناس القرن الأول فقط هم من اعتقدوا أن يسوع مات، بل أطباء العصر الحديث أيضًا يعتقدون أن يسوع مات بالفعل. وفيما يلي الاستنتاج الذي توصَّل إليه ثلاثة أطباء منهم عالِم في الأمراض من مايو كلينيك *Mayo Clinic* في عدد ٢١ آذار/مارس ١٩٨٦ من "مجلة الجمعية الطبية الأمريكية" *Journal of the American Medical Association*:

> واضح أن ثقل الأدلة التاريخية والطبية يبين أن يسوع مات قبل أن يُجرَح في جنبه. وتؤيد الأدلة النظرة التقليدية التي مفادها أن الحربة التي نفذت بين ضلوعه اليمنى غالبًا اخترقت الرئة اليمنى وكيس التامور المحيط بالقلب والقلب، مما أكَّد موته. وعليه، التفاسير التي تقوم على الافتراض بأن يسوع لم يمُت على الصليب تبدو متناقضة مع المعرفة الطبية الحديثة.[٥]

كما أوضحنا في الفصل السابق، يبدو أن الدم والماء اللذين نتجا عن طعنة الحربة من عناصر شهادة العيان الأصيلة فيما سجله يوحنا. فهذه الحقيقة وحدها يجب أن تزيل كل الشكوك في موت يسوع.

---

*سنة ١٩٦٨ اكتُشِف موقع دفن قديم في أورشليم يحوي نحو خمسًا وثلاثين جثة. وقد تبيّن أن معظمهم عانوا ميتات بشعة في ثورة اليهود على روما سنة ٧٠م. ومنهم رجل يدعى يوحانان بن هجالجول *Yohanan Ben Ha'galgol*. وكان يبلغ من العمر حوالي أربعة وعشرين إلى ثمانية وعشرين عامًا، وكان مشقوق الحنك، وكان مسمار طوله ثمانية عشر سنتيمترًا تقريبًا لا يزال في كلتا قدميه. وقد أُديرت القدمان للخارج بحيث يمكن دق المسمار المربع في الكعب داخل وتر أخيل، وهو ما يؤدي لتقوس الساقين للخارج أيضًا، بحيث لا يمكن أن يحملا المصلوب. وقد أُدخِل المسمار في إسفين من خشب السنط، ثم في الكعبين، ثم في عمود من خشب الزيتون. ووُجِدَت دلائل تبين وضع مسامير مشابهة بين عظمتي الجزء السفلي من الذراعين. وهو ما يؤدي إلى تهرؤ العظام العلوية بينما يرفع الضحية جسمه ويُنزله باستمرار للتنفس (رفع الذراعين لأعلى يمنع التنفس). فكان على ضحايا الصلب أن يرفعوا أنفسهم لأعلى لفك عضلات الصدر، وعندما تُستنزَف قواهم ولا يتمكنون من ذلك كانوا يموتون بالاختناق. انظر *Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 48.*

وثاني أكبر العيوب في نظرية الإغماء هو أن يسوع حُفِظَ في أكفان وأطياب تزن حوالي ٣٤ كيلوجرام. ومن المستبعد تمامًا أن يكون يوسف الرامي ونيقوديموس (يوحنا١٩: ٤٠) قد كفَّنا يسوع وهو حي بطريق الخطإ.

ثالثًا، حتى إن ظن الجميع خطأً أن يسوع كان ميتًا عند دخوله إلى القبر، كيف يمكن لرجل ينزف وقد أصيب بإصابات بالغة أن يظل حيًا لمدة ست وثلاثين ساعة أخرى؟ كان سينزف حتى الموت في هذا القبر المظلم البارد الرطب.

رابعًا، حتى لو نجا فعلاً رغم ظلمة القبر ورطوبته وبرودته، كيف يحل نفسه، ويرفع الحجر الذي يزن طِنَّين ويزيحه خارج القبر، ويمر أمام الحرس الروماني الكفء (الذي سيُقتل للسماح باختراق الحاجز الأمني)، ثم يُقْنِع الجبناء المتشككين المشتتين الخائفين أنه انتصر على الموت؟ وحتى لو تمكن أن يخرج من القبر ويمر أمام الحرس الروماني، كان سيخرج عبارة عن كتلة مشوهة نازفة، فيثير شفقة التلاميذ عليه لا عبادتهم له. كانوا سيقولون: "قد تكون حيًا، لكن مؤكد أنك لم تَقُم. فتعالَ نأخذك للطبيب".

خامسًا، نظرية الإغماء لا تستطيع أن تفسّر ظهور يسوع لبولس بنور براق على طريق دمشق. فما الذي غيَّر هذا العدو الصريح للمسيحية بعد الصلب بفترة قصيرة؟ مؤكد أن يسوع لم يكن إنسانًا عاديًا شُفي من حادثة صلب.

إن وصف بولس لخبرة تحوّله مسجل مرتين في سفر الأعمال الذي ثبتت صحته تاريخيًا. وفي أصحاح ٢٢ يخبر بولس بظهور المسيح له أمام جمهور من اليهود المُعادين:

> وحدث لي وأنا ذاهب ومقترب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار، بغتةً أبرق حولي من السماء نور عظيم. فسقطتُ على الأرض، وسمعت صوتًا قائلاً لي: شاول، شاول! لماذا تضطهدني؟ فأجبت: من أنت يا سيد؟ فقال لي: أنا يسوع الناصري الذي أنت تضطهده (ع ٦-٨).

ثم فَقَدَ بولس البصر لمدة ثلاثة أيام وتغيَّر اتجاهه ١٨٠ درجة. لقد انتقل من ألد أعداء المسيحية إلى أشد الداعين لها.

إن خبرة تحوّل بولس لا يمكن تفسيرها بيسوع مُغْمَى عليه يمسك مشعلاً ويُصْدر "صوته الإلهي" من بين أشجار الغابة. إن ما حدث كان استعلانًا مباغتًا مبهرًا للقوة الإلهية في وضح

النهار أحدث تغييرًا جذريًا في هذا الرجل وفي العالم للأبد.*

سادسًا، عدة كُتَّاب غير مسيحيين أكدوا موت يسوع صلبًا، ومنهم يوسيفوس، وتاسيتس، وثالوس، والتلمود اليهودي. فالتلمود اليهودي مثلاً يقول إن يشوع (يسوع) عُلِّقَ على خشبة عشية الفصح.[٦] وهو ليس من المصادر المُحِبَّة للمسيحية، فليس هناك مبرِّر للشك في صدقه.

لكل ما تَقَدَّم من أسباب، وغيرها، لم يعُد هناك إلا قلة قليلة من الباحثين الأكاديميين تصدق نظرية الإغماء. فالأدلة المضادة لها كثيرة جدًا.

التلاميذُ سرقوا الجسد: إن النظرية التي تقول بسرقة التلاميذ لجسد يسوع لا تقوى على تأييد آخر خيارات الشكوكيين، ألا وهو أن كُتَّاب العهد الجديد كانوا جميعًا مخدوعين. لماذا؟ لأن النظرية تجعل كُتَّاب العهد الجديد مخادعين، لا مخدوعين! وهو طبعًا ما يضرب بعرض الحائط كل ما رأينا من أدلة حتى الآن. إن النظرية تتبنى الموقف الهش القائل بأن كُتَّاب العهد الجديد جميعًا كانوا كاذبين. فلسبب غير مفهوم، سرقوا الجسد ليُعَرِّضوا أنفسهم للضرب والتعذيب والاستشهاد! إن أنصار هذه النظرية لا يستطيعون أن يفسروا ما يجعل أي إنسان يفعل ذلك. لماذا يحيك التلاميذ هذه المؤامرة التي تنقلب ضدهم؟ ولماذا استمر كلٌ منهم يقول إن يسوع قام من الأموات رغم أنه كان بإمكانهم إنقاذ أنفسهم بالتراجع عن تلك الشهادة؟

يُعتبرَ التضارب الشديد بين مصالح التلاميذ من عوامل تفنيد هذه النظرية، إلا أنها تتطلب أيضًا توافر عدة عناصر عبثية يعجز أنصارها عن تفسيرها. فمثلاً، كيف اجتاز التلاميذ أمام الحرس الروماني الكفء المدرَّب على حراسة القبر بحياته؟ ولو لم يقُم يسوع من الأموات مطلقًا، فمن الذي ظهر لبولس، ويعقوب، وغيرهما من شهود العيان؟ وهل كذب كُتَّاب العهد الجديد بشأن ما حدث لهم من تحول أيضًا؟ هل بولس اختلق الأدلة الواردة في ١كورنثوس؟ وماذا عن الكُتَّاب غير المسيحيين؟ هل كَذِبَ يوسيفوس بخصوص استشهاد يعقوب على يد السنهدريم؟ هل الكاتب الروماني فليجون (المولود حوالي ٨٠ م) كذب أيضًا عندما كتب في "السجلات الزمنية" *Chronicles* "يسوع لم يدافع عن نفسه في حياته، ولكنه قام بعد الموت، وأظهر علامات العقوبة

* يزعم بعض الشكوكيين أن هذا لم يكن إلا ظهورًا ذاتيًا في عقل بولس لأن رفقاءه لم يروا أحدًا (أعمال٩) ولا فهموا ما قاله الصوت (أعمال٩: ٢٢). إلا أن هذا الاستنتاج خاطئ لأن رفقاء بولس شهدوا ظاهرة موضوعية: ١) رأوا نورًا حقيقيًا، ولكنهم لم يروا شخصًا. ٢) سمعوا صوتًا حقيقيًا، ولكنهم لم يفهموا ما قاله.

التي تعرض لها، وأظهر آثار المسامير في يديه"؟* إن كل هذا يتطلب "معجزة" أكبر من معجزة قيامة يسوع من الأموات. ولكننا **لا نملك الإيمان الكافي لتصديقِ كل هذا!**

كما رأينا، فكرة سرقة التلاميذ للجسد هي بالضبط التفسير الذي طرحه اليهود للقبر الفارغ. وبصرف النظر عن أن التلاميذ لم يكن عندهم الدافع لسرقة الجسد ولا القدرة على ذلك، فهذا التفسير اليهودي القديم كذبة فاشلة لسببين آخرين: ١) كيف عرف الحراس وهم نيام أن التلاميذَ سرقوا الجسد؟ ٢) ما من حارس روماني سيعترف أنه نام أثناء عمله، وهي جريمة عقوبتها الإعدام. (ربما هذا هو ما دفع قادة اليهود أن يدفعوا رشوة للحراس ويعدوهم بأنهم سيحمونهم من أي مشكلات مع الوالي، كما يسجل متّى).

وسنة ١٨٧٨ تم التوصل إلى كشف أثري مدهش قد يؤيد زعم الكتاب المقدس بأن اليهود كانوا يُشيعون تفسير السرقة. فقد اكتُشِفَ لوح من الرخام حوالي ٣٨ × ٦١ سنتيمتر في الناصرة يحمل هذا النقش:

> أمْرُ قيصر: يسرني أن تبقى القبور والمقابر دائمًا آمنة من أي إزعاج لأجل مَن بنوها كطقس ديني تكريمًا لأسلافهم أو أبنائهم أو أفراد عائلتهم. إلا أنه إذا اتهم أي شخص أحدًا بهدمها، أو إخراج المدفونين بأي شكل، أو نقلِهم بخبث لأماكن أخرى لإهانتهم، أو وضع الأختام على أحجار أخرى، فإني آمر بمحاكمة مثل هذا الشخص، لإهانة البشر الفانين كما هو الحال في إهانة الآلهة. وذلك لأن تكريم الموتى أمر أكثر وجوبية. فليُحظَر مطلقًا على أي إنسان أن يزعجهم. وفي حالة الانتهاك أود أن يُحكَم على الجاني بالإعدام بتهمة انتهاك القبر.[٧]

يعتقد الباحثون أن هذا المرسوم صدر من الإمبراطور طيباريوس الذي حكم من ١٤-٣٧م (أثناء معظم حياة المسيح)، أو الإمبراطور كلوديوس الذي حكم من ٤١-٥٤. وما يلفت النظر في هذا المرسوم أنه يُغَلِّظ عقوبة سرقة القبور من الغرامة إلى الإعدام!

---

* اقتبسها أوريجانوس (١٨٥؟- ٢٥٤؟م). انظر *Habermas, Historical Jesus, 218*. كتابات فليجون ليست باقية حتى الآن ولكن أوريجانوس ويوليوس أفريكانوس *Julius Africanus* اقتبسا منه. وقد يعترض الشكوكيون على استخدام مقولات اقتبسها مسيحيون مثل أوريجانوس، إلا أنه اعتراض غير منطقي. فرغم أننا لا نستطيع أن نتأكد من دقة اقتباس أوريجانوس من فليجون، يمكننا أن نفترض أنه كان دقيقًا في اقتباسه لأن كتابات فليجون كانت غالبًا متاحة لقراء أوريجانوس في عصره. ومن ثم لا يُعقل أن يبتدع أوريجانوس مقولة فليجون أو يحرّفها طالما أنه كان يسهل التحقق منها آنذاك.

لماذا يكلِّف الإمبراطور الروماني نفسه إصدار هذا المرسوم القاسي في هذا الوقت في منطقة نائية من إمبراطوريته؟ رغم أنه لا أحد يعلم سبب المرسوم على وجه اليقين، هناك احتمالان يشير كلاهما إلى يسوع.

إن كانت هذه الكتابة لطيباريوس، فمن المحتمل أن طيباريوس عرف عن يسوع من أحد تقارير بيلاطس التي يرفعها إليه سنويًا. وهذا هو زعم يوستينوس الشهيد.[٨] وربما اشتمل هذا التقرير على التفسير اليهودي للقبر الفارغ (التلاميذُ سرقوا الجسد)، مما دفع طيباريوس لمنع أي حالات "قيامة" في المستقبل بإصدار هذا المرسوم.

وإن كانت الكتابة لكلوديوس، فمن المحتمل أن المرسوم كان جزءًا من رد فعله لأحداث الشغب التي وقعت في روما سنة ٤٩م. ففي أعمال١٨: ٢ يذكر لوقا أن كلوديوس طرد اليهود من روما. وهو ما يؤكده المؤرخ الروماني سويتونيوس *Seutonius* الذي يخبرنا بأنه "لأن اليهود في روما تسببوا في شغب مستمر بسبب القلاقل التي أثارها المسيح *Chrestus*، طردهم [كلوديوس] من المدينة".[٩] (*Chrestus* شكل مختلف لهجاء كلمة *Christ* [المسيح]).

ما علاقة المسيح بأحداث الشغب التي أثارها اليهود في روما؟ ربما مرت روما بالأحداث نفسها التي وقعت في تسالونيكي نحو ذلك الوقت نفسه. ففي أعمال١٧ يسجل لوقا أن حالة من "الفوضى"* وقعت في تسالونيكي عندما "غار" اليهود من بولس لأنه كان يكرز بقيامة يسوع من الأموات. وهؤلاء اليهود رفعوا دعواهم لحكام المدينة قائلين "إن هؤلاء [بولس ولوقا] الذين فتنوا المسكونة حضروا إلى ههنا أيضًا... وهؤلاء كلهم يعملون ضد أحكام قيصر قائلين: إنه يوجد ملك آخر: يسوع!" (ع ٦، ٧).

إن كان هذا هو ما حدث بالضبط في روما، إذَن كلوديوس ما كان ليقبل أن جماعة تتحدى أوامره وتتبع ملكًا آخر. فمن المحتمل أنه ما إن علم أن هذه الطائفة الجديدة المتمردة نشأت مع اليهود الذين آمنوا أن قائدهم قام من الأموات، حتى طرد كل اليهود من روما وجعل سرقة القبور جريمة عقوبتها الإعدام.

إن أحد هذين الاحتمالين يمكن أن يفسِّر توقيت المرسوم ومكانه وشدته. ولكن حتى إن لم يكن المرسوم مرتبطًا بقبر المسيح الفارغ، فلدينا من الأدلة الدامغة ما يكفي لإثبات أن اليهود

*ترجمة كتاب الحياة (أعمال١٧: ٥). (المترجمة)

هم من طرحوا فرضية السرقة (انظر الفصل السابق). والنقطة الرئيسية هي أن فرضية السرقة كانت اعترافًا ضمنيًا أن القبر كان فارغًا بالفعل. **فمهما كان من أمر، ما الذي يجعل اليهود يختلقون تفسيرًا للقبر الفارغ لو كان جسد يسوع لم يزل فيه؟**

بديل اتخذ مكان يسوع على الصليب: هذا هو التفسير الذي يطرحه البعض اليوم. ومفاده أن يسوع لم يُصلَب، ولكنَّ شخصًا، ربما يهوذا، قُتِل بدلاً منه.*

ووفقًا لهذه الفرضية، يقولون إن كل ما حدث أنه شُبِّه لهم أنهم صلبوا يسوع، ولكن الله رفعه مباشرةً إلى السماء.

هذه النظرية تطرح أسئلة أكثر ممَّا تقدِّم إجابات. هل مطلوب منا أن نصدق أن الآلاف ممن شهدوا جانبًا من موت يسوع - التلاميذ، والحرس الروماني، وبيلاطس، واليهود، وعائلة يسوع وأصدقاءه - أخطأوا **جميعًا** في هوية الشخص المقتول؟ كيف يمكن أن تخطئ هذه الأعداد الغفيرة في تحديد هوية شخص؟ إنه يشبه مَن يقول إن إبراهام لينكون لم يكن هو مَن قُتِل بجوار زوجته في تلك الليلة من شهر نيسان/أبريل ١٨٦٥ في مسرح فورد. هل أخطأت ماري لينكون في الرجل الجالس بجوارها؟ هل أخطأ حارس لينكون الخاص في الشخص الذي كان يحرسه؟ هل كل الناس أخطأوا في هوية الرئيس أيضًا؟ أمر يستحيل تصديقه.

وتطرح هذه النظرية الكثير من الأسئلة الأخرى. فلو لم يُقتل يسوع، فلماذا وُجِدَ قبر المقتول **الحقيقي** فارغًا؟ هل مُفترَض أن نصدِّق أن **البديل** قام من الأموات؟ وإن كان كذلك، فكيف فعلها؟ هل يُفترَض أن نصدق أن كل المؤرخين غير المسيحيين مخطئون في موت يسوع؟ وماذا نفعل في اعتراف اليهود بموت يسوع؟ هل أخطأ التلمود عندما قال إن يسوع قد أُعدِم على خشبة عشية الفصح؟ باختصار، هل يجب أن نصدِّق أن كل هؤلاء الذين عاشوا في القرن الأول أخطأوا في كل شيء؟

فلا بد أن نشك في نظرية تظهر بعد وقوع الأحداث بمئات السنين وتطالبنا أن نصدق أن كل أدلة القرن الأول خاطئة. فالحقيقة أن هذه النظرية تتناقض مع معظم الحقائق الاثنتي عشرة التي يتفق عليها كل الدارسين الأكاديميين تقريبًا (انظر بداية هذا الفصل). وهذه

---

* إن بعضًا ممن يتبنون هذه الفرضية يستندون على "إنجيل برنابا" الذي ثَبَتَ أنه إنجيل مزيف. انظر *Norman Geisler and Abdul Saleeb, Answering Islam, 2nd ed. (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2002), appendix 3.*

النظرية كغيرها من النظريات البديلة تقوم على تخمينات خالصة دون أي دليل يُذكر. **إذَن لسنا نملك الإيمان الكافي لتصديقها.**

إيمان التلاميذ هو ما أدى لاعتقادهم في القيامة: چون دومينيك كروسان *John Dominic Crossan* هو أحد مؤسسي مجموعة الأكاديميين والناقدين اليسارية المتطرفة التي تطلق على نفسها "الحلقة النقاشية عن يسوع" *"The Jesus Seminar"*. وقد قرروا أن ١٨% فقط من الأقوال المنسوبة ليسوع في الأناجيل حقيقية (للمزيد عن هذا الموضوع انظر الملحق ٣). ولكنهم لا يقدّمون أي أدلة حقيقية على هذا الموقف المتشكك، بل كلها نظريات تخمينية عن أن إيمان التلاميذ أدى إلى اعتقادهم في القيامة، وتنسحب هذه التخمينات على كل شيء تقريبًا في العهد الجديد.

وقد طُرِحَت هذه النظرية بوضوح أثناء مناظرة كروسان مع وليم لين كريج عن القيامة. فقد طرح كروسان النظرية القائلة بأن التلاميذ اخترعوا قصة القيامة لأنهم "فتّشوا الكتب" بعد موته ووجدوا أن "الاضطهاد، إن لم يكن الإعدام، كان مثل توصيف وظيفي لمختاري الله".

ودارت المناظرة كلها التي استمرت ساعتين حول إجابة كريج. فقد قال: "صحيح. وهذا حدث **بعد** أن رأوا ظهورات القيامة... **إن إيمان التلاميذ لم يؤدِّ إلى ظهورات** [القيامة]، **ولكن الظهورات هي التي أدت إلى إيمانهم**، وبعدئذٍ فتشوا الكتب"."

حقيقةً التلاميذ الخائفون المشتتون المتشككون لم يكونوا في حالة تسمح لهم أن يخترعوا قصة قيامة ثم يَخرجوا بها للعالم ويموتوا من أجلها. ولكن حالتهم كانت تسمح لهم بالاختباء بسبب الخوف من اليهود! إن ظهورات القيامة هي ما زوّدتهم بإيمان جَسور، لا العكس. كروسان فَهِمَ الأمر بالعكس.

بالإضافة إلى عدم وجود أدلة على نظرية كروسان، فهو لا يستطيع أن يفسر ظهورات القيامة لأكثر من ٥٠٠ شخص. ولا يمكنه أن يفسّر القبر الفارغ ولا محاولة اليهود لتفسيره. لقد عرف اليهود أن التلاميذ كانوا يزعمون أن القيامة حدث تاريخي حقيقي، لا مجرد نتاج لإيمانهم. فلو لم تحدث القيامة حقًا، كما يقول كروسان، فلماذا استمرت السلطات اليهودية طيلة القرن الثاني في الإصرار على أن التلاميذَ سرقوا الجسد؟ كروسان ليس لديه إجابة لأن نظريته خاطئة. **تحتاج لقدر ضخم من الإيمان، مع تجاهل الكثير من الأدلة، حتى تصدقها.**

كُتّاب العهد الجديد نقلوا أساطير القيامة الوثنية: تؤكّد هذه النظرية أن العهد الجديد ليس تاريخيًا لأن كُتّاب العهد الجديد لم يفعلوا شيئًا إلا أنهم نقلوا أساطير القيامة الوثنية. إن الشكوكيين بارعون في التقاط أحداث القيامة المزعومة لبعض الشخصيات الأسطورية مثل مردوخ، وأدونيس، وأوزوريس. هل العهد الجديد مجرد أسطورة أخرى؟ هل يمكن أن تكون هذه النظرية صحيحة؟ إنه احتمال مستبعد لعدد من الأسباب.

أولاً، كما رأينا العهد الجديد أبعد ما يكون عن العمل الأسطوري. فالعهد الجديد، يختلف عن الأساطير الوثنية في أنه مشحون بأدلة شهود عيان وشخصيات تاريخية حقيقية، وهو مؤيَّد بعدة مصادر خارجية. وقد قال سي. إس. لويس، وهو نفسه كاتب أساطير، إن قصص العهد الجديد لا تُرى فيها أي أمارات أسطورية. فقد قال لويس "إني ناقد أدبي ومؤرّخ حتى النخاع، هذه وظيفتي. وعلى هذا الأساس فأنا مؤهَّل أن أقول إنه إذا كان أي شخص يظن أن الأناجيل أساطير أو روايات خيالية، فهذا الشخص يكشف ببساطة عدم أهليته للعمل في النقد الأدبي. لقد قرأت العديد من الروايات الخيالية ولدي معرفة كافية بالأساطير التي نشأت بين الشعوب القديمة، وأعلم علم اليقين أن الأناجيل لا تنتمي لهذه الفئة".[١٢]

ثانيًا، نظرية الأسطورة الوثنية لا تستطيع أن تفسِّر القبر الفارغ، ولا استشهاد شهود العيان، ولا شهادة الكتابات غير المسيحية. ولا تستطيع أن تفسِّر الأدلة التي تقود كل الدارسين الأكاديميين تقريبًا إلى قبول الحقائق التاريخية الأخرى التي سردناها في بداية هذا الفصل.

ثالثًا، الكُتّاب القدماء غير المسيحيين عرفوا أن كُتّاب العهد الجديد لم يقدِّموا روايات أسطورية. وكما يشير كريج بلومبرج "لقد فَهِمَ نقاد القيامة الأوائل من اليهود والوثنيين أن كُتّاب الأناجيل كانوا يزعمون مزاعم تاريخية، لا يكتبون أسطورة أو قصة خيالية. وكل ما فعلوه أنهم جادلوا في معقولية تلك المزاعم".[١٣]

رابعًا، ما من أسطورة يونانية أو رومانية تحدّثت عن تجسد حرفي لإله واحد لا شريك له في صورة بشرية (قارن يوحنا١: ١-٣، ١٤)، بميلاد عذراوي حرفي (متى١: ١٨-٢٥)، أعقبه موته وقيامته الجسدية. فقد آمن اليونانيون بتعدُّد الآلهة، ولم يكونوا مُوَحِّدين مثل مسيحيي العهد الجديد. علاوة على ذلك، آمن اليونانيون بتناسخ الأرواح في أجساد أخرى فانية، ولكن كُتّاب العهد الجديد آمنوا **بالقيامة** بالجسد المادي نفسه الذي يتحول إلى جسد خالد (قارن لوقا٢٤: ٣٧؛ يوحنا٩: ٢؛ عبرانيين٩: ٢٧).

خامسًا، أول شيء يشبه موت إله وقيامته لا يظهر إلا سنة ١٥٠ م أي **بعد** نشأة المسيحية بأكثر من ١٠٠ سنة.[١٤] لذا إن كان شيء أثّـر على الآخر، فإن حدث العهد الجديد التاريخي هو الذي أثّـر على الأسطورة، لا العكس.

والرواية الوحيدة المعروفة قبل المسيحية عن إله ينجو من الموت هي قصة الإله المصري أوزوريس. وتقول الأسطورة إن أوزوريس يُقَطَّع إلى أربع عشرة قطعة، تُنْشَر في أنحاء مصر، ثم تجمعها الإلهة إيزيس مرة أخرى وتعيدها إلى الحياة. إلا أن أوزوريس لا يعود فعليًا إلى الحياة المادية ولكنه يصبح شبحًا في عالم الموتى. وكما يشير هابرماس *Habermas* وليكونا *Licona* "إنها مختلفة تمامًا عن قصة قيامة يسوع حيث كان رئيس الحياة الذي أقيم بمجد ورآه آخرون على الأرض قبل صعوده إلى السماء".[١٥]

أخيرًا، حتى إن وُجِدَت أساطير قبل المسيحية عن آلهة تموت وتقوم، فهذا لا يعني أن كُتَّاب العهد الجديد نقلوا منها. فالمسلسل التليفزيوني الخيالي ستار ترك *Star Trek* سَبَقَ برنامج المكوك الفضائي الأمريكي *U.S. Space Shuttle*، إلا أن هذا لا يعني أن التقارير الصحفية عن رحلات المكوك الفضائي متأثرة بحلقات ستار ترك. ولكن يجب على المرء أن ينظر في أدلة كل تقرير ليتحقق مما إذا كان تاريخيًا أم أسطوريًا. فليس هناك شهود عيان ولا أدلة تؤيد تاريخية قيامة أوزوريس ولا أي إله وثني آخر. ولا أحد يعتقد أنها شخصيات تاريخية حقيقية. ولكن كما رأينا هناك شهود عيان وأدلة دامغة تؤيد تاريخية موت يسوع المسيح وقيامته.

هل عندك أي دليل على ذلك؟

لقد اعتاد المسيحيون على "رد لكمات" النظريات البديلة للقيامة. والحقيقة أن هذا هو ما فعلناه توًا بإبراز العديد من النقائص التي تشوب النظريات البديلة. إلا أن هذا لا يكفي. فبالرغم من أن الشكوكيين محقون في مطالبة المسيحيين بإظهار بينة القيامة (وكما رأينا المسيحيون قادرون على تحقيق هذا المطلب بالأدلة الدامغة)، **يجب على المسيحيين مطالبة الشكوكيين بإظهار البينة على النظريات البديلة.** ففي ضوء كل الأدلة الإيجابية على القيامة، لا بد أن يقدّم الشكوكيون أدلة إيجابية من القرن الأول على نظرياتهم البديلة.

إن اختراع نظرية بديلة للقيامة شيء، والعثور على أدلة تؤيدها من القرن الأول شيء آخر. فالنظرية ليست دليلاً. والعقلاء يطالبون بأدلة، لا بمجرد نظريات. فأي شخص يمكنه أن يخترع نظرية لتفسير أي حدث تاريخي. مثلاً إن أراد أحد أن يزعم أن كل تسجيلات الفيديو

لمعسكرات الاعتقال في الهولوكوست من تمثيل وإنتاج اليهود ليكسبوا تعاطفًا ودعمًا لقيام دولة يهودية، هل ستصدق تلك النظرية؟ بالطبع لا، لأنها تضرب بعرض الحائط كل الأدلة المعروفة. وإن أردنا أن نأخذ الأمر بجدية، فمَن يطرحون هذه النظرية عليهم أن يقدِّموا تقارير شهود عيان مستقلين لها مصداقية وأدلة مؤيِّدة أخرى لمجابهة العديد من التقارير التي تقول إن الهولوكوست حقيقة قام بها النازيون. إلا أن هذه الأدلة المضادة لا وجود لها.

وينطبق هذا الوضع على القيامة. فرغم أن الشكوكيين صاغوا العديد من النظريات البديلة لنفي القيامة، ليس هناك أدلة من أي مصدر من القرن الأول تؤيّد أيًا منها.[١٦] والنظرية البديلة الوحيدة المذكورة في مصدر من القرن الأول (سرقة التلاميذ للجسد) مأخوذة من متَّى الذي يصفها صراحةً بأنها كذبة. فما من أحد في العالم القديم، ولا حتى أعداء المسيحية، طرح تفسيرًا بديلاً **معقولاً** للقيامة. والكثير من النظريات البديلة التي صيغت على مدى القرنين الماضيين تقوم على رفض ما هو فائق للطبيعة. وبما أن الأكاديميين المحدثين لديهم رفض فلسفي مسبق للمعجزات، فهم يحيكون تفاسير مخصوصة لنفي القيامة. وكما رأينا تفاسيرهم المخصوصة تنطوي على كَمّ كبير من العبث أو الاستحالة.

فيجب أن نسأل مَنْ يقدمون نظريات بديلة للقيامة: "ما الأدلة التي تقدمها على نظريتك؟ هل يمكن من فضلك أن تُسمي ثلاثة أو أربعة مصادر من القرن الأول تؤيد نظريتك؟" وعندما يواجَه الشكوكيون الأمناء بهذا السؤال، عادةً ما يجيبون بالصمت أو باعتراف متلعثم أنهم لا يملكون مثل هذه الأدلة لأنها غير موجودة.[١٧]

والقيامة ليست الشيء الوحيد الذي يجب على الشكوكيين تفسيره. ولكن عليهم أن يفسِّروا أيضًا الخمس والثلاثين معجزة الأخرى التي نسبها شهود عيان ليسوع. هل ينبغي علينا أن نصدق أن كُتَّاب الأناجيل الأربعة كانوا جميعهم مخدوعين بشأن كل تلك المعجزات كما كانوا مخدوعين في القيامة؟

إن نظرية الخداع الجماعي هذه تتطلب أدلة. هل لدينا أي مصادر أخرى من القرن الأول تقدّم تفسيرًا مختلفًا لأعمال يسوع؟ المصدر الوحيد الذي اكتُشِفَ (والأرجح أنه من القرن الثاني) هو التلمود اليهودي الذي يعترف أن يسوع قام بأفعال غير عادية إذ يقول إنه "مارس السحر". ولكن هذا التفسير ضعيف ضعف التفسير اليهودي للقيامة (التلاميذُ سرقوا الجسد). قد يكون السحر تفسيرًا **لبعض** "معجزات" يسوع، ولكن هل الخمس والثلاثين معجزة؟ إن السَّحَرَة لا يستطيعون أن يفعلوا نوعية الأفعال التي يقال عن يسوع إنه فعلها

مثل إقامة الموتى، وتفتيح عيون العمي، والمشي على الماء، وغيرها.

إذَن إن لم يكن هناك أدلة قديمة على الخداع، هل ينبغي أن نقبل معجزات العهد الجديد كما هي مدوَّنة هكذا في الأناجيل؟ لمَ لا؟ إننا نعيش في كون خلقه الله حيث المعجزات ممكنة. وبالرغم من أننا لا نملك أدلة مستقلة على كل معجزات العهد الجديد (لأن بعضها لم يذكره إلا كاتب واحد)، فمؤكَّد أن عندنا أدلة عديدة على الكثير منها (بما فيها القيامة). فالمعجزات التي صنعها يسوع المذكورة في مصادر مستقلة كثيرة جدًا بحيث يستحيل تفسيرها بأنها خدعة كبيرة. فمن الممكن أن ينخدع شخص واحد مرة واحدة، ولكن لا يمكن أن ينخدع العديد من المشاهدين عدة مرات.

ويكتب الباحث الأكاديمي الألماني ولفجانج تريلينج *Wolfgang Trilling* "إننا مقتنعون أن يسوع صنع معجزات بالفعل ونعتبر ذلك حقيقة تاريخية مؤكدة... إن روايات المعجزات تشغل مساحة كبيرة جدًا في الأناجيل حتى إنه يستحيل أن تكون جميعها قد اختُرِعت أو نُسِبت لاحقًا ليسوع".[١٨] ويخلص وليم لين كريج إلى أنه "لم يعد أحد ينفي صحة انتساب المعجزات ليسوع التاريخي".[١٩] وهو ما يعني أنه لا أحد ينفي صحة المعجزات من الناحية التاريخية. ولكن مَن ينفونها يؤسِّسون موقفهم على منظور فلسفي بحت (المزيد عن ذلك بعد لحظات).

والفكرة المحورية هي أنه يوجد عدد ضخم جدًا من المعجزات وعدد ضخم جدًا من الشهادات، بحيث لا يمكننا أن نصدِّق أن كل شهود العيان أخطأوا كل مرة. وبخصوص القيامة، كل النظريات البديلة مشوبة بأخطاء قاتلة، ولدينا أدلة ظرفية* قوية وشهود عيان على أن يسوع قام حقـًا من الأموات. وهو ما يعني أننا لا نملك تفسيرًا طبيعيًا للقبر الفارغ، بل يعني كذلك أن عندنا أدلة إيجابية **تؤيد** القيامة. والتفسير الذي يتطلب **أقل** قدر من الإيمان هو أن يسوع صنع معجزات حقـًا وقام من الأموات حقـًا كما تنبأ. **لذلك لسنا نملك الإيمان الكافي لتصديق أن كُتـَّاب العهد الجديد كانوا جميعهم مخدوعين.**

لماذا لا يؤمن كل الباحثين الأكاديميين؟

إن كان عندنا نسخة دقيقة من شهادة مبكرة (الفصل التاسع)، وإن كانت تلك الشهادة مبكرة ومن شهود عيان أيضًا (الفصل العاشر)، وإن كان شهود العيان أولئك قد سجلوا ما رأوا بدقة (الفصل الحادي عشر)، وإن لم يكن شهود العيان أولئك مخدوعين فيما سجلوا (هذا الفصل)،

* أدلة تُستنتج من الظروف ليست مبنية على معرفة شخصية أو على مشاهدة الوقائع.

إذَن لماذا لا يقبل كل الأكاديميين العهد الجديد كما هو؟ لنفس السبب الذي لأجله يرفض الداروينيون الاعتراف بالأدلة التي تفنّد موقفهم: إنهم متحيزون فلسفيًا ضد المعجزات.

وقد تم الاعتراف بهذا التحيز أثناء مناظرة بين كريج وكروسان. كريج يؤمن مثلنا أن الأدلة على تاريخية القيامة الحرفية أدلة قوية. ولكن كروسان لا يؤمن أن يسوع قام حرفيًا من الأموات. وإليك حوار كاشف جدًا بين الرجلين:

كريج: دكتور كروسان هل من شيء يمكن أن يقنعك أن قيامة يسوع من الأموات حقيقة تاريخية؟

كروسان: أود أن أتحقق مما نتحدث عنه. فلنفترض أننا خارج القبر الفارغ صباح أحد القيامة. فلو كان مع أحدنا كاميرا فيديو، هل كان سيمكننا تصوير شيء يخرج من القبر؟ هل هذا هو السؤال؟

كريج: أظن أن سؤالي، وما أظن أن مستر بَكلي *Buckley* [مدير الحوار] يُصرّ عليه، هو: ما الدليل الذي يمكن أن يقنعك؟ أم هل أفكارك المسبقة عن استحالة المعجزات، وما إلى ذلك، في منتهى القوة لدرجة أنها تؤثر على حكمك التاريخي بحيث إن حدثـًا كهذا يستحيل حتى أن يُقبل في محكمتك؟

كروسان: لا... إن طبيبًا في لورد* *Lourdes* قد يعترف قائلاً: "ليس عندي أي تفسير طبي على الإطلاق لما حَدَثَ". هذه عبارة صحيحة. ومن ثم يحق للمرء أن يقول: "إذَن أنا أُصَدِّق بالإيمان أن الله تَدَّخَل في هذه الحالة". **ولكني شخصيًا مقتنع بافتراض لاهوتي مسبق مفاده أن الله لا يعمل بتلك الطريقة**... ما المطلوب لتُـثْـبِت لي ما تسأل عنه؟ لا أعرف، إلا إذا غَيَّرَ الله الكون. يمكنني أن أتخيل أني صباح الغد اكتشفت أن كل شجرة خارج بيتي تحركت مترين. إنه أمر يتطلب تفسيرًا. أنا لا أعرف التفسير، ولكني لن أفترض فورًا أنه معجزة.[٢٠]

إن جملة كروسان الصريحة عن افتراضه اللاهوتي المسبق المضاد للمعجزات اعتراف صادق من جهته. ولكن كروسان لا يتحدث طبعًا نيابةً عن كل الأكاديميين الشكوكيين. ولكن

* مدينة في جنوب غرب فرنسا تـُعتبَر مزارًا كاثوليكيًا مقدّسًا منذ ١٨٥٨ لأنه يقال إن فتاة صغيرة رأت فيها مجموعة رؤى للعذراء مريم، ويقال أيضًا إن الكثير من معجزات الشفاء تتم فيها & *https://en.oxforddictionaries.com/definition/us/Lourdes* *http://www.spiritualtravels.info/articles-2/europe-2/a-pilgrimage-to-lourdes-main-page/).* تم الاطلاع على المصدر بتاريخ ٢٠١٦/١٢/١٤ (المترجمة)

المؤكد أن معظمهم ينكرون القراءة المباشرة للعهد الجديد لأنهم يشتركون معه في تحيزه الفلسفي ضد المعجزات. فالمشكلة ليست أن الأدلة التاريخية على العهد الجديد ضعيفة (بل هي في منتهى القوة). ولكن المشكلة أنهم استبعدوا المعجزات مسبقًا. وهم يتوصلون إلى استنتاج خاطئ بسبب تحيزهم الذي يستحيل معه التوصل إلى الاستنتاج الصحيح.

الإطار الإطار الإطار

لنلقِ نظرة على آخر تعليق قاله كروسان عن أشجار حديقته التي تحركت مترين ذات ليلة. فهو يقول إنه لن يفترض "فورًا أنها معجزة". ولا نحن، لأن معظم الأحداث لها **بالفعل** تفسير طبيعي (وهو ما يساعد بالمناسبة على إبراز المعجزات عندما تحدث حقيقةً). لذا، يُعَدّ البحث عن تفسير طبيعي أولاً أمرًا منطقيًا جدًا.

ولكن هل يعني ذلك أنه يجب ألا نستنتج **أبدًا** أن أي حدث (كتَحَرُّك الأشجار) معجزة؟ كروسان لن يستنتج ذلك بسبب افتراضه اللاهوتي المسبق الذي يقول إن الله لا "يعمل بتلك الطريقة". ولكن بما أنه لا مبرر لذلك الافتراض المسبق، لأن الله موجود. فما هو الاستنتاج الصحيح؟ إن هذا يتوقف على إطار الحدث. تَذَكَّر ما قلناه في الفصل الخامس عن ضرورة تفسير الدليل في ضوء الإطار الذي يقع فيه.*

فلنفترض أن حدث تحرك الأشجار عند كروسان وقع في الإطار التالي: منذ مائتي عام يزعم شخصٌ ما أنه نبي من الله ويكتب نبوة تقول إن كل الأشجار في منطقةٍ ما في أورشليم ستتحرك مترين في إحدى الليالي في سنة معينة. وبعد مائتي عام، يأتي رَجُل ليخبر أهل المدينة أن معجزةَ تَحَرُّك الأشجار وشيكة الحدوث. ويزعم هذا الرجل أنه الله، وهو يُعَلِّم حقائق عميقة، ويقوم بالكثير من الأفعال الأخرى غير العادية يبدو أنها معجزات.

وفي صباح أحد الأيام يزعم العديد من شهود العيان أن الأشجار في حديقة أورشليم التي يملكها كروسان، ومنها عدة أشجار سنديان عميقة الجذور ويصل ارتفاعها إلى أكثر من ٣٠ مترًا، تحركت مترين بالفعل أثناء الليل، تمامًا كما تنبأ الله المتأنس. ويقول شهود العيان هؤلاء أيضًا إن هذه واحدة من أكثر من ثلاثين معجزة صنعها هذا الإله المتأنس. وبعدئذٍ

* تَذَكَّر مثال الفصل الخامس عن ضرورة توافر إطار للدليل: الرجل الذي يفتح بطن امرأة إما مجرم أو بطل بناءً على إطار الحدث. فإن حدث في زقاق وكان الرجل ينوي إيذاءها، فهو مجرم. وإن حدث في غرفة الولادة بأحد المستشفيات، فهو بطل.

يتعرضون للاضطهاد والاستشهاد لأنهم أعلنوا هذه المعجزات ورفضوا إنكار شهادتهم. وخصومُ الله المتأنس لا ينكرون الأدلة على معجزة الأشجار أو غيرها من المعجزات، ولكنهم يطرحون تفسيرات طبيعية تعجّ بأخطاء قاتلة. وبعد سنوات طويلة، بعد موت كل شهود العيان، يطرح الشكوكيون تفسيرات طبيعية أخرى يَثْبُت أيضًا أنها مليئة بأخطاء قاتلة. والحقيقة أنه على مدى الألف والتسعمائة سنة التالية يحاول الشكوكيون أن يفسروا الحدث طبيعيًا، دون أن ينجح أحد.

سؤال: بناءً على ذلك الإطار، أليس من المنطقي أن نفترض أن حركة الأشجار ليست طبيعية بل مَنشؤها فوق طبيعي؟ طبعًا. الإطار يُحدِث كل الفرق.

وهذا هو الحال مع القيامة. فالأمر لا يقتصر على انعدام التفسير الطبيعي للقبر الفارغ. ولكن عندنا شهود عيان وأدلة ظرفية **تؤيد** معجزة القيامة. وإليك الإطار الذي يجب أن نقَيِّم فيه الأدلة:

أ) حقيقة خلق الكون تجعل المعجزات ممكنة: إننا نعيش في كون مِنْ خَلْقِ الله حيث المعجزات ممكنة. (وبالحقيقة أعظم معجزة، وهي خلق الكون من عدم، حدثت بالفعل). لذا يمكن أن يستخدم الله الأنبياء لإعلان رسائله والمعجزات لتثبيتها. أي أن المعجزة يمكن أن تُستخدَم لتثبيت كلمةِ الله لشعبِ الله من خلال رجالِ الله.

ب) الوثائق القديمة تقول إن المعجزات متوقعة: وثائق العهد القديم التي كُتِبَت قبل أحداث العهد الجديد بمئات السنين تتنبأ أن المسيا، وهو رجل سيكونُ هو الله فعلاً، سوف يأتي، ويُقتَل في وقت محدَّد كذبيحة عن البشر الخطاة، ويقوم من الأموات (المزيد عن ذلك في الفصل القادم).

ج) وثائق شهود العيان الثابتة تاريخيًا تقول إن المعجزات حقيقة: هناك ٢٧ وثيقة كتبها تسعة شهود عيان، أو معاصروهم، تصف العديد من الأحداث المعجزية. والكثير من هذه الوثائق تحوي شهادات شهود عيان ثابتة تاريخيًا يرجع تاريخها إلى زمن الأحداث، والأدلة تبين أن القصة ليست من اختراع الكُتَّاب، وليس فيها تجميل، ولا هي نتاجُ خدعة. ونحن نعرف ذلك لأن وثائق العهد الجديد تجتاز كل اختبارات التاريخية السبعة المذكورة في الفصل التاسع. فوثائق العهد الجديد:

١) مبكِّرة (معظمها مكتوب في غضون ١٥-٤٠ سنة من زمن الأحداث، أي في خلال جيلين من وقوع الأحداث).

٢) تشتمل على شهادات شهود عيان.

٣) تحوي شهادات شهود عيان مستقلين من مصادر متعددة.

٤) كتبها أناس أهل ثقة اتبعوا أرقى المقاييس الأخلاقية في حياتهم، وماتوا من أجل شهادتهم.

٥) تصف أحداثًا ومواقع وأفرادًا ثابتين في علم الآثار وفي كتابات أخرى.

٦) تصف بعض الأحداث التي يعترف الأعداء ضمنًا بأنها صحيحة (شهادة الأعداء).

٧) تصف أحداثًا وتفاصيل محرجة للكُتَّاب وحتى ليسوع نفسه.

ووثائق شهود العيان هذه الثابتة تاريخيًا تروي القصة التالية:

١) يسوع يأتي إلى أورشليم ويزعم أنه المسيا، في الوقت والمكان وبالطريقة التي تنبأ عنها العهد القديم. وهو يُعَلِّم حقائق عميقة، ويصنع خمسًا وثلاثين معجزة (بعضها معجزات جماعية) ويقوم من الأموات بشهادة العديد من شهود العيان المستقلين.

٢) وشهود العيان الذين كانوا يومًا جبناء ومتشككين يبدؤون بغتةً في المجاهرة بإعلان قيامة يسوع أمام الاضطهاد والموت. (المضلَّلون قد يموتون من أجل كذبة يظنونها حقيقة، ولكنهم لن يموتوا من أجل كذبة يعرفون أنها كذبة. إلا أن كُتَّاب العهد الجديد كانوا في وضع يسمح لهم أن يعرفوا الحقيقة من جهة القيامة).

٣) في المدينة عينها التي شهدت موت يسوع وحَوَتْ قبره، تُولَد حركة جديدة (الكنيسة) وسرعان ما تنتشر بطرق سلمية على أساس الاعتقاد بقيامة يسوع من الأموات. (وهو أمر يصعب تفسيره لو لم تكن القيامة حقيقة. فكيف تنشأ المسيحية في مدينة معادية مثل أورشليم لو كان جسد يسوع قابعًا في القبر؟ كانت السلطات الدينية والحكومية المعادية ستُظْهِر الجسد وتكشف زيف المسيحية).

٤) آلاف اليهود في أورشليم، ومنهم كهنة فريسيون، يهجرون خمسًا من أعَزّ معتقداتهم وممارساتهم ويتبعون معتقدات وممارسات جديدة غريبة بعد تَحَوُّلهم إلى المسيحية.

٥) شاول، أشرس أعداء الكنيسة الناشئة، يتحول فجأة إلى الإيمان المسيحي ويصبح من أنشط مناصري الكنيسة. فهو يجوب أصقاع العالم القديم ليعلن القيامة، ويُضطهَد ثم يُستشهَد. (لَو لم تكن القيامة حقيقة، فلماذا تحول ألد أعداء المسيحية بغتةً إلى أعظم قادتها؟ لماذا قبل طوعًا الاضطهاد والموت؟)

٦) يعقوبُ أخو يسوعَ المتشككُ يقتنع فجأة أن أخاه – حسب الجسد - ابنُ الله، ثم يصير قائد كنيسة أورشليم. ثم يُستشهَد على يد رئيس الكهنة. (جميعنا يعرف أن أفراد الأسرة قد يكونون أصعب مَن يمكن إقناعهم بموقفنا الديني. في البداية كان يعقوب هو أخو يسوع غير المقتنع به [يوحنا٧: ٥]. فلو لم تكن القيامة حقيقة، إذَن لماذا آمن يعقوب فجأة أن أخاه هو فعلاً المسيا، وقد أطلق عليه مؤرخا القرن الثاني أكليمندس وهجيسيبوس[٢١] *Hegesippus* لقب يعقوب "البار"؟ لو لم يكن يعقوب قد رأى المسيح المُقام، فلماذا يصبح قائد كنيسة أورشليم ويموت شهيدًا؟)

٧) أعداء المسيحية من اليهود لا ينكرون الأدلة، ولكنهم يطرحون لها تفسيرات طبيعية معيبة.

د) تأكيدات إضافية: إن مجموعة من مراجع المؤرخين والكُتّاب القدامى الآخرين تؤكد هذه القصة الرئيسية التي ترويها وثائق العهد الجديد، وعدد من الكشوف الأثرية يؤكد التفاصيل التي تصفها تلك الوثائق.

وعندما تضع الأدلة في الإطار الصحيح، يمكنك أن تفهم لماذا **لسنا نملك الإيمان الكافي للشك فيها.** ولكن الشك في الشكوكية هو الخيار الأكثر منطقية!

إن الشكوكيين الذين ينظرون إلى النقاط ب - د أعلاه (ونقاطها الفرعية) قد يخلصون إلى أن يسوع لم يقُم من الأموات. ولكنهم إن فعلوا ذلك، ينبغي عليهم أن يقدّموا أدلة النظرية البديلة التي يمكنها أن تفسر **كل** هذه النقاط. ولكنهم فشلوا كما رأينا، بل فشلوا فشلاً ذريعًا. فالقيامة هي أفضل تفسير **لكل** الأدلة.

وبما أنه يوجد إله قادر على الفعل، إذَن يمكن أن تكون هناك أفعال يفعلها الله. وعندما يُعلَن قصدُ الله مسبقًا، ثم تجد شهادات شهود عيان مُحْكَمة وأدلة داعمة تؤكد حقيقة وقوع هذه الأحداث، فإن **إنكار هذه الأحداث يتطلب مقدارًا من الإيمان أكبر بكثير مما يتطلبه تصديقُها.**

مزاعم غير عادية وأدلة تنفي نفسها

هناك اعتراضان آخران غالبًا ما يطرحهما الشكوكيون ضد القيامة والمعجزات. أولهما يتمثل في المطالبة بأدلة غير عادية.

الأدلة غير العادية: بعض الشكوكيين قد يعترفون أن القيامة ممكنة، ولكنهم يقولون إن تصديقها يتطلب أدلة غير عادية. أي أنه بما أن العهد الجديد يزعم مزاعم غير عادية، كالمعجزات، يجب أن نُعطَى أدلة غير عادية لنُصَدِّق تلك المزاعم. ويبدو هذا الاعتراض منطقيًا إلى أن تسأل "ما المقصود بتعبير "غير عادية"؟"

إن كان يعني **أعلى من الطبيعي**، إذَن الشكوكي يطلب تأكيد القيامة بمعجزة أخرى. كيف يتم ذلك؟ حتى يؤمن الشكوكي بالمعجزة الأولى (القيامة)، يحتاج معجزة ثانية لتأييدها. وآنذاك سيطالب بمعجزة ثالثة لتأييد الثانية، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. وبناءً على هذا المعيار، لن يؤمن الشكوكي أبدًا بالقيامة حتى إن كانت حقيقية. إن مقياس البرهان الذي يجعل تصديق الحدث الحقيقي أمرًا مستحيلاً هو مقياس خاطئ.

وإن كان تعبير "غير عادية" يعني **قابلاً للتكرار** في المعمل، إذَن يستحيل تصديق أي حدث تاريخي لأن الأحداث التاريخية غير قابلة للتكرار. ولا يمكن التحقق من إمكانية تصديق الأحداث التاريخية إلا بفحص جودة أدلة شهود العيان وطبيعة الأدلة الجنائية في ضوء مبدأي النمطية والسببية (استعرضنا هذين المبدأين في الفصل الخامس). فضلاً عن ذلك، الملحدون الذين يطالبون بتكرار "المعجزات" الكتابية متناقضون لأنهم لا يطالبون بتكرار "المعجزات" التاريخية التي يؤمنون بها، كالانفجار الكبير، والتولد التلقائي لأول حياة، والماكرو تطور لأشكال الحياة اللاحقة.

وإن كان "غير عادية" يعني **أكثر من "معتادة"**، فهذه هي بالضبط نوعية الأدلة المتوافرة عندنا على القيامة. فنحن عندنا وثائق شهود عيان على القيامة **أكثر وأقرب لتاريخ القيامة** من أي شيء آخر في العالم القديم. فضلاً عن ذلك، هذه الوثائق تشتمل على تفاصيل وشخصيات تاريخية **أكثر** من أي شيء في العالم القديم، وهي أيضًا مؤيَّدة بمصادر مستقلة وخارجية **أكثر** من أي شيء في العالم القديم. وكما رأينا، لدينا كذلك ما هو **أكثر** من الأدلة الظرفية العادية التي تؤيد القيامة.

وأخيرًا، يمكن تحدي الافتراض المسبق للشكوكي. فنحن لا نحتاج أدلة "غير عادية" لتصديق شيء ما. وهو ما يؤكده الملحدون من منظورهم الفلسفي. فهم يؤمنون بالانفجار الكبير لا لأنهم يملكون أدلة "غير عادية" عليه ولكن لأن هناك أدلة قوية على أن الكون انفجر إلى الوجود من العدم. فالأدلة القوية هي كل ما تحتاجه لتصديق شيء. إلا أن الملحدين ليس عندهم أدلة قوية حتى على بعض معتقداتهم الثمينة. فمثلاً الملحدون يعتقدون في التولد التلقائي والماكرو تطور بناءً على الإيمان فقط. ونقول الإيمان فقط لأن التولد التلقائي والماكرو تطور ليس لهما إلا أدلة قليلة أو ربما ليس لهما أدلة على الإطلاق، كما رأينا في الفصلين الخامس والسادس، ومن ناحية أخرى هناك أدلة قوية **ضد** تلك الاحتمالات.

بالإضافة إلى ذلك، الشكوكيون لا يطالبون بأدلة "غير عادية" على سائر الأحداث التاريخية "غير العادية". فمثلاً، إنجازات الإسكندر الأكبر (٣٥٦- ٣٢٣ ق.م) من أبرز أحداث التاريخ "غير العادية". وذلك لأنه رغم أن الإسكندر لم يعش إلا ٣٣ سنة، حقق نجاحًا منقطع النظير. فقد غزا الكثير من العالم المتحضر آنذاك، بدءًا من اليونان، وشرقًا حتى الهند، وجنوبًا حتى مصر. ولكن كيف نعرف هذا عن الإسكندر؟ ليس عندنا مصادر من زمن حياته ولا بعد وفاته مباشرةً. وليس لدينا إلا أجزاء من مؤلـَّفين بعد وفاته بنحو ١٠٠ سنة. والحقيقة هي أننا **نؤسس كل معرفتنا تقريبًا عن حياة الإسكندر الأكبر "غير العادية" على ما كتبه المؤرخون بعد موته بثلاثمائة إلى خمسمائة عام!** وفي ضوء الأدلة الصلبة على حياة المسيح، أي شخص يشك في تاريخية المسيح عليه أيضًا أن يشك في تاريخية الإسكندر الأكبر. ففي الحقيقة، حتى يكون هذا الشكوكي متسقًا مع نفسه عليه أن يشك في التاريخ القديم **كله**.*

لماذا يطالب الشكوكيون بأدلة "غير عادية" على حياة المسيح ولكنهم لا يطالبون بأدلة كهذه على حياة الإسكندر الأكبر؟ لأنهم مرة أخرى منزعجون من المعجزات. فرغم أن المعجزات ممكنة لأن الله موجود، ورغم أن المعجزات تم التنبؤ بها ثم شوهدت عيانًا. فالشكوكيون لا يحتملون أن يعترفوا أن المعجزات حدثت بالفعل. ومن ثم فهم يرفعون مقياس التصديق إلى ارتفاعات شاهقة. وكأن بعض الشكوكيين يقولون: "لن أؤمن بالمعجزات لأني لم

---

*طُرحت حجة مشابهة بخصوص إنجازات نابليون بونابرت غير العادية في الكتاب الساخر "شكوك تاريخية حول نابليون بونابرت" *Historical Doubts Relative to Napoleon Bonaparte* بقلم ريتشارد واتلي *Richard Whately*. انظر *Morely, ed., Famous Pamphlets (New York: Routledge, 1890).*

أرَ معجزة. فإن ظهر لي يسوع المُقام سأؤمن به". وهذا هو الدليل غير العادي.

مؤكد أنه غير عادي، ولكن هل هو ضروري حقًا؟ هل ينبغي على يسوع أن يظهر لكل شخص في العالم حتى يضفي مصداقية على مزاعمه؟ ولماذا يفعل ذلك؟ لسنا بحاجة لرؤية كل شيء رؤى العين حتى نصدق أن الحدث وقع بالفعل. وفي الحقيقة هذا شيء مستحيل الحدوث ماديًا. ولكننا نصدق شهادة الآخرين إن كانوا أهل ثقة، وخاصةً إن كانت شهادتهم مؤيدة ببيانات أخرى. وهو ما ينطبق تمامًا على شهادة كُتَّاب العهد الجديد.

فضلاً عن ذلك، كما أشرنا في الفصل الثامن، إن كان الله شديد الانكشاف بسبب فرط تكرار تجلياته المعجزية، فقد يجور على حرية إرادتنا في بعض الحالات. وإن كان غرض هذه الحياة أن نختار اختيارات حرة تُـعِدُّنا للأبدية، فالله سيزوّدنا بأدلة مقنعة على وجوده ومقاصده ولكنها ليست أدلة قهرية. إذَن مَنْ يريدون أن يتبعوا الله يمكنهم أن يتبعوه بثقة، ومَنْ لا يريدون يمكنهم أن يخمدوا الأدلة أو يتجاهلوها ويعيشوا حياتهم كما لو كانت هذه الأدلة غير موجودة.

معجزات تنفي نفسها: جادَلَ الشكوكي الكبير ديـڤيد هيوم بأن المعجزات لا تستطيع أن تؤكد أي دين لأن المعجزات تقوم على شهادة ضعيفة وهي موجودة في كل الأديان. وهذا يعني أن المزاعم المؤيدة للمعجزات تنفي نفسها. ولكن من سوء حظ هيوم أن اعتراضه لا يصف الواقع الفعلي.

أولاً، هيوم يطلق تعميمًا متسرعًا بقوله إن المعجزات المزعومة في كل الأديان متماثلة. فكما رأينا في الفصل التاسع، المعجزات المتصلة بالمسيحية لا تقوم على شهادة ضعيفة. ولكنها تقوم على شهادة شهود عيان مبكرة من مصادر متعددة لا منافس لها في أي ديانة أخرى من ديانات العالم. وهو ما يعني أنه ما من ديانة أخرى في العالم تحتوي على معجزات تم التحقق من صحتها مثل معجزات العهد الجديد.

ثانيًا، اعتراض هيوم يسبق اكتشافات العلم الحديث التي تؤكد أن هذا الكون مخلوق (الفصول ٣-٦). بما أن هذا العالَم قد خلقه الله، فالديانات التي تؤمن بالله الخالق الحافظ هي اللتي يمكن أن تكون صحيحة. والمعجزات التي تؤكد العهد القديم اليهودي تؤكد المسيحية بالتبعية.

أخيرًا، تفرُّد معجزات العهد الجديد، وعددها، وجودتها، لا يمكن تفسيرها بأي شيء إلا

بمسبب فائق للطبيعة. لقد صنع يسوع أكثر من ثلاثين معجزة فورية، وفريدة، وناجحة دائمًا. بل إن بعضها جاءت نبوات عنه. إن صناع المعجزات المزعومين الذين لا يحققون إلا نجاحًا جزئيًا لا يمكنهم سوى إحداث شفاء نفسجسمي، أو استخدام الخداع، أو الإتيان بآيات شيطانية، أو الاعتماد على أحداث يمكن تفسيرها طبيعيًا. الحقيقة أنه ما من شافٍ معاصر يزعم حتى أنه قادر على شفاء كل الأمراض (بما فيها الأمراض "المستعصية") فوريًا بنسبة نجاح مائة في المائة. ولكن يسوع ورُسله فعلوا ذلك. وهو ما يبين طبيعة معجزات العهد الجديد من حيث تفرُّدها وعمل الله فيها مقابل كل ما عداها من مزاعم فائقة للطبيعة. وباختصار، لا شيء "يُبْطِل" معجزات العهد الجديد.

الخلاصة: حياة وحيدة فريدة

في بداية الفصل التاسع قُلنا إن هناك سؤالين يجب أن نجيب عنهما لنتحقق من تاريخية العهد الجديد:

١- هل لدينا نسخ دقيقة من الوثائق الأصلية التي كُتِبَت في القرن الأول؟

٢- هل تلك الوثائق تقول الحق؟

كما رأينا في الأربعة فصول الأخيرة، لدينا أدلة قوية على أن إجابة هذين السؤالين هي: نعم. وهو ما يعني أنه يمكننا أن نتيقن بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن العهد الجديد موثوق تاريخيًا.

ونحن في هذه النقطة لا نقول إن العهد الجديد خالٍ من الأخطاء. فسوف نبحث هذا السؤال لاحقًا. ولكن كل ما نستطيع أن نستخلصه الآن هو أن الأحداث الرئيسية في العهد الجديد حدثت بالفعل منذ ما يقرب من ٢٠٠٠ سنة. فيسوع عاش على أرضنا فعلاً، وعلَّم وصنع المعجزات، ومات مصلوبًا، ثم قام من الأموات.

إن لم تكن مقتنعًا حتى الآن، فكِّر في دليل آخر يؤيد ما نقول: تأثير حياة المسيح المذهل الذي يُعَبِّر عنه هذا المقطع الصغير من عظة عادةً ما تُعرَف بعنوان "حياة وحيدة فريدة" *"One Solitary Life"*:

وُلِد في قرية مجهولة، ابنـًا لامرأة ريفية. ونشأ في قرية أخرى حيث عَمِل في ورشة نجارة حتى بلغ الثلاثين. وبعدئذٍ صار واعظـًا متجولاً لمدة ثلاث سنين.

لم يكتب كتابًا. لم يتقلد منصبًا. لم يُكَوِّن أسرة ولم يكن له بيت. لم يذهب إلى الجامعة. لم يعِش في مدينة كبيرة. لم يسافر حتى ٣٠٠ كيلومتر بعيدًا عن محل ميلاده. لم يفعل شيئـًا واحدًا من تلك الأشياء التي عادةً ما تُصاحب العظمة. لم تكن عنده أي مؤهلات إلا نفسه.

وكان عمره ٣٣ سنة فقط عندما انقلب عليه تيار الرأي العام. ففَرَّ أصدقاؤه. وواحد منهم أنكره. وأُسْلِم لأعدائه وتَحَمَّل مهانة المحاكمة. وقد سُمِّر على صليب بين لِصَّين. وفي ساعاته الأخيرة، اقترع قاتلوه على ثيابه التي كانت كل ما يملك على الأرض. وبعد موته، وُضِعَ في قبر مستعار، بفضل شفقة أحد الأحباء.

[عشرون] قرنـًا مضت وانطوت، وهو اليوم الشخصية المركزية في التاريخ البشري. ولست مخطئـًا عندما أقول إن كل الجيوش التي حاربت على مر التاريخ، وكل الأساطيل التي مخرت عباب البحار، وكل البرلمانات التي اجتمعت، وكل الملوك التي ملكت، كل هؤلاء مجتمعين، لم يؤثروا في حياة إنسان على هذه الأرض كما أثَّرت تلك الحياة الوحيدة، الفريدة.[٢٢]

لو لم تكن القيامة حقيقة، كيف تستطيع هذه الحياة أن تكون الأكثر تأثيرًا على مر التاريخ كله؟ لسنا نملك الإيمان الكافي لتصديق أن هذه الحياة الوحيدة الفريدة النابعة من قرية نائية قديمة يمكن أن تكون الأكثر تأثيرًا على مر التاريخ كله... **إلا إذا كانت القيامة حقيقة.**

الفصول ١٣ - ١٤ يتناولان:

١- الحَقّ المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.
٢- عكس الحق هو الخطأ.
٣- وجودُ إلهٍ خالقٍ حافظٍ حقٌّ. وهو ما يُستدَل عليه من:
أ) بدايةٍ الكونٍ (الحجةٌ الكونية *Cosmological Argument*)
ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument*/ المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*)
ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)
د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)
٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.
٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكد كلام الله).
٦- العهد الجديد يتمتع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:
أ) الشهادة المبكرة
ب) شهادة شهود العيان
ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)
د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين
٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زعْمُ يسوع أنه الله تأكَّد معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلِّمه يسوع (الذي هو الله) حق.

١١- يسوع عَلَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).



مَنْ هو يسوع: الله؟
أم مجرد مُعَلِّم أخلاقي عظيم؟

"ليس مَنْ هو أكثر صممًا مِمَّن لا يريد أن يسمع".

باري لـڤنثال *Barry Leventhal*

لقد أثبتنا أن وثائق العهد الجديد صادقة تاريخيًا. وهو ما يعني أنه يمكننا أن نصل إلى يقين كافٍ أن يسوع قال وفعل ما تقول تلك الوثائق إنه قاله وفعله، بما فيها القيامة من الأموات. فمَنْ هو يسوع هذا؟ ماذا قال عن نفسه؟ هل هو الله حقًا كما يزعم المسيحيون؟

قبل أن نفحص مزاعم المسيح يجب أن نلقي نظرة على النبوات المسيانية التي أشرنا إليها في الفصول الأخيرة السابقة لهذا الفصل. وسيساعدنا ذلك على اكتشاف هوية يسوع الحقيقية، وسيزوِّدنا أيضًا بمزيد من الأدلة المتصلة بحجية العهد الجديد. فلنبدأ في جامعة كاليفورنيا بلوس أنـچلوس *UCLA* في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

المسيا والكتاب المقدس "الخدعة"

في مطلع سنة ١٩٦٦ وصل باري لـڤنثال، وهو شاب يهودي، إلى قمة النجاح. فقد كان لاعب الهجوم في فريقٍ كرة القدم لجامعة كاليفورنيا بلوس أنـچلوس وقاد الفريق

إلى الفوز لأول مرة ببطولة روز بول *Rose Bowl* على عكس التوقعات التي تنبأت بهزيمته ذلك العام.

وهو يسترجع ذكرياته قائلاً: "كانت حياتي رائعة. كنت بطلاً. والناس أحبوني. وقد اختارتني رابطتي اليهودية اللاعب القومي للعام. وكم كانت نشوتي بهذه الأمجاد".[1]

وعقب الفوز ببطولة روز بول بفترة وجيزة قال كِنْت *Kent* أعز أصدقاء باري إنه قَبِل يسوع المسيح في حياته شخصيًا.

وقال باري: "لم أفهم إطلاقًا كلام كِنْت. كنتُ أظنه مسيحيًا طوال حياته. فقد وُلِد في بيت مسيحي، كما وُلِدتُ أنا في بيت يهودي. أليست هذه هي الطريقة التي يتخذ بها الإنسان دينه؟ فأنا أرث ديني من والديَّ".

ولكن باري اندهش مما حدث في حياة كِنْت من تغيير، وخاصةً عندما قال له كِنْت: "باري أريدك أن تعرف أني أشكرُ الله على اليهود كل يوم".

فسأله باري: "لماذا تفعل ذلك؟"

وكم كانت دهشته من إجابة كِنْت: "أشكرُ الله على اليهود كل يوم لسببين. أولاً، أن الله استخدمهم ليعطيني كتابي المقدس. وثانيًا والأهم، أن الله استخدم اليهود ليأتي بالمسيا إلى العالم، وهو الذي مات عن خطايا العالم كله، وعن كل خطاياي".

ويتذكر باري قائلاً: "وإلى هذا اليوم أتذكر تأثير تلك الجمل القليلة البسيطة ولكنها صحيحة. المسيحيون **الحقيقيون** لا يكرهوننا، بل هُم في الواقع يحبوننا بصدق".

وبعد بضعة أسابيع، كِنْت عرَّف باري على هال *Hal* وهو القائد التابع لهيئة الكرازة الجامعية بالمسيح *Campus Crusade for Christ* في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس. وذات يوم كان باري وهال جالسين في استراحة الطلاب المزدحمة وقد احتد الحوار بينهما. فبينما كان هال يشرح لباري أن نبوات العهد القديم التي تحدثت عن المسيا تحققت في يسوع، انفجر باري قائلاً: "كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟"

سأله هال: "أفعل ماذا؟"

فقال باري بنبرة اتهام: "تستخدم كتابًا مقدسًا خدعة. عندك كتاب مقدس خدعة لتخدع به اليهود".

فسأله هال: "ما معنى "كتاب مقدس خدعة"؟"

أجاب باري: "أنتم المسيحيين أخذتم تلك النبوات المسيانية المزعومة من عهدكم الجديد ثم كتبتموها في نسخة العهد القديم التي تستخدمونها لتخدعوا اليهود. ولكني أؤكد لك أن تلك النبوات المسيانية ليست في كتابنا المقدس اليهودي".

أجابه هال: "لا يا باري. الأمر ليس كذلك إطلاقًا".

فقفز باري وهو يصرخ قائلاً: "لا، هذا كتاب خدعة".

فقال هال ثانيةً وهو مندهش من التهمة: "لا ليس خدعة. لم يحدث مطلقًا أن أحدًا قال لي هذا الكلام من قبل. اجلس من فضلك".

وبدأ الناس ينظرون.

"لا يا هال. علاقتنا انتهت".

"باري، باري، انتظر لحظة. هل معك التَّناخ [الكتاب المقدس اليهودي]؟"

"نعم، عندي نسخة حصلت عليها في احتفالي ببلوغ سن المسؤولية *Bar Mitzvah*. ماذا إذن؟"

"لماذا لا تدوِّن هذه الآيات وتبحث عنها في كتابك؟"

فانفجر باري قائلاً: "لأنه مضيعة للوقت. تلك الآيات ليست في التناخ".

فأصر هال قائلاً: "من فضلك. فقط دَوِّنْها وتَحَقَّق بنفسك".

ظل الشابان في هذا الشد والجذب حتى وافق باري على مراجعة الآيات حتى يتخلص من إلحاح هال. فقال وهو يكتب الشواهد دون اهتمام: "موافق. سأراجعها. ولكن لا تتصل بي، أنا سأتصل بك".

ومضى باري وهو لا يتوقع أبدًا أن يرى هال ثانيةً. ولم يراجع الآيات لمدة عدة أيام، ولكن مشاعر الذنب بدأت توجعه، ففكَّر في نفسه قائلاً: "لقد وعدتُ هال أن أراجعها. فأقل ما يجب أن أفعل ذلك وأنتهي من موضوع المسيحية هذا للأبد".

وفي تلك الليلة مَسَحَ باري التراب عن التناخ القديم الذي لم يفتحه منذ كان في الثالثة عشرة، وكم كانت صدمته شديدة لِما وجده. كل نبوة أملاها هال عليه وجدها فعلاً في التناخ!

وكان أول رد فعل له: "إني في ورطة كبيرة. يسوع هو المسيا حقًا!"

ولكن عند هذه النقطة، كان قبول باري قبولاً عقليًا فقط. وفورًا بدأ يقلق من تداعيات إعلان اكتشافه. "إن قَبِلتُ يسوع بصفته المسيا، ماذا سيكون رأي والديَّ؟ ماذا سيفعل أصدقائي في الرابطة اليهودية؟ وماذا سيقول الرابي معلمي اليهودي؟"

كان لا بد من المزيد من الدراسة قبل أن يكون باري مستعدًا لإعلان قراره، وكان عليه أن يدرس بوجه خاص نصًا أشار إليه هال عدة مرات: إشعياء ٥٣. وقبل أن نكشف ما انتهى إليه بحث باري، لنلقِ نظرة على إشعياء ٥٣ وبعض النبوات المسيانية الأخرى التي بحثها.

العبد المتألم

في آذار/مارس ١٩٤٧ كان راعٍ عربي صغير (محمد الديب) يراقب غنمه على بعد اثنى عشر كيلومترًا جنوب أريحا، وعلى بعد كيلومتر ونصف غرب البحر الميت. وعندما ألقى حجرًا على عنزة شاردة سمع صوت فخار ينكسر. وما نتج كان أعظم الكشوف الأثرية على مر التاريخ كله، كان مخطوطات البحر الميت.

وقد أدت أعمال التنقيب التي تمت في كهوف المنطقة حتى سنة ١٩٥٦ إلى العثور على العديد من المخطوطات وآلاف الأجزاء من المخطوطات في آنية خزفية وضعَتها هناك منذ نحو ٢٠٠٠ سنة طائفة دينية تُعرَف باسم الأسينيين. والأسينيون بوصفهم جماعة وُجِدوا من سنة ١٦٧ ق.م إلى ٦٨م. وقد انفصلوا عن سلطات الهيكل وأسسوا جماعتهم الرهبانية في صحراء اليهودية بالقرب من قمران.

ومن مخطوطاتهم التي عُثِر عليها في قمران مخطوطة تُعرف اليوم باسم مخطوطة إشعياء الكاملة *Great Isaiah Scroll* وهذه المخطوطة التي يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٠ ق.م ويبلغ طولها أكثر من سبعة أمتار هي سفر إشعياء كاملاً (الستة والستون أصحاحًا كلها) وهي أقدم مخطوطة كتابية موجودة.* وهي محفوظة حاليًا داخل قبو في مكانٍ ما في أورشليم، إلا أن نسخة منها معروضة في متحف محراب الكتاب *Shrine of the Book* في أورشليم.

---

* عند مقارنتها بثاني أقدم مخطوطة لإشعياء، وهي النص الماسوري الذي يرجع تاريخه لسنة ١٠٠٠ م، وُجِد أن النصين متطابقان بنسبة ٩٥٪، والتنوعات التي تمثل ٥٪ معظمها عبارة عن زلات قلم واختلافات في الهجاء (ولا يؤثر أي من هذه التنوعات على أي مسألة عقائدية). وهو ما يُعَدّ مثالاً على مدى دقة كتبة اليهود في نسخ الأسفار المقدسة عبر مر العصور. للمزيد عن مخطوطات العهد القديم، انظر *Norman Geisler and William Nix, General Introduction to the Bible (Chicago: Moody, 1986), 357-382*.

ولا تقتصر أهمية هذا الاكتشاف على أن تاريخ المخطوطة يسبق زمن المسيح وأنها بحالة جيدة، ولكنها أيضًا تحوي ربما أوضح وأكمل نبوة عن المسيا الآتي. فإشعياء يسمي المسيا "عبد الرب"، ويبدأ في الإشارة إلى العبد في أصحاح ٤٢ فيما يُعرَف باسم "نشيد العبد الأول". إلا أن العبد غالبًا ما يشار إليه باسم "العبد المتألم" نظرًا للوصف الحي الوارد في إشعياء ٥٣ لموته البدَليّ.

وبينما تقرأ النص (٥٢: ١٣- ٥٣: ١٢) اسأل نفسك: "إلى مَنْ يشير هذا الكلام؟"

(٥٢: ١٣) هوذا عبدي يعقل، يتعالى ويرتقي ويتسامى جدًا.

(١٤) كما اندهش منك كثيرون. كان منظره كذا مفسَدًا أكثر من الرجُل، وصورته أكثر من بني آدم.

(١٥) هكذا ينضح أممًا كثيرين. من أجله يسُد ملوك أفواههم، لأنهم قد أبصروا ما لم يُخبَروا به، وما لم يسمعوه فهموه.

(٥٣: ١) من صدَّق خبرنا، ولمن استُعلِنَت ذراع الرب؟

(٢) نَبَتَ قدامه كفَرخٍ وكعرق من أرض يابسة، لا صورة له ولا جمال فننظر إليه. ولا منظر فنشتهيه.

(٣) محتَقَر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحَزَن، وكمستَّر عنه وجوهنا. محتَقَرٌ فلم نَعتَدّ به.

(٤) لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحمَّلها. ونحن حسبناه مصابًا مضروبًا من الله ومذلولاً.

(٥) وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه، وبحبره شفينا.

(٦) كلنا كغنم ضللنا. مِلنَا كل واحد إلى طريقه، والرب وضع عليه إثم جميعنا.

(٧) ظُـلِم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه. كشاةٍ تُساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه.

(٨) من الضُّغطة ومن الدينونة أُخِذَ. وفي جيله من كان يظن أنه قُطِع من أرض الأحياء، أنه ضُرِبَ من أجل ذنب شعبي؟

(٩) وجُعِلَ مع الأشرار قبره، ومع غني عند موته. على أنه لم يعمَل ظلمًا، ولم يكن في فمه غش.

(١٠) أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن. إن جَعَل نفسه ذبيحة إثم يرى نسلاً تطول أيامه، ومسرة الرب بيده تنجح.

(١١) من تعب نفسه يرى ويشبع، وعبدي البار بمعرفته يبرِّر كثيرين، وآثامهم هو يحملها.

(١٢) لذلك أقسِمُ له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه وأحصي مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين.

إلى مَنْ يشير هذا النص في رأيك؟ باري عرف جيدًا إلى مَن يشير. فعندما قرأ من التَّناخ، دُهِشَ مما فيه من تشابهات مع يسوع، ولكنه ظَلّ متحيرًا نوعًا ما. وأراد أن يعطي المعلم اليهودي فرصة ليفسره له.

ويقول باري: "أتذكر جيدًا أول مرة واجهت فيها إشعياء ٥٣ بجدية، أو بالأحرى أول مرة واجهني بجدية. كنتُ متحيرًا بشأن هوية العبد في إشعياء ٥٣، فذهبت إلى المعلم اليهودي حيث أسكن وقلت له: "يا معلم، التقيت ببعض الأشخاص في الجامعة يزعمون أن العبد في إشعياء ٥٣ لا يمكن أن يكون إلا يسوع الناصري. ولكني أود أن أعرف منك مَن هو العبد في إشعياء ٥٣؟""

وكم كانت دهشة باري من إجابته. فقد قال المعلم: "باري، ينبغي أن أعترف أنني عندما أقرأ إشعياء ٥٣ يبدو لي أنه بالحقيقة يتكلم عن يسوع، ولكن بما أننا نحن اليهود لا نؤمن بيسوع، إذَن يستحيل أن يكون عن يسوع".

وفي ذلك الوقت لم يكن باري يعلم الكثير عن المنطق الصوري، ولكنه عرف ما يكفيه أن يقول لنفسه: "هذه ليست أمانة بناءً على تعاليمنا اليهودية! فالمعلم يعتمد في تفكيره المزعوم على المنطق الدائري، وهو أيضًا منطق مراوغ ومخيف". ويقول باري اليوم: "ليس مَنْ هو أكثر صممًا مِمَّن لا يريد أن يسمع".

أما لمَنْ يريد أن يسمع حقـًا، يقدم لاري هليار *Larry Helyer* ملخصًا ممتازًا لسمات العبد في إشعياء وأعماله. فقد جمع الملاحظات التالية عن العبد بادئًا بأول نشيد من أناشيد العبد في أصحاح ٤٢:

١- مختار الرب، وممسوح بالروح، وموعود بالنجاح في مساعيه (٤٢: ١، ٤).

٢- العدل من أول اهتمامات خدمته (٤٢: ١، ٤).

٣- خدمته تشمل العالم كله (٤٢: ١، ٤).

٤- الله عيَّنَه مسبقًا لدعوته (٤٩: ١).

٥- مُعَلِّم موهوب (٤٩: ٢).

٦- يُحْبَط في خدمته (٤٩: ٤).

٧- خدمته تمتد للأمم (٤٩: ٦).

٨- العبد يواجه معارضة ومقاومة عنيفة ضد تعليمه، تصل إلى حد الاعتداء الجسدي (٥٠: ٤- ٦).

٩- إنه عازم على إتمام ما دعاه الله للقيام به (٥٠: ٧).

١٠- العبد ينحدر من أصول متواضعة ويبدو ظاهريًا أن فرص نجاحه ضئيلة (٥٣: ١، ٢).

١١- يختبر الآلام والأحزان (٥٣: ٣).

١٢- العبد يقبل الألم البَدَليّ والنيابي عن شعبه (٥٣: ٤- ٦، ١٢).

١٣- حُكِمَ عليه بالموت بعد إدانته (٥٣: ٧- ٩).

١٤- المذهل أنه يعود إلى الحياة ويُرَفَّع فوق كل الحكام (٥٣: ١٠- ١٢؛ ٥٢: ١٣- ١٥).

ونضيف إلى ملاحظات هليار أن العبد أيضًا بلا خطية (٥٣: ٩).

إن قراءة عابرة للنص لا تترك أي مساحة للشك في أن العبد المتألم هو يسوع. والحقيقة أن التفسير **اليهودي** التقليدي لنصوص العبد يقول إنها تتنبأ عن المسيا الآتي.* أي أن اليهود لم يغيّروا تفسير العبد المتألم بحيث يشير إلى أمة إسرائيل إلا بعد أن بدأ احتكاكهم بالمتخصصين في الدفاعيات المسيحية يزداد منذ حوالي ألف سنة. وأول يهودي يزعم أن العبد المتألم هو إسرائيل لا المسيا كان شلومو يسحاقي *Shlomo Yitzchaki*، وشهرته راشي *Rashi* (حوالي ١٠٤٠- ١١٠٥). واليوم رأي راشي هو السائد في اللاهوت اليهودي والرابي.

ولكن لسوء حظ راشي والكثير من اللاهوتيين اليهود المعاصرين هناك ما لا يقل عن ثلاثة أخطاء فادحة في تأكيدهم بأن إسرائيل هو العبد المتألم. أولاً، العبد يختلف عن إسرائيل في

---

* الكثير من المعلمين اليهود على مر العصور، حتى قبل زمن المسيح، فهموا إشعياء ٥٣ على أنه إشارة للمسيا الآتي. انظر *S. R. Driver and A. D. Neubauer, The Fifty-third Chapter of Isaiah According to Jewish Interpreters (Oxford and London: Parker, 1877)*. فهذا الكتاب مثلاً يقتبس آراء المعلمين اليهود التي تقول إن الآيات التالية تشير إلى المسيا: "فرخ" من الآية ٢ (صفحة ٢٢)، "رجل أوجاع" من الآية ٣ (صفحة ١١)، "أحزاننا حملها" من الآية ٤ (صفحة ٢٣)، "مجروح لأجل معاصينا" من الآية ٥ (صفحة ٢٤).

أنه بلا خطية (٥٣: ٩). والقول بأن إسرائيل بلا خطية يتناقض مع العهد القديم كله تقريبًا أو ينفيه. فالموضوع المتكرِّر في العهد القديم هو أن إسرائيل أخطأت بكسر وصايا الله وبالذهاب وراء آلهة أخرى بدلاً من الله الواحد الحقيقي. فإن كانت إسرائيل بلا خطية، لماذا إذَن أعطى الله اليهود نظامًا للذبائح؟ ولماذا احتفلوا بعيد للكفارة؟ ولماذا كانوا في احتياج مستمر للأنبياء ليحذروهم من الاستمرار في الخطية ويدعوهم للعودة إلى الله؟

ثانيًا، العبد المتألم يختلف عن إسرائيل في أنه حَمَل يستسلم دون أي مقاومة تُذكر (٥٣: ٧). ولكن التاريخ يُثْبت لنا أن إسرائيل ليست حَمَلاً على الإطلاق، فهي لا تضع نفسها عن أحد.

ثالثًا، العبد المتألم يختلف عن إسرائيل في أنه يموت موتًا كفاريًا نيابيًا عن خطايا الآخرين (٥٣: ٤- ٦، ٨، ١٠- ١٢). إلا أن إسرائيل لم تمُتْ، وهي لا تدفع ثمن خطايا الآخرين. ولا أحد يُفتَدى على حساب ما تفعله أمة إسرائيل. ولكن الأمم والأفراد الذين يُكَوِّنونها يعاقَبون بخطايا أنفسهم.

إن هذا التفسير الساذج المستجَد لإشعياء ٥٣ يبدو مدفوعًا بالرغبة في تجنب استنتاج أن يسوع هو حقًا المسيا الذي أشارت إليه النبوات قبل مجيئه بمئات السنين. إلا أن تجنب الواضح ليس له سبيل مشروع. تَذَكَّر أن مخطوطة إشعياء الكاملة كُتِبَت قبل المسيح بحوالي ١٠٠ سنة، ونحن نعلم أن المادة التي تحويها أقدم من ذلك. والسبعينية، وهي الترجمة اليونانية للعهد القديم العبري (بما فيها إشعياء)، يرجع تاريخها إلى نحو سنة ٢٥٠ ق.م. ومن ثم لا بد أن يكون الأصل العبري أقدم. فضلاً عن ذلك، مخطوطات أسفار العهد القديم كله أو أجزاء من مخطوطاتها فيما عدا سفر أستير وُجِدَت في مخطوطات البحر الميت. إذَن لا شك أن العهد القديم، بما فيه نص العبد المتألم يسبق المسيح بعدة مئات من السنين.

سهم يصيب الهدف

إن كان إشعياء ٥٣ هو النص النبوي الوحيد في العهد القديم، فهو كافٍ لإظهار الطبيعة الإلهية لسفر إشعياء على الأقل. ولكن هناك عدة نصوص أخرى في العهد القديم تتنبأ بمجيء يسوع المسيح أو يكتمل تحقيقها فيه. وهي تشمل (الجدول ١٣- ١):

النص المسياني	النبوة المسيانية
تكوين٣: ١٥ [الله يتحدث إلى الشيطان] «وأضع عداوة بينكِ وبين المرأة، وبين نسلكِ ونسلها. هو يسحق رأسكِ، وأنتِ تسحقين عقبه».	**نسل المرأة:** نسل حواء (حرفيًا "زرع" حواء) سيسحق الشيطان في النهاية. ولكن هذا الإنسان يختلف عن سائر البشر في أنه سيكون من زرع امرأة لا من زرع رجل (قارن متى١: ٢٣).
تكوين١٢: ٣، ٧ [الله يتحدث إلى إبراهيم] «وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض... وظهر الرب لأبرام وقال: "لنسلك أعطي هذه الأرض". فبنى هناك مذبحًا للرب الذي ظهر له».	**زرع إبراهيم:** زرع إبراهيم المذكور هنا يعني حرفيًا "نسل" (لا "أنسال"). فهو يشير إلى شخص واحد فقط، إلى مسيا سيبارك في النهاية كل شعوب الأرض ويحكم الأرض (قارن غلاطية٣: ١٦).
تكوين٤٩: ١٠ «لا يزول قضيب من يهوذا ومُشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب».	**سبط يهوذا:** القضيب (صولجان الملك) لن يزول من سبط يهوذا حتى يأتي الملك الأعظم، المسيا. أي أن المسيا سيأتي من سبط يهوذا (أحد أسباط إسرائيل الاثني عشر).
إرميا٢٣: ٥، ٦ «ها أيام تأتي، يقول الرب، وأقيم لداود غصن بر، فيملك ملك وينجح، ويُجري حقـًا وعدلاً في الأرض. في أيامه يُخَلَّص يهوذا، ويسكن إسرائيل آمنـًا، وهذا هو اسمه الذي يدعونه به: الرب برنا». (انظر أيضًا إرميا٣٣: ١٥، ١٦؛ إشعياء١١: ١)	**ابن داود:** المسيا سيكون ابنًا لداود. ويُدعى الله.
إشعياء٩: ٦، ٧ «لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابنًا، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبًا مشيرًا، إلهًا قديرًا، أبًا أبديًا، رئيس السلام. لنمو رياسته، وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليُثَبِّتها ويَعْضُدها بالحق والبر، من الآن إلى الأبد. غيرة رب الجنود تصنع هذا».	**سيكون هو الله:** المسيا سيولد طفلاً، ولكنه سيكونُ الله أيضًا. وسوف يحكم من عرش داود.
ميخا٥: ٢ «أما أنتِ يا بيت لحم أفراتة، وأنتِ صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنكِ يخرج لي الذي يكون متسلطـًا على إسرائيل، ومخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل».	**يولد في بيت لحم:** المسيا، الأزلي، سيولد في بيت لحم.

النص المسياني	النبوة المسيانية
ملاخي٣: ١ «هأنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي. ويأتي بغتةً إلى هيكله السيد الذي تطلبونه، وملاك العهد الذي تُسرّون به. هوذا يأتي، قال رب الجنود».	**سيأتي إلى الهيكل:** المسيا الذي سيسبقه ملاك* سيأتي بغتةً إلى الهيكل.
دانيال٩: ٢٥، ٢٦ «فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعًا، يعود ويُبنى سوق وخليج في ضيق الأزمنة. وبعد اثنين وستين أسبوعًا يُقطع المسيح وليس له، وشعبُ رئيسٍ آتٍ يُخرب المدينة والقدس، وانتهاؤه بغمارة، وإلى النهاية حرب وخِرَب قُضي بها».	**سيموت سنة ٣٣م:** المسيا سيموت ("يُقطع") بعد ٤٨٣ سنة (٦٩ × ٧) من صدور الأمر بتجديد أورشليم (نتيجة الحساب هي سنة ٣٣ م.[3] وبعدئذٍ تُهدم المدينة والهيكل (وهو ما حدث سنة ٧٠).

الجدول ١٣-١

سؤال: مَن في تاريخ العالم كله:

١- من نسل امرأة عذراء

٢- من نسل إبراهيم

٣- من سبط يهوذا

٤- من نسل داود الملكي

٥- كان الله وإنسانًا

٦- وُلِد في بيت لحم

٧- سبقه رسول، وأتى إلى هيكل أورشليم قبل تدميره سنة ٧٠م

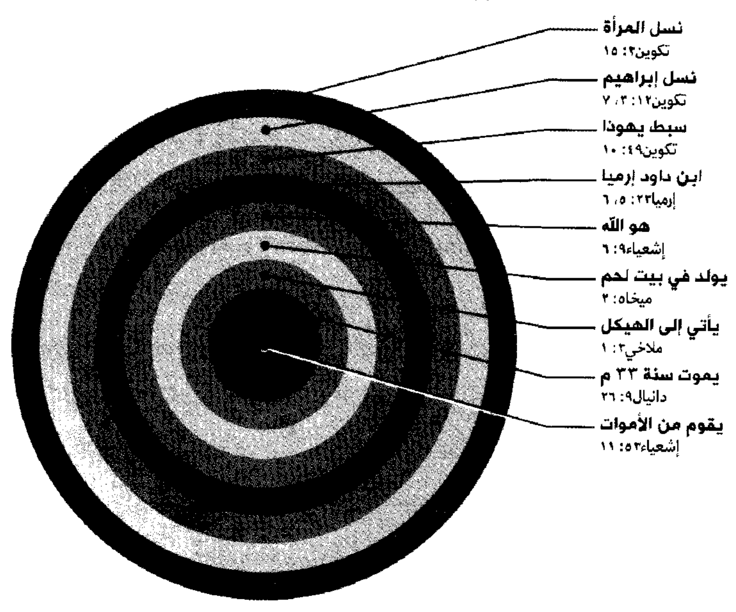
٨- مات سنة ٣٣م

٩- قام من الأموات (إشعياء٥٣: ١١)؟

إن يسوع المسيح الناصري هو المرشَّح الوحيد. هو الوحيد الذي يصيب الهدف. طبعًا القضية تزداد قوةً عندما تأخذ في اعتبارك الأوجه الأخرى من إشعياء ٥٣. ويسوع يحققُ كل تلك المعايير أيضًا.

* الكلمة العبرية هي "ملاك" מַלְאָךְ ومن معانيها رسول (*Stong's Hebrew Dictionary*). (المترجمة)

النبوات المسيانية أصابت الهدف



الشكل ١٣-١

إن القضية النبوية بخصوص المسيح تزداد قوةً عندما تعرف أن العهد القديم تنبأ أن الله نفسه سيُطعَن، كما حدث عندما صُلِب يسوع. فزكريا أحد أنبياء العهد القديم (كَتَبَ أيضًا قبل المسيح بزمن طويل) يسجل أن الله **يقول**: «وأُفيض على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات، فينظرون **إليَّ**، الذي طعنوه، وينوحون عليه كنائح على وحيد له، ويكونون في مرارة عليه كمن هو في مرارة على بكره» (زكريا١٢: ١٠). ثم يتنبأ زكريا أن قدمي الرب «ستقفان» على جبل الزيتون الذي قدام أورشليم من الشرق» (زكريا١٤: ٤). هذه النبوات تشير إلى مجيء المسيح ثانيةً، ولكن الإشارة إلى طعن ذلك الشخص المجيد (أي صلبه) على يد "بيت داود سكان أورشليم" واضح أنها تشير إلى مجيئه الأول. والحقيقة أن الرسول يوحنا يقتبسُ زكريا ١٢: ١٠باعتبارها نبوة عن الصلب (يوحنا ١٩: ٣٧).

يمكنك أن ترى لماذا أدرك باري أنه "في ورطة". فهذه النبوات المسيانية لا يمكن أن تكون صدفة. وهي أبعد ما تكون عن النبوات النفسانية التي يأتي بها أشخاص يدَّعون معرفة

الغيب.* ولكنها أمر فائق للطبيعة بحق، إلا أن الكثير من إخوانه اليهود لم يدركوه. ولكن باري أدرك أنه رغم انتظار اليهود لمسيا سياسي، عجزوا عن إدراك أن المسيا يجب أن يأتي أولاً كالحَمَل الذي يُذبَح عن خطايا العالم (إشعياء٥٣: ٧، ١١، ١٢؛ يوحنا١: ٢٩).

واتصل باري بهال مرة أخرى وهو في حالة من الاندهاش. ثم راجعا النبوات المسيانية ثانيةً، وخاصةً إشعياء ٥٣. ثم قَدَّمَ هال لباري كتيبًا صغيرًا.

وقال له هال: "هذه قصة حياة يسوع كَتَبَها شاب كان يعرفه ويتبعه. لمَ لا تقرؤها وتخبرني برأيك؟"

وحالما بدأ باري في القراءة، لم يتمكن من التوقف. كانت القصة تشتمل على الكثير من العناصر اليهودية، بدءًا من الكهنة وانتهاءً بالفصح. ويسوع هذا كان شخصية مذهلة: صانع معجزات له أفكار عظيمة، وهو يتحدث بسلطان ولكن بلطف أيضًا.

كان باري يقرأ إنجيل يوحنا ولكنه لم يكن يدري آنذاك. وقد دُهِشَ بوجه خاص من هبة الخلاص الأبدي المجانية التي يقدِّمها يسوع لكل من يَقبله. ويقول باري: "كل شيء أردته من الحياة كان عليَّ أن أكتسبه بنفسي وأكون مستحقـًا له. ولكن ها هو يسوع يقدم نفسه وأفضل هباته زمنيًا وأبديًا هديةَ حبٍّ مجانية. مَنْ ذا الذي يرفض هذا العرض؟"

وكان الوقت شهر نيسان/أبريل، بعد نصر روز بول المجيد بأكثر من ثلاثة شهور. ويقول باري: "أدركت فجأة أني لم أملك شيئًا تَمَكَّن من الصمود أمام اختبار الزمن، ناهيك عن اختبار الأبدية. وهو ما تَجَسَّد أمام عيني في فوز روز بول نفسه. فبعد بضعة شهور من أهم حدث في حياتي، ربما في حياتي **كلها**، فإن كل المجد، وكل ما صاحب هذا الفوز آنذاك بدأ يخبو ويتحول إلى ذكرى بعيدة باهتة".

وتساءل باري: "هل هذا كل ما في الحياة؟" ثم تَذَكَّر أن يسوع المسيا يقدِّم حياة **أبدية**!

---

* ما يُطلق عليه نبوات نفسانية لا يمت بصلة لنبوات الكتاب المقدس. فمثلاً سلسلة كتب "أخبار الناس السنوية" *People's Almanac* (١٩٧٦) أجرت دراسة على أبرز خمسة وعشرين شخصًا يقولون إنهم يعرفون الغيب. وقد أظهرت الدراسة أن ٦٦ من ٧٢ (أو ٩٢%) كانت خاطئة تمامًا. أما النبوات التي كانت صحيحة إلى حدٍّ ما، اتسمت بالغموض أو كان يمكن تفسيرها على أنها صدفة أو ناتجة عن معرفة عامة بظروف العالم. فإحدى النبوات مثلاً كانت تقول إن الولايات المتحدة وروسيا ستظلان القوتين العظميين ولن تقوم حروب عالمية. شيء مذهل! على العكس من ذلك، بعض نبوات الكتاب المقدس تُقال مئات السنين مقدَّمًا، بحيث يستحيل التنبوء بالظروف المستقبلية دون معونة إلهية، وقد أثبتت كل نبوات الكتاب المقدس دقتها بنسبة ١٠٠%. انظر *Norman L. Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), See pages 544-546 for problems with the alleged Nostradamus predictions*.

لقد عرف باري **عقليًا** أن يسوع هو المسيا قبل ذلك بعدة أسابيع، عندما وجد تلك النبوات المسيانية في التَّناخ. ولكن تصديق أن يسوع هو المسيا لا يكفي (فحتى الشياطين يعرفون أن يسوع هو المسيا كما نقرأ في يعقوب٢: ١٩). ولكن كان يجب على باري أن **يؤمن بيسوع** بصفته المسيا. وحتى يقبل هبة الخلاص الأبدي المجانية من العقاب الذي يستحقه، كان يجب عليه أن يخطو خطوة إرادية، لا خطوة عقلية فقط. فمهما كان، الله المحب لا يستطيع أن يجبره على دخول السماء ضد إرادته.

وبعد ظهر يوم ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٦٦ كان باري مستعدًا أن يتصرف وفقًا للحق الذي أكدَّته الدلائل. فركع بجوار سريره وصلَّى قائلاً: "يسوع، أؤمن أنك المسيا الموعود به للشعب اليهودي وللعالم أجمع، وبالتالي لي أيضًا، وأنك متَّ عن خطاياي وأنك حي من الأموات إلى الأبد. لذا، أَقْبَلك الآن في حياتي ربًّا ومخلِّصًا شخصيًا. شكرًا لأنك متَّ عني". ويقول باري: "لم تحدث بروق ولا رعود، لم يكن هناك إلا حضوره وسلامه كما وعد، ولم يفارقاني إلى هذا اليوم".

ومنذ أن توصل باري إلى هذا الاكتشاف العظيم، وهو يُوَصِّل لليهود حقيقة أن المسيا قد أتى. وأدلة هذا الحق موجودة في كُتبهم المقدسة! وفحص الأدلة التي تؤكد صحة تلك الكتب المقدسة يمثل اهتمامًا أساسيًا عند كلية اللاهوت الإنجيلية الجنوبية *Southern Evangelical Seminary* بالقرب من مدينة شارلوت *Charlotte* في ولاية نورث كارولاينا حيث يعمل باري حاليًا أستاذًا ووكيلاً أكاديميًا.

سطح علبة النبوة

رأينا عدة نصوص من العهد القديم تمثِّل نبوات واضحة عن المسيا. وهي لم تتحقق إلا في يسوع المسيح. إلا أن الشكوكيين سرعان ما يشيرون إلى أن بعض النبوات الأخرى التي يُستشهَد بها على أنها مسيانية تُنتزَع من السياق أو لا تتنبأ فعليًا عن المستقبل. فمثلاً مزمور ٢٢ يقول: "ثقبوا يديَّ ورجليَّ". والكثير من المسيحيين يدَّعون أن هذه الآية إشارة إلى صلب المسيح الذي لم يكن حتى وسيلة للعقوبة في أيام داود (كاتب المزمور). إلا أن الشكوكيين يقولون بأن داود لا يتحدث إلا عن نفسه، لا عن المسيح، ومن ثم فإن أي تطبيق مسياني هو تطبيق غير مشروع. يشتمل هذا الأمر على ثلاثة احتمالات.

أولاً، بعض الأكاديميين المسيحيين يتفقون مع الشكوكيين في آيات مثل هذه. فهم يقولون إن هدف مزمور ٢٢ ليس هدفًا نبويًا. (بالطبع، حتى إن كانوا على صواب، هناك العديد من

الآيات التي يتضح أنها نبوية، كما رأينا).

ثانيًا، بعض الأكاديميين المسيحيين يشيرون إلى أن بعض النبوات الكتابية قد تنطبق على شخصين مختلفين في زمنين مختلفين. فمن المؤكد أن كلاً من داود ويسوع كانوا يواجهون أعداء ومصاعب في حياتهم كما يُعَبِّر مزمور ٢٢. فما المانع أن ينطبق المزمور على داود **وعلى** يسوع؟

الاحتمال الثالث، وهو الأكثر معقولية لنا، أن مزمور ٢٢ هو فقط نبوة عن يسوع. فالمزمور يتضمن عدة إشارات مباشرة لخبرة الصلب التي اجتازها المسيح. فهو يبدأ بصرخته على الصليب: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟" (مزمور٢٢: ١، قارن متى٢٧: ٤٦)، ثم يصف أحداثًا أخرى متصلة بالصلب، ومنها: احتقار صالبيه، وإهانتهم له، واستهزاؤهم به (الآيتان ٦، ٧)، وعطشه (الآية ١٥)، ويداه ورجلاه المثقوبتان (الآية ١٦)، وعدم كسر عظامه (الآية ١٧)، واقتسام ثيابه (الآية ١٨)، وإنقاذ الرب له في النهاية (الآية ١٩)، وحتى تسبيحه لله وسط إخوته الإسرائيليين بعد إنقاذه إياه (الآية ٢٢). إن هذا يتجاوز الصدفة، ويقودنا إلى الاعتقاد بأن المسيح هو بالفعل المتحدث في المزمور كله. وهو ما يعني أنه رغم أن داود كتب المزمور، فالمسيح هو المتحدث. وهذا ليس النص الوحيد. ففي مزمور ١١٠ الله الآب يتحاور مع الله الابن.

وقد يقول الشكوكي: "ولكنك تفسر مزمور ٢٢ بهذا الشكل لأنك الآن تعلم ما حدث للمسيح. ولكن أغلب الظن أن مَنْ عاشوا في زمن العهد القديم لم يكن واضحًا لهم أن مزمور ٢٢ عن المسيح".

وهو ما نجيب عليه بالقول: حتى إن كان ذلك صحيحًا، إذَن ماذا؟ قد يكون صحيحًا أن نبوات مسيانية معينة في العهد القديم لا تتضح إلا في ضوء حياة المسيح. إلا أن ذلك لا ينفي أن هذه النبوات عجيبة بحق. فلتنظر إليها على هذا النحو: إن كنت لا تستطيع أن تفهم قطع اللغز الصغيرة التي تُكَوِّن الصورة الكبيرة دون أن ترى سطح العلبة، فهل هذا يعني أنه ما من أحد صنع اللغز؟ لا. والحقيقة أنك ما إن ترى سطح العلبة، حتى تدرك فجأة كيف تترتب القطع معًا، بل تدرك كذلك كمّ التفكير الذي تَطَلَّبه تصميم القطع على ذلك النحو. وبالكيفية نفسها، حياة يسوع تمثل سطح العلبة للكثير من قطع اللغز النبوي المنتشرة على صفحات العهد القديم. وفي الحقيقة أن أحد الأكاديميين المتخصصين في الكتاب المقدس حدَّد ٧١ نبوة مسيانية في العهد القديم تحقَّقت في المسيح، وبعضها أُنيرَ بنور حياة المسيح.[٤]

وقد أوجز البعض هذه الفكرة على ذلك النحو: المسيح في العهد القديم محتجَب، وفي العهد الجديد معلَن. ورغم أن الكثير من النبوات واضحة مسبقًا، فالبعض منها لا يُفهم إلا في نور

حياة المسيح. وتلك التي تُفهم **بعد** المسيح هي أيضًا نتاجُ تصميمٍ فائق للطبيعة مثل النبوات التي كانت واضحة **قبل** المسيح.

هل يسوع هو الله؟

كما رأينا يتنبأ العهد القديم عن مجيء مسيا يولد إنسانًا ولكنه الله في الوقت نفسه (إشعياء٩: ٦). ويسوع هو الشخص الوحيد المعروف الذي يطابق سمات المسيا التي تحدّثت عنها النبوات. ولكن هل زعم أنه الله؟

مؤكد أن كُتَّاب العهد الجديد زعموا في مواضع عدة أن يسوع هو الله. فمثلاً يوحنا يقول في افتتاحية إنجيله «وكان الكلمة الله»، «والكلمة صار جسدًا» (يوحنا١: ١، ١٤). ويقول بولس إن المسيح هو «الكائن على الكل إلهًا مباركًا» (رومية٩: ٥)، ويقول «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديًا» (كولوسي٢: ٩). ويصرِّح بطرس بأن المؤمنين ينالون البر من «إلهنا والمخلص يسوع المسيح» (٢بط١: ١). ومتّى ينسب الألوهة ليسوع عندما يقتبس إشعياء٧: ١٤: «ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه "عمانوئيل"» الذي تفسيره الله معنا» (متى١: ٢٣). ويقول كاتب العبرانيين عن ابن الله: «بهاء مجده، ورسم جوهره، وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته» (عبرانيين١: ٣). وهو يقتبس أيضًا مزمور٤٥: ٦ عندما يزعم أن الله يقول عن الابن: «**كرسيك** يا الله إلى دهر الدهور» (عبرانيين١: ٨). إن ما يقوله الرسل هنا يمثِّل مزاعم واضحة عن لاهوت المسيح. بل حتى الشياطين اعترفوا أن يسوع هو الله (متى٨: ٢٩؛ لوقا٤: ٣٤، ٤١)! ولكن هل يسوع نفسه زعم أنه الله؟

مزاعم مباشرة عن الألوهة

ربما ليس هناك زَعْم أوضح من رد يسوع المباشر على استجواب قيافا الصريح:

> "أأنت المسيح ابن المبارك؟". فقال يسوع: "أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة، وآتيًا في سحاب السماء". فمزق رئيس الكهنة ثيابه وقال: "ما حاجتنا بعد إلى شهود؟ قد سمعتم التجاديف! ما رأيكم؟". فالجميع حكموا عليه أنه مستوجب الموت (مرقس١٤: ٦١-٦٤).

لاحظ أن يسوع أجاب عن السؤال المباشر بإجابة مباشرة: "أنا هو". وعندما أشار لنفسه بلقب "ابن الإنسان"، أضاف بذلك أنه سيأتي ثانيةً في سحاب السماء. وقد عرف قيافا والحاضرون مضمون هذا الكلام. فقد كان في ذلك إشارة للرؤيا التي رآها دانيال نبي العهد

القديم عن نهاية الأزمنة: المسيا، ابن الإنسان، سيأتي إلى الأرض ليدين العالم بالسلطان المعطى له من الله الآب (''القديم الأيام*'')، وكل شعوب الأرض ستتعبد له (دانيال٧: ١٣، ١٤). وبالطبع، لا أحد يُعبَد إلا الله نفسه. إلا أن المسيح هنا يزعم أنه هو الشخص الذي سيدين العالم ويقبل عبادة الشعوب. لقد كان يزعم أنه الله، والجميع فهموا ذلك.

وبينما يسجِّل متى ومرقس ولوقا جميعًا رد ''أنا هو'' على قيافا، يخبرنا يوحنا بواقعة أخرى حيث يزعم يسوع الألوهة برد ''أنا هو''. وهو ما يحدث أثناء حوار ساخن مع بعض اليهود. فبعد الكثير من الشد والجذب حول هوية يسوع الحقيقية، ينتهي الحوار بيسوع وهو يعلن للفريسيين:

> ''أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح''. فقال له اليهود: ''ليس لك خمسون سنة بعد، أفرأيت إبراهيم؟'' قال لهم يسوع: ''الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن''. فرفعوا حجارة ليرجموه. أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازًا في وسطهم ومضى هكذا (يوحنا٨: ٥٦-٥٩).

وقد يقول الشكوكيون: ''"قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" عبارة ركيكة حتى على مستوى اللغة. فزمن الفعل خطأ''.† صحيح. إن يسوع ليس مهتمًا بقواعد اللغة لأنه يقتبس نفس الاسم الذي أعطاه الله لموسى في العليقة المتقدة.

هل تتذكر فيلم ''الوصايا العشر'' *The Ten Commandments*؟ ماذا فعل موسى (الذي لعب دوره شارلتون هستون *Charlton Heston*) عندما رأى العليقة المشتعلة؟ سأل الله: «''ها أنا آتى إلى بني إسرائيل وأقول لهم: إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟'' فقال الله لموسى: ''أهيه الذي أهيه''. وقال: ''هكذا تقول لبني إسرائيل: أهيه أرسلني إليكم''».‡ (خروج٣: ١٣، ١٤).

أهيه هو الكائن ذاتي الوجود. فهو ليس عنده ماضٍ ولا مستقبل لأنه أزلي أبدي. فهو ليس داخل الزمن. ويسوع كان يزعم أنه هو ذلك الكائن الأزلي الأبدي ذاتي الوجود، وهو ما دفع اليهود أن يرفعوا حجارة ليرجموه.

---

* في نبوة دانيآل ٧ يتضح أن ابن الإنسان هو شخص بخلاف القديم الأيام، ولكن من رؤيا ١ يتضح أن ابن الإنسان هو بنفسه القديم الأيام، إذ قد استُعلن سر التقوى: الله ظهر في الجسد (١تي٣: ١٦). (الناشر)

† العبارة الإنجليزية هي "*Before Abraham was born, I am.*" وترجمتها الحرفية ''قبل أنا يولد إبراهيم، أنا أكون''. (المترجمة)

‡ ''أهيه'' אהיה كلمة عبرية تعني ''أكون'' *to be* (*Strong's Hebrew Dictionary*). (المترجمة)

ومَنْ يستمرون في القول: "لا، يسوع لم يزعم مطلقًا أنه الله"، نود أن نسألهم سؤالاً: إن لم يكن يزعم يسوع أنه الله، فلماذا قُتِل إذَن؟ إنَّ صَلْب يسوع، الذي يُعَدّ غالبًا أكثر الحقائق المؤكدة في التاريخ القديم كله، يصعب تفسيره إلا إذا كان قد زعم أنه الله.

مؤكد أن اليهود غير المؤمنين عرفوا أنه يزعم الألوهة. ففي عدة مناسبات التقطوا حجارة ليرجموه بتهمة التجديف. فلماذا كان واضحًا لأناس القرن الأول أن يسوع زعم أنه الله، ولكنه ليس واضحًا لبعض شكوكيي اليوم؟

مزاعم غير مباشرة عن الألوهة

بالإضافة إلى هذه المزاعم المباشرة التي نطق بها يسوع عن لاهوته، فقد قال عدة عبارات أخرى واضح أنها تعني ضمنًا أنه الله:

- صلَّى يسوع: «والآن مَجِّدْني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يوحنا١٧: ٥). ولكن العهد القديم يقول إنه ليس هناك إلا إله واحد (تثنية٦: ٤؛ إشعياء٤٥: ٥ إلخ)، والله يقول: «ومجدي لا أعطيه لآخر» (إشعياء٤٢: ٨).
- أَعْلَن: «أنا هو الأول والآخر» (رؤيا١: ١٧)، وهي ذات الكلمات التي وصف الله بها نفسه في إشعياء٤٤: ٦.
- قال: «أنا هو الراعي الصالح» (يوحنا١٠: ١١)، ولكن العهد القديم يقول: «الرب راعيَّ» (مزمور٢٣: ١). والله يقول: «كما يفتقد الراعي قطيعه يوم يكون في وسط غنمه المشتتة، هكذا أفتقد غنمي» (حزقيال٣٤: ١٢).
- زَعَمَ يسوع أنه ديان كل البشر (متى٢٥: ٣١ إلخ؛ يوحنا٥: ٢٧)، ولكن يوئيل يقول عن لسانِ الله: «لأني هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية» (يوئيل٣: ١٢).
- قال يسوع: «أنا هو نور العالم. مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يوحنا٨: ١٢). ولكن كاتب المزمور يعلن: «الرب نوري» (مزمور٢٧: ١).
- أعلن يسوع: «لأنه كما أنَّ الآب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضًا يحيي مَنْ يشاء» (يوحنا٥: ٢١). ولكن العهد القديم علَّم بوضوح أن الله فقط هو واهب الحياة (تثنية٣٢: ٣٩؛ ١صموئيل٢: ٦) ومحيي الموتى (إشعياء٢٦: ١٩؛ دانيال١٢: ٢؛ أيوب١٩: ٢٥، ٢٦)، والديان الوحيد (تثنية٣٢: ٣٥؛ يوئيل٣: ١٢).
- قال يسوع صراحةً: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يوحنا١٤: ٦).

الله في العهد القديم	الصفة	يسوع في العهد الجديد
مزمور٢٣: ١	الراعي	يوحنا١٠: ١١
إشعياء٤٤: ٦	الأول والآخر	رؤيا١: ١٧
يوئيل٣: ١٢	الديان	متى٢٥: ٣١ إلخ
إشعياء٦٢: ٥	العريس	متى٢٥: ١
مزمور٢٧: ١	النور	يوحنا٨: ١٢
إشعياء٤٣: ١١	المخَلّص	يوحنا٤: ٤٢
إشعياء٤٢: ٨	مجدُ الله	يوحنا١٧: ٥
١ صموئيل٢: ٦	مانح الحياة	يوحنا٥: ٢١

الجدول ١٣-٢

وقد أعلن يسوع أيضًا لاهوته ضمنـًا في الأمثال. ففي عدد من أمثاله، يصوِّر نفسه في دورِ الله. مثلاً:

- في رد يسوع على شكوى الفريسيين أنه يقبل خطاة ويأكل معهم (لوقا١٥: ٢)، يقول يسوع ثلاثة أمثال: الخروف الضال، والدرهم المفقود، والابن الضال (لوقا١٥: ٤-٣٢). ومضمونها أن يسوع يفعل ما يفعله الله وفقـًا للعهد القديم: فهو راعٍ يذهب ويبحث عن الضال، وهو غفور يقبل الخطاة التائبين، ويرحب بهم في البيت (حزقيال٣٤: ١١؛ مزمور١٠٣: ٨-١٣). (وعلى هامش مثل الابن الضال الفريسيون ممثَّلون بالابن الأكبر المتذمر. فالفريسيون يظنون خطأً أنهم **يستحقون** هبات الآب على أعمالهم الصالحة، كالابن الأكبر. ومن ثم هذا المثل لا يؤكد لاهوت المسيح فحسب، بل يُعَلِّم كذلك أن الخلاص عطية مجانية لا يمكن أن نكتسبها باستحقاقنا، ولكننا فقط نقبلها).
- في متى١٩: ٢٨-٣٠ يعلن يسوع أنه، أي "ابن الإنسان" سيملك على عرش إسرائيل المجيد في تجديد كل شيء، وأن أتباعه سيملكون معه. وبعد ذلك مباشرةً يعلِّم مثل الفَعَلَة والكرْم (متى٢٠: ١-١٦). وهنا يـُمَثَّل ملكوتُ الله بكرم يملكه رب بيت. ورب البيت يدفع لكل الفعلة بالتساوي، بصرف النظر عن مدة العمل، مُبيِّنـًا بذلك أن نعمة الله لا تقوم على أي استحقاق مِثْلَ مدة الخدمة («هكذا يكون الآخِرون أوَّلين والأولون

آخرين»). ويسوع مُمَثَّل برب البيت الذي يملك الكرم ويوزِّع النعمة مجانـًا. وهو ما يعادله بالله لأن الله في العهد القديم هو مالك الكرم (إشعياء٥: ١-٧). (وكما رأينا، استخدامه للقب ''ابن الإنسان'' يتضمن إقراره بالألوهة أيضًا).

- يسوع يصف نفسه بأنه ''العريس'' في عدة مناسبات (مرقس٢: ١٩؛ متى٩: ١٥؛ ٢٥: ١؛ لوقا٥: ٣٤) بما فيها مثل العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات (متى٢٥: ١-١٣). وبما أن العهد القديم يصفُ الله بالعريس (إشعياء٦٢: ٥؛ هوشع٢: ١٦)، إذَن يسوع يعادل نفسه بالله.

وهناك عدة نماذج أخرى حيث يزعم يسوع ضمنـًا أنه الله فيما يقوله من أمثال. وإن كانت مساحة هذا الكتاب لا تسمح بتناولها جميعًا، إلا أن فيليـپ پين *Philip Payne* يخلص إلى أنه ''من بين أمثال يسوع القصصية الاثنين والخمسين المُدَوَّنة، عشرون ترسم له صورًا تشير في العهد القديم إلى الله''.[٥]

أفعال إلهية

بالإضافة إلى ما قاله يسوع من عبارات تؤكد لاهوته (وبالإضافة إلى ما صنع من معجزات)، فقد تَصَرَّف يسوع باعتباره الله:

- قال لمفلوج: «يا بُنَيّ، مغفورة لك خطاياك» (مرقس٢: ٥- ١١). وقد كان رد الكتبة في محله: «مَنْ يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده؟»
- أعلن يسوع: «دُفِع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» وبعدها مباشرةً أعطى وصية جديدة: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم...» (متى٢٨: ١٨، ١٩).
- لقد أعطى الله موسى الوصايا العشر، ولكن يسوع قال: «وصية جديدة أنا أعطيكم: أن تحبوا بعضكم بعضًا» (يوحنا١٣: ٣٤).
- طلب أن نصلي باسمه: «ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله. ... إن سألتم شيئًا باسمي فإني أفعله» (يوحنا١٤: ١٣، ١٤). «إن ثبتم فيَّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم» (يوحنا١٥: ٧).
- ورغم أن كلاً من العهدين القديم والجديد يمنعان العبادة إلا لله وحده (خروج٢٠: ١-٤؛ تثنية٥: ٦-٩؛ أعمال١٤: ١٥؛ رؤيا٢٢: ٨، ٩)، فإن يسوع قَبِلَ العبادة فيما لا يقل عن تسع مناسبات. وقد اشتملت على عبادةٍ من:

١- أبرص شُفي (متى٨: ٢)

٢- رئيسٌ أقام يسوعُ ابنتَه من الأموات (متى٩: ١٨)

٣- التلاميذ بعد عاصفة (متى١٤: ٣٣)

٤- امرأة كنعانية (متى١٥: ٢٥)

٥- أم يعقوب ويوحنا (متى٢٠: ٢٠)

٦- إنسان من كورة الجدريين به روح نجس (مرقس٥: ٦)

٧- أعمى شُفي (يوحنا٩: ٣٨)

٨- كل التلاميذ (متى٢٨: ١٧)

٩- توما الذي قال: «ربي وإلهي» (يوحنا٢٠: ٢٨)

كل هؤلاء الأشخاص عبدوا يسوع دون كلمة توبيخ واحدة منه. ويسوع قَبِل هذه العبادة، بل طَوَّبَ من اعترفوا بلاهوته (يوحنا٢٠: ٢٩؛ متى١٦: ١٧). وهو أمر لا يفعله إلا شخص اعتبر نفسه الله بحق.

والآن لنضع كل هذا في نصابه الصحيح. وليس مَنْ فعل ذلك أفضل من سي. إس. لويس الذي كتب:

> يظهر بغتةً بين هؤلاء اليهود رجل يتكلم كأنه الله أينما ذهب. فهو يزعم أنه يغفر الخطايا. ويقول إنه موجود أزلاً. ويقول إنه سيأتي ليدين العالم في نهاية الزمان. والآن علينا أن نفهم هذا الكلام بوضوح. بين المؤمنين بوحدة الوجود، مثل الهنود، يمكن لأي شخص أن يقول إنه جزء من الله، أو إنه واحد مع الله: لن يكون في ذلك غرابة كبيرة. ولكن هذا الرجل، بما أنه كان يهوديًا، لا يمكن أن يَفهم الله على هذا النحو. فالله في لغتهم يعني الكائن الذي هو خارج العالم الذي خلقه وهو مختلف اختلافًا لانهائيًا عن كل ما عداه. وعندما تدرك ذلك، ستفهم أن ما قاله هذا الرجل كان ببساطة أكثر الأقوال الصادمة التي نطقت بها شفاه بشرية.[٦]

تخيَّل جارك يزعم هذا النوع من المزاعم: "أنا الأول والآخر، الكائن ذاتي الوجود. هل تُريد غفرانًا لخطاياك؟ يمكنني أن أفعل ذلك. هل تريد أن تعرف كيف تعيش؟ أنا نور العالم، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة. هل تريد أن تعرف فيمن يجب أن تثق؟ دُفِعَ إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض. هل لديك أي مخاوف أو طِلْبات؟ صلِّ باسمي.

إن ثَبَتَّ فيَّ وثَبَتَ كلامي فيك، تطلب ما تريد فيكون لك. هل تريد أن تصل إلى الله الآب؟ ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي. أنا والآب واحد".

ماذا ستظن عن جارك لو كان جادًا فيما يقول؟ مؤكد أنك لن تقول: "مدهش، أظن أنه معلم أخلاقي عظيم!" لا، ستقول هذا الرجل مجنون، لأنه بالتأكيد يزعم أنه الله. وليس من عَبَّرَ عن هذه الفكرة أيضًا أفضل من سي. إس. لويس الذي كتب:

> إني أحاول هنا أن أمنع أي شخص من أن يقول هذا الكلام الشديد الحماقة الذي درج الناس على ترديده عن يسوع: "إني مستعد أن أقبل يسوع بصفته معلمًا أخلاقيًا عظيمًا، ولكني لا أقبل زعمه بأنه الله". هذا هو الشيء الوحيد الذي يجب ألا ننطق به. إن رجلاً لا يزيد عن كونه إنسانًا ويقول مثل هذه الأشياء التي قالها يسوع لن يكون معلمًا أخلاقيًا عظيمًا. ولكنه يكون مجنونًا، مثله مثل مَن يقول إنه بيضة مسلوقة؛ أو يكون شيطانًا من جهنم. عليك أن تختار. فإما إن هذا الرجل كان وما زال ابن الله، أو إنه رجل مجنون أو أسوأ. يمكنك أن تُخْرِسه بوصفه أحمق. يمكنك أن تبصق عليه وتقتله بوصفه شيطانًا، أو يمكنك أن تسقط عند قدميه وتدعوه ربًا وإلهًا. ولكن دعونا من هذا الكلام الفارغ المتعالي عن كونه معلمًا إنسانيًا عظيمًا. فهو لم يترك الأمر مفتوحًا لنا. ولم ينوِ ذلك.[٧]

لويس مُحِقّ تمامًا. فبما أن يسوع زَعم بوضوح أنه الله، فلا يمكن أن يكون مجرَد معلم أخلاقي عظيم. وذلك لأن المعلمين الأخلاقيين العظماء لا يخدعون الناس بزعم الألوهة كذبًا. وبما أن يسوع زعم أنه الله، فإن واحدًا من ثلاثة احتمالات فقط يمكن أن يكون صحيحًا: إما إنه كاذب، أو مجنون، أو الرب.

كاذب لا تتسق مع الحقائق. فيسوع عاش وعلَّم أرقى المستويات الأخلاقية. ومن المستعبد أن يُسَلِّم حياته للموت إلا إذا كان يعتقد فعلاً أنه يقول الحق.

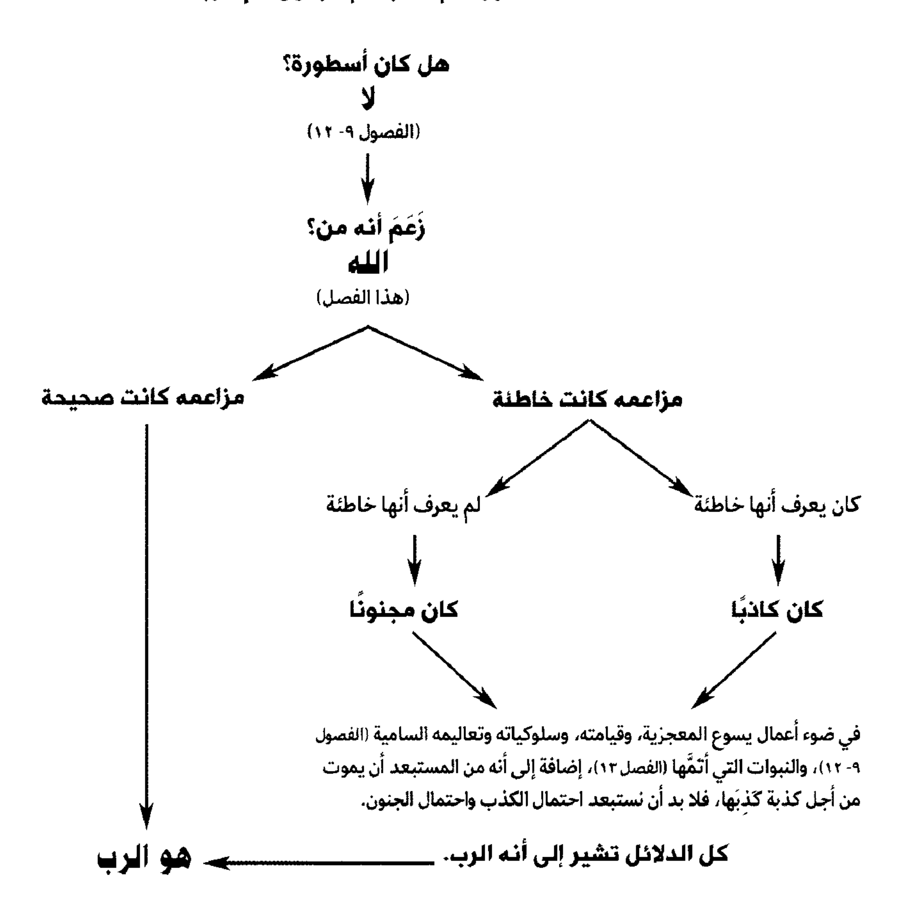
إن كان يسوع يعتقد أنه الله ولكنه لم يكن كذلك فعلاً، إذَن فهو **مجنون**. ولكن احتمال الجنون لا يطابق الحقائق أيضًا. فيسوع نطق بأعمق ما سُجِّل من أقوال. والجميع، حتى أعداؤه، زعموا أن يسوع كان رجلاً صادقًا مستقيمًا يعلم الحق (مرقس١٢: ١٤).

وبذلك لا يبقى أمامنا إلا خيار **الرب**. ويطرح بيتر كريفت *Peter Kreeft* الحجة بكل بساطة:

> ليس أمامنا إلا تفسيران محتملان: يسوع هو الله، أو يسوع ليس هو الله. والحجة في أبسط صورها تبدو هكذا: إما أن يسوع (١) الله، إن كان زعمه عن نفسه صحيحًا،

أو (٢) رجل سيء، إن لم يكن كلامه صحيحًا؛ لأن الرجال الصالحين لا يزعمون أنهم الله. ولكنه لم يكن رجلاً سيئـًا. (لو وُجِدَ في التاريخ شخص غير سيء، فيسوع لم يكن رجلاً سيئـًا). إذَن فقد كان (ولم يزل) هو الله.[٨]

وهو ما يبدو منطقيًا. ولكن هل الرب هو فعلاً الاستنتاج الصحيح؟ مهما كان، زعم الألوهة شيء – أيّ شخص يمكن أن يزعم ذلك – ولكن إثباته شيء آخر.



الشكل ١٣-٢

براهين لاهوت يسوع

كما رأينا زَعَمَ يسوع صراحةً أنه الله وفي أغلب الأحيان كان يسلك باعتباره الله. ولكنه لم يكتفِ بالزعم والسلوك، بل برهن على هذا! وقد فعل ذلك بثلاثة براهين منقطعة النظير:

١- تَمَّمَ العديد من النبوات المسيانية المكتوبة قبل ميلاده بمئات السنين.

٢- عاش حياة خالية من الخطية وقام بأعمال معجزية.

٣- تنبأ بقيامته من الأموات وحقق النبوة.

وقد قدمنا الأدلة بخصوص النبوات المسيانية، ومعجزات يسوع، وقيامته. ولكن ماذا عن فكرة أن يسوع بلا خطية؟ لقد قال يسوع نفسه: «مَنْ منكم يبكتني على خطية» (يوحنا٨: ٤٦)؟ وتلاميذه الذين قضوا معه **ثلاثة أعوام** ليلاً ونهارًا زعموا أن يسوع بلا خطية:

- بطرس وَصَفَ يسوع بأنه حَمَل «بلا عيب ولا دنس» (١بطرس١: ١٩) «الذي لم يفعل خطية، ولا وُجِدَ في فمه مكر» (١بطرس٢: ٢٢).
- يوحنا قال عن المسيح «وليس فيه خطية» (١يوحنا٣: ٥).
- بولس كَتَبَ أن يسوع «لم يعرف خطية» (٢كورنثوس٥: ٢١).
- كاتب العبرانيين ذَكَرَ النقطة نفسها بزعمه أن يسوع «بلا خطية» (عبرانيين٤: ١٥).

والآن جَرِّبْ أن تقضي ثلاثة **أيام** مع أي إنسان، فكم بالأحرى ثلاث **سنوات**، مؤكد أنك ستجد فيه أخطاء. ولكن كُتَّاب العهد الجديد قالوا إن يسوع لم يكن عنده خطأ واحد.

ولكن ليس أصدقاؤه فقط هم مَنْ أكَّدوا سمو شخصيته، بل إن أعداء المسيح أيضًا لم يستطيعوا أن يجدوا فيه عيبًا واحدًا. فالفريسيون الذين كانوا يبحثون بكل نشاط عن عيب في المسيح، لم يجدوا (مرقس١٤: ٥٥)، بل إنهم اعترفوا أنه بالحق يُعَلِّم طريق الله (مرقس١٢: ١٤). وحتى بعد كل ما بذله الفريسيون من جهود لإلصاق أي تهمة بيسوع، وجد بيلاطس أنه بريء من أي علة (لوقا٢٣: ٢٢).

إلا أن برهان لاهوت المسيح لا يتوقف على خلوه من الخطية. ولكن النبوات التي تحققت فيه، ومعجزاته، وقيامته أكثر من كافية لإثبات لاهوته. ولكن هناك بضعة اعتراضات يجب أن نتناولها قبل أن نستنتج بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن يسوع هو الله الواحد الحقيقي.

اعتراضات على لاهوت المسيح

لماذا لم يكن يسوع أكثر صراحةً؟ رغم بعض المزاعم الواضحة وضوح الشمس التي قالها يسوع عن لاهوته، فالشكوكيون يقولون كان من الممكن أن يكون يسوع أكثر صراحةً في مناسبات أكثر إن كان هو الله فعلاً. مؤكد أن هذا صحيح. كان يمكنه أن يقول مزاعم كثيرة مباشرة إن رأى في ذلك ضرورة. إلا أن هناك عدة أسباب قد تفسِّر امتناعه عن ذلك.

أولاً، يسوع لم يُرِدْ تدخلاً من اليهود الذين كان عندهم مفهوم خاطئ أن المسيا سيأتي ويحررهم من ظلم الرومان. وهو ما مَثَّل مشكلة رغم حرص يسوع: فذات مرة بعد أن صنع معجزات، اضطر أن يختفي عن اليهود الذين أرادوا أن يجعلوه ملكًا (يوحنا٦: ١٥)!

ثانيًا، ما كان يسوع ليستطيع أن يكون مثالنا البشري الأعظم لو استغل سلطانه كلما تعرَّض لمشكلة أرضية. فسلوكه يقدم لنا نموذجًا مثاليًا للتواضع والخدمة، وتمجيد الآب لا أنفسنا.

ثالثًا، كان على يسوع أن يكون في منتهى الحرص بخصوص وقت إعلان لاهوته ومكانه حتى يتمكن من إتمام مهمة الكفارة البَدَليِّة. فلو كان صريحًا أكثر من اللازم في مزاعمه وبرهانه المعجزي، ربما لما كانوا قتلوه. ولو كان شديد التحفظ، لما توافر دليل كافٍ على لاهوته، وربما ما كان ليجذب عددًا من الأتباع يكفي لنشر رسالته.

أخيرًا، علينا أن نفهم الإطار الديني الذي عاش فيه يسوع وعَلَّم. لقد أشار إلى أنه شخصيًا كَمَّل ناموس العهد القديم كله (متى٥: ١٧)، الناموس الذي احترمه اليهود واتبعوه على مدى قرون وكان أساس كل ممارساتهم السياسية والدينية. فلا عجب أن يسوع استخدم الأمثال في التعليم وكانت إشاراته غير المباشرة إلى لاهوته أكثر من المباشرة. فقد قدَّم دلائل كافية لإقناع أصحاب العقول المنفتحة، ولكنها ليست مفرطة حتى لا تقهر حرية إرادة مَنْ يرغبون في التشبث بتقاليدهم.

إذَن هناك أسباب وجيهة تفسِّر عدم إعلان يسوع عن لاهوته بأسلوب مباشر في مناسبات أكثر. إلا أننا يجب ألا ننسى أن عدد المرات التي فعل فيها ذلك كان كافيًا. فأمام اليهو- (يوحنا٨: ٥٨) وعندما كان تحت قَسَم أمام رئيس الكهنة وقد عَلِم أن مهمة الكفارة البَدليِّة ستكتمل (متى٢٦: ٦٤؛ مرقس١٤: ٦٢؛ لوقا٢٢: ٧٠) صرَّح يسوع أنه الله.

إنكار غير مباشر للألوهة: غالبًا ما يستشهد النقاد بثلاث مناسبات محدَّدة في العهد الجديد حيث يمكن التشكيك في لاهوت المسيح. الأولى مسجلة في متى١٩: ١٧، حيث الرئيس الشاب الغني يدعو يسوع "صالحًا". ويبدو أن يسوع ينكر لاهوته عندما يجيب: «ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله».

ولكن النقاد مخطئون. فالمسيح لا ينكر لاهوته، بل **يؤكد** لاهوته باستفزاز الرجل ليَتَدَبَّر مضامين عبارته. وهو ما يعني أن يسوع يسأل: "هل تدرك ما تقوله عندما تدعوني صالحًا؟ هل تقصد أني الله؟" وهو ما يتضح من السياق لأنه بعد بضع آيات يشير إلى نفسه بلقب «ابن الإنسان» الذي سيجلس «على كرسي مجده» وسيُمَكِّن التلاميذ أن يحكموا معه (متى١٩: ٢٨).

أما الاعتراضان الثاني والثالث على لاهوت المسيح يرتبطان بأن منزلة يسوع أقل من الآب وبأنه محدود المعرفة. ففي يوحنا١٤: ٢٨ واضح أن يسوع يضع نفسه في مكانة أقل من الآب عندما يعترف قائلاً «أبي أعظم مني». وفي متى٢٤: ٣٦ يزعم يسوع أنه لا يعرف موعد مجيئه عندما يصرح قائلاً: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا ملائكة السماوات، إلا أبي وحده». فكيف يمكن أن يكون يسوع هو الله إن كان أقل من الآب وإن كان محدود المعرفة؟

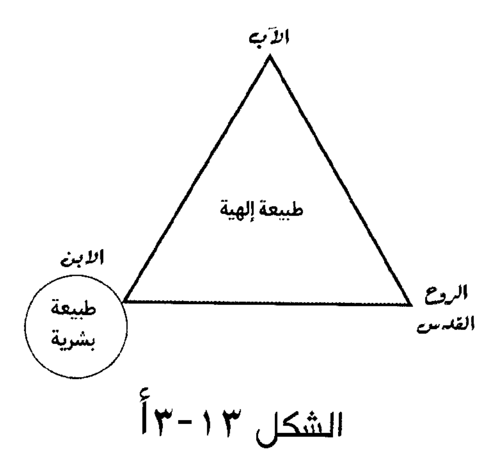
إن الرد على هذين الاعتراضين يكمن في فهم الثالوث فهمًا صحيحًا. أولاً، يجب أن نوضح صراحةً المعاني **الخاطئة** للثالوث: الثالوث ليس ثلاثة آلهة، ولا ثلاثة أشكال *modes* لإله واحد، ولا جوهرًا إلهيًا ثلاثيًا *three divine essences*. **الثالوث ثلاثة أقانيم* في جوهر إلهي واحد.** وهو ما يعني أن هناك ثلاثة أقانيم: الآب، والابن، والروح القدس يشتركون في طبيعة إلهية واحدة. فالثالوث يشبه المثلث: المثلث له ثلاثُ زوايا ولكنه يظل مثلثًا واحدًا (الشكل ١٣- ٣أ والشكل ١٣- ٣ب).

ويسوع يشارك في الطبيعة الإلهية الواحدة، ولكن أيضًا له طبيعة إنسانية متمايزة. فالابن أقنوم في اللاهوت، وبالتجسد صار له "طبيعتان" (طبيعة إلهية وطبيعة بشرية)، والله ثلاثة "أقانيم" ("أقنوم" الآب، "أقنوم" الابن، "أقنوم" الروح القدس) في "جوهر" واحد، أي ثلاثة أقانيم في جوهر إلهي واحد. وقد قال أثناسيوس، أحد آباء الكنيسة الأوائل، إن التجسد ليس

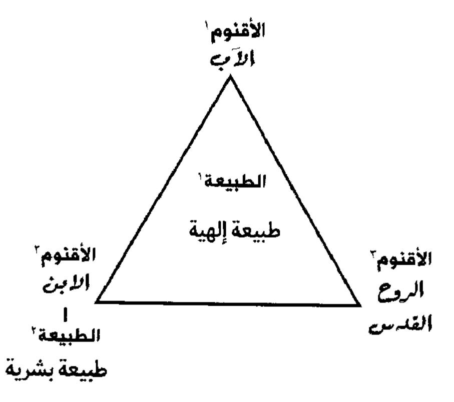
---

* جمع "أقنوم"، وهي كلمة سريانية، تدل على من له تمييز *(distinction)* عن سواه بغير انفصال عنه. وهكذا أقانيم اللاهوت؛ فكل أقنوم، مع أن له تميز عن الأقنومين الآخرين، لكنه غير منفصل عنهما. أنظر يوسف رياض، ٣ حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، مطبوعات الإخوة، القاهرة. (الناشر)

حَذْف اللاهوت، بل إضافة الناسوت. فبالطبع عندما حُبِل بيسوع لم يكف عن كونه الله. ولكنه أضاف طبيعة إنسانية.



الشكل ١٣-٣أ



الشكل ١٣-٣ب

كيف يساعدنا ذلك على التعامل مع الاعتراضين الثاني والثالث؟ بما أن يسوع له طبيعتان، فكلما سألت سؤالاً عنه، عليك فعليًا أن تسأل سؤالين. فمثلاً، هل يسوع عرف وقت مجيئه الثاني؟ بصفته الله، نعم. بصفته إنسانًا، لا. هل كان يسوع يعرف كل شيء؟ بصفته الله، نعم. بصفته إنسانًا، لا. (في الواقع لوقا٢: ٥٢ يعترف أن يسوع كان يتقدم في الحكمة). هل جاع يسوع؟ بصفته الله، لا. بصفته إنسانًا، نعم. هل تعب يسوع؟ بصفته الله، لا. بصفته إنسانًا، نعم.

ويساعدنا الثالوث أيضًا أن نفهم المعنى الذي قصده يسوع عندما أعلن «أبي أعظم مني». الآب والابن واحد في **الجوهر** ولكنهما مختلفان في **الوظيفة**. وهو ما يشبه العلاقات البشرية. فمثلاً، الأب البشري يتساوى في بشريته مع ابنه، ولكن الأب له وضع أعلى. وهكذا يسوع والآب مختلفان في الوضع ولكنهما واحد في اللاهوت (يوحنا١: ١؛ ٨: ٥٨؛ ١٠: ٣٠). وعندما أضاف يسوع الناسوت، نزل بمكانته طوعًا عن مكانة الآب، وقَبِل المحدوديات الأصيلة في البشرية (وهذا هو بالضبط ما يشرحه بولس في رسالته إلى أهل فيلبي [٢: ٥- ١١]). إلا أن يسوع لم يفقد أبدًا طبيعته الإلهية ولم يكف عن أن يكون الله. الجدول ١٣- ٣ يلخص الاختلافات بين يسوع والآب:

يسوع والآب	
يسوع مساوٍ للآب	**يسوع أقل من الآب**
في طبيعته الإلهية	في طبيعته البشرية
في جوهره الإلهي	في وظيفته البشرية
في صفاته الإلهية	في وضعه البشري
في شخصيته الإلهية	في وضعه البشري

الجدول ١٣-٣

اعتراضات على الثالوث: إن الثالوث ليس منافيًا للمنطق ولا ضد العقل، رغم ما قد يقوله بعض الشكوكيين. فما ينافي المنطق هو القول بوجود إله واحد وثلاثة آلهة. ولكن القول بوجود

إله واحد مثلث الأقانيم لا ينافي المنطق. قد يكون **فوق** العقل، ولكنه ليس **ضد** العقل.

وهو ما لا يعني أن الثالوث يمكن فهمه فهمًا تامًا. فما من كائن محدود، مهما كان، يستطيع أن **يستوعب** إلهًا غير محدود استيعابًا كاملاً. إننا نستطيع أن **نفهم** الثالوث كما نفهم المحيط، ولكننا لا نستطيع أن نستوعبه. فعندما نقف على الشاطئ يمكننا أن نفهم أن محيطًا يمتد أمامنا، رغم أننا لا نستطيع أن نستوعب مدى اتساعه استيعابًا تامًا.

البعض يطعنون بأن الثالوثَ شديد التعقيد. ولكن مَنْ قال إن الحق يجب أن يكون دائمًا بسيطًا؟ وهو ما عَبَّر عنه سي. إس. لويس بكفاءة عندما قال: "لو كانت المسيحية شيئًا من اختراعنا، كان بإمكاننا طبعًا أن نُبَسِّطها. ولكنها ليست كذلك. لذا، لا يمكننا أن ننافس على البساطة مع مخترعي الأديان. وكيف لنا أن نفعل هذا؟ إننا نتعامل مع حقائق. وبالطبع مَنْ لا يملكُ حقائق يُتعب رأسه بها يمكنه أن يكون بسيطًا".[٩]

وبعض النقاد وقادة الجماعات الدينية قالوا بأن الثالوث عقيدة متأخرة من اختراع الكنيسة. ولكن هذا غير صحيح. فالآب والابن والروح القدس* يشار إليهم جميعًا باسمِ الله في أسفار الكتاب المقدس. بالإضافة إلى ذلك، حتى لو لم يكن الثالوث مقبولاً عند كل آباء الكنيسة الأوائل، هذا لا يعني أنه خطأ. فالحق لا يتحدد بأغلبية الأصوات. ولكن عقيدة الثالوثِ سليمة كتابيًا وفلسفيًا.

فالثالوث في الحقيقة لا ينشئ مشكلات لاهوتية، بل يحلّها. مثلاً الثالوث يساعدنا أن نفهم وجود المحبة منذ الأزل. فالعهد الجديد يقول إن الله محبة (١يوحنا٤: ١٦). ولكن كيف يمكن أن توجد المحبة في كائن واحد وحدانية جامدة؟ ليس من شخص آخر يحبه! إلا أن وحدانية

---

* انظر *Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics*. الاقتباس التالي من صفحة ٧٣٠: الروح القدس يُدعى "الله" (أعمال٥: ٣، ٤). وهو يحوزُ صفات اللاهوت، ومنها أنه كلي الحضور (قارن مزمور١٣٩: ٧- ١٢) وكلي العلم (١كورنثوس٢: ١٠، ١١). وهو مرتبط بالله الآب في الخلق (تكوين١: ٢). وهو مشارك في عمل الفداء مع الأقنومين الآخرين في الجوهر الإلهي (يوحنا٣: ٥، ٦؛ رومية٨: ٩- ١٧، ٢٣- ٢٧؛ تيطس٣: ٥- ٧). وهو أيضًا مرتبط بالأقنومين الآخرين في الثالوث تحت "اسمِ" الله (متى٢٨: ١٨- ٢٠). وأخيرًا يظهر الروح القدس مع الآب والابن في صلوات البركة الرسولية في العهد الجديد (مثلاً ٢كورنثوس١٣: ١٤). فالروح القدس يحوز اللاهوت، وله أيضًا شخصية متمايزة. فهو أقنوم متمايز ويتضح ذلك في أن الكتاب المقدس يشير إليه بضمائر شخصية (يوحنا١٤: ٢٦؛ ١٦: ١٣). ثانيًا، إنه يفعل أشياء لا يفعلها إلا الأشخاص. فهو يُعَلِّم (يوحنا١٤: ٢٦؛ ١يوحنا٢: ٢٧)، ويبكِّت على الخطية (يوحنا١٦: ٧، ٨)، ويحزن من الخطية (أفسس٤: ٣٠). وأخيرًا، الروح القدس له عقل (١كورنثوس٢: ١٠، ١١)، ومشيئة (١كورنثوس١٢: ١١)، ومشاعر (أفسس ٤: ٣٠).

الثالوث في الجوهر الإلهي تحل المشكلة. فحتى توجد المحبة، لا بد أن يكون هناك محب (الآب)، ومحبوب (الابن)، وروح محبة (الروح القدس). ونظرًا لهذه الطبيعة الثالوثية، الله موجود منذ الأزل في علاقة محبة كاملة. إنه الكائن الكامل الذي لا ينقصه شيء، ولا حتى المحبة. وبما أن الله لا ينقصه شيء، فهو لم يكن **محتاجًا** أن يخلق البشر لأي سبب (لم يكن وحيدًا، كما يقول بعض الوعاظ). ولكن الأمر ببساطة أنه **اختار** أن يخلقنا، وهو يحبّنا وفق طبيعته المُحِبَّة. والحقيقة أن هذه المحبة هي التي تفسِّر إرساله لابنه، وهو أقنوم في الثالوث، ليأخذ عقوبة خطايانا. فعدالته غير المحدودة تديننا، ولكن محبته غير المحدودة تُخَلِّص مَن يريد الخلاص.

الملخص والخلاصة

زَعَمَ يسوع المسيح الناصري، وأثبت، أنه الله المسيا الذي تنبأ عنه العهد القديم. وتأتي مزاعمه في أشكال كثيرة: بدءًا من تصريحات «أنا هو» المباشرة وانتهاءً بتلك العبارات القوية التي تنطق بلاهوته ضمنًا. وأفعاله التي تشتمل على غفران الخطايا، وإعطاء الوصايا بسلطان إلهي، وقبول العبادة التي لا تحقّ إلا لله، تكشف أيضًا أن يسوع صَدَّقَ فعلاً أنه الله. ثم أثبت أنه الله:

١- بتحقيق العديد من النبوات المسيانية المحدَّدة المكتوبة قبل مجيئه بمئات السنين (يسوع هو الشخص الوحيد في التاريخ الذي تتحقق فيه كل هذه النبوات).

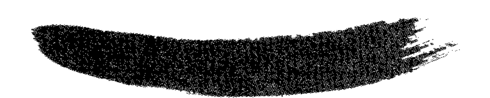
٢- بحياته الخالية من الخطية وبأعماله المعجزية.

٣- بالتنبوء بقيامته من الأموات وإتمامه للنبوة.

إننا نعتقد أن هذه الحقائق تبرهنت بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي. ومن ثم، نستنتج أن يسوع هو الله.

وبما أننا برهنّا أن الله كائن كامل أخلاقيًا (بناءً على الحجة الأخلاقية في الفصل السابع)، إذن أي شيء يُعَلِّم به يسوع (الذي هو الله) حق. فماذا علّم يسوع؟ وتحديدًا، ماذا علّم عن الكتاب المقدس؟ هذا هو موضوع الفصل التالي.

١٤



ماذا علَّم يسوع عن الكتاب المقدس؟

"أخبرَني مدرس العلوم في مدرستي الثانوية ذات مرة أن الكثير من مادة سفر التكوين خطأ. ولكن بما أن مدرس العلوم في مدرستي الثانوية لم يُثبت أنه قام بالقيامة من الأموات، سأصدق يسوع ولن أصدقه".

أندي ستانلي *Andy Stanley*

ويل لكم أيها المراؤون!

كان الكونجرس الأمريكي منعقدًا في دورة مشتركة نادرة. ومن ثم، كان كل النواب البالغ عددهم ٤٣٥ وكل الشيوخ البالغ عددهم ١٠٠ حاضرين، وكانت كاميرات شبكة سي-سـپـان التليفزيونية *C-SPAN-TV* تباشر عملها. وقد اجتمع الأعضاء معًا لسماع كلمة من أحد أحفاد چورچ واشنطن. ولكن ما ظنوه سيكون خطابًا مهذبًا ذا نبرة تاريخية وطنية سرعان ما انقلب إلى توبيخ يُبَثّ على شاشات التليفزيون. فقد صرح حفيد واشنطن من الجيل السابع وهو يهز إصبعه ويرمق الحضور بنظرات حادة:

> ويل لكم أيها المراؤون المتكبرون. إنكم مشحونون طمعًا ومنغمسون في ملذاتكم. إنكم تفعلون كل شيء من أجل المظاهر: تخطبون خطبًا رنَّانة وتقفون أمام كاميرات التليفزيون هذه لتبهروا الجماهير. إنكم تسعون لاتخاذ المتكآت الأولى في الولائم وأهم المقاعد أينما ذهبتم. تحبون أن تسمعوا التحيات في مناطقكم ويدعوكم الجميع

"شيخ" أو "نائب". من الخارج تَظهرون للناس أبرارًا، ولكنكم من الداخل مملؤون رياءً وشرًا. تقولون إنكم تريدون أن تطهِّروا واشنطن، ولكنكم حالما تصلون إلى هنا، تصبحون أبناء للجحيم أضعاف أولئك الذين تخلصتم منهم.

ويل لكم أيها المشرِّعون المراؤون. إنكم لا تعملون بما تعظون. فأنتم تضعون أحمالاً ثقيلة على المواطنين، ولكنكم بعدئذٍ تتهربون من القوانين التي وضعتموها.

ويل لكم أيها الفدراليون الأغبياء. إنكم تُقسمون اليمين على تأييد الدستور والدفاع عنه، ولكنكم بعدئذٍ تُبطلون الدستور بالسماح للقضاة أن يضعوا القوانين كما يشاؤون.

ويل لكم أيها المراؤون العميان. تقولون إنكم لو عشتم في أيام الآباء المؤسسين، لما شاركتم معهم في الاستعباد، ولما وافقتم على أن العبيد من ممتلكات سادتهم ولصَمَّمتم أنهم بَشَر لهم حقوق راسخة. ولكنكم تشهدون على أنفسكم لأنكم اليوم تقولون إن الطفل قبل ولادته مِلْك أمه ولا حق له على الإطلاق! سيأتي عليكم كل دم زكي سُفِكَ في هذا البلد. أيها الثعابين، أولاد الأفاعي، لقد تركتم هذه القاعة المهيبة خرابًا. كيف ستهربون من هلاك الجحيم!

طبعًا هذا الخطاب لم يحدث أبدًا في الواقع (ولو حدث، لسمعت به حتمًا). فمن يمكنه أن يكون بهذه البجاحة والوقاحة مع قادة الأمة؟ مؤكَّد ليس ممن يزعمون أنهم مسيحيون. هل أنت متأكد من ذلك؟

رغم أننا لسنا متأكدين من أن يسوع كان سيقول تلك العبارات لساسة اليوم، فالحقيقة أنه قال مثل هذه الأشياء لرجال الدين في عصره. ماذا؟! يسوع الرقيق الطيب؟ قَطعًا. إذا قرأت متى٢٣، سترى أن الكثير من خُطبتنا التخيلية مأخوذ بتصرف من خطاب يسوع الحقيقي الذي وَجَّههُ للجموع والفريسيين. إن يسوع الحقيقي عكس يسوع الرخو الذي اخترعه اليوم أولئك الذين يريدون أن يتعاملوا مع الأمور برخاوة. يسوع الحقيقي علـَّم بسلطان ولم يتهاون مع الخطإ. فعندما كان رجال الدين مخطئين، كان يُصدر أحكامًا عادلة ويُعَرِّف الجميع بتلك الأحكام. ومَنْ يصحح الأخطاء أفضل مِنَ الله نفسه؟ وبما أن يسوع هو الله، إذَن كل تعاليمه صحيحة.

إن الأناجيل التي ثبتت صحتها تاريخيًا تسجل تعاليم يسوع في الكثير من الموضوعات. إلا أن تعليم يسوع الأعمق أثرًا هو ما يتعلق بالكتاب المقدس. فإن علـَّم يسوع أن الكتاب المقدس هو كلمة الله، إذَن الكتاب المقدس هو أول مصدر نستقي منه الحق الإلهي. فبمَ علـَّم يسوع عن الكتاب المقدس؟

ماذا علَّم يسوع عن الكتاب المقدس؟

العهد القديم

علَّم يسوع أن العهد القديم كلمةُ الله بسبع طرق. فقد قال إنه:

١- له سلطة إلهية: عندما جرَّب الشيطانُ يسوعَ، صحَّح يسوع كلامه بالاقتباس من العهد القديم. فقد قال: «"مكتوب: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فمِ الله"... قال له يسوع: "مكتوب أيضًا: لا تجرب الرب إلهك". ... حينئذٍ قال له يسوع: "اذهب يا شيطان! لأنه مكتوب: "للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد"». (متى٤: ٤، ٧، ١٠). لماذا يقتبس يسوع بكل هذه الثقة من العهد القديم لو لم يكن ذا سلطة مرجعية؟ لا بد أنه اعتبر العهد القديم مصدرًا للحق حتى يطرد به أقوى أعدائه.

وفي الحقيقة يسوع ورسله دعموا موقفهم في اثنين وتسعين موضعًا بكلمة "مكتوب" (أو ما يقابلها) يعقبها اقتباس من العهد القديم. لماذا؟ لأن يسوع ورسله اعتبروا أسفار العهد القديم كلمة الله المكتوبة، ومِنْ ثم تكون المرجعية النهائية للحياة.

٢- لا يزول: تتضمن الموعظة على الجبل نصًا محبوبًا لدى المحافظين والليبراليين على حد سواء، وفيه زَعَمَ يسوع إنه ولا حتى أصغر علامة ضئيلة في الأسفار المقدسة. أي ما يعادل نقطة على حرف "ن" أو شرطة على حرف "ط"، يمكن أن تزول. فقد صرح قائلاً: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متى٥: ١٧). لم يجد يسوع كلمات أقوى من هذه تُعَبِّر عن ثبات الكلمة المكتوبة.

٣- خالٍ من الأخطاء المتعلقة بالحق اللاهوتي ***Infallible***: في يوحنا ١٠ كان يسوع على وشك أن يُرجَم بتهمة التجديف. ورداً على هذا الموقف استشهد بالعهد القديم وقال: «ولا يمكن أن يُنقض المكتوب» (يوحنا١٠: ٣٥). وهو ما يعني أنه عندما تعرَّضت حياته للخطر لجأ إلى حُجة خالية من الأخطاء يستحيل أن تُنقَض، ألا وهي الأسفار المقدسة. وقد أكد بعدئذ حق الكتاب المقدس عندما صلَّى للتلاميذ قائلاً «قَدِّسْهم في حقك. كلامك هو حق» (يوحنا١٧: ١٧).

٤- معصوم عصمة مطلقة من كل الأخطاء ***Inerrant***: عندما حاول الصدوقيون أن يصطادوا يسوع بسؤال، قال لهم: «تضلون* إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله» (متى٢٢: ٢٩).

* الكلمة في بعض الترجمات الإنجليزية، بما فيها المستخدمة هنا، "تخطئون" "*You are in error*". (المترجمة)

والمضمون أن الكتب المقدسة لا يشوبها أي خطأ. لأنه لا معنى أن يقول لهم يسوع: "تخطئون إذ لا تعرفون الكتب التي تخطئ أيضًا".

٥- صحيح تاريخيًا: بالإضافة إلى ما صرح به يسوع عن سلطة العهد القديم الإلهية، واستحالة زواله، وخلوه من الخطإ، وعصمته المطلقة، فقد أكد اثنتين من أكثر قصص العهد القديم التي تتعرض للتشكيك: نوح (متى٢٤: ٣٧، ٣٨) ويونان (متى١٢: ٤٠). لقد تحدث يسوع عن هاتين القصتين باعتبارهما صحيحتين تاريخيًا. وما المانع أن تكونا صحيحتين؟ إن المعجزات المرتبطة بكلٍّ من نوح ويونان هي أمر يسير بالنسبة لإله كليِّ القدرة خَلَقَ الكون. فنحن بذكائنا المحدود نُشَيِّد سفنًا عملاقة ونبقي على البشر أحياء تحت الماء لمدة شهور. فلماذا لا يستطيعُ الله أن يفعل الشيء نفسه؟

ويسوع أكد أيضًا جوانب أخرى في العهد القديم ينكرها النقاد. فقد علَّم أن دانيال كان نبيًا (متى٢٤: ١٥) رغم أن الكثير من النقاد يقولون إن دانيال لم يكن إلا مؤرخًا. (والنقاد يزعمون أن سفر دانيال كُتِب بعد زمن دانيال، لأنه من المستحيل أن يتنبأ بكل تلك النبوات. وهنا أيضًا ينكشف تحيزهم ضد ما هو فوق طبيعي). علاوة على ذلك، اقتبس يسوع عدة أجزاء محددة من سفر إشعياء (مثلاً: متى١٣: ١٤، ١٥؛ ١٥: ٧، ٨؛ لوقا٤: ١٧-١٩)، ولم يُشِرْ مرة واحدة إلى كاتبين أو ثلاثة لسفر إشعياء كما يزعم الكثير من النقاد.

٦- دقيق علميًا: لقد قال يسوع مزاعم أخرى تتناقض مع مزاعم نقاد اليوم. فعندما سئل عما إذا كان الطلاق مقبولاً، اقتبس حقيقة علمية من سفر التكوين. فقد قال: «"أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى؟ وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدًا واحدًا. إذًا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان"» (متى١٩: ٤-٦). وهو ما يعني أن طبيعة الزواج متجذرة في الحقيقة العلمية التي تقول إن آدم وحواء مخلوقان لغرض.

فضلاً عن ذلك، يسوع لم يقبل الفكرة الزائفة التي تقول بأن الكتاب المقدس يستطيع أن يُعَرِّفك كيف "تسير إلى السماء" ولكنه لا يستطيع أن يُعَرِّفك "كيف تَسير السماوات". فقد قال لنيقوديموس: «إن كنتُ قلتُ لكم الأرضيات ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات؟» (يوحنا٣: ١٢). وهو ما يعني أن يسوع علَّم بأنه إن كان الكتاب المقدس لا يقول الحق عن العالم المادي الذي تراه، إذَن لا يمكنك الثقة فيه عندما يتكلم عن العالم الروحي الذي لا تراه. مؤكِّد أن المسيحية مبنية على أحداث تاريخية يمكن اختبارها بالفحص العلمي

والتاريخي، كالخلق والقيامة. فرغم أن أتباع الديانات الأخرى يمكنهم أن يقبلوا الفصل التام بين الدين والعلم، المسيحيون لا يستطيعون أن يفعلوا هذا. وذلك لأن الحق المتعلق بالكون لا يمكن أن يكون متناقضًا. فبما أن كل الحق هو حقُ الله، فينبغي أن تتوافق المعتقدات الدينية مع الحقائق العلمية. وإن لم تتوافق معها، فإما إن هناك خطأ في فهمنا العلمي، أو في معتقداتنا الدينية. وكما رأينا، الكثير من مزاعم المسيحية ثبتت صحتها بالفحص العلمي. وهو ما كان يعرفه المسيح.

٧- هو أعلى مرجعية: بما أن يسوع علـَّم أن العهد القديم له سلطة إلهية، ولا يزول، وخالٍ من الأخطاء اللاهوتية، ومعصوم عصمة مطلقة، وصحيح تاريخيًا، ودقيق علميًا؛ فمن المتوقع أن يؤكد علو العهد القديم فوق أي تعاليم بشرية. وهو ما قاله يسوع بالضبط. فقد صحّح كلام الفريسيين ومعلمي الناموس عندما زعم أنه يجب عليهم طاعة أسفار العهد القديم بدلاً من تقاليدهم البشرية. فقال لهم يسوع: «"لماذا تتعدون وصية الله بسبب تقليدكم؟ ... فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم!"» (متى١٥: ٣، ٦). ثم وبّخهم لتقاعسهم عن السلوك وفق الكتاب المقدس بالاقتباس من العهد القديم: «"يا مراؤون! حسنـًا تنبأ عنكم إشعياء قائلاً: يقترب إليّ هذا الشعب بفمه، ويكرمني بشفتيه، وأما قلبه فمتبعد عني بعيدًا. وباطلاً يعبدونني وهم يُعلمون تعاليم هي وصايا الناس"» (متى١٥: ٧- ٩). لماذا يصحح يسوع فكر قادة إسرائيل الدينيين مستخدمًا العهد القديم ما لم يكن العهد القديم هو المرجعية العليا فوق فكرهم؟

في ضوء تعليم يسوع، لا شك أنه اعتبر العهد القديم كله كلمة الله المكتوبة المعصومة من الخطإ. فقد قال إنه أتى ليتمم العهد القديم اليهودي كله (متى٥: ١٧) الذي أشار إليه بتعبير «الناموس والأنبياء» (متى٥: ١٧؛ لوقا٢٤: ٢٦، ٢٧). وقد قال لليهود: «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية. وهي التي تشهد لي. ولا تريدون أن تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة» (يوحنا٥: ٣٩، ٤٠).

إذَن يسوع أتى ليُتمم الكتب التي تشهد له. ولكن ممَّ يتألف ذلك العهد القديم؟ ما الأسفار التي كان يشير إليها يسوع عندما يقول "الكتب"؟ في توبيخ يسوع للفريسيين في متى ٢٣ شمل كل أسفار العهد القديم اليهودي، من أولها إلى آخِرها عندما صرح قائلاً: «"لكي يأتي عليكم كل دم زكي سُفِك على الأرض، من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح" (الآية ٣٥). لقد قـُتِلَ هابيل في أول سفر من العهد القديم اليهودي (التكوين)، وقـُتِلَ زكريا في آخر سفر (أخبار الأيام).

حَدَث العهد القديم	تأكيدات العهد الجديد
١- خلق الكون (تكوين١)	يوحنا١: ٣؛ كولوسي١: ١٦
٢- خلق آدم وحواء (تكوين١، ٢)	١تيموثاوس٢: ١٣، ١٤
٣- زواج آدم وحواء (تكوين١، ٢)	متى١٩: ٤، ٥
٤- غواية المرأة (تكوين٣)	١تيموثاوس٢: ١٤
٥- عصيان آدم وخطيته (تكوين٣)	رومية٥: ١٢؛ ١كورنثوس١٥: ٢٢
٦- قربانا هابيل وقايين (تكوين٤)	عبرانيين١١: ٤
٧- قتل قايين لهابيل (تكوين٤)	١يوحنا٣: ١٢
٨- مولد شيث (تكوين٤)	لوقا٣: ٣٨
٩- نقل أخنوخ (تكوين٥)	عبرانيين١١: ٥
١٠- الزواجُ قبل الطوفان (تكوين٦)	لوقا١٧: ٢٧
١١- الطوفان ومحو الإنسان (تكوين٧)	متى٢٤: ٣٩
١٢- حفظ نوح وأسرته (تكوين٨، ٩)	٢بطرس٢: ٥
١٣- مواليد سام (تكوين١٠)	لوقا٣: ٣٥، ٣٦
١٤- مولد إبراهيم (تكوين١١)	لوقا٣: ٣٤
١٥- دعوة إبراهيم (تكوين١٢، ١٣)	عبرانيين١١: ٨
١٦- تقديم العشور لملكي صادق (تكوين١٤)	عبرانيين٧: ١- ٣
١٧- تبرير إبراهيم (تكوين١٥)	رومية٤: ٣
١٨- إسماعيل (تكوين١٦)	غلاطية٤: ٢١- ٢٤
١٩- الوعد بإسحاق (تكوين١٧)	عبرانيين١١: ١٨
٢٠- لوط وسدوم (تكوين١٨، ١٩)	لوقا١٧: ٢٩
٢١- مولد إسحاق (تكوين٢١)	أعمال٧: ٨
٢٢- تقديم إسحاق (تكوين٢٢)	عبرانيين١١: ١٧
٢٣- العليقة المتقدة (خروج٣: ٦)	لوقا٢٠: ٣٧
٢٤- العبور في وسط البحر الأحمر (خروج١٤: ٢٢)	١كورنثوس١٠: ١، ٢
٢٥- إعطاء الماء والمن (خروج١٦: ٤؛ ١٧: ٦)	١كورنثوس١٠: ٣- ٥

٢٦- رفع الحية في البرية (عدد٢١: ٩)	يوحنا٣: ١٤
٢٧- سقوط أريحا (يشوع٦: ٢٢- ٢٥)	عبرانيين١١: ٣٠
٢٨- معجزات إيليا (١ملوك١٧: ١؛ ١٨: ١)	يعقوب٥: ١٧
٢٩- يونان والحوت (يونان٢)	متى١٢: ٤٠
٣٠- ثلاثة فتية عبرانيين في الأتون (دانيال٣)	عبرانيين١١: ٣٤
٣١- دانيال في جب الأسود (دانيال٦)	عبرانيين١١: ٣٣
٣٢- مقتل زكريا (٢أخبار٢٤: ٢٠-٢٢)	متى٢٣: ٣٥

الجدول ١٤-١

في الحقيقة يسوع وكُتَّاب العهد الجديد اقتبسوا كل جزء من العهد القديم باعتباره مرجعًا صحيحًا في إشارتهم إلى أحداث وردت في ثمانية عشر سفرًا من الاثنين وعشرين سفرًا التي يتكون منها العهد القديم اليهودي.* إلا أن النقاد يشكِّكون في تاريخية الكثير من الأحداث المذكورة في الجدول ١٤-١.[١] ولكن يسوع والرسل يستشهدون بها باعتبارها صحيحة تاريخيًا. وبالإضافة إلى تأكيد يسوع لتاريخية نوح ويونان، فهو نفسه يؤكد تاريخية الخلق (مرقس١٣: ١٩)، وآدم وحواء (متى١٩: ٤، ٥)، وسدوم وعمورة (لوقا١٠: ١٢)، وموسى والعليقة المتقدة (لوقا٢٠: ٣٧). وهو ما يبين أن يسوع ربط الحقيقة التاريخية للعهد القديم بحق رسالته الروحية.

ولكن ألا يمكن أن يكون يسوع مخطئًا؟ إذَن يسوع أعلن أن العهد القديم بجملته هو كلمة الله المعصومة، وقد أكد وتلاميذه أحداث العهد القديم التي ينكرها الكثير من النقاد. ولكن ألا يمكن أن يكون يسوع مخطئًا؟ من المحتمل أنه لم يقصد أن أحداث العهد القديم تلك حدثت بالفعل، ولكنه قصد فقط أن اليهود اعتقدوا أنها حدثت. وهو ما يعني أنه كان فقط يتكيف مع معتقدات اليهود، أي أنه يقول: "كما تؤمنون بيونان، يجب أن تؤمنوا بقيامتي".

* العهد القديم اليهودي يحوي نفس مادة العهد القديم الذي بين أيدينا باللغة العربية ولكن تقسيم الأسفار مختلف. فالعهد القديم المتداول في العربية يقسّم أسفار صموئيل والملوك وأخبار الأيام كلاً إلى سفرين، وكذلك عزرا ونحميا سفران، في حين أنهما سفر واحد في العهد القديم اليهودي. وهو يقسم الأنبياء الصغار الاثني عشر إلى اثني عشر سفرًا منفصلة. لذا، رغم أن عدد أسفار العهد القديم اليهودي ٢٢ سفرًا، هذه الأسفار نفسها تنقسم إلى ٣٩ سفرًا في العهد القديم المتداول في العربية. بعض طبعات العهد القديم تضم ١١ سفرًا إضافية (سبعة تمثل أسفارًا مستقلة، وأربعة عبارة عن أجزاء مضافة إلى أسفار أخرى) يُطلق عليها الأبوكريفا.

إن نظرية التكيف هذه لا تصلح. فكما رأينا، يسوع لم يتهاون مع الخطإ. فهو لم يتكيف مع معتقدات اليهود كما يرجح بعض الشكوكيين. ولكنه وبخهم وصحح أخطاءهم مرارًا بدءًا بالتوبيخ العلني الصريح (مثل متى٢٣) وانتهاءً بتصحيح تفسيراتهم الخاطئة للعهد القديم (متى٥: ٢١-٤٣)، وقلْب الموائد في الهيكل (متى٢١؛ مرقس١١؛ يوحنا٢). إن يسوع لم يتهاون في أي شيء، فمؤكد أنه لم يتهاون في حق العهد القديم.

وقد يقول الشكوكي: "ولكن ألا يمكن أن يكون يسوع قد أخطأ بسبب محدوديته البشرية؟ فمهما كان، إن كان لم يعرف موعد مجيئه الثاني، ربما أنه لم يعرف بأخطاء العهد القديم". لا، نظرية المحدودية هذه لا تصلح أيضًا. فمحدودية الفهم تختلف عن سوء الفهم. صحيح أن يسوع لم يكن يعرف بعض الأشياء بصفته إنسانًا. ولكن هذا لا يعني أنه كان مخطئًا فيما **عرف** من أشياء. وما **عرفه** يسوع كان صحيحًا لأنه لم يعلِّم إلا ما علَّمه الآب إياه (يوحنا٨: ٢٨؛ ١٧: ٨، ١٤). فاتهام يسوع بالخطإ يعني اتهام الله الآب بالخطإ. ولكن الله لا يخطئ لأنه مصدر الحق ومقياسه الثابت.* علاوة على ذلك، يسوع أكَّد حق تعليمه عندما أعلن قائلاً: «السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول» (متى٢٤: ٣٥)، وعندما قال: «دُفِع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (متى٢٨: ١٨).

فماذا نستخلص من كل ذلك؟ يجب أن نسأل سؤالاً واحدًا فقط: مَنْ أكثر معرفةً بالعهد القديم، المسيح أم النقاد؟ إن كان يسوع هو الله، إذَن كل تعاليمه صحيحة. فإن كان يُعَلِّم أن العهد القديم له سلطة إلهية، ولا يزول، وخالٍ من الخطإ، ومعصوم، وصحيح تاريخيًا، ودقيق علميًا، وأنه المرجعية العليا؛ إذَن تلك التعاليم صحيحة. إن مؤهلاته تتفوق على مؤهلات أي ناقد معرض للخطإ (وخاصةً أولئك الذين لا يقوم نقدهم على أدلة بل على تحيز غير مشروع ضد ما هو فوق طبيعي).

أدلة أخرى تؤيد العهد القديم: بالإضافة إلى مزاعم يسوع، هناك الكثير من الأسباب الأخرى التي تؤيد حق وثائق العهد القديم. فمثلاً، العهد القديم يشترك مع العهد الجديد في الكثير من السمات التي تجعله جديرًا بالتصديق: تأييد قوي من المخطوطات، وتأكيد علد

* الكتاب المقدس يؤكد ما نعرفه بالإعلان العام، ألا وهو أنه لا بد من وجود مقياس ثابت للحق. فالكتاب المقدس يزعم أن الله هو الحق (مزمور٣١: ٥؛ ٣٣: ٤؛ يوحنا١٤: ٦؛ ١يوحنا٤: ٦)، وأن الله لا يمكن أن يكذب (عبرانيين٦: ١٨؛ تيطس١: ٢)، وأن الله لا يمكن أن يتغير (عدد٢٣: ١٩؛ ١صموئيل١٥: ٢٩؛ مزمور١٠٢: ٢٦، ٢٧؛ ملاخي٣: ٦؛ عبرانيين١٣: ٨؛ يعقوب١: ١٧ للمزيد عن صفاتِ الله، انظر *Norman Geisler, Systematic Theology, vol. 2 (Minneapolis: Bethany, 2003), part 1*.

الآثار، وأحداث قصة لا يمكن أن يخترعها كُتَّابها.

ولنناقش تلك النقطة الأخيرة قليلاً. مَنْ الذي يمكن أن يخترع قصة العهد القديم؟ لو كانت القصة من اختراع العبرانيين، غالبًا كانت ستصور الإسرائيليين شعبًا نبيلاً مستقيمًا. إلا أن كُتَّاب العهد القديم لا يقولون هذا. ولكنهم يصورون شعبهم عبيدًا خطاة متقلبين ينقذهم الله مرة تلو الأخرى بشكل معجزي، ولكنهم يهجرونه كلما سنحت لهم الفرصة. والتاريخ الذي يسجلونه مليء بحالة من العصيان العنيد، وانعدام الثقة، والأنانية. وقادتهم جميعًا أبطال في الخطية، بما فيهم موسى (قاتل)، وشاول (مهووس بجنون العظمة ومركزية الذات)، وداود (زانٍ وكاذب وقاتل)، وسليمان (جَمَعَ بين زوجات كثيرات). هؤلاء هم الأشخاص الذين كان يُفترَض أنهم قادة الأمة التي اختارها الله ليأتي منها بمخلّص العالم. ولكن كُتَّاب العهد القديم يعترفون أن أسلاف هذا المسيا يضمون شخصيات خاطئة مثل داود وسليمان، بل عاهرة اسمها راحاب. واضح أنها ليست قصة مؤلَّفة.

وبينما يخبرنا العهد القديم بخطأ مشين تلو الآخر، معظم المؤرخين القدامى الآخرين يتجنبون حتى ذِكر الأحداث التاريخية غير المستحبة. مثلاً، سجلات التاريخ المصري لا تحوي شيئًا عن الخروج، مما يدفع بعض النقاد إلى أن يرجحوا أن الحدث لم يقع مطلقًا. ولكن ما الذي يتوقعه النقاد؟ ويتخيل الكاتب بيتر فاينمان *Peter Fineman* ما يمكن أن يقوله بيان صحفي صادر من قصر الفرعون:

> متحدث باسم رمسيس العظيم، فرعون الفراعنة، حاكم مصر الأعلى، ابن رع الذي يرتعد الجميع أمام بهائه المهوب الذي يُذهب الأبصار، أعلن اليوم أن الرجل موسى رَكَلَ [مؤخرته] الملوكية أمام عيون العالم كله، مما برهن على أن الله هو يهوه وأن حضارة مصر ذات الألفي عام مجرد كذبة. وسنواليكم بالأخبار.[٢]

بالطبع ما من سكرتير صحفي للفرعون كان سيعترف بهذا الحدث. إن الصمت المصري عن حادثة الخروج مفهوم. إلا أنه، على النقيض من ذلك، عندما أحرز المصريون نصرًا عسكريًا اتجهوا إلى الصحافة وبالغوا في النصر بشكل مفرط. وهو ما يتضح من أقدم ما نعرفه من إشارات لإسرائيل خارج الكتاب المقدس. وهي موجودة على أثر من الجرانيت عُثِر عليه في المعبد الجنائزي للفرعون مرنبتاح في طيبة. والأثر يفخر بالنصر العسكري الذي أحرزه الفرعون في أراضي كنعان الجبلية، زاعمًا أن "إسرائيل أُخرِبَ، وانقطع نسله".[٣] ويُرجع المؤرخون تاريخ المعركة إلى سنة ١٢٠٧ ق.م، وهو ما يؤكد أن إسرائيل كانت في الأرض قبل ذلك التاريخ.

وهناك عدد من الاكتشافات الأثرية الأخرى التي تؤيد العهد القديم. ولعلك تذكر من الفصل الثالث أن عندنا دليلاً حتى من علم الفلك (الانفجار الكبير) يؤيد سفر التكوين. (لمزيد من الأدلة المؤيدة للعهد القديم، انظر "موسوعة بيكر للدفاعيات المسيحية").[٤] ولكن في النهاية، أقوى حجة تؤيد العهد القديم تأتي من يسوع نفسه. فبصفته الله، هو صاحب الورقة الفائزة. وإن كانت وثائق العهد الجديد صادقة، إذَن العهد القديم معصوم من الخطإ لأن يسوع قال إنه كذلك.

وهو ما عبَّر عنه صديقنا آندي ستانلي تعبيرًا رائعًا بقوله: "أخبَرَني مدرس العلوم في مدرستي الثانوية ذات مرة أن الكثير من مادة سفر التكوين خطأ. ولكن بما أن مدرس العلوم في مدرستي الثانوية لم يُثبت أنه الله بالقيامة من الأموات، سأصدق يسوع ولن أصدقه".[٥] تصرُّف حكيم.

ماذا عن العهد الجديد؟

لقد علَّم يسوع أن العهد القديم معصوم من الخطأ، ولكن ماذا عساه أن يقول عن العهد الجديد؟ فمهما كان من أمر، العهد الجديد لم يكن قد كُتِبَ حتى نهاية حياة المسيح على الأرض.

لقد **أكد** يسوع صحة العهد القديم، **ووَعَدَ** بالعهد الجديد. فقد قال إن العهد الجديد سيأتي عن طريق رسله لأن الروح القدس سيُذَكِّرهم بما قاله يسوع وسيرشدهم إلى «جميع الحق». وهذا الكلام مسجل في موضعين في إنجيل يوحنا. فقد أعلن يسوع:

> «بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويُذكركم بكل ما قلته لكم» (يوحنا١٤: ٢٥، ٢٦).

وأعلن أيضًا:

> «إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية» (يوحنا١٦: ١٢، ١٣).

وهو ما يعني أن يسوع يَعِد رسله أن الروح القدس سيقودهم لكتابة ما نعرفه حاليًا باسم العهد الجديد. وقد ردد بولس فيما بعد هذا التعليم عندما أكد أن الكنيسة مبنية «على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية» (أفسس٢: ٢٠). وهو ما أدركته الكنيسة الأولى أيضًا لأنهم كانوا «يواظبون على تعليم الرسل» (أعمال٢: ٤٢).

ولكن هل الرسل أخذوا الرسالة فعلاً من الروح القدس كما وَعَدَ يسوع؟ مؤكد أنهم يزعمون

ذلك. فيوحنا يكتب أن الرسل «**من الله**» (١يوحنا٤: ٦)، ويبدأ سفر الرؤيا بهذه الكلمات: «إعلان يسوع المسيح، الذي أعطاه إياه الله» (رؤيا١: ١). وبولس يزعم أنه يتكلم بما «يُعَلِّمه الروح» (١كورنثوس٢: ١٠، ١٣؛ ٧: ٤٠)، وأن كتاباته هي «**وصايا الرب**» (١كورنثوس١٤: ٣٧). وفي افتتاحية رسالته لمؤمني غلاطية يصرح قائلاً: «وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بَشَّرت به، أنه ليس بحسب إنسان. لأني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته. بل **بإعلان يسوع المسيح**» (غلاطية١: ١١، ١٢). والحقيقة أنه في رسالته الأولى إلى مؤمني تسالونيكي يؤكِّد أنه يقدِّم لهم كلمة الله: «من أجل ذلك نحن أيضًا نشكرُ الله بلا انقطاع، لأنكم إذ **تسلمتم منا كلمة خبر من الله، قبلتموها لا ككلمة أناس، بل كما هي بالحقيقة ككلمة الله،** التي تعمل أيضًا فيكم أنتم المؤمنين» (١تسالونيكي٢: ١٣). وبالإضافة إلى تأكيد بولس أن كتاباته وحي من الله، فهو يقتبس من إنجيلي لوقا ومتى ويطلق عليهما "الكتاب"، وبذلك يضعهما على نفس المستوى مع سفر التثنية (١تيموثاوس٥: ١٨؛ لوقا١٠: ٧؛ متى١٠: ١٠).

وعندما يشير بطرس إلى رسائل بولس، يؤكِّد أنها موحى بها من الله، ويكتب قائلاً: «كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضًا بحسب الحكمة المعطاة له، كما في الرسائل كلها أيضًا، متكلمًا فيها عن هذه الأمور، التي فيها أشياء عسرة الفهم، يحرِّفها غير العلماء وغير الثابتين، **كباقي الكتب أيضًا**، لهلاك أنفسهم» (٢بطرس٣: ١٥، ١٦؛ قارن ٢تيموثاوس٣: ١٥، ١٦). ويؤكد بطرس أيضًا أن كلامه وكلام سائر الرسل ينبع من مصدر إلهي عندما يصرح بالقول: «لأننا لم نتبع خرافات مصنعة، إذ عرَّفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته... وعندنا الكلمة النبوية، وهي أثبت، التي تفعلون حسنًا إن انتبهتم إليها، ... عالمين هذا أولاً: أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص. لأنه لم تأتِ نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناسُ الله القديسون مسوقين من الروح القدس» (٢بطرس١: ١٦- ٢١).

إلا أن الرسل لم يكتفوا **بزعم** أنهم يستقبلون رسائل من الله. فأي شخص يمكن أن يزعم هذا الزعم. ولكنهم قدّموا الدليل على أن كلامهم موحى به من الله، وكان دليلهم ما صنعوه من آيات. والحقيقة أن أحد مؤهِلَي الرسول يتمثل في قدرته على فعل مثل هذه الآيات، والمؤهِّل الآخر هو أن يكون شاهد عيان للقيامة (أعمال١: ٢٢؛ ١كورنثوس٩: ١). وقد أكد بولس رسوليته عندما صرح لقرائه من مؤمني كورنثوس قائلاً: «إن علامات الرسول صُنِعَت بينكم في كل صبر، بآيات وعجائب وقوات» (٢كورنثوس١٢: ١٢). ولا بد أن بولس كان يقول الحقيقة بشأن أنه صنع معجزات بينهم، وإلا فَقَدَ كل مصداقيته أمام قرائه.

وبالإضافة إلى زعم بولس بأنه صنع معجزات، يسجِّل لوقا خمسًا وثلاثين معجزة في سفر الأعمال فقط، ذلك السفر الذي فحصناه وقد تبرهنت صحته بكل يقين، وهو الذي يسجل تاريخ انتشار الكنيسة منذ القيامة حتى حوالي سنة ٦٠ م. ومعظم هذه المعجزات صنعها الرسل (قليل منها صنعه الملائكة أو الله).[٦] علاوة على ذلك، كاتب العبرانيين في حديثه عن الخلاص الذي تكلم به الرب، يصرح قائلاً: «ثم تَثَبَّت لنا من الذين سمعوا، **شاهدًا الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوعة** ومواهب الروح القدس، حسب إرادته» (عبرانيين٢: ٣، ٤).

ولعلك تتذكر من الفصل الثامن أن المعجزات هي الوسيلة التي يستخدمها الله في المصادقة على أنبيائه. فالمعجزة تؤكد الرسالة. والآية تؤكد العظة. وأفعالُ الله تؤكد كلمة الله لشعبِ الله (خروج٤؛ ١ملوك١٨؛ يوحنا٣: ٢؛ أعمال٢: ٢٢). إنها طريقةُ الله ليخبرنا أن الرسالة فعلاً منه. ورسل العهد الجديد أكَّدوا أن رسالتهم من الله، بما أجروه من معجزات.

وقد يقول الشكوكي: "إن قصص المعجزات هذه من تأليفهم". كلام فارغ. فقد رأينا في الفصول العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر أنهم كانوا مؤرّخين في غاية الدقة ولم يكن عندهم أي دافع لاختراع قصص المعجزات. والحقيقة أن كل الدوافع كان يجب أن توجِّههم نحو **عدم** تأليف هذه القصص لأنهم احتملوا التعذيب، والضرب، والقتل بسبب تمسكهم بها.

فضلاً عن ذلك، القدرة على صنع المعجزات لم تكن تحت سيطرتهم في نهاية الأمر، ولكنها كانت في يدِ الله نفسه. كيف نعرف ذلك؟ لسببين. الأول هو أن الرسل يبدو أنهم فقدوا القدرة على إجراء المعجزات نحو منتصف الستينيات. فكاتب العبرانيين الذي كتب في أواخر الستينيات أشار إلى هذه المواهب المعجزية الخاصة التي تُمنح للرسول في زمن الفعل الماضي (عبرانيين٢: ٣، ٤). وفي خدمة بولس بعد ذلك يبدو أنه لم يتمكن من شفاء بعض مساعديه المقربين (فيلبي٢: ٢٦؛ ٢تيموثاوس٤: ٢٠). فلو ظل محتفظًا بالقدرة على إجراء المعجزات حتى ذلك الحين، فلماذا كان يطلب الصلاة وينصح مساعديه بتناول الأدوية (١تيموثاوس٥: ٢٣)؟

ثانيًا، حتى **عندما كان بولس يجري معجزات** لم يقدر أن يشفي علته الجسدية (غلاطية٤: ١٣). والحقيقة أننا لا نرى في الكتاب المقدس شخصًا واحدًا يجري معجزة لفائدته الشخصية أو للتسلية. وهو ما يبين أن القدرة على إجراء المعجزات كانت محدودة بإرادةِ الله (قارن عبرانيين٢: ٤). فالمعجزات أجريت لغرض محدد، وهو عادةً تأكيد صدق رسول جديد أو إعلان سماوي جديد.

وقد يفسِّر ذلك عدم ذكر أي معجزات رسولية في رسائل بولس بعد نحو سنة ٦٢ م. وهو آخر تاريخ يمكن أن يكون سفر الأعمال قد كُتِب فيه.* فبحلول ذلك الوقت، كان بولس وسائر الرسل قد تبرهنوا أنهم مرسلون حقيقيون من الله، ولم يَعُد هناك احتياج لمزيد من البراهين.

روح الرب على يسوع: هناك مجموعة أخرى من الأدلة على إعطاء يسوع والروح القدس للعهد الجديد. لقد تنبأ العهد القديم بأن المسيا سيأتي وأنه سوف "يبشر بخبر سار". ويسوع أعلن أنه تمم تلك النبوة. فكما هو وارد في لوقا ٤، يسوع يدخل مجمع الناصرة، مدينته الأم، ويزعم هذا الزعم المذهل. وهذا هو ما يقوله لوقا:

> وقام [يسوع] ليقرأ، فدُفِعَ إليه سفر إشعياء النبي. ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوبًا فيه: "روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وأُرسِل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة". ثم طوى السفر وسلَّمه إلى الخادم، وجلس. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم: "إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم" (لوقا٤: ١٤-٢١).

ما الذي تم ذلك اليوم؟ المجيء الأول للمسيا. فيسوع في اقتباسه إشعياء٦١: ١، ٢، توقف في منتصف الآية ليبين أنه المسيا الذي أتى ليبشر المساكين، ولينادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وهكذا. ولكنه توقف في منتصف الآية ٢ لأن النصف الثاني من الآية يعلن عن "يوم انتقام لإلهنا" الذي يشير إلى مجيء المسيح الثاني. ولكن اليهود في مدينته الذين كانوا يعرفون أن يسوعَ ابنُ يوسف، عرفوا أيضًا أنه كان يزعم بذلك أنه المسيا. وفي الحقيقة، بعد أن زعم يسوع زعمًا مسيانيًا آخر، امتلأ الجمع غضبًا حتى إنهم أخرجوه خارج المدينة ليطرحوه من على حافة الجبل. ولكن يسوع جاز في وسطهم ومضى (٤: ٣٠-٢٢).

ويتنبأ إشعياء ٦١ أن المسيا سيُجري معجزات شفاء، ويبشِّر، ويرسل المنسحقين في الحرية بروح الرب. وهو ما يعني أن المسيا سيفعل ما فعله يسوع بالضبط: يأتي بإعلان سماوي جديد ويؤيِّده بالمعجزات. وطبعًا بما أن المسيا سيعطي إعلانًا جديدًا، فينبغي أن

---

* هذه ليست حجة مبنية على الصمت لأن الكتاب المقدس ليس صامتًا عن طبيعة هذه المعجزات الرسولية الخاصة، والغرض منها، ووظيفتها (انظر مثلاً ٢كورنثوس١٢: ١٢؛ عبرانيين٢: ٣، ٤). هذه الوظيفة من تأكيد الإعلان الرسولي تتماشى مع توقف المعجزات، حيث إنه لم تعد هناك حاجة لها بعد تأكيد الإعلان.

يُدَوَّن. ولذلك وَعَدَ يسوع رسله أن الروح القدس سيُذَكِّرهم بكل ما قاله لهم ويرشدهم إلى "جميع الحق" (يوحنا١٤: ٢٦؛ ١٦: ١٣).

اكتشاف الأسفار القانونية: ماذا يعني كل هذا فيما يختص بالعهد الجديد؟ يعني أنه وفقًا لما قاله يسوع، الأسفار الوحيدة التي يجب أن تشكِّل العهد الجديد هي التي كتبها رسله أو أكدوا صحتها. فما هي تلك الأسفار تحديدًا؟

أولاً، ينبغي أن نزيل فهمًا خاطئًا شائعًا بخصوص ما نطلق عليه "القانونية". فمن الخطإ أن نقول إن "الكنيسة" أو آباء الكنيسة الأوائل **حدَّدوا** المادة التي يجب أن تشكل العهد الجديد. وذلك لأنهم لم **يحددوا** ما يشكل العهد الجديد، ولكنهم **اكتشفوا ما قَصَدَ** الله أن يكون في العهد الجديد. وهو ما عَبَّرَ عنه بروس متسجَر الأستاذ في جامعة پرينستون تعبيرًا جيدًا. فقد قال: "القانونية هي قائمة من مجموعة أسفار ذات سلطة مرجعية، أكثر مما هي قائمة ذات سلطة مرجعية من مجموعة أسفار. فهذه الوثائق لم تستمد سلطتها من وقوع الاختيار عليها، بل إن كلاً منها كان له هذه السلطة قبل أن يقوم أي شخص بجمعها".[٧] وهو ما يعني أن الأسفار الوحيدة التي يجب أن تؤلف العهد الجديد هي التي أوحى بها الله. وبما أن يسوع قال إن رسله سيكتبون تلك الأسفار، فأسئلتنا الوحيدة أسئلة تاريخية: ١) مَنْ هم الرسل؟ ٢) وماذا كتبوا؟

وآباء الكنيسة الأوائل يمكنهم أن يساعدونا في الإجابة عن هذين السؤالين لأنهم كانوا أقرب كثيرًا للأحداث منا. والحقيقة أنهم لم يواجهوا مشكلة في **اكتشاف** الطبيعة الإلهية لأسفار العهد الجديد الكبرى. فبالرغم من وجود بعض الخلاف في البداية حول بعض الأسفار الصغيرة (مثل رسائل فليمون، ويوحنا الثالثة، ويعقوب)، فآباء الكنيسة الأوائل أدركوا فورًا أن الأناجيل والرسائل الكبرى موحى بها من الله. لماذا؟ لأنهم عرفوا أن هذه الأسفار مكتوبة بيد رسل (أو بيد أشخاص صادَقَ الرسل عليهم)، وأولئك الرسل تبرهنوا بالمعجزات. ولكن كيف عرفوا ذلك؟ لأن هناك سلسلة متصلة من الشهادة بدءًا من الرسل حتى آباء الكنيسة الأوائل بخصوص الكُتَّاب الحقيقيين لأسفار العهد الجديد وأصالتها.

ويوحنا، الذي كان يعرف كل الرسل طبعًا، كان عنده تلميذ اسمه پوليكارپوس (٦٩- ١٥٥ م) وپوليكارپوس كان عنده تلميذ اسمه إيريناوس (١٣٠-٢٠٢). ويستشهد پوليكارپوس وإيريناوس معًا بثلاثة وعشرين سفرًا من السبعة والعشرين التي يتكون منها العهد الجديد.

باعتبارها أسفارًا أصلية، وفي بعض الحالات يقولان صراحةً إنها أصلية.* ويؤكد إيريناوس صراحةً كُتَّاب الأناجيل الأربعة جميعًا.[٨] إضافةً إلى ذلك، نعرف من المؤرخ يوسابيوس أن پاپياس *Papias* (٦٠-١٢٠) أكّد أن متى هو كاتب إنجيله، وكذلك مرقس هو كاتب إنجيل مرقس. ولا أحد يشك في أن بولس هو كاتب الرسائل الكبرى التي تحمل اسمه.

وإن كان آباء الكنيسة الأوائل اكتشفوا على الفور أن الكتابات الكبرى في العهد الجديد أسفار أصلية، فقد تم قبول معظم العهد الجديد قبل سنة ٢٠٠م، ثم أُقِرَّ كله باعتباره أصليًا بشكل رسمي ونهائي في مجمع هيپو سنة ٣٩٣. انظر الجدول ١٤-٢.[٩]

وقد يسأل الشكوكي: "لماذا استغرق إقرار هذه الأسفار كل هذا الوقت؟" ربما لأن المسيحية لم تكن ديانة شرعية عمومًا في الإمبراطورية الرومانية حتى سنة ٣١٣. فلم يكن بوسع آباء الكنيسة الأوائل أن يذهبوا إلى أقرب فندق هيلتون في المدينة ويعقدوا مؤتمرًا للكتاب المقدس لفحص الأدلة معًا والتوصل إلى استنتاج. لقد كانوا غالبًا يخشون على حياتهم وهم داخل بيوتهم! ولكن النقطة المهمة أنه ما إن طُرِحَت كل الأدلة على المائدة، حتى تم إقرار أسفار العهد الجديد السبعة والعشرين جميعًا. وهذه السبعة والعشرين فقط باعتبارها أسفارًا أصلية.

وهذه الأسفار السبعة والعشرون تشكِّل السجل الأصلي الوحيد لتعليم الرسل المتاح لنا. وكما رأينا، كل تلك الأسفار كُتِبَت في القرن الأول بقلم شهود عيان أو بقلم أشخاص نقلوا عن شهود عيان. وهو ما يعني أنها مطابقة للمعايير التي وضعها يسوع. أي أنها أسفار كتبها رسل أو أكد صحتها رسل.† وبما أننا لا نعرف أي كتابات رسولية أصلية أخرى، وبما أنه من المستبعد أن يسمح الله لعمل أصلي ألا يُكتشف كل هذا الزمان، يمكننا أن نطمئن إلى أن قانونية العهد الجديد قد اكتملت.

---

* الرسائل الوحيدة التي لم يقتبسا منها هي فليمون وبطرس الثانية ويعقوب ويوحنا الثالثة. ولكن أكليمندس الروماني (الذي كتب من ٩٥-٩٧م) و/أو إغناطيوس (١١٠م) يؤكدان صحة فليمون، وبطرس الثانية، ويعقوب حتى قبل پوليكارپوس وإيريناوس. ولذلك، السفر الوحيد الذي لم يقتبس منه أحد باعتباره حقيقيًا في القرنين الأول والثاني هو الرسالة الصغيرة جدًا المعروفة باسم يوحنا الثالثة. انظر Geisler and Nix, *General Introduction to the Bible*, 294.

† رغم أن لوقا ليس رسولاً بالمعنى الدقيق، فمن المحتمل أنه كان أحد الخمسمائة الذين شهدوا المسيح المُقام. لكن حتى وإن لم يكن، فالرسول بولس رفيق لوقا في السَّفر أكد صحة كتاباته (١تيموثاوس٥: ١٨؛ قارن لوقا١٠: ٧). ومن ثم، كتابات لوقا تُعتبر من تعليم الرسل.

	متى	مرقس	لوقا	يوحنا	أعمال	رومية	١ كورنثوس	٢ كورنثوس	غلاطية	أفسس	فيلبي	كولوسي	١ تسالونيكي	٢ تسالونيكي	١ تيموثاوس	٢ تيموثاوس	تيطس	فليمون	العبرانيين	يعقوب	١ بطرس	٢ بطرس	١ يوحنا	٢ يوحنا	٣ يوحنا	يهوذا	الرؤيا
الأفراد																											
برنابا المزيف (حوالي ٧٠- ١٣٠ م)	×	×	×							×						×	×		×		×	×					
أكليمندس الروماني (حوالي ٩٥- ٩٧)	×			×		×	o			×					×		×		×	×		×					
إغناطيوس (حوالي ١١٠)										×	×	×	×	×				×									
بوليكاربوس (حوالي ١١٠- ١٥٠)	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×						×		×	×			
هرماس (حوالي ١١٥- ١٤٠)	×	×			×		×	×			×		×		×	×			×	×	×		×				×
الديداخي (حوالي ١٢٠- ١٥٠)	×		×			×	×						×		×												×
بابياس (حوالي ١٣٠- ١٤٠)				×																							o
إيريناوس (حوالي ١٣٠- ٢٠٢)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	×	×	×		×		o		o	×		×	o
دايوجنيتوس (حوالي ١٥٠)								×	×			×					×										
يوستينوس الشهيد (حوالي ١٥٠- ١٥٥)	×	×	×	o	×	×	×	×	×	×		×	×	×							×						×
أكليمندس السكندري (حوالي ١٥٠- ٢١٥)	×	×	×	×	×	o	o	o	o	×	o	o	×	×	o		o		o		o		o			o	o
ترتليان (حوالي ١٥٠- ٢٢٠)	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×		×		×		×			×	×
أوريجانوس (حوالي ١٨٥- ٢٥٤)	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×	×		؟		o	؟		؟	؟		o
كيرلس الأورشليمي (حوالي ٣١٥- ٣٨٦)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	
يوسابيوس (حوالي ٣٢٥- ٣٤٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	؟	o	؟	o	؟	؟	؟	o
جيروم (حوالي ٣٤٠- ٤٢٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o
أغسطينوس (حوالي ٤٠٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o
القوائم القانونية																											
مارسيون (حوالي ١٤٠)			o			o	o	o	o	o	o	o	o	o				o									
الموراتورية Muratorian (حوالي ١٧٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o					o	o	o	o	o
الرسولية (حوالي ٣٠٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	
تشلتنام Cheltenham (حوالي ٣٦٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o			o	؟	o	؟	؟		o
أثناسيوس (٣٦٧)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o
الترجمات																											
تاتيان دياتسارون *Tatian Diatessaron* (حوالي ١٧٠)	o	o	o	o																							
اللاتينية القديمة (حوالي ٢٠٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o					o	o	o	o	o
السريانية القديمة (حوالي ٤٠٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o		o				
المجامع																											
نيقية (حوالي ٣٢٥- ٣٤٠)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	؟	o	؟	o	؟	؟	؟	o
هيبو (٣٩٣)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o
قرطاجة (٣٩٧)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o
قرطاجة (٤١٩)	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o	o

× = اقتباس أو إشارة   o = يُذكر بالاسم باعتباره أصليًا   ؟ = يُذكر بالاسم باعتباره محل خلاف

الجدول ١٤- ٢

كيف يمكن أن يكون الكتاب المقدس معصوماً؟

بما أن يسوع أكد أن العهد القديم كلمة الله المعصومة، إذَن لا بد أن يكون العهد الجديد أيضًا الذي وعد به جزءًا من كلمة الله المعصومة. ولكن كيف ذلك؟ أليس الكتاب المقدس مليئًا بعشرات، إن لم يكن مئات الأخطاء؟

لا. الكتاب المقدس لا يحوي أخطاء، ولكن مؤكد أن فيه أخطاء **مزعومة** أو صعوبات. والحقيقة أني (نورم) وأستاذ آخر في كلية اللاهوت الإنجيلية الجنوبية، يدعى توماس هو *Thomas Howe* ألـَّفنا كتابًا بعنوان "عندما يسأل النقاد" *When Critics Ask* يتناول أكثر من ٨٠٠ صعوبة رَصَدَها النقاد في الكتاب المقدس (وهناك المزيد عن عصمة الكتاب المقدس في "اللاهوت النظامي"، الجزء الأول *Systematic Theology, Volume One*).[١٠] ورغم أننا طبعًا لا نستطيع أن نضع مادة هذين الكتابين في هذا الكتاب، إليك بضع نقاط جديرة بالذكر.

أولاً، لنوضِّح منطقيًا لماذا يستحيل أن يحتوي الكتاب المقدس على أخطاء:

١- الله لا يخطئ.

٢- الكتاب المقدس كلمةُ الله.

٣- إذَن الكتاب المقدس لا يخطئ.

بما أن هذا قياس منطقي (شكل من أشكال التفكير المنطقي) سليم، فإن كانت الفرضيات صحيحة، إذَن النتيجة صحيحة. إن الكتاب المقدس يعلن بوضوح أنه كلمةُ الله، وقد رأينا الأدلة القوية على ذلك. والكتاب المقدس يخبرنا أيضًا عدة مرات أن الله لا يخطئ، وهي حقيقة نعرفها من الإعلان العام أيضًا. فالنتيجة حتمية. الكتاب المقدس يستحيل أن يخطئ. فإن أخطأ الكتاب المقدس في أي شيء، إذَن الله مخطئ. ولكن الله لا يمكن أن يخطئ.

فماذا يحدث عندما نظن أننا وجدنا خطأ في الكتاب المقدس؟ طينوس عنده الإجابة، وهي إجابة حكيمة، إذ يقول: "إن تحيرنا أمام أي شيء يبدو وكأنه متناقض في الكتاب المقدس، فليس مسموحًا أن نقول: "كاتب هذا السفر مخطئ"، ولكن إما أن هناك خطأ في المخطوطة، أو في الترجمة، أو أنك لم تفهم".[١١] وهو ما يعني أن أغلب الظن أننا **نحن المخطئون** لا الكتاب المقدس. وفي كتاب "عندما يسأل النقاد" نرصد سبعة عشر خطأً عادةً ما يسقط فيها النقاد. وإليك ملخصًا لأربعة منها فقط:

- **الافتراض بأن الاختلاف في الروايات تناقض:** كما رأينا، ليس تناقضًا إن قال أحد كُتَّاب الأناجيل إنه رأى ملاكًا واحدًا عند القبر وقال آخر إنه رأى اثنين. فمتى لا يقول إنه واحد **فقط**. وإن كان هناك اثنان، فمؤكد أنه كان هناك واحد (على الأقل)! إذَن الاختلاف لا يعني دائمًا التناقض، بل إنه غالبًا ما يرجح أنها شهادة شهود عيان صادقة.
- **الإخفاق في فهم سياق النص:** أحيانًا قد نظن أننا وجدنا تناقضًا في الكتاب المقدس، ولكن الواقع أننا انتزعنا النص من السياق. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك مزمور١٤: ١، الجزء الثاني من الآية الذي يقول: «ليس إله». إلا أن السياق الصحيح ينكشف عندما نقرأ الآية كاملة: «**قال الجاهل في قلبه:** ''ليس إله''».
- **افتراض أن الكتاب المقدس يصادق على كل ما يسجله:** وقد يستشهد النقاد بتعدد زوجات سليمان (١ملوك١١: ٣) بوصفه مثالاً على التناقض. ألا يُعَلِّم الكتاب المقدس بالزواج من زوجة واحدة، لا تعدد الزوجات؟ طبعًا. ولكن مؤكد أن الله لا يقبل كل فعل مسجَّل في الكتاب المقدس. فهو يسجل أيضًا أكاذيب الشيطان، ولكنَّ الله لا يوافق عليها أيضًا. ولكن مقاييسُ الله نجدها فيما **يعلنه** الكتاب المقدس، لا في كل ما **يسجله**. (كما رأينا، بدلاً من أن تصبح هذه حجة لإثبات أن الكتاب المقدس يحوي أخطاء، هي في الواقع حجة تؤيد تاريخية الكتاب المقدس. فتسجيل الكتاب المقدس لكل خطايا شخصياته وأخطائهم يدلل على صحته، فما من أحد سيؤلف قصة تدينه).
- **نسيان أن الكتاب المقدس كتاب بشري له سمات بشرية:** اشتهر النقاد بالتشكيك خطأً في صدق الكتاب المقدس على أساس أنهم يتوقعون مستوى من التعبير أعلى مما هو معتاد في الوثائق البشرية. إلا أن هذا التشكيك غير مشروع لأن معظم مادة الكتاب المقدس لم تُملَ شفهيًا ولكنَّ كُتَّابًا بشريين هم من كتبوها (تُستثنى من ذلك الوصايا العشر التي كُتِبَت ''بإصبع الله'' [خروج٣١: ١٨]). والكُتَّاب مؤلفون بشريون استخدموا أساليبهم الأدبية وسماتهم الشخصية الخاصة. وقد كتبوا سجلات تاريخية (مثل سفر الأعمال)، وأشعارًا (مثل نشيد الأنشاد)، وصلوات (مثل الكثير من المزامير)، ونبوات (مثل إشعياء)، وخطابات شخصية (مثل ١تيموثاوس)، وكتابات لاهوتية (مثل رومية)، وغيرها من الأشكال الأدبية. وهؤلاء الكُتَّاب عندما يكتبون عن شروق الشمس أو غروبها يتكلمون من **منظور بشري** (يشوع١: ١٥). وهم أيضًا يكشفون عن **أنماط التفكير البشري**، ومنها إخفاق الذاكرة

(١كورنثوس١: ١٤-١٦)، **والعواطف البشرية** (غلاطية٤: ١٤). باختصار، بما أن الله استخدم أساليب حوالي ٤٠ كاتبًا على مدى ما يقرب من ١٥٠٠ سنة ليوصل رسالته، من الخطإ أن نتوقع أن يكون مستوى التعبير أعلى منه في الوثائق البشرية الأخرى. إلا أن الطبيعة البشرية الفريدة للكتاب المقدس معصومة من الخطإ كما هو الحال في طبيعة المسيح البشرية.

اعتراضات على العصمة

قد يقول النقاد: "البشر يخطئون، إذَن لا بد أن الكتاب المقدس يخطئ". ولكن الناقد هو المخطئ هنا أيضًا. صحيح، البشر يخطئون، ولكن البشر لا يخطئون **دائمًا**. فالبشر المعرضون للخطإ يؤلفون كتبًا طوال الوقت خالية من الأخطاء. إذَن البشر المعرضون للخطإ الذين يساقون من الروح القدس مؤكد أنهم قادرون على كتابة كتاب خالٍ من الأخطاء.

وقد يسأل الناقد: "ولكن أليست هذه الحجة دائرية لأنها تستخدم الكتاب المقدس لإثبات الكتاب المقدس؟" لا، حجتنا ليست دائرية، لأننا لا نبدأ بافتراض أن الكتاب المقدس موحى به. إننا نبدأ بعدة وثائق منفصلة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أنها صحيحة تاريخيًا. وبما أن تلك الوثائق تكشف أن يسوع هو الله، إذَن تعليمه بخصوص العهد القديم لا بد أن يكون صحيحًا. وقد قال يسوع في عدة مناسبات إن العهد القديم كلمة الله، وإنه معصوم من الخطإ. ووعد أن بقية حقِّ الله ("جميع الحق") سيأتي للرسل من الروح القدس. ثم كَتَبَ الرسل العهد الجديد وأثبتوا صدقهم بالمعجزات. ومن ثم، بناءً على عصمة كلام يسوع الذي هو الله، العهد الجديد أيضًا معصوم من الخطإ. وهذه ليست حجة دائرية، ولكنها حجة استقرائية تجمع الأدلة وتتبعها إلى حيثما تتوجه.

وقد يتهمنا النقاد أيضًا قائلين: "ولكن موقفكما من العصمة لا يمكن فحصه وإثبات خطئه. فأنتما لن تقبلا خطأً في الكتاب المقدس لأنكما قررتما مسبقًا أن الخطأ غير وارد في الكتاب المقدس". الحقيقة أن موقفنا **يمكن فحصه وإثبات خطئه**، ولكن موقف النقاد هو الذي لا يقبل الفحص. فلنشرح ذلك.

أولاً، بما أن صدق يسوع ثابت بالدليل، فعندما نواجه صعوبة أو سؤالاً في النص الكتابي، من المنطقي أن نفترض صحة الكتاب المقدس. وهو ما يعني أننا عندما نصادف شيئًا يصعب تفسيره، نفترض أننا نحن المخطئون، وليس الله غير المحدود. فالاحتمال الأكبر أن جايسلر

وتورك هما الجاهلان، لا أن الكتاب مخطئ.

إلا أن هذا لا يعني أننا نؤمن بعدم وجود أي احتمال للخطإ على الإطلاق في الكتاب المقدس. فمهما كان، هناك دائمًا احتمال أن استنتاجاتنا عن العصمة قد تكون خاطئة، لأنه مؤكد أننا معرضون للخطإ. والحقيقة أنه يمكن إثبات خطأ موقفنا من العصمة إذا تمكن أحدهم من رصد خطإ حقيقي في مخطوطة أصلية.* ولكن حتى يومنا هذا، بعد قرابة ألفي سنة من البحث، لم يتمكن أحد من العثور على مشكلة مستعصية من هذا النوع. (وهو أمر مذهل بحق إن أخذت في اعتبارك أن الكتاب المقدس هو بالفعل عبارة عن مجموعة من الوثائق التي كتبها حوالي ٤٠ كاتبًا على مدى ١٥٠٠ سنة. فأين تجد هذا الاتفاق في العديد من القضايا المتنوعة بين ٤٠ كاتبًا يعيشون جميعهم اليوم، فكم بالأحرى إن كانوا يعيشون على مدار ١٥٠٠ سنة؟)

ثانيًا، حتى لو ثبت خطأ فكرة العصمة يومًا ما، هذا لا يُثبت خطأ الحقائق الجوهرية في المسيحية. فكما رأينا، الأدلة التاريخية على أن يسوع علـَّم حقائق عميقة، وأجرى معجزات، ومات وقام من الأموات من أجل البشر الخطاة، أدلة في غاية القوة. وحتى إن اكتـُشِف أن الكتاب المقدس يحوي خطأ أو اثنين في التفاصيل، لن يُضعف ذلك من حق المسيحية التاريخي. ومع ذلك ينبغي أن نضيف سريعًا أننا لا نظن أن العصمة سيثبت خطؤها أبدًا، وإن حدث، ستظل المسيحية صحيحة بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي.

هل من أي اكتشاف يدفعنا أن نكفّ عن اعتقادنا في المسيحية؟ نعم. إن تمكن شخص من العثور على جسد يسوع، يَثبت خطأ المسيحية، ومن ثم نتخلى عنها. وهو ما يعني أننا نتفق مع بولس الذي قال إن إيماننا المسيحي باطل إن لم يكن يسوع قد قام حقـًا من الأموات (١كورنثوس١٥: ١٤-١٨).

وهو أمر تنفرد به المسيحية. فالمسيحية تختلف عن معظم المنظورات الدينية الأخرى في أنها تقوم على أحداث تاريخية ومن ثم يمكن إثبات صحتها أو خطئها بالفحص التاريخي. ومشكلة الشكوكيين والناقدين هي أن كل الأدلة التاريخية تشير إلى القيامة. ومَن عاشوا في

---

* لقد عُثِر على أخطاء نَسْخ في المخطوطات، ولكنها أخطاء يسهل التعرف عليها، وبمقارنة الكثير من المخطوطات المتاحة يثبت أنها ليست موجودة في الأصل (انظر الفصل التاسع). ورغم أنه لم يُعثر على أي مخطوطات أصلية للكتاب المقدس حتى الآن، فهناك مخطوطات أقدم لأعمال أخرى ما زالت باقية. لذا، قد يُعثر على أصول الكتاب المقدس يومًا ما.

أورشليم في تلك الآونة لم يعثروا على جسده واعترفوا أن قبره كان فارغـًا، رغم أن بعضهم كانوا يتمنون أن يجدوا جسد يسوع ويطوفوا به في المدينة. ومنذ ذلك الحين لم يـُعثر على شيء. فبما أنه بعد ألفي سنة من البحث لم يعثر أحد على جثمان يسوع ولا على أخطاء حقيقية في الكتاب المقدس، أفليس من المحتمل أنه لا وجود لأي منهما؟ فمتى يمكن أن يُسدل الستار بثقة على سؤالٍ ما؟ إن لم يكن بعد ألفي سنة، فمتى؟

ثالثـًا، بعد سنوات طويلة من الدراسة الدقيقة المتواصلة للكتاب المقدس، لا يمكننا إلا أن نستنتج أن مَن "اكتشفوا خطأ" في الكتاب المقدس لا يعرفون عن الكتاب المقدس أكثر مما يعرف الآخرون بكثير، بل الواقع أنهم يعرفون أقل بكثير مما يجب. وهو ما لا يعني أننا نعرف حلولاً لكل الصعوبات التي نواجهها في الكتاب المقدس، ولكنه يعني أننا مستمرون في البحث. فنحن بالفعل لا نختلف عن العلماء الذين لا يستطيعون أن يَحُلـّوا كل ما في العالم الطبيعي من صعوبات أو غوامض. إلا أنهم لا ينكرون تكامل العالم الطبيعي لمجرد أنهم يعجزون عن تفسير شيء ما. وعالِم اللاهوت مثل العالِم المتخصص في العالَم الطبيعي، يستمر في البحث عن إجابات. وبينما نفعل ذلك، تَقـْصُر قائمة الصعوبات شيئـًا فشيئـًا.* (ولكن في الوقت الحالي، لمَن منكم لا يستطيع أن يتجاوزَ صعوبات الكتاب المقدس، نقول إن مارك توين *Mark Twain* كان محقـًا عندما خلص إلى أن ما أزعجه لم يكن الأجزاء التي لم يفهمها في الكتاب المقدس، بل الأجزاء التي فهمها!)

أخيرًا، إن النقاد هم مَن يتمسكون فعليًا بموقف لا يمكن فحصه وإثبات خطئه. فما الذي يقنعهم بخطإ نظرتهم؟ أي ما الذي يمكن أن يقنعهم أن يسوع قام حقـًا من الأموات أو أن الكتاب المقدس خالٍ من الأخطاء؟ ربما يحسن بهم أن يفكروا في الأدلة التي طرحناها في هذا الكتاب. ولكن للأسف، الكثير من النقاد لن يفعلوا ذلك. فلن يسمحوا للحقائق أن تـُقَيِّد رغبتهم في الاحتفاظ بالسيطرة على حياتهم. فمهما كان من أمر، إن اضطر أحد النقاد أن يعترف بصحة الكتاب المقدس، يَلزمْ أن يعترف أيضًا بأنه لم يعُد المسيطر على الأمور. وسيكون هناك سلطة في الكون أعظم منه، وتلك السلطة قد لا تقبل الحياة التي يريد الناقد أن يعيشها.

* مثلاً، في إحدى الفترات اعتقد النقاد أن الكتاب المقدس مخطئ بخصوص شعب يُعرف باسم الحثيين. فلم يكن هناك دليل على وجودهم خارج الكتاب المقدس، إلى أن اكتـُشِفَت سجلاتهم الكاملة في تركيا. وبالمثل، اعتقد النقاد أن الكتابة لم تكن موجودة في عصر موسى، ومن ثم يستحيل أن يكون موسى قد كتب أي شيء في العهد القديم، إلى أن عُثر على ألواح إيبلا *Ebla tablets* في سوريا وهي تسبق موسى بألف سنة. وكلما استمر البحث، ازداد تأكيد صحة الكتاب.

الخلاصة والملخص

علـَّم يسوع أن العهدَ القديمَ اليهوديَّ كلمةُ الله المعصومة، ووَعَدَ أن بقية كلمةِ الله ستأتي عن طريق رسله. والرسل الذين ثبت صدقهم بالمعجزات كتبوا ٢٧ كتابًا أو أكَّدوا صحتها. وكل الكتب الكبرى تم إقرارها فورًا باعتبارها جزءًا من كلمةِ الله، ومَن أقروا بذلك كانوا أشخاصًا على صلة وثيقة بالرسل أنفسهم. وقد أقرَّت المجامع الكنسية الأولى كل الأسفار السبعة والعشرين فيما بعد بوصفها أصلية. وهو ما يعني أن الكتاب المقدس الذي بين أيدينا اليوم هو كلمة الله الحقيقية المعصومة.

وبما أن الكتاب المقدس هو مقياس الحق الثابت عندنا، فكل ما يتناقض مع أي من تعاليمه هو خاطئ. وهو ما لا يعني أن سائر الديانات خالية من الحق. ولكنه يعني ببساطة أن أي تعليم محدَّد يتعارض مع تعليم في الكتاب المقدس هو تعليم خاطئ.

ولنراجع الآن ما توصلنا إليه من استنتاجات منذ الفصل الأول:

١- الحَقّ المتعلق بالواقع أو حقيقة الواقع أمر قابل للمعرفة.

٢- عكس الحق هو الخطأ.

٣- وجودُ إلهٍ خالقٍ حافظٍ حقٌ. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) بداية الكون (الحجة الكونية *Cosmological Argument*)

ب) تصميم الكون (الحجة الغائية *Teleological Argument* / المبدأ الإنساني *Anthropic Principle*)

ج) تصميم الحياة (الحجة الغائية)

د) القانون الأخلاقي (الحجة الأخلاقية *Moral Argument*)

٤- إن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة.

٥- يمكن استخدام المعجزات لتأكيد رسالة من الله (أي باعتبارها أعمالاً إلهية تؤكِّد كلام الله).

٦- العهد الجديد يتمتَّع بالمصداقية التاريخية. وهو ما يُستدَل عليه من:

أ) الشهادة المبكرة

ب) شهادة شهود العيان

ج) الشهادة غير المُفَبْرَكة (الصادقة)

د) شهود العيان الذين لم يكونوا مخدوعين

٧- العهد الجديد يقول إن يسوع زَعَمَ أنه الله.

٨- زَعْمُ يسوع أنه الله تَأَكَّد معجزيًا بما يلي:

أ) تحقيقه للكثير من النبوات المختصة به

ب) حياته الخالية من الخطية وأعماله المعجزية

ج) تنبؤه بقيامته وإتمامه لها

٩- إذَن يسوع هو الله.

١٠- كل ما يُعَلِّمه يسوع (الذي هو الله) حقٌ.

١١- يسوع عَلَّمَ أن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله.

١٢- إذَن القول بأن الكتابَ المقدسَ كلمةُ الله هو حق (وكل ما يتعارض مع الكتاب خطأ).

فلنعد إلى الفصل الثامن لتفصيل مضامين هذا الكلام. إن الأدلة التي جمعناها حتى الفصل الثامن (النقاط ١-٣ أعلاه) ساعدتنا أن نستخلص أن كل الديانات والمنظورات الفلسفية للحياة التي لا تؤمن بالإله الخالق الحافظ خاطئة. وهو ما ترك أمامنا الديانات التي تؤمن بالله الخالق الحافظ. والأدلة المطروحة من الفصل التاسع إلى الرابع عشر (النقاط ٤- ١٢ أعلاه) تُخبرنا أن وحي اليهودية صحيح، ولكنه غير مكتمل، لأن العهد الجديد ينقصه. أي دين وضعي وإن تضمن على شيء من الحق، ولكنه مخطئ في بعض التعاليم الجوهرية. وحي المسيحية فقط هو كلمة الله الكاملة المعصومة.

هل يمكن أن نكون مخطئين في كل هذا؟ ربما. **ولكن في ضوء الأدلة، نستخلص أن النقاد، والشكوكيين، وأتباع الديانات الأخرى يحتاجون من الإيمان قدرًا أكبر بكثير مما نحتاج.**



الخلاصة: القاضي، والملك العبد، وسطح العلبة

"في النهاية سينقسم البشر إلى نوعين فقط: مَنْ يقولون لله: "لتكن مشيئتك"، ومَنْ يقول لهم الله في النهاية: "لتكن مشيئتكم"".

سي. إس. لويس

القاضي

يَمْثُل أحد الشبان أمام القاضي بتهمة السُّكْر أثناء قيادة السيارة. وعندما ينادي حاجب المحكمة اسمه، تَعُمّ قاعة المحكمة دهشة عارمة؛ المدعى عليه ابن القاضي! وكم يتمنى القاضي أن يكون ابنه بريئـًا، ولكن الدليل لا يُدحض. إنه مدان.

ماذا يفعل القاضي؟ إنه محصور في مأزق بين العدل والحب. إن كان ابنه مذنبًا، فهو يستحق العقاب. إلا أن القاضي لا يريد أن يعاقب ابنه لحبه الجَمّ له.

ولكنه يُصدر الحكم كارهًا: "يا بُنَيّ، إما أن تدفع غرامة قدرها ٥٠٠٠ دولار أو تدخل الحبس".

فيرفع الابن عينيه إلى القاضي ويقول: "ولكن يا أبي أَعِدُك أن أكون صالحًا من الآن فصاعدًا. سأتطوع في الأماكن التي تقدِّم الطعام للمحتاجين. وسأزور المسنين. بل سأفتح دارًا للعناية بالأطفال الذين تعرضوا لإساءات. ولن أرتكب أي خطأ فيما بعد. أرجوك أن تـُطـْلِقني".

وهنا يسأل القاضي: "هل ما زلت مخمورًا؟ لا تستطيع أن تفعل كل ذلك. بل حتى إن استطعت، أعمالك الصالحة في المستقبل لا تستطيع أن تـُغير الواقع الحالي من أنك مدان بالسُّكْر أثناء القيادة". طبعًا القاضي يدرك أن **الأعمال الحسنة لا يمكنها أن تمحو السيئات**. فالعدالة التامة تقتضي أن يعاقـَب ابنه على ما اقترف.

ومن ثم يكرر القاضي قائلاً: "آسف يا ابني. على قدر ما أريد أن أطلقك، فإني مقيد بالقانون.

وعقوبة هذه الجريمة غرامة ٥٠٠٠ دولار أو الحبس".

ويتوسل الابن إلى أبيه قائلاً: "ولكن يا أبي أنت تعرف أني لا أملك ٥٠٠٠ دولار. لا بد من وجود طريقة أخرى للنجاة من الحبس".

فيقف القاضي ويخلع رداءه، وينزل من على منصته العالية إلى أن يصل لمستوى ابنه. وإذ تلتقي عينا الأب بعيني ابنه، يُدخل الأب يده في جيبه ويُخرج خمسة آلاف دولار ويمد يده للابن. يرتجف الابن، ولكنه يدرك أنه ليس أمامه إلا خيار واحد ليسترد حريته؛ أن يأخذ النقود. ليس في يده إلا أن يفعل ذلك. فالأعمال الصالحة أو التعهدات بالقيام بأعمال صالحة لا تطلقه حرًا. الشيء الوحيد الذي ينقذ الابن من عقوبة مؤكدة أن يقبل هبة أبيه المجانية.

إن الله في موقف مشابه لموقف القاضي؛ فهو محصور في مأزق بين عدله ومحبته. فبما أننا جميعًا ارتكبنا الخطية في وقتٍ ما في حياتنا، عدلُ الله اللامحدود يقتضي منه أن يعاقبنا على تلك الخطية. ولكن الله يريد أن يجد طريقة ليتجنب معاقبتنا انطلاقًا من محبته اللامحدودة.

ما **الطريقة الوحيدة** التي بمقتضاها يظلُ الله عادلاً دون أن يعاقبنا على خطايانا؟ ينبغي أن يعاقب بديلاً بلا خطية يحمل عقوبتنا طوعًا نيابةً عنا (بلا خطية لأن البديل عليه أن يدفع ثمن خطايانا، لا خطاياه، ويحمل عقوبتنا طوعًا لأنه من الظلم أن يعاقَب البديل رغمًا عنه). فأين يجدُ الله بديلاً بلا خطية؟ لا من البشر الخطاة، ولكن فقط من نفسه. حقًا، الله **نفسه** هو البديل. فكما نَزَلَ القاضي من على منصته لينقذ ابنه، نزل الله من السماء لينقذك وينقذني من العقاب. وكلنا نستحق العقاب. أنا أستحق. وأنت تستحق.

تقول: "ولكني شخص صالح". قد تكون "صالحًا" مقارنةً بهتلر أو حتى بجارك. ولكن مقياس الله لا هو هتلر ولا جارك. مقياسه هو الكمال الأخلاقي لأن طبيعته الثابتة هي الكمال الأخلاقي.

في الحقيقة أكبر أسطورة دينية يصدقها الناس اليوم هي أن "صلاحك" يأتي بك إلى السماء. وبناءً على هذه النظرة، لا يهم ما تؤمن به طالما أنك "شخص صالح" وأعمالك الصالحة تـَزيد عن السيئة. ولكنها نظرة خاطئة لأن الإله صاحب العدالة المطلقة ينبغي أن يعاقب على السيئات بصرف النظر عن عدد الصالحات التي أدَّاها الشخص. فما إن نخطئ إلى الكائن الأزلي الأبدي، وكلنا أخطأنا، حتى نستحق العقاب الأبدي، وما من عمل صالح

يمكنه أن يغير تلك الحقيقة.

وقد أتى يسوع ليقدِّم لنا مَهرَبًا من ذلك العقاب ويَهَبنا حياة أبدية. والفردوس المفقود في سفر التكوين يصير الفردوس المُسْتَرَدّ في سفر الرؤيا. فعندما قال يسوع: «أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يوحنا١٤: ٦)، لم يكن يطلق زعمًا اعتباطيًا بل تصريحًا يعكس واقع الكون. إن يسوع هو الطريق الوحيد لأنه ليس هناك إلا طريق واحد بمقتضاه يصالحُ الله عدله اللامحدود مع محبته اللامحدودة (رومية٣: ٢٦). وإن كان هناك أي طريق آخر، فهذا يعني أن الله سمح أنَّ المسيح يموت بلا سبب (غلاطية٢: ٢١).

وكما فعل الأب مع ابنه السكير، كذلك الله يفي بمتطلبات عدله بمعاقبة نفسه على خطايانا ويعرض على كل واحد منا أن يدفع عنه ثمن خطاياه. وكل ما يجب أن نفعله حتى ننال حريتنا أن نقبل الهبة. ولكن تبقى مشكلة واحدة: **كما أن الأب لا يقدر أن يجبر ابنه على قبول الهبة، كذلك الله أيضًا لا يقدر أن يجبرك على قبول هِبَته.** إن الله يحبك حبًا جمًّا لدرجة أنه يحترم قرارك برفضه.

الملك العبد

بمقدورك أن ترفض المسيح لأنه ترك إرادتك الحرة حرة بحق.[١] والكاتب فيليب يانسي *Philip Yancey* يقتبس بتصرف مثلاً من الفيلسوف المسيحي سورن كيركيجارد *Søren Kierkegaard* يساعدنا أن نفهم كيف يحاولُ الله أن يخلِّصنا ويحترم حريتنا في آن. وهو مَثَل يحكي قصة ملك يحب خادمة بسيطة:

> لم يكن للملك مثيل بين كل الملوك. رجال الدولة كانوا يرتجفون أمام عظمته. ولم يكن مَنْ يجرؤ على التفوه بكلمة ضده، لأنه كان يملك من القوة ما يسحقُ كل معارضيه. ولكن هذا الملك الجبار ذاب حبًا لخادمة بسيطة.
>
> كيف له أن يصرح لها بحبه؟ عرشه الملكي كان يغلّ يديه. إن أتى بها إلى القصر وتوَّجها بالجواهر وألبسها ثيابًا ملوكية، مؤكد أنها لن تقاوم، فما من أحد يجرؤ على مقاومته. ولكن هل ستحبه؟
>
> طبعًا ستقول إنها تحبه، ولكن هل ستحبه حقًا؟ أم ستعيش معه في خوف، وتضمر داخلها شعورًا عميقًا بالأسى على حياتها الضائعة. هل ستسعد بالقرب منه؟ كيف

له أن يعرف؟

لو ركب مركبته الملوكية قاصدًا الغابة حيث تسكن في كوخها، يصحبه موكب مسلح يلوح برايات زاهية الألوان، هذا المشهد سيُدخل الرعب إلى قلبها. لم يُرِد أَمَةً خانعةً، بل أراد حبيبة مساوية. أرادها أن تنسى أنه ملك وأنها خادمة مسكينة وأن تدع الحب يعبر الهوة الفاصلة بينهما. "لأنه بالحب وحده يتساوى غير المتساويين". كان هذا هو الاستنتاج الذي خلـُص إليه كيركيجارد.[٢]

تلك هي بالضبط المشكلة التي يواجهها الله في بحثه عنك وعني، فإن أرْعَبَنا بقوته قد لا نحبه بحريتنا (العلاقة بين الحب والقوة غالبًا علاقة عكسية). وحتى إن احتفظنا بحريتنا، قد لا نحب **شخصه** ولكن نحب عطاياه فقط. فماذا يفعلُ الله؟ إليك ما فعله الملك:

الملك، انطلاقـًا من قناعته أنه لا يستطيع أن يرفع مقام الخادمة دون أن يسحق حريتها، قرر أن **يتنازل**. فارتدى زي شحاذ واقترب من كوخها متنكرًا في عباءة بالية فضفاضة تهفهف على جسده. ولكنه لم يكن تنكرًا عاديًا، بل هوية جديدة اتخذها لنفسه. لقد تخلى عن العرش ليفوز بقلبها.[٣]

وهذا هو عين ما فعله الله ليفوز بك وبي! لقد تنازل إلى مستوى البشر، بل إلى واحد من أدنى المستويات الاجتماعية، مستوى العبد. ويصف بولس تضحية المسيح على هذا النحو في رسالته إلى أهل فيلبي (٢: ٨-٥):

فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا:

الذي إذ كان في صورةِ الله، لم يحسب خلسةً أن يكون معادلاً لله.

لكنه أخلى نفسه، آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه الناس.

وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسان، وضع نفسه، وأطاع حتى الموت، موت الصليب.

تَخَيَّل خالق الكون يتواضع ويأتي ليخدم، ويتألّم، ويموت على أيدي خلائقه التي خلق! لماذا يفعل ذلك؟ لأن حبه اللامحدود يلزمه أن يقدّم الخلاص للمخلوقين على صورته. وكان اتخاذُ صورة عبد هو السبيل الوحيد ليقدِّم لنا ذلك الخلاص دون أن يلغي قدرتنا على قبوله أو رفضه.

إن الاعتراف بأن المسيح أخذ "صورة عبد" ليخلصنا من خطايانا شيء، وإدراك حجم آلامه شيء آخر. معظمنا يأخذ هذا الأمر وكأنه شيء عادي. ولكن الطبيب سي. ترومان داڤيز *C. Truman Davis* رَسَمَ صورة حية لآلام المسيح وصلبه اقتبسناها بتصرف فيما يلي:[٤]

آلام الملك العبد

السوط الذي يجلد به الجنود الرومان يسوع مزوَّد بِكُرَات حديدية صغيرة وقطع حادة من عظام الخراف. ويُجَرَّد يسوع من ثيابه، وتُربَط يداه في عمود. ويجلده جندي أو اثنان بالتبادل على الظهر والساقين. والجنود يصرخون في الضحية. وبينما يجلدون ظهره بكل قوتهم، تُحدِث الكُرات الحديدية كدمات عميقة، وعظام الخراف تمزق الجلد والأنسجة. ومع استمرار الجَلْد تخترق الجروح العميقة العضلات الهيكلية وتتسبب في تمزق اللحم والنزيف. والألم والنزف يمهدان الطريق لحدوث هبوط حاد في الدورة الدموية.

وأخيرًا، عندما يقرّر قائد المائة المسؤول أن يسوع قارَبَ الموت، يأمر بإيقاف الضرب. ويسوع وهو في حالة تقترب من الإغماء، يُحَلّ من قيوده ويُترك ليسقط على الأرضية الحجرية المبللة بدمه. ويرى الجنود الرومان أضحوكة عظيمة في هذا اليهودي القروي الذي يزعم أنه ملك. فيُلقون رداء على كتفيه ويضعون قصبة في يده وكأنها صولجان المُلك. ولكنهم في حاجة إلى تاج لتكتمل المسرحية الساخرة. فيضفرون باقة صغيرة من الأغصان الطرية المغطاة بأشواك طويلة ويصنعون منها إكليلاً، ويغرسونه في رأسه. ومرة أخرى ينهمر الدم غزيرًا (فروة الرأس من أكثر أجزاء الجسم امتلاءً بالأوعية الدموية). وبعد أن يستهزئوا به ويلطموه يأخذون القصبة من يده ويضربونه على رأسه فتنغرز الأشواك بعمق في فروة الرأس.

وأخيرًا، بعد أن ينهكوا من لعبتهم السادية، ينزعون الرداء من على ظهره بعد أن التصق بالدم المتجلط ومصل الدم الذي في الجروح. ونَزْعُه، الذي يشبه نزع ضمادة بعد عملية جراحية باستهتار، يتسبب في آلام مبرحة وكأنه يُجلد من جديد. ثم تنزف الجروح مرة أخرى. واحترامًا للعادات اليهودية يُلبسه الرومان ثيابه ثانيةً. ثم يربطون عارضة الصليب الأفقية الثقيلة على كتفيه، ويسير موكب المسيحِ المُدانِ، واللصين، وفريق الإعدام في طريق الجلجثة. ورغم كل محاولاته أن يسير منتصبًا، حِمْل الخشبة الثقيلة مع الهبوط الحاد الذي نتج من كثرة ما فقده من دم كان يفوق الاحتمال، فيتعثر ويسقط، وخشب العارضة الخشن يحفر في جلد وعضلات الكتفين الممزقين. ويحاول أن ينهض ولكن العضلات البشرية تعرَّضت لضغوط تفوق قدرتها على الاحتمال. وقائد المائة قلِق يريد أن ينتهي من عملية الصلب، فيختار واحدًا من الواقفين المخلصين من شمال أفريقيا، ويدعى سمعان القيرواني، ليحمل الصليب. ويسوع يتبعه وهو ما زال ينزف ويتصبب عرقًا باردًا رطبًا من أثر الهبوط الحاد.

وأخيرًا تنتهي الرحلة التي تبلغ أكثر من نصف كيلومتر من قلعة أنطونيا إلى الجلجثة. ومرة أخرى يُجرَّد يسوع من ملابسه فيما عدا الإزار الذي يُسمح به لليهود. ويبدأ الصلب. ويقدِّمون ليسوع خمرًا ممزوجًا بمرارة، وهو مزيج مُسَكِّن خفيف، ولكنه يرفض أن يشرب. ثم يؤمَر سمعان بأن يضع عارضة الصليب على الأرض، ويسوع يُلقى فورًا على ظهره وينزل كتفاه على الخشب. ويتحسس قائد الجند الجزء الغائر في الناحية الأمامية من الرسغ. ويدق مسمارًا مربعًا ثقيلاً من الحديد المطاوع في الرسغ وفي الخشب حتى يغوص فيه بعمق. وسريعًا ينتقل إلى الجانب الآخر مكررًا العملية نفسها، وهو حريص على ألا يشد الذراعين أكثر من اللازم، ولكن يسمح بشيء من المرونة والحركة. ثم تُرفع العارضة، ويُسَمَّر فيها عنوان يقول «يسوع الناصري ملك اليهود».

يسوع الآن على الصليب. وكلما يهبط لأسفل رويدًا رويدًا مع ازدياد ثقله على مسماري الرسغين، يشعر بألم مبرح مميت يضرب أصابعه ويسري في الذراعين كالنيران إلى أن يتفجر في المخ، فمسمارا الرسغين يضغطان على الأعصاب المتوسطة. وكلما يرفع نفسه لأعلى ليستريح من هذا العذاب الذي يكاد يمزقه، يلقي كل ثقله على المسمار المدقوق في قدميه، فيخترق المسمار الأعصاب التي تتخلل عظام مشط القدم فيسري الألم في جسده نارًا مشتعلة. وعند هذه المرحلة تحدثُ ظاهرة أخرى. فعندما يضعف الذراعان، تجتاح العضلات موجات عنيفة من الشد العضلي تَعْقِد العضلات مسببةً آلامًا حادة كأنها ضربات شديدة متصلة. ومع هذا الشد العضلي يفقد قدرته على دفع نفسه لأعلى. ونظرًا لأنه معلق على ذراعيه تُشَلّ عضلات الصدر، والعضلات التي بين الضلوع تفقد قدرتها على العمل. وبذلك يمكن دخول الهواء إلى الرئتين ولكن لا يمكن إخراجه بالزفير. ويسوع يصارع ليرفع نفسه ليأخذ ولو نفَسًا واحدًا قصيرًا. وأخيرًا يتراكم ثاني أكسيد الكربون في الرئتين وفي مجرى الدم، والشد العضلي يَضْعُف جزئيًا. ومن آن لآخر يتمكن أن يرفع نفسه لأعلى ليقوم بالزفير ويستنشق الأكسجين الذي يبقيه على قيد الحياة. ومؤكَّد أنه في هذه الأثناء نطق بالجمل القصيرة السبع المسجلة في الأناجيل.

والآن تبدأ ساعات من ألم بلا حدود، نوبات متكرِّرة من الشد العضلي والتقلصات، والاختناق الجزئي، وآلام مميتة بسبب تمزق الأنسجة نتيجةً لتجريح ظهره وهو يحتك بالخشب الخشن كلما تحرك لأعلى ولأسفل. ثم يبدأ عذاب آخر. ألم شديد حاد في الصدر بسبب امتلاء التامور

تدريجيًا بمصل الدم، ثم ضغطه على القلب. وهنا كل شيء قد انتهى تقريبًا، فقد بلغ فقدان سوائل الأنسجة حدًّا حرجًا، والقلب الواقع تحت ضغط التامور يجاهد لضخ الدم الثقيل السميك البطيء في الأنسجة، والرئتان المتهالكتان تبذلان جهودًا مستميتة لسحب كميات ضئيلة من الهواء. والأنسجة التي أصيبت بجفاف حاد ترسل سيلاً من المثيرات للمخ. لقد اكتملت إرساليته الكفارية. وأخيرًا يمكنه أن يسمح لجسده أن يموت. ومع آخر دفقة قوة، يضغط على المسمار بقدميه الممزقتين مرة أخرى ويشدّ ساقيه ويأخذ نفَسًا أعمق، وينطق بصرخته السابعة والأخيرة: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

لقد احتمل يسوع كل هذا حتى نتصالح معه، حتى نخلص من خطايانا ونقول **أيها الآب في يديك أستودع حياتي.**

سطح العلبة

لقد بدأنا هذا الكتاب بالبحث عن "سطح علبةٍ" هذا اللغز الذي نسميه الحياة. وقلنا إنه إن وجدنا سطح العلبة، سنتمكن من الإجابة على أهم خمسة أسئلة تواجه كل إنسان. وبما أننا الآن نعرف، بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي، أن سطح العلبة هو الكتاب المقدس. فإجابات هذه الأسئلة الخمسة هي:

١- **الأصل: من أين أتينا؟** إننا كائنات مخلوقة، مصنوعة بشكل عجيب على صورةِ الله كشبهه (تكوين١: ٢٧؛ مزمور١٣٩: ١٤).

٢- **الهوية: مَنْ نحن؟** بما أننا مخلوقون على صورة الله كشبهه، إذَن نحن مخلوقات لها قيمة عُليا. فنحن نحظى بمحبة الله وبما منحنا إياه من حقوق وواجبات معينة (يوحنا٣: ١٦-١٨؛ ١: ١٢؛ غلاطية٤: ٥).

٣- **المعنى: ما الغرض من وجودنا هنا؟** لقد خُلِقَ آدم وحواء في حالة البراءة، ولكن اختيارهما للعصيان وضع الجنس البشري تحت العقاب وفقًا لعدلِ الله المطلق (تكوين٣: ٦-١٩). ومنذ ذلك الحين، كل واحد منا أكَّد اختيار آدم وحواء بعصيانه (رومية٣: ١٠-١٢؛ ٥: ١٢). ونحن نبقى في هذه الحالة الساقطة لكي نتمكن من اتخاذ قرارات حرة تحمل تداعيات أبدية. فهذه الحياة المؤقتة هي أرض اختيار الحياة الأبدية. والاختيارات التي تمجدُ الله (إشعياء٤٣: ٧؛ يوحنا١٥: ٨) ويمكن أن تجلب لنا مكافآت أبدية تتضمن:

أ) **قبول** الفدية التي دفعها يسوع ليحررنا من العقاب الأبدي ويرحب بنا في محضره الأبدي (مرقس١٠: ٤٥؛ ١تيموثاوس٢: ٦؛ عبرانيين٩: ١٥؛ لوقا١٦: ٩؛ يوحنا١٤: ٢).

ب) **الخدمة** كسفراء عن المسيح لنساعد الآخرين على اتخاذ نفس القرار (٢كورنثوس٥: ١٧-٢١؛ متى٢٨: ١٩).

ج) **التعلم** من ضيقاتنا لكي نعزّي الآخرين ممن هم في ضيق (٢كورنثوس١: ٣، ٤)، وإدراك أن ضيقاتنا تـُزيد من قدرتنا على الاستمتاع بالأبدية (٢كورنثوس٤: ١٥- ٥: ١؛ ٢بطرس١: ٥- ١١).

٤- **الأخلاق: كيف يجب أن نعيش؟** بما أن الله أحبنا أولاً، علينا أن نحبّه ونحب الآخرين (رومية٥: ٨؛ ١يوحنا٤: ١٩-٢١). والحقيقة أن واجبَ الإنسانِ كلـَّه أن يتقي الله ويحفظ وصاياه (جامعة١٢: ١٣، ١٤). وهو ما يتضمن تلمذة جميع الأمم (متى٢٨: ١٩) والتمتع بما يعطينا الله من طـَيِّبات (١تيموثاوس٦: ١٧).

٥- **المصير: إلى أين نحن ذاهبون؟** إن عدل الله اللامحدود يقتضي أن يعاقبنا على خطايانا، ولكنه نظرًا لمحبته اللامحدودة أخذ العقوبة على نفسه (إشعياء٥٣: ٤، ١٠، ١٢؛ رومية٣: ٢٦؛ ٢كورنثوس٥: ٢١؛ ١بطرس٢: ٢٤). وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي بمقتضاها يبقى عادلاً وفي الوقت نفسه يبرِّر الخطاة (يوحنا١٤: ٦؛ رومية٣: ٢٦). إن هبة خلاصه من العقاب الأبدي مقدَّمة مجانـًا للعالم أجمع (يوحنا٣: ١٦؛ أفسس٢: ٨، ٩؛ رؤيا٢٢: ١٧). فلا يمكننا أن نكتسبها بالأعمال الصالحة ولا بأي استحقاق من أي نوع. والله يريد أن الجميع يخلصون من العقاب الأبدي الذي نستحقه جميعًا (١تيموثاوس٢: ٤؛ ٢بطرس٣: ٩). ولكن بما أنه لا يقدر أن يقهرنا على حبه (الحب القهري تَناقض)، ينبغي على كلٍّ منا أن يختار لنفسه مَنْ يعبد (يشوع٢٤: ١٥؛ يوحنا٣: ١٨).

مصيرك

مَنْ ستَعْبُد؟ الله يترك ذلك الاختيار بين يديك. فالحب لا يعرف سبيلاً آخر. ولكي يحترم الله حرية اختيارك جعل أدلة المسيحية مقنعة دون أن تكون قاهرة. فإن أردت أن تخمد الأدلة المحيطة بك من كل جانب أو تتجاهلها (رومية١: ١٨-٢٠)، بما فيها الأدلة المطروحة في هذا الكتاب، لك الحرية في ذلك. ولكن ذلك الفعل سيكون فعلاً إراديًا لا عقلانيًا. **تستطيع أن**

ترفض المسيح، ولكنك لا تستطيع أن تقول بصدق إن الأدلة لا تكفي للإيمان به.

وهو ما عَبَّرَ عنه سي. إس. لويس خير تعبير عندما كتب: "في النهاية سينقسم البشر إلى نوعين فقط: مَنْ يقولون لله: "لتكن مشيئتك"، ومَنْ يقول لهم الله في النهاية: "لتكن مشيئتكم". كل مَنْ هم في الجحيم يختارونه. ولولا ذلك الاختيار الإرادي لما كان هناك جحيم. وما من نفس ترغب في الفرح بجدية وباستمرار يمكن أن يضيع منها هذا الفرح. فمَنْ يطلب يجد. ومَنْ يقرع يُفتح له".[٥]

إن يسوع المسيح يمسك بالباب مفتوحًا. فكيف تدخل منه؟ لقد كتب بولس: "لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع، وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات، خلصت. لأن القلب يؤمَن به للبر، والفم يُعترَف به للخلاص" (رومية١٠: ٩، ١٠).

أنت تقول: "إني أؤمن أن يسوع قام من الأموات". حسنـًا. ولكن مجرد الإيمان أن يسوع قام من الأموات لا يكفي، بل يجب أن تضع ثقتك **فيه**. يمكنكَ أن تؤمن **أن** فتاةً ما ستكون شريكة حياة رائعة لك، ولكن هذا لا يكفي لجعلها زوجة لك. ينبغي أن تتجاوز ما هو عقلاني وتنتقل إلى الإرادي، ينبغي أن تضع ثقتك **في** تلك الفتاة وتقول "أنا أثق فيكِ". وهو ما ينطبق على علاقتك بالله. فالثقة فيه ليست مجرد قرار عقلي بل قرار قلبي. كما قال أحدهم ذات مرة: "المسافة بين السماء والجحيم حوالي ٤٥ سنتيمترًا، إنها المسافة بين الرأس والقلب".

فماذا يحدث إذا اخترت بحريتك **ألا** تدخل من الباب الذي يمسكه يسوع مفتوحًا؟ لقد قال يسوع إنك ستبقى تحت الدينونة: «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم. الذي يؤمن به لا يدان، **والذي لا يؤمن قد دين،** لأنه لم يؤمن باسم ابنِ الله الوحيد» (يوحنا٣: ١٧، ١٨). وهو ما يعني أنك ستظل مدانـًا ومنفصلاً عن الله للأبد. فالله سيحترم اختيارك ويقول لك: "لتكن **مشيئتك**".

تقول: "الله لا يلقي أحدًا في جهنم". صحيح. فإن رفضت يسوع، أنت تلقي بنفسك في جهنم.

تقول: "إن الله سيحول غير المؤمنين إلى عدم". لا. لن يفعل ذلك. جهنم حقيقة. والواقع أن يسوع تَحَدَّثَ عن جهنم أكثر مما تحدث عن السماء. فالله لن يحول غير المؤمنين إلى عدم لأنه لن يدمر كائنات مخلوقة على صورته، وإلا كان ذلك هجومًا على نفسه. (ما رأيك في أب أرضي قتل ابنه لمجرد أن الابن اختار ألا يفعل ما أراده الأب أن يفعله؟) إن الله من فرط محبته لا يمكن أن يدمر مَن لا يريدون أن يكونوا في محضره. واختياره الوحيد أن يضع مَن

يرفضونه في الحَجْر الصحي. وهذا ما يفعله الجحيم، إنه يحجر على الشر لأنه مُعْدٍ.

تقول: "الله سيُخَلِّص الجميع". كيف؟ رغمًا عنهم؟ إن البعض يُفَضِّلون أن يهلكوا على أن يتغيروا. إنهم يفضلون أن يستمروا في تمردهم على أن يُصْلَحوا. ومن ثم يقولُ الله: "ليكن لك ما تريد. يمكنك أن تستمر في عصيانك، ولكنك ستوضع في الحَجْر حتى لا تلوثَ سائر خليقتي". فضلاً عن ذلك، إنه ليس من قبيل المحبة أن يرسل الله أناسًا لا يحتملون أن يقضوا ساعة واحدة في تسبيحه يوم الأحد إلى مكان يسبحونه فيه للأبد. فهذا سيكون "جحيمًا" بالنسبة لهم!

تقول: "لا أستطيع أن أصدق أنه لا يوجد إلا طريق واحد لله". ولمَ لا؟ هل تحتاج إلى أكثر من طريق واحد للدخول إلى مبنى؟ لقد أثبتنا فلسفيًا وكتابيًا أن يسوع هو الطريق الوحيد للمصالحة بين العدل المطلق والمحبة المطلقة. وإن لم يكن ذلك صحيحًا، إذَن الله أرسل يسوع ليموت ميتة بشعة بلا سبب.

تقول: "ولكن ماذا عن أولئك الذين لم يسمعوا مطلقًا؟" لماذا يؤثر ذلك على قرارك **أنت**؟ أنت **سمعت**.

"لأني لا أستطيع أن أؤمن بإله يعذب الناس في جهنم لمجرد أنهم لم يسمعوا بيسوع". مَن قال إن الله يفعل ذلك؟ أولاً، الله لا يعذب أحدًا. فالجحيم ليس مكانَ تعذيبٍ مفروضٍ من الخارج، ولكنه مكان **عذاب** فرضه الناس على أنفسهم (لوقا١٦: ٢٣، ٢٨). مؤكدٌ أن الذين في الجحيم لا يرغبون فيه، ولكنهم **يختارونه بإرادتهم**. إن الجحيم مكان شنيع، ولكن أبوابه مغلقة من **الداخل**. ثانيًا، قد يختار الناس الجحيم سواء سمعوا بيسوع أو لم يسمعوا به. فالجميع يعرفون بوجودِ الله من السماء المرصعة بالنجوم فوقهم والقانون الأخلاقي بداخلهم (رومية١: ١٨-٢٠؛ ٢: ١٤، ١٥). ومَنْ يرفضون ذلك الإعلان الطبيعي سيرفضون يسوع أيضًا. إلا أن مَنْ يطلبون الله بصدق، سيكافأون (عبرانيين١١: ٦). وبما أن الله يريد أن الجميع يخلصون (أكثر مما تريد أنت – ٢بطرس٣: ٩)، إذَن هو يضمن أنَّ طالبيه يحصلون على ما يحتاجون من معلومات. وبما أن الله عادل (تكوين١٨: ٢٥؛ مزمور٩: ٨؛ رومية٣: ٢٦)، إذَن ما من أحد يجب أن يذهب إلى السماء سيذهب إلى جهنم، والعكس. وكما يقول سي. إس. لويس: "في الوقت الحالي إن كنت قلقًا على مَن هم بالخارج، فإن أكثر الأفعال حماقةً هو أن تبقى أنت نفسك بالخارج. إن المسيحيين الحقيقيين هم جسد المسيح، الكائن الحي الذي يعمل

من خلاله. وكل إضافة لذلك الجسد تُمَكِّنه من أن يعمل المزيد. فإن أردت أن تساعد الذين بالخارج، ينبغي أن تضيف خليتك الصغيرة لجسد المسيح، الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يساعدهم. فَبَتْر أصابع شخص لن يساعده على القيام بمزيد من العمل".[٦]

تقول: "أنتم المسيحيين لا تريدون إلا أن تخيفوا الناس بجهنم". لا، إننا لا نريد إلا أن يعرف الناس الحق. وإن كان ذلك يخيفهم، فربما هذا هو ما يجب أن يحدث. مؤكد أننا لا نبتهج بما يقوله الكتاب المقدس عن الجحيم. وكم نتمنى لو لم يكن حقيقة. ولكن يسوع الذي هو الله علَّم به، ولأسباب وجيهة، لأنه يبدو أنه ضروري. وذلك لأنه بلا جحيم، لا تُردع المظالم في هذا العالم، ولا تُحترَم اختيارات البشر الحرة، والخير الأعظم للفداء لا يتمّم أبدًا. فإن لم تكن هناك سماء نسعى إليها وجهنم نهرب منها، لا شيء في هذا الكون يحمل أي معنى أعلى: اختياراتك، مسراتك، آلامك، حياتك وحياة أحبائك لا تعني شيئًا في نهاية الأمر. ونحن نكافح في هذه الحياة دون أي سبب أسمى، والمسيح مات بلا سبب. وبلا سماء ونار، يصبح هذا الكون ذو التصميم المذهل دَرَجًا يصعد إلى اللامكان.

ويقول الملحد: "وماذا في ذلك؟ محتمَل أن هذا الكون هو **حقًا** دَرَج يصعد إلى اللامكان. فرغبتك في أن يكون للحياة معنى لا تعني أن لها معنى". صحيح. ولكن الأمر ليس مجرد أننا **نرغب** أن يكون للحياة معنى، فنحن عندنا **أدلة** على أن للحياة معنى.[٧]

ونختم بأعظم خبر على الإطلاق يمكن لأي شخص أن يسمعه. إن اختياراتك مهمة بحق. حياتك لها معنى أسمى. وبفضل المسيح، ما من أحد مُجبرَ على الذهاب إلى الجحيم، ولكن كل إنسان يمكنه أن يقبل عطية خلاصه الأبدي المجانية. وهو أمر لا يتطلب أي جهد على الإطلاق. هل يتطلب شيئًا من الإيمان؟ نعم، ولكن كل اختيار، حتى اختيار رفض المسيح، يتطلب إيمانًا. وبما أن الأدلة تُثبت بما لا يدع مجالاً للشك المنطقي أن الكتاب المقدس صحيح، إذَن قبول المسيح هو الاختيار الذي يتطلب **أقل** قدر من الإيمان. والاختيار لك. هل لديك من الإيمان ما يكفي لتصديق أي شيء آخر؟

تقول: "ما زال عندي شكوك وأسئلة". وماذا في ذلك؟ نحن أيضًا عندنا شكوك وأسئلة. كل شخص عنده شكوك وأسئلة. وكيف لا يكون الحال هكذا؟ فبصفتنا مخلوقات محدودة يجب ألا نتوقع أن نفهم كل شيء عن الله غير المحدود والكيفية التي يُجري بها الأمور. إن بولس نفسه لم يفهم هذه الأمور (رومية١١: ٣٣-٣٦)، والكثير من كُتَّاب العهد القديم عبرّوا

عن شكوككهم، بل شكّوا في الله نفسه.* ولكن بما أننا مخلوقات محدودة لا بد أن نتخذ قراراتنا على أساس الاحتمالات، يجب أن نصل لنقطة ندرك فيها أن الأدلة تُرَجِّح كفة دون الأخرى. فلن نصل أبدًا إلى **كل** الإجابات. ولكن كما رأينا على صفحات هذا الكتاب، الإجابات المتوفرة أكثر من كافية بما يجعلنا نثق في صدقِ الله.

وأخيرًا، هل فَكَّرْت أن تشك في شكوكك؟ فقط اسأل نفسك: ''هل من المنطقي أن أشك في صحة المسيحية في ضوء كل هذه الأدلة؟'' غالبًا لا. الحقيقة أنه **في ضوء الأدلة يجب أن يكون عندك شكوك أكثر في الإلحاد وفي كل منظومة عقائدية أخرى بخلاف المسيحية.** وذلك لأنها ليست منطقية. ولكن المسيحية منطقية. إذَن لتبدأ بالشك في شكوكك واقبل المسيح. **فتصديق أي شيء آخر يتطلب إيمانًا مفرطًا!**

* للاطلاع على أمثلة لأسفار كتابية حيث يُعَبِّر الأشخاص عن شكوككهم وأسئلتهم بخصوص الله، انظر سفر أيوب، والكثير من المزامير، والجامعة، ومراثي إرميا.

ملحق ١

إن كان الله موجودًا، فلماذا الشر؟

الملحد: إن كان هناك حقـًا إله كلي الصلاح وكلي القدرة خلق العالم ويحفظه، فلماذا يسمح بالشر؟

المسيحي: كيف تعرف ما هو الشر إلا إذا عرفت ما هو الخير؟ وكيف تعرف ما هو الخير إلا إذا وُجِدَ مقياس موضوعي للخير أعلى منك؟

الملحد: لا تحاول التهرب من السؤال.

المسيحي: أنا لا أحاول أن أتهرب من السؤال. ولكني أبيِّن لك ببساطة أن شكواك تفترض مسبقـًا أن الله موجود. فالواقع أن وجود الشر لا يدحض وجود الله. ربما يُثبت وجود شيطان، إلا أنه لا يثبت عدم وجودِ الله.

الملحد: لعبة ماهرة، ولكني لست مقتنعًا.

المسيحي: قد لا تكون مقتنعًا. ولكن شكواك ما زالت تفترض مسبقـًا وجود الله.

الملحد: لغرض هذه المناقشة، افترض أني أوافقك أن الله موجود. هل تجيب عن السؤال الآن؟

المسيحي: بالتأكيد. رائع هذا التقدم الذي تحرزه.

الملحد: تَذَكَّر أنه لأجل المناقشة فقط. إذَن لماذا إلهك المدعو "كلي القدرة" لا يوقف الشر؟

المسيحي: هل حقـًا تريده أن يوقف الشر؟

الملحد: طبعًا!

المسيحي: ماذا لو بدأ بك؟

الملحد: كن جادًا.

المسيحي: أنا جاد فعلاً. إننا دائمًا نتكلم عن إيقافِ الله للشر، ولكننا ننسى أنه لو فعل، سيوقفنا نحن أيضًا. فكلنا نفعل الشر.

الملحد: يا رجل! نحن لا نتكلم عن الخطايا البسيطة التي نفعلها أنا وأنت، ولكننا نتكلم عن الشر الحقيقي، مثلما فعل هتلر.

المسيحي: لست أتكلم عن درجة الشر، بل مصدر الشر. مصدر الشر هو قدرتنا على الاختيار الحر. فإن كان يجب أن يقضي الله على الشر، يجب كذلك أن يقضي على حرية الاختيار، وعندئذٍ لن تكون عندنا القدرة على حب الخير أو فعله. ولن يكون هذا العالم عالمًا أخلاقيًا.

الملحد: ولكن حرية الاختيار ليست مصدر كل الشر. فلماذا يموت الرُضع؟ لماذا تحدث الكوارث الطبيعية؟

المسيحي: الكتاب المقدس يُرجع كل ذلك إلى سقوط الإنسان. فما من أحد بريء بحق لأننا جميعًا أخطأنا في آدم (رومية٥: ١٢)، والنتيجة أننا نستحق الموت (رومية٦: ٢٣). فالكوارث الطبيعية والموت في أعمار مبكرة كلها نتيجة مباشرة للـَّعنة التي أتت على الخليقة بسبب سقوط الجنس البشري (تكوين٣؛ رومية٨). وهذا العالم الساقط لن يُعاد لوضعه الصحيح إلا عندما يعود المسيح (رؤيا٢١، ٢٢). ولذلك، ما من أحد يُمنَح ضمانـًا بأن يعيش حياة خالية من التعب، ولا عمرًا مديدًا يبلغ سبعين عامًا.

الملحد: يا سلام! ما أسهل هذا الكلام! عندما لا تجد مخرجًا تسرع للكتاب المقدس وتخبرنا أن الله سيصحِّح كل شيء في النهاية! لا يعنيني المستقبل. إني أريد نهاية للألم والمعاناة الآن. لماذا لا ينهي الله كل ذلك؟

المسيحي: سينهيه ولكن ليس طبقـًا لجدولك. فكونُ الله لم يُنهِ الشر **حتى الآن** لا يعني أنه لن ينهيه أبدًا.

الملحد: ولكن لماذا لا يعود المسيح الآن لينهي كل هذا الألم؟ إن مجموع الألم البشري هائل.

المسيحي: أولاً، لا أحد يختبر "مجموع الألم البشري". فإن كانت درجة الحرارة في مانهاتن ٢٧ درجة مئوية، وفي بروكلين ٢٩ درجة مئوية، وفي كوينز ٢٧ درجة مئوية، فهل أي شخص في نيويورك يمكن أن يشعر بحرارة تبلغ ٨٣ درجة مئوية؟

الملحد: لا.

المسيحي: هذا صحيح. كل شخص يختبر ألمه فقط.

الملحد: ولكن كل هذا لا يخبرني لماذا لا ينهي الله كل هذا الألم الآن. لماذا ينتظر؟

المسيحي: إن الله بإمكانه أن ينهي الشر الآن إن أراد. ولكن ألم يخطر على بالك أنه من المحتمل أن الله يريد أن يحقِّق أهدافًا أخرى في وجود الشر؟

الملحد: مثل ماذا؟

المسيحي: أول شيء، يريد مزيدًا من الناس يختارون السماء قبل أن يَسْدِل الستارَ على هذا العالم. ويبدو أن بولس يوضح أن يسوع سيأتي ثانيةً بعد أن "يكتمل عدد" مَنْ سيؤمنون به (رومية١١: ٢٥).

الملحد: حسنًا، بينما ينتظرُ الله "اكتمال عدد" المُخَلَّصين، هناك آخرون يتألمون!

المسيحي: نعم، هم يتألمون. وهو ما يعني أن المسيحيين عليهم مهمة يجب أن يقوموا بها. لقد نلنا امتياز مساعدة المتألمين. نحن سفراء للمسيح هنا على الأرض.

الملحد: جميل، ولكني لو كنت أعاني أُفضِّل أن يساعدني الله لا أنت.

المسيحي: لو منع الله الألم كلّما واجهنا مشكلة، لأصبحنا أشقى مخلوقات الكون وأكثرها تمركزًا في الذات. ولن نتعلم أبدًا من الألم.

الملحد: نتعلم من الألم! ماذا تقول؟

المسيحي: لقد لمستَ سببًا آخر يفسِّر عدم إنهاءِ الله للشر الآن. هل يمكن أن تذكر لي درسًا واحدًا استمر في حياتك تعلمته من اللذة؟

الملحد: أمهِلني دقيقة.

المسيحي: أمهلك ساعة، ولكني أشك أنك ستأتي بالكثير. إن فكَّرت في الأمر، ستكتشف أن كل ما تعلمت تقريبًا من دروس قيمة نتج من صعوبة اجتزتها في حياتك. وفي معظم الحالات، قسوة الظروف تُعَلِّم في حين أن سهولة الظروف تخدع. وفي الحقيقة أنت لا تتعلم دروسًا من الألم فحسب، بل الألم يكاد يكون السبيل الوحيد لتنمية الفضائل.

الملحد: ماذا تقصد؟

المسيحي: لا يمكنك أن تنمي فضيلة الشجاعة إلا في وجود الخطر. ولا يمكنك أن تنمي فضيلة المثابرة إلا إذا واجهت عواقب في الطريق. ولن تتعلم أن تكون خادمًا إلا في وجود شخص تخدمه. ولن تكون حنونًا إن لم يكن هناك شخص متألم أو محتاج. إنها الحكمة القديمة: "مافيش حلاوة من غير نار".

الملحد: ولكني لن أحتاجَ كل تلك الفضائل لو حَجَرَ الله على الشر الآن.

المسيحي: ولكن بما أن الله عنده أسبابه لعدم الحجر على الشر الآن، فأنت تحتاج أن تنمي بعض الفضائل لهذه الحياة وللحياة الآتية. فهذه الأرض وطن غير مريح، ولكنها صالة تدريب ممتازة للحياة الآتية.

الملحد: أنتم المسيحيين دائمًا ما تقفزون إلى الحياة الآتية. كل تفكيركم مُنْصَبٌ على السماء لدرجة تجعلكم عديمي النفع للأرض.

المسيحي: ربما يكون تفكيرنا مُنْصَبًا على السماء، ولكننا نعلم أن ما نفعله على الأرض مهم في الأبدية. فالفضائل التي ينميها المؤمن بالألم تُزيد قدرته على الاستمتاع بالأبدية. وبولس يقول إن «خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا» (٢كورنثوس٤: ١٧، قارن رومية٨: ١٨).

الملحد: كيف تساعدني الصعوبات التي أجتازها هنا أن أسعد في مكان لن يكون فيه أي ألم أساسًا؟

المسيحي: أنت تحب كرة القدم، أليس كذلك؟

الملحد: شاهدت بضع مباريات.

المسيحي: ما شعور كل لاعب في الفريق الفائز بكأس السوبر بول بعد المباراة؟

الملحد: يشعر بالسعادة طبعًا!

المسيحي: هل كابتن الفريق الفائز الذي فاز هو أيضًا بجائزة أفضل لاعب، يستمتع بالفوز أكثر من الظهير الثالث الذي لم يحرز هدفًا واحدًا طيلة العام؟

الملحد: أظن ذلك.

المسيحي: بالطبع. فرغم أن لاعب الظهير الثالثِ سعيد لأنه في الفريق الفائز، فالفوز أطيب مذاقًا عند الكابتن الذي فاز بجائزة أفضل لاعب لأنه ساهم في الفوز وثابر طوال العام حتى يصل إلى هذا المستوى. وبإصراره وسط صعوبات اللعب وآلامه، زاد من قدرته على

الاستمتاع بالفوز الذي ازداد حلاوةً بجائزة أفضل لاعب.

الملحد: وما علاقة كرة القدم بالسماء؟

المسيحي: السماء ستكون مثل غرفة تغيير ملابس الفريق الفائز (ولكن بدون الرائحة الكريهة!). كلنا سنسعد بوجودنا هناك، ولكن البعض سيكونون أقدر على الاستمتاع بها وسينالون مكافآت أكثر من غيرهم. ومهما كان من أمر، عدالةُ الله تقتضي درجات من المكافآت في السماء كما سيكون هناك درجات من العقاب في النار.

الملحد: إذَن تقصد أن الحياة مثل بطولة السوبر بول؟

المسيحي: إلى حد ما. وهي تشبه السوبر بول في أن لها قواعد، وحَكَمًا، ومكافآت. ولكن الحياة ليس فيها متفرجون، الكل على أرض الملعب، ونحن نعرف الفائز مسبقـًا. المسيح سيفوز، وأي شخص يمكنه أن يكون من الفائزين بالانضمام إلى الفريق، بصرف النظر عن قدراته. ورغم أن كل مَنْ في الفريق سيستمتع بموكب الفوز، فالبعض سيكونون أكثر تقديرًا له نظرًا لما اختبروه من صعوبات أثناء المباراة وما ينالون من مكافآت لأنهم لعبوا حسنـًا. وهو ما يعني أن الشعور بالفوز يكون أعظم كلما كانت المعركة أشد.

الملحد: إذَن أنت تعني أن الشر له غرض يحمل تداعيات في الأبدية.

المسيحي: نعم.

الملحد: لماذا تصر أن تضع كل شيء في ضوء الأبدية؟

المسيحي: لأن الفترة التي سنقضيها جميعًا بعد الموت أطول كثيرًا من فترة حياتنا! والكتاب المقدس يُعَلـِّمنا أن ننظر للأبدي، والحياة لا تكتسب معنى إلا في ضوء الأبدية. فإن لم تكن هناك أبدية، فليس هناك غرض نهائي لأي شيء، سواء أكان مسرة أو ألمًا.

الملحد: افترض أنه ليس هناك أبدية. افترض أننا نعيش ونموت، وهذا كل ما في الأمر.

المسيحي: ممكن. ولكن **ليس عندي من الإيمان ما يكفي لتصديق هذه الفكرة.**

الملحد: ولمَ لا؟

المسيحي: ألم تقرأ هذا الكتاب؟

الملحد: لا، لقد قفزت إلى الملحق مباشرة.

المسيحي: أنت هكذا، أليس كذلك؟ لا تريد أن تلعب المباراة. تريد أن ترى النتيجة النهائية فقط.

الملحد: أظن أني أعاني من مرض الإشباع الفوري الأمريكي.

المسيحي: وأغلب الظن أن هذا هو ما يجعلك تجد صعوبة في إدراكِ قيمة الألم، لكن "مافيش حلاوة من غير نار".

الملحد: عندك حق. قراءة هذا الكتاب مؤلمة للغاية. فهو طويل جدًا.

المسيحي: كان من الممكن أن يقصر عن ذلك لولا أننا مضطرون لتناول كل تلك المحاجات المجنونة التي تثيرونها أنتم الملحدين. ثم إن عندك وقتًا للقراءة. فأنت لست مشغولاً صباح أيام الأحد.

الملحد: يمكنني القيام بالكثير من الأشياء الأقل إيلامًا صباح الأحد.

المسيحي: اسمع، أنا أعرف أن قراءة هذا الكتاب قد تكون مؤلمة، ولكن الأكثر إيلامًا أن ترفض الخلاصة التي يتوصل إليها. إن أردت أن تتعرف على كل الحجة المؤيدة للمسيحية يجب أن تقرأ هذا الكتاب من أوله إلى آخره. والقضية مطروحة بترتيب منطقي. فكل فصل مبني على سابقه.

الملحد: موافق. سأقرأ الكتاب. ولكن في الوقت الحالي، دعنا نعود إلى مسألة الشر. إن كانت هناك أبدية، إذَن بعض الشرور في هذا العالم قد يكون لها غرض أبدي. ولكن مؤكد أن بعض الأفعال الشريرة في هذا العالم ليس لها أي غرض على الإطلاق.

المسيحي: كيف تعرف؟

الملحد: شيء واضح! فما الغرض الخيِّر الذي يمكن أن ينتج من الهجمات الإرهابية في ١١ أيلول/سبتمبر مثلاً؟

المسيحي: رغم أني أتمنى لو لم تقع هذه المأساة، فنحن نعرف ببعض الأمور الخيِّرة التي نشأت من تلك الأحداث البشعة. مثلاً، اتحدنا معًا كأمة وأخذنا نساعد مَنْ يحتاجون للمساعدة، وعزمنا على محاربة شر الإرهاب. وقد دفعتنا الصدمة أن نمعن التفكير في أسئلة الحياة الجوهرية، والبعض رجعوا للمسيح نتيجة لهذه الأحداث. فكما قال سي. إس. لويس: الألم هو "مكبر الصوت" الذي يستخدمه الله "ليوقظ عالَمًا أصم".[1] ومؤكد أن أحداث ١١ سبتمبر أيقظتنا.

الملحد: نعم، يمكنك أن تجد جانبًا مضيئًا في كل شيء تقريبًا، ولكن هذا "الجانب المضيء" يستحيل أن يفوق الألم والمعاناة.

المسيحي: كيف لك أن تعرف؟ ما لم تكن كليَّ المعرفة وتتمتع بمنظور أبدي، كيف تعرف أن أحداث ١١ سبتمبر لن تعمل معًا للخير في النهاية؟ محتمل أن الكثير من الأشياء الخيِّرة ستحدث في حياة الأفراد نتيجةً لهذه الكارثة، ولن نسمع بها أبدًا. والحقيقة أن النتائج الإيجابية قد تأتي بعد أجيال من الآن دون علم أولئك الذين سيجنونها.

الملحد: هذا هروب من واقع مرير.

المسيحي: لا. إنه ببساطة اعتراف بحدودنا وإقرار بمعرفةِ الله غير المحدودة ومقاصده غير المنظورة (رومية١١: ٣٣-٣٦). فنحن لا نستطيع أن نرى المستقبل الأرضي، ناهيك عن الأبدية في السماء. فكيف يمكننا أن نقول إن الناتج الأبدي النهائي من أحداث ١١ سبتمبر لن يعمل للخير؟ ونحن نعرف فعليًا بعض الأشياء الخيِّرة التي نتجت منه. وعدم قدرتنا على معرفة سبب أو غرض صالح نهائي لها لا يعني أن الله غير المحدود ليس عنده غرض.

الملحد: لو أطلعني الله على أسبابه، قد أستطيع أن أصدقك.

المسيحي: لقد جرَّب أيوب ذلك الأسلوب قَبْلَك. فبعد أن سأل الله عن سبب معاناته، حيَّره الله بأسئلة عن عجائب الخليقة (أيوب٣٨-٤١). وكأن الله يقول له: "أيوب، لا تستطيع حتى أن تفهم كيف أدير العالم الطبيعي الذي **تستطيع** أن تراه، فكيف يمكنك أن تفهم العالم الأخلاقي الأكثر تعقيدًا بما لا يقاس الذي **لا تستطيع** أن تراه، عالم فيه تتفاعل نتائج مليارات القرارات الحرة التي يتخذها البشر يوميًا؟" حقًا يستحيل علينا أن نستوعب هذا التعقيد. بالمناسبة، هل شاهدت فيلم "حياة مدهشة" *It's a Wonderful Life*؟

الملحد: تقصد فيلم چيمي ستيوارت *Jimmy Stewart* الذي يُعرض في الكريســـ... أقصد بداية الشتاء؟

المسيحي: نعم. چيمي ستيوارت يمثل دور چورچ بيلي الذي ييأس من الحياة لأن صفقاته التجارية تعثَّرت ويبدو أن حياته تنهار. وينقذه من الانتحار على آخر لحظة ملاك يعرض له كيف كان يمكن أن تكون حياة الآخرين لو لم يولد. ويرى أن الكثيرين في مدينته كانوا سيعيشون حياة مأساوية. إلا أن چورچ لم يعرف ذلك طيلة حياته. فهو

لم يدرك مطلقًا ما كان لحياته من أثر مذهل على الآخرين. ومن هنا يأتي العنوان "حياة مدهشة".

الملحد: ها! خدعة!

المسيحي: يا رجل. لقد فهمت الفكرة، أليس كذلك؟

الملحد: نعم، فهمت الفكرة: نحن لا نعرف الأثر الذي يمكن أن ينتج عن أي شخص أو حدث على المدى البعيد، وخاصةً في وجود العديد من القرارات المتفاعلة التي يتخذها البشر.

المسيحي: نعم، وحتى القرارات التي تهدف للشر يمكن أن تتحوَّل للخير (تكوين٥٠: ٢٠). محتمل أن الكثير من الناس الآن أو أجيال من الآن سيأتون إلى المسيح بسبب آثار الشر المباشرة أو غير المباشرة.

الملحد: ولكنها تبدو حجة مبنية على الجهل *argument from ignorance*.

المسيحي: لا. فالأمر ليس أننا لا نملك معلومات عن سبب حدوث أشياء سيئة. ولكننا نعلم أننا نعيش في عالم ساقط، ونعلم أن الخير يمكن أن يَنتج من الشر. لذا، نحن نعلم أنه من الممكن أن يكون عند الله سبب وجيه لوقوع الأحداث السيئة، حتى إن كنا لا نعلم تلك الأسباب. ونحن نعلم أنه يستطيع أن يُخرج من الشر خيرًا. إذَن فهي ليست حجة مبنية على الجهل، ولكنه استنتاج منطقي مبني على ما نعرفه من معلومات. ورغم أننا لا نعلم سبب كل حدثٍ سيء **على وجه التحديد**، فنحن نعلم سبب عدم علمنا: نحن لا نعلم بسبب محدوديتنا البشرية.

الملحد: وما رأيك في إجابة المعلم اليهودي كوشنر *Kushner* على السؤال؟ أنت تعرف أنه صاحب كتاب "عندما تحل السيئات بالصالحين" *When Bad Things Happen to Good People*.

المسيحي: أعتقد أن إجابته خاطئة.

الملحد: خاطئة؟ لماذا؟

المسيحي: لأنه يقول إن الله لا يملك من القدرة ما يُمَكِّنه من التغلب على الشر الموجود على الأرض. لذا، يجب أن نغفر لله سماحه بالشر.

الملحد: ما الخطأ في ذلك؟

المسيحي: هناك أدلة قوية على أن قدرة الله غير محدودة. فالله يوصَف ٥٦ مرة في الكتاب المقدس بأنه "القدير"، ويوصف بأنه كلي القدرة بعدة تعبيرات أخرى. ونحن نعرف أيضًا من الأدلة العلمية أنه خلق هذا الكون من العدم (ألقِ نظرة على الفصل الثالث من هذا الكتاب). فالإله المحدود الذي يؤمن به المعلم اليهودي كوشنر لا يتفق مع الحقائق.

الملحد: إن كانت قدرةُ الله غير محدودة كما تقول، فلماذا إذَن يسمح بحدوث أشياء سيئة للأشخاص الصالحين؟

المسيحي: لقد أوضحنا أن الألم والمعاناة يأتيان بنتائج صالحة. ولكن يجب أن نوضح أيضًا أن السؤال يفترض افتراضًا خاطئـًا؟

الملحد: ما هو؟

المسيحي: ليس هناك أناس **صالحون!**

الملحد: نعم؟

المسيحي: أنا أعني ما أقول. بعض الناس أفضل من غيرهم، ولكن ليس أحد صالحًا بحق. كلنا نميل بالطبيعة إلى الأنانية. وكلنا نرتكب الخطايا بشكل اعتيادي.

الملحد: ولكن أعمالي الصالحة أكثر من السيئة.

المسيحي: بمقياس مَنْ؟

الملحد: بمقياس المجتمع. فأنا مواطن أحترم القانون، ولستُ قاتلاً ولا لصًا.

المسيحي: تلك هي المشكلة. نحن نعتبر أنفسنا صالحين مقارنةً بالأردياء فقط. إننا نقيِّم أنفسنا بالمقارنة مع الآخرين لا بالمقارنة مع مقياس مطلق للصلاح. بالمناسبة، هل سبق وسرقت أي شيء؟

الملحد: الحقيقة، نعم.

المسيحي: هل سبق وكذبت في أي شيء؟

الملحد: لا.

المسيحي: أنت تكذب.

الملحد: آه. واضح أني لن أستطيع أن أخدعك.

المسيحي: إذَن أنت لص كاذب.

الملحد: ولكن ذلك لا يعني أنا سيء تمامًا.

المسيحي: لا، ولكنه يعني كذلك أنك لست صالحًا تمامًا. فكِّر فيها: أن تكون سيئًا أسهل كثيرًا من أن تكون صالحًا، فمَيْلُك الطبيعي يتجه نحو الأنانية أكثر مما يتجه نحو الكرم. وكلنا نحمل هذه الطبيعة البشرية الفاسدة. وكما قال أغسطينوس: "كلنا مولودون بميل نحو الخطية وبحتمية الموت".[٢] فهذا الميل متأصل فينا من الولادة. وهو ما يفسِّر السلوك الطبيعي للطفل عندما ينتزع الشيء ويصرخ: "بتاعي". ويفسِّر كذلك قول چيمز ماديسون *James Madison*: "لو كان البشر ملائكة، لما كانت هناك حاجة للحكومات".[٣]

الملحد: إذَن كوشنر يفترض افتراضات خاطئة بشأن طبيعة الإنسان وطبيعةِ الله.

المسيحي: بالضبط. فالسؤال ليس "لماذا تحل السيئات بالصالحين؟" بل "لماذا تحدث الصالحات للأردياء؟"

الملحد: إن كان الله فعلاً كلي القدرة كما تقول، فما زلت لا أفهم لماذا لم يمنع هجمات ١١ سبتمبر. فلو كنت تعلم أنها ستحدث وكنت تملك من القدرة ما يمنعها، أما كنت ستمنعها؟

المسيحي: بلى.

الملحد: إذَن أنت أفضل من الله!

المسيحي: لا، إن منعتُ هجمات ١١ سبتمبر، أكون بذلك قد منعتُ الشر. ولكن الله صاحب المنظور الأبدي غير المحدود يسمح باختيارات شريرة وهو عالم أنه يستطيع في النهاية أن يصلحها. ولكننا نحن لا نستطيع أن نصلح هذه الاختيارات. لذا، نحاول أن نمنعها جميعًا.

الملحد: نعم ولكن بناءً على عقيدتك المسيحية نفسها، الله لا يُصلح كل الاختيارات الشريرة في النهاية. فمهما كان، البعض يذهبون إلى الجحيم.

المسيحي: نعم، ولكن ذلك لأن الله لا يستطيع أن يأتي بالخير الأبدي إلا لمن يَقبلون هذا الخير. البعض يتجاهلون الحقائق أو يختارون أن يلعبوا المباراة على نحو يأتي لهم بالهزيمة. وبما أن الله لا يستطيع أن يجبرهم على أن **يختاروا بحرية** أن يلعبوا المباراة على النحو الصحيح، فالخير النهائي لا يأتي إلا لمن يختارونه. وهو ما يفسر قول بولس:

«ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله، الذين هم مدعوون حسب قصده» (رومية٨: ٢٨). لاحظ أنه لا يقول إن ''كل الأشياء خير''. ولكنه يقول إن كل الأشياء تعمل معًا **لأجل خير الذين يحبونه**.

الملحد: إذَن كيف عملت كل الأشياء معًا لخير الذين ماتوا في ١١ سبتمبر؟

المسيحي: مَنْ أحبوا الله وقبلوا عطية الخلاص المجانية هم الآن مع الله في الأبدية. ومَنْ هم غير ذلك، فإن اختيارهم الحر للانفصال الأبدي عن الله يُحترم أيضًا.

الملحد: وماذا عن الباقين منا؟

المسيحي: مَنْ بقي منا في هذه الحياة ما زال أمامه وقت لاتخاذ قراره. ومَنْ كانوا مسيحيين حقيقيين بالفعل عند حدوث هجمات ١١ سبتمبر من المحتمل أن شخصياتهم الأدبية ازدادت قوة نتيجة الأحداث.

الملحد: لكن إن كان الله كلي الصلاح وكلي المعرفة، لماذا يخلق أناسًا يعرف أنهم سيذهبون إلى جهنم؟

المسيحي: سؤال وجيه. لم يكن عند الله سوى خمسة خيارات. كان بإمكانه: ١) ألا يخلق على الإطلاق. ٢) أن يخلق عالمًا بلا حرية حيث البشر كالإنسان الآلي. ٣) أن يخلق عالمًا حرًا حيث البشر لا يخطئون. ٤) أن يخلق عالمًا حرًا حيث البشر يخطئون. ولكنهم جميعًا سيَقبلون خلاص الله. ٥) أن يخلق العالم بالحالة التي هو عليها الآن. حيث البشر يخطئون، والبعض منا سيخلصون ولكن الباقون سيهلكون.

الملحد: نعم، ويبدو أن الله اختار أسوأ البدائل الخمسة! إذَن الله ليس كلي الصلاح.

المسيحي: لا تستعجل الحكم. الخيار الأول لا يمكن حتى أن يقارَن بالأربعة الأُخَر لأنه ليس هناك وجه شبه بين الشيء واللاشيء. مقارنة عالم حقيقي باللاعالم لا يشبه حتى مقارنة التفاح بالبرتقال، لأن الاثنين من الفواكه. ولكنه يشبه مقارنة التفاح باللاتفاح، مع الإصرار على أن اللاتفاح ألَذّ. وهو ما يطلق عليه في المنطق خطأ تصنيفي *category mistake*. إنه كمَنْ يسأل: ''ما لون الرياضيات؟'' الرياضيات ليست لونًا، فالسؤال بلا معنى.

الملحد: إن كانت مقارنة الوجود باللاوجود خطأً تصنيفيًا، إذَن يسوع ارتكب خطأً تصنيفيًا عندما قال إنه كان خيرًا ليهوذا لو لم يولد (متى٢٦: ٢٤).

المسيحي: لا، يسوع لم يكن يتكلم عن أفضلية اللاكينونة على الكينونة. ولكنه كان يُعَبِّر تعبيرًا قويًا عن بشاعة خطية يهوذا.

الملحد: فلماذا لم يختَرَ الله البديل الثاني – بشرًا كالإنسان الآلي؟

المسيحي: كان بإمكانه أن يفعل ذلك، ولكن العالم بهذا الشكل لا يمكن أن يكون عالمًا أخلاقيًا. سيكون عالمًا يخلو من الشر، ولكنه يخلو من الخير الأخلاقي أيضًا.

الملحد: فلماذا لم يخلق العالم بالشكل الثالث أو الرابع؟ عالم يسمح بالحب، ومؤكَّد أنه أفضل من الذي نعيش فيه الآن.

المسيحي: نعم، ولكن ليس كل ما **يمكن تخيله يمكن تحقيقه** مع المخلوقات الحرة. فمثلاً، يمكننا أن نتخيل أنه بإمكاني أن أسرق بنكًا بدلاً من أن أتحدث إليك. ولكنه أمر لا يمكن تحقيقه لأني اخترت بحريتي أن أتحدث إليك. وهكذا الله لا يمكنه أن يقهر المخلوقات الحرة على **ألا** تخطئ. فالحرية القهرية تناقض.

الملحد: ولكن عالمنا هذا كان يمكن أن يكون أفضل لو تناقصت جرائم القتل أو الاغتصاب. إذَن الله فشل في خلق أفضل عالم ممكن.

المسيحي: تمهل. رغم أني أعترف أن هذا العالم ليس أفضل عالم ممكن، قد **يكون أفضل طريقة للوصول إلى** أفضل عالم ممكن.

الملحد: ما هذه اللغة النفسية الخَلقية الغريبة؟

المسيحي: محتمل أن الله سمح بالشر لكي يهزمه. فكما قلتُ، لو لم يسمح الله بالشر، لما أمكن بلوغ الفضائل العليا. فالأشخاص الذين افتُدوا من الألم يتمتعون بشخصيات أخلاقية أقوى من الذين لم يُمتَحَنوا بالألم. إن بناء النفس يتطلب شيئًا من الألم. فأيوب في أصحاح ٤٢ رجل أكثر عمقًا وفرحًا من أيوب في أصحاح ١. إذَن الشر في هذا العالم يخدم فعليًا غرضًا خيِّرًا في النهاية. إنه يخلق أفضل عالم أبدي ممكن.

الملحد: ولكن لماذا يخلقُ الله أناسًا رغم معرفته بأنهم سيختارون جهنم؟

المسيحي: هل عندك أطفال؟

الملحد: نعم. وأنا نفسي كنتُ طفلاً!

المسيحي: لماذا أنجبتهم رغم معرفتك أنهم سيعصونك يومًا ما؟

الملحد: زوجتي كثيرًا ما تسألني ذلك السؤال!

المسيحي: أنا أعرف لماذا أنجبت أبنائي. لأن الحب لا يخشى المخاطرة. كنت مستعدًا أن أخاطر بالفقد في سبيل أن أختبر فرح الحب. وهو ما ينطبق على كل بطولة سوبر بول. كلا الفريقين يعرفان أن أحدهما سيخسر، ومع ذلك كلاهما مستعدان أن يلعبا رغم المخاطرة.

الملحد: ينبغي أن أعترف أن إجاباتك منطقية على المستوى الفكري، ولكن الشر ما زال يزعجني.[٤]

المسيحي: ويزعجني أنا أيضًا، ويجب أن يزعجنا. فكلنا نعرف أن هذا العالم ليس في الوضع الصحيح، وكلنا نشتاق للسماء. وربما اشتياقنا للسماء مؤشر آخر على أنها حقيقة (ناقَشنا بعض المؤشرات الأخرى التي تدلل على ذلك في هذا الكتاب).

الملحد: محتمل، ولكني لا أظن أن إجاباتك الفكرية يمكنها أن تساند شخصًا يعاني من الشر.

المسيحي: قد تكون على صواب. ولكنك لست مضطرًا أن تصمد أمام الشر بالإجابات فقط. يمكنك أن تستند على المعزي الإلهي، أي الروح القدس، ليساعدك وسط حياة الألم والمعاناة التي تبني النفس.

الملحد: أُفَضِّل ألا أعاني على الإطلاق عن أن أستند على مُعَزٍّ.

المسيحي: ربما لذلك لا يضعُ الله الألم والمعاناة تحت سيطرتك. ولو فعل، مَنْ سيختار أن يجتاز فيهما؟

الملحد: لا أحد؟

المسيحي: هذا ليس صحيحًا بالتمام. مؤكد أن رجلاً اختار الألم. يسوع المسيح اختار الألم طوعًا حتى يصالحك ويصالحني مع الله. وكان ذلك هو النموذج الحقيقي الوحيد للشر الذي يحلّ بشخص صالح بحق. لذا، يمكننا أن نشكو لله من الألم والمعاناة، ولكن يجب أن نعترف أنه لم يَعفِ نفسه منهما. أما أنت وأنا، فالله أحيانًا ما ينقذنا من الشر، ولكنه أحيانًا يعزِّينا **وسط** الشر. وفي أي من الحالتين، سواء عرفنا أسبابه أو لم نعرفها، يمكن للمؤمنين أن يثقوا في الله من حيث إنه يجعل كل الأشياء تعمل معًا للخير حسب خطته الأزلية.

ملحق ٢

أليس ذلك تفسيرك أنت؟

الملحد: حسنًا، لقد عدت وقرأت هذا الكتاب كله كما طلبت، ولكني لا أظن أنك نجحت في بناء قضية قوية لصالح المسيحية.

المسيحي: لماذا؟

الملحد: لأنه تفسيرك أنت.

المسيحي: طبعًا هو تفسيري أنا، ولكن ذلك لا يعني أن تفسيري خطأ.

الملحد: أنا أقول إنه خطأ.

المسيحي: هل هذا تفسيرك أنت؟

الملحد: إذَن أنت تقلب عليَّ الطاولة؟

المسيحي: نعم. كل الاستنتاجات تشتمل على تفسير، بما فيه تفسيرك. ولكي تعرف ما إذا كان تفسيري (المسيحية) خطأ موضوعيًا، يجب أن تعرف ما هو صحيح موضوعيًا. فما هو إذَن ذلك التفسير الصحيح؟

الملحد: ليس هناك تفسيرات موضوعية.

المسيحي: سامحني لأني سأفعل ذلك ثانيةً. ولكن هل ذلك تفسير موضوعي؟

الملحد: كُفّ عن ذلك!

المسيحي: أكف عن ماذا؟ عن أن أكون منطقيًا؟ أنا فقط أستخدم خطة ''رود رَنَر'' من الفصل الأول. عندما تقول شيئًا متناقضًا يفند نفسه، أشعر أني مجبر على إبرازه. فكيف يمكنك أن تقدم تفسيرًا موضوعيًا يقول بعدم وجود تفسيرات موضوعية؟

الملحد: موافق، إذَن محتمل أن هناك تفسيرات موضوعية.

المسيحي: نعم هناك تفسيرات موضوعية. رغم أنك قد تفسِّر الأدلة ثم تستنتج أن المسيحية خاطئة، يمكنني أن أفعل نفس الشيء وأستنتج أنها صحيحة. ولكن بما أن الشيء وضده لا يمكن أن يكونا صحيحين، مؤكد أن واحدًا منا فقط على صواب، والآخر مخطئ. فمَنْ على صواب؟

الملحد: أنا.

المسيحي: لماذا؟

الملحد: أنا أعتقد أني على صواب.

المسيحي: ولكن هذا مجرد تأكيد. ينبغي أن تقدم أدلة ولا تكتفي بإطلاق التأكيدات. ونحن في هذا الكتاب لم نطلق تأكيدات تقول بأن المسيحية صحيحة، ولكننا قدمنا أدلة في كل خطوة على الطريق، بدءًا بمسألة الحق وانتهاءً بوحي الكتاب المقدس. فما أدلتك على صحة الإلحاد؟

الملحد: الشر والعِلْم.

المسيحي: تلك ليست أدلة إيجابية على الإلحاد ولكنها مجرد أشياء يعتبرها البعض عقبات تَحول دون الاعتقاد في المسيحية. وكما رأينا، وجود الشر لا يدحض وجود الله (الملحق الأول)، والاكتشافات العلمية تؤيد فعليًا المنظور المسيحي (الفصول ٣-٦).

الملحد: ولكن إن كانت المسيحية صحيحة، فهي تستبعد العديد من الناس. فمهما كان، ملايين الناس ليسوا مسيحيين.

المسيحي: ولكن ذلك لا يحدد ما إذا كانت المسيحية صحيحة أم لا. فمهما كان الحق لا يُحَدَّد بعدد مَنْ يُصَدِّقونه. ولكن الحق يُكتَشَف بالنظر إلى الأدلة. هل تفسيرك (أن المسيحية خاطئة) خطأ بالضرورة لأنه يستبعد ملايين المسيحيين؟

الملحد: لا.

المسيحي: ولا تفسيري أيضًا. بالإضافة إلى أنه كما رأينا عندما تَكَلَّمنا عن الشر، المسيحية لا تستبعد الناس، ولكن الناس يستبعدون أنفسهم من المسيحية. الجميع يعرفون أن الله موجود. ولكن لأننا جميعًا نملك إرادة حرة، البعض يختارون أن يخمدوا تلك المعرفة لكي يتمكنوا من اتباع رغباتهم. وبولس يتحدث عن ذلك في رومية أصحاح ١.

الملحد: ممكن، ولكني أرى استنتاجك عبارة عن حكمٍ إدانةٍ شديد التطرف. ويجب ألا تحكم.

المسيحي: سامحني مرة أخرى، ولكن إن كان يجب ألا نحكم، فلماذا تحكم عليَّ لأني أحكم؟

الملحد: ما هذا يا عم القديس؟ هل تفضِّل أن تلعب ألعابًا منطقية على أن تصدق ما قاله يسوع؟

المسيحي: ليست لعبة ولكنها ملاحظة عن واقع الأمور. فأنت تناقض نفسك عندما تقول لي: "يجب ألا تحكم" لأن هذه الجملة نفسها حكم. وأنت أيضًا تحكم عندما تقول إن المسيحية ليست صحيحة!

الملحد: موافق. ولكن ماذا عن نقطتي الثانية؟ ألا تصدق ما قاله يسوع؟

المسيحي: لماذا تستشهد بالكتاب المقدس؟ هل تؤمن الآن أنه صحيح؟

الملحد: لا، ولكنك أنت تؤمن به. فلماذا لا تصدق ما قاله يسوع؟

المسيحي: أنا أصدقه. ولكن المشكلة أنك لا تعرف ما قاله. فيسوع لم يوصِنا ألا نحكم. ولكنه ببساطة أوصانا ألا نحكم حكمًا مُرائيًا. فقد قال: «لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم» (متى٧: ١، ٢). ثم استطرد وقال: «أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذٍ تبصر جيدًا أن تُخرج القذى من عين أخيك». أي أنك عندما تحكم، لا تحكم برياء. والكتاب المقدس يوصينا أيضًا أن نحكم عندما يقول لنا أن «نمتحن كل شيء» (١تسالونيكي٥: ٢١)، وألا «نصدقَ كل روح» (١يوحنا٤: ١) لكن نؤمن بيسوع المسيح لنوال الحياة الأبدية (يوحنا٣: ١٦).

الملحد: انتهيت؟

المسيحي: لا. عندي نقطة أخرى: مستحيل أن تعيش طويلاً إن لم تحكم بين الخير والشر. فأنت تتخذ مئات القرارات البالغة الأهمية كل يوم التي يمكن أن تضرك أو تنفعك. وعندما تتخذ تلك القرارات تصدر أحكامًا.

الملحد: حسنًا. فهمتُ أن الجميع يحكمون. وأنت تحكم عندما تفسر الكتاب المقدس بهذه الطريقة. فمن الذي يحدد ما إذا كان تفسيرك صحيحًا؟

المسيحي: يجب أن تنظر إلى سياق النص لكي تكتشف معناه الموضوعي.

الملحد: إن كانت التفسيرات الموضوعية ممكنة، فما السر في تعدد التفسيرات المختلفة للكتاب المقدس؟

المسيحي: لماذا يخطئ الكثيرون في مسائل الرياضيات؟ أليس هناك حلول صحيحة للمسائل الحسابية؟

الملحد: اللغة مختلفة. أظن أن هناك الكثير من التفسيرات الصحيحة لنفس الجملة أو الآية الكتابية. وهذا ما يفسر تعدد الطوائف.

المسيحي: إذَن أنت تقول إن الجمل يمكن تفسيرها بطريقة واحدة فقط.

الملحد: لا!... ألم تسمع ما قلتُه توًّا؟ قلت إن العكس تمامًا هو الصحيح. هناك الكثير من التفسيرات المقبولة.

المسيحي: إن كان هناك الكثير من التفسيرات المقبولة، فلماذا صحَّحت كلامي لأني أسأت تفسير ما قلتَه؟

الملحد: هل فعلتُ ذلك؟

المسيحي: نعم، لقد أخبرتني توًّا أني أسأت فهمك. وهذا يعني أنك قلت إن تفسيري خطأ! لماذا فعلت ذلك إن كان هناك الكثير من التفسيرات المقبولة؟

الملحد: لأني أعرف ما أعنيه، وكان يجب أن يكون واضحًا لك.

المسيحي: لك حق. إذَن دعني أسألك: لماذا تتوقع من الآخرين أن يعرفوا ما تعنيه أنت عندما تقول جملة تقريرية، ولكن عندما يقولُ الله جملة تقريرية في الكتاب المقدس، تعطي نفسك الحق أن تَصُبَّ فيها أي معنى تريد؟

الملحد: حسنًا، من المحتمل أن هناك تفسيرات موضوعية. ولكن إن كان الأمر كذلك، فما السر في وجود العديد من الطوائف؟

المسيحي: لنفس سبب وجود الكثير من غير المسيحيين. لا لأنهم لا يدركون الحق، ولكن لأنهم لا يقبلون الحق. أي أننا نؤمن بتقاليدنا ورغباتنا أكثر مما نؤمن بكلمةِ الله. وهو ما تكلم يسوع ضده بكل قوة (متى١٥: ٢٣).

الملحد: حسنًا. سأصارحك بكل شيء.

المسيحي: آن الأوان لذلك.

الملحد: مشكلتي الحقيقية مع المسيحية أنها تؤدي إلى رفض الاختلاف. فأنتم المسيحيين تعتقدون كلكم أن عندكم الحق!

المسيحي: ألم تلاحظ أن كل واحد يعتقد أن عنده الحق؟ مَنْ يقولون إن المسيحية خاطئة يعتقدون أن عندهم ذلك الحق. حتى مَنْ يقولون إن كل الأديان صحيحة يعتقدون أن ذلك هو الحق.

الملحد: موافق، موافق، أنت على صواب. أنا أعتقد أن الإلحاد صحيح. ولكني لا أرفض الاختلاف مثل معظم المسيحيين.

المسيحي: حتى إن كان المسيحيون يرفضون الاختلاف، فهذا لا يعني أن المسيحية خاطئة.

الملحد: أنا أدرك ذلك، ولكنها لا تزال مشكلة عملية.

المسيحي: كيف؟

الملحد: لأن مَنْ يعتقدون أن عندهم الحق يريدون أن يفرضوا ذلك الحق على الآخرين؟

المسيحي: هل تقصد سياسيًا؟

الملحد: نعم.

المسيحي: عندي خبر لك: كل من يعمل في السياسة، بما فيهم كل غير المسيحيين. يحاول أن يفرض ما يعتقد أنه الحق. فما هي نقطتك؟

الملحد: نقطتي أن المسيحيين يريدون أن ينزعوا حقوق البشر.

المسيحي: الحقيقة أن المسيحية إحدى المنظورات الفلسفية الحياتية القليلة التي تقدر أن تقدم تبريرًا لحقوق الإنسان المطلقة لأنها تؤكد أن تلك الحقوق ممنوحة لنا من الله. وكما أَقـرَّ مؤسسو الولايات المتحدة، ليس الهدف من الحكومات أن تمنح الحقوق أو تنزعها، ولكن الهدف من الحكومات أن تكفل الحقوق التي يمتلكها الناس أصلاً. وهذا ما أكدّناه في إعلان استقلالنا.

الملحد: ولكن ماذا عن قبول الاختلاف؟

المسيحي: المسيحية إحدى المنظورات الحياتية القليلة التي لا تتيح قبول الاختلاف على المستوى الديني فحسب، بل تناصره. فبما أن الله لا يجبر أحدًا على الإيمان (الحقيقة أن غرض هذه الحياة هو الاختيار الحر)، معظم المسيحيين يُقِرّون أن الحكومة أيضًا يجب ألا تحاول أن تفرض الإيمان.

الملحد: ولكن أثناء الحملات الصليبية، واضح أن بعض المسيحيين كان لهم رأي مختلف.

المسيحي: ربما سمَّوا أنفسهم مسيحيين، ولكن مؤكد أنهم لم يتبعوا تعاليم المسيح. فيسوع لم يقبل مطلقًا هذا السلوك.

الملحد: أظن أن الحكومة العلمانية الصِّرف هي الأكثر قبولاً للاختلاف. فمهما كان، البلدان العلمانية في أوروبا تتمتع بالحرية الدينية.

المسيحي: تلك البلدان موجودة بالفعل، ولكن معظمها تعيش على بقايا المنظور المسيحي للأجيال السابقة. فما مقدار الحرية الدينية المتاحة في البلدان التي تعلن إلحادها صراحةً مثل الصين، أو ما مقدار الحرية التي كانت متاحة في الاتحاد السوفيتي السابق؟ ليس كثيرًا. وإن ذهبت إلى بلاد بعينها اليوم، ستجد أيضًا أن مقدار الحرية الدينية ضئيل جدًا. وعلى حد علمي حتى الآن أن الكنائس ممنوعة في هذه البلاد. وبعض البلدان الأخرى تعامل المسيحيين كمواطنين من الدرجة الثانية.

الملحد: قد يكون هذا صحيحًا بخصوص قبول الاختلاف الديني، ولكن معظم المسيحيين لا يقبلون الاختلاف كثيرًا بخصوص قضايا أخلاقية معينة.

المسيحي: هل تعتقد أن قبول الاختلاف واجب أخلاقي مطلق؟

الملحد: أنت تحاول ثانيةً أن تربط الواجبات الأخلاقية بالله، أليس كذلك؟

المسيحي: لأنه ليس هناك ارتباط آخر. كما رأينا في الفصل السابع، ليس هناك واجبات أخلاقية ولا صواب أخلاقي إلا إذا كان الله موجودًا. فلماذا يجب على أي شخص أن يقبل الاختلاف إن لم يكن هناك واجب أخلاقي يحتم قبول الاختلاف؟

الملحد: لأنه الصواب.

المسيحي: هذا تأكيد آخر. بصفتك ملحدًا لا يمكنك أن تبرِّر لماذا يجب على أي شخص أن يقبل الاختلاف.

الملحد: ربما. ولكنك بصفتك مسيحيًا تستطيع أن تبرر ذلك. فلماذا لا تؤمن أنه يجب علينا أن نقبل الاختلاف؟

المسيحي: الحقيقة أن أعلى واجب أخلاقي هو الحب، لا قبول الاختلاف. قبول الاختلاف يقول: "سد مناخيرك واحتمل الآخرين". والحب يقول: "اذهب وساعد الآخرين".

الملحد: ما المانع أن تقبل الاختلاف وتحب في نفس الوقت؟

المسيحي: لا مانع، ولكن أحيانًا الحب يتطلب ألا تقبل الاختلاف. فمثلاً أليس قبول القتل أو الاغتصاب أو السرقة أو العنصرية ضد الحب؟

الملحد: أظن ذلك.

المسيحي: عظيم، ولكننا خرجنا عن الموضوع قليلاً. فالمسيحية تركز على الخلاص الروحي لا الخلاص الاجتماعي. ورغم أنه من المؤكد أن المسيحيين عليهم واجبات اجتماعية، المسيح جاء ليحررنا من خطايانا، لا ليحررنا من "الرومان".

الملحد: إن هذا لا يظهر في سلوك بعض المسيحيين اليوم.

المسيحي: تقصد أنه لا تعجبك آراؤهم الكتابية بخصوص القضايا الأخلاقية مثل الإجهاض والجنس المثلي؟

الملحد: نعم.

المسيحي: وأين المشكلة؟

الملحد: ماذا تقصد بأين المشكلة؟ تلك القضايا مهمة بالنسبة لي!

المسيحي: هل تلك القضايا مهمة جدًا بالنسبة لك لدرجة أنك مستعد أن تضحي بالحق نفسه في سبيل الاحتفاظ بها؟

الملحد: ما هذا الذي تتحدث عنه؟

المسيحي: القضية هي الحق، لا ما تراه جذابًا على المستوى السياسي أو الشخصي. هل تظن أنه يجب أن تصدق ما هو صحيح؟

الملحد: طبعًا. أي شخص عاقل سيقول نعم!

المسيحي: إذَن إن كانت المسيحية صحيحة، يجب أن تؤمن بها بغض النظر عما تظن من تأثيرها على السياسة أو القضايا الأخلاقية أو أي جانب آخر من جوانب حياتك.

الملحد: هذا صعب.

المسيحي: ممكن. ولكن الأصعب كثيرًا على المدى البعيد أن تؤمن بالخطإ. والمسيح قال: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني. فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله

وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» هل فعلاً تريد أن تستبدل نفسك الأبدية بمواقف سياسية أو استحسانات شخصية زمنية؟

الملحد: إن كانت المسيحية صحيحة، فهذه هي الخيارات المتاحة أمامي.

المسيحي: نعم. والله يريدك أن تختاره. ولكنه من محبته لك يحترم اختيارك أيًا كان. ولكن تَذَكَّر أن أي اختيار سيكون له عواقب هنا وفي الأبدية. وهذا ليس مجرد تفسيري أنا.

ملحق ٣

لماذا لا يتحدثُ سمينار يسوع عن يسوع؟

انزعج الكثير من المسيحيين مؤخرًا بسبب مجموعة تُعرف باسم "سمينار [الحلقة النقاشية عن] يسوع" *"Jesus Seminar"* التي زعمت مزاعم في منتهى الغرابة عن العهد الجديد، وألقت بظلال الشك على ٨٢% مما تنسبه الأناجيل ليسوع. وأحد أعضاء المجموعة. ويدعى چون دومينيك كروسان جاوز الحد بإنكاره للقيامة مدعيًا أن يسوع دُفِنَ في قبر ضحل نبشته الكلاب وأكلت الجسد! ولكن ما يدعى سمينار يسوع لا يتحدَّث عن يسوع الحقيقي. وهناك ما لا يقل عن سبعة أسباب تدعونا للتوصل لهذا الاستنتاج.

المجموعة الخطأ: سمينار يسوع الذي تأسس سنة ١٩٨٥ يتكون من أكثر من سبعين "دارسًا أكاديميًا" معظمهم ينتمون للجناح الراديكالي. فبعضهم ملحدون، وبعضهم ليسوا "أكاديميين" (أحدهم يعمل في صناعة السينما). وقد اعترف مؤسس المجموعة الملحد روبرت فَنك *Robert Funk* بما يتسم به عملهم من طبيعة راديكالية متطرفة عندما صرح قائلاً: "إننا نفحص أكثر الأشياء قدسيةً عند الملايين، ومن ثم ما نعمله دائمًا ما يقترب إلى التجديف". وهو تصريح صادق ودقيق.

الدافع الخطأ: إن هدفهم، باعترافهم، هو خلق يسوع جديد "خيالي"،[1] مما يتطلب هدم صورة يسوع القديمة كما ترسمها الأناجيل وبناء صورة جديدة تلائم الإنسان الحديث. ونتيجةً لذلك، لا يجب على أي أحد أن يبحث عن يسوع الحقيقي في عملهم. فهم يخلقون يسوع على صورتهم.

فضلاً عن ذلك، عملهم مشوب بسعيهم وراء الشهرة كما يعترفون هم أنفسهم، فهم يقولون: "سنحاول أن نؤدي عملنا علنًا على مرأى ومسمع من الجميع. ولن نكتفي باحترام حرية المعلومات، ولكننا نصر على المجاهرة بعملنا على الملإ".[٢] والدليل الأوضح من ذلك أن سمينار يسوع سعى للشهرة منذ البداية. فالمؤتمر التليفزيوني، والمقالات العديدة، والحوارات الصحفية، والأشرطة، والفيلم المتوقع إنتاجه، كلها مؤشرات أخرى على هدفهم الدعائي.

الأسلوب الخطأ: أسلوبهم متحيز يحاول أن يحدِّد الحق بناء على أغلبية الأصوات. وهذه الطريقة اليوم ليست أفضل من الزمن الذي آمن فيه الأغلبية أن العالم مربع الشكل. فتصويت ٧٠ "دارسًا أكاديميًا" يغلب عليهم التوجه الراديكالي على ما قاله يسوع يشبه إتاحة الفرصة لمائة عضو في الكونجرس تغلب عليهم الميول الليبرالية للتصويت على رفع الضرائب.

الكتب الخطأ: يقوم تصويت سمينار يسوع جزئيًا على "إنجيل Q" *"Gospel of Q"* (من الكلمة الألمانية *Quelle*، وتعني مصدر) الافتراضي وعلى "إنجيل توما" *Gospel of Thomas* الذي يرجع تاريخه للقرن الثاني ويُنسب لهراطقة من الغنوصيين. وعلاوة على ذلك، يستند السمينار على "إنجيل مَرْقُس السِرّيِّ" *Secret Mark* الذي لا وجود له. والنتيجة أنهم يعتبرون أن إنجيل توما الأبوكريفي المشكوك فيه الذي يرجع للقرن الثاني أصدق من مرقس ويوحنا الأقدم منه.

الافتراضات الخطأ: تقوم استنتاجاتهم على افتراضات متطرفة مسبقة، ومنها رفضهم غير المبرَّر للمعجزات. فإن كان الله موجودًا، إذَن المعجزات ممكنة. ومن ثم أي رفض مسبق للمعجزات يمثِّل رفضًا لوجودِ الله. ففي ضوء إلحادهم الضمني، يجب ألا نتعجب من رفضهم ليسوع كما تُصوِّره الأناجيل.

وتقوم استنتاجاتهم كذلك على افتراض لا أساس له مفاده أن المسيحية تأثرت بالديانات الباطنية. فكما رأينا في الفصل الثاني عشر، هذا الكلام لا يمكن أن يكون صحيحًا. فكُتَّاب الأسفار المقدسة اليهود الموحدون ما كانوا ليستخدموا مصادر وثنية تؤمن بتعدد الآلهة وما كانوا ليعتمدوا على مصادر لاحقة لهم.

التواريخ الخطأ: إنهم يفترضون تواريخ متأخرة بلا مبرر للأناجيل الأربعة (غالبًا من ٧٠ إلى ١٠٠ م). وبذلك فهم يرون أنه بإمكانهم خلق مساحة كافية من الوقت تـُمَكِّنهم من استنتاج أن العهد الجديد يتكون من أساطير عن يسوع. إلا أن هذا يتعارض مع الحقائقِ كما رأينا في الفصلين التاسع والعاشر. فالعهد الجديد ينتمي لفترة مبكرة ويحوي مادة من مصادر أقدم منه.

الاستنتاجات الخطأ: بعد أن قوَّض سمينار يسوع أساس يسوع الحقيقي وفقـًا للأناجيل لم يتمكن من التوصل لاتفاق حقيقي على هوية يسوع الفعلية: شخص تشاؤمي، أم حكيم، أم مصلح يهودي، أم مناصر للمرأة، أم معلم نبي، أم نبي اجتماعي ثوري، أم نبي مهتم بالأخرويات. ولا عجب أن شيئـًا تقوم به المجموعة الخطأ، بالأسلوب الخطإ، بناءً على الكتب الخطإ، على أساس الافتراضات المسبقة الخطإ، باستخدام التواريخ الخطإ يتوصل إلى الاستنتاج الخطإ.

المراجع

المقدمة

1- *Carl Sagan, Cosmos (New York: Random House, 1980), 4.*

2- *From the audiotape "Exposing Naturalistic Presuppositions of Evolution," at Southern Evangelical Seminary's 1998 Apologetics Conference. Tape AC9814. Posted online at www.impactapologetics.com.*

3- *Quoted in Plato, Apology, section 38.*

4- *From Friedrich Nietzsche, The AntiChrist, section 47, quoted in Walter Kaufmann, The Portable Nietzsche (New York: Viking, 1968), 627.*

5- *Quoted in Os Guinness, Time for Truth (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2000), 114.*

6- *C. S. Lewis, The Screwtape Letters (Westwood, N.J.: Barbour, 1961), 46.*

١. هل نستطيع التعامل مع الحق؟

1- *C. S. Lewis, The Abolition of Man (New York: Macmillan, 1947), 35.*

2- *Frank Morison, Who Moved the Stone? (Grand Rapids, Mich.: Zondervan,1977).*

3- *Frank Turek and Norman Geisler, Legislating Morality (Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2003). Previously published by Bethany, 1998.*

٢. ما الذي يجعلنا نُصَدِّق أي شيء على الإطلاق؟

4- *See James Sire, "Why Should Anyone Believe Anything At All?" in D. A. Carson, ed., Telling the Truth (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2000), 93-101. See also James Sire, Why Should Anyone Believe Anything At All (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1994).*

5- *David Hume, An Inquiry Concerning Human Understanding, xii, 3.*

6- *C. S. Lewis, "Learning in War-Time," in C. S. Lewis, The Weight of Glory and Other Addresses (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1965), 50.*

7- *Frank Turek and Norman Geisler, Legislating Morality (Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2003). Previously published by Bethany, 1998.*

٣. في البدء كان انفجار كبير

8- *Quoted in Hugh Ross, The Creator and the Cosmos (Colorado Springs: NavPress, 1995), 57.*

9- *Quoted in Fred Heeren, Show Me God (Wheeling, Ill.: Daystar, 2000), 135.*

10- *Francis Bacon, The New Organon (1620; reprint, Indianapolis: Bobbs Merrill, 1960), 121.*

11- *David Hume, in J. Y. T. Greig, ed., The Letters of David Hume, 2 vols. (New York: Garland, 1983), 1:187.*

12- *Robert Jastrow, God and the Astronomers (New York: Norton, 1978), 48.*

13- *Quoted in Paul Davies, The Cosmic Blueprint (New York: Simon & Shuster, 1988), 20, emphasis added.*

١٤-المناظرة بالكامل متاحة على *www.rzim.com*

15- *Isaac Asimov, Beginning and End (New York: Doubleday, 1977), 148.*

16- *Anthony Kenny, The Five Ways: St. Thomas Aquinas' Proofs of God's Existence (New York: Schocken, 1969), 66.*

17- *Jastrow, God and the Astronomers, 15-16.*

18- *See Fred Heeren, Show Me God, 163-168; and Ross, Creator and the Cosmos, 19.*

19- *Heeren, Show Me God, 168.*

20- *See Michael D. Lemonick, "Echoes of the Big Bang," Time, May 4, 1992, 62.*

21- *Jastrow, God and the Astronomers, 11.*

22- *Ibid., 14.*

23- *"A Scientist Caught Between Two Faiths: Interview with Robert Jastrow," Christianity Today, August 6, 1982, emphasis added.*

24- *Arthur Eddington, The Expanding Universe (New York: Macmillan, 1933178.),*

25- *Quoted in Heeren, Show Me God, 156.*

26- *Quoted in ibid., 157.*

27- *Quoted in ibid.*

28- *Quoted in ibid., 139.*

٢٩- لسرد مفصَّل، وتفنيد، لكل ما قدَّمه الملحدون لتفسير بداية الكون؛ انظر مقالة وليم لين كريج "السؤال النهائي للأصول: الله وبداية الكون *The Ultimate Question of Origins: God and the Beginning of the Universe,"* على الرابط *http://www.leaderu.com/offices/billcraig/docs/ultimatequestion.html;* انظر أيضًا *Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 102-106.*

30- *See Jastrow, God and the Astronomers, 125.*

31- See "'Baby Pic' Shows Cosmos 13 Billion Years Ago," CNN.com, February 11, 2003, at http://www.cnn.com/2003/TECH/space/02/11/cosmic.portrait/.

32- See Kathy Sawyer, "Cosmic Driving Force? Scientists' Work on 'Dark Energy' Mystery Could Yield a New View of the Universe," Washington Post, February 19, 2000, A1.

33- Stephen W. Hawking, A Brief History of Time (New York: Bantam, 1988), 136-139; see also Norman Geisler and Peter Bocchino, Unshakable Foundations (Minneapolis: Bethany, 2001), 107-110.

34- Quoted in Norman Geisler and Paul Hoffman, eds., Why I Am a Christian: Leading Thinkers Explain Why They Believe (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), 66.

35- Jastrow, God and the Astronomers, 16 (emphasis ours).

36- Ibid., 28.

37- Ibid., 113-114.

38- V. J. Stenger, "The Face of Chaos," Free Inquiry 13 (Winter 1992–1993): 13.

39- See Cliff Walker, "An Interview with Particle Physicist Victor J. Stenger," at http://www.positiveatheism.com/crt/stenger1.htm. Interview date, November 6, 1999.

40- See "'Baby Pic' Shows Cosmos 13 Billion Years Ago."

41- George Will, "The Gospel from Science," Newsweek, November 8, 1998.

42- Albert Einstein, in Science, Philosophy, and Religion: A Symposium (New York: The Conference on Science, Philosophy and Religion in Their Relation to the Democratic Way of Life, 1941). Posted online at http://www.sacred-texts.com/aor/einstein/einsci.htm. Accessed October 15, 2003.

43- Jastrow, God and the Astronomers, 116.

٤- التصميم الإلهي

44- Isaac Newton, "General Scholium," in Mathematical Principles of Natural Philosophy (1687) in Great Books of the Western World, Robert M. Hutchins, ed. (Chicago: Encyclopedia Britannica, n.d.), 369.

45- Personal correspondence with Jeffrey A. Zweerink, research physicist, UCLA, October 23, 2003.

٤٦-للنص الكامل ولمزيد من المعلومات عن الحادث انظر تقرير مراجعي أبوللو١٣ على موقع ناسا
http://spacelink. msfc.nasa.gov/NASA.Projects/Human.Exploration.and.Development. of.Space/Human.Space.Flight/Apollo.Missions/Apollo.Lunar/Apollo.13.Review.Board.Report /Apollo.13.Review.Board.Report.txt; see also http://solarviews.com/eng/apo13.htm#bang.
لنص المهمة مع ملاحظات توضيحية أنظر *http://209.145.176.7/~090/awh/as13.html*

٤٧- لمزيد من الثوابت أنظر *Hugh Ross, "Why I Believe in Divine Creation," in Norman Geisler and Paul Hoffman, eds., Why I Am a Christian: Leading Thinkers Explain Why They*

Believe (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), chapter 8. المزيد من هذه الثوابت يُكتشف باستمرار بوفرة حتى أن "روس" يعتزم أن يحدث هذه القائمة كل ثلاثة شهور. تفحص موقعه www.reasons.org.

وعن لماذا تندر الحياة الحيوانية في الكون، انظر Peter Ward and Donald Brownlee, Rare Earth: Why Complex Life Is Uncommon in the Universe (New York: Copernicus, 2000).

48- Hugh Ross, "Why I Believe in Divine Creation," 138-141.

49- Quoted in Walter Bradley, "The 'Just-so' Universe: The Fine-Tuning of Constants and Conditions in the Cosmos," in William Dembski and James Kushiner, eds., Signs of Intelligence (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), 168.

50- Quoted in Geisler and Hoffman, eds., Why I Am a Christian, 142.

51- Fred Hoyle, "The Universe: Past and Present Reflections," Engineering and Science (November 1981): 12.

٥٢- للملاحظات الكاملة للرئيس، انظر http://www.whitehouse.gov/news /releases/2003/02/20030201-2.html.

53- See http://www.whitehouse.gov/news/releases/2003/02/20030201-2.html.

54- C. S. Lewis, The Screwtape Letters (Westwood, N.J.: Barbour, 1961), 14.

55- Quoted in Fred Heeren, Show Me God, vol. 1 (Wheeling, Ill.: Daystar, 2000), 239.

56- Dennis Overbye, "Zillions of Universes? Or Did Ours Get Lucky?" The New York Times, October 28, 2003, F1.

٥. الحياة الأولى: قوانين طبيعية أم عجائب إلهية؟

57- Richard Dawkins, The Blind Watchmaker (New York: Norton, 1987), 17- 18, 116.

٥٨- لمناقشة التطوريين حول العديد من المعضلات المتعلقة باقتراح أن الحياة هي ناتج للقوانين الطبيعية، انظر Peter Ward and Donald Brownlee, Rare Earth (New York: Copernicus, 2000), chapter 4.

٥٩- للمزيد عن المشكلات في تجربة يوري-ميلر وتسعة أدلة أخرى فاقدة المصداقية على التطور، انظر Jonathan Wells, Icons of Evolution: Science or Myth? Why Much of What We Teach About Evolution Is Wrong (Washington, D.C.: Regnery, 2000).

60- Dawkins, Blind Watchmaker, 1.

61- Quoted in Phillip E. Johnson, The Wedge of Truth (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2000), 153.

62- Ibid.

63- Klaus Dose, "The Origin of Life: More Questions than Answers," Interdisciplinary Science Review 13 (1998): 348; quoted in Lee Strobel, The Case for Faith (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2000), 107.

64- Quoted in Strobel, Case for Faith, 107.

65- Chandra Wickramasinghe, interview by Robert Roy Britt, October 27, 2000. Posted online

at http://www.space.com/searchforlife/chandra_side-bar_001027.html (emphasis added).

66- Michael Denton, Evolution: A Theory in Crisis (Bethesda, Md.: Adler & Adler, 1985), 264.

67- Hubert Yockey, Information Theory and Molecular Biology (Cambridge, New York: Cambridge University Press, 1992), 284, emphasis added.

68- Phillip E. Johnson, "The Unraveling of Scientific Materialism," First Things (November 1997): 22-25.

69- E-mail sent on July 10, 2001. The entire exchange that week can be read at http://www.arn.org/docs/pjweekly/pj_weekly_010813.htm.

70- Richard Lewontin, "Billions and Billions of Demons," The New York Review of Books, January 9, 1997, 31.

71- See Strobel, Case for Faith, 99-101.

٧٢-المناظرة بالكامل مسجلة على شريط فيديو، ويمكن مشاهدتها مباشرة من الرابط:
http://www.leaderu.com/offices/billcraig/docs/craig-atkins.html.

73- J. Budziszewski, Written on the Heart: The Case for Natural Law (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1997), 54.

74- See Norman L. Geisler and Peter Bocchino, Unshakable Foundations (Minneapolis: Bethany, 2001). Anecdote from a personal conversation with Peter Bocchino, April 3, 2003.

75- Mortimer Adler, Haves Without Have-Nots (New York: Macmillan, 1991).

76- William Dembski, The Design Revolution: Answering the Toughest Questions About Intelligent Design (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, forthcoming).

77- Albert Einstein, in a letter to Max Born, December 4, 1926, quoted in Elizabeth Knowles, ed., The Oxford Dictionary of Quotations (Oxford: Oxford University Press, 1999), 290.

78- Quoted in William Dembski and James Kushiner, eds., Signs of Intelligence (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), 102.

٦. من الخلية إلى الإنسان مرورًا بالحيوان؟

79- Carl Sagan, Cosmos (New York, Random House, 1980), 278.

80- Phillip E. Johnson, Darwin on Trial (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1993), 27.

81- Jonathan Wells, Icons of Evolution: Science or Myth? Why Much of What We Teach About Evolution Is Wrong (Washington, D.C.: Regnery, 2000), 178.

82- See Norman L. Geisler and Peter Bocchino, Unshakable Foundations (Minneapolis: Bethany, 2001), 149-150; see also Jonathan Wells, Icons of Evolution, chapter 9, 211; and Lane P. Lester and Raymond G. Bohlin, The Natural Limits of Biological Change (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1984), 88-89.

٨٣-للمزيد عن عصافير داروين، انظر *Wells, Icons of Evolution, 159-175.*

84- Charles Darwin, On the Origin of Species (New York: Penguin, 1958), 171.

85- Michael Behe, Darwin's Black Box: The Biochemical Challenge to Evolution (New

York: Touchstone, 1996), 39.

86- Ariel Roth, Origins (Hagerstown, Md.: Herald, 1998), 66.

87- Michael Behe, "Intelligent Design Theory as a Tool for Analyzing Biochemical Systems," in William Dembski, ed., Mere Creation: Science, Faith, and Intelligent Design (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1998), 183, emphasis added.

88- Michael Behe, "A Mousetrap Defended," 2000, http://www.trueorigin.org/behe05.asp.

89- Behe, Darwin's Black Box, 232-233.

90- E-mail sent to Phillip Johnson on July 10, 2001. The entire exchange that week can be read at http://www.arn.org/docs/pjweekly/pj_weekly_010813.htm.

91- See "Riken Finds Bigger Gap in Chimp, Human Genes," Japan Times, July 12, 2003. Posted online at http://www.japantimes.co.jp/cgi-bin/getarticle. pl5?nn20030712b6.htm. Accessed October 17, 2003.

92- See "Riken Finds Bigger Gap in Chimp, Human Genes," Japan Times, July 12, 2003. Posted online at http://www.japantimes.co.jp/cgi-bin/getarticle. pl5?nn20030712b6.htm. Accessed October 17, 2003.

93- Mouse Genome Sequencing Consortium, "Initial Sequencing and Comparative Analysis of the Mouse Genome," Nature 420 (December 5, 2002): 520-562.

94- Michael Denton, Evolution: A Theory in Crisis (Bethesda, Md.: Adler & Adler, 1985), 285.

95- Darwin, On the Origin of Species, 280.

٩٦- *Stephen J. Gould, "Evolution's Erratic Pace," Natural History 86 (1977): 13-14.*
مؤخَّرًا أكد روبرت كارول *Robert B. Carroll* أمين حفريات الفقاريات في متحف ريدبات *Redpath* تقييم جولد عندما كتب "المفقود هو الصور المتوسطة التي افترضها داروين" *("Towards a New Evolutionary Synthesis," Trends in Ecology and Evolution 15 [2000]: 27-32).*

97- Wells, Icons of Evolution, 37.

98- Ibid., 42.

99- Denton, Evolution: A Theory in Crisis, 286.

100- Wells, Icons of Evolution, 219.

101- See Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 489; see also Wells, Icons of Evolution, 209-228.

102- Quoted in Wells, Icons of Evolution, 221.

103- Michael Behe, Darwin's Black Box, 22.

١٠٤- لدفاع شامل عن التصميم الذكي، انظر *William Dembski, The Design Revolution: Answering the Toughest Questions About Intelligent Design (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2004).*

105- William Dembski, Intelligent Design: The Bridge Between Science and Theology (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1999), 244

106- Walter Bradley, interview by Lee Strobel, The Case for Faith (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 2000), 108.

107- Behe, Darwin's Black Box, 193.

108- Originally from a 1989 New York Times book review. Posted online at http://members.tripod.com/doggo/doggdawkins.html. Accessed May 15, 2003.

109- Richard Lewontin, "Billions and Billions of Demons," The New York Review of Books, January 9, 1997, 150.

110- Robert Jastrow, God and the Astronomers (New York: Norton, 1978), 114.

111- Fyodor Dostoevsky, The Brothers Karamazov (New York: Norton, 1976), 72.

112- Quoted in D. James Kennedy, Skeptics Answered (Sisters, Ore.: Multnomah, 1997), 154.

113- Strobel, Case for Faith, 91.

114- From the audiotape "Reaching Evolutionists," at Southern Evangelical Seminary's 2001 Apologetics Conference. Tape AC0108. Posted online at www.impactapologetics.com.

115- Wells, Icons of Evolution, 230.

116- Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999); Norman Geisler, Systematic Theology, vol. 2 (Minneapolis: Bethany, 2003).

٧. الأم تريزا مقابل هتلر

117- J. Budziszewski, Written on the Heart: The Case for Natural Law (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1997), 208-209.

118- C. S. Lewis, Mere Christianity (New York: Macmillan, 1952), 19.

119- See J. Budziszewski, What We Can't Not Know (Dallas: Spence, 2003), 39.

120- See ibid.

121- Joseph Fletcher, Situation Ethics: The New Morality (Philadelphia: Westminster, 1966), 43-44.

122- Lewis, Mere Christianity, 45.

123- Ibid., 25.

١٢٤- لنسخة من المناظرة، أنظر

http://www.renewamerica.us/archives/speeches/00_09_27debate.htm. Accessed May 20, 2003.

125- See Lewis, Mere Christianity, 26.

١٢٦- شكرًا لصديقنا فرانسيس بيكويز Francis Beckwith لهذا المثال. انظر كتابه Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air, coauthored with Greg Koukl (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1998), for an outstanding critique of relativism.

127- *Budziszewski, What We Can't Not Know, 114*

١٢٨- لمناقشة كاملة عن الرد على الاختلافات حول المطلقات الأخلاقية، انظر *Norman Geisler's, Christian Ethics: Options and Issues (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1989), particularly chapter 7.*

129- *Frank Turek and Norman Geisler, Legislating Morality (Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2003). Previously published by Bethany, 1998.*

130- *Edward O. Wilson, "The Biological Basis of Morality," The Atlantic Monthly, April 1998. Posted online at http://www.theatlantic.com/issues/ 98apr/biomoral.htm. Accessed May 13, 2003.*

131- *Lewis, Mere Christianity, 22.*

132- *Adolf Hitler, Mein Kampf, 4th printing (London: Hurst & Blackett, 1939), 239-240, 242.*

133- *Peter Singer, Practical Ethics, 1st ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), 122-123; quoted in Scott Klusendorf, "Death with a Happy Face: Peter Singer's Bold Defense of Infanticide," Christian Research Journal 23, no. 1 (2001): 25. See also Helga Kuhse and Peter Singer, Should the Baby Live? (Brookfield, Vt.: Ashgate, 1994), 194-197.*

134- *James Rachels, Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism (New York: Oxford University Press, 1990), 186.*

135- *Randy Thornhill and Craig Palmer, A Natural History of Rape: Biological Bases of Sexual Coercion (Cambridge, Mass.: MIT Press, 2001).*

136- *Quoted in Nancy Pearcey, "Darwin's Dirty Secret," World magazine, March 25, 2000.*

137- *Lewis, Mere Christianity, 21.*

٨. المعجزات: علامات تشير لله أم سذاجة؟

138- *See Francis Beckwith, Norman Geisler, Ron Rhodes, Phil Roberts, Jerald Tanner, and Sandra Tanner, The Counterfeit Gospel of Mormonism (Eugene, Ore.: Harvest, 1998), chapter 2.*

139- *C. S. Lewis, The Screwtape Letters (Westwood, N.J.: Barbour, 1961), 46.*

140- *Antony Flew, "Miracles," in The Encyclopedia of Philosophy, Paul Edwards, ed., vol. 5 (New York: Macmillan and the Free Press, 1967), 346.*

141- *From the audiotape "Worldviews In Conflict," at Southern Evangelical Seminary's 2002 Apologetics Conference. Tape AC0213. Posted online at at www.impactapologetics.com.*

142- *C. S. Lewis, Miracles (New York: Macmillan, 1947), 106.*

143- *Posted online at http://hcs.harvard.edu/~gsascf/shield.html. Accessed June 1, 2003. Recently found at http://www.hcs.harvard.edu/~gsascf/shield-and-veritas-history/ (accessed Jan 2017 – Arabic Editor)*

144- *Lewis, Miracles, 105.*

145- *Revised under the new title Miracles and the Modern Mind (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1992).*

١٤٦- لمناقشة تفصيلية، انظر *Norman Geisler, Signs and Wonders (Wheaton, Ill.: Tyndale, 1988), chapter 8. See also Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999).*

١٤٧- لمناقشة تفصيلية، انظر *Geisler, Signs and Wonders, chapters 7 and 8. See the list on pages 107-108 (out of print).*

١٤٨- للاستفاضة حول هذا الموضوع انظر المقالة التي منها أُخذ خذا الجدول *"Miracles, False," in Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 471-475.*

٩. هل عندنا شهادات مبكرة عن يسوع؟

149- *Josephus, Antiquities, 20:9.1.*

150- *Gary Habermas and Michael Licona, The Case for the Resurrection of Jesus (Grand Rapids, Mich.: Kregel, forthcoming).*

151- *Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 531-537.*

152- *Ibid., 531-537, 547.*

153- *Quoted in David Estrada and William White, Jr., The First New Testament (Nashville: Nelson, 1978), 137.*

154- *See Williston Walker, Richard Norris, David Lotz, and Robert Handy, A History of the Christian Church, 4th ed. (New York: Scribner, 1985), 123-124.*

١٥٥- لتفصيل هذه الاقتباسات انظر *Norman Geisler and William Nix, General Introduction to the Bible (Chicago: Moody, 1986), 431.*

١٥٦- لمزيد من المعلومات والمصادر انظر *Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 532.*

157- *Philip Schaff, A Companion to the Greek Testament and the English Version, 3rd ed. (New York: Harper, 1883), 177.*

١٥٨- لمزيد من المعلومات والمصادر انظر *Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 532.*

159- *Fredric Kenyon, Our Bible and the Ancient Manuscripts, 4th ed., rev. A. W. Adams (New York: Harper, 1958), 23.*

160- *Paul Barnett, Is the New Testament Reliable? (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1986), 38-40.*

161- *See Barnett, Is the New Testament Reliable? 65.*

162- See Paul Barnett, Jesus and the Rise of Early Christianity (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1999), 343.

163- Colin J. Hemer, The Book of Acts in the Setting of Hellenistic History (Winona Lake, Ind.: Eisenbrauns, 1990), 376-382. For a summary of Hemer's reasons, see Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 528.

164- William Lillie, "The Empty Tomb and the Resurrection," in D. E. Nineham, et al., Historicity and Chronology in the New Testament (London: SPCK, 1965), 125.

165- William F. Albright, Recent Discoveries in Bible Lands (New York: Funk & Wagnalls, 1956), 136.

166- William F. Albright, "William Albright: Toward a More Conservative View," Christianity Today, January 18, 1963, 3.

167- A. N. Sherwin-White, Roman Society and Roman Law in the New Testament (Oxford: Clarendon, 1963), 189.

168- William Lane Craig, The Son Rises (Eugene, Ore.: Wipf & Stock, 2001), 101.

169- William Lane Craig, "The Evidence for Jesus." Posted online at http://www.leaderu.com/offices/billcraig/docs/rediscover2.html. Accessed August 10, 2003.

170- Gary Habermas, The Historical Jesus (Joplin, Mo.: College Press, 1996), chapter 7.

171- Craig Blomberg, The Historical Reliability of the Gospels (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1987), 197.

١٧٢- للمناظرة على شرائط تسجيل، انظر www.impactapologetics.com

١٠. هل لدينا شهادة شهود عيان عن يسوع؟

173- See Colin J. Hemer, The Book of Acts in the Setting of Hellenistic History (Winona Lake, Ind.: Eisenbrauns, 1990).

174- A. N. Sherwin-White, Roman Society and Roman Law in the New Testament (Oxford: Clarendon, 1963), 189.

175- William Ramsay, St. Paul the Traveller and the Roman Citizen (New York: Putnam, 1896), 8.

١٧٦- أنظر قائمة كاملة للمعجزات في Norman L. Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 485.

177- Craig L. Blomberg, The Historical Reliability of John's Gospel (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2001), 63.

178- F. F. Bruce, The New Testament Documents: Are They Reliable? (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1981), 82.

179- Quoted in ibid., 90-91.

180- See Blomberg. Historical Reliability of John's Gospel, 69-281. لمناقشة جيدة أخرى عن تاريخية يوحنا، انظر Paul Barnett, Is the New Testament Reliable? (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1986), 56-80; and Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics, 388-395.

181- Barnett, Is the New Testament Reliable? 62.

182- See William D. Edwards, Wesley J. Gabel, Floyd E. Hosmer, "On the Physical Death of Jesus Christ," Journal of the American Medical Association 255, no. 11 (March 21, 1986): 1455-1463.

183- Josephus, Antiquities, 18:2.2.

184- See "The Short List: The New Testament Figures Known to History," Biblical Archaeological Review 26, no. 6 (November/December 2002): 34-37.

185- See "The Short List: The New Testament Figures Known to History," Biblical Archaeological Review 26, no. 6 (November/December 2002): 34-37.

١١. الأسباب العشرة الرئيسية التي تؤكد لنا صحة أقوال كُتَّاب العهد الجديد

١٨٦- لشرح لهذه الأقوال وأكثر من ٨٠٠ آية أخرى يتساءل حولها الشكوكيين، انظر Norman Geisler and Thomas Howe, When Critics Ask (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1992).

187- See Gary Habermas, The Historical Jesus (Joplin, Mo.: College Press, 1996), 205.

188- See Geisler and Howe, When Critics Ask, 21.

189- Simon Greenleaf, The Testimony of the Evangelists (1874; reprint, Grand Rapids, Mich.: Baker, 1984), 9-10.

190- The Gospel of Peter. See Ron Cameron, The Other Gospels (Philadelphia: Westminster, 1982), 80-81.

191- N. T. Wright, The Resurrection of the Son of God (Minneapolis: Fortress, 2003), 603.

192- J. P. Moreland, interview by Lee Strobel, The Case for Christ (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1998), 250.

193- Charles Colson, "An Unholy Hoax?" Breakpoint commentary, March 29, 2002 (No. 020329). Posted online at http://www.epm.org/Unholy Hoax.htm.

194- From a speech delivered at the Mississippi College School of Law, reported at http://tmatt.gospelcom.net/column/1996/04/24/.

١٢. هل حقًا قام يسوع من الأموات؟

195- Gary R. Habermas, The Risen Jesus and Future Hope (Lanham, Md.: Rowman & Littlefield, 2003).

196- Habermas, Risen Jesus and Future Hope, 9-10.

197- William Lane Craig, in Paul Copan and Ronald Tacelli, eds., Jesus' Resurrection: Fact or Figment? A Debate Between William Lane Craig and Gerd Lüdemann (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2000), 56.

198- Quintilian, Declarationes maiores 6:9; referenced in Gary Habermas and Michael Licona, The Case for the Resurrection of Jesus (Grand Rapids, Mich.: Kregel, forthcoming).

199- William D. Edwards, Wesley J. Gabel, and Floyd E. Hosmer, "On the Physical Death of Jesus Christ," Journal of the American Medical Association 255, no. 11 (March 21, 1986): 1463.

200- See Gary Habermas, The Historical Jesus (Joplin, Mo.: College Press, 1996), 202-205.

201- See Paul Maier, In the Fullness of Time (Grand Rapids, Mich.: Kregel, 1991), 202; see also Habermas, Historical Jesus, 176.

202- Maier, ibid.

203- Seutonius, Claudius, 25; quoted in Habermas, Historical Jesus, 191.

204- Paul Copan, ed., Will the Real Jesus Please Stand Up? A Debate Between William Lane Craig and John Dominic Crossan (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1998), 65.

205- Ibid

206- C. S. Lewis, Christian Reflections, Walter Hooper, ed. (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1967), 209.

207- Craig L. Blomberg, The Historical Reliability of John's Gospel (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2001), 259.

208- See Edwin Yamauchi, "Easter—Myth, Hallucination or History?" Christianity Today (March 15, 1974; and March 29, 1974).

209- Gary Habermas and Michael Licona, The Case for the Resurrection of Jesus (Grand Rapids, Mich.: Kregel, forthcoming).

٢١٠- لمعالجة شاملة لهذه النظريات البديلة للقيامة، انظر المرجع السابق.

٢١١- شكرًا لجاري هابيرماس Gary Habermas لهذه النقطة (personal conversation, July 29, 2003)

212- Quoted in Paul Copan and Ronald Tacelli, eds., Jesus' Resurrection, Fact or Figment? A Debate Between William Lane Craig and Gerd Lüdemann (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2000), 181.

213- In ibid.

214- Copan, ed., Will the Real Jesus Please Stand Up? 61-62, emphasis added.

215- See Paul Maier, Eusebius: The Church History (Grand Rapids, Mich.: Kregel,

1999), 57, 81.

216- *Adapted from "Arise, Sir Knight," a sermon by James Allan Francis, in The Real Jesus and Other Sermons (Philadelphia: Judson, 1926), 123-124.*

١٣. مَنْ هو يسوع: الله؟ أم مجرد مُعَلِّم أخلاقي عظيم؟

٢١٧- شهادة باري مأخوذة من الفصل الخاص به في *Norman Geisler and Paul Hoffman, eds., Why I Am a Christian: Leading Thinkers Explain Why They Believe (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2001), 205-221;* ومن محادثاتنا الشخصية معه.

218- *Larry R. Helyer, Yesterday, Today and Forever: The Continuing Relevance of the Old Testament (Salem, Wis.: Sheffield, 1996), 318.*

٢١٩- لشرح تفصيلي لهذه النبوة، انظر *Harold Hoehner, Chronological Aspects of the Life of Christ (Grand Rapids, Mich.: Zondervan, 1978), 115-138.*

220- *J. Barton Payne, Encyclopedia of Biblical Prophecy (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1973), 665-670.* "باين" حدد أيضًا ٩٥ نبوة مسيانية لمجيء المسيح الثاني (٤٢ في العهد الجديد و٥٣ في العهد الجديد).

221- *Philip B. Payne, "Jesus' Implicit Claim to Deity in His Parables," Trinity Journal, 2 NS (1981), 17.*

222- *C. S. Lewis, Mere Christianity (New York: Macmillan, 1952), 54-55.*

223- *Ibid., 55-56.*

224- *Peter Kreeft, "Why I Believe Jesus Is the Son of God," in Geisler and Hoffman, eds., Why I Am a Christian, 228-229.*

225- *Lewis, Mere Christianity, 145.*

١٤. ماذا علَّم يسوع عن الكتاب المقدس؟

٢٢٦- فيما عدا العنوان، هذا الجدول مأخوذ من *Norman Geisler and William Nix, General Introduction to the Bible (Chicago: Moody, 1986), 85.*

227- *Quoted in Jeffrey L. Sheler, Is the Bible True? (San Francisco: Harper SanFrancisco, 1999), 78.*

228- *Ibid., 80.*

229- *Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999).*

230- *For sermon tapes by Andy Stanley, see www.northpoint.org.*

٢٣١- لقائمة بالمعجزات الكتابية، انظر *"Miracles in the Bible," in Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics.*

232- *Bruce Metzger, interview by Lee Strobel, The Case for Christ (Grand Rapids,*

Mich.: Zondervan, 1998), 69.

233- *Irenaeus, Adversus haereses, 3.3.4.*

234- *From Geisler and Nix, General Introduction to the Bible, 294.*

235- *See Norman Geisler and Thomas Howe, When Critics Ask (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1992); and Norman Geisler, Systematic Theology, vol. 1 (Minneapolis: Bethany, 2002), chapter 27.*

236- *Augustine, Reply to Faustus the Manichaean, in P. Schaff, ed., A Select Library of the Nicene and Ante-Nicene Fathers of the Christian Church, 14 vols. (1st series, 1886–1894; reprint, Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1952), 11.5.*

١٥. الخلاصة: القاضي، والملك العبد، وسطح العلية

237- *For a discussion of how God can be sovereign and humans remain free, see Norman Geisler, Chosen but Free, 2nd ed. (Minneapolis: Bethany, 2001).*

238- *Philip Yancey, Disappointment with God (New York: HarperCollins, 1988), 109-110.*

239- *Ibid.*

240- *C. Truman Davis, M.D., "A Physician Analyzes the Crucifixion: A Medical Explanation of What Jesus Endured on the Day He Died." Posted online at http://www.thecross-photo.com/Dr_C._Truman_Davis_Analyzes_the_ Crucifixion.htm. Accessed October 9, 2003. Originally published in Arizona Medicine, March 1965, Arizona Medical Association. For additional information on the death of Christ see, William D. Edwards, Wesley J. Gabel, and Floyd E. Hosmer, "On the Physical Death of Jesus Christ," Journal of the American Medical Association 255, no. 11 (March 21, 1986): 1463.*

241- *C. S. Lewis, The Great Divorce (New York: Macmillan, 1946), 72.*

242- *C. S. Lewis, Mere Christianity (New York: Macmillan, 1943), 65.*

٢٤٣- للمزيد عن النار والاعتراضات عليها، انظر *Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999), 308-313.*

م١. إن كان الله موجوداً، فلماذا الشر؟

1- *For a discussion of how God can be sovereign and humans remain free, see Norman Geisler, Chosen but Free, 2nd ed. (Minneapolis: Bethany, 2001).*

2- *Augustine, The City of God, 14.1.*

3- *James Madison, in The Federalist, Benjamin F. Wright, ed. (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1961), 356.*

٤- لمعالجة أوفى لمشكلة الشر، انظر *Norman Geisler, Baker Encyclopedia of Christian Apologetics (Grand Rapids, Mich.: Baker, 1999). See also Peter Kreeft, Making Sense Out of Suffering (Ann Arbor, Mich.: Servant, 1986).*

٣٥. لماذا لا يتحدثُ سمينار يسوع عن يسوع؟

1- See Forum, vol. 1 (March 1985).

2- Ibid., 7, 10.

فهرس الموضوعات

ب

ن

هـ

فهرس الشواهد الكتابية

مرقس

لوقا

يوحنا

أعمال

رومية

عن الكاتبين

نورمان ل. جايسلر: يعرِّفونه على أنه كاتب، محاضر، متحدِّث، فيلسوف، مختصّ في الدفاعيات، كارز، ولاهوتي. كتب وشارك في كتابة أكثر من مئة كتاب، تُرجم منها إلى بضعة لغات، عدا مئات من المقالات. حاصل على مجموعة من الدرجات العلمية من عدة جامعات مرموقة من ضمنها الماچستير في اللاهوت من *Wheaton Graduate School* والدكتوراه في الفلسفة من *Loyola University* بشيكاجو. درَّس اللاهوت والفلسفة والدفاعيات على المستوى الجامعي والدراسات العليا، في عدة جامعات مشهورة، وكان عميدًا لعدد منها مثل الجامعة اللاهوتية الإنجيلية الجنوبية *Southern Evangelical Seminary* والتي ترأس إدارتها بعد ذلك حتى ٢٠٠٦. له مناظراته المشهورة مع الكثيرين في موضوعات الدفاعيات المختلفة في شتى أنحاء أمريكا بالإضافة لأكثر من عشرين دولة أخرى. مزيد من المعلومات تجدها في *normangeisler.com/about/*.

فرانك تورِك: يحمل درجة الماچستير من جامعة چورچ واشنطن *George Washington University*، والدكتوراه من الجامعة اللاهوتية الإنجيلية الجنوبية *Southern Evangelical Seminary* في الدفاعيات المسيحية. كتب وشارك في كتابة ٤ كتب، وحصل مع نورمان جيسلر على جائزة *Evangelical Christian Publishers Association's Gold Medallion award* على كتابنا هذا. رئيس موقع *CrossExamined.org* وله برنامج تلفزيوني بعنوان "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد"، وبرنامج إذاعي بعنوان *Cross Examined with Frank Turek*، كما يحل ضيفًا على العديد من البرامج التلفزيونية والإذاعية. كاتب عمود بعدة مواقع إخبارية. خدم كطيار في سلاح البحرية الأمريكي. متكلم معروف على مستوى المدارس الثانوية والجامعات في الدفاعيات. ناظر عدة ملحدين مشهورين. مزيد من المعلومات تجدها في *crossexamined.org/dr-frank-turek/*.

لزمن طويل، في ثقافتنا الشرق أوسطية، لم تكن الأغلبية تشعر بالحاجة للسؤال عن وجود الله؛ فقد كان من المسلَّمات التي يبدأ التفكير بعدها في باقي الأسئلة. بل إن البعض كانت مسلَّماتهم تكفيهم عن البحث في موضوع "الله؟" بجملته. لكننا اليوم نرى الحاجة الملِحة للبحث في هذا الموضوع بأكثر تدقيق وإخلاص.

"لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد" هو أحد الكتب الجادة، المتميزة بشمولها، والسلسة في لغتها لتصل للجميع، يخوض ببراعة هذا الموضوع. فكاتباه من المختصين ولهما العديد من الكتب في هذا المجال، ينتهجون أسلوبًا علميًا منطقيًا في معالجة الأمر. بداية من إثبات أن هناك "حق" ينبغي البحث عنه، وعكسه هو الضلال. مرورًا بالحجة تلو الأخرى لإثبات أن وجود الله خالق الكون وحافظه ثابت بأدلة لا تترك مكانًا للشك فيه. وإذ يفنِّد، بالعلم الموثَّق وبالمنطق السليم، النظريات البديلة لوجود خالق، يترك الإلحاديين والتطوريين أمام ثغرات عليهم مواجهتها في نظرتهم، وقد علموا أنهم يحتاجون إيمانًا أكثر ليصدِّقوا ما يعتقدون فيه.

ثم يغوص الكاتبان صوب نظرة المسيحية عن الله، وقلب إيمانها. ليصل إلى من هو المسيح، كلمة الله المتجسد، وحجية الكتاب المقدس، كلمة الله المكتوبة.

كتاب سيضيف إليك الكثير، وسيغيِّر من نظرتك لأمور هامة.

قالوا عن الكتاب

"واضح، متكامل، شديد الإقناع والجاذبية. هذا المرجع الرائع يساعد كلاً من المسيحيين ومَن لا يزالون في رحلة البحث في فهم الأساس العقلاني للمسيحية. لو كان متاحًا عندما كنت ملحدًا، لوَفَّر الكثير من الوقت في مسيرتي الروحية نحو الله".

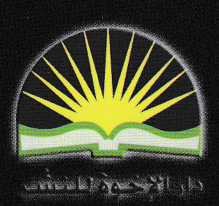
لي ستروبل (مؤلِّف كتاب "القضية المسيح" وكتاب "القضية الإيمان")

"هذا الكتاب الشيق السلس يَسوق الحجج والأدلة المؤيِّدة للمسيحية ببراعة فائقة بدءًا بمسألة الحق وانتهاءً بوحي الكتاب المقدس. والخلاصة: المسيحي يقف على تلال من الأدلة الراسخة، بينما المتشكك لا يتشبث إلا بإيمانه الأعمى المتصلب. فإن ظللتَ متشككًا بعد قراءة كتاب "لا أملك الإيمان الكافي للإلحاد"، فإني أشك أنك تعيش حالة من الإنكار".

چوش ماكدول (متحدث ومؤلِّف كتاب "برهان جديد يتطلب قرارًا")

"جَمَعَ "جايسلر" و"تورك" مجموعة ضخمة من الأسئلة الشائكة، وكدأبهما دائمًا، أجابا عنها بمهارة وبصيرة ثاقبة. إن هذا العمل يمثِّل إضافة قيِّمة للكتابات المعاصرة في الدفاعيات المسيحية".

رافي زكراياس (رئيس هيئة "خدمات رافي زكراياس الدولية")





ISBN 978-977-321-300-8